سلسلة تاريخ العرب والإسلام

دولة الرسول ﷺ في المدينة

دراسة في تكوّنها وتنظيمها

د. صالح أحمد العلي

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

دولة الرسول ﷺ
في المدينة



الدكتور صالح أحمد العلي

دولة الرسول ﷺ في المدينة

دراسة في تكوّنها وتنظيمها

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص. ب.: ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢١/٢ (٠١)

تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ (١ ٩٦١)

e-mail: allprint@cyberia.net.lb

الطبعة الأولى ٢٠٠١

تنفيذ الخرائط: جيوبروجكتس

تصميم الغلاف: عباس مكي

الاخراج الفني: زاهية عاصي

تقديم

هذا الكتاب دراسة عن قيام دولة الإسلام في المدينة، وتطور تنظيمها، وتوسعها، وامتدادها، وتثبيتها، في شبه جزيرة العرب، إبَّان حياة الرسول (ص)، وما هو وثيق الصلة بها مما حدث في زمن خلافة أبي بكر الصديق. وهو مُكمِّل لدراستنا التي نشرناها منذ سنوات عن تاريخ العرب قبل الإسلام، والدعوة الإسلامية في مكة، ومُمَهِّد لدراسة تالية عن امتداد الدولة وتطوراتها في صدر الإسلام. فهو حلقة من سلسلة الغرضُ من كتابتها متابعة تطور تاريخ العرب.

ويكتسب هذا الكتاب أهميَّة خاصة لأنه يبحث حِقْبة اتَّسمت بتطورات عميقة شاملة، تناولت مختلف جوانب الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية والإدارية، ممَّا جعلها متميزة أساسياً عما سبقها، وكان لها الأثر الأكبر في توجيه مجرى الحياة بعدها.

تشمل هذه الدراسة جانباً مهماً من حياة الرسول (ص) منذ أن هاجر إلى المدينة. والهجرة حدث تاريخي فاصل، أدرك المسلمون الأولون أهميته المميَّزة، فاتخذوه، دون سواه من الأحداث، بداية للتقويم الإسلامي. فكان ذلك مظهراً لإدراكهم العميق الصائب لأهمية الهجرة في مجرى الأحداث.

إن الحدث الأساسي الفاصل، في تاريخ العرب والمسلمين، هو مجيء الإسلام، بنزول الوحي في مكة مما كان أساساً لكل التطورات. إلا أن الهجرة إلى المدينة، والاستقرار فيها، كان بداية تكوُّن الدولة التي حقَّقت الرسالة،

وأمّنت حماية حَمَلَتِها وتوجُّهاتهم. وقد أظهر مجرى الحوادث في العهد المكيّ ان الدعوة، مهما كان سمو رسالتها، وسلامة مبادئها في تحقيق السعادة، فإنها لا تتثبَّت وتعمّ من دون كيان سياسي يوطدها ويدعمها ويَصُونها. والحق أن الإسلام حقق بعد الهجرة بناء الدولة السياسي، وأتمَّ بمدة قصيرة إنجازات في توضيح معالم الإسلام، وتثبيته في النفوس، وتوسيع دولته وامتدادها، بعد تغلُّبه على الكثير من العقبات. وفي ذلك يقول السخاوي: إن الهجرة هي «وقت استقامة دولة الإسلام، وتَوَالي الفتوح، وترادُف الوفود، واستيلاء المسلمين أصلاً لأنه مما يُتَبرَّك به ويعظُم وقعه في النفوس»[١]. ويقول الشعبي: ان «مهاجره فرّق بين الحق والباطل»[٢]. ويقول علي بن خلف: ان الهجرة «مبدأ الإسلام»[٣]. ويقول خليفة بن خياط: إن الهجرة «هُجِرت فيها دار الشرك إلى دار الإيمان»[٤].

ولا ريب في أن الدعوة الإسلامية هي الأساس الأول والأوطد لكل التطورات، إلاّ أن هجرة الرسول إلى المدينة يَسَّرت له قاعدة يؤمن أهلها بالإسلام، ويؤيدون الرسول (ص) ويَسْنُدونه، مما مكَّنه أن يؤسِّس دولة يَسِير أهلها على هَدْيِ الإسلام وتُيَسِّر لهم زيادة الاهتمام بالأمور السياسية والإدارية، إلى جانب الاهتمام بالدعوة ونشْرها وتوضيح معالمها وتثبيت فرائضها.

والفضل الأكبر في صياغة هذا التطور وتوجيهه يرجع إلى الرسول (ص): فقد كان، لرسالته التي اختاره الله لتبليغها، ونظرته الثاقبة، وإدراكه الفذ، وسجاياه المتميزة، الأثر الأكبر في إقامة بناء الدولة على الأسُس التي كَفِلت لها الاستقرار والتوطُّد والثبات، عبر أزمنة مديدة، تغلّبت خلالها على كثير من

(١) الإعلان بالتوبيخ للسخاوي: ٣٣١.
(٢) الطبري: ١/١٢٥١ عن الشعبي.
(٣) مواد البيان: ٥٠٤.
(٤) تاريخ خليفة بن خياط: ٧.

التحديات المنوَّعة، التي لم تُفلح في طَمْسها والقضاء عليها. ولا ريب في أن من أروع مظاهر عبقرية الرسول إدراكه الصائب لأحوال المجتمع، ونظرتَهُ النفَّاذة إلى ما تجب معالجته لتحقيق المُثل التي دعت إلى تطبيقها الرسالة الإسلامية. فدور الرسول (ص) لا ينحصر في تبليغ الرسالة العظيمة، وإنما يمتد إلى جهوده الموفَّقة في تحقيقها عملياً، وتأصيلها في نفوس الناس بما ضَمِنَ لها الديمومة والبقاء. وهذا الكتاب لا يشمل دراسة كل جوانب حياة الرسول (ص) الغنية، وإنما يقتصر على دراسة جوانب محدَّدة ترتبط بإقامة الدولة وتنظيمها وما اتصل بذلك العمل.

وكانت خلافة أبي بكر القصيرة وثيقة الاتصال بإنجازات الرسول (ص) في بناء المجتمع والدولة. فقد وُلِّي أبو بكر الخلافة بعد أن أكمل الله تعالى الدين وأتم نعمته، ورضِيَ أن يكون الإسلام دينهم. وكان لاتصاله الوثيق بالرسول (ص)، منذ بدء الدعوة في مكة، ومرافقته له بعد الهجرة، الأثر الأكبر في تشبُّعه بروح الإسلام، وتفهُّمِه مُثُلَه، وإدراكِه ما ينبغي عمله لتثبيت الدولة واستقرارها، وإعدادها لحمل الرسالة إلى العالم.

تُوفِّيَ الرسول (ص) بعد أن أُكملت الرسالة، وتم بناء الدولة وامتدادها في أرجاء الجزيرة. وبوفاته خُتم نزول الوحي، وكان على من يتلوه في رئاسة الدولة، والإشراف على شؤون الأُمَّة، أن يتابع نشر الرسالة وتوسيع الدولة.

والواقع أن أبا بكر واجَهَ قضايا خطيرة كانت معالجته الموفقة لها عاملاً حاسماً في بقاء الكيان الذي شَيَّده الرسول (ص)، وإعدادِه للدور الواسع في العالم. وكان دليله، في هذه المعالجة، مبادئ الإسلام التي تَشَبَّع بها، وتفهُّمه العميق لأفكار الرسول (ص) الناجم عن صحبته الطويلة واتصاله الوثيق به. فإذا كان الوحي قد انقطع بوفاة الرسول (ص)، فإن الأحداث التي واجهها الخليفة الأول كانت امتداداً وثيق الاتصال بالتطورات في السنين الأخيرة من حياة الرسول (ص)، بحيث يكون فصلهما أمراً مصطنعاً ومُرْبِكاً للقارئ. وهذا مبرِّر

عدم توقف الرسالة عند وفاة الرسول (ص)، ومبرِّر متابعة سير الحوادث إلى أن تم تثبيت الإسلام وسلطة الدولة في كل أرجاء جزيرة العرب.

إن الدراسة الحالية تقدم صورة عامة لمجرى الأحداث في حياة الرسول (ص) وَبُعَيد وفاته. وكثير من الحقائق التي وردت فيها معروفة في ما نشر من كتب ودراسات سابقة، وقد روعي في عرضها إظهار الأحوال القائمة التي كان لها أثر في مجرى الأحداث. وبذلك استَهْدَفت ربط الأحداث المنفردة بالأحوال العامة، مما يُعِين على فهم أسلم لمكانتها وأهميتها ومساراتها. ومن مظاهر عظمة الرسول (ص) إدراكه الثاقب لتلك الأحوال، وأعماله الناجحة في الإفادة منها في تحقيق الإنجاز الباهر الذي توصل إليه. فالدراسة راعت متابعة الأحداث وتلاحُمَها مع الأوضاع العامة القائمة، ولم تقتصر على سرد الأحداث السياسية والحربية، وإنما امتدت إلى تقدير أهمية الأحداث، وإلى معالجة الجوانب الاجتماعية والإدارية والأخلاقية التي أُبرزت، بعد دراسةٍ دقيقة وتأمل هادئ، ومحاولةٍ للنظر في الأحداث والأحوال كما كانت في حينها، مع تجنُّب المبالغات التي أضافها عدد من المتأخرين، والتوجُّهات المُقَوْلبة التي حاول البعض صب الأحداث فيها. وكان رائدنا فيها عرض الحقيقة كما تراءت لنا.

ولقد بحث عدد من المؤرخين العرب حركات الرِّدَّة والانشقاق في مؤلفاتهم عن التاريخ العام، وألَّف بعضهم كتباً خاصة بهذه الحركات، ذكر منهم ابن النديم ابا مخنف (١٣٧) وعلي بن محمد المدائني (١٤٩) وأبا اسحاق العطار (١٥٩) ومحمد بن عمر الواقدي (١٤٤). وقد فقدت الكتب الثلاثة الأولى ولم يَنْقل عنها أحد من المتأخرين؛ أما الواقدي، فقد بقيت من كتابه قطعة، وما نقله عنه عدد من كتب التاريخ العام وأخصها تاريخ الطبري، و«فتوح البلدان» للبلاذري، و«عمدة القاري» للعيني.

ومن الباحثين الأقدمين في أخبار الرِّدَّة ابن اسحاق الذي لم يصلنا كتابه في الموضوع، ولكن وصلتنا معلومات منه نقلها عدد من مؤلفي كتب التاريخ، وخاصة خليفة بن خياط والبلاذري والطبري. ومن هؤلاء الباحثين وثيمة الذي

نَقَل عن عدد ممن سبقه، ونَقَل عنه بعض المتأخرين، وخاصة ابن حَجَر العسقلاني، وجَمَع هونرباخ ما نقله ابن حجر عن وثيمة.

وأهم كتابين في أخبار الحوادث التي يدرسها هذا المجلد هما: «فتوح البلدان» للبَلَاذُري، و«تاريخ الرسل والملوك» للطبري؛ وقد نقلا عن المصادر الأسبق، وخاصة عن ابن اسحاق والواقدي. ويتميز الطبري بالمعلومات المسهبة التي نقلها عن سيف بن عمر، وتتميز هذه المعلومات بتفاصيلها، وان لم تكن كلها دقيقة.

أما الدراسات الحديثة، فاوسعها ما كتبه كايتاني في «حوليات الإسلام» (بالايطالية ومترجم الى التركية)، وقد نَقَل معظم المعلومات التي في المؤلفات العربية وعدد من المؤلفات الأجنبية مع تعليقات قيمة. ونشر طه الهاشمي بحثاً قيماً عن «خالد بن الوليد وحروب الردة» نشره في مجلة الرسالة ثم في كتاب مستقل، أفاد فيه كثيراً من دراسة كايتاني. وأحدث كتاب واسع هو كتاب «الرِّدَّة» لشوفاني (بالانكليزية).

أما وصف الأرض وأهلها فقد اعتمدنا فيه على الكتب البلدانية المعتمدة وأخصها «معجم البلدان» لياقوت الحموي، و «معجم ما استعجم» للبكري؛ وكل منهما فيه مادة غنية مستمدة من مصادر أُلِّفت في القرون الإسلامية الأولى، وكثير من معلوماتها تتصل بأحوال الفترة التي ندرسها، وهي توضح كثيراً من المعلومات الواسعة التي تذكرها كتب التاريخ؛ واعتمدنا، في دراسة اليمن وحضْرَموت بصورة خاصة، على كتابَيْ «صفة جزيرة العرب» و«الاكليل» لابن الحائك الهمداني الذي ألف كتابيه في القرن الرابع الهجري، ولكن مادتهما مفيدة في توضيح حوادث صدر الإسلام.

ولقد أفدنا من المعلومات والآراء المعروضة في المؤلفات العربية القديمة، والدراسات الحديثة، ووضعناها ضمن نطاق الهيكل الذي وضعناه في الكتاب، ورائدنا تقديم صورة للأحداث وتطورها تسدّ حاجة القارئ الطُّلَعة، وتخدم الباحثين في الموضوع. ولا ندَّعي الإحاطة بكل جوانب التطور الهائل وسيرة

الرسول (ص) وصَحْبه، الذين أسهموا في ذلك التطور، كما لا نزعم الكمال، وإنما نرجو أن نكون قد قدمنا صورة صادقة للجوانب التي بحثناها من التطور ترضي المعنيين بهذه الفترة، الطامحين إلى المعرفة والتأمل.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة]. صدق الله العظيم

الدكتور صالح أحمد العلي

مصادر دراسة حياة الرسول (ص)

القرآن الكريم وكتب التفسير

نزل ما يَقْرُب من ثلثي آيات القرآن الكريم في المدينة بعد الهجرة. وقد ورد في كثير من هذه الآيات، ذكرٌ صريح لعددٍ من الحوادث التي مرت بالمسلمين في المدينة، وأُشير إلى عدد آخر منها. وما ذكره القرآن الكريم هو الأساس المعتمد لسيرة الرسول (ص). غير أنه لا بد من توضيحه وتفصيله وإكماله بما ذكره المعنيون بالسيرة والتاريخ. وقد شرح المفسِّرون هذه الآيات عموماً، وخَصَّ بعضهم الكلام عنها في ذكر أسباب النزول، وألَّفوا في ذلك كتباً اختصت بهذا الجانب، ومن أشهرها كتاب «أسباب النزول» للواحدي. ولا ريب في أن أوسع التفاسير المعتمدة هو تفسير الطبري الذي يتميز بِسَعته وشموله وعنايته بذكر أسماء ومساند من اعتَمَد عليهم. ومصدرُه الرئيس في تفاصيل ما أورده عن الحوادث هو مؤلفو السيرة وخاصة الزهري وعروة بن الزبير وابن اسحق.

كتب السيرة

وأقدم كتاب واسع وصَلَنا عن حياة الرسول (ص) هو «سيرة الرسول» التي كتبها ابن اسحاق (ت١٥٠) في الكوفة، واعتمد فيها على عدد ممن سبقه، وذكر كثيراً منهم، وأشار إلى بعضهم، وجمع أحياناً روايات عدة رُوَاة[١]. إلا أن

(١) انظر ما كتبناه عن مصادر سيرة الرسول (ص) لابن اسحاق في كتابنا «محاضرات في تاريخ العرب». وانظر «سيرة الرسول ومؤلفوها» ليوسف هوروفيتز، منشور في مجلة «الثقافة الإسلامية».

الكتاب لم يصلنا بالصورة التي كتبها بها ابن اسحق، وإنما بروايات رُوَاة يتجاوز عددهم الخمسين، نصفهم من أهل الكوفة، ومنهم ثمانية من أهل البصرة، وأربعة من أهل المدينة وثلاثة من أهل كل من الرّيّ، وواسط، وحرّان، ورواة منفردون من الجزيرة، والشام، وأيْلة، ومصر، ومَرْو، وبُخَارى[1].

غير أن أكثر الروايات شيوعاً: رواية عبد الملك بن هشام الحِمْيَري (ت٢١٨) عن زياد البكائي (ت١٨٣)، وروايتا يونس بن بكير، وسلمة بن الفضل الرازي. وقد اعتمد الطبري في تاريخه على رواية سلمة بن الفضل ونقل في تفسيره عنه وعن يونس بن بكير. كذلك رواية ابن هشام الذي يبدو أنه كان دقيقاً في النقل، ولكنه هذّب فيها، فحذف بعض الأخبار، وأبدى شكوكه في أصالة بعض القصائد التي رواها ابن اسحاق، وأضاف اليها تعليقات غير قليلة استمدها من مصادر أخرى، وبخاصة في ما يتعلّق بالشعر واللغة.

عَنْوَن ابن اسحاق القسم الثالث من كتابه في السيرة بـ «المغازي»، وخصصه بالحوادث التي واجهت الإسلام في المدينة، وتحدث، في هذا القسم، عن اتصال أهل المدينة بالرسول (ص) ثم الهجرة، فالمؤاخاة، فالصحيفة، فموقف اليهود والمنافقين، وذَكَر تفاصيل عن غزوات الرسول (ص) وسراياه، والوفادات عليه، ثم وفاتِه، وبعض المعلومات عن سيرته. وكان كتاب ابن اسحاق المصدر الأساسي لما ذكرته كتب التاريخ التي رُتبت معلوماتُها حسب السنين. ومن أقدم ما وصلنا منها تاريخ كل من خليفة بن خياط، واليعقوبي. ولكن أوسعها تاريخ الطبري الذي عُنِيَ بترتيب الحوادث حسب السنين، وذَكَر المصادر التي أخذ عنها، وأكْثَرُها عن ابن اسحاق. والمعلومات التي قدمها واسعة غنية، وكانت المعتَمَد الأساس للعدد الكبير من الكتب التي أُلِّفَت بعده إلى الأزمنة الحاضرة. وأبرز هذه الكتب القديمة «المغازي» الذي ألَّفه محمد بن عمر الواقدي ومعلوماتها لا تختلف كثيراً عما كتبه ابن اسحاق

(١) انظر في ذلك مقال مطاوع طرابيشي في مجلة اللغة العربية بدمشق: ٣/٥٦ سنة ١٩٨١ وكتابه المستوعب عن مغازي ابن اسحق ورواتها ١٩٩٥، وانظر المقدمة التي كتبها ألفرد جيوم في مقدمة ترجمته إلى الانكليزية لكتاب ابن اسحاق.

سوى أنه أورد بعض التفاصيل الفرعية، ومعلومات جغرافية عن مواقع الأماكن التي ذكرت في ثنايا السيرة، وكان كتاب الواقدي مُعتَمَدَ ما كَتَبَهُ تلميذه محمد بن سعد (ت٢٥٠) عن سيرة الرسول، في الجزءين الأول والثاني من كتابه «الطبقات».

ومن الكتب القديمة المعتمدة في سيرة الرسول (ص) كتاب «أنساب الأشراف» للبلاذُري، وجزؤه الأول، الذي يبلغ ستمائة صفحة، أكثرها عن حياة الرسول (ص) في المدينة، وفَصْلٌ منه في صفة الرسول وزوجاته ولباسه وسلاحه ورسله وكتّابه وعمّاله. ونَقَل عن الزهري في مائتين وخمسة عشر موضعاً، والواقدي في مائة وسبعين موضعاً، وابن اسحاق في نيف وخمسين موضعاً، بالإضافة إلى عدد من الرواة الآخرين وأخصُّهم الشعبي والمدائني، ولم يفصِّل في الغزوات. ويبدو أنه اعتَمَد، في ما فصَّل، على علي بن محمد المدائني، الذي ذكر ابن النديم اسماء كتُبٍ ألَّفها في هذه المواضيع التي لم يُعْنَ بها ابن اسحاق، ونَقَل عنه في خمسين موضعاً.

وذَكَر ابن النديم عدداً من المؤلفات القديمة في سيرة الرسول (ص)[1]، ولكن لم يبق منها إلا بعض مقتطفات متفرقة ومُخْتَلِفَة في طولها.

كتب الحديث

وعُنِيَ أهل الحديث بجمع أخبار الرسول (ص) وأقواله، وذكروا معلومات عن سيرته، والكتب القديمة المعتمدة في الحديث عند أهل السنة هي: كتاب «الصحيح» لكل من البخاري ومسلم، و«السنن» لكل من أبي داوود، والترمذي، والنَّسائي، وابن ماجة، والدارمي، وأكثرها مرتبة على أبواب الفقه، وفيها

(١) وردت قائمة بها نشرناها في كتاب «علم التاريخ عند المسلمين» ص(٢٧٦ ـ ٢٧٨). واجتناباً لحشو الهوامش بالمصادر، لم نشر إلى مظانّ الحقائق التي ذكرتها الكتب المتأخرة عن ابن اسحاق، واقتصرنا على ذكر ابن اسحاق، وابن سعد، والبلاذري، وبعض كتب الحديث فحسب. وانظر عن مؤلفي المغازي الأوَّلين كتاب «تاريخ التراث العربي» لفؤاد سزكين: المجلد الخاص بالتاريخ.

فصول عن غزوات الرسول (ص) وأعماله في المدينة، وكثير منها يطابق ما رواه أهل المغازي، عن أعماله وأحكامه وعلاقاته.

ومن أوسع كتب الحديث مُسْند أحمد بن حنبل، الذي رَتَّبَ مادته تبعاً للرواة. وقد نَظَّم فنسنك، في كتابه الذي ترجمه محمد فؤاد عبد الباقي بعنوان «مفتاح كنوز السُنّة»، ما جاء في الكتب المذكورة آنفاً، وفي كتاب «الموطأ» لمالك بن أنس تبعاً لمواضيعها، فأشار، في كل موضوع، إلى أماكن الإشارات إليها في تلك الكتب. ويتبين من تدقيق الكتاب أن ابن حنبل فاق الآخرين في المعلومات التي أوردها عن سيرة الرسول (ص)، إذْ نقل معلومات غير قليلة لم ترد في الكتب الأخرى.

إن معظم ما جاء في كتب الصحاح عن غزوات الرسول (ص) لا تزيد كثيراً عما ورد في كتب المغازي، ولكنّ فيها معلومات واسعة لها أهمية متميزة عن تنيظماته في ميادين الحياة الأخرى.

كتب الفقه

تبحث كتب الفقه، في الأساس، التصرفات المطابقة لمتطلبات الإسلام، وفيها معلومات كثيرة عن سيرة الرسول (ص) وأعماله نظراً إلى أن سُنّتَه هي، بعد القرآن الكريم، المصدر الثاني للتشريع الإسلامي. ويختلف مقدار ما يتعلق بالرسول (ص) من معلومات في كتب الفقه، ولعل أوسع مادة مذكورة في الكتب هي المادة المختصة بالأمور المالية. ومع ان أقدم ما وصَلَنا منها هو كتابا «الخراج» لكل من أبي يوسف (ت١٨٢)، ويحيى بن آدم (ت٢٠٥)، فإن أوسعها هو كتاب «الأموال» لأبي عبيد القاسم بن سلام الذي ذكر كثيراً من أعمال الرسول (ص) وتنظيماته المالية، بالإضافة إلى معلومات عن أحكام عدد من الأوَّلين من الخلفاء تتعلَّق بضرائب الأراضي من خراج وعشور، وجزية، وتتعلق بالغنائم، والزكاة. وقد نقل ابن زنجويه، في كتابه «الأموال»، معظم ما ذكره أبو عبيد، وزاد عليه إضافات قليلة.

ويمكن أن نَعُدَّ من كتب الفقه الكُتُبَ التي عنوانها «الآثار» أو السنن، إذ أن فيها معلومات واسعة عن أعمال الرسول (ص) وتنظيماته. وأوسع ما وَصَلنا من كتبها الأولى كتاب «الآثار» لابن أبي شيبة (ت٢٣٥)، و«مصنف» عبد الرزاق الصنعاني (ت٢١١)، وكتاب «السنن» للبَيْهَقي الذي نُقل معظم ما ذكره ابن أبي شيبة وأضاف إليه معلومات من كتب أخرى.

تهتم كتب الفقه بالدرجة الأولى بوصف العبادات والمعاملات والأحكام، وتُعْنى بوصف الشرعي السائد بين المسلمين مع التعليلات القانونية، فما يَرِد فيها من معلومات إنما هو مادة أولية للدراسة التاريخية التي تُعْنى بالحوادث وتطوراتها التاريخية، ويَخْرُج عن نطاقها كثير من أخبار حياة الرسول (ص)، فما يَرِدُ فيها عن تطور الأحوال مهم جداً ولكنه غير شامل.

كتب الشمائل

إن مكانة الرسول (ص) المتميزة، في الإسلام وعند المسلمين، كانت دافعاً لمؤلَّفات عن صفاته وأخلاقه وشمائله ودلائل نُبُوَّته. وقد ذكر ابن النديم عدداً من المؤلفين الأولين في ذلك ومنهم أبو البختري الذي أَلَّف «صفة النبي»، والهيثم بن عَدِيّ الذي أَلَّف «وفود النبي»، والواقدي الذي أَلَّف «أزواج النبي»، والمدائني الذي أَلَّف أربعة وعشرين كتاباً كل منها عن جانب من حياة الرسول (ص) وأعماله، وكل هذه الكتب مفقودة، وأقدم ما وصلنا منها ما كتبه ابن سعد في طبقاته عن هذه الجوانب من حياة الرسول (ص) ثم تتابعت الكتب في ذلك، واختلفت في سعتها ومدى إطْنابها، وهي على أي حال تُعْنى بالجوانب الأخلاقية وشمائل النبي.

كتب الأنساب وتراجم الرجال

إن مكانة الرسول (ص) المتميزة لا تحجب دور الصحابة في تعزيز الإسلام وبناء دولته. وفي سِيَرِهم معلومات واسعة عن أثر الرسول (ص) فيهم وعن إسهاماتهم في أعماله وتنظيماته. ولما كان معظم الصحابة قد تُوُفُّوا بعده، فإن

كثيراً من المعلومات عنهم تتعلق بمعاصرتهم له، إلا أن قسطاً غير قليل منها يمتد إلى ما بعد وفاته، فهي ذات فائدة في دراسة الأحوال في زمن الرسول (ص) وبعده.

وأبسط مظاهر صورة الصحابة تظهر في كتب الأنساب التي تُعْنَى بذكر الأشخاص وعلاقاتهم النسبية وتشير إلى بعض أعمالهم، وقد اعتمد ابن سعد في كلامه عن أنساب الصحابة على محمد بن عبد الله الأنصاري، وموسى بن عقبة (ت١٤١)، وهشام بن محمد الكلبي (ت٢٠٤).

فاما محمد بن عبد الله الأنصاري، فيبدو، مما نقله عنه ابن سعد، أنه عُنِيَ بأنساب الأنصار المسلمين من أهل المدينة. وأما موسى بن عقبة فعُنِيَ بأنساب الأنصار والمهاجرين ممن شارك في بدر خاصة، إضافةً إلى بحثه عن سيرة الرسول (ص) وأعماله. ومع أن ما نُقِلَ عنه يدل على أنه موثّق، إلا أن كتابه لم يحظَ بالرواج الذي حظي به كتاب ابن اسحاق، ولم تبق منه إلا مقتطفات غير قليلة متناثرة في الكتب.

أما هشام بن محمد الكلبي، فقد وصلنا كتابه «جمهرة النسب» برواية محمد بن حبيب، وبمقتطفات غير قليلة تُظهر مدى توثيق المتأخرين له[1]. وهذا الكتاب واسع يشمل أنساب العرب جميعاً، ومنهم معظم الصحابة، وهو يقتصر على ذكر الأشخاص وعلاقاتهم النسبية، وإشارات إلى بعض ما تميزوا به أو أعمالهم الإدارية، فهو يقدّم مادة أوَّلية أساسية لمعرفة المسلمين، ولم يَطْغَ عليه أيٌّ من الكتب الأخرى الكثيرة التي أُلِّفت في الأنساب.

ومما وصلنا من كتب النسب كتاب «نسب قريش» لِمُصْعب الزبيري، وهو محدد برجال قريش، وفيهم كثير مِمَّن عاصر الرسول (ص) وشارك في حوادث وقعت في زمنه، ومعلوماته غنية عن علاقاتهم النِّسَبِيَّة، ولكنها مقتضبة عن أعمالهم.

---

(١) صدرت حديثاً طبعتان للكتاب إحداهما في ثلاث مجلدات بتحقيق محمود فردوس العظم، والثانية بتحقيق الدكتور ناجي حسن؛ وسبق ان طبع عبد الستار فراج بعض أصوله في الكويت.

أما أنساب أهل اليمن، فقد تناولها في مجلد خاص منه نسخة فريدة في الاسكوريال طبعها محمد فردوس، وأوسع المصادر عنها كتاب «الإكليل» لابن الحائك الهمداني الذي بقيت منه أربعة أجزاء من مجموع عشرة أجزاء، فيها معلومات واسعة عن أنساب أهل اليمن وفيهم عدد غير قليل ممن عاصر الرسول (ص) واتَّصل به. ومما يتصل بهذا كتابه «صفة جزيرة العرب» الذي يُعَدّ أوسع كتاب في وصف جغرافية اليمن وبعض أجزاء شبه جزيرة العرب التي امتد إليها الإسلام.

وفي كتب الرجال معلومات أوسع عن الصحابة ممن عاش مع الرسول (ص). وأقدم ما وصَلَنا منها «طبقات» خليفة بن خياط (ت٢٤٠). غير أن أوسع الكتب القديمة هو كتاب «الطبقات الكبير» لابن سعد: فقد خَصَّ المجلدات الخمسة الأخيرة، من كتابه المكون من ثمانية مجلدات، بالصحابة والتابعين مرتَّبين تبعاً لزمنهم وأماكن إقامتهم، وفصَّل في الصحابة البارزين، وفي الأتقياء من المتأخِّرين، فذكر علاقتهم بالرسول (ص)، وشمائلهم وحياتهم الخاصة والعامة. واعتمد، في ذلك، على رُواةٍ فُقِدت كتبهم، فكان المصدر الأول من حيث قِدَمُه وسَعَتُه، واعتمده المتأخرون في كتبهم عن الصحابة وخاصة ابن عبد البر في «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»، وابن الأثير في «أسد الغابة في معرفة الصحابة»، الذي اعتمد أيضاً على كتب ابن مندة وأبي نعيم الأصفهاني وأبي موسى الأصبهاني، وابن حجر في «الإصابة في معرفة الصحابة»، والأخير نَقَل كثيراً عن عدد كبير من المصادر، وهذه الكتب الثلاثة هي المشهورة من عشرات الكتب التي أُلِّفت عن الصحابة، بما في ذلك السِيَرُ المفردة لأشخاص منهم، أو الكتب العامة لعدد من الصحابة، بما في ذلك كتب لرجال الحديث.

وفي كتب رجال الحديث، ذِكْرٌ للصحابة وأنسابهم، وأخبارٌ مقتضبة عن حياتهم. ومن أقدم ما وصَلَنا منها كتاب «الطبقات» لخليفة بن خياط (ت٢٤٠) و«المعرفة والتاريخ» ليعقوب بن يوسف الفسوي (ت٢٧٧) و«التاريخ الكبير» لمحمد بن اسماعيل البخاري (ت٢٥٦)[١].

(١) انظر: أكرم العمري: بحوث في تاريخ السنة المشرفة.

كتب تواريخ البلدان

وفي تواريخ المدن معلومات عن الأحوال الجغرافية والاقتصادية والإدارية والسكانية والعمرانية التي كانت في زمن الرسول (ص) أو بعده. وللكتب عن مدن الحجاز، وخاصة مكة والمدينة، أهمية خاصة في دراسة نشأة دولة الإسلام في زمن الرسول (ص) خاصة؛ ولم يصلنا من الكتب الأولى عن تواريخ المدن سوى بعض «تاريخ المدينة» لعمر بن شبَّة، و«أخبار مكة» للأزرقي، و«تاريخ مكة» للفاكهي، و«فتوح مصر» لابن عبد الحكم. غير أن بعض الكتب المتأخرة ضَمَّت مادة غنية مستمدة من كتب مفقودة، أبرزها كتاب الحسن بن زبالة، وكتاب يحيى بن الحسن عن تاريخ المدينة: فقد نَقَل عنهما السمهودي، في «وفاء الوفا»، معلومات واسعة مستوعبة، وفيها معلومات عن تاريخ المدينة، ومعالمها الجغرافية، وسكانها في أول الإسلام[1]، وهي تقدم مادة قيمة عن «الأرضية» التي قامت عليها دولة الإسلام، بالإضافة إلى ما نقله عن ابن اسحاق خاصة عن الرسول (ص) وتطور دولة الإسلام في مراحلها الأولى.

المؤلفات الحديثة عن الرسول (ص)

وفي الأزمنة الحديثة نُشرت كتب ودراسات كثيرة عن حياة الرسول (ص)، مستقلةً أو جزءاً من تاريخ عام، كما نشرت أبحاث عن جوانب متعددة من حياة الرسول (ص) وأعماله، وهي تتباين في مدى سعتها وتفاصيلها وعمقها ودقتها.

فأما في اللغات الأجنبية فمن أبرز الكتب الحديثة عن حياة الرسول (ص) ما أَلَّفه شبرنجر، وبوهل (١٩٣١)، وكريمه (١٩٢١ وكلها بالألمانية)، وتور أندريه (بالسويدية ١٩٣٠ وترجمته الإنكليزية ١٩٣٦)، وبلاشير (بالفرنسية ١٩٥٢)، وررودي باريت (بالألمانية ١٩٥٧)، ومحمد حميد الله (بالفرنسية

---

(١) انظر بحثنا «المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز»، المنشور في مجلة المجمع العلمي العراقي.

١٩٥٩)، ومونتغمري وات (بالإنكليزية ١٩٦١)، وجودفروا ديمومبين (١٩٦٩)، ومكسيم رودنسون (بالفرنسية ١٩٦٨ وترجمته الإنكليزية ١٩٧١). ونضيف إلى هذه القائمة الدراسة الواسعة التي ضمنها ليو كايتاني في الجزء الأول والثاني من كتابه الضخم «حوليات الإسلام» (بالإيطالية ١٩٠٥ فما بعد) وترجمها حسين جاهد إلى التركية بعنوان «إسلام تاريخي»[١].

أما في العربية، فقد ظهر الاهتمام بكتابة سيرة الرسول (ص) منذ مطلع القرن العشرين عندما أصدر الشيخ محمد الخضري كتابه عن السيرة، وهي محاضرات ألقاها في الجامعة المصرية في أوائل نشأتها.

ثم نشر الدكتور محمد حُسَين هيكل «حياة محمد»، وهو في أساسه ترجمة بتصرف لكتاب اميل درمنجهيم، نُشرت تباعاً في الملحق الأسبوعي لجريدة السياسة المصرية، ثم أُعيدت كتابتها وصدرت بكتاب يتميز بالأسلوب الطليّ الجذاب، والتعليقات المفيدة على الحوادث المعتمدة في أساسها على سيرة ابن هشام. ومما يُعتبر مكملاً له كتابه «في منزل الوحي» الذي وصف مؤلفه في رحلته إلى مكة المعالم الجغرافية والعمرانية المتصلة بالإسلام في مكة والمدينة. وألّف محمد أحمد جاد المولى كتاباً قيماً عن الرسول عنوانه «محمد المثل الكامل».

وكتب الدكتور طه حسين «على هامش السيرة» وفيها صور من حياة الرسول (ص) مكتوبة بأسلوب جذاب، ومسحة أدبية، وفيها تعليقات قيمة.

وألّف عباس محمود العقاد «عبقرية الرسول»، ثم أردفها بكتب عن عبقرية

---

(١) كتب تور أندريه في كتابه عن الرسول (ص) فصلاً عن إشارات الكتّاب الغربيين إلى الرسول (ص). أما عن كتابات الغربيين في الأزمنة الحديثة، فتجد عرضاً أوفى في كتاب سوفاجيه «مقدمة لدراسة تاريخ الشرق الأوسط» (بالفرنسية ١٩٦٦، وترجمته العربية)، وكذلك في القوائم التي ينشرها بيرسون في كتابه «الفهرس الإسلامي» (بالإنكليزية ١٩٥٧ فما بعد). وتجد تحليلاً وافياً لأهم الدراسات الغربية عن الموضوع في المقال الذي كتبه رودنسون بعنوان «عرض لدراسات عن محمد» في المجلة التاريخية ١٩٦٣ (بالفرنسية).

عدد من الصحابة، وفيها تحليلات عميقة لبعض جوانب سيرة الرسول (ص) ومكانته.

كما ألَّف محمد عزة دروزة كتاباً عن سيرة الرسول (ص) خص الجزء الثاني منه بحياة الرسول (ص) في المدينة، وتميز بالإفادة الواسعة من آيات القرآن الكريم أساساً للدراسة.

ثم تتابع نشر كتب ودراسات كثيرة في حياة الرسول (ص) أو بعض جوانب من سيرته وأعماله، وعُقِدت ندوات متعددة خُصِّصت لدراسة السيرة، وألقيت في كل منها أبحاث كثيرة مما أعده المشاركون فيها من مختلف الجنسيات والاتجاهات، وكان لعدد من الأحزاب والتيارات السياسية دور في الدفع إلى كتابة ما يَتَّصل بالسيرة وأعمال الرسول، وأثْمَر كل ذلك نَشْرَ الآلاف من الأبحاث التي لا يتسع كتابنا لسردها، وبيان اتجاهاتها، وتقدير قيمة كل منها[1].

---

(١) انظر عن ذلك القائمة الواسعة المنشورة في مجلة عالم الكتب م١/عدد٣/نوفمبر ١٩٨٠ ص٣٣٦ ـ ٣٧٧؛ وكذلك الكتاب الذي أصدره الدكتور صلاح الدين المنجد في ذلك.

القسم الأول

أهل المدينة والدعوة الإسلامية

- المدينة عند الهجرة ونظم الحياة فيها
- العشائر العربية في المدينة
- اتصال أهل المدينة بالرسول (ص) وبيعة العقبة
- الهجرة إلى المدينة والاستقرار فيها
- تنظيم الإدارة في المدينة
- الفرائض الإسلامية



الفصل الأول

المدينة عند الهجرة ونُظم الحياة فيها

الأرض

تقع المدينة على بعد ٢٥٠ كيلومتراً شمالي مكة، وتبعد عن ساحل البحر الأحمر حوالي ٧٠ كلم، وهي في منطقة بركانية، وبقربها براكين هامدة، ولكنها ثارت في العصور الإسلامية عدة مرات، ومن أشهر ثوراتها تلك التي حدثت قبيل الهجرة، والثَّوَرَان الذي حدث سنة ٦٥٣هـ حينما قذفت حمماً كثيرة وسالت منها لَابَةُ المقذوفات[(١)]. وبتأثير البراكين، كثرت في المدينة الصخور السوداء، كما تكونت فيها تربة خصبة صالحة للزراعة.

والمدخل الرئيس القديم للمدينة من ثنية الوداع، وفي هذا يقول ابن شبَّة: «كان لا يدخل المدينة أحد إلا من طريق واحد من ثنية الوداع. وكان لا يدخلها أحد من غير أهلها فلم يعشِّر بهامات.. ثم قرَّها على ذلك عروة بن الورد، فلما ترك عروة التعشير تركه الناس ودخلوا كل ناحية»[(٢)].

وتَشْغَل المدينة رقعة واسعة من الأرض تمتد من جبل أُحُد شمالاً إلى جبل

---

(١) وفاء الوفا للسمهودي ١/ ٩٩ ـ ١٠٧ (مطبعة المؤيد؛ وعلى هذه الطبعة مُعْتَمَدُنا في الكتاب).

(٢) تاريخ المدينة لابن شبَّة ٦٩؛ وفاء الوفا ٢/ ٢٧٥.

عير جنوباً، ويبلغ طول هذه الرقعة حوالَى اثني عشر ميلاً، وعَرْضُها حوالَى عشرة أميال. ويخترقها وادي بطحان الذي يجري من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي ثم يجتمع بوادي العقيق الذي يأتي من أواسط الحجاز، ويجري في الأطراف الجنوبية والغربية من المدينة، ثم ينحرف غرباً ليصب في البحر بالقرب من ينبع. وتصب في وادي بطحان عدة وديان فرعية تجري من الجنوب وأهمها رانونا ومذينيب ومهزور. وتَرْوِي المياه التي تجري في هذه الوديان عدداً من المزارع الكثيرة. وبالإضافة إلى ذلك يوجد في المدينة عدد من الآبار الكبيرة التي يستفاد من مياهها الغزيرة للشرب والزراعة.

انتشرت في منطقة المدينة، المزارع التي فَصَلت بين المجموعات السكنية، التي تكونت منها عند ظهور الإسلام، عدة مجموعات كل منها كالقرية أشهرها قُبَا في الجنوب، وزهرة في الشرق، ويثرب وزبالة وراتج في الشمال[1].

والمدينة قديمة في التاريخ، ويبدو أن اسمها القديم الشائع هو يثرب، وقد ورد اسمها في بعض المصادر الجغرافية الأفريقية (Ithrippa) كما ذكر القرآن الكريم لها هذا الاسم ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ﴾ [الأحزاب/ ١٣][2]، ولكن الذي كان شائعاً عند ظهور الإسلام هو تسميتها المدينة، وبهذا الاسم ذكرت في القرآن الكريم، وفي الأحاديث النبوية وكتب التاريخ والأدب.

نُظُم الحياة في المدينة

كان النظام القَبَلي هو السائد في المدينة، فكان أفراد كل عشيرة يسكنون معاً في منطقة واحدة تقع فيها مزارعهم، كما أنهم يشتركون في العاقلة، وهي الدية عن القتل الخطأ، ويتعاونون في الشدائد. وكان في المدينة عند الهجرة ثمانية وسبعون أُطُماً بعضها لأفراد وبعضها لعشائر. والأطم بناء عال كان برجاً

(١) انظر مقالنا «خطط المدينة» المنشور في مجلة العرب م١٢ سنة ١٩٦٧.
(٢) وانظر عن اسمها ١٠١، ١٢٠٠، الأحزاب ٦٠، المنافقون ٨.

للمراقبة وحصناً للحماية، ولعله كان يؤدي أغراضاً أخرى. وكان إنشاء الأُطُم جارياً باستمرار حتى حدثت الهجرة فتوقف بناؤها بعدها، مما يدل على علاقته الوثيقة بالأمن الذي استتب بعد الهجرة. ولا ريب في أن امتلاك الأفراد للأُطُم هو مظهر لضعف التماسك القبلي، ودليل على مكانة الفرد[1].

والواقع ان التماسك العشائري لم يكن قوياً، فقد حدثت زيجات بين أفراد من عشائر مختلفة، مما كان له أثر في تخفيف آثار العزلة العشائرية التي كثيراً ما تُقَوّي الشكوك وتَزِيد في العداء. غير أنه لم تذكر لأهل المدينة زيجات مع من في خارجها كالذي كان عند أهل مكة، أي أن الزواج في المدينة كان «داخلياً» وإن لم يكن محصوراً دائماً في العشيرة.

ذَكَرت المصادر عدداً من ذوي النفوذ في عشائرهم بالمدينة. ومن هؤلاء البراء بن معرور «سيدنا وكبيرنا»[2] وعبد الله بن عمرو بن حزام «سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا»[3]، وطلب الرسول (س) في بيعة العقبة أن يُخرج إليه أهل المدينة اثنى عشر نقيباً ليكونوا على قومهم[4]. مما يدلّ على أن هؤلاء النقباء كانوا من البارزين في عشائرهم، وان تنقيب الرسول (ص) لهم ثَبَّت مكانتهم. ولا بد أن هذه المكانة أحرزوها بمواهبهم وليس من طريق الانتخاب، وأنَّ كثيراً منهم احتفظوا بتلك المكانة بعد الهجرة، وخاصة من قام منهم بمساندة الإسلام وخدمته؛ وكان سعد بن عبادة سيد الخزارج[5].

وللنساء مكانة مستقلة، فقد كن يبايعن بأنفسهن الرسول، وبشروط منبعثة من

---

(١) انظر: «أُطُم المدينة المنورة» المنشور في مجلة كلية الآداب بجامعة الملك سعود، سنة ١٩٧٧.

(٢) ابن هشام ٢/ ٤٧.

(٣) ابن هشام ٢/ ٤٩.

(٤) ابن هشام ٢/ ٥٠.

(٥) ابن سعد ٨/ ١٣٠؛ وانظر: البخاري: المظالم والغصب ٢٥؛ النكاح ٨٢، ابن حنبل ١/ ٣٣.

طبيعة المرأة. وموقف المرأة لا علاقة له بموقف أبيها أو زوجها أو أولادها. وقد لفت نظر المهاجرين مكانة المرأة وسيطرتها في المدينة، ويروى أن عمر بن الخطاب قال بعد هجرته إلى المدينة: «كنا معشر قريش نَغْلِبُ النساء، فلما قدِمْنا على الأنصار إذا قومٌ تغْلِبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب الأنصار»[1]. ولم يتزوج الرسول (ص) من الأنصار: لأنه، فيما يروى عنه، قال: «إن فيهن غيرة شديدة وأنا صاحب ضرائر، وأكره أن أسوء قومهنَّ فيهن»[2].

وكان الرجل منهم، إذا مات أبوه أو حَمُوه فهو أحق بامرأته، ان شاء أمسكها حتى تفتديه منه بصداقها، أو تموت فيذهب مالها، وقد أبطلها الإسلام.

لم تذكر الأخبار وجود حكومة في المدينة تنظر في الشؤون العامة، أو مؤسسات سياسية عامة، كدار الندوة في مكة، والمجالس الشعبية العامة التي كانت في بعض المدن والدول القديمة. ولم تذكر المصادر نوادي أو مراكز للعشائر، إلا ما ذُكر عن سقيفة بني ساعدة، التي عُقد فيها الاجتماع الذي جرى فيه انتخاب أبي بكر خليفة، ولم تشر المصادر إلى أنها كانت قبل ذلك مركز اجتماعات عامة. والواقع أن هذا لم يقتصر على العرب في المدينة، بل كان يشمل أيضاً اليهود الذين لم يذكر لهم غير بيت مِدْراسٍ[3] واحد لم يكن له، فيما يظهر سوى وظيفةٍ دينية وثقافية، ولم يكن له أي دور في الاجتماعات السياسية.

ولعل من أسباب فقدان هذه المؤسسات، سعة رقعة المدينة وتباعد محلات سكن أهلها، واشتغالهم بالزراعة دون التجارة، وعزلتهم النسبية عن العالم الخارجي.

لم يكوّن العرب في المدينة علاقات سياسية وثيقة مع القبائل أو المدن الأخرى في الحجاز أو غيرها كما فعل أهل مكة، وكان ضعف نشاطهم

(١) ابن هشام ٣/ ٢٣٧.
(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ١/ ٤٦٣.
(٣) المدراس: الموضِع الذي تُدرس فيه التوراة، وهو غير الكنيس المخصص للعبادة.

الاقتصادي سبباً في ركودهم وضعف علاقاتهم بمجاوريهم. غير أنهم، في نفس الوقت، لم تُذكر لهم مخاصمات أو حروب مع العشائر والجماعات القاطنة خارج المدينة كالذي كان من أهل مكة.

ولم يكن الأمن مستتباً في المدينة، فقد كانت بين عشائرهم مشاحنات وخصومات يزيدها استعاراً فقدان السلطة المركزية الملزمة، وعدم وجود قوة تمنع الخصومات، أو جهة يلجأ إليها الناس للتحكيم، فضلاً عن اصطدام المصالح وطغيان العواطف، وتباين الاتجاهات الدينية، ولعل لليهود دوراً كبيراً في توسيع شقة الخلافات. والواقع أن عدة حروب نَشَبَت بينهم سالت فيها الدماء، أشهرها: حرب بعاث التي حدثت قبيل الهجرة وأنهكت العرب من أهل المدينة.

أدرك أهل المدينة الأضرار الناجمة عن هذه الخصومات، فحاولوا إيجاد سلطة مركزية، وأرادوا اختيار عبد الله بن أُبَي ليرأسهم، ولكن ذلك لم يتحقق ولعل ذلك راجع لضعفه وقِصَر بصيرته وعمق الخلافات التي كانت بين أهل المدينة.

وعندما قدِم الرسول (ص) المدينة، عمل على إزالة الخلافات وتوطيد العلاقات الطيبة بين أهلها، ومما يَسَّر ذلك مكانته الدينية، وخُلُقه العظيم، ومرونته، وسعة صدره، ونفاذ بصيرته، والدين الإسلامي الذي يدعو إليه. وكانت ركيزته الأولى في ذلك المهاجرين الذين لم يكونوا منغمسين في الخصومات، ولم تكن لهم روابط قوية سابقة مع أهل المدينة، وكانوا مُلْتفِّين حول الرسول (ص)، وهم عماده الأول، وكان عددهم يتوسع تدريجياً بازدياد عدد المسلمين الذين ينضمون إليه.

غير ان مجيء الرسول (ص) لم يَمْحُ آثار الماضي، إذْ أن الروح القبلية كانت عميقة، وأسباب الاحتكاك قائمة في مثل هذا المجتمع الذي يزداد تعقيداً، وكذلك عوامل التحريض كانت قائمة، وخاصة تحريض بعض اليهود. ويروي السمهودي أن شاس بن قيس، وهو من اليهود الضاغنين على الإسلام، حرَّض على إنشاد قصائد قيلت يوم بعاث، فأثار ذلك الفتنة بين الأوس

والخزرج لولا تدخل الرسول والمهاجرين[١]؛ وذكر ابن ماكولا «نائرة من بني معاوية فخرج الرسول (ص) ليصلح بينهما[٢].

وقد أشار القرآن الكريم إلى احتمال حدوث مثل ذلك، والموقف الذي ينبغي للمسلمين أن يقفوه، فقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات].

الحياة الاقتصادية

كانت الزراعة هي الحرفة الرئيسة للسكان، وأهم المزروعات: النخيل والشعير، وتزرع إلى جانب ذلك بعض الخضر بكميات قليلة كالقرع والقثّاء. وكانت الملكية الفردية مثبتة، والغالب أن الأفراد يمتلكون الأراضي التي يعملون فيها. غير أن بعضهم كان يمتلك مزارع كبيرة، ولا يستطيعون وحدهم القيام باستثمار أراضيهم، فيستخدمون في ذلك عمّالاً يأخذون لقاء عملهم نصيباً من الحاصل يبلغ الخُمس، أو الثلث، أو النصف تبعاً لأحوال الأرض وظروف الاتفاق. وقد نشأت من المعاملات الناجمة عن تنوُّع الأراضي وأساليب الري وأساليب العمل في الزراعة أعرافٌ وقواعد أقرّها الإسلام فكانت جزءاً من أبواب الفقه الإسلامي كالمُزارعة والمُزابنة والمُحاقلة وكِراء الأرض.

ونظراً لجفاف المناخ وقلة الأمطار، فإن الزراعة اعتمدت على مياه الوديان التي تَغْزُر في الشتاء والربيع بعد هطول الأمطار، وتشحُّ في الصيف. أما المناطق البعيدة عن الوديان، فقد اعتمدت على مياه الآبار، وقد ذكر السمهودي عدداً من الآبار في المدينة كانت قيمة بعضها عشرين ألف درهم[٣].

---

(١) وفاء الوفا ١/١٩١؛ وانظر ابن حنبل ٥/٤٢٧؛ وعن مشاحنات حدثت بينهم في زمن الرسول البخاري: الصلح ٣٥، مناقب الأنصار ١، ٢٧، ٤٧. أحكام ٣٦؛ أبو داؤود: الصلاة ٦٩؛ النسائي: امامه ١٥ ابن حنبل ٣/٣٣٢، ٣٣٨.

(٢) الاكمال لابن ماكولا.

(٣) وفاء الوفا ٢/١١٩ فما بعد.

كان الغذاء الرئيس لأهل المدينة عند الهجرة التمر والشعير، ويقال لهما: «الاسودان»[(١)]، ويقول الشافعي: «الأغلب من القوت كان في زمن النبي بالمدينة التمر، وكان من يقتات بالشعير قليلاً، ولم يكن يُقتات بالحنطة[(٢)]. وروت كتب الحديث: «ما شبع رسول الله من خبز حنطة»[(٣)]، وكانت الحنطة تستورد من بلاد الشام ويصنع منها خبز الدرمك[(٤)].

وكانت المدينة منذ زمن الرسول (ص) تستورد من الشام الثياب[(٥)]، ومن البلقاء الحنطة[(٦)]، وأكثر المُورِّدين كانوا من الأنباط، وقد حملوا إلى المدينة منذ زمن الرسول الحنطة والشعير والقطنية[(٧)] وظلوا يقومون بتجاراتهم من الزبيب والقطنية[(٨)]. وكان عمر يأخذ منهم على تجاراتهم نصف العشر[(٩)].

لم يشتغل أهل المدينة بتربية المواشي، ما عدا القليل الذي كان يربَّى في بعض البيوت، ولذلك كانوا يستوردون المنتوجات الحيوانية التي يحتاجونها كالسمن والأقط[(١٠)]، والصوف من البدو والرعاة المقيمين بالقرب من المدينة، ويبدو أن الخيل كانت قليلة، فلم يخرج مع الرسول في غزواته الأولى إلا أفراس قليلة، ففي كل من غزوة بدر وأحد لم يكن مع المسلمين إلا رأسان من الخيل. وقد أدرك الرسول (ص) أهمية الخيل فشجع على اقتنائها. ويروى أنه قال: «الخيل معقود في نواصيها الخير»، وقد أوجد حلبة لسباق الخيل في المدينة.

---

(١) انظر مواضعها في كتب الحديث: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، مادة «الاسودان».

(٢) الأم للشافعي ٢/٩.

(٣) مغازي الواقدي.

(٤) أنساب الأشراف ١/٧٨.

(٥) ابن سعد ٣ ـ ١/١٢٢.

(٦) الإصابة ٢/١٠٣.

(٧) الموطأ: زكاة ٤٧، ابن ماجه: تجارات ٢٠، الأموال لأبي عبيد ٥٣٣، مصنف ابن أبي شيبه ٨/٨، تاريخ البخاري ١ ـ ١/٢٧؛ تفسير الطبري ١/٤، ٣/١٠، ٥/١٧٠، ٩/١٢٨.

(٨) الموطأ ١/٨٩، ١٢٥.

(٩) مصنف ابن أبي شيبه ٤/٩٧، ٩٩، مسند الشافعي ١/٢٤١، ٤/٧٥.

(١٠) نوع من الجبن يتخذ من لبن الإبل المخِيض، الواحدة: أقِطة.

وكانت أغلب الصناعات بيتية، فكانت النساء يقمن بالغزل والنسيج وخياطة الألبسة التي تحتاجها الأسرة. أما الصناعات الأخرى التي يحتاجها أهل المدينة، كأدوات الزراعة والنجارة والحدادة والصياغة، فكان يقوم بكثير منها اليهود، وقد تردد في المصادر أن بني قَيْنُقاع كانوا صُنَّاعاً وصُيَّاغاً. ومن المحتمل اشتغال العبيد ببعض الصناعات، غير أنه لا دليل على كثرة العبيد في المدينة.

لم تكن المدينة عند الهجرة مركزاً اقتصادياً مهماً لاستهلاك السلع أو تصديرها، فمنتوجاتها الرئيسة، وهي التمور والشعير، كانت تسد حاجة السكان المعتمدين عليها، وقد تموّن بهما بعض الأعراب، مثل عبد القيس[١] وأسد وغطفان[٢]. ولم يذكر أنها كانت تصدر هذه المنتوجات بمقادير كبيرة إلى الخارج. كذلك لم يذكر استيراد مكة من المدينة مواد غذائية رغم شدة حاجة المكيين لها. ومن مظاهر ضعف النشاط الاقتصادي في المدينة عدم وجود سوق كبيرة فيها، فكانت البيوعات تَجْري في البيوت وفي بعض الساحات التي تكون أسواقاً صغيرة[٣]. ثم إن المدينة كانت في موقع جغرافي ناحٍ عن الطرق التجارية الرئيسة بين جزيرة العرب وموانئ البحر الأحمر، أو بينَ اليمن وبلاد الشام. إذ إن التجارة الأخيرة كانت تسلك طريق المعرقة الساحلي، أو تمر في المناطق الواقعة شرقي المدينة ولا تمر بها، مما جعلها معزولة نسبياً. وقد أدت هذه العوامل إلى ضعف النشاط الاقتصادي وانخفاض مستوى المعيشة وقلة النقود المتداولة، ومن مظاهر ذلك أن معظم المسلمين، في أوائل سني الهجرة لم يكن لأحدهم ملبس غير ثوب واحد[٤]، وكانت النساء يقمن بأنفسهن بِجَرْش الحبوب والطبخ، كما كن يستعرن ثياب العرس.

---

(١) الطبري ١/ ١٤٣٠.

(٢) تفسير الطبري ١٧/ ٩٧.

(٣) يذكر ابن شبه انه كان في المدينة، عندما هاجر الرسول (ص) إليها، سوق في كل من زبالة، ويثرب، وجسر قَيْنُقاع، والعصبة، وزقاق ابن حبين (تاريخ المدينة ١/ ٣٠٥ ـ ٦؛ وفاء الوفا ١/ ٥٤٩، ٢٤٤).

(٤) انظر البخاري: كتاب الجزية ٩، كتاب الصلاة ٣؛ ابن حنبل ٥/ ١٤١؛ مسانـد أبي حنيفة ١/ ٣٤٩ وانظر عن تطور الأحوال بعد ذلك الأغاني ١٧/ ٨٩.

أصبحت المدينة بعد الهجرة مركزاً للحياة الاقتصادية. ويروي الطبري أن تميم الداري كان يفد تاجراً على مكة. فلما هاجر الرسول (ص) إلى المدينة حوّل متجره اليها[١].

الثقافة والمعتقدات الدينية

لم تكن القراءة والكتابة منتشرة في المدينة. ولعل بعض ذلك راجع إلى أن العرب في المدينة كوّنوا مجتمعاً زراعياً راكداً منعزلاً، فلم تكن لهم، في التجارة أو السياسة، صلات وثيقة بغيرهم. وبسبب قلة الكتابة، كان ينظر لمن يعرفها نظرة تقدير، فكان «الكامل» عندهم، في الجاهلية وأول الإسلام، الذي يكتب بالعربية ويُحسن العوم والرمي. وقد ذكر ابن سعد، في القسم الثاني من الجزء الثالث من الطبقات، أسماء عشرة من أهل المدينة ممن كانوا يعرفون القراءة والكتابة، وهم: أُبَيّ بن كعب، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن روَاحه، وبشير بن سعد، وعبد الله بن زيد، وأوس بن خولى، والمنذر بن عمرو، وأسيد بن الحضير، وسعد بن عبادة، ورافع بن مالك. والأربعة الأخيرون كانوا يحسنون العوم والرمي أيضاً، ولذلك كان يطلق عليهم اسم «الكَمَلة». ولا ريب في أن الكتابة اتّسع انتشارها بعد الهجرة. وكان مِمّا اشترط الرسول (ص) لفك أسَارَى المشركين في بَدْر: أن يعلم كلّ أسير عَشَرَةً من أهل المدينة[٢].

وظهر في المدينة من اهتم بالثقافة العامة، فيروي ابن اسحق أن ممن اتصل بهم الرسول (ص) في مكة قبل الهجرة سويد بن الصامت، وهو من بني عمرو بن عوف، وكان سويد يسميه قومُه الكامل لجلده وشرفه ونسبه. فدعاه الرسول إلى الله وإلى الإسلام، فقال له سويد: لعل الذي معك مثل الذي معي، فقال له رسول الله (ص): وما الذي معك، قال مجلة لقمان، يعني

(١) تفسير الطبري ٧/ ٧٥.

(٢) ابن حنبل ١/ ٤٧.

حكمة لقمان، فقال له رسول الله (ص): اعرِضْها علَيّ، فعرضها عليه، فقال له: إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا، قرآنٌ أنزله الله علَيَّ هو هُدًى ونُور[١]. ولم يستجب سويد للرسول (ص) ولم يُسلم، ومجلة لقمان لم تكن كتاباً مقدساً، بل يبدو أنها كانت حِكَماً. ولعل سويد لم ينفرد بمعرفتها والاهتمام بها، بل شاركه آخرون في الاهتمام بها وبأمثالها.

المعتقدات الدينية لأهل المدينة

في المصادر العربية إشارات متفرقة إلى بعض معتقدات العرب من أهل المدينة وتقاليدهم الدينية، منها أنهم كانوا يحجُّون إلى مكة، ولكنهم لا يَسْعَوْن بين الصفا والمروة. وعند عودتهم من الحج، لا يدخلون بيوتهم من أبوابها، بل يتسورون حيطانها. ثم إنهم، في الحج إلى مكة، كانوا يحجُّون فيقفون مع الناس المواقف كلها، ولا يحلقون رؤوسهم[٢].

ويتبين من هذا انفرادهم بتقاليدهم، ولا سيما في الحج. ويلاحَظ أيضاً أنه ليس في المصادر، أو في الآيات القرآنية، ما يشير إلى أن عباداتهم ومعتقداتهم الدينية كانت تطابق تماماً ما كان عليه مشركو مكة.

وكانت لمناة مكانة خاصة عندهم. يقولُ ابن الكلبي: «وكانت الأوْس والخَزْرج ومَنْ ينزل المدينة ومكة، وما قارَبَ من المواضع، يعظمونه ويذبحون له، ويَهْدون له، ولم يكن أحد أشدَّ إعظاماً له من الأوس والخزرج. وكانوا، بعد حجهم إلى مكة، أتَوْهُ فحلَقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده، لا يرون لحجهم تَمَاماً إلا بذلك، فلإعظام الأوس والخزرج، يقول عبد العُزَّى بن وديعة المُزَني، أو غيرُه من العرب:

---

(١) ابن هشام ٢/٣٦.

(٢) الأصنام ١٦.

إني حلفتُ يمينَ صِدْقٍ بَرَّةٍ　　بِمَناةَ عندَ محلِ آلِ الخَزْرجِ[1]

ولكن يلاحظ أن مركز مَناة كان في قديد بالمشلل قرب البحر، على منتصف المسافة تقريباً بين مكة والمدينة، ولم تذكر المصادر لمناة معبداً في المدينة، كما أن المُتَسَمَّيْنَ بمناة من أهل المدينة قبل الإسلام قليلون جداً.

ذكر ابن سعد عدداً من كَسَّر أصنام عشيرته بعد إسلامه، فذكر أن عمارة بن حزم، وعوف بن عفراء وأسعد بن زرارة قاموا بتكسير أصنام بني مالك بن النجار[2]. وكان سليط بن قيس وأبو صرمة يكسّر أصنام بني عدي بن النجار[3]. وثعلبة بن عتمة ومَعاذ بن جَبَل وعبد الله بن أنيس يكسِّرون أصنام بني سلمة[4]. وقام زياد بن لبيد البياض، وفروة بن عمرو، بتكسير أصنام بني بياضه[5]. وكان سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو أبو دجانه يكسرانِ أصنام بني ساعدة[6]. كما قام سعد بن معاذ وأسد بن الحضير بتكسير أصنام بني عبد الأشهل[7]؛ وأبو عيسى بن جبير وأبو بردة بن نيار بتكسير أصنام بني حارثة[8].

ويُفْهم مما تقدم أن العشائر الكبيرة في المدينة، سواء من الأوس أو الخزرج، كان لكل منها، أو لمعظمها، أصنام خاصة بها، وأن كلًّا من هذه الأصنام له تجسيم مادي قابل للتكسير، وان لكل عشيرة عدة أصنام، لأن التكسير لم يحصُل مرة واحدة بل استمر مدة.

وكانت لبعض الأشخاص أصنام خاصة بهم، فيروي ابن اسحق أن عمرو بن

---

(١) الأصنام ١٣.
(٢) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ١٤، ٥١.
(٣) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٦٩.
(٤) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ١١٩، ١٢٠.
(٥) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ١٣١.
(٦) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ١٤٣.
(٧) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٢.
(٨) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٢٤.

الجموح كان سيداً من سادات بني سلمة وشريفاً من أشرافهم، وكان قد اتخذ في داره صنماً من خشب يقال له مناة، كما كان الأشراف يصنعون، فيتخذون إلٰهاً يعظمونه ويطهرونه[1]. ويدلّ هذا النص على أن الصنم الذي اتخذه عمرو بن الجموح هو تمثال لمَناة، وهو يؤيد المكانة التي ذكرها ابن اسحق لمناة عند أهل المدينة. ولكنَّ المصادر لم تذكر آلهةً أخرى لها أصنام في المدينة، أو لها فيها معبد أو معابد وبيوت خاصة لتلك الآلهة. وعدم توافر معلومات لا ينفي وجود مثل هذه البيوت. ولكنَّ المؤكّد أنها لم تكن مراكز كبيرة، لأن المصادر التي ذَكَرت البيوت المقدسة في الجزيرة العربية لم تذكر بيتاً في المدينة. ولعل كثيراً من هذه الأصنام كانت أيْقوناتٍ ترمز إلى الوجهة التي يعبدونها. ولكن المصادر اقتصرت على مكانة مَناة عند أهل المدينة.

وكان قَطْع الأشجار محرّماً عند أهل المدينة، وظل كذلك حتى أباحه الإسلام في غزوة بني النضير. قال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الحشر] ويروي ابن سعد ما يدلّ على أن بعض الأصنام كانت تُنْحت من الخشب، فقد رَوَى أن أم سليم قالت لأبي طلحة: يا أبا طلحة أَلَسْتَ تعلم أن إلٰهَكَ الذي تعبد إنما هو شجرة تنبت من الأرض، وإنما نَجَرها حبشي بني فلان؟ قال: بلى. قالت: أما تستحي أن تسجد لخشب ينبت من الأرض نجره حبشي من بني فلان؟

وأشارت المصادر إلى بعض من رفض عبادة الأصنام في الجاهلية. ومن هؤلاء أبو الهيثم بن التيهان الذي كان (يكره الأصنام في الجاهلية ويؤفف بها ويقول بالتوحيد، هو وأسعد بن زُرارة). ومنهم أيضاً صرمة بن أبي أنس، وهو من بني غنم بن عدي بن النجار، أَسْلم وهو شيخ كبير، وكان قد رفض الأوثان في الجاهلية. «وكان رجلاً قد ترهب في الجاهلية ولبس المُسُوح، وفارق الأوثان، واغتسل من الجَنابة، وتطهَّر من الحائض من النساء، وهمّ بالنصرانية،

(١) ابن هشام ١/٧٩.

ودخل بيتاً له فاتخذه مسجداً لا تدخله عليه فيه طامِث ولا جُنُب، وقال اعْبُد رب ابراهيم[1] حين فارق الأوثان ذكرها، حتى قدم رسول الله (ص) المدينة فأسلم وحَسُن إسلامه». ومنهم أبو عامر الراهب.

ولا ريب في أن وجود اليهود في المدينة ساعد على إطْلاع أهلها على تاريخ بني اسرائيل وأخبارهم، وعلى إدراك فكرة أوضح عن البعث والقيامة والحساب، وعن مجيء نبي جديد ينقذ البشرية، فكوّن في نفوس أهل المدينة استعداداً لِتقبُّل الإسلام، غير أنه يجب ألّا نبالغ في أثر هذه الأفكار، إذ أنَّ استجابة أهل المدينة للرسول (ص) كانت في أول مراحلها لعوامل سياسية ثم روحية ولا صلة لها بأثر اليهودية.

(١) ابن هشام ٢/٢٠.

الفصل الثاني

العشائر العربية في المدينة

أقدم العشائر العربية: بَلِيّ

كانت غالبية أهل المدينة عند ظهور الإسلام من العرب، وكانوا قبائل متعددة. يذكر ابن زبالة ان أقدم القبائل العربية التي استوطنت المدينة: «بنو أنيف وهم حيّ من بَلِيّ»، وبنو مريد حي من بلي، وبنو معاوية بن الحارث بن بهثة بن سليم، وبنو الجذما حيّ من اليمن[١].

فأما بنو معاوية وبنو الجذما، فلم يرد لهم ذكر في أخبار الحوادث في الإسلام، الأمر الذي يدل على تناقص أهميتهم.

وقبيلة بَلِيّ التي ينتمي إليها بنو أنيف ومريد وعشائر أخرى كانت عند ظهور الإسلام تقيم في الأطراف الشمالية من الحجاز، على حدود بلاد الشام[٢].

أما بنو أنيف، فيذكر ابن زبالة أنهم كانوا في المدينة قبل الأنصار[٣] وكانت منازلهم عند ظهور الإسلام بِقَبَاء، ولهم أُطم الأجشّ عند بئر لاوة، وأُطمانِ في

(١) وفاء الوفا ١/١١٣ ـ ٤.
(٢) معجم ما استعجم للبكري ٢٧ ـ ٣٠.
(٣) وفاء الوفا ١/١١٣، ١٣٧.

مزرعتي المائة والقائم، وآطام عند بئر عذق[١]. ويذكر أيضاً أنهم كانوا ينزلون بين بني عَمْرو بن عَوْف وبين العصبة[٢] في جنوبي المدينة.

ومن عشائر بَلِيّ في المدينة بنو غضينة وهم حلفاء بني سالم وقد نزلوا مسجد بني غصينة[٣]. ومن عشائر بلى في المدينة بنو ضبيعة. غير أن بعضهم انتقل إلى الجندل والسقيا[٤].

ومن بلي عدد من عشيرة فرّان، ساهم ثمانية من رجالها في معركة بدر، وكذلك من عشيرة هنى التي شارك خمسة من رجالها في معركة بدر. ويلاحظ أن من مناجم الحجاز القريبة من المدينة معدن فَرَّان، غير أن المصادر لا تذكر علاقته بالعشيرة التي استوطنت المدينة والتي يُحتمل أنها كانت تمتلكه أو تعمل فيه. ومن حيث العموم فقد ذكر مؤلفو السيرة أن واحداً وعشرين رجلاً من بَلِيّ شاركوا في معركة بدر، أي أنهم كانوا حوالي عُشْر عدد الأنصار في تلك المعركة. وتدل هذه النسبة العالية على كثرة عددهم في المدينة.

انضم عدد من بني أنيف إلى الإسلام في المراحل الأولى، وشاركوا في الغزوات، فمن بلي أبو الهيثم بن التيهان وهو من الستة الذين أسلموا أول مرة من أهل المدينة وشهد بيعتي العقبة الأولى والثانية[٥]. ومن بَلِيّ أيضاً كل من عبيد بن التيهان[٦] وأبو بردة بن نيار[٧] ومعن بن عَدِيّ بن العجلان[٨].

وعندما خرج الرسول (ص) إلى معركة بدر خَلَّف على أهل قَبَاء عاصم بن عدي البلوي[٩].

---

(١) وفاء الوفا ١/١١٣.
(٢) وفاء الوفا ١/١٣٧.
(٣) وفاء الوفا ١/١٤١.
(٤) معجم ما استعجم ٣٨.
(٥) ابن سعد ٣ ـ ٢/٢١.
(٦) ابن سعد ٣ ـ ٢/٢٧، ٣٢.
(٧) ابن سعد ٣ ـ ٢/٢٥.
(٨) ابن سعد ٣ ـ /٣٥.
(٩) ابن سعد ٣ ـ ٢/٣٦.

ذكرنا أن عدد من شارك في معركة بدر من البلويين واحد وعشرون رجلاً وهؤلاء هم غير البلويين الذين استقروا في المدينة بعد هجرة الرسول (ص)، والذين خطّ لهم الرسول (ص) خطة ومسجداً مع جهينة[1].

وبالرغم من قِدَم سُكْنى البلويين في المدينة، وكثرة عددهم، ووجود خطط متيمزة لهم فيها، واعتناقهم المبكر للإسلام، ومشاركتهم الفعالة في نُصرته، إلا أن المصادر لم تذكر لأية عشيرة من بلي دوراً مستقلاً، بل يتبين مما ذكرته أن أغلب رجالهم عند ظهور الإسلام كانوا حلفاء لعشائر متفرقة. أما رجال هَني فكان معظمهم حلفاء لبني عبيد ومعاوية، ومعظمهم كانوا حلفاء لعشائر من الأوس وقليل منهم كان حليفاً لعشائر من الخزرج.

ولم تذكر للبَلَوِيّين عشيرة في وثيقة النبي، ولا في تنظيم ديوان العطاء فيما بعد، ولعل ذلك راجع إلى أن معظمهم انقرضوا ولم يبق لهم عَقِبٌ بعد الإسلام. ويدل هذا على أنهم لم يكونوا متماسكين أو متعاونين، الأمر الذي أدّى بهم إلى أن يتفرقوا ويحالفوا عشائر متعددة مع احتفاظهم بِنَسَبهم.

الأوس والخزرج

أطلق القرآن الكريم على العرب المسلمين من أهل المدينة اسم «الأنصار»[2] لأنهم نصروا الرسول (ص) والإسلام، وهو تعبير عن مواقفهم الدينية والسياسية، ولا علاقة له بأصولهم أو تنظيماتهم. ويذكر النسّابون والإخباريون أن أغلب أهل المدينة هم من الأَزْد وأنهم هاجروا من اليمن بعد انكسار سدّ مَأْرِب، واستقروا في المدينة ثم صارت لهم الغلبة فيها. غير أن لهجتهم، وأسماء أعلامهم، وكثيراً من مظاهر ثقافتهم عند ظهور الإسلام، كانت

(١) وفاء الوفا ٢/٥٨.
(٢) سورة التوبة ١٠٠، ١١٧، الأحقاف ٢٨، الأنفال ٧٢، ٧٤.

لا تختلف غالباً عما لغيرهم في الحجاز وبقية مناطق شمال الجزيرة العربية، الأمر الذي يدل على أن استقرارهم في الحجاز يرجع إلى أزمنة طويلة، لدرجة كانت كافية لتركهم آثار الثقافة اليمانية القديمة وتَشَرُّبهم بثقافة أهل الحجاز. إلا أن تأكيد المصادر على نسبتهم إلى اليمن لا بد أنه يعبر عن علاقة قديمة بينهما، رغم أن هذه العلاقة غير واضحة.

وتذكر كتب النسب والأخبار أن الأزْد، لمّا استقروا في المدينة، كانوا كتلتين كبيرتين هما الأوس والخَزْرج، ويُروى أن مالك بن العجلان ترأسهم وحرّرهم من سلطان اليهود بمعونة أسعد تبع[١]. وكانت الخزرج هي الغالبة في العدد. وكان العرب إنما يسمُّون هذا الحيَّ من الأنصار الخزرج، خزرجها وأوسها[٢].

ويذكرون أيضاً أنه بعد ذلك «وقعت بين الأوس والخَزْرج حروب كثيرة حتى لم يُسمع بها قط في قوم أكثَرَ منها ولا أطول»، وأن هذه الحروب بقيت قائمة إلى قُبَيْل الهجرة، وأن آخِر هذه الحروب هو يوم بعاث وكان فيه رئيس الخزرج عمرو بن النعمان البياضي[٣]، ورئيس الأوس حضير الكتائب، وقد ذكر أنه جرى قبل الهجرة بخمس سنين.

ولم تذكر المصادر حدوث معركة بين الأوس والخزرج بعد بعاث، بل ذكرت أنه عند هجرة الرسول إلى المدينة كان أهلها قد اتفقوا على ترئيس عبد الله بن أبي[٤].

(١) وفاء الوفا ١/١٢٧ ـ ٩.

(٢) الروض ١/٢٧٥.

(٣) انظر ابن حنبل ٥/٤٢٧ (عن ابن اسحاق)؛ البخاري: مناقب الأنصار ١، ٢٧، ٤٧. روض الانف ٢٧٥.

(٤) انظر تفاصيل ذلك في وفاء الوفا ١/١٥٢ ـ ١٥٥؛ وانظر تفسير الطبري ٤/١٧.

إن الأخبار المفصلة تدلُّ على أن المعارك الفعلية كانت قليلة، وأن ضحاياها لم يكونوا كثيرين، ولم تُؤَدِّ إلى إفناء العرب من أهلها. والواقع أن تماسك كل من الكتلتين لم يكن مَكِيناً، وأنه لم توجد قطيعة تامة بينهما بل بالعكس إن المعلومات المفصلة تُظْهر حدوث محالفات غير قليلة بين عشائر من الكتلتين، كما حدث بين أفراد الكتلتين زيجات غير قليلة، بالإضافة إلى حدوث منازعات بين عشائر كل من الكتلتين. ثم إن بعض مناطق المدينة كانت تسكنها عدة عشائر متباعدة في النَّسَب، ولكن قرب سُكْنى بعضها من بعض أوجد مصالح مشتركة، وخَلَقَ روحاً من التعاون جعلها تظهر كوحدة قائمة بذاتها. وأوضَحُ مثل على ذلك راتج، فقد سكنتها عدة قبائل: إحداها بنو الشطيبة[1]، وهم من غسان[2]، ومن سكَنَها قوم من غسان من ولد علبة بن جفنة حلفاء أبي سعيد[3].

ومن أهل راتج بنو زعورا بن جشم[4]، وهم من النبيت، ومن حلفائهم الجعادرة، هم بنو مُرّة بن مالك، ومنهم بنو سعد بن مرة بن مالك بن الأوس، ومنهم بياضة بن خفاف، وهم الجعادرة[5].

ومن ساكني راتج «ثابت بن وديعة بن سعد بن قيس بن الأيهم حلفا بني زعورا بن جشم، وأخو عبد الأشهل بن جشم، ودعوتهم من بني عبد الأشهل[6].

ومن ساكني راتج من الأوس بنو بياضة[7]، وهم بنو عامر بن زريق[8]، ومن ساكنيها بنو الجذماء[9].

(١) وفاء الوفا ١/ ١٥١ (عن ابن زبالة).
(٢) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ١٥٢؛ ابن حزم ٣٧.
(٣) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٢١.
(٤) ابن حزم ٣٣٨.
(٥) ابن حزم ٢٤٦/ ٣٤٥، ٣٤٦، ٤٧٣.
(٦) ابن سعد ٨/ ٨٦.
(٧) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٦.
(٨) ابن حزم ٣٥٧، ٤٧٢.
(٩) وفاء الوفا ١/ ١١٤، ١١٥.

كل هذا يدل على أن كتلتي الأوس والخزرج لم تكونا قَويَّتي التماسك، أو لم تكن أي منهما منعزلة كلياً عن الأخرى، وأن الخصومة بينهما لم تكن بالعنف الذي تُصوره بعض المصادر.

كان كل من الأوس والخزرج يتكون من عدة عشائر وبطون؛ والواقع ان التجمع العشائري كان أساس الروابط والتنظيمات في المدينة: فأفراد العشيرة يرتبطون بعدة روابط وثيقة كالإرث والعاقلة والتقارب في خطط السُّكنى. وللتكتل العشائري أهمية خاصة في المدينة التي كانت تفتقد منظمات عامة أو سلطة مركزية عليا تفرض الأمن والنظام.

غير أن استقرار العشائر مدةً طويلة وعملَها في الزراعة، قد خلق أحوالاً خاصة تختلف عما كان يسود في الصحراء: لقد تَيَسَّر في المدينة إقامة علاقات بين أفراد وعشائر مختلفة، ممَّا يتيح فرصاً أوسع لزواج الأفراد من خارج عشيرتهم، فتنشأ روابط جديدة تؤثر في إضعاف الرابطة العشائرية المحدودة.

التداخل بين العشائر

أدى ذلك أيضاً إلى حدوث تداخلات بين العشائر قبل الإسلام وبعده، إذِ اقتضت الأحوال الجديدة، ولا سيما تنظيم ديوان العطاء، إجراء مثل هذه التعديلات. وقد ذكرت المصادر عدداً من هذه التداخلات دون اعتبارها غريبة، الأمر الذي يدل على أنها كانت مألوفة منذ أيام قبل الإسلام، وكان هذا التداخل بين عشائر الأوس والخزرج كلها، ولم يقتصر على واحد منهما.

وعن الأوس ذكر ابن سعد أن «حريش بن عدي بن مجدعة بن حارثه دعوتهم ودارهم في بني عبد الأشهل، وقد انقرضوا أول الإسلام فلم يبق منهم أحد»[1].

(1) ابن سعد ٣/ ٢٠.

وذكر ابن حزم أن: «الحارث بن عوف، أخا عمرو بن عوف، دخل بنوه في بني أمية بن زيد»، كما قال: «بنو حنش بن عوف بن عمرو بن عوف. دخلوا في بني ضبيعة بن زيد»[1]. وذكر أن حنش بن عوف دخل في ضبيعة[2]. ومن المعلوم أن ضبيعة بطْنٌ من بطون عمرو بن عوف.

أما الخزرج، فيذكر ابن حزم أن ربيعة بن عَدِيّ بن غنم بن كعب بن سلمة دخل في بني عبيد بن عدي[3].

وجرت بين بعض العشائر، من الأوس والخزرج، محالفات محلية، وذكرت المصادر بَعْضَها، وبيَّنت أسباب قيامها دون أن تحدد زمنها، ولكن الراجح أنها حدثت قبل الإسلام حيث لم تكن في المدينة سلطة مركزية قوية تحفظ الأمن والنظام، فمن المحالفات التي ذكرت بين عشائر الأوس[4]:

١ ـ كان بنو السلم حلفاء بني عمرو بن عوف وكان قد بلغ عددهم في الجاهلية ألف مقاتل[5]. وذكر السمهودي، معتمداً فيما يظهر على ابن زباله، أنه «كان بنو واقف والسلم ابني امرئ القيس بن مالك بن الأوس ويسكنان عند مسجد الفضيخ، ثم كان بين السلم وواقف كلام، فلطم واقف، وهو الأكبر، عين السلم، وكان شرساً، فحلف لا يُساكِنه، فنزل السلم على بني عمرو بن عوف، فلم يزل ولده فيهم، ومِن بقيَّتهم سعد بن خيثمة بن الحارث ثم انقرضوا سنة ١٩٩، وكان لبني السلم حصنٌ شرقيَّ مسجد قباء ذَكَرَه ابنُ زبالة»[6].

٢ ـ كان «الجعادرة من ساكني راتج، من الأوس حلفاء لبني زعورا بن

(١) الأنساب لابن حزم ٣٣٢.
(٢) كذلك ٣١٣.
(٣) كذلك ٣٤٠.
(٤) كذلك ٣٤٤.
(٥) كذلك ٣٤٥، وانظر وفاء الوفا ١/١٣٨.
(٦) وفاء الوفا ١/١٣٨.

جشم»[٧] والجعادرة هم بنو مرة بن مالك «ويقال لهم أوس الله، سُمُّوا بذلك لِقِصَرٍ فيهم»[١]. وهم ثلاث بطون: بنو وائل وأمية وعطية بنو زيد بن قيس بن عامر بن مرة»[٢] وذكر ابن حزم أن سعد بن مرة بن مالك من أهل راتج[٣].

وحدثت بين بعض عشائر الخزرج محالفات: فيذكر ابن حزم أنَّ كلاً من عبد حارثه بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج، والحارث بن زيد مناة بن حبيب، كان حليفاً لبني بياضه. ويذكر أيضاً أن مالك بن زيد مناة بن حبيب كانوا حلفاء بني زريق[٤].

وقد جرت محالفات بين عشائر من الأوس وأخرى من الخزرج فيذكر ابن حزم أن كعب بن مالك بن جشم بن الخزرج هم حلفاء بني عمرو بن عوف[٥].

ويذكر ابن سعد أن القواقل، وهم بني غنم بن سالم، كانوا حلفاء بني عبد الأشهل الأَوْسِيِّين[٦].

وينقل السمهودي أن بني عذاره سكنوا قباء وحالفوا عمرو بن عوف[٧]. ومقابل المحالفات التي ذكرناها قامت خصومات عنيفة بين عشائر وبطون متقاربة في النسب، وذكرت الأخبار من هذه المنازعات بين عشائر الخزرج ما يلي[٨]:

١ ـ حدثت منازعات بين بني زريق من جهة، وبني بياضة وهم إخوة بني زريق، وبني حبيب وهم أولاد عم بياضة وزريق من جهة أخرى، وأدت هذه

(١) ابن سعد ٣ ـ ٢/١٦؛ ٤ ـ ٢/٨٠.
(٢) وفاء الوفا ١/١٢٤، ١٣٩.
(٣) جمهرة النسب لابن الكلبي ٢٥٩؛ ابن حزم ٣٢٧.
(٤) ابن حزم ٣٤٦، ٣٧١؛ وفاء الوفا ١/١٥٢.
(٥) ابن حزم ٣٥٦.
(٦) ابن حزم ٣٥٦.
(٧) ابن سعد ٣ ـ ٢/٢٥؛ ٤ ـ ٢/٨٣.
(٨) وفاء الوفا ١/١٤٧.

المنازعات إلى أن هجر بنو زريق منازلهم الأولى، وتفرقوا في مناطق متعددة من غربي المدينة، وهاجر بعضهم إلى الشام.

ثم حدثت منازعات بين بني بياضه وبني حبيب فانتقل بنو حبيب من رباعهم إلى مناطق أخرى في المدينة[1].

٢ ـ حدثت منازعات بين بني بياضة وبني عذارة، وكانوا متجاورين في السكن، فانتقلت بنو عذارة إلى قباء وحالفوا أهلها من بني عمرو بن عوف، وظلوا في منازلهم إلى سنة ١٦٠ حيث نقلوا ديوانهم إلى بني بياضة وصاروا يأخذون معهم العطاء سوية[2].

٣ ـ نشب قتال بين بطون بني مالك أَدَّى إلى فَناء الطرفين[3].

٤ ـ نشبت خصومات بين بطون بني سلمة[4].

وذكرت المصادر منازعات بين عشائر الأوس:

١ ـ حروب بين بني عبد الأشهل وإخوتهم بني حارثة اضطر على أثرها بنو حارثة إلى أن يتركوا منازلهم في شرقي المدينة ويتحولوا إلى منطقة في الشمال الغربي من المدينة. غير أن هذا لم يوقف القتال الذي استمر فاضطُرَّ بنو حارثة أن يخرجوا من المدينة موقَّتاً، ثم عادوا واستقروا في بقعة شرقي المدينة[5].

٢ ـ وحدثت بين بعض بطون بني عمرو بن عوف منازعات اضطُرَّت بعض البطون بسببها أن تترك قباء التي يسكنها بنو عمرو بن عوف وبنو معاوية بن مالك الذين انتقلوا إلى بقيع الغرقد، وبنو السميعة الذين انتقلوا إلى منطقة في شمال مسجد الرسول[6].

---

(١) وفاء ١/١٤٥ ـ ٦.

(٢) كذلك ١/١٤٦ ـ ٧.

(٣) كذلك ١/١٤٦ ـ ٧.

(٤) كذلك ١/١٤٣ ـ ٤.

(٥) كذلك ١/١٣٦.

(٦) كذلك ١/١٣٦ ـ ٧. وذكر البخاري قتالاً بين أهل قبا (صلح ٣٥)؛ وذكرت كتب الحديث منازعات بين عشائر عمرو بن عوف في زمن الرسول (ص): البخاري: صلح ١، أحكام ٣٦؛ أبو داوود؛ صلاة ١٦٩. النسائي: امامة ١٥؛ ابن حنبل ٥/٣٣٢، ٣٣٨.

إن استقرار عدد كبير من العشائر، المتقاربين في رقعة محصورة، يولد نوعاً من التوازن الذي عندما تسنده المصلحة المشتركة يخلُقُ دافعاً لاستتباب الأمن واستقرار النظام. وهكذا فإن خطر اضطراب الأمن الناجم عن فقدان السلطة خف بِنُمُوّ المصلحة في الاستقرار والسلم. ولعل هذه المصلحة كانت من أهم أسباب قلة الحروب والمعارك الفعلية التي حدثت في المدينة قبيل الهجرة.

حدَّت هذه الأحوال من قوة التماسك بين بطون وأُسر العشيرة الواحدة، وأتاحت المجال لحدوث تبدُّلات في التجمُّعات، كأن تتفكّك البطون إلى أسر، أو تتجمَّع بعض الأُسَر فتكوِّن بطناً، أو تتعاون بطون وعشائر متقاربة في المساكن وليس في النَّسَب كالذي حدث في أهل راتج.

ولم تهيمن الرابطة القَبَلِيَّة على كل جوانب الحياة، فقد كانت مُلْكيَّة الأرض الزراعية فردية وراثية، وكان لعدد غير قليل من الأفراد أُطُمٌ خاصة بهم. وكانت للمرأة حريتها ومكانتها الخاصة، كما يتجلى ذلك من بيعة النساء.

تحديد العشائر العربية

أشارت كتب النسب، والكتب التي عُنِيت بسيرة الرسول (ص) وتاريخ الإسلام ورجاله، إلى أسماء المجموعات من عرب أهل المدينة وعلاقاتها النسبية وأبرز رجالها، وخاصة منذ هجرة الرسول (ص). غير أنها لم تتفق على تحديد العشائر والبطون والأُسَر وتمييز كل منها، وإنما ذَكَرت قوائم مختلفة باختلاف الحوادث التي يتطلَّب توضيحُ مجراها ذِكْرَ المجموعات التي أسهمت فيها. والاختلاف في تحديد هذه المجموعات قد يكون مرجعه التباين في مشاركتها في الحوادث، كأن يشترك عدد كبير من عشيرة أو بطن في حادثة معينة، ويَقِلّ اشتراك أخرى في تلك الحادثة لأسباب خاصة وقتية، فيذكر في تلك الحادثة عشائر معينة بسبب اشتراك عدد كبير من رجالها فيها، ويُغْفَل ذكر عشائر أخرى لم يُسهم رجالها في الحادثة؛ وقد يكون مرجع الاختلاف عدم وجود حدود قانونية تحدِّد تكوين الجماعة، وتميِّز بدقة ووضوح حدود العشيرة والبطن والأسرة خاصة، وبذلك كانت هذه التعابير مَرِنَة غير واضحة الحدود،

فَتُعْتَبر الأسرة بطناً، والبطنُ عشيرة، إمَّا لِقوتها ومكانتها الاجتماعية والسياسية، أو لتزايد عدد أفرادها لسبب من الأسباب، فضلاً عن أن متطلَّبات تنظيمية تقتضي الاقتصار على ذكر مجموعات محدودة قليلة يشمل كل منها عدداً من البطون والأُسر، وبذلك يكون ذكر المجموعات الكبيرة دليلاً على مكانتها المتميزة في التنظيم، وليس على كونها الوحيدة التي تفردت بالإسهام في تلك الحادثة.

يذكر الذهبي أنّ المدينة، لما هاجر إليها الرسول (ص)، «كانت قرىً متفرقة»، أن عدداً منها كان لبني مالك، وبني عدي «من بني النجار، وبني سالم، وبني ساعده، وبني الحارث بن الخزرج، وبني عمرو بن عوف». وذكر ان دار عمرو بن عوف في قبّاء، وانه كان موضع بناء مسجد الرسول (ص) قرية صغيرة لبني مالك بن النجار[1].

لا ريب في أن تكوين دولة الإسلام في المدينة رافقته تطورات في تنظيم السكَّان: فقد عُنِيَ الإسلام بالفرد، وأولاه مكانة متميزة، ورَفَعَ من آمن به وأسهم في تثبيته وتوسيع دولته ومكانته خاصة، فازدادت مكانة العشائر التي برز فيها، أكثرَ من غيرها، رجالٌ أسهموا في تثبيت الإسلام، كما أنه نشر الأمن والسلم اللذين هيَّئا فرصة للتوسُّع والتنامي الحر، وأصبحت بعض الأسر بطوناً، وبعض البطون عشائر، وضَمُرت بعض الأسر والبطون، خاصة وأن الرسول (ص) لم يضع في تنظيمه للمدينة تحديدات صلبة جامدة لكيان المجموعات السكانية. وظل الأمر على هذا الحال إلى أن وضع الخليفة عمر بن الخطاب (رض)، الديوان حوالي سنة ٢٠ للهجرة، ونظَّم فيه السكان تبعاً لعشائرهم، ويجدر أن نشير إلى أن المعلومات التي وصلتنا عن ديوان المدينة تذكر ما خُصِّص للأفراد من عطاء ورزق، وتقتصر على الإشارة إلى أن تنظيم التوزيع قام على أُسُس قَبَلِيَّة دون أن تذكر أسماء الوحدات القبلية التي نُظِّمَ الديوان على أساسها، كما أنها لم تذكر تنظيم دفع الدِيَة في المدينة كالذي ذكرته المصادر عن تنظيمها في العراق حيث كان أفراد العشيرة يدفع كل منهم، لأربع سنوات، ثلاثة دراهم من

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٢٨٦.

مبلغ الدية البالغ اثني عشر ألف درهم، أي أن العشيرة كانت محدَّدة العدد وتبلغ حوالى ألف رجل.

مصادر ضبط عدد العشائر: الخطط

ومما له فائدة متميزة في تحديد المجموعات السكانية للعرب في المدينة نذكر خطط المدينة ومساجدها. فقد كان الأفراد من أهل المدينة مُكوَّنين من مجموعات يقيم كل منها في رقعة معينة تُكوِّن خطتها وتُسَمَّى بها. وعندما جاء الإسلام إلى المدينة، أقامت أكثر المجموعات مساجد، كل مسجد لعشيرة يجتمع فيه أفرادها للصلاة والتلاقي والاجتماعات، ووجود الخطة وسَعَتُها دليل على وجود مجموعة سكانية تقيم فيها بعدد مناسب وتَقارُب سُكّاني وتماسُك اجتماعي بصرف النظر عن مكانة أفرادها في الإسلام وتطوراته، ولا شك في ان هذه السمات المميّزة للخطط ظلت قائمة بعد الإسلام، بالرغم من أن سيادة الأمن والاستقرار، وتزايدُ الهجرة إلى المدينة أدى إلى بعض الاختلاط، كأن يقيم في خطةِ عشيرة رجال من غير أهلها، إذ أن كل ذلك لم يبدد السمة العامة للخطط إبّان القرنين الأول والثاني.

وَصَفَ السمهودي بتفصيل خطط المدينة وأشار إلى بعض ما حدث في كل منها من تطورات إبّان القرنين الأول والثاني. واعتمد في معلوماته، عن الأنصار من أهل المدينة، على ابن زباله ويحيى بن محمد، وهما مؤرخان معتمَدان عاشا في أواخر القرن الثاني، وفُقِدت كتبهما. ولكن التفاصيل التي نقلها السمهودي عنهما تُوحِي أنه استوعب معظم معلوماتهما.

ويجدر أن نذكر أن السمهودي، في وصفه خطط المهاجرين من قريش وأهل الحجاز إلى المدينة، اعتمد على ابن شبّة الذي يتجلّى، من كتابه الذي طبع حديثاً، مدى دقته واستيعابه في النقل، ولعل هذا ينطبق على ما نقله عن ابن زبالة ويحيى في وصف خطط الأنصار من أهل المدينة.

عَدَّد السمهودي خطط المدينة، وحدد أماكن كل منها، وأشار إلى بعض ما

في الخطط من معالم عمرانية، كالآطام والمزارع ومساكن بعض الأشخاص البارزين، ويمكن القول بأنه، من حيث العموم، كان يسكن في كل خطة أفراد العشيرة المسمَّاة بها الخطة، والراجح أن حلفاء كانوا يسكنون معهم في تلك الخطة.

ولا ريب في أن وصف السمهودي لخطط المدينة ينطبق على ما كانت عليه في القرن الثاني الهجري، غير أن أُسُسَها ترجع إلى أول الإسلام وما قبله دون إمكان تحديد بداياتها بدقة.

وذكر السمهودي بعض التبدلات في الخطط بسبب العشائر من منطقة سكنية إلى أخرى، وممَّن ذَكَرَ تحوُّلهم:

١ ـ بنو حارثة، فقد انتقلوا من دار بني عبد الأشهل إلى يثرب بسبب مقاتلات نَشَبت بينهم[1].

٢ ـ بنو جحجبا، الذين انتقلوا من قبا إلى العصبة في غربي قباء بسبب منازعاتهم مع بني عمرو بن عوف[2].

٣ ـ بنو السلم، الذين انتقلوا من مسجد الفضيخ إلى دار عمرو بن عوف[3].

٤ ـ عتبة بن عمرو بن خديج، الذين انتقلوا من دارهم ثم عادوا إلى السنح[4].

٥ ـ بنو زريق، الذين انتقلوا إلى قبلى المصلى[5].

٦ ـ عذرة، الذين انتقلوا إلى قباء فسكنوها وحالفوا عمرو بن عوف[6].

---

(١) وفاء الوفا ١/١٤٣.
(٢) وفاء الوفا ١/١٣٧.
(٣) وفاء الوفا ١/١٣٨.
(٤) وفاء الوفا ١/١٤٠.
(٥) وفاء الوفا ١/١٩٦.
(٦) وفاء الوفا ١/١٤٧.

وذكر أيضاً أن بني خطمة كانوا متفرقين ثم تجمعوا بعد الإسلام[١]، وان كلاً من بني ساعدة[٢] وبني مالك بن النجار[٣] كانت له أربعة منازل.

الوثائق الإسلامية الأولى

إن أول إشارة إلى تنظيم المجموعات العشائرية في المدينة هي في النقباء الاثني عشر الذين عينهم الرسول (ص) في بيعة العقبة الثانية، وكان منهم ثلاثة من الأوس، وتسعة من الخزرج، فكان عَلَى عبد الأشهل أسيد بن الحضير، وعَلَى مالك بن الأوس سعد بن خيثمة، وعلى عمرو بن عوف رفاعة بن عبد المنذر.

أما نقباء الخزرج فكان عَلَى بني كعب بن الخزرج سعد بن الربيع وعبد الله بن رَوَاحة،

وعلى بني ساعدة سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو،

وعلى غنم بن مالك بن النجار أبو أمامة أسعد بن زرارة،

وعلى بني زريق رافع بن مالك،

وعلى بني جشم البراء بن معرور،

وعلى بني حرام عبد الله بن عمرو،

وعلى بني غنم بن سالم عبادة بن الصامت،

ولا ريب في أن تعيين النقباء مرتبط بعدد من يستجيب للإسلام أكثر مما هو مرتبط بشمول التنظيم القبلي.

وذكرت صحيفة الرسول (ص) التي أصدرها في تنظيم المدينة ثماني مجموعات هي: من الخزرج بنو عوف، وبنو الحارث، وبنو ساعدة، وبنو

(١) وفاء الوفا ١/١٦٧.
(٢) وفاء الوفا ١/١٩٧.
(٣) وفاء الوفا ١/١٤٩.

جشم، وبنو النجار؛ ومن الأوس بنو عمرو بن عوف، وبنو النبيت، وبنو أوس، كما ذكر بني ثعلبة وبني الشطيبة[١].

وذكر ابن هشام العشائر من أهل المدينة التي وزعت عليها أسهم غنائم خيبر وهي: الحرث بن الخزرج[٢] وبياضة، وعبيدة، وحرام (من سلمة)، وساعدة، والنجار، وهم من الخزرج، وحارثة والأَوْس وهما من الأوس.

وفي فتح مكة ذكر ابن سعد راياتِ خمسةٍ من الأوس، وأربعةٍ من الخزرج. فمن الأوس بنو حارثة ورايتهم مع ابن أبي بردة بن نيار[٣]، وظفر ورايتها مع قتادة بن النعمان[٤]، وعمرو بن عوف ورايتُهم مع أبي لبابة بن عبد المنذر[٥]، ومعاوية بن مالك ورايتُهم مع جبير بن عتيك[٦]، وخطمة ورايتها مع خزيمة بن ثابت[٧].

أما الخزرج، فكان بنو مالك بن النجار ورَايتُهم مع عمارة بن حزم[٨]، والحارث بن الخزرج رايتهم مع عبد الله بن زيد[٩]، وساعدة رايتهم مع أبي أسيد الساعدي[١٠]، وسلمة رايتهم مع قطبة بن عامر.

كتب السيرة والتراجم

إن المعلومات الواسعة عن المجموعات السكانية للعرب في المدينة ترجع

---

(١) ورد نص الصحيفة في سيرة ابن هشام ٢/١، وفي كتاب الأموال لأبي عبيد (١٢٤) وكتاب الأموال لزنجويه، وانظر إشارات أخرى إليها في مجموعة الوثائق السياسية لمحمد حميد الله.

(٢) ابن سعد ٣ ـ ٢/٥.

(٣) كذلك ٣/٢٠٣/١٢٦.

(٤) كذلك ٣ ـ ٩١.

(٥) كذلك ٣ ـ ٢/٤٠١.

(٦) كذلك ٣ ـ ٢/٩٢.

(٧) كذلك ٣ ـ ٢/٥٢٩.

(٨) كذلك ٣ ـ ٢/٨٧، ١٩٣.

(٩) كذلك ٣ ـ ٢/١٠٢.

(١٠) كذلك ٣٢ ـ ٢/١٠٧.

إلى أوائل القرن الثاني الهجري حيث وصلتنا قوائم عن أسماء المشاركين في معركة بدر، الذين كانت لهم مكانة متميزة في دولة الإسلام، كما وصلتنا معلومات وكتب عن الأنساب تذكر القبائل والعشائر وتفرعاتها وأسماء عدد من البارزين من رجالها.

أما المشاركون في معركة بدر، فقد ذكرهم ابن اسحق في كتابه عن السيرة، وابن سعد في كتابه «الطبقات» الذي شمل السيرة والبدريِّين وعدداً كبيراً من الصحابة ونَسْلِهم، وعليهما كان معتمد مَنْ تَلَاهم في التدوين. وقد اعتمد ابن سعد في قائمته على ابن اسحاق وهشام بن محمد الكلبي وموسى بن عقبة، وعبد الله بن محمد بن عمارة الأنصاري. وقائمته من الأسماء لا تختلف، إلا قليلاً، عن قائمة ابن اسحاق. وقد نظَّم كل من ابن اسحاق وابن سعد قوائم أهل المدينة الأنصار من البدريين تَبَعاً لعشائرهم، غير أنهما اختلفا في ذكر أسماء وعدد المجموعات التي اتخذاها أساساً للتنظيم، فابن اسحق ذكر عدداً من المجموعات أكبر مِمَّا ذكره ابن سعد، غير أننا لا نعلم الأساس الذي اعتمده كل منهما، وسبب الاختلاف في أسماء المجموعات، وهل يرجع ذلك إلى تبدلات حَدَثَت إبَّان القرن الثاني الهجري فدُمجت عشائر وبطون بأخرى لِتَنَاقُص عددها بسبب المهاجرة أو الوفاة، أو إلى اجتهادات شخصية. وهذا الأمر ينطبق على ما أورده هشام بن الكلبي في كتابه «النَّسَب» حيث فَصَّل في العلاقات النسبية للعشائر والبطون ورجالها دون تحديد دقيق لماهية المجموعات التي ذكرها.

أشار ابن سعد إلى اعتماده على سِجِلَّات الدواوين في معلوماته عن تحديد العشائر، فَذَكَر أن بني غنم وبني سالم ابني عوف (من الخزرج) «سُمُّوا القواقلة، وكذلك هم في الديوان يُدْعَون بني قوقل»[1]، وأن بني «حريش بن عدي بن مجدعة بن حارثة دعوتُهم ودارهم في بني عبد الأشهل»[2]، وذكر

---

(١) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٩٥.

(٢) ابن سعد ٣ ـ / ٣٠.

السمهودي أن بني خطمة كانوا متفرقين ثم تجمّعوا بعد الإسلام[1]. وذكر ابن سعد أن «عمرو بن الحكم هو من بني عمرو بن عامر الفطيون وهم حلفاء للأوس من الأنصار ودعوتهم في الديوان في بني أمية بن زيد وبنو أمية بن زيد، آخر دعوى الأوس[2]، وان غضب بن جشم بن الخزرج دعوتهم في بني زريق»[3].

ولا ريب في أن تنظيم الديوان حوالَى سنة ٢٠هـ ثَبَّتَ المجموعات العشائرية، وأن هذا التنظيم ظل أساس العمل أمداً غير قصير. غير أن تطور الأحوال اقتضى إجراء تعديلات فيه، ولم تذْكُر المصادر تفاصيل عن زمن ونطاق هذه التعديلات. غير أن ابن سعد، خاصة في تراجمه لرجال الأنصار من البدريين، أشار إلى أحد أسبابها وهو الانقراض الذي حدث بعد الإسلام في عدد من العشائر، وفي نَسْل الأفراد المشاركين في بدر.

لا يوجد اختلاف واسع بين ابن اسحاق وابن سعد في ذكر أسماء المجموعات العشائرية للأوس، فقد ذكر كلاهما عبد الأشهل، وظفر، وعمرو بن عوف، وذكر بطون عبد عوف: ضبيعة، وأمية، وعبيد بن زيد، وثعلبة، وجحجبا، ومعاوية بن مالك، وغنم بن السلم، وأفْرَد ابنُ اسحاق بني العجلان وحنش.

غير أن اختلافات واسعة وقعت بين ابن اسحاق وابن سعد في تسمية عدد من عشائر الخزرج وبطونها، فذكر ابن اسحاق، ممن اشترك في بدر، رجالاً من بني مالك بن النجار سمَّى منهم بني عامر بن مالك (مبذول)، وعمرو بن مالك (حديلة)؛ وهي تشمل قيس بن عبيد، ومغالة، وعَدِيّ بن النجار (وتشمل عدِيّ بن عامر وحرام)، ومازن بن النجار (وتشمل عوف وخنساء من مبذول، وثعلبة)، ودينار بن النجار (وتشمل مسعود بن عبد الأشهل وقيس بن مالك).

(١) وفاء الوفا ١/١٣٩.
(٢) ابن سعد ٥/٢٠٧.
(٣) ابن سعد (الجزء الإضافي المطبوع في المدينة) ٢٩٦.

أما ابن سعد فاقتصر على ذكر مالك (وهي تشمل عَدِيّ، ومازن، ودينار، وغنم، وعمرو، ومغاله، ومبذول). وبذلك أغفل ذكر فروع عشائرها.

وذكر ابن اسحاق بني الخزرج وعدَّد منهم جدارة، والأبجر (خدرة) وامرأ القيس، وعديّ بن كعب، وأحمر بن حارثة، وجُشَم وزيدَ وعُبَيْد (الحبلى) وجزء، وسالم بن عوف، ودعد، ومرضخة ولوذان (ابني غنم). أما ابن سعد، فذكر، من بني الحارث بن الخزرج، كعب بن الحارث، وجُشَم وزيد، كما ذكر عوف بن الخزرج (وهم يشملون سالم بن غنم الحبلى).

وذكر ابن اسحاق بني ساعدة، وهم يشملون ثعلبة، والبدي، وطريف، أما ابن سعد فاقتصر على ذكر بني ساعدة دون بطونها.

وذكر ابن اسحاق جشم بن الخزرج وهم يشملون: سلمة وحرام، وسواد وعبيد (وبطونها: خنساء وخناس، والنعمان، وعدي). أما ابن سعد، فذكر العشائر الثلاث ولم يذكر بطون عبيد.

وذكر ابن اسحاق بني زريق وعدّد منها مخلد، وخالد، وخلدة، وبياضة، وحدات قائمة بذاتها دون ذكر عشائرها، وذكر أيضاً غنم، وعدّد من عشائرها عمرو بن عوف، وعبيد بن ثعلبة، وعائذ، وزيد بن ثعلبة، وسواد بن مالك.

أما ابن سعد، فذكر جشم، وهي تشمل سلمة، وحرام، وعبيد بن عدي، وسواد بن غنم بن كعب بن سلمة، ثم سائر سلمة.

ومما قد يكون ذا فائدة ان نذكر أن ابن حزم ذكر خمس عشائر للخزرج، وهي تيم الله، وجشم، والحارث، وعوف، وساعدة.

يدل هذا العرض أن الأوس كانت عشر عشائر.

أما الخزرج فأبرز مجموعاتها الكبيرة بنو مالك، وبنو الحارث بن الخزرج، وجشم، وزريق، غير أن فروعها مربكة ومتباينة مما يدل على حدوث تبدلات واسعة في تنظيماتها.

الانقراض

ذَكَر ابن سعد، في القسم الثاني من الجزء الثالث الذي خصه لتراجم البدريين من الأوس والخزرج، انقراض عدد من العشائر والبطون ونَسْلَ عدد من الأفراد، وذَكَر، ممن انقرض من العشائر والبطون «ولم يبق منهم أحد» من بني عبد الأشهل، بني وقش بن زغبة بن زعورا بن عبد الأشهل[١]، وبني زعورا بن عبد الأشهل[٢]، وبني حريش بن عدي الذين كانت «دعوتهم ودارهم في بني عبد الأشهل، وقد انقرضوا في أول الإسلام فلم يبق منهم أحد»[٣]، وولد عمرو بن جشم بن الحارث بن الخزرج الذين «انقرضوا منذ زمان طويل، وهم أهل راتج[٤]. وكان مالك بن التيهان وأخوه آخر من بقي منهم[٥]. وانقرض أيضاً ولد مر بن ظفر[٦]، وبنو معاوية بن مالك إلا ولد جبر بن عتيك[٧].

ويذكر ابن زباله أن بني السلم انقرضوا سنة ١٩٩، ويقول ابن حزم أن بني السلم انقرضوا جميعهم وكان قد بلغ عددهم في الجاهلية ألف مقاتل[٨].

وذُكر ممن انقرض من الخزرج بنو عائذ بن ثعلبة بن غنم «جميعاً فلم يبق منهم أحد»[٩] وولد ضمضم بن زيد بن ثعلبة بن غنم جميعاً فلم يبق منهم أحد[١٠].

وانقرض أيضاً من الخزرج ولد عدي بن أمية بن جدارة[١١]، وولد عباد بن

---

(١) الطبقات ٣ ـ ١٧/٢، وذكر أن بني زغبة بن عبد الأشهل انقرضوا: ١٢١، الجزء المضاف على طبعة ليدن بن سعد.
(٢) الطبقات ٣ ـ ١٦/٢، ١٧، ١٨.
(٣) الطبقات ٣ ـ ٢٠/٢.
(٤) الطبقات ٣ ـ ٢١/٢و ٨، ٢٣٨.
(٥) الطبقات ٣ ـ ٢/٢.
(٦) الطبقات ١٩١/٥.
(٧) الطبقات ٣ ـ ٣٨/٢.
(٨) وفاء الوفا، ١٣٨/١، وانظر ابن حزم ٣٤٥.
(٩) الطبقات ٣ ـ ٥٣/٢.
(١٠) الطبقات ٣ ـ ٥٤/٢.
(١١) الطبقات ٣ ـ ٨٨/٢.

الأبجر[١]، وولد قيس بن خلدة من بني زريق[٢]، وولد خالد بن زيد بن حرام[٣]، وولد حبيب بن الحارث بن ثعلبة بن مازن[٤]، وبنو دينار بن النجار إلاّ بقية سليم بن الحارث[٥]، وولد حارثة بن امرئ القيس بن الأغر[٦]، وولد حارثة بن ثعلبة بن كعب[٧]، وولد الحارث بن عبيد[٨]، ولوذان بن سالم بن عوف[٩]، وولد حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب إلا ولد هلال بن المعلى[١٠].

وممن انقرض بنو عائذ بن ثعلبة بن غنم[١١]، وبنو أصْرَم بن زيد بن ثعلبة[١٢]، وولد خالد بن زيد بن حرم[١٣]، وولد حبيب بن الحارث بن ثعلبة بن مازن[١٤]، وبنو دينار لم يبق منهم إلا آل سليم بن الحارث[١٥]، وولد عمرو بن أبي زهير بن مالك[١٦]، وولد حارثة بن امرئ القيس[١٧]، وولد حبيب[١٨]، وبنو العجلان، وولد لوذان بن سالم بن عوف[١٩].

---

(١) الطبقات ٣ ـ ٢/ ٨٩.
(٢) الطبقات ٣ ـ ٢/ ١٣٠.
(٣) الطبقات ٣ ـ ٢/ ٧٢.
(٤) الطبقات ٣ ـ ٢/ ٧٤.
(٥) الطبقات ٣ ـ ٢/ ٧٦.
(٦) الطبقات ٣ ـ / ٨٢.
(٧) الطبقات ٣ ـ ٢/ ٨٥.
(٨) الطبقات ٣ ـ ٢/ ٩١.
(٩) الطبقات ٣ ـ ٢/ ٩٨.
(١٠) الطبقات ٣ ـ ٢/ ١٣٤.
(١١) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٥٣.
(١٢) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٥٤.
(١٣) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٧٢.
(١٤) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٧٤.
(١٥) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٧٦.
(١٦) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٧٧ ـ ٧٨.
(١٧) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٨٢.
(١٨) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٨٥، ١٣٤.
(١٩) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٩٧ ـ ٨.

وذكر أيضاً أن معاوية، وسليمان، وبشير أولاد أبي عياش من بني خلدة بن عامر بن زريق انقرض عقبهم فلم يبق منهم أحد[١].

يقول ابن سعد: شارك من الأنصار في معركة بدر، من الأوس واحد وستون ومن الخزرج مائة وسبعون[٢] وترجم في النسخة المطبوعة لسبعة وأربعين من الأوس، وذكر ابن سعد عشرين منهم لم يُعْقِب أو انقرض نسله كما ترجم لمائة وسبعة وسبعين من الخزرج ذكر أن مائة واثنين وأربعين منهم لم يُعْقبوا.

وذكر في الجزء الخامس من كتابه ممن لم يُعْقب عمرو ومحمد ويزيد بني ثابت (من ظفر[٣]، وعبد اللد بن زيد بن ثابت[٤]، وعمارة بن عقبة[٥]. ومحمد بن نبيط (من مالك بن النجار)، والحجاج بن عمرو (من مبذول)[٦]، وعبيد الله بن مجمع (من بلى)[٧]، وأيوب بن بشر (من عمرو بن عوف)[٨].

كما أنه ذكر أن عبد الرحمن بن زيد (من مالك بن النجار) وعبد الرحمن بن أبي قتادة (من سلمة) قُتِلا في الحرة، وكل منهما لم يُعْقب[٩]. ويلاحظ أن المدينة لم تتعرض للأوبئة الكاسحة[١٠]، وأن عدد من انتقل من الأنصار من المدينة إلى بقية أرجاء الدولة، وعدد من استشهد منهم في مشاركته بغزوات الرسول (ص) في القضاء على الردة وفي الفتوح الأولى لم يكن كبيراً لدرجة قَرْض عشائر وبطون أُسَر، ونسل أفراد بارزين.

يبدو أن هذا التناقض في الأنصار استمر حتى ندر وجودهم في المدينة

---

(١) ابن سعد ٤/ ٢٠٥.
(٢) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ١٣٤، وهو يذكر اختلافاً بسيطاً في الأرقام التي ذكرها كلٌّ من ابن اسحاق، والواقدي، وموسى بن عقبة.
(٣) ابن سعد ٥/ ١٩١.
(٤) ابن سعد ٥/ ١٩٦.
(٥) ابن سعد ٥/ ١٩٦.
(٦) ابن سعد / ١٩٧.
(٧) ابن سعد ٥/ ١٩٢.
(٨) ابن سعد ٥/ ٥٧٢.
(٩) ابن سعد / ٢٠٢.
(١٠) وفاء الوفا ١/ ٤٥ ـ ٤٧، ٤٠، ٤٢.

فيروي المقري عن ابن سعيد فيقول: «ومن الأزد من ينتسب إلى الأنصار على العموم، وهم الجم الغفير بالأندلس، قال ابن سعيد والعجب أنك تعدم هذا النسب بالمدينة وتجد منه بالأندلس في أكثر بلدانها ما يشذ عن العدد كثرة، وقد أخبرني مَنْ سأل عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد إلّا شيخاً من الخزرج وعجوزاً من الأوس»[1]. ويذكر السمهودي: «تفرق الأنصار في الأمصار من أجل غزو الكفار، وانقرضوا فلم يبق منهم إلا بقايا متفرقون بنواحي الحجاز[2]؛ وقال البخاري «هذا الحي من الأنصار يقِلُّون ويكثر الناس، فإن الناس يكثرون ويقلّ الأنصار»[3].

وذكر البخاري وابن حنبل أن المدينة موبوءة[4]، ولم يذكرا المرض الذي يسبب الوباء ويصيب الأنصار دون غيرهم.

---

(١) نفح الطيب ١/ ٢٧٥ (طبعة محيي الدين عبد الحميد).

(٢) وفاء الوفا ١/١٠٦، المنهل الصافي ٤/١٨٦.

(٣) البخاري، مناقبه ٢٥، مناقب الأنصار ١، جمعة ٢٩.

(٤) البخاري ٢٩ ـ ١٢، ابن حنبل ٣/ ٣٦٥، ٥/ ٨١، ٦/ ٢٣٩، ٢٦٠.

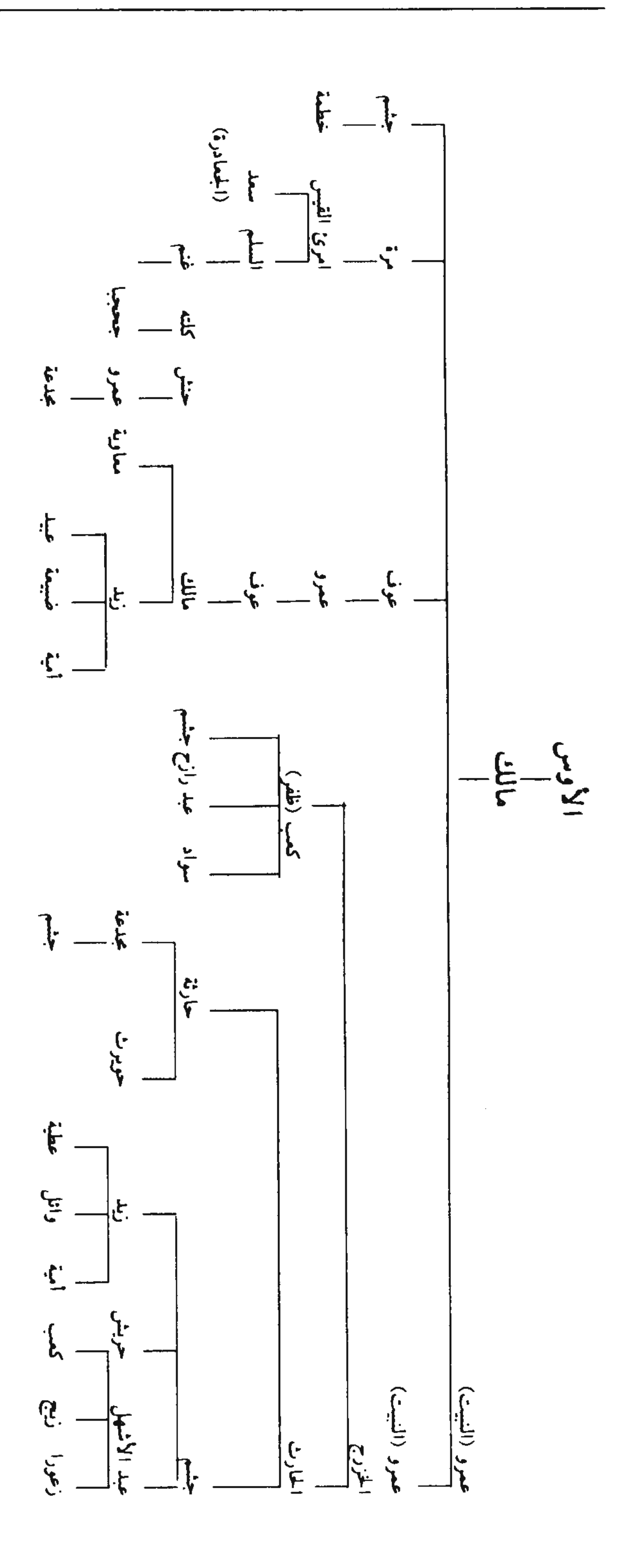
النجار	العقبة	نقيب	الوثيقة	راية الفتح	خطط	مساجد	ابن اسحاق	ابن سعد	قتلى أحد	انقرض
غنم بن مالك	١+٤	١	—	—	×	—	—	٤+١٩	—	١+١٣
حديلة (معاوية بن عمرو)		٢	—	—	×	×	—	٢	١	٢
عدي بن عمرو	—	—	—	—	×	×	١٠	٣	١	٣
دينار					×	×	٤	١+٦	١	٤
مازن						×	١+٤	١+٥	—	—
ثعلبة بن مازن					×	×	٢		١	
مبذول	١	١	—	—	—	×	٤	٣	٢	٢
عدي بن عامر								١+١١		١+٧
غنم بن مازن	٢						٢			
عبد الأشهل							٥			
الحارث		××			×	—	—	٣		
كعب	٧	٣								
ثعلبة	٢							٩	٠	٤
حدرة					×	×	١	٢+١	٣	١
خدارة							٤	٢	—	١
الخزرج			×	×			٤	٢		١

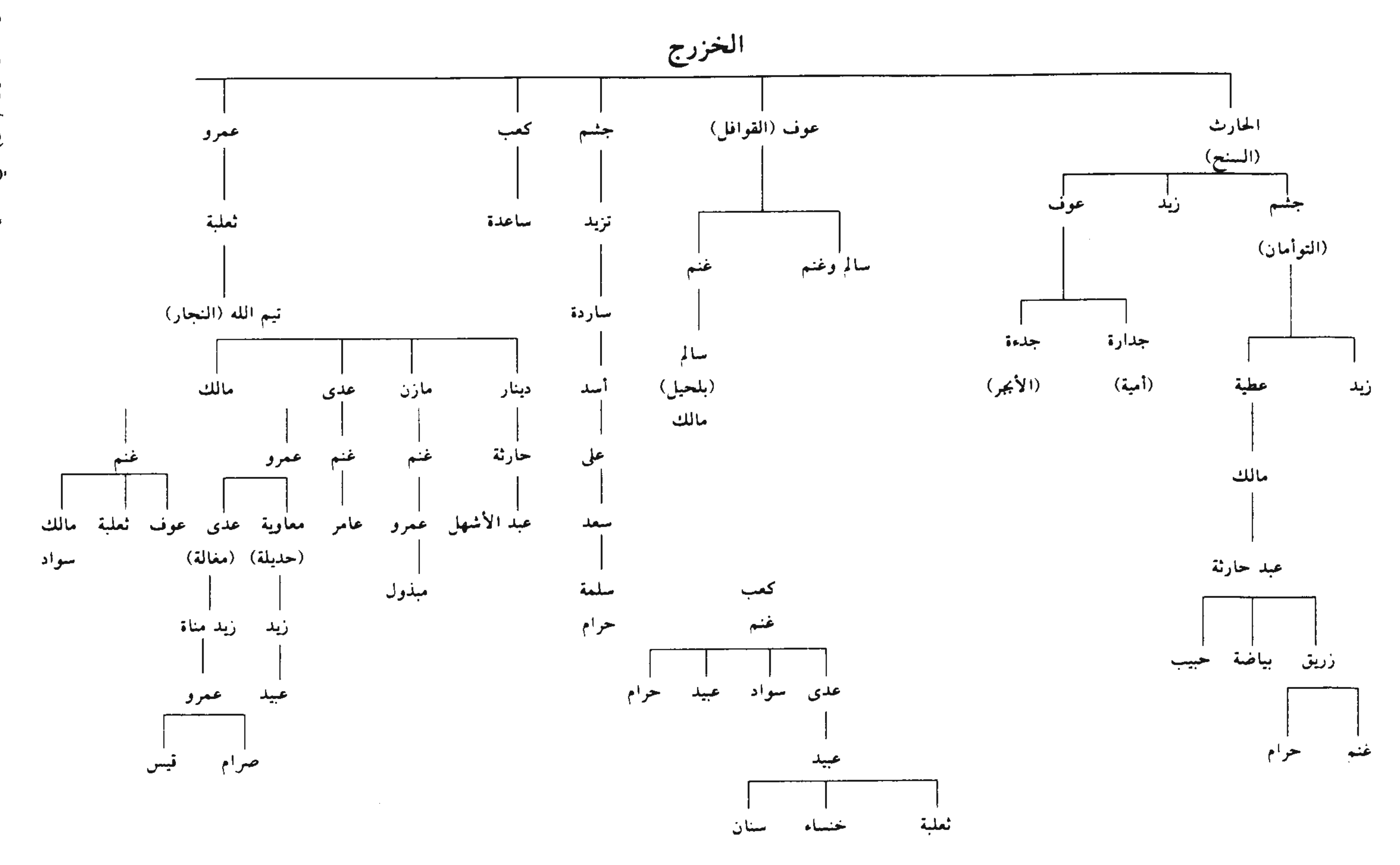
النجار	العقبة	نقيب	الوثيقة	راية الفتح	خطط	مساجد	ابن اسحاق	ابن سعد	قتلى أحد	انقرض
عوف (القواقل)	٢+٢	—	×	×	×		٢	٦+١٠		٤+٧
الحبلى (سالم بن غنم)	١+١				—	—	٢	٣+٥	١	٢+٣
جشم وزيد (التوأمان)							٤	٤	٤	٤
ساعدة	٢	××	×	×	×	—	—	٣١٥	٢	٢+٢
زريق	٤	١		—	—		١٦	٢		٢+٢
بياضة	٣				×	×	٤	٤		٤
حبيب					×		٢	٢		١
سواد					×		١+٧	١+٧	٣	٣
خنساء	١٧				×	×	٧			
عبيد					×		٢+٧	٢+١٥		٢+١٣
نابي			×			×	×	٦		٤
سلمة						×	×	٦		٤
كعب بن سلمة										
حرام	١+٦	١	×		×	×	٢+١٠	٢+١٢		١
جشم	—	١	××	×	×					٢+٨
أحمر بن حارثة							١			

	العقبة	نقيب	الوثيقة	راية الفتح	خطط	مساجد	ابن اسحاق	ابن سعد	قتلى أحد	انقرض
عبد الأشهل	٣	١	×	—	×	×	٤	٦+١١	١٢	٤+٥
حارثة بن الحرث	١+٤	١	×	×	×	×	١+٣		٢	٤+٦
ظفر	—	—	—	×	×	×	٢	٢+٣	١	٢+٢
زعورا	—	—	—	×	×	×	٤×٦	٦+٦	٢	٤+٦
عمرو بن عوف	١+٤	١	×	×	×	×		٩	٣	—
أمية بن زيد	—	—	—	—	×	—	٦	٢+٧	—	—
عبيد بن زيد	—	—	—	—	×	×	٦+١	٦+١	—	٣+١
وائل بن زيد	—	—	—	—	×	×				
عكابة بن زيد	—	—	—	—	—	×	×			
خطمة				×	×	×				
ضبيعة	—	—	—		×	—	١+٤	٤	—	٣
جحجبا	—	—	—	—	×	—	١	١+١	—	١
عبيد بن كعب	—	—	—	—	×	—	١	—	٣	
عدي بن رزاح بن كعب	—	—	—	—	—	—	١+٢			
ثعلبة بن عمرو	—	—	—	—	×	×	٧	٨	٢	٤
واقف	—	—	—	—	×	×	—	—	—	—

النجار	العقبة	نقيب	الوثيقة	راية الفتح	خطط	مساجد	ابن اسحاق	ابن سعد	قتلى أحد	انقرض
معاوية بن مالك	—	—	—	—	×	×	٢+١	١+٢		١١+
حنش بن عوف	—	—	—	—	—	—	—	١		
لوذان	—	—	—	—	×	—	٦+٢			
غنم بن سالم										
الجعادرة										

(٥) وذكرها ابن شبة لكل من أمية، والعصبة، وعمرو بن مبذول وعدي، والسنح.


الأوس
مالك
عمرو (النبيت)
عمرو (النبيت)
الخزرج
الحارث
جشم
عبد الأشهل
زعورا
زبج
كعب
حريش
زيد
أمية
وائل
عطية
حارثة
حويرث
مجدعة
جشم
كعب (ظفر)
سواد
عبد رازح جشم
عوف
عمرو
عوف
مالك
زيد
أمية
ضبيعة
عبيد
معاوية
حنش
عمرو
مجدعة
كلته
جحجبا
مرة
امرئ القيس
السلم
غنم
سعد
(الجعادرة)
جشم
خطمة


الخزرج
الحارث (السنح)
جشم (التوأمان)
زيد
عوف
جدارة (أمية)
جدءة (الأبجر)
زيد
عطية
مالك
عبد حارثة
زريق
بياضة
حبيب
غنم
حرام
عوف (القواقل)
سالم وغنم
غنم
سالم (بلحبل)
مالك
جشم
تزيد
ساردة
أسد
على
سعد
سلمة
حرام
كعب
غنم
عدى
سواد
عبيد
حرام
عبيد
ثعلبة
خنساء
سنان
كعب
ساعدة
عمرو
ثعلبة
تيم الله (النجار)
دينار
حارثة
عبد الأشهل
مازن
غنم
عمرو
مبذول
عدى
غنم
عامر
مالك
عمرو
معاوية (حديلة)
زيد
عبيد
عدى (مغالة)
زيد مناة
عمرو
صرام
قيس
غنم
عوف
ثعلبة
مالك
سواد

الفصل الثالث

اتصال أهل المدينة بالرسول (ص)

بدأ الاتصال بين الرسول (ص) وأهل المدينة عندما كان يعرض دعوته في مكة على القادمين إليها من العشائر والأفراد. فيذكر ابن إسحق أن الرسول (ص) كان لا يسمع بقادم يَقْدَم من العرب له اسم وشرف إلاّ تَصَدَّى له فدعاه إلى اللّه وعرض عليه ما عنده[1]. ولا ريب في أن من مزايا الاتصال بالأشخاص أن التأثير فيهم أيسر من التأثير في العشائر، وأن بمقدور الأفراد التأثير في عشائرهم. غير أن قول ابن إسحق أن الرسول (ص) قَصَرَ اتصاله على من كان له اسم وشرف، يُظهر إدراك الرسول (ص) أهمية هؤلاء، ولكنه لا يعني أنه قَصَر دعوته عليهم. وذكرت المصادر واحداً من هذه الاتصالات الأولى التي لم تثمر، وهو اتصاله بسويد الصامت من بني عمرو بن عوف. «وكان سويد إنما يسميه قومه الكامل لجلده وشرفه ونَسَبِه «وكان قد قَدِمَ مكة حاجاً» فتصدَّى له رسول اللّه (ص) حين سمع به فدعاه إلى اللّه وإلى الإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي، فقال رسول اللّه (ص) وما الذي معك، قال مجلة لقمان[2] والمشهور أن لقمان كان حكيماً ولم يكن نبيّاً، ولم يُعرف لسويد أتباع أو أنصار، ولم يُعَمَّر بعدها طويلاً إذْ قُتل قبل يوم بعاث[3]. غير أن

---

(1) ابن هشام ٢/ ٤٣.
(2) ابن هشام ٢/ ٣٤.
(3) ابن هشام ٢/ ٣٦.

احتفاظه بمجلة لقمان يشير إلى أنه كان ممن يهتم بالأمور الفكرية والفلسفية، وأن له اطلاعاً على بعض الثقافات القديمة، وأنه ذو مستوى ثقافي عالٍ، ورضي بكلام الرسول ولكنه لم يعتنق الإسلام.

ويروى أن الرسول (ص) اتصل بنفر من بني عبد الأشهل كانوا جاؤوا إلى مكة يلتمسون حلف أهلها ضد الخزرج. غير أن الوفد لم يستجب لدعوة الرسول الدينية العقائدية. قالوا للرسول (ص): «جئنا لغير هذا»[1]، أي أن غرضهم كان سياسياً «محلياً»، وهو ما لم يستهدفه الرسول.

وأول اتصال مثمر بين الرسول (ص) وأهل المدينة حدث عندما قَدِم مكة نفر اتَّصل الرسول (ص) بستة منهم ودعاهم إلى الإسلام فاستجابوا وهم أسعد ابن زرارة (زريق)، وعوف بن الحارث (بني النجار)، ورافع بن مالك (زريق)، وعقبة بن عامر (سواد)، وقطبة بن عامر (سلمة)، وجابر بن عبد الله[2]. ويضيف الواقدي إليهم أبو الهيثم بن التيهان، (حليف عبد الأشهل)، ويذكر أنه كان «يكره الأصنام في الجاهلية ويقول بالتوحيد، ويجعل أبا الهيثم أيضاً في الثمانية من النفر الذين آمنوا برسول اللّه (ص) في مكة من الأنصار فأسلموا قبل قومهم، ويجعل أبا الهيثم أيضاً في الستة النفر الذين يروى أنهم أول من لقي رسول اللّه (ص) من الأنصار بمكة، فأسلموا قبل قومهم، وقدموا المدينة، وأفشوا الإسلام». ويقول الواقدي أيضاً: وأمر الستة أثبت الأقاويل عندنا أنهم أول من لقي رسول اللّه (ص) من الأنصار فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا. وذكر الواقدي أيضاً أن أول من أسلم من الستة هما أبو الهيثم بن التيهان، وأسعد ابن زرارة[3] وفيما عدا أبا الهيثم بن التيهان فإن المصادر لم تذكر الاتجاهات

---

(١) ابن هشام ٢/ ٣٤، أنساب الأشراف ١/ ٢٣٨.

(٢) ابن هشام ٢/ ٣٩، في رواية أنهم ثمانية ويضيف عبادة بن الصامت وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة سعد.

(٣) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٢٥، ويذكر ابن حزم أن أول من أسلم أبو رافع عبيد بن زيد عامر العجلان (الأنساب ٣٣٩)، وانظر عن إسلام أسعد بن زرارة، ورافع بن مالك ومعاذ بن عفراء قبل الستة ابن سعد ١ ـ ١/ ١٤٦.

الفكرية لهؤلاء الستة، وهم من عدة عشائر، ومن ذوي المكانة في قومهم، وكانوا قد جاؤوا للحج، وليس لأيِّ غرض سياسي، ولم يُسْلِموا لمصالح شخصية أو لِجَرّ مغانم، كما أن الرسول (ص) لم يوجه معهم إلى المدينة أحداً من مسلمي قريش، غير أن اتصالهم القصير بالرسول (ص) معناه إدراكهم مبادىء الإسلام الأساسية دون تفاصيلها.

يَرْوي ابن إسحق أنه، عندما عاد الستة إلى المدينة «فَقَدِمُوا إلى قومهم ذكروا لهم رسول اللّه (ص)، ودَعَوْهُم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكرٌ من رسول اللّه»[١].

لقيت دعوة هؤلاء الستة في المدينة الاستجابة في عشائر متعددة، ولم تنحصر في عشيرة معينة أو جماعة محددة، ولا بد أن الآراء التي عرضها هؤلاء الستة كانت مقنعة للناس، إذْ لم يرد ذكر معارضة لها، ولم تكن على أسس عشائرية أو طبقية، ولا توجد إشارة إلى أنهم أرادوا من تحقيقها أهدافاً وطموحات سياسية، فالاستجابة كانت على أُسُس فكرية وروحية، لعل للتفكك السياسي في المدينة وعدم وجود مركز ديني فيها، وضعف اتصالاتها الخارجية أثراً في هذه الاستجابة التي يرجع نجاحها إلى الظروف الداخلية في المدينة، علماً بأن المصادر لم تذكر اتصالهم بالرسول (ص) بعد عودتهم، أي أن نجاحهم قام على جهودهم الشخصية واجتهاداتهم الموفقة.

بيعة العقبة الأولى

وفي السنة التالية قَدِمَ مكةَ اثنا عَشَرَ ممن قَبِلوا دعوة الإسلام، منهم الستة الأوّلون، وأضيف إليهم ذَكْوَان بن عبد بن عبد القيس (بني زريق)، وعويم بن ساعدة (الأوس)، وأبو عبد الرحمن وعبادة بن الصامت وأبو الهيثم بن التيهان (من بلى) والعباس بن عبادة، ومنهم اثنان من الأوس أحدهما حليف[٢]،

(١) ابن هشام ١/٢٦٨، ابن سعد ١ ـ ١/١٤٧.

(٢) ابن هشام ٢/٤٠، ابن سعد ١ ـ ١/١٤٨.

فأسلموا وبايعوا على بيعة النساء «على أن لا نشرك باللَّه شيئاً. ولا نسرق، ولا نَزْني، ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نقترفه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف[١]، فالالتزام في هذه البيعة على التوحيد وعلى تنفيذ أحكام أخلاقية محددة ذات فائدة لاستقرار المجتمع ولا تُنافي المبادىء العامة المتعارفة.

إرسال مصعب بن عمير

بعد عودة المبايعين في العقبة إلى المدينة، طلبوا إلى محمد (ص) أن يرسل معهم رجلاً يُفقِّههم في الدين. ويرى ابن إسحق أن الدافع إلى ذلك دافع سياسي. قال: إن «الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض»[٢]. غير أن الأرجح أنهم أرادوا أن يرافقهم رجل من المسلمين الأوَّلين المطَّلعين على مبادىء الإسلام وتعاليمه لِيُنَظِّم توجيههم، فاختار الرسول (ص) للقيام بهذه المهمة مُصْعب بن عمير. ومصعب هذا من بني عبد الدار، وهو أيضاً ابن عم عبد الله والد الرسول (ص) وكان في شبابه لبّاساً، معطاراً، وأسلم عندما كان الرسول (ص) يدعو سراً في دار الأرقم، ثم هاجر إلى الحبشة وعاد منها فأرسله محمد (ص) إلى المدينة حيث بقي سنة ثم عاد إلى مكة، وهاجر مع الرسول، ثم قُتِل في معركة أُحُد[٣]، ولم تكن له صلة نسب، أو مصالح شخصية مع أهل المدينة، فاختياره قائم على مؤهلات شخصية تُمَكِّنه «أن يُقرِئَهم القرآن، ويعلِّمهم الإسلام، ويُفَقِّههم في الدين»[٤]، أي أنه جاء حراً، وليس لاجئاً، وغرضه ديني عقائدي لا سياسي، فلم يَرِد ذكرٌ لِتَوَلّيه رئاسة سياسية لجماعة المسلمين، ولا بد أن تكون الدعوة قد أفادت من نشاط من أسلم من أهل المدينة.

نزل مصعب بن عمير على أسعد بن زرارة[٥] وقام بتوضيح معالم الإسلام

---

(١) ابن هشام ٢/ ٤١، ابن سعد ١ ـ ١/ ١٤٨، وانظر عن موضع نصوصها من كتب الحديث: مفتاح كنوز السنة ٨٥.

(٢) ابن هشام ١/ ٤٢.

(٣) ابن سعد ٣ ـ ١/ ٨١ ـ ٨٦.

(٤) ابن سعد ٣ ـ ١/ ٨٣، ابن هشام ١/ ١٦٩.

(٥) ابن هشام ١/ ٢٧٣، ابن سعد ٣ ـ ١/ ٨٣.

الذي بدأ ينتشر بالجهود التي قام بها المسلمون، ولا شك أنه استفاد من إسناد أسعد بن زرارة. غير أن هذا لم يكن معتمده الوحيد، ولا بد أن توجيهاته الشخصية بأفكارها وأساليبها أسهمت في نجاح مهمته، علماً بأن المصادر لم تشر إلى ما أكد عليه، أو لم تُشِرْ إلى طُرُقِهِ في التوضيح والإقناع التي يدل على نجاحها عدم ذكر عقبة واجهته في عمله، أو معارضة عرقلت نشاطه.

أخذ الإسلام ينتشر تدريجياً فـ «يسلم الرجل والرجلان»[١]، وكان اعتناقه فردياً، ولم ينحصر في قبيلة واحدة، وإنما «فشا في دُور الأنصار كلها[٢]، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا فيها رجال ونساء مسلمون»[٣].

ومن أبرز من أسلم على يد مصعب بن عمير، سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، وكان أبوه زعيم الأوس في معركة بعاث، وبتأثير سعد بن معاذ كان انتشار الإسلام بين عبد الأشهل أوسع، إذ أنه لما أسلم «لم يبق في بني عبد الأشهل أحد إلا أسلم يومئذ، فكانت دار بني عبد الأشهل أول دار من الأنصار أسلموا جميعهم[٤]. غير أن الإسلام لم يقتصر عليهم فقد عمّ بين أكثر عشائرهم ومنهم: بنو عبد الأشهل، وظفر، وحارثة، ومعاوية، وعمرو بن عوف[٥] وامتدّ الإسلام أيضاً إلى طوائف من الأوْس، غير أن بعض عشائرهم وهم بنو وائل وخطمة وواقف وأمية بن زيد لم يسلموا[٦]. وينسب ابن إسحق تأخر إسلام هذه العشائر إلى «أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت وهو صيفي، وكان شاعراً لهم وقائداً يسمعون منه ويطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام، فلم يزل على ذلك حتى

---

(١) ابن سعد ٣ ـ ٨٣/١.
(٢) ابن سعد ٣ ـ ٨٣/١.
(٣) ابن هشام ٧٣/١.
(٤) ابن سعد ٣ ـ ٢/٢، وكان سعد بن معاذ واحداً من رئيسيهما، والثاني أسيد بن الحضير (ابن هشام ٤٢/٢).
(٥) ابن سعد ٤ ـ ٩٥/٢.
(٦) ابن هشام ٢٧٣/١، ابن سعد ٣ ـ ٨٣/١، ٤ ـ ٩٥/٢.

هاجر رسول اللّه (ص) إلى المدينة، ومضى بَدْر وأُحُد والخندق»[1]، ويروي ابن سعد أن أبا قيس بن الأسلت أراد أن يُسْلم فصدَّه عبد الله بن أُبَيّ، وأنه مات في الشهر العاشر من الهجرة[2]، ويلاحظ أن منازل هذه العشائر التي لم تُسْلِم كانت بين النضير وقريظة، ولعل لليهود أثراً في موقفهم وإن لم تصرح المصادر بذلك. وتجدر الملاحظة أنهم، بعد أن أسلموا، لم يُذْكر منهم منافق، ولم يشاركوا في تأسيس مسجد الضِّرار.

إن إرسال مُصْعب بن عمير إلى المدينة علامةٌ بارزة في تاريخ انتشار الإسلام، إذ أن الرسول (ص) أرسله بعد أن اتضح له أن الوضع في المدينة ملائم لنشر الإسلام فيها، فالأذهان مُمَهَّدة لقبول الدعوة، والمعارضة ضعيفة، ولم تكن في المدينة كتلة متماسكة من الملأ المُتنفِّذين ذوي المصالح التي قد يُهدِّدها انتشار الإسلام، وإنما كانت فيها قبائل متخاصمة، ورؤساء متفرقون متنافسون يُضعِفُ سلطانَ كلٍّ منهم اقتصارُه على عشيرته ومنافسةُ الآخرين له، ولم تكن المدينة مركزاً تجارياً يخشى أهله أن يُهدِّد الإسلام نشاطها التجاري، وإنما كانت مركزاً زراعياً مستقِرّ الحياة، قليلَ الإنتاج، فلا تَضُرُّه الدعوة، وكذلك لم تكن المدينة مركزاً دينياً أو حرماً آمناً يَفْرِض الدين فيه سيادة السلم والأمن، فكان خطر الحرب الداخلية قائماً، وفقدان السلطة المركزية قد يتيح مجالاً للعبث بالأمن. فإقبال العرب في المدينة على اعتناق الإسلام تأثَّر بالأحوال الداخلية المضطَّرِبة السائدة فيها، والتي يُتَوقَّع أن يعالجها انتشار الإسلام، كما أنهم لم يكونوا شديدي التمسُّك بالوثنية أو بالأفكار التي كان بعضها، لأهل مكة، باعثاً للمعارضة، وخاصة فكرة البعث التي لا بد أنها كانت مألوفة عندهم بتأثير وجود اليهود الذين كانوا يؤمنون بها. كما أنهم لم تكن لهم ارتباطات وثيقة بالقبائل التي تعتنق الشرك والوثنية فيخْشَوْا أن يهدد نشر الدين هذه الارتباطات. إنهم أرادوا الإسلام لمعالجة أوضاع داخلية من الأمن والاستقرار والطمأنينة الروحية التي تنسجم مع كيانهم العربي، مما لا توفره الديانات الأخرى التي لا توجد إشارات إلى انتشارها بين العرب في

(١) ابن هشام ١/٢٧٣، وفاء الوفا ١/١٦٢.
(٢) ابن سعد ٤ ـ ٢/٩٥.

المدينة. فانتشار الإسلام كان ذاتياً، آمن به أهل المدينة من تلقاء أنفسهم، فلم يرسل محمد (ص) لهم دُعاة أو منظِّمين إلا بعد أن تمهد الوضع، ووضَحَ الميل، وكَثُر عدد المعتنقين.

يروي ابن إسحق بسند عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك يقول: «كان أول من جمع بنا بالمدينة في حزم النبيت من حرة بني بياضة يقال له نقيع الخضمات»، وقال: «قلت وكم أنتم يومئذ؟ قال: أربعين رجلاً»، ولم يذكر زمن إقامة الجمعة والراجح أن هؤلاء الأربعين هم من بني بياضة فقط، وليس كل من أسلم في المدينة من كافة العشائر.

بيعة العقبة الثانية

وفي السنة التالية، قَدِمَ مكة عدد من أهل المدينة فيهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان للاتصال بالرسول ومبايعته، وكانوا من عشائر متعددة، وفيهم أحد عشر رجلاً ينتمون إلى ثلاث عشائر أَوْسِيّة. أما الباقون منهم، فكانوا من مختلف عشائر الخزرج؛ غير أن العشائر تختلف في عدد رجالها الذين حضروا هذه البيعة. أكبر عدد هو أحد عشر رجلاً من كل من بني النجار وعبيد، ثم سبعة من كل من بني الحارث وحرام، وخمسة من كل من بني غنم، ونابي، وعمرو ابن عوف، وأربعة من كل من زريق والقواقل وثلاثة من كل من عبد الأشهل، وحارثة، وبياضة، واثنان من كل مِنْ سالم وساعدة، وواحد من بني كعب بن سواد.

إن كثيراً ممن جاؤوا من العشيرة الواحدة إخوة أو أولاد، أو آباء وأولادهم. لقد حضر أَخَوانِ وعمُّها من كل من بني غنم وسواد، وأَخَوَان وابن أخيهما من سلمة، وأب وابنه من كل من حرام وسلمة، وأَخَوان من غنم، ونابي بن عمرو، واثنان أولاد عم من بني نابي بن عمرو، أي أن فيهما تسعة عشر ذوي قرابة. غير أن عدداً غير قليل منهم كانوا متباعدين في النسب، وعدم وجود قاعدة واضحة لتوزيع الأفراد على العشائر يدلّ على أنه لم يُراعَ في اختيارهم تمثيل عشائرهم.

والمشاركون في العقبة الثانية عرب صِلاب، لهم إرادة قانونية مستقلة وليس فيهم أرقّاء، ولكن فيهم ستة من الحلفاء. وقد شارك فيها كل من حضر بيعة العقبة الأولى ما عدا عقبة بن عامر (من سلمة)، ويزيد بن ثعلبة (من القواقل). ولم يحضرها أسعد بن زرارة الذي كان له دور كبير في نشر الإسلام بالمدينة؛ وكذلك لم يحضرها من بني عبد الأشهل سوى ثلاثة، مع أن المصادر تردد ذكر انتشار الإسلام فيهم قبل بيعة العقبة. وكل هذا يدل على أن الذين حضروا بيعة العقبة الثانية كانوا بعض من سبق لهم اعتناق الإسلام ولم يكونوا كلهم. إلا أننا لا نجد ما يشير إلى نسبة من حضرها من عموم المسلمين في المدينة آنذاك. ولكنّ كثرة المشاركين من عشائر الخَزْرج يدل على أن الإسلام قد انتشر بينهم أكثر مما انتشر بين الأَوْس. وتذكر المصادر أن الرسول (ص) عيَّن اثني عشر نقيباً ليكونوا كُفَلاء عليهم، وهؤلاء النقباء موزعون على مختلف العشائر. فبعض العشائر لم يكن فيها نقيب (مثل حارثة، وكعب، وغنم ابن سواد، ونابي، وبياضة). وبعضها كان لها نقيبان (بلحارث وعمرو بن عوف). وقد شارك من بني ساعدة اثنان جُعلا نقيبين. ومن هؤلاء النقباء كان أسيد بن حضير الكتائب الذي قاد الأوس يوم بعاث. أما الباقون فلا نعلم شيئاً عن مكانتهم في قومهم قبل الإسلام. ومع أن اختيارهم يدل على إسلامهم ومكانتهم، إلا أننا لا نعلم عن علاقة اختيارهم بعدد مسلمي أهل المدينة، أي: هل اختير من بني ساعدة نقيبان لكثرة عددِ مَن أسلم منهم وإن لم يحضروا العقبة؟ ثم إننا لا نعلم: هل كان اختيارهم من الزعماء القدامى تَرْضية لهم وتمكيناً للإسلام بهم، أم لنشاطهم، أم لحماستهم للإسلام.

إن الذين حضروا بيعة العقبة هم المسلمون، أو المستعدون لاعتناق الإسلام ممن كانت لهم فكرة مؤيِّدة لمبادئه وممهدِّة لاعتناقه، فالبيعة لم تَجْرِ لتفهيم مبادىء الإسلام، وإنما لتنظيم علاقة الرسول بمسلمي أهل المدينة على أُسُس قانونية محددة واضحة.

وجاء المسلمون من أهل المدينة، فعقدوا اجتماعاً سرياً ليبعدوا عنهم أنظار

المشركين من أهل المدينة وأنظار قريش. وقد عقد الاجتماع، وتمّت البيعة في ليلة واحدة، مما يدلُّ على عدم حدوث خلافات أو مناقشات طويلة فيه.

سمعت قريش ببيعة العقبة بعد إنجازها، فلم تتخذ تدابير قوية لوقفها، أو خطوات حاسمة لإبطالها. واكتفت، على ما يذكر ابن إسحق، بالقول: «يا معشر الخزرج إنه قد بلَغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظْهُرنا وتبايعونه على حربنا، وأنه واللّه ما من حيّ من العرب أَبْغَضُ إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم». ويظهر من هذا الكلام أن مشركي قريش لم يتحمَّسوا في منعها أو إبطالها، ولم يُقدِّروا كل ما لآثارها من أبعاد، فلم يروا فيها إلا أنها قد تؤدي إلى نشوب الحرب بينهم وبين أهل المدينة، وهو ما لا يريدونه وما لم يحدث في السابق.

يبدو أن قريشاً لم تقاوم عملاً يقوم به الرسول (ص) ويؤدي إلى هجرته، أو تُوقِفْ نشاطه في مكة مما يخلِّصها من القلق الذي أحدثته الدعوة الإسلامية في بلدهم. وكذلك لم تقم، تجاه الرسول (ص) أو المسلمين، بأعمال اضطهادية استثنائية بعد بيعة العقبة التي تقوم على نفس المبادىء المقبولة عند العرب والمألوفة عندها، وهي حماية من يأتيها من أي اعتداء، وأن الاتفاقية ليست هجومية أو توسعية. وكل ما يبدو في الظاهر منها: أنها تشجع على هجرة المسلمين بما تضمنه من حماية، وإن لم تَنُصَّ صراحة على الهجرة.

إن بيعة العقبة الثانية حدث مهم في تاريخ الإسلام الأول، ولا ترجع أهميتها إلى تثبيت الإسلام وتوسيعه ونشره في المدينة، فإن هذا الأمر قد استقر قبل أن تنعقد البيعة، وإنما ترجع أهميتها إلى أنها تعبير عن العزم الذي أبداه مسلمو المدينة على حماية مسلمي مكة، أي مد نشاطهم إلى مكة لدوافع دينية وليس لأغراض توسُعية، إذ أنهم لم يلتزموا للرسول (ص) بتأييده في حروب توسعية.

وهذه البيعة عقد رضائي وافق عليه المشاركون فيه من أهل المدينة، والذين كان عددهم كبيراً من عشائر متعددة، بعضهم على عداء، ومنهم رجال من عشيرة عبد الله بن أُبَيّ الذي كان أهل المدينة على وشك ترئيسه عليهم.

وباعتبار البيعة عقداً رضائياً، فإنها كانت مُلْزِمةً قانونيًا وعرفياً وأدبياً. وبذلك وضعت علاقة الرسول (ص) بمسلمي المدينة في صيغة قانونية ملزمة، منبعثة من رضاهم الذاتي وقناعتهم الشخصية، من دون إكراه أو ضغط خارجي.

وهي تعبر عن أثر الإسلام في المدينة في هذه المرحلة المبكرة، وتُظهر البيعة مدى ما حقّقه الدين الجديد من انتشار، وما أحْدَثَه من عمق في النفوس. فقد كان عدد المشاركين في المدينة كبيراً، ولا بد أنهم كانوا يمثلون العدد الأكبر. فإذا تذكرنا أن عدد المهاجرين من مكة كان حوالَى ثمانين، أدركنا مدى النجاح الكبير الذي كانت قد أحرزته الدعوة الإسلامية في المدينة في هذه المرحلة المبكرة، مع أنَّ معظم من أسلم في المدينة لم يكن قد اتصل شخصياً بالرسول، وأن المتصلين به كان اتصالهم قصيراً.

الطبيعة القانونية للبيعة وشروطها

أُطلِق على العلاقة القانونية بين الرسول ومسلمي المدينة اسمُ «البيعة» وهي كلمة مشتقة، في الأصل، من البيع الذي يتنازل فيه البائع عما يبيعه للمشتري مقابل شيء يحصُل عليه، ثم صارت، في زمن الرسول، تطلق على العَقْد الذي كان يجري بين الرسول وبين من يُسلم ويتعهد فيه بتنفيذ شروط البيعة.

والالتزام في البيعة لا يقتصر على من شارك فيه، وإنما يمتدّ إلى من خوَّل المشارك فيها. غير أنه لا يُلزم غيرهم. وعلى هذا، فلما جاء الرسول مع بعض الأنصار إلى عبد الله بن أُبَيّ، قال ابنُ أُبيّ: «اذهب إلى الذين دعوك فانزل عندهم»[1].

والبيعة فردية، كان يؤديها كل فرد يريد الإسلام. وهي لا تقتصر على الرجال وحدهم، بل تشمل النساء أيضاً؛ فقد ذكرت المصادر النساء اللائي بايعن الرسول وأسماءهنّ، وذكروا نصوص بيعة النساء[2]، وهي مظهر للاستقلال

(١) وفاء الوفا ١/ ١٨٤.

(٢) انظر: البخاري: حدود ١٤، فتن ٢، أحكام ٤٣، إيمان ١، مناقب الأنصار ٤٣، ابن حنبل ٣/ ٤٦٠، ٣٢٢، ٣٦٦، ٤/ ١١٩، ٥/ ٣١٣ ـ ٣١٨، ٣٩١.

الذي كانت تتمتع به المرأة. وإسلام الرجل أو القبيلة لا يُغني بالضرورة عن البيعة للنساء.

والبيعة تقتصر على الأحرار وحدهم. أما العبيد، فكان لهم وضع خاص. يروي جابر بن عبد الله أنه «جاء عبد فبايع رسول اللّه (ص) على الهجرة ولم يُشْعِر رسول اللّه (ص) أنه عبد، فجاء سيده يريده، فقال النبي (ص) بعنيه فاشتراه بعبدين أسودين، ثم لم يبايع أحداً بَعْدُ حتى يسأله: أعبدٌ هو»[1]. ويتبين من هذا أن الرسول (ص) لم يشترط الهجرة على العبيد، ولعله أدرك أن معاملة العبيد كالأحرار قد يؤدي إلى إثارة أسيادهم وربما بقية العرب، وهو لم يرد أن يجعل الإسلام قائماً على أرِقّاء، أو الإخلال العميق بالتنظيم الاجتماعي، علماً بأن عدد العبيد لم يكن كبيراً، وأن إغداق الحقوق على العبيد قد يثير الأحرار وهم عماد المجتمع من حيث الكثرة والقوة، ويجعلهم يترددون في اعتناق الإسلام. والواقع أن عدد العبيد المسلمين المهاجرين إلى المدينة كان قليلاً.

وقد ورد أول ذكر للبيعة في العقبة الأولى، ثم صار ذكرها يتكرر؛ غير أن شروطها تطورت، فبيعة العقبة الأولى كانت «على بيعة النساء: على أن لا نشرك باللّه شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نقترفه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف، قال فإن وفيتم فلكم الجنة ومن غشي ذلك شيئاً كان أمره إلى اللّه، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه»[2]. وهذه الشروط تطابق ما ورد في القرآن الكريم (سورة الممتحنة/ ١٢) وتذكر بعض كتب الحديث أن الرسول اشترط على النساء ألاّ يَنُحْنَ ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى[3]. ولا يشترط في بيعة النساء أن تمس يده يدهن. ويتبين من هذه الصيغة أن بيعة العقبة الأولى أكدت على الجوانب الأخلاقية دون العسكرية أو السياسية، وقد ظل حكم هذه البيعة على النساء حتى بعد الهجرة.

---

(١) ابن حنبل ٣/ ٣٤٩، ٣٧٢.

(٢) ابن هشام ٢/ ٤١؛ ابن حنبل ٥/ ٣٢٣؛ أنساب الأشراف ١/ ٢٣٩.

(٣) ابن حنبل ٥/ ٨٥، وفي رواية أخرى يذكر أن هذا الشرط لم يكن: ابن حنبل ٦/ ١٥١، ١٦٣.

غير أن شروط البيعة تطورت وأضيف إليها في العقبة الثانية شروط القتال. يقول ابن إسحق: «وكان في بيعة الحرب حين أَذِن اللّه لرسوله في القتال شروط سوى شرطه عليهم في العقبة الأولى. كانت الأولى على بيعة النساء، وذلك أن اللّه تعالى لم يكن أَذِنَ لرسول اللّه (ص) في الحرب. فلما أذن له فيها، وبايعهم رسول اللّه (ص) في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود، أخذ لنفسه، واشترط على القوم لربه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة»[1] ويُروى أن رسول اللّه (ص) قال: تبايعونني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن نقول الحقّ أينما كنّا، لا نخاف في اللّه لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قَدِمْتُ عليكم مما تمنعون به أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة. فَقُمنا فبايعناه»[2].

ويروي البلاذري أن عبادة بن الصامت قال: «بايعنا رسول اللّه على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمكره والمنشط، وأن لا نُنازِعَ الأمر أهله، وأن نقول بالحق حيث كان، ولا نخاف في اللّه لومة لائم»[3].

ويروي موسى بن عقبة أن الزُّبَير سأل جابر بن عبد الله «كيف بايعتم رسول اللّه (ص)، أعلى الموت؟، قال: لا، ولكن بايعناه على أن لا نفر»[4].

وفي رواية عن عامر الشعبي عن أبي أُمامة أن الرسول (ص) قال أسألكم لربي عزّ وجلّ أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأسألكم لنفسي ولأصحابي أن تأمرونا وتنصرونا وتمنعونا مما منعتم منه أنفسكم، قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك، قال: لكم الجنة، قالوا: فلك ذلك»[5].

لم يصلنا نص شامل كامل لبيعة العقبة، ولعل ذلك راجع إلى أنها كانت

---

(١) ابن هشام ٢/ ٦٣.
(٢) ابن هشام ٢/ ٦٣، ابن حنبل ٣/ ٣٢٢، ٣٣٩.
(٣) ابن حنبل ٣/ ٣٩٦.
(٤) أنساب الأشراف ١/ ٢٥٢؛ ابن حنبل ٤/ ١١٩.
(٥) ابن هشام ٣/ ٦٤؛ وانظر ٢/ ٥٣، ٢٣٠، ٢٣٨.

شفهية، وليست شروطاً مكتوبة أو اتفاقية مدونة، غير أنه من المؤكد تأكيدها على الجانبين الحربي والسياسي.

فأما الجانب الحربي، فهو وعد أهل المدينة للرسول بأن ينصروه ويمنعوه مما منعوا به أنفسهم «وأن يثبتوا معه ولا يفروا، حتى إذا أدّى ذلك إلى حرب الأحمر والأسود»، أي أنهم يَحْمون الرسول (ص) ويدافعون عنه إذا دهمه خطر. غير أن هذه النُصرة دفاعية وليست هجومية ولم يكن فيها نص صريح على المشاركة في حرب هجومية، فعندما تقدَّم الرسول إلى بدر وواجه مشركي قريش، قال: «أشِيروا عليّ أيها الناس، وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يا رسول اللّه إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى دورنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع به أبناءنا ونساءنا، فكان رسول اللّه (ص) يتخوف ألّا تكون الأنصار تَرَى عليها نُصْرة إلاّ ممن دَهَمَه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يَسِيرَ بهم إلى عدو من بلادهم».

ويقول ابن سعد «والمجتمع عليه» لم يبعث رسول اللّه (ص) أحداً من الأنصار مبْعثاً حتى غَزَا بهم بدْراً، وذلك أنهم شرطوا له أن يمنعوه من دارهم، وهذا الثابت عندنا[1].

غير أن هذه الحرب الدفاعية قد تجرُّهم إلى حرب الأسود، والأبيض، وأن «إخراجه اليوم مفارقة للعرب كافة»، أي أنها قد تجر إلى حرب شاملة.

اهتمّ المبايعون في العقبة بأمر مصالحهم السياسية، ونبَّهوا على وجوب تأمينها. يذكر ابن إسحق أن أبا الهيثم بن التيهان قال: يا رسول اللّه إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنّا قاطِعُوها، يَعْني اليهود، فهل عَسَيْتَ إنْ نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك اللّه أن ترجع إلى قومك وتَدَعنا، قال فابتسم رسول اللّه (ص) ثم

---

(١) ابن سعد ٢ ـ ١/٦.

قال: بل الدم بالدم، والهدم بالهدم: أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم[١].

ضَمِنت بيعة العَقَبة للرسول قاعدةً جديدة يتكوّن سكانها من عشائر متعددة غير موحَّدة، وهي تفتقد سلطة مركزية وتنظيماً سياسياً عاماً ورئيساً يجمع شملها ويُنظِّم أمورها، وأن الرسول (ص) بعيد عن هذه الخصومات، وبذلك يكون فوق المشاحنات القبلية.

والقاعدة الجديدة مركز زراعي ناءٍ عن طريق القوافل التجارية القُرَشيّة، فهي بعيدة عن النفوذ الاقتصادي والاجتماعي لأهل مكة، وهي نائية عن أنظارهم، ولم يكن لها معهم خصومات أو اشتباكات، كما أنها لم تكن قد اتَّبعت سياسة توسُّعية، ولا اشتبكت مع أهل مكة في معارك وحروب. ولعل هذا من أسباب عدم محاولة أهل مكة حمْلَ أهل المدينة على إبطال بيعة العَقَبة، أو عدم قبول المسلمين فيها.

إن المَنَعة التي ضمِنتها بيعة العَقبة للرسول (ص) تُوفِّر له في المدينة قاعدة أمينة يستطيع أن يكرِّس فيها جهوده لتثبيت معالم الإسلام وأركانه ونشر دعوته، دون الانشغال بمواجهة المعارضين وما يضعونه من عراقيل.

إن شرط حماية الرسول (ص)، في بيعة العقبة، يوضح أنّها كانت دفاعية. غير أن هذا لا يعني أن التزاماتها كانت خفيفة، إذ أنّ هذه الحماية قد تطلب قتالاً واسعاً أو مستمراً، وخاصة مع مشركي قريش الذين قد يتابعون محاولاتهم للقضاء على الإسلام؛ وقد أدرك سعد بن عبادة ما قد تجره التزامات بيعة العقبة فقال: «إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم تَرَوْنَ أنكم إذا نَهِكت أموالكم مصيبة أو أشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن ألانَ فهو واللّه، إن فعلتم خِزْيُ الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، على نَهَكةِ الأموال وقتل الأشراف، فخذوه، فهو واللّه خير الدنيا

(١) ابن هشام ٢/ ٥٠؛ ابن حنبل ٣/ ٦٤.

والآخرة. قالوا فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول اللّه إن نحن وَفَّيْنا، قال: الجنة، قالوا: ابسُطْ يدك، فبسط يده فبايعوه».

لم تنص بيعة العقبة صراحة على منح الرسول (ص) سلطات واسعة. غير أن مجرد الإقرار بالإسلام كان لا بد أن يُثَبِّت للرسول سلطة واسعة، وإذا كانت الظروف التي جرت فيها بيعة العَقَبة قد قضت بعدم النص صراحة على سلطات الرسول، فإن ابن عمر يذكر أنه «كان النبي يبايع على السمع والطاعة ثم يقول فيما استطعت»[1]، والتأكد على السمع والطاعة أمر مهم في تلك البيئة التي اتَّسَمَت بالفردية وعدم تَعَوُّد الخضوع لسلطة خارجية، هذه السمات التي اهتمّ الرسول (ص) بإزالتها لأنه لا يمكن معها إنشاء نظام سياسي مستقر. غير أن للطاعة حدوداً، ولا يمكن أن تكون مطلقة، ولذلك وَضَع لها قيد الاستطاعة.

(١) ابن حنبل ٢/٩، ٣/١٧٢؛ وانظر أيضاً ٢/٦٢، ٨١، ١٠١، ٣/٢٨٤.

الفصل الرابع

الهجرة إلى المدينة والاستقرار فيها

ممهدات الهجرة

كان الغَرَض من بيعة العَقَبة إيجاد قاعدة أمينة للإسلام تُوَفِّر للمسلمين حرية العقيدة والعمل، وتُؤمِّن الجماعة لمن يلجأ منهم إليها. فهي توضح ما يمكن أن يظفر به المسلمون من ضمانات إذا قَدِموا المدينة. فأحكامها تشجع على الهجرة، وإن كانت كلمة «الهجرة» لم ترد في الاتفاقية بصورة صريحة.

وقد نُصَّ على الهجرة في البيعات التالية، ولا نعلم متى أُدخلت الهجرة في شروط البيعة، وإن كان من المؤكَّد وجودها في السنة الرابعة عندما حدثت معركة الخندق، حيث يروى عن الحرث بن زياد الساعدي «أنه أتى رسول اللّه (ص) يوم الخندق وهو يبايع الناس على الهجرة»[1]. ومن المحتمل أن يكون شرط الهجرة قد وُضِع قبل تاريخ هذه المعركة، ولعله وُضِع بعد معركة أُحُد، إذ أن الرسول (ص) كان قبلها منشغلاً في التنظيم الداخلي للمدينة التي كانت أراضيها الزراعية محدودة يمتلك منها اليهود نسبة كبيرة، ولم يكن قد مضى الوقت الكافي لتوسيع نَشْر الدعوة خارج المدينة.

وللهجرة، أي استيطان المدينة، أهمية كبيرة في تاريخ الدولة الإسلامية في

---

(١) ابن حنبل ٢/ ١٠٩.

الفترة الأولى، عندما كان عدد المسلمين قليلاً نسبياً، مقصوراً على المدينة وما يجاورها، كما كان المسلمون مُهَدَّدين بكثير من الأخطار. فكان لا بد من طلب الاستقرار من المسلمين في المدينة ليكونوا أقرب إلى الرسول (ص)، ويستطيعوا الاستجابة بسرعة لما قد تقتضيه الظروف من قتال للدفاع عن الإسلام أو خدمته، كما أن السُّكْنى في المدينة مع الرسول والمسلمين، تُعِين على تفهيم المسلمين الجدد مبادىء الإسلام ومتطلباته، ويساعد على سرعة وعمق توجيههم الفكري الذي هو أساسٌ في الإسلام.

ومن البديهي أن شرط الهجرة يثبت في مبايعة من لم يكن من أهل المدينة، إذ لا مبرر لوضع هذا الشرط على من يسلم من أهل المدينة. ولا ريب في أن هذا الشرط كان يُعرِّض المجتمع في المدينة إلى أَزَمات اقتصادية واجتماعية، من حيث أنه يجلب إلى المدينة عناصر متزايدة قد تكون متباينة في ثقافاتها، مما قد يؤدي إلى احتكاك مع أهل المدينة القدامى. كما أن تزايد المهاجرين إلى المدينة يتطلب توفير العمل ووسائل العيش لهم. ولما لم يكن معظم هؤلاء المهاجرين من الصنَّاع، فإنه لا بد من أن يعملوا في التجارة أو الزراعة؛ فأمَّا التجارة فيَصْعُب أن تتوسَّع في هذه المرحلة نظراً لخصومة مُشْرِكي قريش المسيطرين على التجارة، وهي خصومة لا يؤمل أن تسمح للمسلمين أن يوسعوا نشاطهم التجاري بما يقويهم ويضر بمصالح أهل مكة؛ وأما الزراعة فتتوقف بالدرجة الأولى على توافر الأراضي الصالحة لها، وهذا ما أخذ يتوافر عند إجلاء اليهود عنها. ويلاحظ أن أول إجلاء لليهود كان بعد معركة بدر حيث أجلى بنو قينقاع، ثم كان بعد أُحُد حيث أُجْلي بنو النضير ووُزِّعت أراضيهم على عدد من المهاجرين.

ظل شرط الهجرة في كل بيعة على الإسلام حتى فَتْح مكة حين أُلغِيَ بعدها[1]. وإبطال شرط الهجرة بعد فتح مكة أمر طبيعي، لأن الإسلام تغلَّب على مكة وضمَّها إليه بعد أن كانت القاعدة الرئيسة ضد الإسلام، فلم يعد

(١) ابن حنبل ٣/٤١٥، ٤٦٨ ـ ٩.

بالإمكان عملياً الإصرار على الهجرة إلى المدينة، لأن هذا سيؤدي إلى إحراج عدد من المسلمين الجدد الذين يصعب عليهم ترك ديارهم واستيطان المدينة التي سيكون فوق طاقتها استيعابهم.

ذكرت بعض الكتب اشتراط الرسول الجهاد على بعض من بايعه[1]، كما اشترط في بعضها الشهادة[2] وفي بعضها اشترط النصح لكل مسلم[3]. وهي شروط متفرقة لا تخرج عما يتطلبه الإسلام، إلا الجهاد وهو فيما يظهر شرط خاص ولم يكن عاماً. وكانت الهجرة فردية، ومن المهاجرين عدد هاجر مع زوجته وأولاده، والأُسَر التي هاجر كل أفرادها قليلون أبرزهم بنو مظعون وبنو أسد، ولم يبق من بني أسد بن جزيمة أحد حتى أغلقوا أبوابهم وفتحت أبواب بني البكير وأبواب بني مظعون[4].

الهجرة

كانت هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة هجرةً تدريجية بدأت على أثر بيعة العقبة الأولى وخروج مصعب بن عمير إلى المدينة يعلِّم الناس القرآن.

ثم تتابع المسلمون يخرجون إلى المدينة، أفراداً أو جماعات صغيرة، وأغلب الهجرات سرية، ولكنّها كانت تلفت نظر قريش بعد تتابعها. غير أن بعض الهجرات كانت علنية، ومنها هجرة عمر بن الخطاب الذي خرج مع عشرين راكباً، وأعلن عن خروجه متحدياً قريشاً[5]، ولم يرد ذكر لمسلم مهاجر لوحِقَ في طريقه، الأمر الذي يدل على أن قريشاً لم تعرقل هذه الهجرة ولم تدرك في البداية خطر نتائجها، بل لعلها ارتاحت لتخلصها بطريقة سلمية من المسلمين الذين كانوا سبب التوتر في مكة.

---

(١) كذلك ٣/ ٤٦٩.

(٢) كذلك ٣/ ٤١٥.

(٣) كذلك ٤/ ٣٥٨، ٣٦١، ٣٦٦؛ البخاري: إيمان ٤٠، مواقيت الصلاة ٣٥، زكاة ٣.

(٤) أنساب الأشراف ١/ ٢٥٩.

(٥) ابن هشام ٢/ ٨٤؛ ابن حنبل ٢/ ٣.

ثم قرر الرسول (ص) الهجرة بنفسه، وقد رُوِيت أحاديث تشير إلى أنه أذن له فيها[1]. واحتفظ الرسول (ص) بعزمه على الهجرة سرياً، ولم يعلنه إلا إلى أهله وإلى أبي بكر الذي رافقه في الهجرة. ويبدو أنه اتخذ قراره بعد أن اطمأن إلى أن معظم المسلمين قد هاجروا، وأن المسلمين الذين ظلّوا في مكة لا يرغبون في الهجرة، ولا يمكن أن يدّعوا أن الرسول (ص) قد تخلى عنهم، كما أن المدينة أظهرت ترحيبها بالمهاجرين.

تروي كتب السيرة أن الرسول (ص) وأبا بكر خرجا سريًّا إلى غار ثور، وهو قريب من مكة، حيث بقيا فيه ثلاثة أيام مُتَخَفِّيَيْن يعيشان على لبن أغنام ترعى قربهم. ثم تحرَّكا، وكانت قريش تطاردهما ولكنها لم تظفر بهما[2].

وصف ابن إسحق طريق الهجرة بتفصيل نقلته عنه معظم المصادر الجغرافية والتاريخية المتأخرة، وهو غير الطريق الاعتيادي المألوف الذي كان يسلك الوديان والسهول الساحلية، وكان أبو بكر يعرف هذا الطريق وأهله من سفراته السابقة إلى بلاد الشام، ثم وصل المدينة فجأة، فلما علم أهل المدينة بوصوله أقبلوا عليه يرحبون به[3].

أملاك المهاجرين في مكة

تعرضت أملاك المسلمين المهاجرين في مكة إلى أخطار حاولوا دَرْءَها بأن أَمَّنوها، ويقول مصعب الزبيري في ذلك: «كان من هاجر من قريش وحلفائهم أودع داره رجلاً، فمنهم من حفظ على من أودعه، ومنهم من باع، فكان هشام بن عمرو ممن حفظ أمانته»[4]، وذكر الزبير بن بكار أن هشام بن

---

(١) ابن حنبل ٤/ ١٩٨.
(٢) ابن حنبل ٤/ ٧٤؛ وانظر أيضاً ٣/ ١٢٢، ٢٨٧.
(٣) ابن هشام ٢/ ١٠٤، ١١٥؛ ابن حنبل ٤/ ٧٤.
(٤) نسب قريش ٤٣١.

الحارث ابن حبيب (من بني عامر بن لؤي) كان ممن أمسك دُورَ من هاجر من قومه عليهم، فمدحه حسان بن ثابت وذم بعض من باع دور من هاجر من قومه.

أخْنَى بَنُو خَلَفٍ وأخنى قنفُذٌ — وابنُ الربيع وطاب ثوبُ هِشامِ
مِن معشرٍ لا يَغْدِرون بذِمَّةٍ — الحارثُ بنُ حبيبِ بْنِ شمام[1]

وذكر الأزرقي عدداً من دور المهاجرين التي أخذها مشركو قريش، ومنها دار أبي العاص زوج زينب ابنة الرسول (ص) «لما أسلم وهاجر أخذها بنو عمه مع ما أخذوا من رباع المهاجرين[2]، ودار جحش بن رئاب الأسدي خرج آل جحش جميعاً، الرجال والنساء إلى المدينة مهاجرين، تركوا دارهم خالية وهم حلفاء حرب بن أمية بن عبد شمس، فعمد أبو سفيان بن حرب إلى دارهم هذه فباعها بأربعمائة دينار من عمرو بن علقمة العامري»[3]، ودار عتبة بن غزوان أخذها يعلى بن أمية وكان قد أوصاه بها حين هاجر[4] وكان عقيل بن أبي طالب أخذ مسكن الرسول (ص) الذي ولد فيه، وأخذ معتب بن أبي لهب بيت خديجة، وكان أقرب الناس إليه جواراً، فباعه من معاوية بمائة ألف درهم[5]. و«كان عقيل بن أبي طالب قد باع منزل النبي ومنزل إخوته من الرجال والنساء بمكة حين هاجر، ومنزل كل مهاجر من بني هاشم[6]. وكذلك دار آل جذيم، وكانت لآل مظعون. فلما هاجروا أخلوها فغلب عليها آل جذيم[7] ولما فُتِحت

---

(١) جمهرة نسب قريش وأخبارها ١٦١ ـ ١٦٢، الأزرقي: أخبار مكة ١٩٦/٢ (عن ابن اسحق).
(٢) أخبار مكة ١٩٦/٢.
(٣) كذلك ١٩٧/٢؛ أخبار مكة للفاكهي ٢٩٣/٣.
(٤) كذلك ١٩٨/٢، ١٠٠.
(٥) كذلك ٢٠٠/٢، ١٦١؛ أخبار مكة للفاكهي ٦٢/٣، ٧/٤.
(٦) اتحاف الورى لابن فهد ٥٢٦/١، ابن حنبل ٢٠٢/٥؛ وانظر: المعجم الكبير للطبراني ١/ ١٦٨؛ أبو نعيم: دلائل النبوة ٣٧٢/١؛ البيهقي: السنن ١٩١/٥.
(٧) الأزرقي ٢١٣/٢.

مكة طالب بعض المهاجرين بِدُورهم، فلم يوافق النبي على استردادها[١].

مسلمون في مكة لم يهاجروا

بالرغم من الظروف المؤاتية في المدينة للمسلمين، ومن حَضّ القرآن والرسول (ص) للمسلمين على الهجرة، فإن عدداً من المسلمين ظَلُّوا في مكة مع التمسك بعقيدتهم الدينية، ولا ريب في أن مدى تمسكهم بعقيدتهم يختلف من شخص إلى آخر: بعضهم كان ضعيف الإيمان ينهار عند إصابته بأقل أذى فيترك الإسلام، وقد أشار إليهم القرآن الكريم بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت/ ١٠] ومنهم من كان صلب العود، أشرق قلبه بالإيمان، فلم يؤثر الاضطهاد في عقيدته، وظلَّ مخلصاً في قلبه للإسلام، وقد اغتنم بعضهم أول فرصة سانحة للهجرة. وقد أشار القرآن إلى أمثالهم ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ [النحل/ ٤١].

أشار القرآن إلى الذين ظلوا في مكة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء] وواضح من هذه الآية أنه بقي من المسلمين في مكة من بَقِي، وكان بإمكان بعضهم المهاجرة، وقد أنذر اللّه من كان بإمكانه الهجرة ولم يهاجر بجهنم، وهي أشد عقوبة. أما الآخرون، فلم يبت في عفوهم بل تركه معلقاً.

لقي بعض المهاجرين من أقاربهم الذين ظَلُّوا في مكة مساعدة في حمايتهم، وقد عبر عن ذلك حاطب بن أبي بلتعة عندما كاتَبَ قريشاً يخبرهم بغزو الرسول لهم، وعرف الرسول (ص) ذلك فاسترد الكتاب، وقد برّر حاطب عمله بقوله للرسول (ص): «إني كنت امرأً من قريش ولم أكن من أنفسهم. ومن كان معك

(١) الأزرقي ١٣٠، أخبار مكة للفاكهي ٤/ ٧.

من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتني من النسب منهم أن أصنع إليهم يداً يحمون قرابتي وما فعلت ذلك كُفْراً ولا ارتداداً عن ديني، فقال النبي (ص) إنه قد صدقكم. ثم نزلت الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة/ ١][1].

قام بعض من بقي بمكة من المسلمين بخدمات المهاجرين، فكانوا يحمون أُسرهم، ويرعون أموالهم، ويحمون مصالحهم، ويكونون عيوناً على قريش، وقد يخففون من حقدها على المسلمين ويحدّون من تدابيرها. وفي ذلك يروي ابن شبة: إن نعيم بن عبد الله النحام كان «يَمُونُ عالة بني عدي فأراد الهجرة إلى رسول اللّه (ص) فسأله قومه المقام فيهم وقالوا إنه لا ينالك أحد بمكروه ومنا نفس حية»[2].

وكانت دوافع من بقي بمكة على الإسلام دوافع متنوّعة: فبعضهم كانت له ظروف خاصة تُعيقه عن الهجرة، وبعضهم كان مستضعفاً يخاف قومه. ثم إن بعضهم كان ضعيف الإيمان فَفُتِن وترك الإسلام، وبعضهم أشرق قلبه بالإيمان فصمد على الإسلام. وأشار القرآن الكريم إلى من لم يهاجر وتوعّد من قطع منهم صلته بالإسلام إلاّ مَنْ لم تكن له حيلة فقال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء].

وذكر البخاري في تفسيره لهذه الآية أن من المستضعفين الذين لم يستطيعوا الهجرة وظَلُّوا في مكة: عياش بن أبي ربيعة، وسلمة بن هشام بن المغيرة، وهشام بن العاص، والوليد بن المغيرة[3].

---

(١) ابن هشام ٤/ ١٧، البخاري: مغازي ٥٦.
(٢) تاريخ المدينة لابن شبة ٤٨٣.
(٣) البخاري: وانظر أيضاً تفسير الطبري ٩/ ١١٠ طبعة محمد شاكر، أنساب الأشراف ١/ ١٩٧.

ذكر البلاذري أيضاً أبا جندل[1]، والحارث بن حبيب[2] وسهل بن بيضاء[3]، وكلهم كانوا من مهاجِري الحبشة ثم عادوا إلى مكة وظَلُّوا فيها.

وذكرت عدة مصادر أن بعض هؤلاء المستضعفين «كانوا مع المشركين يُكَثِّرون سواد المشركين على رسول الله في معركة بدر، ومن هؤلاء قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو العاص[4] ومنهم ضمرة بن العيص بن زنباع[5]، وضمرة بن جندُب[6].

وأشهر من كان في مكة من المسلمين عتبة بن أسيد الذي كان مع سبعين آخرين قد ضيقوا على قريش بعد صلح الحديبية فاضطرت قريش أن تطلب من الرسول أن يقبلهم خلافاً لاتفاقيتها مع الرسول[7].

وأشار القرآن الكريم إلى بعض زوجات المسلمين ممن بقين على الكفر في مكة، ثم أمر تعالى المسلمين بطلاقهن ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة/ ١٠] وأشار القرآن إليهم بقوله ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن/ ١٤].

غير أن عدداً من النساء تركن أزواجهن الكفار وهاجرن إلى المدينة وأشار إليهن القرآن الكريم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة/ ١٠] وذكر ابن هشام ممن هاجرن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط[8] وأميمة بنت بشر[9] وقام المسلمون بدفع صداق من هاجرن إلى أزواجهن

---

(١) أنساب الأشراف ١/ ٢٢٠.
(٢) أنساب الأشراف ١/ ٢٢٢.
(٣) أنساب الأشراف ١/ ٢٢٥.
(٤) البخاري: تفسير الطبري ٩/ ١٠، ١٠٥؛ وانظر ١٠٧، ١٠٩.
(٥) تفسير الطبري ٩/ ١١٤.
(٦) تفسير الطبري ٩/ ١١٦.
(٧) ابن هشام ٣/ ٣٧٢.
(٨) ابن هشام ٣/ ٣٧٥، تاريخ المدينة لابن شبة ٤٩٢.
(٩) تاريخ المدينة لابن شبة ٤٩٢.

الكفار، وهذا ما يسمى «العقب»[1].

إسكان المهاجرين

تُظْهر هجرة المهاجرين الطوعية إلى المدينة مدى تمسكهم بالدين وإيمانهم بالرسول (ص) وثقتهم به، واستعدادهم للتضحية بمساكنهم وأموالهم وعلاقاتهم بمن نشأوا بينهم، من أجل الحفاظ على العقيدة التي آمنوا بها.

وقد أنهت الهجرة العزلة والمضايقات والاضطهاد الذي كان المهاجرون يلقونه في مكة، وأمَّنت المدينة للمهاجرين مأوى تتوافر فيه الطمأنينة والحرية، ووفرت لهم مجتمعاً يشترك كثير من أفراده معهم بوحدة العقيدة والاستعداد لتقبُّل التوجهات الإسلامية مما يوثِّق بينهم الصلة العقائدية والفكرية، ويثبِّت الكيان السياسي.

وكان عدد من المهاجرين قد هاجر مع أسرته، أو بعض أقاربه، وأودع بعضهم ما خلَّفه في مكة من دُورٍ وأملاك، واستطاع بعضهم أن يأخذ معه بعض ثروته. يَرْوي البلاذري أن أبا بكر، عندما هاجر، جاء معه بخمسة آلاف درهم، وهاجر عثمان ومعه سبعة آلاف درهم[2]. غير أن هؤلاء كانوا قلة. أما الباقون، وهم الأكثرون، فقد هاجروا بأنفسهم دون مال، ولم تكن لهم أراضٍ في المدينة يقيمون فيها أو يعيشون فيها.

وكان أول متطلبات الهجرة إلى المدينة توفير أماكن لسكن المهاجرين تتناسب مع أحوالهم. ومن المعلوم أن بعضهم هاجروا جماعات، ومنهم «عمر بن الخطاب وأهله وقومه»، وبنو البكير وبنو مظعون. كما أن بعضهم كانوا أعزاباً، ومعظمهم منفردون لم تهاجم معهم أسرهم[3].

ونزل الرسول (ص) عند وصوله في بني عمرو بن عوف، ثم انتقل بعد أيام

---

(١) البخاري: شروط ١٥.
(٢) أنساب الأشراف ١/٢٦١ وعن مال أبي بكر أنظر ابن هشام ٢/١٠.
(٣) ابن هشام ٢/٨٨.

إلى بني سالم، ثم انتقل إلى بني مالك بن النجار، وأقام في دار آبي أيوب الأنصاري[١]، غير أنه أكثر ما كان يخطب ويعظ في بيت سعد بن خيثمة[٢].

ثم اشترى الرسول (ص) أرضاً فضاء كانت مِرْبداً ليتيمين فجعلها مسجده الذي بناه بالطين، وشارك المسلمون في البناء، وكان بسيطاً لا يكلف بناؤه كثيراً، واتخذ لزوجاته بعد ذلك غرفاً صغيرة في طرفها، وحدد المسجد مائة ذراع في مائة (= ٦٠ × ٦٠م)[٣].

وكان ينزل من هاجر فيما بعد ممن لا منزل له في صُفّة في طرفه. وسمي هؤلاء في المصادر «أهل الصفة»، وكان قربهم من الرسول يجعلهم أكثر تأثراً به، واستعداداً لاستجابة أوامره، فكانوا كالحرس الخاص له، وكان يطعمهم مما يتيسر له من طعام بسيط؛ وسكن أكثر المهاجرين في الأرض الخالية قرب مسجد الرسول (ص) وهي قريبة من منازل الأنصار في أراضٍ خالية.

ولم تكن إعالة المهاجرين على من نزلوا عليهم عبئاً مالياً كبيراً نظراً لقلة عددهم وتوزُّعهم وانخفاض مستوى المعيشة، ويُرْوى أن كلثوم بن الهدم كان يُطعمهم أم جعران، وهو نوع غير ممتاز من التمر[٤]. ولعل بعضهم كان يعاون الأنصار في استضافة المهاجرين.

كان أكثر السُّكنى عند الهجرة في بني عمرو بن عوف في قباء، وقد تجمع بعضهم في منازل معينة. فقد نزل علَى كلثوم بن الهدم (عبيد) تسعة عشر شخصاً أغلبهم من بني عبد المطلب وفِهْر، وعامر[٥]؛ ونزل علَى سعد بن خيثمة (غنم بن السلم) ثلاثة، ويقال أربعة من بني تيم بن مُرّة ومن موالي بني عبد المطلب

---

(١) كذلك ٢/١١٦.
(٢) كذلك ٢/١١١.
(٣) وفاء الوفا ١/٢٤٢، وفي الكتاب تفاصيل عن مسجد الرسول (ص) وتطور بنائه، وانظر أيضاً دراسة سوفاجية المفصلة عن مسجد الرسول (ص) بالفرنسية، ويلاحظ أن الرسول لم يكن له عند الهجرة غير زوجتين هما سودة بنت زمعة وعائشة.
(٤) أنساب الأشراف ١/١٨٢.
(٥) أنساب الأشراف ١/٢٦٣.

ومعظم من نزل على سعد من العُزَّاب، فسمى بيته دار العزَّاب[1]، ونزل على مبشر بن عبد المنذر (أمية بن زيد) ستة وهم المخزوميون المهاجرون. ونزل على رفاعة بن عبد المنذر (أمية بن زيد) عشرة من بني عَدِيّ وسهم واثنان آخران، ونزل على عبد الله بن سلمة العجلاني (حلفاء أمية بن زيد) تسعة من بني نوفل، وواحد من عبد الدار. ونزل على المنذر بن محمد بن عقبة (جحجبا) ثلاثة من بني أسد بن عبد العُزَّى. كما نزل ثلاثة أفراد على عباد بن بشر وسعد بن مَعَاذ (عبد الأشهل).

أما الذين نزلوا على الخَزْرج، فقد توزع نزول أفرادهم على أفراد من بني مالك بن النجار وكعب بن الخزرج، وبلحبلى، وساعدة، وسلمة، والتوأمان.

إن أغلب الذين استضافوا المسلمين ليسوا من أهل العَقَبة. وقد جرى توزيع المهاجرين على أساس عشائرهم حيث روعي أن تبقى العشيرة مجموعة واحدة، يُقيم أفرادها في مكان واحد، وينزلون على شخص واحد.

لم يدم النزول الأول طويلاً، إذْ تحول المسلمون بعد مدة قصيرة وانتشروا في المدينة، ولعل المؤاخاة قضت على ذلك التوزيع، ويروي البلاذُري أن الرسول «خطّ لأصحابه في كل أرض ليست لأحد وفيما وهبت له الأنصار من خططها»[2].

المؤاخاة

ثم أعلن الرسول (ص) المؤاخاة، وهي تختلف عن الحلف من حيث أن لها سمة اجتماعية أعمق، وتتبعها التزامات مالية، وكانت فردية، وبعضها بين فردين من المهاجرين، إلا أن أكثرها كانت بين الأنصار والمهاجرين فقد شملت

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٩٦، ١١٠.
(٢) أنساب الأشراف ١/ ٢٧٠.

خمسة وأربعين رجلاً من المهاجرين، مع مثل هذا العدد من الأنصار، منهم سبعة عشر ممن حَضَر بيعة العَقَبة، وهم من عشائر مختلفة إلا أن أكثرهم من بني النجار، ولعل عدداً من المتآخين نزلوا على من تآخى معهم من الأنصار، وبذلك تفرقت مساكن المهاجرين بعد أن كانوا متجمعين في دار كل من كلثوم بن الهدم وسعد بن خيثمة وكلاهما من بني عمرو بن عوف ومُقامهم في قباء، وكذلك في بني عبد الأشهل، وبني حارثة.

والمبدأ الأساسي الذي تقوم عليه المؤاخاة معروف عند العرب، فقد كانوا يتقبلون الحلف مع الأفراد والجماعات التي تلجأ إليهم، وكان هذا الحلف يمتد إلى تبادل الحماية فقط.

ذكر ابن حبيب أن الرسول (ص) آخى في مكة بين المهاجرين على الحق والمؤاساة، وعدَّد ثمانية عشر ممن آخاهم: فآخى علي بن أبي طالب، وآخى بين حمزة وزيد بن حارثة، بين أبي بكر وعمر، بين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، بين الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود، بين عبيدة بن الحارث وبلال، بين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، بين أبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة، بين سعيد بن زيد وطلحة بن عبد الله. ولم يذكر غيرُ ابن حبيب مؤاخاةً عُقدت في مكة.

وذكر ابن سعد مؤاخاة تمَّت بين هؤلاء: بين عليّ والرسول (ص)، وبين أبي بكر وعمر، وبين حمزة وزيد بن حارثة، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير وابن مسعود، وبين سعد بن أبي وقاص ومُصعب، وبين أبي عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة[١]. غير أنه ذكر أن المؤاخاة بين المهاجرين جرت في المدينة[٢]، أي بعد الهجرة وليس قبلها كما ذكر ابن حبيب.

(١) المحبر ٧٠ ـ ٧١.
(٢) مذكورون بالتتابع في الطبقات ٣ ـ ١/ ١٤، ٤، ٣٠، ٣٨، ٧١، ٨٤.

ذكر السمهودي أن المؤاخاة حصلت في الأشهر الأولى من الهجرة، وأشار إلى اختلاف الرواة في تحديد تاريخها بين الشهر الخامس والسابع، ولم يشر إلى حادثةٍ دفعت إليها، وإنما اقتصر على ذكر أُسُسها وهي المؤاساة وأن يتوارثوا بعد المؤاخاة دون الأرحام. ومن الطبيعي أن الرابح في الميراث هو المهاجرون، إذ لم تكن لهم أملاك يورثونها. أما الأنصار، فكانت لهم الأموال، وكان للمهاجر حق موارثة مَنْ يؤاخيه من الأنصار إذا لم يكن له وريث من الدرجة الأولى والثانية. ومع أن التطبيق العملي للميراث محدود الأثر، إلا أنه يُثبِّت مبدأً ويؤكد الصلة بين المتآخين، ولا شك أن قاعدة التوارث كانت تثير مشاكل، فقُطِعت بعد مدة قصيرة بحكم الآية القرآنية التي نزلت بعد معركة بدر وجاء فيها: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال/ ٧٥][١].

وذكر ابن سعد أن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار كانت على الحق والمؤاساة، وأنها كانت بين المهاجرين على التوارث[٢].

ونظام المؤاخاة يقوم على الاتصال الفردي، فيفرق المجموعة إلى أفراد يرتبط كل منهم بفرد آخر، بصرف النظر عن قبيلته أو عشيرته، ويجعل مسؤولية حماية المهاجرين على أفراد من الأنصار. وبذلك يكوِّن رابطة جديدة إضافة إلى الرابطة التي كونتها اتفاقية العقبة. وهذه الرابطة الجديدة تقوي مكانة الفردية عند المهاجرين، فتفرقهم وتترك لهم حرية التصرف، ولكنها لا تشتتهم، لأن علاقتهم العميقة الجذور بالرسول (ص) والإسلام باقية، ولا تهددها المؤاخاة، ولكن تأثيرها على الأنصار تأثير قوي، لأنه يُلْقي على أفرادهم مسؤولية إضافية في الحماية وتوثيق الصلة بالإسلام، كما أنه يتيح

---

(١) ابن سعد ٣ ـ ١/ ١٤، ٣ ـ ٢/ ٤٠٠، ١٢١؛ ٤ ـ ١/ ٢٣، ٦/ ١٦٦.
(٢) ابن سعد ١ ـ ١/ ٢٧٠.

للرسول توسيع نطاق وقوة روابطه بالأنصار رغم أن التآخي لا يستلزم الاشتراك في السكن.

إن الغرض من المؤاخاة اجتماعي ونفسي: فقد يَسَّرت لأفراد المهاجرين صلة وثيقة بأهل المدينة التي هاجروا إليها، وخففت من عزلتهم، ووسَّعت نطاق علاقاتهم، وأمَّنت لهم ملجأ روحياً يُعينهم على تخفيف الشدائد عنهم (المؤاساة) وثبَّتت المُثُل الأخلاقية التي دعا إليها الإسلام.

تذكر بعض المصادر أن المؤاخاة امتدت إلى المعونة الاقتصادية، وتَرْوي أن سعد بن الربيع، وكان غنياً، آخى عبد الرحمن بن عوف، فعرض على عبد الرحمن أن يختار شطر مالِه، غير أن عبد الرحمن بن عوف اقتصر على أن يقترض منه مبلغاً ليتاجر به، ولعل هذه حالة خاصة لا تشبهها إلا حوادث قليلة استفاد منها المهاجرون بالاقتراض من مؤاخيهم للعمل في التجارة. والظاهر أنها لم تمتدّ إلى تكوين شركات تجارية، لأن المهاجرين عُرِفوا بممارسة التجارة وتميَّزوا من الأنصار في ذلك: «إخواننا من المهاجرين ألهاهُم الصَّفْقُ في الأسواق»[1]. إن هذا النشاط الاقتصادي الذي قام به المهاجرون لم يُضرَّ بمصالح الأنصار الذين لم يُعْرفوا بممارستهم أعمال البيع، وإنما سُهِّل لهم المعاملات بما وُفِّر من أيدٍ عاملة في السوق، ولعل المهاجرين نافسوا اليهود وحلوا محلهم، وضمنت المؤاخاة حمايتهم، كما أمَّنت مورد معيشة لهم.

والمؤاخاة تُوثِّق الصلة بين أفراد المهاجرين والأنصار ولكنها لا تهدد الرابطة العامة بين المهاجرين أو تُفَكِّكهم، إذ أن التنظيم العام لا تُعرقل تثبيته الصلات الشخصية الفردية، فضلاً عن أن المؤاخاة استوعبت أكثر المهاجرين، ولكنها لم تستوعب إلاّ عدداً قليلاً من الأنصار، فكان لا بد من التأكيد على الرابطة الأعمّ دون إلغاء الروابط الفردية. فلما أصدر الرسول وثيقته في تنظيم المدينة، وضع المهاجرين كوحدة قائمة بذاتها بجانب «أهل يثرب» «ومن لحق

(١) انظر: البخاري: علم ٥٤٢ اعتصام ١، بيوع ١، حرث ٢١ فضائل الصحابة ١٥٩، ١٦٠؛ ابن حنبل ٢/ ٢٤٠، ٢٧٤، ٢٨٧؛ ابن سعد ٤ ـ ٢/ ٥٦. ويروي البخاري أن الرسول (ص) قاسم الأنصار على أن يعطوه ثمارهم ويكفوه العمل والمذلة، (البخاري: هبة ٣٥).

بهم»، وهي رابطة واسعة تكتسب أهميتها من حيث أنّها أصبحت إحدى المجموعات الثلاث في المدينة. وأكدت الوثيقة على توطيد العلاقات وتنظيمها بين مختلف الجماعات. كما أنها أكّدت على الوحدة الإسلامية العامة التي أكد عليها القرآن الكريم ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات/ ١٠] ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران/١٠٣] وجاء في الحديث: «المسلم أخو المسلم».

لم تقض المؤاخاة على كل المصاعب والأوضاع المعرقلة التي واجهت المهاجرين في أول الهجرة، فإن الحنين إلى الأهل والأصحاب، الذي ولده فيهم فراق مكة، كانت تؤججه ذكريات ماضيهم التي كانت تثير فيهم الشجن، ثمَّ يزداد تأجّج الحنين فيهم عند سماعهم شعراً كشعر بلال عندما ينشد:

ألا ليت شعري هل أبيتَنَّ ليلةً بِوادي الغَضا وحَوْلي أذخر وجَليلُ

والواقع أن لعاطفة الحنين دوراً في تذكير المهاجرين والمسلمين بمكة، وإنماء شعورهم بالحقد على أهلها الذين شرَّدوهم وحرموهم منها، فكان ذلك باعثاً على زيادة الحماسة في استرجاعها وضمها إلى حظيرة الإسلام.

ثم إن المؤاخاة وتقوية الصلات بأهل المدينة لم تخفّفا خطر الملاريا التي أصيب بها كثير من المهاجرين، فأثرت في صحتهم وربما في معنوياتهم. وقد أدرك الرسول (ص) ذلك فدعا اللّه أن ينقل عنها الحمى[1]. والواقع أن تكاثر السكان وإعمار الأراضي قلل المستنقعات وأزال عن المدينة الحمّى.

اقتصرت المؤاخاة على المهاجرين الأوَّلين من قريش، وبقيت خارجها الأعداد المتزايدة التي أخذت تَفِدُ إلى المدينة وتستقر فيها مما تطلَّب معالجة إسكانهم وإحالتهم وتنظيمهم مما سنتحدث عنه.

(١) ابن هشام ٢/ ٢٢٠، وانظر: البخاري: فضائل المدينة ١٢، مناقب الأنصار ٤٦، المرض ٨، ٢.

عالجت المؤاخاة مشكلة إعالة المهاجرين فكان لا بد من البحث عن منافذ جديدة لمعالجة شاملة، وقد أُبطل حكم التوارث بين المتآخين بعد معركة بدر[١].

ويروي أبو نعيم فيقول: «إن الرجل إذا قَدِم على النبي (ص) إن كان له عريف نزل عليه. فإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصُّفَّة[٢]».

المهاجر	المتآخي[٣]	إشارة ابن سعد
	عبد الأشهل	
زيد بن حارثة	أسيد بن الحضير	٣ ـ ١/ ٣٠
سعد بن أبي وقاص	عمرو بن معاذ	٣ ـ ١/ ٤٤، ٣ ـ ٢/ ٢
عمير بن أبي وقاص	عمرو بن معاذ	٣ ـ ١/ ٩٩، ٣ ـ ٢/ ٢
الزبير بن العوام	أبو مسعود	٣ ـ ١/ ٧١
عامر بن فهيرة	الحارث بن أوس بن معاذ	٣ ـ ١/ ١٦٤، ٣ ـ ٢/ ٢١
أبو حذيفة بن عتبة	عباد بن بشر بن وقش (زعورا)	٣ ـ ١/ ١٦، ٣ ـ ٢/ ٥٩
أبو سبرة بن أبي رهم	سلمة بن سلامة بن وقش	٣ ـ ١/ ١٤، ٣ ـ ٢/ ١٦
عثمان بن مظعون	أبو الهيثم بن التيهان	٣ ـ ١/ ٢٩٠، ٣ ـ ٢/ ٢٢
مسعود بن الربيع	عبيدة بن التيهان	٣ ـ ٢/ ١٩
أبو عبيدة بن الجراح	محمد بن سلمة (النبيت)	٣ ـ ١/ ١/ ٦٩
خنيس بن حذافة	أبو عبس بن جبر	٣ ـ ١/ ١٢٥
زيد بن الخطاب	معن بن عدي بن العجلان	٣ ـ ١/ ٢٧٤
	(عمرو بن عوف)	
عمر بن الخطاب	عويم بن ساعدة	٣ ـ ١/ ١٩٥، ٣ ـ ٢/ ٣١

(١) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ١٢١، ٤ ـ ١/ ٣، ٦٠، ١٦٦؛ البخاري.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٣٧٤، ٣٧٩.

(٣) وردت قائمة التآخي أيضاً في كتاب المحبر لابن حبيب (٧٠ ـ ٧٤)، وفي كتاب أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ٢٧٠).

الحصين بن الحارث	رافع بن عنجدة	٣ ـ ٢/٣٦
عاقل بن أبي البكير	مبشر بن عبد المنذر	٣ ـ ١/٢٨٣، ٣ ـ ٢/٢٨
خباب بن الأرت	جبر بن عتيك	٣ ـ ١/١١٧
الحصين بن الحارث بن المطلب	عبد الله بن حدير	٣ ـ ١/٣٦، ٣ ـ ٢/٣٢
المقداد بن عمرو	جبار بن محرز	٣ ـ ١/١١٤
	(جحجبا)	
الطفيل بن الحارث ابن المطلب	المنذر بن عقبة بن أحيحة	٣ ـ ١/٣٥، ٣ ـ ٢/٤١
	(ضبيعة)	
عبد الله بن جحش	عاصم بن ثابت بن الأفلح	٣ ـ ١/٦٢، ٣ ـ ٢/٣٢
	(حنش بن عوف)	
علي بن أبي طالب	سهل بن حنيف	٣ ـ ١/١٤٠، ٣ ـ ٢/٣٩
	(غنم بن السلم)	
أبو سلمة بن عبد الأسد	سعد بن خيثمة	٣ ـ ١/٤٧، ١٧١
	(النجار)	
	غنم بن مالك	
محرز بن نضلة	عمارة بن حزم	٣ ـ ١/٦٧
أبو سلمة	سعد بن خيثمة	٣ ـ ١/١٧١، ٣ ـ ٢/٤٨
طلحة بن عبد الله	أبي بن كعب	٣ ـ ١/١٥٤
	(مغالة)	
أرقم بن أبي الأرقم	أبو طلحة	٣ ـ ١/١٧١، ٣ ـ ٢/٦٠
عثمان بن عفان	أوس بن كاتب	٣ ـ ١/٣٨، ٣ ـ ٦٠٢
	(مازن)	
السائب بن عثمان بن مظعون	حارثة بن سراقة	٣ ـ ١/٢٩٢
	(مبذول)	
صهب بن سنان	ثابت بن الصمة	٣ ـ ١/١٦٣، ٣ ـ ٢/٦٧
	(غنم)	

أربد بن حجير	عمارة بن حزم	٣ ـ ٦٧/١، ٣ ـ ٥١/٢
معتب بن عوف	ثعلبة بن حاطب	٣ ـ ١٨٩/١
مصعب الخير بن عمير	أبو أيوب	٣ ـ ٤٨/١، ٣ ـ ٥١/٢
	(كعب بن الخزرج)	
عبد الرحمن بن عوف	سعد بن الربيع	٣ ـ ٨٨/١، ٣ ـ ٧٧/٢
عمير بن عمرو	يزيد بن الحرث	٣ ـ ٨٥/٢
عامر بن أبي بكير	ثابت بن شماس	٣ ـ ٢٨٣/١
	القواقل	
أبو مرثد الغنوي	عبادة بن الصامت	
مرثد بن أبي مرثد	أوس بن الصامت	٣ ـ ٣٢/١
الطفيل بن الحارب	سفيان بن بشر	٣ ـ ٣٥/١
	(سالم بلحبلي)	
شجاع بن وهب	أوس بن خولي	٣ ـ ٦٦/١
	(أمية بن زيد)	
معتب بن عوف	ثعلبة بن حاطب	٣ ـ ١٨٩/١، ٣ ـ ٣٢/٢
	(جهم)	
صفوان بن بيضاء	رافع بن المعلى	٣ ـ ٣٠٣/١
عبد الله بن مظعون	سهل بن عبد الله	٣ ـ ٢٩/١
	(ساعدة)	
عتبة بن غزوان	أبو دجانة	٣ ـ ٦٩/١
طليب بن عمير بن وهب	المقداد بن عمرو	٣ ـ ٨٧/١
أبو ذر	المنذر بن عمرو	٣ ـ ٩٠/٢
جعفر بن طالب	معاذ بن جبل	٣ ـ ١٢١/٢
	(زريق)	
سويبط بن سعد بن عمر	عائذ بن ماعص	٣ ـ ٨٦/١
سالم موسى أبي حذيفة	معاذ بن ماعص	٣ ـ ٦١/١

سعيد بن زيد بن عمرو	مرثد بن عمرو	٣ ـ ١/ ٢٧٨
	رافع بن مالك	
صفوان بن بيضاء	أفلح بن المعلى	٣ ـ ٢/ ١٧٣
	(بياضة)	
عبد الله بن مخرمة	فروة بن عمرو	٣ ـ ١/ ٢٩٤، ٣ ـ ٢/ ١٣١
	(سلمة)	
عبيدة بن الحارث بن المطلب	عمير بن الحمام	٣ ـ ١/ ٣٤
عبد الله بن مسعود	معاذ بن جبل	٣ ـ ١/ ١١٧
سعد مولى عتبة	تميم مولى خراشة	٣ ـ ١/ ٨١
	(عبيد بن عدي)	
المقداد بن عمرو	جبار بن محرز	٣ ـ ١/ ١١٤
واقد بن عبد الله	بشر بن البراء	٣ ـ ١/ ٢٨٥، ٣ ـ ٢/ ١١١
عامر بن ربيعة العنزي	يزيد بن المنذر	٢ ـ ١/ ٢٨٢
	(حرام)	
عبيدة بن الحارث بن المطلب	عمر بن الحمام السلمي	٣ ـ ١/ ٣٥
	حارثة	
أبو بكر	خارجة بن زيد	
عمار بن ياسر	حذيفة بن اليمان	٣ ـ ١/ ١٧٦
مسطح بن أثاثة	زيد بن المريد	٣ ـ ١/ ٣٦
وهب بن أبي سرح	سويد بن عمرو	٣ ـ ١/ ٢٩٦
عيسى بن بلال	عيسى بن الحارث	٣ ـ ١/ ١٦٥



الفصل الخامس

تنظيم الإدارة في المدينة

المبدأ الأساسي في الإسلام هو التوحيد وعبادة اللَّه الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد، وهو رب السماوات والأرض، مالك كل شيء، العلي القدير، وإليه تُرجع الأمور.

غير أن الإسلام لا يقتصر على مجرد تثبيت الإيمان باللَّه، وإنما يمتد إلى توجيه تفكير الفرد نحو الكون وتنظيم سلوكه النفسي والأخلاقي، في تصرفه وعلاقته بالمجتمع، وفق مبادىء تكفل الأمن والتماسك، وهذا يتطلب تنظيمات تؤمن تحقيق هذا الغرض. لذلك كانت شؤون السياسة والإدارة مُقَوِّماً أساسياً من مُقوِّمات الإسلام ودولته.

التنظيم في بيعة العَقَبة: النقباء

نظَّم الرسول علاقته بالمسلمين من أهل المدينة ببيعة العقبة التي وعدوه فيها أن يمنعوه ممن يحاول الاعتداء، وأن يقطعوا، باتفاقهم معه، ما بينهم وبين اليهود من روابط، على ألاّ يتركهم إذا أظهره اللَّه ويعود إلى قومه[1]. ووعدوه

---

(١) ابن هشام ٢/ ٢٥، ٥٦.

«أن علينا السمع والطاعة في عُسرنا ويُسرنا منشطنا ومكرهنا وأثره علينا، وألّا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنّا»[١]. وقد «شرطوا له أن يمنعوه في دارهم»[٢].

حضر في بيعة العقبة من الأوس أحد عشر، ثلاثة من كل من بني عبد الأشهل وحارثة، وخمسة من بني عمرو بن وف، أما الخزرج فحضر منهم فيها تسعة وخمسون، منهم أحد عشر من كل من بني النجار وسلمة، وسبعة من كل من بني الحارث وحرام، وخمسة من كل من غنم وسوادة، وأربعة من زريق، وثلاثة من بياضة، واثنان من كل من بني الحبلى وساعدة[٣]. وهذا التوزيع كان محض صدفة ولا يعني تفرُّدهم بالحماسة للإسلام، أو يدُلّ على كثرة المسلمين من عشائرهم.

وأمّر الرسول (ص) على المبايعين في العقبة اثني عشر نقيباً اختارهم من مختلف العشائر، فكان منهم ثلاثة من الأوس (من عمرو بن عوف، وعمرو بن مالك، والسلم بين امرىء القيس)، واختار تسعة من الخزرج اثنان من كل من الحرث بن الخزرج، وجشم، وساعدة، وواحد من كل من بني زريق، وبني سالم.

تم اختيار النقباء «ليكونوا على قومهم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي»[٤]. وظاهر المعنى أن مسؤولية النقباء جماعية على قومهم، غير أن السياق يقتضي أن يكون كل منهم كفيلاً لعشيرته. واعتبر أهل المدينة وحدة «قوم» مقابل مسلمي مكة «قومي» أي قوم الرسول (ص).

ولم يُعَيَّن على النقباء رئيس أو مرجع ينسق أعمالهم، ولم يُشَر إلى وضعهم

---

(١) ابن هشام ٢/٦٣.
(٢) ابن سعد ٢ ـ ٢/١.
(٣) ابن هشام ٢/٦٣ ـ ٧٥.
(٤) ابن هشام ٢/٥٥.

مع من لم يشترك في العقبة من أهل المدينة وزعمائها مثل عبد الله بن أُبي. وهذا التنظيم مقصور على المسلمين، والغرض منه تثبيت مكانة الإسلام والمجتمع الإسلامي، ولا يدخل فيه اليهود والمشركون، واقتصر عملهم على المدة التي سبقت الهجرة ومَهَّدت لها، إذ لم يرد ذكرٌ لاحتفاظهم بأيّ عمل رسمي متصل بالنقابة بعد هجرة الرسول (ص) واستقراره في المدينة.

تنظيمات أحوال المدينة عند الهجرة

كان أهل المدينة عندما هاجر إليها الرسول (ص) منتظمين في عشائر تكوِّن كل منها وحدة تتَّبع النظم القبلية المعروفة الخصائص، ولبعض الأفراد في عشائرهم مكانة قائمة على مواهبهم وأعمالهم وخدماتهم التي تؤهلهم أن يكونوا «سادة» و«أشرافاً». وذكر ابن إسحق بعض ما كان يتميز به هؤلاء، فقال: «كان عمرو بن الجموح سيداً من سادات بني سلمة وشريفاً من أشرافهم، وكان قد اتخذ في داره صنماً من خشب يقال له مَنَاة، كما كانت الأشراف يصنعون، تتخذ إلَهاً تعظّمه وتُطْهره. فلما أسلم فتيان بني سلمة، كانوا يُدْلِجون بالليل على صنم عمرو ذلك، فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة، وفيها عذر الناس مُنكّساً على رأسه»[١].

والشرف هو الرفعة، وهي مكانة محترمة لا ترتبط بعمل معين، ولا يتحدد عدد من يتصفون بها بحدود مقيدة[٢].

أما السيد، فهو الرئيس الذي له مكانة سياسية وإدارية، والغالب أن لكل مجموعة سيداً واحداً، وقد ورد في الأحاديث ذكر سيد خندف، وسيد القارة، وسيد قيس، وسيد الأحابيش، وورد في أخبار المدينة والسيرة ذكر عدد من

---

(١) ابن هشام ٢/ ٦١.

(٢) انظر عن الشرف وتطور معناه: بشر فارس. «الشرف عند العرب» وانظر أيضاً لامنس «مهد الإسلام» (بالفرنسية).

سادة عشائر المدينة[1]. وورد في القرآن الكريم ما يدل على أنه كانت للسادة سلطات على أتباعهم: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَاْ ۝٦٧﴾ [الأحزاب].

ويروى أن أهل المدينة أرادوا أن يُسَوِّدوا عليهم عبد الله بن أُبيّ تخلصاً مما جرَّته عليهم حرب بعاث من آثار سيئة، ولو تمّ ذلك لكانت سلطته فوق سلطة رؤساء القبائل.

وعندما هاجر الرسول (ص) إلى المدينة، واستقرّ مقامه فيها، تابع جهوده في توضيح معالم الدين ونشر الدعوة وتوسيع عدد المسلمين. غير أن الأحوال الجديدة في المدينة اقتضت أن يعالج مختلف القضايا بما يكفل سلامة المسلمين وتنظيم المجتمع والإدارة وتكوين دولة تسير على مبادىء الإسلام، وتسُود فيها أحكامه. وكان لا بد له من ذلك إذا أراد أن تكون المدينة مثالاً يوضح رسالة الإسلام ودورها في تحقيق المجتمع السعيد وتقدمه. ومن المعلوم أن انتشار الإسلام بين الناس لا يتوقف على مجرد سمو مبادئه وسلامة الأفكار التي يُنادي بها، وإنما لا بد له أيضاً، إذا أُريد له الانتشار، أن يظهر نجاحه في التطبيق. وتأمين قاعدة متينة الأسس أمر ضروري لا يستطيع بدونه التصدي لأعدائه والانتصار عليهم.

ولم يكن تحقيق هذه الوجائب أمراً يسيراً في المدينة، التي كانت قد سادت في أهلها الروح القبلية وتأصَّلت فيهم، بما كان بينهم من خصومات عنيفة نشبت بينهم فزادت من صلابة التكتلات القبلية، وقوَّت شعور الفرد بوجوب تمسُّكه بقبيلته التي تحميه وتدافع عنه. هذا فضلاً عن الاعتداد بالفردية الذي كان يسير مع الروح القبلية ويقاوم الخضوع القسري لأية سلطة خارجية.

ثم إن مساكن أهل المدينة لم تكن كلها متقاربة متماسكة، وإنما كانت مكونة من عدة مجموعات سكنية، أو قرى، أبرزها قبا وزهرة وزبالة ويثرب،

(١) البخاري: شهادات ١٣٥؛ ابن حنبل ٣٨/١، ١٩٦/٦.

يفصل بينها مزارع وأراضٍ فضاء، ويقطن كلاً منها عشيرة أو عدة عشائر، ولم تكن العلاقة بين هذه العشائر سلمية أخوية دائماً، وإنما كانت تنشب أحياناً بينها الخصومات والمعارك وتسبب اضطراب الأمن. وقد ظهر في بعض العشائر أفراد كانت لهم في عشائرهم مكانة ونفوذ مستمدّين من نشاطهم ومواهبهم الشخصية وإسناد العشائر لهم، ولكن لا دليل على أنه كانت لهم سلطات سياسية نابعة من مؤسسات قانونية في عشائرهم، كما أن المدينة كانت تفتقد مؤسسات سياسية موحدة تجمع الناس وتؤمن تنظيمهم وتعمل على حل مشاكلهم كدار الندوة في مكة.

وكان في المدينة عدد غير قليل ممن يعتنق ديانات أخرى، وخاصة اليهودية. لهم تنظيمات وتقاليد دينية واجتماعية، وكونوا مجموعات متعددة وعشائر ظهرت في بعضها شخصيات بارزة ذات نفوذ واضح في مجتمعاتهم، وكانت الروح القبلية قد سَرَتْ فيهم ففرقتهم وكانت مبعث العداء بينهم. ولكنهم، مع ذلك، كانت تجمعهم العقيدة اليهودية وما يتصل بها من نظم وتقاليد، ولهم «بيت مِدْراس» واحد، ورجال دين يُغَذُّون نُظُمهم ولكنهم لم يدينوا بالإسلام، ولم يخضعوا لسلطان دولته، وقام كثير منهم بعرقلة مساعي الرسول (ص) والتحريض على عدم طاعته.

ثم إن عدداً من العشائر العربية كخَطِمة، وبني واقف، وبني السَلِم، تأخر إسلامهم إلى ما بعد الخندق (٤هـ) وهذا يقتضي أنهم لم يلتزموا بأوامر القرآن، ولعلهم ظلوا خارجين عن سلطة الرسول قبل أن يُسْلموا.

تظهر الأخبار المتفرقة عن المنافقين، وجُلُّهم من العرب، أنهم، رغم إعلانهم الاسلام، لم يتشبعوا بتعاليمه، وكانوا لا يخضعون دائماً لسلطة الرسول (ص)، وكثيراً ما كانوا يعارضون بما يبلغ حد الخطورة في بعض الأحوال، وكان فيهم بعض البارزين ممن يتمتعون بمكانة فيهم ويمارسون توجيهاً لهم.

أُسُس التنظيمات الإسلامية: السيادة والسلطة

من المبادىء الأساسية التي ثبّتها القرآن الكريم في التنظيم الإداري والسياسي أن السيادة في المجتمع الإسلامي الجديد للّه تعالى، فهو ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد/ ٣]، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران]. وقد أكسبت السيادة للّه تعالى في الإسلام الحُكْم تماسكاً ووقاراً وأنقذته من كثير من الهزّات العنيفة التي طالما أصابت المجتمعات الحديثة التي جعلت السيادة للشعب.

ولما كان تعالى غير مُجسَّد، لا يَحُدُّه زمان ومكان، ولا تدركه الأبصار ولكن تدركه القلوب، فإن الإدارة والحكم الفعلي في المجتمع، أي ما نسميه «السلطة»، إنما كان بيد الرسول (ص) الذي له مكانة خاصة متفردة باعتباره الرسول (ص) الذي اختاره اللّه لتبليغ رسالته وإعلامِه الناسَ بأوامر اللّه ونواحيه ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر/ ٧].

وقد أمر اللّه تعالى المسلمين، في عدد غير قليل من الآيات، بطاعة الرسول وخاطبهم بقوله: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران/ ٣٢، ١٣٣، الأنفال/ ١، ٢٠، ٤٦، محمد/ ٣٣، المجادلة/ ١٣]؛ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء/ ٦٤]، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء/ ٨٠]، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور/ ٥١]؛ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور]؛ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [النساء/ ١٣، الفتح/ ١٧]. وامتدت الطاعة إلى أولي الأمر فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء/ ٥٩].

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا

وَأَطَعْنَا﴾ [النور/ ٥١]؛ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء] وندد في عدد كبير من الآيات بالعصيان.

ومما عزز مكانة الرسول (ص) خُلُقه العظيم ودماثته ورعايته لأصحابه ومتابعته لأحوالهم، وعطفه على الضعيف والفقير، وتجرّده من الأنانية وتسامحه، وبلاغته في التعبير، وقوته في الإقناع. وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض ما تميز به الرسول (ص) فقال ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم]؛ ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فُصِّلت]؛ ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران/ ٥٩].

وضعت الآيات القرآنية المبادىء والأسس العامة التي يُهْتَدى بها في الإدارة. أما التفاصيل والتطبيقات فكانت للرسول (ص) يُنفِّذ منها ما يرى فيه المصلحة، فلم تكن الإدارة قائمة على نصوص مقيدة أو قرارات مجالس عامة، وإنما كانت في أساسها نابعة من مبادىء الإسلام، وفي تطبيقاتها من متطلبات المصلحة العامة. وكان الرسول (ص) يشاور أصحابه دائماً ولا يفرض آراءه، وقد أمره تعالى بالمشاورة ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران/ ١٥٩]؛ ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى/ ٣٨]، وكان يسمع من صحابته، ولكنه لم يؤسس للاستشارة مجلساً خاصاً أو يحدِّد من يشاورهم، وكانت القرارات تصدر باسمه. وبهذا تُثبَّت أسس السلطة التي هي أهم عناصر التنظيم السياسي والإداري بما تحققه من النظام والمصلحة العامة.

يتبين مما تقدم أن القرآن الكريم ثَبَّت السلطة العليا الإدارية والسياسية بيد الرسول (ص) وبه يرتبط الأفراد والجماعات المسلمة، ولا ريب في أن سلطته كان أوسع على المهاجرين من قريش وقبائل الحجاز، وأن سلطانه كان يتزايد بتزايد عدد المسلمين ومدى تشبُّعهم بروح الإسلام.

المستخلفون في الإدارة

وكان الرسول (ص)، عند قيامه بالغزوات، يستخلف على المدينة رجلاً يختاره من المسلمين، ولم يقتصر الاستخلاف على الغزوات خارج المدينة، وإنما كان أيضاً يستخلف في الغزوات التي جرت في المدينة، وهي غزوة الخندق، وبني النضير، وبني قريظة. وقد استخلف عند خروجه إلى غزوة بدر اثنين هما: أبو لبابة على المدينة، وعاصم بن عدي بن العجلان على العوالي[1]. أما بقية الغزوات، فكان يستخلف في كل منها على المدينة واحداً فقط.

وكان المستَخْلَفون متعددين: ففي غزوة **الأبواء** استَخْلَف سعد بن عبادة؛ وفي غزوة بواط استَخْلَف سعد بن معاذ، وفي غزوة السويق استخلف أبا لبابة بن عبد المنذر، وكلهم من الأنصار؛ وفي غزوة ذي العشيرة استخلف أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي. واستَخْلَف ابن أم مكتوم في إحدى عشرة غزوة، وعثمان بن عفان في غزوتي غطفان وذات الرقاع، وسباع بن عرفطة الغفاري في غزوتي دومة الجندل وخيبر، واستخلف في عمرة القضاء أبا رهم الغفاري؛ وفي غزوة بدر الموعد والمريسيع عبد الله بن رواحة؛ وفي غزوة تبوك محمد بن مسلمة.

يتبين من هذا السرد أن الرسول (ص) لم يضع قاعدة ثابتة لاختيار من يَسْتخلفه. فقد استخلف ابن أم كلثوم، وهو أعمى، إحدى عشرة مرة، واستخلف عدداً مرتين، وآخَرين مرة واحدة. والمستخلفون من عشائر متعددة، فبعضهم من الأنصار، وبعضهم من مهاجري قريش، وبعضهم من مهاجري الحجاز. ولم تذكر المصادر الأعمال المطلوبة من المستخلفين إبّان استخلافهم الذي كان في الغالب قصير المدة. ولم يكن الرسول (ص) في معظم الأحيان

---

(١) ابن سعد ٢ ـ ٦/١؛ وانظر قائمة المستخلفين تاريخ خليفة ٦١؛ وذكر ابن إسحاق أسماء المستخلفين في كل غزوة عند الكلام عنها.

بعيداً عن المدينة. وذكر ابن هشام أن الرسول استخلف ابن أم مكتوم في غزوة أُحُد «على الصلاة». ولعله قصد بذلك النظر في الأمور الإدارية دون العسكرية.

يتجلى تنظيم الرسول (ص) الإداري للمدينة في أوائل الهجرة في الصحيفة التي أصدرها في السنة الثانية من الهجرة ووضع فيها الأحكام التي تُبيِّن الخطوط الرئيسة لتنظيم الدولة والمجتمع ولتنسيق العلاقة بينها[١]، وهي توضح الأحوال الجديدة التي أصبح المسلمون فيها يؤمنون بإلّه واحد، ويخضعون لأوامر دينية واحدة، ويطيعون رسولاً واحداً.

ويذكر ابن حنبل، بسند من عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه أن النبي (ص) كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار: أن يعقلوا معاقلهم، وأن يَفْدوا عانيهم بالمعروف والإصلاح بين المسلمين[٢]، وذكر في مكان آخر صحيفة الأمة[٣].

فالمسلمون «أمة واحدة من دون الناس»، أي كتلة يرتبط أعضاؤها برابطة العقيدة الدينية. فالتنظيم قائم على أُسُس فكرية أخلاقية وعقائدية، وليس على أساس الدم أو على أُسُس بيولوجية. والأمة قابلة للتوسع والتقلص تبعاً لعدد من ينضمّ إليها أو يتركها باختياره. فبالإمكان أن تتّسع عندما يزداد عدد من يؤمن بالعقائد التي تعتنقها، أو تتقلص بقدر من يترك من أفرادها تلك العقيدة. ورابطة الأمة مفتوحة لمن يعتنق عقائدها، ويَقْبَل روابطها بصرف النظر عن عَرَقه ودمه وثروته. وما دامت تقوم على رابطة العقيدة، فإنها تستند إلى مبادىء روحية

(١) ورد نص الصحيفة في سيرة ابن هشام (٢/١١٩ ـ ١٢١)، وفي كتاب «الأموال» لأبي عبيد (٢٠٢ ـ ٢٠٥) وكتاب الأموال لزنجويه (٤٦٦ ـ ٤٧٠)، كما وردت مقتطفات منها في هذين المصدرين وعدد من المصادر القديمة، وقد جمعها ونشرها محمد حميد اللّه في كتابه «الوثائق السياسية في عهد الرسول (ص) والخلافة الراشدة، ونظم نشرها بشكل فقرات مرقمة وإليها نشير في دراستنا. وقد أشار محمد حميد اللّه إلى عدد من الدراسات التي كتبها عنها بعضُ المستشرقين، كما جرت دراسات متعددة تالية، ولعل من أوسعها في العربية ما كتبه الدكتور شريف عون في كتابه «دبلوماسية الرسول» ودراسة سارجنت.

(٢) ابن حنبل ١/٢٧١، ٢/٣٠٤ وانظر ٣/٣٤٢.

(٣) ابن حنبل ٣/٣٤٢.

وأخلاقية. فالسياسة في الإسلام ممتزجة بالعقيدة والأخلاق، ورابطة الأمة تسود على كافة الروابط.

والأمة كتلة واحدة يميزها تماسكها من غيرها من الكتل والجماعات. وقد نصت الصحيفة على أن «ذمة اللّه واحدة، يُجير عليهم أدناهم»، وأن «المؤمنين يحمي كل منهم الآخر، فهم سواسية لا فرق بين صغير وكبير، أو غني وفقير، ولكل فرد أن يُجير من يشاء، وتكون إجارته باسم الإسلام، وعلى كافة المسلمين حماية من يُجيره أحد أفرادها.

والمسلمون «تتكافأ دماؤهم» فَدِيَتُهُم واحدة، و«المؤمنون بعضهم مَوَالي بعض من دون الناس» (١٥) وهم «لا يتركون مُفْرحاً بينهم أن يعطعوه بالمعروف والقسط بين المؤمنين» (١٤)، فهم كتلة واحدة يحمي كل منهم الآخرين، ويتمتع بحمايتهم ويحظى بمعونتهم عندما يحتاجها.

الأمن

وتتجلى وحدة الأمة وتكتُّلها والروح الجماعية في وجوب اشتراك المسلمين في صيانة الأمن، ومطاردة المفسدين، والامتناع عن حماية المخلين بالأمن حتى ولو كان ولدهم. فقد نصَّت الوثيقة على أن «المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بَغَى أو ابتغى ظلماً أو إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم» (١٣) وأنه «لا يحل لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة وآمن باللّه واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤويه، وأن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة اللّه وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل» (١١). فالأمن مركزي عام يسهم الجميع في تحقيقه لمصلحتهم وليس تنفيذاً لأوامر خارجية، فلم يضع الرسول (ص) في المدينة شرطة لمطاردة المفسدين، ولا سجوناً لحجزهم.

العدالة والقضاء

تُظهر الصحيفة اهتمام الرسول (ص) بأمر العدالة وتنظيم القضاء، فقد خصتهما الصحيفة بعدد من الأحكام بحيث يمكن القول إنهما كانا من أبرز الغايات التي استهدفت الصحيفة تأمينها، ولا شك أن هذا راجع إلى إدراك الرسول (ص) لأهمية العدالة والقضاء لكل مجتمع سليم، وأن فقدانهما كان من أبرز العيوب في كل من المجتمع المكي والمدني، ومن أقوى أسباب القلق والاضطراب قبل الإسلام.

نصّ القرآن الكريم على جَعْل القضاء في الأمور المتعلقة بالأمن العام إجبارياً وحَصْره بيد الرسول (ص)، فقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

ونصَّت الوثيقة على «أنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده، فإن مردَّه إلى اللّه وإلى محمد رسول اللّه» (٤٢). وبهذه المادة أوجَدَ الرسول (ص) سلطة قضائية مركزية يرجع إليها الجميع، وجعلها ترجع إلى اللّه وإلى الرسول (ص)، فهي مُصطبغة بصبغة قدسية، ولها قوة تنفيذية، لأن أوامر اللّه واجبة الطاعة، ملزمة التنفيذ. كما أن أوامر الرسول (ص) هي من اللّه، وطاعتها واجبة كما ذكرنا من قبل.

لم تقتصر السلطة القضائية على المسلمين فحسب، وإنما شملت أيضاً المشركين من قريش وأهل يثرب ومَنْ تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم. والراجح أن المقصود بعبارة «من تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم»: الأفراد والعشائر التي لم تعتنق الدين الإسلامي من أهل المدينة. وبذلك أدخلهم الرسول (ص) ضمن هذه الأحكام الأساسية دون أن يُجبرهم على اعتناق الإسلام. ولا شك في أن شمول هؤلاء بأحكام العدالة يجعلهم يدركون دور الإسلام في الاستقرار مما يكون دافعاً إلى إسلامهم. ثم إن الحكم العام لهذه الفقرة يدل على أن أحكامها امتدت إلى اليهود أيضاً. ولا ريب في أن رجوع اليهود في التحكيم إلى

الرسول (ص) معناه اعترافهم بسلطته العليا، الأمر الذي يضعهم في مكانة ثانوية، حيث أصبح الرسول مرجعهم وحاكمهم في الخلافات المتعلقة بالإخلال بالأمن العام، وهذا يدل على أن هذه الصحيفة جاءت بعد أن حقّق الرسول (ص) انتصاره العظيم في بدر مما قوى شوكة المسلمين، وألقى في قلوب خصومهم الرعب، إضافةً إلى الانقسامات والمخاصمات التي كانت بين اليهود في المدينة.

والقضايا التي جُعلت مركزية بيد الرسول (ص) اقتصرت على ما يتعلق بالأمن العام. أما القضايا والخلافات الشخصية المحدودة، ولا سيّما ما يتعلق بما نسميه اليوم القانون المدني من زواج وطلاق وميراث، أو المعاملات التجارية، فإنها لا تلزم إحالتها إلى الرسول (ص). وقد نصّ القرآن الكريم على السماح لليهود بالرجوع في ذلك إلى الرسول (ص) وعدم التزامه بالحكم بينهم فقال تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة]، ولا ريب في أن حكم الرسول (ص) يقوم على أسس الأعراف المنسجمة مع العدالة ومبادىء الإسلام ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [المائدة/ ٤٨]، ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [المائدة/ ٤٩].

أحوال الحرب والسلم

ومن المظاهر الجماعية في تنظيم الرسول (ص) الإداري للمدينة أمر الحرب والسلم، فقد خصصت له الصحيفة عدة نصوص. وطبيعي أن مرجع ذلك هو الظروف التي كان فيها الإسلام مقتصراً على المدينة، وكان محاطاً بالأعداء والخصوم المتربصين به، والعاملين على إزالته بالقوة والقتال. وقد نصَّت الصحيفة على أن «سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم (١٧) و«إن المؤمنين يبيء بعضهم على

بعض بما نال دماءهم في سبيل اللّه» (١٩). فلا يجوز أن يقتصر الاشتراك على بعض المسلمين ويبقى آخرون في حالة سلم مع العدو، وأن المسلمين يتعاونون جميعاً ويشتركون جميعاً في دماء من يُقتل منهم في سبيل اللّه.

لا تقتصر أحكام الحرب والسلم على المسلمين ومن تبِعَهم فحسب، بل تمتد إلى اليهود أيضاً، وقد نصَّت الصحيفة على ضمان الحرية الدينية: «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلاّ من أظلم أو أَثِم، فإنه لا يَوْتَغ إلا نَفْسُه وأَهْلُ بيته» (٢٥) ونص أيضاً على أن «من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصَرٍ عليهم» (١٦)، وشمل ذلك بطانة اليهود وأموالهم. أما الباقون، فقد نص على وجوب مناصرتهم المسلمين في صد الهجمات الموجهة إلى المدينة «وأن بينهم النصر على من دَهَم يثرب» (٤٤) أي أنه حتم عليهم الاشتراك في الحروب الدفاعية عن المدينة. وفي الوثيقة مادة تنص على «أن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم» (٣٧). وواضح منها أن على اليهود الوقوف بجانب المسلمين ضد من يحارب المسلمين، وأن عليهم مساندتهم وتأييدهم وعدم خيانتهم، ولكن الراجح أنه لم يطلب منهم أن يقاتلوا مع المسلمين، بل أن يقفوا موقف الحياد المُشْرَب بروح التأييد للمسلمين. والواقع أنه ليست هناك إشارة أو دليل على قتالهم مع المسلمين، وأن لوم الرسول بني قريظة في غزوة الخندق يرجع إلى انضمامهم إلى قريش. وفي الصحيفة مادة صريحة تجيز لليهود عدم الاشتراك في الحروب الدينية الإسلامية. «وإذا دُعُوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه وأنهم إذا دُعُوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين» (٤٥)، وقد وضعت هذه المادة تالية للمواد المتعلقة بالدفاع عن المدينة. لذلك يمكن اعتبارها مكملة لها ومرتبطة بها، وأن الصلح الذي تشير إليه هذه المادة يتعلق بالأخطار التي تهدد المدينة.

وفي الوثيقة مادة تنص على أنه «لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد» (٣٦) ويظهر أن المقصود بها عدم السماح لليهود بإشهار الحرب إلا بإذن الرسول، ولهذا تأثير كبير في عدم السماح لهم بمحالفة قريش، والواقع أن مادة أخرى

في الوثيقة ذهبت إلى أبعد من ذلك فقررت أنه «لا تجاز قريش ولا مَنْ نَصَرَها» (٤٣).

نَظَّمت الصحيفة الالتزامات المالية الناجمة عن الحروب التي قد يشترك فيها الفريقان فنصَّت على «أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين» (٣٨)، «وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم» (٣٧)، أي أنه إذا حدثت حرب وشارك فيها اليهود، فإنهم يقومون بالصرف على ما يحتاجونه من نفقات.

نصت الصحيفة على «أن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة» (٣٩) ومعنى هذا منع الحروب والقتال بين القبائل والعشائر وتثبيت السلم في المدينة. وبذلك وضعت حداً لأقوى عامل في خَلْق القلق والاضطرابات وما يجره من أمور. ولا ريب في أن استعمال كلمة «حرام» قصد منه إعطاء السلم طابعاً دينياً، فيكون أثره أقوى، كما أننا، بهذه المادة، نكوِّن فكرة عن كيفية ظهور بعض الحُرْم في الجزيرة، وقد استلزم ذلك تحديد حَرَم المدينة فتقررت حدوده ببعض العوارض البارزة في أطراف المدينة، وهي لا تتجاوز بضعة أميال يسود السلم بين من يقيم داخلها فقط، ولا ريب في أن المسلمين كانوا آنذاك منحصرين في هذه المنطقة. أما من كانوا خارجها، فلم يكونوا قد اعتنقوا الإسلام حتى ذلك الوقت فيما يظهر.

مكانة الفرد

إن أمة الإسلام يرتبط أعضاؤها برابطة العقيدة، ويشتركون بحقوق وواجبات تُعَبِّر عن وحدتهم وتُقوِّي تماسكهم، ولكنها ليست طاغية بل تهدف إلى تنسيق حرية الفرد مع مصلحة الجماعة، وأنَّ وجود الأمة لا يعني القضاء على كيان الفرد ومكانته، فالمسؤولية المدنية والأخلاقية والدينية مسؤولية فردية: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثّر] ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام/ ١٦٤] ويوم القيامة ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان/ ٣٣] ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة] وقد

أباح الإسلام للفرد حرية العمل ومزاولة المهنة التي يرتئيها، والتنقل حيث شاء. كل ذلك ضمن نطاق الأمة، إذ لا يجوز له القيام بأعمال تُضِرّ بمصلحة الجماعة، كما أنه ليست للأمة أن تقيِّد حرية الفرد ما لم تُضِرَّ بمصلحة المجموع.

ونصت الصحيفة أنه «لا يكسب كاسب إلا على نفسه» (٤٧) و«أنه لا يأثم امرؤ بحليفه» (٣٧). وأكدت الصحيفة على أهمية الأسس الأخلاقية في العلاقات الاجتماعية، فقد نصت على «أن اللّه جابر لمن برّ واتقى» (٤٧) أي أن اللّه يحمي من يَبَرُّ ويتقي ويتخلق بالأخلاق الفاضلة.

أباح الإسلام للفرد حرية الإقامة والتنقل ومزاولة ما يريده من الحِرَف دون تقييد ما دامت هذه الحرية لا تضر مصلحة المجموع وتراعي المبادىء الأخلاقية في السلوك الفردي وفي العلاقات الاجتماعية.

العشائر والموالي

إن وحدة الأمة، والتأكيد على مصلحة الجماعة، مسألة أساسية ولها المكان الأول، وهي تسود على التكتُّلات الفرعية، ولكنها لا تُلْغيها. فقد أقرّ الرسول (ص) النظام العشائري أساساً للاستيطان ودَفْع الدِّيَة والتعاون، فكرّر ذكر العشائر، ونَصَّ على أن كلاً منها «على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم ويفدون عانيهم بالمعروف»، وذكر في نصوصه عن عشائر الأنصار: «وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين» (٣ ـ ١٠)، وتدل كلمة «طائفة» في هذه النصوص على أنه كانت في كل عشيرة عدة طوائف، وإن كانت المصادر لم توضح ماهية هذه الطوائف.

ونَصَّت الصحيفة على أنه «لا يحالِفُ مؤمنٌ مولَى مؤمِنٍ من دونه» (١٢)، وبذلك أقرَّ بقاء الولاء، ومنع محالفة الموالي دون موافقة أسيادهم. ومن المعلوم أن مؤسسة الولاء مؤسسةٌ قديمة، وفيها منافع للمولى وللعشيرة، فقد تمكن المولى من ممارسة نشاطه وأعماله في ظل الحماية التي يوفرها الولاء،

كما أن العشيرة تستفيد من وجود الذين يزيدون من عددها ويُقَدِّمون لها بعض العون، ويوفِّرون لها بعض القوة. ولما كانت رابطة الولاء غير ثابتة كرابطة الدم، فَتَنَقُّل الموالي بِحُرية كثيراً ما يؤدي إلى عدم الاستقرار والقلق، وإلى خلق مشاكل اجتماعية وسياسية وإدارية أراد الرسول تجنُّبها بمَنْع الموالي من المحالفة دون إذن أسيادهم.

ويرجع إبقاء الرسول (ص) لِلتَّكَتُّل العشائري إلى تغلغله في النفوس، ومكانته في حياتهم. ومن الطبيعي أن هذا التنظيم العشائري كان لا بد من زواله بعد تشرُّب الناس مبادئَ الدين الجديد، لأن الدين الإسلامي يقوم على أساس المسؤولية الفردية ويجمع الناس كُلَّهم برابطة العقيدة، ويضع للتفاضل بينهم معايير جديدة من التقوى والتديُّن والخُلُق الفاضل. فالتكتل العشائري إذاً يقع ضمن رابطة الأمة وهو خاضع لها، وهو معرَّض للتفكك على مر الأيام، إذ أن من يعتنق الإسلام يرتبط برابطة عامة مع إخوانه في الدين، ويشترك معهم في تأدية فرائضهم واحتفالاتهم وأفراحهم وأتراحهم ومصالحهم العامة وبذلك يبتعد عَمَّن يبقى متمسكاً بالشِّرك.

لم يرد في الوثيقة اسمٌ لأيِّ شخص بالذات، ما عدا الرسول (ص)، ولم تُشِرِ الوثيقة إلى رئاسة في أيِّ من المجموعات التي ذكرتها، وهذا يُظهر أن الرسول (ص) كان يتعامل مع الجماعات وأفرادها مباشرة دون أن يحدد رئيساً تكون له سلطة أو وساطة قد تعيق الاتصال المباشر بالرسول. ومما يسهِّل هذا الاتصال المباشر صِغَرُ مساحة المدينة وسهولة المواصلات فيها، وما تَمَيَّز به الرسول (ص) من حرص على الاتصال الشخصي المباشر بكافة المسلمين، وحتى بغيرهم. وكل هذا يُظهر أن الرسول (ص) اعتبر القبيلة والعشيرة في المدينة تَجَمُّعاً اجتماعياً أكثر مما هو تكتل إداري أو سياسي، ومكانة الأفراد فيها راجعة إلى مزاياهم الشخصية ومكانتهم الاجتماعية لا السياسية، وكان الرسول (ص) يتعامل مع ذوي المكانة باعتبارهم أفراداً في الأمة وليس باعتبارهم رؤساء لكتل سياسية.

إلا أن التشرُّب بمبادىء الإسلام، وتثبيتَ المركزية، ونَشْرَ الأمن والعدالة،

لا بد أن يؤدي كل ذلك إلى إضعاف التكَتُّل القبلي ثم إزالته، إذ أن الإسلام يضع للتفاضل بين الناس معايير جديدة قائمة على التقوى والخُلُق الفاضل، بالإضافة إلى أن من يُسلم يرتبط بإخوانه في الدين برابطة عامة، ويشترك معهم في تأدية الفرائض والاحتفالات والمصالح العامة، وبذلك يبتعد عمن يبقى متمسكاً بالشرك من أفراد عشيرته.

يتبين مما ذكرنا أن إدارة الرسول في المدينة كانت تهدف إلى تكوين أمة مترابطة فيما بينها، للأفراد فيها حرية العمل والتنظيم، وللسلطة المركزية حق الاهتمام بالعدالة والأمن العام والقضاء، وأمور الحرب والسلم، على أن تكون التقوى والأخلاق الفاضلة الإسلامية أساس أعمالهم وتصرفاتهم.

الفصل السادس

الفرائض الإسلامية

الصلاة

الصلاة من أركان الإسلام الخمسة ومن أهم الفرائض المطلوبة من كل مسلم أو مسلمة. وكان الرسول ينص عليها في شروطه على من يُسلم[(١)]. ولم يتردّد أبو بكر في استخدام السلاح ضد من أراد موافقة الخليفة على ترك الصلاة، وقد اعتبر مثل هذا مرتداً[(٢)]. ومما يُظهر أهمية الصلاة كثرة ورود ذكرها والتأكيد على أنها من الواجبات المفروضة على المسلمين[(٣)].

وكلمة الصلاة تعني في بعض الآيات القرآنية الدعاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ

(١) سوف نبحث ذلك بتفصيل أوفى في فصل الإدارة بعد فتح مكة.

(٢) سنبحث ذلك في الفصل الذي يتناول الموقف من تولي أبي بكر الخلافة.

(٣) ذكرت الصلاة كواجب على المسلمين في عدة آيات من القرآن الكريم (البقرة ٣، ٤٥، ١٥٣؛ المائدة ٩١؛ الأنعام ٧٢، ٩٢؛ الأعراف ١٧٠)، وذكرت من الواجبات المفروضة على المسلمين مع الزكاة (البقرة ٤٣، ١١٠، ١٧٧، ٣٧٧؛ النساء ٧٧، ١٦٢؛ المائدة ٥٥؛ التوبة ٥، ١١، ١٨، ٧١؛ الحج ٤١، ٧٨؛ المؤمنون ٤؛ النور ٣٧، ٥٦؛ النمل ٣؛ لقمان ٤؛ الأحزاب ٣٣؛ البينة ٥؛ المجادلة ١٣)، كما قرنت بالإنفاق (إبراهيم ٣١؛ الحج ٣٥؛ الأنفال ٣؛ الشورى ٣٨؛ فاطر ٢٩؛ المعارج ٢٢ ـ ٢٤؛ المدثر ٤٣ ـ ٤٤).
والزكاة فريضة إسلامية، ومن أركان الإسلام الخمسة، غير أن صلتها الوثيقة بالمالية تدفعنا إلى إرجاء بحثها وإدراجها مع الفصل الذي خصَّصناه لبحث المالية.

يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [المدثر/ ٥٦] ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ﴾ [التوبة/ ١٠٣] ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَـٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ [التوبة/ ٩٩].

ذكر القرآن الكريم أن الصلاة موجودة عند الأقوام الأخرى كقوم موسى [يونس/ ٨٧]، وشعيب [هود/ ٨٧]، وإبراهيم [إبراهيم/ ٣٧ و٤٠]، ولقمان [لقمان/ ١٧]، وأن الصلاة والزكاة كانتا واجبتين على بني إسرائيل [البقرة/ ٨٣ والمائدة/ ١٢]، وعلى عيسى [مريم/ ٣١]، وإبراهيم وإسحق [الأنبياء/ ٧٣]. وذكر أيضاً أن مشركي مكة كانوا يصلون ولكنه قال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةًۚ﴾ [الأنفال/ ٣٥].

الصلاة في أوائل الإسلام

والصلاة من أولى الفرائض التي فُرضت على المسلمين، غير أن طريقتها وأشكالها مرت بتطورات منذ نزول الوحي حتى استقرت في أوائل زمن الهجرة بالشكل النهائي المتعارف عليه عند المسلمين.

في القرآن الكريم تعابير عن التعبُّد قد تكون لها علاقة بالصلاة في مراحلها الأولى. ومن المؤكد أن أول أمر قرآني للرسول هو قراءة القرآن ولعل هذه القراءة هي أول مراحل فرض الصلاة، فقد قال تعالى ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق]. وقال ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ [الإسراء].

وذكرت كلمة «التسبيح» بما يدل على أنها نزلت في أوائل الوحي، وأن لها علاقة بالصلاة، وقد وردت كلمة «التسبيح» في خمس وأربعين آية، ذكر فيه أنه يسبح للَّه ما في السماوات والأرض، وتسبح له الملائكة، والجبال، والمطر، والرعد، وأمر اللَّه تعالى الرسول (ص) أن يُسبِّح باسم اللَّه، ويسبح بحمد اللَّه. كما أمره أن يسبح بالعَشِيِّ والإبكار، وآناء الليل وأطراف النهار، وبكرة

وأصيلاً، وبالغُدُوّ والآصال، وقبل الشروق وقبل الغروب، وفي الليل، وعند إدبار النجوم، وعند الليل وإدبار السجود[1]. وذُكِرَ التسبيح مفرداً في كافة الآيات، إلا ثلاث آيات ذكر فيها التسبيح مقترناً بالسجود[2].

ووردت في القرآن الكريم أيضاً كلمة «السجود»، وقد ذكرت مع مشتقاتها في أربع وستين آية، وفي هذه الآيات أن اللّه تعالى يسجد له ما في السموات والأرض، وأن النجم والشجر يسجدان له، وكذلك الملائكة، وأن إبليس امتنع من السجود لآدم، وأن بعض الأقوام تسجد للشمس والقمر من دون اللّه، وأن الكفار يمتنعون من السجود للرحمن، وأن السَّحَرة سجدوا عندما انقلبت عصى موسى حَيَّةً تلقف ما يأفكون[3].

وذكر القرآن الكريم أن السجود من مظاهر الإسلام ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ [السجدة/ ١٥][4] ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح/ ٢٩] ومعظم الآيات التي ورد فيها ذكر سجود البشر تتعلق بالمسلمين، ونعى القرآن الكريم على المشركين أنهم ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾ [الانشقاق]. وقد وردت كلمة «السجود» في بعض الآيات بما يوحي أنها كانت مرادفة للصلاة[5].

قرن السجود بالركوع في ست آيات[6]، وبالقيام في ثلاث آيات[7]، وبالتسبيح في أربع آيات[8]، ووردت في ثلاث آيات تعبيراً «خروا سجداً». وذكر

(١) انظر مواضع هذه الآيات في «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» لمحمد فؤاد عبد الباقي. كلمة (سبح).

(٢) الإنسان ٢٦؛ الحجر ٩٨؛ السجدة ١٥.

(٣) المعجم المفهرس مادة «سجد».

(٤) انظر الإسراء ١٠٧، مريم ٥٨، الفرقان ٦٤.

(٥) الشعراء ٢١٩.

(٦) آل عمران ٤٣؛ التوبة ١١٢؛ الحج ٢٦، ٧٧؛ الفتح ٢٩.

(٧) آل عمران ١١٣؛ الفرقان ٦٤؛ الزمر ٩.

(٨) الأعراف ٢٠٦؛ ق ٤٠؛ الإنسان ٢٦؛ السجدة ١٥.

السجود ليلاً في آيتين ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [ق/ ٤٠] ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإنسان/ ٢٦].

وقد وردت كلمة السجود في بعض الآيات بما يوحي أنها كانت مرادفة للصلاة.

تطور الصلاة

ذكر الشافعي ما يُجْمِل تطور الصلاة فقال: «سمعت من أثق بخبره وعمله يذكر أن اللّه أنزل فرضاً في الصلاة، ثم نسخه بفرضٍ غيره، ثم نسخ الثاني بالفرض في الصلوات الخمس. قال كأنه يعني قول اللّه تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ﴿٧﴾ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴿٨﴾﴾ [المزمّل].

ثم نسخها في السورة عينها بقول اللّه جل ثناؤه: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ [المزمّل/ ٢٠]. فنسخ قيام الليل أو نصفه أو أقل أو أكثر بما تيسر. يقال إن ما ذُكر من «المُزَّمل» قد نُسخ بقول اللّه عز وجل: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ (ودلوك الشمس زوالها)، إلى غسق الليل (العتمة) وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً (الصبح)، ومن الليل فتهجد به نافلة أيضاً للّه (فأعْلَمه أن صلاة الليل نافلة لا فريضة)[1].

إن كلام الشافعي يُظهر أن المسلمين كانوا يتعبدون ليلاً، وأن هذا التعبد

(١) الأم للشافعي ٥٩/١، وانظر أيضاً الرسالة ١١٣ ـ ١١٥.

كان يطلق عليه «القيام»، وأنه يعتمد على قراءة القرآن، وهو يأخذ قدراً كبيراً من الليل بين الثلثين والثلث أي حوالي النصف، ويشترك فيه الصحابة، ثم حُدِّدت العبادة بأوائل الليل وأواخره، ولم تَعُد مجرد قيام وقراءة بل أصبحت تسبيحاً للّه، ولعل الآيات التي تذكر التسبيح في أول الليل وآخره نزلت كلها في هذه الفترة.

كان الكلام مباحاً في الصلاة قبل الهجرة إلى الحبشة. يروي الشافعي بسندٍ عن أبي وائل عبد الله قوله: كنا نُسلِّم على رسول اللّه (ص) وهو في الصلاة قبل أن نأتي أرض الحبشة، فيُردُّ علينا وهو في الصلاة. فلما رجعنا من أرض الحبشة أتيته لأُسلم عليه فوجدته يصلي، فسلمت عليه، فلم يرد عليَّ، فأخذني ما قرب وما بعد فجلست، حتى إذا قضى صلاته أتيته فقال: إن اللّه يُحدِث من أمره ما يشاء فمِمّا أحدَثَ اللّه تعالى أن لا تتكلموا في الصلاة[1].

ذكرت كتب السيرة والحديث أن اللّه فرض أولاً خمسين صلاة، ثم إن الرسول سأل ربه فانقصها حتى جعلها خمساً[2]. ويُروى عن أنس أن هذا الإنقاص كان ليلة الإسراء. وتُروَى هذه الرواية بشكل فيه سمة غريبة[3]. ولعل مسألة فرض الصلاة في البدء خمسين، ثم إنقاصِهَا إلى خمس، أساسها أن الصلاة كانت في البدء طويلة وكثيرة، ثم خُفِّفت فأُنقصت تدريجياً حتى استقرّت على خمس صلوات يومياً. ومما يؤيد هذا أن القرآن أشار إلى أن الصلاة كانت تأخذ حوالى نصف الليل ثم أمر اللّه تعالى بتخفيفها.

يروي الطبري بسند عن ابن جريج أنه «أراه اللّه من الآيات في الطريق إلى بيت المقدس حين أسرى به، ونزلت فريضة الصلاة ليلةَ أسرى به قبل أن يهاجر

---

(١) الأم ١/١٠٧.

(٢) انظر ابن حنبل ١/٣١٥، ٤٢٢ (عن ابن عباس) ٢/١٠٩ عن ابن عمر، ٣/١٦١، ٤/٢١٧ عن أنس، البخاري: مناقب الأنصار ٦٣، ٤٢؛ وانظر عن مواقع ورودها في كتب الصحاح: مفتاح كنوز السنة: كيف فرضت الصلاة على النبي ليلة المعراج وكيف أصبحت خمساً بعد خمسين.

(٣) ابن حنبل ٣/١٤٨؛ ٤/٢٠٧.

بسنة، وتسع سنين من العشر التي مكثها بمكة»[1] وهذا النص يُظهر أن الصلاة اتَّخذت عند الإسراء طابعها الخاص الذي يميزها من القيام والتسبيح.

ورد في إحدى الآيات ذكر صلاة الفجر وصلاة العشاء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النور]. كما وردت في آيتين إشارة إلى ثلاثة أوقات للصلاة وهي قد تدل، وإن لم يكن لا يصح الجزم، بأن الصلاة كانت في إحدى المراحل ثلاثة أوقات.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هـــــود]، ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء].

خصت إحدى الآيات بالذكر الصلاة الوسطى دون أن تنص على عدد الــصــلــوات ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة]. ذكر الواقدي أنَّهم: «كانوا يصلّون الضحى والعصر» ثم نزلت الصلوات الخمس قبل الهجرة، وكانت الصلاة ركعتين ركعتين، ثم نقل إتمامهم للقيم، وبقيت صلاة المسافرين»[2].

يتردد في الكتب أن اللّه تعالى فرض الصلاة حين فرضها «ركعتين ركعتين في الحضر والسفر فأقرت صلاة السفر وَزِيدَ في صلاة الحضر»[3].

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٧٧.

(٢) أنساب الأشراف ١/ ١١٧.

(٣) البخاري: الصلاة ١٨. تقصير الصلاة (١٨ ـ ٥) ابن هشام ١/ ٢٦٣ (كلها عن عروة)؛ ابن حنبل ٢/ ٤٠٠ وعن أبي هريرة؛ وانظر عن مواضع ذكر الركعتين في كتب الحديث: مفتاح كنوز السنة «كانت الصلاة في الأصل ركعتين ركعتين» و«الصلاة مثنى مثنى».

يقول الطبري، عند الكلام عن حوداث السنة الثانية للهجرة: وفي هذه السنة زِيدَ في صلاة الحضر، فيما قيل، ركعتان. وكانت صلاة الحضر والسفر ركعتين، وذلك بعد قدوم رسول اللّه (ص) المدينة بشهر، في ربيع الآخر لِمُضيّ ست عشرة ليلة منه. زعم الواقدي أنه لا خلاف بين أهل الحجاز فيه[1]. ويروى عن ابن عباس أنه قال فرض اللّه عزل وجل صلاة الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين، و[صلاة] الخوف ركعة على لسان نبيه[2]. ويروي السمهودي عن أبي حاتم: «ثم زِيدَ في صلاة الحَضَر ركعتين للّه، والذي عليه الأكثر أن الصلاة بتمامها من بدء الأمر واللّه أعلم». ويُروى أيضاً أن الرسول (ص)، في آخر السنة الثانية، صلى صلاة العيد ثم ضَحَّى بكبش[3].

ذكر القرآن الكريم صلاة الجمعة فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠﴾ [الجمعة]. وتتميز صلاة الجمعة بكونها واجبة مع الجماعة، وأنه تُلْقى فيها خطبة عن الشؤون العامة، وكان الرسول (ص) هو الذي يُلقي الخطبة، ويَؤُمُّ الناس، ثم كان الخلفاء والولاة من بعده يقومون بها. فهي لذلك لا تُقام إلاّ في المكان الذي فيه والٍ، وكانت الأمصار الإسلامية في القرون الأولى لا تُقام فيها صلاة الجمعة إلا بمسجد واحد، أي في كل مدينة مسجد واحد لصلاة الجمعة، ثم أبيحت إقامة الصلاة في المراكز التي ليس فيها والٍ، وجُعِل في كل بلد عدةُ جوامع تقام في كل منها صلاة الجمعة.

صلوات خاصة

ذكر القرآن الكريم صلواتٍ تجري في أحوال خاصة ومنها صلاة الخوف،

---

(١) الطبري ١/١٢٦٣؛ وانظر ابن هشام ١/٢٦٣.
(٢) ابن حنبل ١/٣٥٥.
(٣) وفاء ١/٢٩٩.

فقد قال تعالى ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء]. ويروي ابن هشام أن الرسول (ص) صلى هذه الصلاة أول مرة في غزوة ذات الرقاع حيث لاقى المسلمون جمعاً عظيماً من غطفان، فتقَارَبَ الناس ولم يكن بينهم خوف. وقد خاف الناس بعضهم بعضاً حتى صلى رسول اللّه (ص) بالناس صلاة الخوف، وقد وصف هذه الصلاة حيث قال صفّنا رسول اللّه (ص) صفين، فركع بنا جميعاً ثم سجد رسول اللّه (ص) وسجد الصف الأول، فلما رَفَعوا، سجد الذين يلوهم بأنفسهم، ثم تأخر الصف الأول وتقدم الصف الآخر قاموا مقامهم ثم ركع النبي بهم جميعاً، ثم سجد النبي وسجد الذين يلونه معه. فلما رفعوا رؤوسهم سجد الآخرون بأنفسهم، فركع النبي (ص) بهم جميعاً وسجد كل واحد منهما بأنفسهم سجدتين»(١).

ذكر القرآن الكريم الصلاة على الميت بما يدل على أنها كانت تقام في زمن الرسول (ص)، فقد أمره بعدم إقامتها على المنافقين ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة/ ٨٤].

لم يُقم الرسول (ص) صلاة العيد في مسجده، وإنما كان يقيمها في أماكن أخرى. يروي أبو هريرة أن «أول فطر وأضحى صلى فيه رسول اللّه (ص) بالناس بالمدينة بفناء دار حكيم ابن العداء عند أصحاب المحامل».

---

(١) ابن هشام ٣/ ٢١٤، ٢١٥.

ويروي ابن شبة بسند عن ابن باكية: «صلى رسول اللّه (ص) العيد عند دار الشفاء، ثم صلى في حارة الدوس، ثم صلى في المُصَلَّى فلبث يصلي فيه حتى توفاه اللّه تعالى»[١].

والواقع أن كثيراً من الأمصار الإسلامية الكبرى كان فيها مُصَلًّى للعيد في مكان غير المسجد الجامع الذي تقام فيه صلاة الجمعة.

وفي زمن خلافة عمر بن الخطاب بدأ الناس يصلون صلاة التراويح، وهي الصلاة التي تقام بعد العشاء في شهر رمضان، وكان عمر «أول من جمع الناس على إمام يصلي بهم التراويح في شهر رمضان، وكتب بذلك إلى البلدان وأمرهم به، وذلك في سنة ١٤»[٢].

ويجوز أن تكون الصلاة فردية، يقيمها الفرد حيث شاء، ولكن تُفضَّل الصلاة مع الجماعة فيكون لهم إمام يؤمهم. والجماعة واجبة في صلاة الجمعة والعيد. والنية فيها ضرورية.

لا تَسْتلزم الصلاة من الرجل ألبسةً خاصة، وإنما يكفي لإقامتها ما يستر العورة، أما المرأة فينبغي أن تستر كل جسمها ما عدا الوجه والكفَّين.

الأذان

وفي الإسلام صلوات أخرى كانوا يصلونها منذ زمن الرسول (ص) ومنها صلاة العيدين، وقد صلاها الرسول (ص) ركعتين بغير أذان[٣] ولا إقامة[٤] وكانت الخطبة تلقى بعد الصلاة[٥].

---

(١) تاريخ المدينة ١/ ١٢٤؛ وفاء الوفا ٢/ ٨.

(٢) الطبري ١/ ٢٧٤٩؛ وانظر تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٥٩.
وفي أول زمن الأمويين وضع في المصلى منبر: البخاري: باب الخروج إلى المصلى بغير منبر؛ تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢٦٥.

(٣) ابن حنبل ١/ ٢٤٢، ٣٢٥.

(٤) ابن حنبل ٣/ ٣١٠.

(٥) ابن حنبل ١/ ٢٤٩، ٢٨٥، ٢٥٤.

ولما كان المسلمون في المدينة منتشرين في أرجائها الواسعة، وكانت الصلاة، وهي من الفرائض الأساسية، مطلوبة في عدة أوقات من اليوم، لذلك كان من الضروري الإعلان عن أوقات الصلاة بما يكفل معرفتهم للوقت. وكان اليهود يدعون أتباعهم إلى الصلاة بالنفخ في قرن، فتقرر في الإسلام بالنداء بصوت عال بعبارات تتسم بالتقوى وتدعو الناس إلى الصلاة، وهذا هو الأذان. وقد فرض في الشهر السادس من الهجرة.

الوضوء

ومن مستلزمات الصلاة الوضوء، وقد نص القرآن الكريم على كيفية القيام بـــــه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [المائدة].

وللصلاة تأثير انضباطي عظيم، وفي جمع الأفراد مع بعضهم وتكوين مجتمع منسجم على أساس ديني وأخلاقي وروحي، ولها أثر كبير في الآداب والسلوك وفي إذكاء الحماسة الدينية. إنها تتلو الإيمان في الأهمية، وهي تطهر النفس وتُؤثّر في توجيه التفكير تأثيراً عظيماً.

القِبْلة
وتوجيهها نحو مكة

القِبلة الأولى

لا يختلف الرواة في أن الرسول (ص)، في أوائل الهجرة، «كان يصلي في

المدينة متوجهاً نحو بيت المقدس». ولكنهم يختلفون في الجهة التي كان يتوجه إليها المسلمون قبل أن تُجعل القِبلة نحو بيت المقدس، كما يختلفون في تحديد الزمن الذي توجهت فيه الصلاة نحو بيت المقدس. وقد أورد الطبري في تفسيره للآية ١٤٣ من سورة البقرة، وهي الآية المتعلقة بالقِبلة، روايات متعددة وبحثاً شاملاً عما يتعلق بالقبلة[١]. فَرَوى عن أبي العالية قال: «إن نبي اللّه خُيِّر أن يوجه وجهه حيث شاء، فاختار بيت المقدس، لكي يتآلفَ أهلُ الكتاب، فكانت قِبلته ستة عشر شهراً، وهو بذلك يُقلِّب وجهه في السماء، ثم وجَّهه اللّه إلى بيت اللّه الحرام»[٢].

ورُوِي عن ابن عباس أنه «لما هاجر رسول اللّه إلى المدينة، وكان أكثر أهلها [من] اليهود، أمره اللّه أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول اللّه بضعة عشر شهراً».

وروي عن زيد «قال عز وجل لنبيه: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة]، فقال رسول اللّه هؤلاء قوم يهود يستقبلون بيتاً من بيوت اللّه لو استقبلناه، فاستقبله النبي ستة عشر شهراً»[٣].

يتبيّن من هذه النصوص الثلاثة أن القِبلة نحو بيت المقدس تقررت في المدينة بعد الهجرة وأنها تمت لعلاقة الأمر باليهود. ففي رواية زيد أنها مجرد تقليد لليهود. وفي رواية أبي العالية أنها لغرض جَلْبِ أهل الكتاب إلى الإسلام. أما رواية ابن عباس فَتُبيِّن أن التوجُّه نحو بيت المقدس أفرح اليهود.

إنّ التوجه نحو بيت المقدس تمّ بزعم ابن عباس بناءً على أمر من اللّه تعالى، غير أنه ليس في القرآن آية يأمر فيها تعالى الرسول (ص) باتخاذ هذه القبلة. أما روايتا أبي العالية وزيد فتبيّنان أن ذلك تمّ بأمر من الرسول.

وتذكر نصوص أخرى أن هذا التوجه كان قد تقرّر قبل الهجرة. يَرْوِي ابن

(١) تفسير الطبري ٣/١٣١ فما بعد (طبعة محمد محمود شاكر).
(٢) تفسير الطبري ٣/١٣٨.
(٣) تفسير الطبري ٣/١٣٨ ـ ١٣٩، ٥٢٧، ٥٢٩ (عن زيد). تاريخ البخاري ٣ ـ ٢/٣٠٧.

عباس يقول: «كان رسول اللّٰه يصلي وهو بمكة نحو بيت المقدس، والكعبة بين يديه، وبعدما هاجر إلى المدينة ستة عشر شهراً، ثم صرف إلى الكعبة»[١]. ويروي قتادة: «كانوا يصلون نحو بيت المقدس»؛ ويروي قتادة أيضاً: «صلت الأنصار نحو بيت المقدس حولين قبل قدوم النبي المدينة، وصلى نبي اللّٰه بعد قدومه المدينة مهاجراً نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً»[٢].

وروى سعيد بن المسيب وابن جريج أن «الأنصار صلت القبلة الأولى قبل قدوم النبي بثلاث حجج»[٣]. إن هذه النصوص تبين أن الرسول (ص) كان يصلي قبل الهجرة نحو بيت المقدس وأن ذلك دام سنتين في رواية قتادة، وثلاث سنوات في رواية سعيد بن المُسَيِّب، وهذه المدة تتطابق مع زمن الإسراء، وهي تدل على أن التوجه نحو بيت المقدس تم على أثر الإسراء حيث تقرر فيه عدد الركع أيضاً.

أما وجهة الصلاة قبل أن تقرر نحو بيت المقدس، فيروي ابن جريج أنه «صلى رسول اللّٰه أول ما صلى إلى الكعبة ثم صُرِف إلى بيت المقدس فصلت الأنصار نحو بيت المقدس قبل قدومه ثلاث حجج»[٤] ويروي البخاري عن كثير بن عبد الله المزني أن الرسول (ص) صلى نحو بيت المقدس سبعة عشر شهراً[٥]. غير أن القول بأن الصلاة كانت في بداية الإسلام تتجه نحو مكة هو غير منطقي لأن الإسلام في أوائل عهده كان مقصوراً على مكة، ولا يمكن أن يتوجه المقيم في مكة نحوها. والراجح أن المسلمين في أوائل عهد الإسلام، عندما كانوا في مكة كانوا يتوجهون حيث شاؤوا، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة/ ١١٥].

---

(١) ابن حنبل ١/ ٢٥٠، ٣٥٠.
(٢) تفسير الطبري ٣/ ١٣٩.
(٣) تفسير الطبري ٣/ ١٢٧، ١٣٧، ١٣٩.
(٤) تفسير الطبري ٣/ ١٣٩ (عن ابن جريج)، وعن قتادة، ١٣٧ (عن ابن المسيب).
(٥) تاريخ الطبري ٣ ـ ٢/ ٢٠٧.

وقد يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس].

توجيه القبلة نحو مكة

إن الآيات المتعلقة في القبلة وتحويلها مجموعة في سورة البقرة هي قوله تعالى:

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة].

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة].

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة].

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [البقرة].

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ [البقرة].

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ

شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة].

ولدى قراءتنا لهذه الآيات، نلاحظ الأمور التالية:

١ ـ إنها كلها تتعلق بالقبلة بصراحة ما عدا آية واحدة هي الآية ١٤٣، فإنها لا تشير صراحة إلى القبلة، ولكنَّ محتواها يتّسق مع الموضوع الذي تتناوله هذه الآيات.

٢ ـ «إن هذه الآيات ليست مرتبة حسب نزولها بدليل أن المضمون الصريح للآيتين الأوليين، (١٤١ و١٤٢)، يدُلُّ على أن نزولهما كان بعد تَحَوُّل القبلة. ومن المعلوم أن آيات القرآن لم ترتب بحسب تاريخ نزولها.

٣ ـ لما كان المنطق يقضي أن يكون النقاش حول تبديل القبلة، والتعليق عليه يجري بعد حدوثه، فلا بد أن تكون الآية (١٤٤) التي تأمر بتحويل القبلة والتوجُّه نحو المسجد الحرام قد نزلت قبل الآية (١٤٢) التي تذكر اعتراض السفهاء على تحويل القبلة بعد أن تم. أما الآيتان (١٤٩ ـ ١٥٠) من السورة المذكورة، فإن تَكْرار جملة بعينها فيهما كلتيهما دليل على أن الآيتين لم تنزلا في وقت واحد، غير أننا لا نقع على إشارات صريحة تبيِّن المدة الزمنية بين نزولهما. أما الجملة المكرّرة، فهي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.

٤ ـ إن الآيات الثلاث ١٤٤ و١٤٩ و١٥٠ تنص على أن القبلة هي نحو المسجد الحرام، والمفروض أن المقصود بها هو الكعبة ومكة، وإن لم يذكر ذلك صراحة.

٥ ـ إن الآية ١٤٤ تُبيِّن حدوث قلق نفسي وتفكير باطني عند الرسول (ص) في الموضوع، وأن هذا التحويل جاء بإرادة من اللَّه تبعاً لما يرضي الرسول (ص)، أي أن الرسول كان يريد أن تكون القبلة نحو المسجد الحرام فجاءت الآية تستجيب لما يرغب.

٦ ـ إن الآيات ١٤٤ و١٤٩ و١٥٠ تطلب من النبي أن يتوجّه شطر المسجد الحرام، ثم تخاطب الباقين، أي المسلمين، بالتوجه أيضاً شطر المسجد الحرام.

٧ ـ إن الآية (١٤٥) تدل على أن هناك عدة قبلات، فلكل جماعة (دين) أي قِبلة خاصة تختلف عن قبلة غيرها، أي أن كلًا منهم يتبع قبلته الخاصة، كما ان الآية (١٤٨) تبين أن وجهة الرسول (ص) مختلفة عن وجهة الأديان الأخرى وهي نحو الله.

٨ ـ ذكرت الآيات ١٤٤ و١٤٩ و١٥٠ أن توجُّه المسلمين نحو القبلة الجديدة إنما كان بأمر من اللّه.

٩ ـ إن الآية ١٤٢ تذكر أن تحويل القبلة جاء بناءً على إرادة من اللّه.

١٠ ـ إن الآيتين ١٤٣ و١٤٤ تذكر أن تقرير الجهة المعينة للصلاة هي حق من اللّه تعالى وأنه هو الذي أمر بالتحويل.

١١ ـ تشير الآية ١٤٦ إلى أن الجدل ثار من أهل الكتاب فإنهم يعرفون أنه حق من اللّه وأن هناك فريقاً يكتمون الحق وهم يعلمون، وأن الكاتمين هم قلة، وأن الأكثرية لم تكتم الحق؛ فانقسم الرأي بين أهل الكتاب علنياً نحو اتجاه القبلة: ففريق أقرّ به فلم يسمه القرآن، وفريق لم يُقِرَّ به فرد عليه القرآن.

١٢ ـ يظهر من الآية ١٤٢ أن عبارة المعترضين من «السفهاء»، غامضة المعنى، لا تقتصر على أهل الكتاب، بل تمتد إلى غيرهم، أي أن المعترضين هم طبقة من الناس لم تقتصر على دين واحد.

١٣ ـ جاءت بعض الآيات متأخرة ولم تُشِر بوضوح إلى القِبْلة الأولى، ولكنها نزلت بعد أن استقرت القبلة الجديدة. ومجيء هذه الآيات متأخرة يجعلها بمثابة اختبار لمدى تمسُّك أتباع الرسول بأوامر القرآن، وهو اختبار شديد لمدى تمسُّكهم بدينهم الجديد وتركهم دينهم الأول، كما نستطيع أن نفكر أن المقصود بهذه الآيات ليس المسلمين المهاجرين، والأنصار، أو المشركين الذين أسلموا حديثاً. ولا بدَّ أن يكون المقصود بها فريقاً من الناس صعب عليهم تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة. ولما كان بيت المقدس قِبلة اليهود، فلا بد أن يكون المقصود بمن استغل التحويل الذين كانوا بين الرسول (ص) وبين اليهود، وأن تحويل القبلة كان يتطلب منهم تقرير موقفهم

واضحاً، إما مع المسلمين، وإمّا مع اليهود، لاتضاح معالم الفروق بين الدينين، وأن الظروف كانت تقضي باتخاذ موقف حاسم.

١٤ ـ إن الآية **١٥٠** تنص على أن تحويل القبلة سيقطع الحجة على المسلمين، غير أن الآية لا تشير إلى ماهية هذه الحجة، فقد يرى المرء في هذه الحجة، أن الإسلام كاليهودية، فتحويل القبلة هو إعلان الانفصال التام عنها. غير أن الآية تشير إلى فريق ظالم سيصر على آرائه السابقة ويكون هذا مصدر خطر ناتج إما عن عمق تفكيرهم وقوة مناقشتهم، أو موقفهم المهدد بانفصالهم عن الإسلام ويكون مهدِّداً الإسلام في هذا الدور.

١٥ ـ إن الآية **١٤٥** تدل على تمسك أهل الكتاب بتقاليدهم وطقوسهم فهم لا يحيدون عنها، كما تدل على أن لهم اتجاهات وأهواء واضحة تخالف أوامر اللّه، فإنهم حاولوا إقناع الرسول بالسير كما يريدون، ولكن هذه المحاولات فشلت بعد نزول آية القبلة التي تُحتِّم على الرسول وجوب عدم اتباع هذه الأهواء.

١٦ ـ إن الآية **١٤٣** تشير إلى أن اختيار القبلة الجديدة جاء لتمييز المسلمين من غيرهم باختيارها الموفق ليهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ذكرنا من قبل أن الرسول قد اتخذ القبلة إلى بيت المقدس، ويقول البراء «كان اليهود أعجبهم أن رسول اللّه (ص) يصلي قِبَلَ بيت المقدس وأهل الكتاب فلما وجهه قِبَلَ البيت أنكروا ذلك»[١].

ويقول ابن عباس أنه عند توجه الرسول (ص) نحو بيت المقدس فَرِحت اليهود، ولكنهم ارتابوا منه على أثر تحويل القبلة[٢].

أهمية تحويل القبلة

والواقع أن للقِبْلة أهمية كبيرة: فهي مظهر لاستقلال الطابع الإسلامي

---

(١) البخاري: إيمان ٣٠، تفسير ١٨؛ تفسير الطبري ٣/ ١٣٣.

(٢) تفسير الطبري ٣/ ١٧٤.

فالمراقب الخارجي الذي لا يعرف تفاصيل العقائد يعتمد في الحكم على المظاهر. فإذا كانت القبلة الإسلامية كالقِبلة اليهودية، فإن المراقبين الخارجيين قد يرون أن الإسلام كاليهودية، فتحويل القبلة وفصلها عن قبلة اليهود يُبْطل أمثال هذه الانطباعات المغلوطة؛ ولعل فرح اليهود وارتياحهم من التوجه إلى بيت المقدس هو لاعتقادهم بأن الناس قد تخلط بين دين الإسلام الذي دَعَا إليه الرسول (ص) ودينهم، وأن تحويل القبلة قد قطع عليهم أساس هذا الأمل لذلك استاؤوا من ذلك، وفي القرآن إشارة صريحة إليها وإلى تضارب آرائهم، فمنهم من قال: إن اليهود ارتابوا من ذلك، ومنهم من قال له: ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها فنقبلك ونصدقك، وهم يريدون بهذا القول فتنة الرسول (ص) عن دينه. فتحويل القبلة جاء مظهراً للانفصال التام عن اليهودية، ولاتخاذ طريق خاص متميز، ومظهر للإسلام الذي بدأت تظهر سماته.

وكان من الممكن، ان تؤثر صلاة الرسول نحو بيت المقدس في استمالة اليهود. غير أنهم استغلوها لِيُعدُّوا الرسول (ص) تابعاً لهم. يروي معاذ بن جبل أن الرسول (ص) صلَّى نحو بيت المقدس ثلاثة عشر شهراً استمالةً لقلوب اليهود، وهو يصلي إلى قبلتهم بما يرغبون في دينه ثم إنه كره أقوالهم الباطلة في أمر القبلة.

أما تاريخ تحوُّلها، فإن أنس بن مالك يروي أنها تمت في الشهر التاسع أو العاشر[1] غير أن أكثر الروايات تذهب إلى أن تحويلها تمّ على رأس ستة عشر شهراً في منزل البراء بن معرور[2]، أي بعد الانتصار في بدر، وقريب من الشهر الذي فرض فيه صوم رمضان[3].

---

(١) تفسير الطبري ٣/ ١٣٥.

(٢) تفسير الطبري وفيه رأي سعيد بن المسيب وأبو العالية وابن جريج (٣/ ١٣٧ ـ ١٣٩) وانظر ابن حنبل ١/ ٢٥٠، ٣٥٠، ٣٥٧.

(٣) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٨.

حدث تحول القبلة فجأة عندما كان الرسول (ص) يصلي في مسجد بني سلمة الذي سُمِّي على أثرها بمسجد القبلتين.

إن التوجه إلى المسجد الحرام يُعبِّر عن الاتجاه السياسي الذي يريد الرسول السير عليه، وهو الاهتمام بالدعوة بين العرب، فإن إقناعه اليهود بالانضمام إلى دينه، وعدم احتمال إثمار بث دعوته بين النصارى، كان يستلزم منه أن يختط طريقاً خاصاً (وسطاً) مستقلاً عن اليهود والنصارى، ويتجه إلى بث دعوته بين العرب، ولما كانت للكعبة أهمية خاصة في العقائد العربية الجاهلية فقد توجّه إليها. يوضح ذلك ويؤيده الأمور التالية:

١ ـ إن الرسول لا يحارب جميع المعتقدات العربية، بل بالعكس؛ كان يقرّ ببعضها: فهو يحترم الكعبة، ويجعلها قبلته، وبذلك يخفف من ريب العرب وشكوكهم بموقف الإسلام منهم، فتخفّ مقاومتهم، وتتبدد بعض شكوكهم فيه وينحذبون إليه.

٢ ـ إن توجُّه الرسول إلى الكعبة إنما يُخفف من حقد قريش نحوه وريبتها فيه، لأن ذلك سيُظهر لهم أن الرسول (ص) يحترم الكعبة وهي أساس كيانهم ومكانتهم بين العرب، وأنه لا يهدف إلى هَدْم كل ما لقريش وإبادة أُسُس عزهم، كما أنه سيقنعهم، بصورة لاشعورية، بأن انتشار الإسلام سيؤدي إلى تثبيت مكانة مدينتهم.

٣ ـ إن التوجُّه إلى الكعبة سيُجرد قريش من الحجة الرئيسية التي تستند إليها في تأليب العرب على الرسول (ص)، وهي ادِّعاؤهم بأنه يحارب كافة معتقداتهم التي يقوم عليها كيانهم وعقائدهم. فاحترام الكعبة يُظهر خطأ ادعائهم ويتيح له مجالاً لبث الدعوة بين العرب ولتوثيق صلته بمكة من دون أن يكون لقريش حق في إبعاده عنها، لأنه يحترمها ويحترم الكعبة، فإذا منعوه منها يكونون معتدين ومناقضين لمبادئهم الأساسية. ولعل هذا أحد الأسباب التي جعلت القبائل لا تتحمس في تلبية دعوة مشركي مكة لمحاربة الرسول (ص)، كما أن التوجه نحو الكعبة يزيد في إثارة مشاعر المهاجرين وعواطفهم ويدفعهم إلى زيادة الحماسة لأخذ مكة، لأن التوجه إلى المسجد الحرام

سيذكرهم دائماً بموطنهم الأصلي وسيذكي عواطفهم للوصول إليه، وإلى تخليصه من المشركين الذين يدنسونه. فهو يثبت عاطفتهم الوطنية، ويزيد من حماستهم في محاربة قريش التي تصدُّهم عن وطنهم وتحرمهم من أقدس شيء عندهم وأعزِّه على نفوسهم، وهو أهم مركز لديهم. وقد رَوَى الطبري عن قتادة والسدِّي أن اليهود قالوا عند تحويل القبلة إن محمداً اشتاق إلى بلد أبيه ومولده، وأن المشركين من أهل مكة قالوا إن محمداً تحيّر على دينه فتوجّه بقبلته إليهم[1].

التأكيد على صلة الإسلام بإبراهيم الخليل

إن اختيار المسجد الحرام قبلة للمسلمين أمرٌ ذو أهمية كبيرة للدعوة، لأن المسجد الحرام هو ما يحيط بالكعبة، وهي بيت اللَّه الذي يتفق الجميع على أنه من بناء إبراهيم الخليل، فالتوجُّه إليه معناه تأكيد صلة الإسلام بإبراهيم الخليل، فهو أول من سكن مع ذريته مكة، وطهّرها من الشرك، ودعا لها بالأمن والرفاه[2]، ومنه تحدر أهل مكة، فهو أبو العرب، والتأكيد على مكانته معناه احترام أبي العرب وتوثيق الصلة بالعرب، وهذا يرضي النزعة العربية في احترام الآباء.

ولإبراهيم مكانة خاصة في الإسلام وعلاقة وُثقى به، وقد ذكره القرآن الكريم في ثمانٍ وستين آية، منها أكثر من ثلاثين آية تتحدث عن علاقته بقومه ورفضه عباداتهم، وتكسيره أوثانهم، وتعرُّضه لسخطهم، ومهاجرته من بلدهم.

تذكر آيات أخرى أنه من الأنبياء الذين أرسلوا إلى قومهم بالبينات[3]، وهو ممن أوصى اللَّه إليهم[4]، وممن هدى اللَّه وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة[1]:

---

(١) التفسير ١/١٩٩ (قتادة) ١٥٧، ٢٢٣ (السدّي).

(٢) سورة البقرة ١٢٥ ـ ١٢٨؛ آل عمران ٩٦ ـ ٩٧؛ إبراهيم ٣٥، ٣٧؛ الحج ٢٦.

(٣) الأنعام ٧٤؛ الصافات ٨٣؛ الزخرف ٢٦ ـ ٢٨؛ الشعراء ٧٠؛ التوبة ١١٤؛ مريم ٤١؛ العنكبوت ٣٢.

(٤) النساء ١٦٣.

وأن اللّه اصطفاه في الدنيا وأنه في الآخرة لمن الصالحين[٢]، وقد اصطفى له الدين، وجعله للناس إماماً[٣]، وأنعم اللّه عليه وعلى ذريته[٤]، وقد اتخذه اللّه خليلاً[٥].

وكان إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين[٦]، وهو حنيف مسلم، ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة] ودعا ربه فقال ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة].

ودين إبراهيم هو أقدم الأديان وأصحّها ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [آل عمران] ودين إبراهيم هو الإسلام: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران].

والدين الإسلامي الذي بشّر به الرسول (ص) هو دين إبراهيم ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران]، ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام]، ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة]، ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج/

(١) الأنعام ٨٣، ٩٠.
(٢) البقرة ١٣٠.
(٣) البقرة ١٢٤.
(٤) مريم ٥٨.
(٥) النساء ١٢٥.
(٦) البقرة ١٣٥؛ آل عمران ٦٧ ـ ٦٨ و٩٥؛ الأنعام ١٦١.

٧٨] ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء/ ١٢٥].

إن هذا التأكيد على صلة الإسلام بإبراهيم الخليل ودينه الحنيف معناه أن الدين الإسلامي قديم الأصول عميق الجذور، وأنه ليس بدعة وإنما هو إحياءٌ لعقيدة قديمة، فهو بذلك يُرضي نزعة المحافظة واحترام القديم والتقاليد التي كان العرب يتصفون بها، وكان من أسباب مقاومتهم للإسلام اعتباره بدعة جديدة تخالف سنن آبائهم الأولين. وبهذا يظهر أن الدين الإسلامي موغل في القدم، وأنه الدين الأصلي النقي، فهو لذلك الأصح، وعلى العرب قبوله وترك عقائدها المبتدعة الزائغة عن الحق.

إن التأكيد على الصلة بإبراهيم يجرد اليهود من الحجج التي يستخدمونها ضد الرسول، ذلك أن اليهود تدَّعي أن دينها أقدم، ولذلك فهو الأصح، وأن ما يؤمنون به ينبغي أن يتخذ مقياساً للصواب، وما دام الإسلام جديداً فينبغي ألاّ يخرج عن دينهم القديم وإلا كان بدعة.

أما الإسلام، فقد أكّد أنه دين إبراهيم، أي أنه أقدم في مبادئه من اليهوية. وإذا حدث اختلاف بينه وبين اليهودية فإن مرجع الاختلاف هو صنوف الإفساد التي دخلت اليهودية مؤخراً، وأنه، نظراً لقدم الإسلام، باعتباره دين إبراهيم، ينبغي أن يكون هو المعيار والأساس، وأن كل ما في اليهودية من مخالفة للإسلام غير صحيح، وأن الرسول قد عرف دين إبراهيم بوحي من اللّه، ولم تستطع اليهودية إنكار ذلك لأنها أقرَّت في البداية أن الرسول (ص) يأتيه الوحي من اللّه، فإذا أرادت إنكاره فإنها تكون هي الكاذبة والمناقضة لنفسها.

الصوم

الصوم هو الامتناع عن جميع المأكولات والمشروبات لمدة معينة من الزمن ولغرض ديني. فالامتناع عن نوع واحد أو أنواع قليلة من المأكولات، أو

الامتناع عن الأكل لأسباب صحية لا يعد صوماً. والواقع أن الامتناع عن الأكل لمدة معينة من الزمن ممكن ومحتمل: لأن الجسم يتغذى داخلياً مما هو مختزن فيه، والإنسان يستطيع العيش دون طعام لمدة أسبوع في الأحوال الاعتيادية، وقد ذكرت حالات عاش فيها أناس حرموا الأكل مدة طويلة بلغت قرابة ثلاثة أشهر.

الصوم عند الأمم القديمة

يتطلب الصوم عادة أموراً تجاوز مجرد الامتناع عن الطعام، فهو مظهر للخضوع الإرادي لأغراض دينية عقائدية، وهو موجود عند معظم الشعوب، وإن كان بأشكال متعددة سواء عند حدوث الكوارث كالفيضانات والزلازل والبراكين، أو عند تشييد الأبنية الجديدة، أو عند تتويج الملوك وترسيم رجال الدين، أو عند تزويج الفتيات، أو عند موت أحد الأقارب، أو عند ولادة مولود جديد، أو عند بذر المزروعات أو الحصاد.

ومع أن الصوم معروف عند الشعوب القديمة، إلا أنه لا يعتبر فريضة ثابتة إلا عند أهل الأديان الكبرى، فاليهود يصومون عادة في العاشر من تشرين من المغيب إلى المغيب، كما يصومون في أيام أخرى. والنصارى يصومون أربعين يوماً فيمتنعون عن بعض المأكولات؛ والمانوية تصوم يوماً في كل شهر.

كان الصوم معروفاً عنل أهل مكة في الجاهلية، فقد ورد في سورة مريم، وهي مكية، قوله تعالى ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم]. والصوم في هذه الآية هو الامتناع عن الكلام، وهو مذكور بشكل يبدو أنه مألوف عند العرب بهذا الشكل.

الصوم في الإسلام

في سورة البقرة آيتان عن الصيام يدل محتواهما، (ويؤيد ذلك الرواة)، أنهما تصفان الصوم في الأدوار الأولى:

١ ـ قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ [البقرة].

يتضح من هذه الآية أن الصوم كان أياماً معدودات، وأنه كان واجباً على الجميع ولكن كان يمكن التعويض عن عدم القيام بهذا الواجب بأشكال، فالمريض والمسافر يستطيعان الإفطار على أن يصوما أياماً أخرى تعادل في عددها أيام الصوم المفروضة. أما الأصحاء الذين لا يستطيعون الصوم لشيخوختهم مثلاً، فيباح لهم الإفطار على أن يفتدوا ذلك بإطعام مسكين، وإن كان الأفضل أن يصوموا.

يروي البخاري بسند عن عائشة: كان عاشوراء يوماً تصومه قريش في الجاهلية، فلما بُعث رسول اللّه صامه وأمر الناس بصيامه؛ ولما فُرض رمضان كان رمضان هو الفريضة، وتُرك عاشوراء: من شاء صامه ومن شاء تركه[1].

ويروي البخاري، بسند عن ابن عباس، أنه «لما قَدِم رسول اللّه كانت المدينة واليهود تصوم عاشوراء فسألهم فقالوا هذا اليوم الذي ظهر فيه موسى على فرعون فقال: لَلنبي محمد أولى بموسى منهم فصوموه»[2].

ويروي الطبري عن عدد من الصحابة والتابعين أنه «كَتب اللّه على الناس، قبل أن ينزل رمضان، صوم ثلاثة أيام من كل شهر»، و«أن رسول اللّه (ص) قَدِم المدينة فصام عاشوراء وثلاثة أيام من كل شهر، ثم نَزَّل اللّه عز وجل فرض شهر رمضان».

ويُروى عن ابن عباس قوله: «فهذا الصوم الأول من العتمة». كما يروى عن عدد من التابعين منهم الحسن البصري وسلمة بن الأكوع وابن شهاب، وابن

(١) البخاري: باب أيام الجاهلية؛ والموطأ ١/ ٣٢٤.

(٢) البخاري: تفسير سورة الكهف؛ وانظر أيضاً الموطأ ١/ ١٩٥.

عباس أنه «كان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم نصف صاع مسكيناً فنسخها شهر رمضان»[1].

٢ ـ قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة].

وواضح من هذه الآية أن المسلمين، قبل نزول هذه الآية، كانوا يمتنعون عن الاتصال بالنساء وكان ذلك أمراً ثقيلاً، وأنهم كانوا يمتنعون عن الأكل في الليل، وأن الصوم يمتد إلى الليل (لا إلى المغيب). فضلاً عن أن كلمة ليلة الصيام قد تدل على أن الصوم كان يوماً أو أياماً متفرقة لا أياماً مجموعة.

صوم رمضان

يتفق الرواة على أن آية الصيام نُسِخَت بالآية التالية: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة].

إن هذه الآية صريحة بأن المطلوب هو صوم شهر رمضان، وهو الذي درج عليه المسلمون؛ واسم رمضان مشتق من الرمضاء أي الحرّ، والراجح أنه كان يأتي في فصل الصيف فهو من الأشهر التي يَشُقّ فيها الصوم، ولم يكن اختياره

(١) تفسير الطبري ٣/٤٢٦ فيما بعد.

لأسباب طبيعية أي لِقِصَر النهار أو اعتدال المناخ فيه؛ ولا كان فرضه في رمضان لزيادة أتعاب الناس لأن اللّه يريد بالناس اليسر ولا يريد بهم العسر، بل كان اختياره متصلاً بحدث ديني معين يستلزم أن يكون في هذا الشهر برغم ما فيه من مشقة. نقرأ في هذه الآية: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة/ ١٨٥]. ومن المعروف أن القرآن لم ينزل على الرسول (ص) جملة واحدة، بل كان ينزل منجَّماً في فترات وأيام غير مطَّرِدة، فلا بد أن «النزول» في هذه الآية يشير إلى معنى آخر. يقول بعض المفسِّرين: إن المقصود بها هو نزول القرآن من السماء العليا إلى السماء الدنيا وإلى بيت العزة، ومنها كان ينزل مُنَجَّماً على الرسول (ص)، غير أن هذا الرأي لا تعزِّزه آية صريحة من القرآن أو حديث ثابت، فالراجح أن له معنًى آخر.

وجدير بنا أن نلاحظ أن الرسول (ص) كان يتعبَّد قبل نزول الوحي عليه في مكة في شهر رمضان، وأن بدء نزول الوحي كان في ذلك الشهر، فَفرْضُ الصوم في رمضان هو متابعة لتقاليد كان يمارسها الرسول (ص) في مكة، وهي جزء من السياسة العامة في التوجه إلى مكة ومتابعة تقاليدها الدينية القديمة، السليمة بعد تطهيرها من مفاسد الشرك، وجَعْلها إسلامية للّه وحده، والعودة إلى دين إبراهيم. ولا يخفى أن القرآن نزل في ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وفي ليلة مباركة فلا بد أن للصوم علاقة بهذه الأيام المقدسة التي كان الرسول (ص) يعتكف فيها، والتي هي مطابقة لتقاليد قديمة؛ ورمضان هو الشهر الوحيد المذكور في القرآن.

فُرِض صوم شهر رمضان في السنة الثانية، بعد انتصار المسلمين في معركة بدر، وهو شهر له قدسية قديمة عند المؤمنين بالدين الحنيف، وله مكانة عند المسلمين إذ فيه بدأ نزول الوحي، وفيه انتصر المسلمون على المشركين في بدر[١].

(١) انظر: أنساب الأشراف ١/ ٢٧٦.

وقد ذكر القرآن أنواعاً أخرى من الصيام لم تكن مفروضة على جميع المسلمين.

١ ـ كفارة اليمين: قال تعالى:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩)﴾ [المائدة].

٢ ـ كفارة عن قتل الصيد إبان الإحرام: فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٩٥)﴾ [المائدة].

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)﴾ [البقرة].

٣ ـ عقاب لمن يقتل رجلاً من قوم لهم ميثاق مع الرسول: قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٩٢)﴾ [النساء].

٤ ـ عقاب لمن يُظاهِرُون من النساء: قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ [المجادلة].



القسم الثاني

تأمين السيادة في المدينة

- المعارضة والنفاق
- اليهود والدعوة الإسلامية
- تطهير المدينة من اليهود



الفصل السابع

المعارضة والنفاق

موقف أهل المدينة عند الهجرة

هيأت الأحوال التي كانت قائمة في المدينة أهلها لقبول الإسلام وتأييد الرسول (ص) وحمايته وإسناده، مدفوعين في ذلك بدوافع عقائدية ذاتية، وليس بدوافع سياسية أنانية، أو ردة فعل لحركات دينية أو سياسية كانت قائمة فيها. ومما ساعد على انتشار الدعوة الإسلامية، منذ بداية الاتصال بالرسول، أن العرب من أهل المدينة، رغم أن أغلبيتهم، كانوا مشركين، إلا أنه لم تكن عندهم مؤسسات أو منظمات دينية تسند الشرك، ولم يرد فيها ذكر لوجود إِلَهِ شِرْك أو رجال دين للشرك. والواقع أنهم كانوا يزورون مكة للحج، كما يزورون مناة التي كانت في المشلل في منتصف الطريق تقريباً إلى مكة.

غير أن هذا لا يعني أن أهل المدينة جميعهم اعتنقوا الإسلام دفعة واحدة، وإنما تشير الدلائل، وتذكر المصادر، أن الإسلام أخذ ينتشر فيهم تدريجياً، وأن التشبُّع بروح الإسلام وعقائده تطلَّب وقتاً، وأن سلطة الرسول (ص) استقرت بعد مدة. وكان لحكمته وعبقريته الفذّة وخلقه العظيم أثر كبير في التغلب على كثير من العقبات التي واجهته.

لا ريب في أن النزعة الفردية عند العرب، ووجود أفراد ذوي طموح ومكانة في عشائرهم وبين قومهم، والتيارات المتعددة القائمة في المدينة على أُسُس

قَبَلية وسياسية قديمة، كان لها على بعض أهل المدينة أثر في تقرير موقفهم من الإسلام، وكان بعضها فعالاً في تأخير إسلام عدد منهم، أو في التلكؤ في تأييد الإسلام والاستجابة إلى متطلباته، وفي ظهور معارضة تتبنّى وجهات نظر متباينة وتتخذ أشكالاً متعددة ويكون لها دور إيجابي متباين في قوته واتجاهه من الأحداث.

كان في المدينة عند هجرة الرسول إليها عدد من الأديان والعقائد، أبرزها اليهودية والشرك. كما كان فيها عدد ممن اعتقد بالتوحيد واعتنق أفكاراً تشبه أفكار النصرانية، وكانت فيها أيضاً تجمعات سياسية قائمة على أُسُس عشائرية. وكثير من هذه التيارات كانت تعتمد في قوتها على الأسس القَبَلية التي كان لها الأثر الأكبر في التكتلات. ولما هاجر الرسول (ص) إلى المدينة لم تكن له أو للمهاجرين معه من مسلمي قريش ارتباطات قديمة قبلية واسعة أو قوية بأهل المدينة.

أبقى الرسول (ص) النظام القَبَلي، ولكنه عمل على إقامة تنظيم أعلى يجمع المسلمين بروابط عقائدية وفكرية تؤثر في اتخاذ مواقف عامة مشتركة من الأحداث المتوقع أن يواجهها الإسلام. وهذه الروابط الجديدة الواسعة، القائمة على أُسُس عقائدية، كانت ترسِّخ السلطة العليا للرسول (ص)، وتثبِّت مكانته في إدارة وتوجيه السياسة العامة، وتعطي الأفضلية في هذا المجتمع لمن يخدم الإسلام ويقدِّمه على مصالحه الخاصة. ومن الطبيعي أن النظام الإسلامي الجديد لا يتفق مع بعض العقائد الأخرى، كما أنه يحدّ من النزعات الفردية الأنانية.

المعارضة

لذلك كان من المتوقَّع ظهور حركات لرفض الإسلام، أو لمعارضته، أو لعدم الاستجابة لمتطلبات المجتمع الجديد. وكانت هذه الحركات التي ظهرت في المدينة حركات محلية، ولم يَرِدْ في الأخبار أنها ذات صلة قوية بما هو

خارج المدينة. ويلاحظ أن أهل مكة لم يقوموا بعد هجرة الرسول بنشاط إيجابي واضح لإسناد الشرك في المدينة، أو لدفع أهل المدينة إلى مقاومة انتشار الإسلام، وإنما اقتصر نشاطهم على محاولات متفرقة ضعيفة لمعاونة قوّاتهم عندما تقدمت لقتال المسلمين في «أُحُد» و«الخندق»، ولم يستجيبوا لتحريض اللاجئين إليهم من المدينة. فالمعارضة في المدينة لم تكن مرتبطة بمكة، ولم تعمل لمصلحة مشركي مكة أو تنسق معهم، وهذا ينطبق على اليهود الذين، عندما قاتل الرسول (ص) عشائرهم على انفراد، لم يعملوا على التكتل لنصرة أصحابهم في الدين، ولم يتلقَّوا عوناً من اليهود في خارج المدينة.

من الصعب رسم صورة كاملة لمجرى انتشار الإسلام والتشبُّع بعقائده، وروحه واكتمال تمكن السلطة العليا في دولته، وذلك لأن كتّاب السيرة والتاريخ وجَّهوا اهتمامهم إلى بعض الجوانب البارزة ولم يهتموا كثيراً بعرض هذا التطور، خاصة وأن مواقف بعض الأفراد في زمن الرسول (ص) لم تَبْقَ ثابتة، وإنما مرت بتطورات وتقلُّبات انتهت إلى التمسك بالإسلام والتشبّع بروحه والاعتزاز بدولته، كما أن أحفاد بعض من كانت له مواقف معادية أو معارضة في أول الإسلام أصبحوا ذوي مكانة فيما بعد، فلم يعد من المستحسن إبراز ما يسيء إليهم.

تُظهر كتب سيرة الرسول والتاريخ أن الأوضاع السياسية في المدينة تعرَّضت في زمن الرسول (ص) لعدد من الهزات العنيفة التي سببت أو أتاحت ازدياد بعض النشاطات المريبة، وكَشَفت عن بعض الثغرات. ولكن الرسول (ص) عالجها بما أدى إلى القضاء عليها، وإلى استمرار تنامي سلطته، وتثبيت مكانة الدولة، وترسيخ العقائد الإسلامية في نفوس الناس حتى اكتمل ذلك قبل أن يرتفع إلى الملأ الأعلى. ونزلت الآية الكريمة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة/ ٣].

يذكر ابن سعد أن سعد بن معاذ الأشهلي أسلم على يد مُصعب بن عمير بعد بيعة العقبة الأولى: «فلما أسلم سعد بن معاذ لم يبق في بني عبد الأشهل

أحد إلا أسلم يومئذ، فكانت دار بني عبد الأشهل أول دار من الأنصار أسلموا جميعاً رجالهم ونساؤهم»[1]، أي أن بقية دور الأنصار لم تسلم جميعها.

تأخر إسلام بعض عشائر المدينة

ويذكر ابن سعد أن الإسلام بعد بيعة العقبة ظهر وفشا في دور الأنصار كلها والعوالي إلاّ دوراً من أوس الله، وهي خطمة ووائل وواقف[2]، ويقول ابن إسحاق: «لم تبق دار من دور الأنصار إلاّ أسلم أهلها، إلاّ ما كان من خطمة وواقف ووائل وأمية، وتلك أوس الله، وهي حي من الأوس فإنهم أقاموا على شِرْكهم بعد بَدْر وأُحد والخندق[3]، ويذكر ابن حزم أيضاً أنه تأخر إلى الخندق «إسلام جمهور بني خطمة وهم بنو جشم بن أوس الله وهم هؤلاء البطون، وهم من ولد مرة بن مالك بن الأوس»[4]. ويلاحظ أن ابن إسحق انفرد بذكر تأخر إسلام بني أمية، وأن ابن حزم اعتبر بني أوس الله هم ولد مرة بن مالك. ولا ريب في أن نص ابن إسحق يُظهر أنه لم يسلم أحد من هذه العشائر.

يذكر السمهودي أن بني خطمة «كانوا متفرقين في آطامهم، لم يكن في قصبة دارهم منهم أحد، فلما جاء الإسلام اتخذوا مسجدهم، وابتنى رجل منهم عند المسجد بيتاً سكنه، فكانوا يسألون عنه كل غداة مخافة أن يكون السبع عدا عليه، ثم كثروا في الدار حتى كان يقال لها غزة، تشبيهاً بغزة الشام من كثرة أهلها»[5] وكانت منازل بني خطمة عند وادي مذينيب قرب بني قريظة[6]، وكان لهم أطم «ليس فيه بيوت، جعلوه كالحصن الذي يتحصنون فيه للقتال، وكان

---

(١) ابن سعد ٣ ـ ٢/٢.

(٢) ابن سعد ٣ ـ ٨٣/١؛ ٤ ـ ٩٥/٢؛ وانظر عن العالية ٢ ـ ١، ٣ ـ ٣٩/٢.

(٣) ابن هشام ٢٧٣/١؛ وفاء الوفا ١٦٢/١.

(٤) الأنساب ٣٢٥. ويذكر الطبري مرجع تأخر إسلامهم أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت... وكان شاعراً وكانوا يطيعونه، (الطبري ٢١٧/١).

(٥) وفاء الوفا ١٤٠/١، ١٥٣/٢؛ وانظر عن منازل بني أمية، الطبري ٢٦٠/١، ١٣٧، وانظر عن خطط هذه العشائر وغيرها تفاصيل أوفى في كتابنا «الحجاز في صدر الإسلام» ٩٠، فما بعد.

(٦) وفاء الوفا ١٣٩/٢.

لخطمة كلها»[١] وكانت لهم أيضاً ثلاثة أُطم أخرى[٢].

أما بنو أمية بن زيد فكانت منازلهم قرب بني خطمة على مذينيب[٣]، ولهم ثلاثة أُطم[٤]. غير أن ابن سعد يذكر ممن شارك منهم في معركة بدر مبشراً ورفاعة ابني عبد المنذر، وأبا لبابة، وسعد بن عبد وعويم بن ساعدة[٥].

وأما بنو واقف ووائل، فكانت منازلهم حول مسجد الشمس. ولبني واقف أُطمان[٦]. أما بنو وائل فكان لهم أُطم واحد[٧] ويبدو أنهم اعتنقوا الإسلام قبل حصار الخندق حيث تحصنوا في الحصار في أُطمهم مع بني عمرو ابن عوف وخطمة وأمية، ثم قاتلوا بني قريظة[٨]، وكانت راية بني واقف في فتح مكة يحملها هلال بن أمية[٩] الذي تخلف عن غزوة تبوك[١٠]؛ وقد شارك ثلاثة من بني أمية مع بني النضير في تحريض قريش على غزوة الخندق.

يقول ابن إسحاق عن سبب عدم إسلام هذه العشائر «أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت، وهو صيفي، وكان شاعراً لهم، وقائداً يسمعون له ويطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام[١١]. وذكر الواقدي أن أبا قيس هذا كان يبحث عن الحنيفية، وأنه سأل عنها يهود يثرب ونصارى الشام ثم زيد بن عمرو بن نفيل في مكة. فلما قدم الرسول (ص) المدينة كاد يسلم، ولكن عبد الله بن أُبيّ استفزه، فأقسم أن يؤجل إسلامه ثم مات في الشهر العاشر من الهجرة[١٢].

---

(١) وفاء الوفا ٢/ ١٣٩.
(٢) انظر ياقوت ٤/ ٥١٤؛ ٢/ ٣٠٨.
(٣) وفاء الوفا ٢/ ١٣.
(٤) وفاء الوفا ٢/ ٧١، ٢٤٣، ٣٩٢.
(٥) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٢٨.
(٦) وفاء الوفا ١/ ١٢٨.
(٧) وفاء الوفا ٢/ ٢٩.
(٨) مغازي الواقدي ٢/ ٤٥١.
(٩) مغازي الواقدي ٨٩٦.
(١٠) مغازي الواقدي ٩٩٧، ١٠٥١.
(١١) ابن هشام ٢/ ٤٦.
(١٢) ابن سعد ٤ ـ ٢/ ٩٤.

تتفق رواية الواقدي مع رواية ابن إسحاق في إظهار النفوذ الكبير لابن الأسلت على هذه العشائر، ولكن رواية الواقدي لا تقدم مبرراً كافياً لعدم انضمامه إلى الإسلام، أو السماح لعشيرته باعتناق الإسلام، خاصة وأنه لم يُذكر أن ابن الأسلت أراد تكوين جماعة خاصة به، علماً بأن الإسلام وثيق الصلة بالحنيفية التي يؤمن بها، فالأجدر ألّا يمانع في إسلام قبيلته. ثم إن ابن الأسلت توفي قبل انصرام السنة الأولى من الهجرة، وبموته زال المعوّق عن إسلامهم.

ولا يبعد أن تكون العصماء ابنة مروان هي مما عطّل إسلام هذه العشائر، وهي من بني أمية بن زيد، وكانت متزوجة بيزيد بن زيد الخطمي، «وكانت تعيب الإسلام وتؤذي النبي وتحرض عليه وتقول الشعر»، فأرسل الرسول (ص) عمير بن عدي الخطمي فقتلها[1]، وكان مقتلها «أول ما عزّ الإسلام في دار بني خطمة، وكان يستخفي إسلامه فيهم من أسلم، وكان أول من أسلم من بني خطمة عمير بن عدي، وهو الذي يُدعى القارىء، وعبد الله بن أوس، وخزيمة بن ثابت. وأسلم يوم قُتلت ابنة مروان رجال من بني خطمة لِمَا رأوه من عزّ الإسلام[2].

أبو عامر الراهب

وممن عارض الإسلام وعمل على مقاومته أبو عامر عبد عمرو بن صيفي ابن النعمان، وهو من بني ضبيعة بن زيد إحدى عشائر عمرو بن عوف من الأوس[3]، وكانت له مكانة في عشيرته قبل الإسلام، وساند عبد الله بن أُبيّ، ابن خالته[4]، في محاولة تسويده على أهل المدينة[5]. كان أبو عامر قبل مجيء

(١) ابن سعد ٢ ـ ١/ ١٨.
(٢) ابن هشام ٤/ ٣١٥؛ الواقدي ١٧٣؛ وفاء الوفا ١/ ١٩٦.
(٣) ابن هشام ٢/ ٢١٦؛ وانظر عن أبي عامر الراهب تفاصيل في تفسير الطبري ١١/ ١٩.
(٤) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٩٠.
(٥) ابن هشام ٢/ ٢١٦؛ ابن سعد ٣ ـ ٣/ ٩٠.

الرسول (ص) إلى المدينة يناظر أهل الكتاب ويتتبع الرهبان ويألفهم ويُكثر من الشخوص إلى الشام[١]، ولذلك سُمِّي الراهب، ثم سمّاه الرسول (ص) الفاسق[٢]، وكان ابنه حنظلة الغسيل مسلماً واستشهد في معركة أحد[٣].

ولما هاجر الرسول (ص) إلى المدينة، عمل أبو عامر على صد عشيرته عن الإسلام ولكنه لم يُفلح فذهب إلى مكة مع خمسين من أبناء عشيرته، وانضم إلى جيش المشركين الذي تقدم لقتال المسلمين في أُحد[٤]. وكان أول من بدأ القتال فيه، وكان يأمل أن يلقى من عشيرته تأييداً[٥]، ولكن خاب أمله فلم يتابع القتال بحماسة ثم ذهب إلى خيبر يُحرِّض من لجأ إليها من بني النضير على المشاركة في الخندق[٦]، وعاد إلى مكة، ثم انتقل إلى الطائف بعد فتح مكة[٧]، ولما دخل الرسول الطائف هرب أبو عامر إلى الشام مع عدد من أتباعه، وتوفي هناك[٨]. ولم تذكر المصادر من أتباعه غير هوذة بن قيس الوائلي «من بني خطمة كان مع أبي عامر الراهب يُحرِّض المشركين في معركة الخندق[٩].

ويلاحَظ أن بني عمرو بن عوف نزل فيهم الرسول والمهاجرون عندما وصلوا المدينة، وأن الرسول آخَى بين عدد منهم وبين المهاجرين، وشارك منهم في بدر ستة وعشرون، ومن حلفائهم ثلاثة وعشرون، كما شارك عدد منهم

---

(١) ابن هشام ٢/٢١٦.
(٢) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٩٠، أنساب الأشراف ١/ ٢٨١.
(٣) ابن هشام ٢/٢١٦، ١٧٧؛ ابن سعد ٣ ـ ١/ ١٧٥، ٨/ ٢٧٩.
(٤) ابن هشام ٣/ ١٢؛ ابن سعد ٢ ـ ١/ ٢٥؛ أنساب الأشراف ١/ ٣١٣.
(٥) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ١٢٨؛ ابن هشام ٢/ ٢٣٦.
(٦) مغازي الواقدي ٢/ ٤٤١.
(٧) ابن هشام ٢/ ٢١٦.
(٨) ابن هشام ٢/ ٢١٦؛ أنساب الأشراف ١/ ٢٨١. ويذكر ابن العديم أنه توفي بحمص: بغية الطلب ١٠/ ٢٢٠.
(٩) الواقدي ٤٤١.

أربعة من رجالها وثلاثة من حلفائهم[1]. وكانت لهم راية يوم الفتح[2].

كما أن بني السلم بن امرىء القيس، وهم إخوة بني وائل وبني زيد، «كانوا حلفاء بني عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، فأسلموا كلهم بإسلام إخوتهم بني عمرو بن مالك بن الأوس قبل الهجرة ومن أول الهجرة»[3]. وكانت منازل بني السلم شرقي قباء[4]. ومن أبرز رجالهم سعد بن خيثمة الذي نزل في داره العزاب من المهاجرين[5]، وقد انقرض بنو السلم في أواخر القرن الثاني الهجري.

غير أن الرسول (ص)، عندما خرج إلى بدر ردّ الحارث بن حاطب من الروحاء إلى بني عمرو بن عوف لشيء بلغه عنهم[6]، وقد يكون هذا الذي بلغ الرسول عملاً من أعمال الشغب حرَّض عليه أبو عامر الراهب.

أبو عفك

ومن محرضي الشغب على الرسول (ص) عمرو بن عوف أبو عفك الذي «كان شيخاً كبيراً من بني عمرو بن عوف، قد بلغ عشرين ومائة سنة حين قدم النبي (ص) المدينة، فكان يحرض على عداوة النبي في شعره. ولم يدخل الإسلام». وقد أدرك الرسول (ص) خطر القلق الذي يحدثه تصرف هذا الشاعر، فأرسل إليه سالم بن عمير الذي ترصد له ثم قتله. وذلك بعد ثلاثة أشهر من معركة بدر[7]. وقد أرهب قتلة المرجفين، حتى إن عصماء بنت مروان «نافقت» على أثر مقتله[8]، أي أظهرت الإسلام مُداهنةً.

---

(١) ابن هشام ٢/٣٩؛ ابن سعد ٢ ـ ١/٢٨٣.
(٢) ابن سعد ٣/٢٩.
(٣) الأنساب لابن حزم ٣٢٥.
(٤) وفاء الوفا ٢/١٣٨، ١٧٥؛ الطبري ١/١٢٤٣.
(٥) وفاء الوفا ٢/١٣٨.
(٦) ابن سعد ٢ ـ ١/٥٦، ٣/٣٢، وانظر ابن هشام ٢/٣٩٥.
(٧) ابن هشام ٤/٣١٢؛ ابن سعد ٣ ـ ٢/٤٦؛ ٢ ـ ١/١٩؛ أنساب الأشراف ١/٣٧٣.
(٨) ابن هشام ٤/٣١٢.

ويلاحظ أن مسجد الضِّرار، الذي بُني عندما خرج الرسول (ص) إلى تبوك، والذي ذكره القرآن الكريم في معرض الذم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة/١٠٧]، تم بناؤه في بني عمرو بن عوف. وذكرت المصادر أنه قام ببنائه اثنا عشر رجلاً أكثرهم من بني عمرو بن عوف، وقد أمر الرسول مالك بن الدخشم وعاصم بن عدي بإحراق المسجد[١]. ويقول الواقدي: إن أصحاب سجن الضرار هم جماعة أبي عامر الراهب[٢].

وذكر الواقدي أن سعد بن عبيد القاري كان إمام مسجد عمرو بن عوف، «فلما قتل بالقادسية اختصم بنو عمرو بن عوف في الإمامة إلى عمر بن الخطاب وأجمعوا أن يقدموا مجمع بن حارثة، وكان يطعن على مجمع ويَغْمِص عليه لأنه كان إمام مسجد الضرار، فأبى عمر أن يقدمه، ثم دعاه بعد ذلك فقال: يا مجمع، عهدي بك والناس يقولون ما يقولون، فقال يا أمير المؤمنين، كنت شاباً، وكانت القالة لي سريعة، فأما اليوم فقد أبصرت ما أنا فيه، وعرفت الأشياء، فسأل عنه عمر، فقالوا: ما نعلم فيه إلاّ خيراً كان قد عمل على جمع القرآن، وما بقي عليه إلا سور يسيرة فقدّمه عمر فصيّره إمامهم في مسجد عمرو بن عوف، ولا نعلم مسجداً تنافس على إمامته مثل مسجد بني عمرو بن عوف[٣].

ابن صياد

ومن الأفراد الذين تردَّد ذكرهم في أحداث القلق في المدينة: ابن صياد وقد أغفلت كتب السيرة ذكره، ولكن كتب الحديث قدَّمت عنه معلومات وافية. ويتبين مما ذكرته هذه الكتب أن ابن صيّاد أمه يهودية[٤]، واسمه الأصلي

(١) ابن سعد ٣ ـ ٢/٣٦، ٩٦.
(٢) ابن حنبل ٣/٣٦٨؛ ٥/٤٠، ٤٩.
(٣) البخاري: جنائز ٨٠؛ ابن حنبل ٢/١٥.

«صاف»[1]. وقد ظهر في المدينة وكان يقيم في بني مغالة بن النجار وادّعى النبوة وتكلّم بالغيبيات[2]، وجمع حوله بعض الشبّان والأحداث، وأقرَّ بنبوة الرسول (ص) ولكنه اعتبره «رسول الأميين»[3]، ولم يقر بعالمية رسالته.

لا تذكر المصادر أن اليهود أيدت ابن صياد أو قاومته، أما الرسول فقد تحدَّث إليه مراراً[4]، ولم يهتم بمدّعياته بعلم الغيبيات[5] ولم يُذْكر له اتصال باليهود، وادعى أولاده أنهم من بني النجار، فدفعهم بنو النجار عن ذلك، وحلف منهم تسعة وأربعون رجلاً من بني ساعدة على المنبر ما هم، فقالوا نحن حلفاء بني النجار أنهم فيهم اليوم على هذا[6][7].

وحج ابن صياد مع المسلمين[8]، وأقام بالمدينة، وشارك في فتوح الأهواز ثم توفي في أوائل خلافة عمر بتُستُر[9].

ومن أبنائه عمارة بن عبد الله بن صياد يكنى أبا أيوب، وكان ثقة قليل الحديث وقد روى مالك بن أنس عنه[10].

الشواهد القرآنية على المعارضة

في القرآن الكريم آيات كثيرة يتبين منها وجود جماعات وكتل في المدينة

---

(١) البخاري: جنائز ٧٩؛ جهاد ٢٦، ٧٨، ١ ـ ٧٩؛ ابن حنبل ١/ ٤٢٣. وانظر: مسلم: متن ٨٦؛ أبو داوود: ملاحم ١٦، والترمذي: متن ١٦.

(٢) ابن سعد ٤ ـ ٢/ ١٦.

(٣) البخاري: جنائز ٧٩؛ ابن حنبل ١/ ٤٥٧.

(٤) ابن حنبل ٢/ ١٤٨.

(٥) ابن حنبل ٣/ ٣٦٨، ٣٨٨، ٩٧؛ وانظر تاريخ المدينة لابن شبة ٤٠١ ـ ٦. وكان ابنه عمارة ثقة «كان مالك بن أنس لا يقدم عليه أحداً في الفضل». ابن سعد: تكملة الطبقات المطبوع في المدينة ٢٠٢، التهذيب ٧/ ٤١٨ ـ ٩، تهذيب التهذيب ٢٥١.

(٦) مسلم ٢/ ٢٤١، ابن سعد: تكملة الطبقة الثالثة ٣٣.

(٧) ابن سعد: تكملة الطبقة الثالثة ٤٦، ٩٢؛ تهذيب التهذيب ٧/ ٤١٩.

(٨) مسند عبد الرزاق ١١/ ٩٨١.

(٩) تاريخ الطبري ١/ ٦٥٦٥.

(١٠) ابن سعد: تكملة الطبقة الثالثة ٣٢؛ تهذيب التهذيب ٧/ ٤١٩.

كان موقفها من الإسلام معارضاً أو قلقاً. وأظْهَرُ هذه الكتل هم الذين في قلوبهم مرض، والمنافقون، واليهود.

﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾.

ذكر القرآن الكريم «الذين في قلوبهم مرض» في اثنتي عشرة آية، منها ثلاثةٌ ذكرهم مع المنافقين، ولكنه ميَّز بينهم، وكانوا يشبهون المنافقين في التشكيك بأعمال الرسول (ص)، وأخْذِهم على المسلمين الاعتداد في دينهم، وأنهم يستحقون أن تُتخذ بهم نفس الإجراءات التي تُتَّخذ مع المنافقين. وورد في إحدى الآيات ما يدل على أنهم متميزون من الكفار، وإن كانوا يتفقون معهم في التشكيك بمعاني الآيات.

وورد ذكرهم في آيات أخرى بما يدل على أنهم جماعة ذات سلوك خاص، ومواقف خاصة، منها ما وُصفوا به في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد/ ٢٠]. وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة] ما نزلت سورة زادتهم رجساً». كما ذكر أنهم يسارعون إلى الكفار من اليهود والنصارى ولكن لا يقاتلون معهم، وأنهم يفتنون، وتتكرر فتنتهم: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة]. وقد أنذرهم القرآن بالطرد والقتل إذا لم يكفّوا نشاطهم العدائي ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ [الأحزاب].

في سورة البقرة ست آيات وصفت أحوال الذين في قلوبهم مرض ومواقفهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ۝١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ۝١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ۝١٣ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٤﴾ [البقرة].

يتبين من هذه الآيات:

١ ـ أنهم غير مؤمنين، ولكنهم يدَّعون الإيمان مخادعة مكشوفة.

٢ ـ أنهم يفسدون في الأرض ويتصرفون بما يخالف مصلحة الإسلام وما يتطلبه الرسول (ص) ويدَّعون أن تصرفاتهم مُصلحة، أي أن لهم اتجاهات عمل خاصة يؤمنون بصحتها وهي تعارض مصلحة الإسلام وتؤدي إلى الإضرار به والإفساد.

٣ ـ أنهم مغرورون يعتقدون أنهم النخبة وأن المؤمنين الذين يتبعون الرسول ليسوا من الرصانة في شيء.

٤ ـ أنهم يتبعون رؤساء وموجِّهين من خصوم الإسلام.

لم تذكر السيرة والتاريخ معلومات عن كنه وأعمال الذين في قلوبهم مرض، ويذكر الطبري أن المقصود بهم «المنافقون»، غير أن القرآن الكريم ميّزهم من المنافقين. كما أن الأعمال والتصرفات التي ذكر قيامهم بها تدل على أنهم كانوا جماعة متميزة، وأن تردُّد ذكرهم في القرآن يدلُّ على ما كان لهم من خطورة.

النفاق

لم ترد كلمة «النفاق» في الشعر الجاهلي، وإنما جاء ذكرها لأول مرة في الإسلام، والراجح أنها مشتقة من النَفَق الذي تحفره الحيوانات الصغيرة في

الأرض لتختفي فيه وتنتقل به من مكان إلى آخر. وقد وردت كلمة نفق بهذا المعنى في المعاجم[1].

وصف القرآن الكريم للنفاق

ذكرت كلمة «المنافقون» في ست وعشرين آية تجمَّع أكثرها في ثلاث سورة هي التوبة (٦ مرات) والأحزاب (٦ مرات) والنساء (٦ مرات)، وتفرقت الباقية في ثماني سور أخرى. وقد سميت إحدى السور بهم، وإن لم يرد ذكرهم فيها إلا مرة واحدة. وقد وردت في بعض الآيات معلومات إضافية عنهم.

ويتبين من مجمل هذه الآيات أن المنافقين جماعة من الناس لهم سمات خاصة تميزهم من الكفار[2] ومن المشركين[3]، وإن كانوا يشاركون الكفار والمشركين في عذاب اللّه وفي أن مصيرهم يوم القيامة جهنم.

والمنافقون يدّعون الإيمان باللّه[4]، ويظهرون أنهم يقرون برسالة الرسول (ص) ولكن إيمانهم ظاهري وليس قلبياً؛ وهم يؤدون الفرائض ولكن بتثاقل: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء/ ١٤٢]، كما أنهم يستهزئون بآيات اللّه: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة]، ويجتنبون معرفة أوامر اللّه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء]. ولكنهم بخلاء لا ينفقون على المسلمين ولا في سبيل الله رغم أن الأحوال

---

(١) ويذكر جب في مقالة من دائرة المعارف الإسلامية الموجزة أن الكلمة أصلها أثيوبي. وانظر: الاشتقاق والتعريب لعبد القادر العذبي ٣٥.

(٢) انظر: النساء ١٤٢.

(٣) الأحزاب ٧٣، الفتح ٦.

(٤) العنكبوت ١٠.

المالية لكثير منهم جيدة: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة] ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾﴾ [المنافقون] ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة].

ومن أخطر مواقفهم تردُّدهم في المشاركة في القتال مع المسلمين: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ﴾ [آل عمران/ ١٦٧] ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ﴾ [النساء/ ٦٦].

وموقفهم مذبذب بين المسلمين والمشركين: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ [النساء/ ١٤١]، ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحشر].

وإيمانهم غير عميق، سريعو الميل إلى الكفار والفتنة:

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ [المنافقون] ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن

يقول ءامنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ﴿١٠﴾ وليعلمن الله الذين ءامنوا وليعلمن المنافقين ﴿١١﴾﴾ [العنكبوت].

ويوم القيامة ينادي المنافقون المسلمين: ﴿ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ﴿١٤﴾﴾ [الحديد]، ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة]، ﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ﴿٥﴾﴾ [المنافقون].

طلب القرآن الكريم من الرسول (ص) أن يدع أذاهم، ولا يستجيب لهم ثم أمره أن يجاهدهم: ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴿٤٨﴾﴾ [الأحزاب]، ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب]، ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة، التحريم/ ٩].

وذكر القرآن الكريم في عدة آيات أنه سيعذب المنافقين[١] وأن مصيرهم جهنم[٢]، وفي الدرك الأسفل من النار، خالدين فيها[٣].

ويتبين من هذا أن المنافقين يُظهرون الإسلام ويقومون ببعض فرائضه رياءً، وليس لهم إيمان قلبي، وقد اتخذوا من التظاهر بالإسلام جُنَّة، وهم يظنون بالله ظن السوء، ويهزأون بآيات الله، ولا ينفقون في سبيل الله، ويؤذون النبي ولا يشاركون في القتال مع المسلمين، وهم يستكبرون على المسلمين ويتعالون عليهم ويجاملون الكفار ويتعاونون معهم ويؤيدونهم. وكثيراً ما يبدلون إسلامهم

---

(١) التوبة ٧٤، ٦٨؛ الأحزاب ٧٣؛ التحريم ٩؛ النساء ١٣٨.
(٢) النساء ١٤٠.
(٣) النساء ١٣٨.

ويفتنون، وبعضهم من أهل المدينة، غير أن الأعراب، وهم أهل البوادي، أشدّ كفراً ونفاقاً، وهم من الرجال والنساء.

وهم فاسقون، ومأواهم يوم القيامة جهنم، وقد أمر الله تعالى الرسول أن يصبر على أذاهم، ثم أمره بمقاطعتهم ثم بجهادهم.

ويتبين، من مجمل الآيات القرآنية، أن المنافقين مجموعة أفراد لا تربطهم رابطة قَبَلية جامعة، ولا يعبرون عن مصالح قبيلة بالذات، إذ لم يرد ذكر قبيلة كانت بمجموعها منافقة، ولم يكن لهم تنظيم سياسي جامع أو عقيدة دينية محدَّدة المعالم، أو فلسفة إيجابية تُنْظِّم آراءهم وتنسِّق أعمالهم، وإنما كانوا أفراداً يجمعهم سلوك ومواقف متشابهة من الإسلام ودولته، وبذلك يكون مجموعهم صنفاً قائماً بذاته وهم يتميزون من المشركين والكافرين، رغم اتفاقهم معهما في كثير من المواقف والمشاعر.

وهم يُظهرون الإسلام ولكنهم غير متشبعين بالإيمان، ويتخذون في الحوادث المصيرية مواقف لا تنسجم مع مصلحة الأمة، أي أنهم كانوا متحركين وغير سلبيين، كما أنهم لم يكونوا محايدين أو منعزلين، وكانوا يُبدون آراءهم أحياناً، ويتخذون مواقف إيجابية خاصة تتسم بالقلق والجبن ومعارضة سياسة الرسول (ص)، وعدم العمل على توفير الجو السلمي الهادىء. هم بذلك كانوا يسببون قلقاً خَطِراً، ويهددون السلطة المركزية في قراراتها والعمل على استقرارها وتناميها. ومما زاد في خطرهم وصعوبة معالجة أمرهم هو فقدانهم فلسفة خاصة، وآراء واضحة، واتجاهات معينة يمكن بحثها وتقرير موقف منها.

كتب الحديث والتاريخ

وذكرت كتب الحديث بعض صفات المنافقين وأبرزها ثلاثة: إذا ائتُمن خان، وإذا حدَّث كَذَب، وإذا عاهد خان[1]. وكل هذا يُظهر أنهم عنصر غير

(1) البخاري: إيمان ٢٤، جزية ١٧، شهادات ٢٨، أدب ٦٩؛ صحيح مسلم: إيمان ١٠٦، ١٠٧؛ وانظر أيضاً ابن حنبل ٢٢/١، وعن كره المنافقين الأنصار: البخاري: إيمان ١٠؛ مصائب الأنصار ٤؛ صحيح مسلم: إيمان ١٢٧.

مؤتمن في تصرفه، فخطرهم منبعث من مواقفهم السلوكية والسياسية أكثر مما هو ناجم عن عقائد يتمسكون بها.

ذكرت كتب التفسير أسماء عدد من الأفراد المنافقين، وبعض أعمالهم التي اعتُبروا منافقين بسبب قيامهم بها. ومعلوماتهم مقتصرة على ما أشار إليه القرآن الكريم، ولم تشمل كافة الأعمال المتعددة العميقة الآثار التي تُظهرها الأدلة القرآنية.

وأوردت بعض كتب السيرة قوائم بأسماء عدد من المنافقين، مصنَّفة تبعاً لعشائرهم، كما ذكرت الأعمال التي قام بها بعض من ذكرتهم واستحقوا الوصم بالنفاق[١]، وأغلب ما ذكروه عنهم حوادث منفردة محدودة النطاق والتأثير، كثير منها، رغم عنفه، هي أقربُ إلى أن يكون حوادث منفردة ونزوات موقتة، لا تكفي، رغم عنفها، لتبرير وسم صاحبها بالنفاق. ولا بد أن أعمالاً أخرى قاموا بها فاستحقوا تسجيل ذكرهم مع المنافقين.

إن وَصْم من ذكرته كتب السيرة بالنفاق لا يمكن إرجاعه إلى مواقف شخصية متحيِّزة من الرواة والمؤرخين، إذ لم يعرف: هل لأحدهم، هو أو نسله، دور فعّال يثير الخصومات ويبرر التأكيد على وصمهم بالنفاق.

وفي كتب السيرة إشارات إلى بعض خصائص المنافق، ولهذه الإشارات أهمية في معرفة طبيعة النفاق ونطاقه. ومن هذه الإشارات قول ابن إسحق أن قيس بن عمر بن سهل كان غلاماً شاباً «وكان لا يُعلم في المنافقين شاب غيره»[٢]، ولم يرد ذكر عن قيس بن عمرو وأعماله، سوى أن ابن سعد ذكر أن قيس بن عمرو بن سهل، وهو من بني غنم بن مازن بن النجار، تزوج زينب بنت الحباب، وهي من بني مازن بن النجار، وأنجبت له قيساً[٣]، وتزوج أيضاً عمرة بنت حارثة (من بني غنم بن النجار)[٤]، وذكر أيضاً أن أبا شيخ هو ابن

(١) ابن هشام ٢، أنساب الأشراف ١/ ٢٧٥، المحبر لابن حبيب ٤٦٧ ـ ٨.

(٢) ابن هشام ٢/ ١٥٢.

(٣) ابن سعد ٨/ ٣٠٤.

(٤) ابن سعد ٨/ ٣٣١.

خالة قيس ابن عمرو النجار، علماً بأن أمه من بني ساعدة[١]، وقيس هذا ممن شارك في بناء مسجد الضِّرار[٢].

ذكر الواقدي أن المنافقين، سعد بن حنيف، وزيد بن اللصيت، وسلامة بن تمام، ونعمان بن أبي عامر، ورافع بن حرملة، ومالك بن أبي نوفل، وداعس وسويد وكانوا أخابث المنافقين[٣].

وذكر ابن هشام أن قيس بن عمرو بن سهيل لا يُعلم في المنافقين شاب غيره[٤].

ويمكن فهم الدافع النفسي للشيوخ بروحهم المحافظة، وميلهم إلى التردد والمحافظة على مكانتهم، وقلة طموحهم، وكرههم كل جديد يهدد سلطاتهم.

يقول ابن إسحق: «لم يكن في بني عبد الأشهل منافق أو منافقة، إلا أن الضحاك بن ثابت أحد بني كعب رهط سعد بن زيد كان يتّهم بالنفاق وحبّ اليهود»[٥]، ولم أجد معلومات عن الضحاك بن ثابت، غير أن إخلاص بني عبد الأشهل للإسلام يوضحه إقبالهم المبكر على الإسلام، وحماسة رئيسهم سعد ابن معاذ له.

ذكر ابن إسحاق من الخزرج ستة منافقين هم الجدّ بن قيس من سلمة، وعبد الله بن أبي من بني الحبلي، وزيد بن عمرو ورافع بن وديعة، وقيس بن عمرو بن سهل، وعمرو بن قيس من بني النجار[٦]. وأضاف البلاذري وابن حبيب إليهم سعد بن زرارة، وعقبة بن كديم، وعدي بن ربيعة، وسويد بن عدي[٧]. فأمّا عبد الله بن أبيّ، فسنُفْرد له كلاماً فيما بعد: وأما قيس بن عمرو، فقد تحدثنا عنه سابقاً.

---

(١) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٦٣.
(٢) أنساب الأشراف ١/ ٢٨٣.
(٣) مغازي الواقدي ٢٥٩.
(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ١٥٢،
(٥) ابن هشام ٢/ ١٤٧.
(٦) ابن هشام ٢/ ١٤٨.
(٧) أنساب الأشراف ١/ ٢٧٤، المحبر ٤٦٨.

أما الجد بن قيس، فإن ابن سعد يذكر أنه كان يُكْنَى «أبا وهب، وكان قد أظهر الإسلام وغزا مع رسول اللّه (ص) غزوات، وكان منافقاً، وفيه نزل حين غزا رسول اللّه تبوك»: ﴿ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾[1]. ويذكر أيضاً أن المسلمين بايعوا (في الحديبية) تحت الشجرة غير الجد بن قيس[2]. ويذكر ابن هشام أن الجد بن قيس كان سيد بني سلمة، فجعل الرسول (ص) سيدهم بشر بن البراء بن معرور، لبخل الجد[3]، ولا بد أن أسباباً أخرى دفعت الرسول إلى تنحيته، وأن نفاقه كان متأثراً بهذه التنحية.

أما الأوس، فقد ذكر ابن إسحق فيهم اثنين وعشرين منافقاً[4]، ذكرهم وكرر ذكرهم البلاذري وابن حبيب وأضافا إليهم ستة أسماء أخرى. ومن هذه القائمة اثنا عشر ممَّن أقاموا مسجد الضِرار وهم من بني عمرو بن عوف وفيهم سبعة من بني ضبيعة، وثلاثة من كل من بني عبيد وثعلبة، واثنان من كل من ظفر وحبيب، وواحد من كل من عبد الأشهل والنبيت ولوذان، وأمية بن زيد. ويلاحظ أن بعض من أقام مسجد الضرار من أُسرٍ محددة، ففيهم جارية ابن عامر وأبناء مجمع وزيد، فمعظم المذكورين في قوائم المنافقين هم من بني عمرو بن عوف وأكثرهم من ضبيعة وعبيد. غير أن فيهم اثنين من بني ظفر (حاطب بن أمية، وبشير ابن أبيرق)، وواحد من النبيت (مربع بن قيظي). فأما حاطب بن أمية، فكان شيخاً أعمى متقدماً في العمر، وكان له ابنٌ قُتل في أُحد فاستاء لمقتله ونقم على المسلمين توريطهم بقتله[5]. وأما بشير بن أبيرق، فكان ينظم الشعر يحرض فيه على المسلمين، وقد توفي في السنة الرابعة للهجرة[6].

---

(١) ابن هشام ٤/ ١٧٠؛ ابن سعد ٣ ـ ٢/ ١١.
(٢) ابن هشام ٣/ ٣٦٤؛ ابن سعد ٢ ـ ١/ ٧٣.
(٣) ابن هشام ٢/ ٧٠.
(٤) ابن هشام ٢/ ١٧٤.
(٥) أنساب الأشراف ١/ ٢٧٤؛ المحبر ٤٦٨.
(٦) تفسير الطبري ٩/ ٧٧؛ الأنساب لابن حزم ٣٢٣.

أما بقية من ذُكروا بالنفاق، فمنهم الحارث بن سُويد الذي استغل فرصة قتال أُحد فقتل المجذر بن زياد ثأراً لأبيه، فأمر الرسول (ص) بقتله[1]. ولا ريب في أن دافع القتل هو الثأر، وهو يدل على تأصل النزعة القبلية فيه وعدم تشبّعه بروح الإسلام، وأن الأمر بقتله يضع حداً لخطر تفكيك الثارات لوحدة المسلمين.

وممن وُصم بالنفاق جلاس بن سويد، وقد وُصِم بذلك لأنه، فيما ذُكر، تهجّم على الإسلام في تبوك ونزلت بحقه الآية ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾[2] [التوبة/ ٧٤]. والكلمات الأخيرة من الآية صريحة بأنه عزم على القيام بأعمال مفسدة ولكن الفرصة فاتته، إلا أن المصادر لا تذكر هذه الأعمال.

غير أن عدداً ممن وُصِم بالنفاق كان معروفاً بصِدْق إسلامه، فمجمع بن جارية «ممن جمع القرآن إلا سورتين أو ثلاثاً، وكان ابن مسعود قد أخذ بضعاً وتسعين سورة وتعلم بقية القرآن من مجمع»[3]. وقد وُصم بالنفاق لأنه أمَّ أصحاب مسجد الضرار، وقد اعتذر بأنه لم يكن يعرف نواياهم.

والحارث بن حاطب هو الذي جعله الرسول على بني عمرو بن عوف وأسهم له في بدر، وقد قُتل في خيبر[4]، ولم تذكر المصادر سبب وصمه بالنفاق.

أما الضحَّاك بن خليفة، فقد هاجم المنافقين قبيل تبوك[5].

أما قزمان، فقد شارك في أحد، ويقال إنه قَتَلَ حامل علم قريش[6].

---

(١) ابن هشام ٢/٤١٦، ٤/٣١٣؛ ابن سعد ٣ ـ ٢/٩٩.

(٢) ابن هشام ٢/١٤١، ٤/٢٠٩؛ ابن سعد ٤ ـ ٢/٨٨.

(٣) ابن سعد ٢ ـ ٢/١١٢؛ وانظر ابن هشام ٢/١٤٤، ٤/١٨٦؛ أنساب الأشراف ١/٢٧٦.

(٤) ابن سعد ٣ ـ ١/٦، ٣ ـ ٢/٧٧.

(٥) ابن سعد ٣ ـ ٢/٢٢.

(٦) ابن سعد ٢ ـ ١/٢٩.

ذكرت كتب السيرة أسماءً متفرقة من المنافقين من عشائر متفرقة وأعمالاً منفردة قام بها كل منهم، ولم يُذكر لأيِّ منهم سند عشائري؛ ولم تُذكر عشيرة وُصِمت بالنفاق بأكملها، ولم يرد ذكر لتنظيم يجمعهم، أو فكرة عامة تربطهم. غير أن الآيات الكثيرة التي ذكروا فيها تظهر أنهم كانوا جماعة كبيرة لها سمات عامة مشتركة ودور فاعل ومواقف معينة في عدد غير قليل من الحوادث، وكان أبرز مظهر لتميزهم الجماعي هو في ممالأتهم لعبد الله بن أُبيّ في مواقفه غير المؤيدة للرسول (ص)، وكذلك في إقامتهم مسجد الضرار الذي أنشىء تعبيراً عن انشقاق سياسي، ليكون مركز معارضة سياسية لا دينية؛ فهو مسجد لإقامة الصلاة وليس مركزاً لإحياء الوثنية، أو إقامة شعائر مارقة عن الإسلام. وقد أقيم في بني عمرو عوف الذي أقام عندهم المهاجرون في أول هجرتهم. ولعل حركات أخرى قاموا بها لم يُشر إليها القرآن ولم تذكرها كتب السيرة. لم ترد إشارة إلى كثرةٍ من المنافقين من العشائر التي تأخر إسلامها.

وفي القرآن إشارات إلى صلة المنافقين باليهود، ولا بد أن مظهر هذه الصلة تحريض اليهود للمنافقين بإثارة تساؤلات وتشكيكات في الأفكار والعقائد، وهي تمهِّد لتحدٍ للإسلام، وتظهر معارضة له، ولكنها لا تصل إلى حد ميل المنافقين إلى العقائد اليهودية، أو إسنادهم السياسي لليهود. فهي مواقف سلبية، مبعث الإزعاج فيها كثرة التساؤلات التشكيكية والجرأة في عرضها، وليس من كونها تعرض أفكاراً وتقيم تكتلات مقابل جامعة الجماعة الإسلامية.

بدأت حركة النفاق إبّان الاستعداد لمعركة أُحد، وتتابعت أعمالها إلى أواخر حياة الرسول (ص)، أي بعد تطهير المدينة من العشائر اليهودية الثلاث الكبرى. وقد يكون لمن بقي من اليهود دور في إدامتها، ولكن من المؤكد أنها لم تحرص على إظهار صلتها باليهودية وتأييدها لها، فهي حركة من عرب أهل المدينة لم يَشْرَكْهم فيها غيرهم من العرب أو اليهود.

تذكر كتب السيرة أن النفاق ظهر بأقوى أدواره في معركة الخندق[١]، وفي حصار بني قريظة[٢]، وفي غزوة بئر معونة[٣]، وفي تبوك حيث «لم يخرجوا في غزوة قط أكثر منهم في غزوة تبوك، وتكلموا بالنفاق»[٤].

لم ينحصر النفاق في عشيرة محددة، وإنما كان في أفراد من عشائر متعددة، فالنفاق سلوك ومواقف فردية تجاه أوضاع سياسية وعقائدية متعددة، تجمعها سمة واحدة هي التظاهر بالإسلام، وأداء فرائضه، والمشاركة في الغزوات التي يقودها الرسول (ص). غير أن المنافقين لا يُظْهرون حماسةً في أداء فرائض الإسلام ولا طاعة تامة للرسول (ص)، ويتخذون مواقف تَذَمّر تُؤثر في الوحدة والانسجام العام والحماسة، وهي مواقف تعكس ضعف تشبُّعهم بروح الإسلام ومتطلباته، وتتفاوت قوتها من الهمس إلى التهديد الخَطِر لقوة التماسك والانسجام والوحدة.

عبد الله بن أُبَيّ

تردد في المصادر أن رأس المنافقين هو عبد الله بن أُبَيّ، وهو من بني سالم (بلحبلى) من الخزرج، وكانت خططها في الأطراف الجنوبية الشرقية من مسجد الرسول، بينه وبين قبا، وبالقرب من خطط بني قينقاع. وقد شهد العقبة منهم واحد، ولم يكن فيهم نقيب، وشهد بدراً منهم خمسة، وتزوجت بعض نسائهم رجالاً من الخزرج، ويُظهر هذا إقبال هذه العشيرة على الإسلام في وقت مبكر.

كانت أم عبدالله بن أُبَيّ أو جدته من خزاعة، وابن خالته أبو عامر الراهب، وزوجته خولة بنت المنذر من بني النجار[٥] وتزوجت إحدى أخواته

---

(١) ابن هشام ٣/ ٢٣١، ٢٣٨.
(٢) ابن هشام ٣/ ١٩٧.
(٣) ابن هشام ٣/ ١٦٧.
(٤) ابن سعد ٤ ـ ٢/ ٨٩.
(٥) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٩٠.

رجلاً من الأوس، والأخرى من بني الحارث بن الخزرج[1] وتزوجت ابنته جميلة من مالك بن الدخشم، وهو من القواقل، شهد العقبة وبدراً وأُحد، وشارك في هدم مسجد الضرار[2].

كان عبد الله بن أبي ذا مكانة في قومه[3] وكان أهل المدينة قد عزموا «أن يتوّجوه فيعصبونه بالعصابة»[4] وكان أول من اجتمع أهل المدينة على تتويجه[5] ويبدو أنه كان في مكة عند بيعة العَقبة ولكنه لم يشارك فيها[6].

وعندما هاجر الرسول (ص) إلى المدينة لم يسلم، وكان يحضر مجلسه «أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود»، ولم يستجب للرسول (ص) عندما دعاه إلى الإسلام[7] فلما انتصر المسلمون في بدر أعلن إسلامه[8].

وكان بنو قينقاع حلفاءه، فلما غزاهم الرسول لم يُعِنْهم، ولكنه طلب من الرسول (ص) الرفق بهم، فاكتفى الرسول (ص) بإجلائهم»[9].

وعندما تقدم جيش مشركي مكة لغزو المدينة في معركة أُحد، كان من رأيه ألاّ يخرج إليهم، وأن يكتفي بالدفاع في داخل المدينة. فلما قرّر الرسول (ص) الخروج لقتالهم في أُحد خرج مع المسلمين ولكنه انسحب قبل الوصول إلى

---

(١) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٨٥، ابن هشام ٢/ ٢٢٠.
(٢) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٩٦، ابن هشام ٤/ ١٨٥، وعن مشاركته بدر ابن هشام ٢/ ٣٤٢.
(٣) ابن هشام ٢/ ٢١٦، ٢١٨، ٣/ ٥٧، ٤/ ٢٠٨. ويذكر الطبري أنه كان من ذوي الشرف، تفسير الطبري ١٠/ ١٠٢.
(٤) البخاري: تفسير ٦٥، مرض ٧٥، تاريخ المدينة لابن شبة ٥٦، استئذان ١٥، حنبل ٥/ ٢. الواقدي ٢/ ٤١٩، ابن هشام ٢/ ٢١٦.
(٥) ابن هشام ٢/ ٢١٦.
(٦) ابن سعد ١ ـ ١/ ١٥.
(٧) ابن حنبل ٣/ ١٥٧، ٢١٩، ٥/ ٢٠٢.
(٨) البخاري: تفسير سورة المائدة، ابن حنبل ٥/ ٢٥٣.
(٩) ابن هشام ٢/ ٤٢٧، وانظر وفاء الوفا ١/ ١٩٨، الاعتبار في الناسخ والمنسوخ للحازمي ١٧٥.

ميدان المعركة، وانسحب معه ثلث الجيش، ولم تذكر هوية المنسحبين ولكنهم لم يكونوا من عشيرته بلحبلى التي شارك في المعركة عدد من رجالها وقتل منهم اثنان[١].

وعندما تقدَّم الرسول (ص) لحصار بني النضير، كان عبد الله بن أُبيّ ممّن شجعهم على المقاومة، وقال لهم «أثبتوا وتمنَّعوا» ووعدهم أن يناصرهم في القتال، ولكنه لم يفعل ذلك»[٢].

وشارك في غزوات الرسول، ولكنه أسهم في بعض أعمال الشغب في بعضها، وكان من مروِّجي حديث الإفك[٣]. وفي غزوة المصطلق حدث نزاع بين مهاجرٍ وأنصاري كاد يؤدي إلى شغب، فأَسْنَد عبدُ الله بنُ أُبيّ الأنصاريَّ، وهدَّد المهاجرين، وقال ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون/ ٨][٤]، ويُروى أنه لام الأنصار على مساعدتهم المهاجرين وقال لهم: «أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم»[٥]، وإليه أشارت الآية الكريمة ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ [المنافقون/ ٧][٦].

وعندما عزم الرسول على القيام بحملة تبوك «ضرب عسكره على ثنية الوداع، وضرب عبد الله بن أبي عسكره على حدة، بحذاء ذباب أسفل من ثنية الوداع»[٧] ولم يشارك فيها.

---

(١) ابن هشام ٢/ ٧؛ ابن سعد ٢ ـ ١/ ٢٦ ـ ٢٧؛ تفسير الطبري ٤/ ٤٦، ٤٨، ٩٤، ٩٧.
(٢) ابن هشام ٣/ ١٩٢.
(٣) البخاري: تفسير ٢٤، إيمان ١٣، مغازي ٣٤، شهادات ١٥، ابن حنبل ٦/ ٩٦، ابن هشام ٣/ ٣٤٥.
(٤) المنافقون ٨، وانظر البخاري ٢٨، ابن حنبل ٣/ ٣٩٢، ٤/ ٣٦٨، ٣٧٠، ابن هشام ٣/ ٣٣٤، ابن سعد ٤ ـ ٢/ ٢٧٠.
(٥) انظر ابن هشام ٣/ ٣٣٤.
(٦) ابن حنبل ٤/ ٣٦٨، ٣٧٣؛ تفسير الطبري ٢٨/ ٧٢.
(٧) الطبري ١/ ١٦٩٥؛ ابن هشام ٤/ ١٧٣ وهو يضيف «وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين».

ولما توفي عبد الله بن أُبَيّ حضر الرسول جنازته ونزلت في ذلك الآية ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة/ ٨٤][١].

وكان ابنه عبد الله أسلم وشهد بدراً وأُحد والخندق والمشاهد كلها وكان يغمه أمر أبيه، كما شارك في مقاتلة مرتدي البحرين وقتل في جواثا[٢].

ويتبين من هذا أن عبد الله بن أُبَيّ كانت له شخصية قلقة، فيها خوار وعدم استقرار، وليست له فكرة واضحة في العمل.

يتبين من مجمل المعلومات أن المعارضة للإسلام كانت غير منظمة، وكانت مفككة تنقصها القيادة القوية والأفكار التي تجمعهم وتوضح آراءهم؛ وتظهر آيات القرآن الكريم أن المعارضة تركزت على أفراد أظهروا الإسلام، وقاموا بالفرائض، ولكنهم لم يتشبَّعوا بروح الإسلام أو يتحمسوا في إظهار طاعتهم للرسول (ص) وخاصة في الغزوات، ولعلهم ساهموا في نشر الإشاعات المقلقة التي لها تأثير في تنفيذ أحكام الإسلام.

---

(١) التوبة ٨٤، وانظر البخاري: جنائز ٧٨؛ ابن حنبل ٣/ ٣٧١، ٣٨١؛ ابن هشام ٤/ ٢١.

(٢) ابن سعد ٣ ـ ٢/ ٩١.

الفصل الثامن

اليهود والدعوة الإسلامية

اليهود في المدينة

كان يقيم في المدينة، عندما هاجر إليها الرسول (ص)، عدد من اليهود لم تذكرهم المصادر اليهودية ولم تُشِر إليهم. أما المصادر العربية، ففيها معلومات وافية عن أحوالهم عند الهجرة، وإشارات إلى تاريخهم فيها، فيذكر السمهودي، عن بني قريظة يقول: «زعموا أن الروم لما ظهروا على الشام خرج قريظة والنضير وهُدَل هاربين من الشام يريدون من كان بالحجاز من بني إسرائيل، فوجّه ملك الروم في طلبهم، فأعجزوا رسله»[1]، ويُظهر هذا النص أن الجماعات اليهودية التي سكنت المدينة كان أقدمها الذين قدِموا بعد استيلاء الروم على بلاد الشام، ولعله على أثر استيلاء تيتوس على الدولة اليهودية وتشتت اليهود.

ويذكر السمهودي أن يهود المدينة هاجروا إليها بدفعات أقدمها هجرة بني قريظة وهُدَل وعمرو، وهم من نسل هارون بن عمران، ثم تلاهم بنو النضير «جاؤوا من بعدهم فتتبعوا آثارهم فنزلوا العالية، ونزل بنو النضير على مذينيب، وبنو قريظة وهدل على مهزور»[2]. ومن المحتمل أن جماعات أخرى من اليهود

(١) وفاء الوفا ١/ ١١٢.

(٢) وفاء الوفا ١/ ١١٣ عن محمد بن الحسن، الأعلاق النفيسة لابن رستة ٦١، الدرة الثمينة لابن النجار (مطبوعة في آخر كتاب شفاء الغرام ٢/ ٣٢٤).

تتابعت هجراتها إلى المدينة، غير أن المصادر لم تذكر تاريخ تعاقبها.

نقل السمهودي عن رزين والشرقي أن اليهود كانوا نيِّفاً وعشرين قبيلة[١]، وكانت لهم آطامٌ ذكر ابن النجار أنها «كانت تسعة وخمسين أُطُماً، وللعرب النازلين عليهم قبل الأنصار ثلاثة عشر أُطُماً، وقد ذكر ابن زبالة أسماءَ كثيرٍ فيها حذفناه لعدم معرفته في زماننا»[٢].

انتظم اليهود الذين استوطنوا في قبائل متمايزة. وروى ابن زبالة عن السائب جد توبة بن الحسن قوله: «وكان ممن بقي بالمدينة من اليهود حين نزلت عليهم الأوس والخزرج: بنو قريظة، وبنو النضير وبنو ضخم (محمم؟)، وبنو زعورا، وبنو ماسكة، وبنو القمعة، وبنو زيد اللاّت وهم رهط عبد الله بن سلام، وبنو قينقاع، وبنو حجر، وبنو ثعلبة، وأهل زهرة، وأهل زبالة، وأهل يثرب، وبنو الغصيص، وبنو غصة، وبنو عكوه، وبنو مرابة»[٣]، وذكر الأصفهاني، في نص عن يهود المدينة، معظم العشائر التي ذكرها ابن رستة، وأضاف: «فكان يسكن يثرب جماعة من أبناء اليهود فيهم الشرف والثروة والعز على سائر اليهود، وكان بنو مرابة في موضع بني حارثة، ولهم الأُطُم الذي يقال له الخال»[٤].

إن الأسماء المذكورة في قائمة ابن رستة تشمل العشائر إلا ثلاثة مواضع هي زهرة، وزبالة، ويثرب.

فأما زهرة، وهي في الأطراف الشرقية من المدينة، فإن السمهودي يذكر «ثعلبة وأهل زهرة بزهرة، وهم رهط الفطيون، وهو ملكهم الذي كان يفتض نساء أهل المدينة قبل أن يدخلن على أزواجهن، وكان لهم الأُطُمان اللذان على طريق العريض حين يهبط من الحرة، وكان بزهرة جماع من اليهود، وكانت من

(١) وفاء الوفا ١/١١٦.

(٢) وفاء الوفا ١/١١٦، وفي المطبوع من كتاب ابن النجار أن عدد أطمهم قديماً كانت ١٢٧ (٢/٣٢٧).

(٣) ابن رستة ٦٢.

(٤) الأغاني ١٩/٩٥.

أعظم قرى المدينة، وقد بادوا»[١]، ويذكر أيضاً أن زهرة كانت من أعظم قرى المدينة، وكان في قريتها ثلاثمائة صائغ، ويذكر أنها مما يلي: طرف العالية، وما نزل عنها فهو السافلة، وأنها بقرب صدقات النبي (ص)[٢].

وبالقرب من زهرة إلى الجانب الغربي منها، كانت منازل بني زعورا ومحمم، وثعلبة، وحجرة ومرابة، ومحمم قرب مشربة أم إبراهيم، ومنها صدقات الرسول السبعة.

أما يثرب، فإن السمهودي يقول: «أهل يثرب كانوا جماعاً من اليهود بها، وقد بادوا فلم يبق منهم أحد»[٣]. ويذكر أيضاً «يثرب أم قرى المدينة، وهي ما بين طرف قناة إلى طرف الجرف، وتمتد إلى زبالة»[٤] ويقول الأصفهاني «كان يسكن يثرب جماعة من أبناء اليهود فيهم الشرف والثروة والعز على سائر اليهود»[٥].

أما زبالة، فتقع «شمالي المدينة بينها وبين يثرب»[٦] أي أنها جنوبي يثرب وبالقرب منها.

وفي هذه المنطقة كان راتج الذي ينقل السمهودي عن ابن زبالة أن أُطُمَ راتج كان ليهود، ثم صار لبني الجذماء، وأنه في شرقي ذباب وبالقرب من يثرب[٧]، ويذكر أن بني الجذماء حي من اليمن انتقلوا من مقبرة عبد الأشهل إلى راتج[٨].

وفي هذه الأطراف الشمالية كانت مقبرة اليهود عند جبل سلع[٩].

---

(١) وفاء الوفا ١/ ١١٥، ٢/ ٣١٩ (عن ابن زبالة).
(٢) وفاء الوفا ٢/ ٣١٩ ـ ٣٢٠؛ ابن النجار ٢/ ٣٢٣.
(٣) وفاء الوفا ١/ ١١٦.
(٤) وفاء الوفا ٢/ ٣٩١؛ وانظر ابن النجار ٢/ ٣٢٥.
(٥) الأغاني ١٩/ ٩٥.
(٦) وفاء الوفا ٢/ ٣١٧، وانظر ١/ ١١٦.
(٧) وفاء الوفا ٢/ ٣٠٩.
(٨) وفاء الوفا ١/ ١٦.
(٩) الطبري ١/ ٣٠٤٧.

ومن العشائر اليهودية الكبيرة في المدينة بنو حارثة، وكانت خططهم في ثمغ[١]، وخصهم موسى بن عقبة بالذكر حيث قال: «أجلى رسول الله (ص) يهود المدينة كلهم: بنو قينقاع، وهم قوم عبد الله بن سلام، ويهود بني حارثة، وكل يهودي كان بالمدينة»[٢]. وكانت جنوبيَّهم منازل بني عكوة»[٣]، وفي شمالهم منازل بني مرابة، «ولهم الأُطُم الذي يقال له الشبعان في ثمغ صدقة عمر بن الخطاب»[٤].

وفي الجهات الجنوبية من المدينة كانت منازل بني قينقاع على جسر بطحان، وبني النضير على وادي مذينيب، وبنو قريظة على وادي مهزور. وقد تداخل معهم في مساكنهم عشائر الأوس، وسكن في هذه المنطقة بنو مريد في بني خطمة. وكان لهم أُطم يعرف بهم، وبنو معاوية في بني أمية بن زيد.

و«كان بنو هدل وبنو عمرو مع قريظة في دارهم»[٥]، وقد أسلم بنو هدل في الليلة التي نزلت فيها بنو قريظة على حكم رسول الله (ص)[٦]، «ومنهم سجيت، ومنبه ابنا هدل، وثعلبة وأسد ابنا سمية، وأسد ابن عبيد، ورفاعة بن سموال»[٧]، وبنو هدل إخوة بني قريظة: كانوا معهم في جاهليتهم وإسلامهم، ودعوتهم في بني قريظة.

وفي هذه المنطقة كان يقيم بنو وائل، ومنهم هوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، ونفر ممَّن حَزَّب الأحزاب على الرسول قبل معركة الخندق»[٨].

(١) وفاء الوفا ٢/١٢٥.
(٢) وفاء الوفا ٢/١٢٥.
(٣) ابن حنبل ٢/١٤٩.
(٤) وفاء الوفا ١/١١٦.
(٥) وفاء الوفا /١١٦.
(٦) وفاء الوفا ١/١١٤.
(٧) ابن هشام ٣/٢٥٦.
(٨) ابن هشام ٣/٢٥٦، السمهودي ١/١١٤.
(٩) الإكمال لابن ماكولا ٧/٤١٨.
(١٠) ابن هشام ٢/١٩٠، الروض الآنف ٢/١٨٧، تفسير الطبري ٩/٤٦٩٨ (طبعة محمد شاكر).

كانت العشائر اليهودية متباينة في مكانتها. يذكر ابن إسحق أن بني هُدَل «ليسوا من بني قريظة ولا النضير. نسبهم فوق ذلك. هم بنو عم القوم»[1] ويروي الطبري عن السدِّي يقول: «كانت قريظة والنضير في الجاهلية، إذا قتل الرجل من بني النضير قَتَلَتْهُ بنو قريظة قتلوا به منهم، فإذا قُتِل رجل من بني قريظة قَتَلَتْهُ النضير أَعْطُوا ديته ستين وسقاً من تمر»[2]، أي أن بني النضير كانوا أعلى مكانة من قريظة. ويذكر ابن عباس في تفسيره الآية ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة] أنزلها الله في الطائفتين من اليهود، وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فَدِيَتُهُ خمسون وسقاً. وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فَدِيَتُهُ مائة وسق[3]، ولعله يشير بذلك إلى بني قريظة والنضير. وقد ذكرنا أن بني زهرة كان فيهم المُلْك، وفيهم ثلاثمائة صائغ، مما يدل على مكانتهم المتميزة في القديم، كما ذكرنا أن أهل يثرب كانوا أهل العز والثروة والجاه. ولعلهم شغلوا هذه المكانة بعد زوال المُلْك من بني زهرة.

الزراعة

يدل انتشار منازل اليهود بالمدينة في الوديان على أن أغلبهم كانوا يشتغلون بالزراعة، ويؤيد هذا الأراضي الزراعية التي أخذها المسلمون منهم وتابعوا العمل فيها، غير أن كثرة عددهم وضيق رقعة الأراضي الصالحة للزراعة في المدينة قد تدل على أن الأراضي كان يمتلكها الذين يعملون فيها، وكانت مقسَّمة إلى ملكيات صغيرة يكفي إنتاج كل منها لإعاشة مالكيها، ولا يَفْضُل من المنتوج إلا القليل. ويروي ابن سعد أن الرسول (ص)، بعد أن أقصى بني قريظة، وجد عندهم جمالاً «نواضح وماشية كثيراً»[4].

---

(١) ابن هشام ٣/٢٥٦.

(٢) تفسير الطبري ٨/٥١٠ طبعة محمود محمد شاكر.

(٣) ابن حنبل ١/٢٤٦، وانظر: تفسير الطبري ٦/١٥٤، ١٥٧، ١٦٥.

(٤) ابن سعد ٢ ـ ١/٥٤.

ثَمَّةَ إشارات إلى عددٍ امتلكوا أراضي واسعة، ومنهم مخيريق الذي يُروى أنه كان صاحب الصدقات السبع للرسول (ص)[1]، ولا بد أن مثل هؤلاء الملاكين استخدموا عمالاً للأرض. غير أن قلة ذكر العبيد في المدينة يدل على قلَّتهم في عمل الأرض، ولعل كثيراً من هؤلاء العمال كانوا يشتغلون بالأجرة، أو بنسبةٍ من المنتوج، وأن اليهود لم ينفردوا بنظام خاص بهم للعمل في الأراضي، وإنما ساروا على النظام السائد عند العرب فيه.

التجارة

في الكتب إشارةٌ إلى اشتغال يهود المدينة بالتجارة. ينقل الواحدي في تفسير الآية ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ﴾ [الحجر/٨٧] عن الحسن بن الفضل قوله: إن سبع قوافل وافت من بصرى وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد فيها أنواع البَزّ وأوعية الطيب والجواهر وأمتعة البحر، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوَّينا بها فأنفقناها في سبيل اللَّه، فأنزل اللَّه هذه الآية وقال: لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير لكم من هذه السبع قوافل»[2].

يُظهر هذا الكلام أن بني قريظة والنضير كانت لهم مع بلاد الشام تجارة ضخمة من سِلَعها البَزّ والطيب والجواهر وأمتعة البحر. ولا نعلم مدى صحة تفاصيل هذا النص، حيث أن السلع المذكورة فيها كلها من منتوجات اليمن وتجارتها. ومن المعلوم أن التجارة مع بلاد الشام كانت بيد أهل مكة، ولم يرد ذكر لإسهام اليهود بها خاصة وأن الوضع العام يشير إلى وجوب تَوَجُّه اليهود في تجارتهم إلى دولة فارس حيث كانت لهم حرية أوسع وكانت لهم مستوطنات في البلاد التي تتبعها، وليس ببعيد أن بعض يهود المدينة كانوا يقومون بتجارة

(١) تاريخ المدينة لابن شبة ١٧٣.
(٢) أسباب النزول ٢٠٨.

الذهب فيصدِّرونه من مناجمه في مدائن صالح وفرّان وضنكان إلى دولة الفرس التي كانت بحاجة له.

ذكرت المصادر عدداً من أغنياء اليهود الذين كانوا يمتلكون ثروة نقدية، ومن أشهرهم ابن أبي الحقيق.

وكان اليهود يقومون بإقراض الأموال بالرِّبا، وقد ذكرت المصادر عدداً من المُقرضين اليهود، فذكر البكري أن القراضة كان بها جابر بن عبد الله الذي عرض نخله وثمره على يهودي بما كان على أبيه من الدين فأبوا أن يقبلوها[(١)].

إن استحواذ اليهود على المعادن الثمينة يتجلى باحترافهم دون غيرهم الصياغة. وقد ذكرنا من قبل أن زهرة كان بها قديماً ثلاثمائة صائغ، وعندما هاجر الرسول (ص) كان بنو قينقاع هم الصيَّاغ، ولا ريب في أن الصياغة قائمة على التعامل بالمعادن الثمينة، ولا يبعد أن تكون متصلة بالإقراض وتجارة الذهب.

العادات

وكانت لليهود بعض العادات والتقاليد التي تميزهم، فكانوا يسدلون شعورهم. وبذلك تميزوا من المشركين الذين كانوا يفرقون شعورهم[(٢)]، وكانوا لا يصبغون شعورهم[(٣)]، ويعزلون الحائض عن أهلها[(٤)].

وكان الزنا عندهم محرَّماً، وَحَدُّه الرجم، غير أن سريان الفساد الأخلاقي جعلهم لا يطبقونه على أشرافهم، ثم أبدلوه بالتحميم والجلد ليسري على

---

(١) البكري: معجم ما استعجم ١٠٥٦.
(٢) البخاري: مناقب ٢٣، مناقب الأنصار ٥٢، لباس ٧؛ ابن سعد ١ ـ ٢/١٤٣.
(٣) ابن حنبل ٢/٩، ١٩، ٢٤٠، ٣٠٩، ٣/٢١٠، ٢١٤، ٢٣١، ٢٨٩؛ البخاري: أنبياء ٥، مسلم: لباس ٨٠؛ ابن سعد ١ ـ ٢/١٣٤.
(٤) ابن حنبل ٣/١٣٢، ٢٤٦؛ مسلم: حيض ١٦، الدارمي: وضوء ١٠٧؛ ابن ماجة ١٢٥.

الجميع. وفي هذا يَرْوي البراء بن عازب أنهم قالوا «نجد حد الزاني في كتابنا الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا، إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحدّ، فقلنا تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمه على الشريف والوضيع، فاجتمعنا على التحميم والجلد»[١]، والتحميم هو تسخيم الوجه[٢].

وكانوا يدعون إلى الصلاة بالنفخ في بوق كالقرن[٣]، ويتوجهون فيها إلى بيت المقدس، ويصومون في العاشر من تشرين.

تنظيماتهم الدينية

ذكر القرآن الكريم ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة/ ١٠١] و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران/ ٢٣]، ولم يذكر المفسرون أساس التمييز بينهما، وهل هو قائم على مدى سعة وعمق معتقداتهم، أم أن الذين «أوتوا نصيباً من الكتاب» هم فرقة يهودية تتميز من الآخرين بإيمانها ببعض كتابهم المقدس وليس بكل هذا الكتاب؟ وعلى أي حال، فإن المصادر لم تذكر أن يهود المدينة كانوا منقسمين إلى فِرق، وإنما يدل ما ذكروه على أنهم كانوا جميعاً يتَّبعون عقيدة واحدة.

بيت المدراس والأحبار

ذكر الطبري لليهود كنيساً في المدينة يحتفلون فيه بأعيادهم ولكنه لم يحدد موقع هذا الكنيس[٤]. وذكرت المصادر بيت مدراس واحداً[٥]، ويبدو أنه كان

---

(١) ابن حنبل ٤/٢٨٦، ابن ماجة: حدود ١٠؛ أبو داود: حدود ٢٥؛ البخاري: تفسير سورة ٣، ٦.

(٢) البخاري: حدود ٤؛ ابن حنبل ٢/٥، وانظر نجا.

(٣) البخاري: آذان ١؛ ابن ماجه: آذان ١.

(٤) تفسير الطبري ٨/٢٦.

(٥) سيرة ابن هشام ٢/١٣٩، ١٩٤؛ ابن حنبل ٢/٤٥١؛ تفسير الطبري ٤/١٢٩؛ البخاري: جزية ٦، اعتصام ١٨.

المركز الرئيس، إن لم يكن الوحيد، لتجمُّعهم. يذكر ابن حنبل أن الرسول (ص) ذهب إليه عندما أراد إنذار اليهود بالخروج من المدينة[١].

ويدلُّ اسم «بيت المدراس» على أنه كان في الدرجة الأولى مركزاً للدراسات الدينية. فقد قال الأصفهاني: «كان أبو الشعثاء قد رأس اليهود التي تلي بيت الدراسة للتوراة»[٢]، وذكر ابن إسحاق أن الرسول (ص) لمّا دخل بيت المدراس وجد فيه النعمان بن عمرو، والحرث بن زيد[٣]، وعبد الله بن صوري، وأبا ياسر بن أخطب، ووهب بن يهوذا فقالوا: هؤلاء أحبارنا وعلماؤنا[٤]. ويقول أيضاً: «دخل أبو بكر الصدِّيق بيت المدراس على يهود فوجد فيهم ناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص، وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حَبْر من أحبارهم يقال له أشيع»[٥] وذكر الطبري أن أبا بكر وعمر دخلا بيت المدراس لمناقشة اليهود[٦] وكان أحبارهم[٧] يجتمعون فيه، يقرأون التوراة بالعبرية ويفسرونها بالعربية[٨].

وصف ابن إسحاق عبد الله بن صوري بأنه «كان أعلم من بقي بالتوراة»[٩] وأنه «لم يكن بالحجاز في زمانه أحد أعلم بالتوراة منه»[١٠]. ووصف عبد الله ابن سلام بأنه «كان حبرهم وأعلمهم»[١١].

ويروي الطبري عن ابن عباس أن كعب بن الأشرف، لمّا ذهب إلى مكة

---

(١) ابن حنبل ٢/٤٥١؛ تفسير الطبري ٣/٤٥؛ سيرة ابن هشام ٢/١٤٣.
(٢) الأغاني ١٦/١٥.
(٣) ابن هشام ٢/١٣٩، وانظر تفسير الطبري ٤/١٣٩.
(٤) ابن هشام ٢/١٩٤.
(٥) ابن هشام ٢/١٨٧؛ وانظر تفسير الطبري ٦/١٥٠.
(٦) تفسير الطبري ٨/٣٤٤.
(٧) تفسير الطبري ٦/١٥٠.
(٨) تفسير الطبري ٢١/٤.
(٩) ابن هشام ٢/١٩٤.
(١٠) ابن هشام ٢/١٣٦.
(١١) ابن هشام ٢/١٣٧، ١٣٩، وانظر تفسير الطبري ٢٦/٨.

يؤلب أهلها على الرسول، قالوا له: «أنت حبر أهل المدينة وسيدهم»[1]. ويروى في تفسير الآية الكريمة ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء/ ٥١]، أن الطاغوت كعب بن الأشرف، والجبت حُيي بن أخطب. وفي روايات أخرى أن الجبت كعب بن الأشرف، والطاغوت الشيطان[2].

وذكر ابن إسحاق أسماء أكثر من عشرين من اليهود كانوا يناقشون الرسول (ص)، وسمَّاهم «أحبار يهود»[3] وهم من عدة عشائر، وفيهم اثنا عشر من بني النضير منهم أولاد أخطب الثلاثة، وأولاد ابن أبي الحقيق وهم ثلاثة وذكر من قريظة سبعة عشر، ومن كل من قينقاع، وبني ثعلبة ثلاثة، وأسماء بعضهم عبرية. غير أن أغلب أسمائهم عربية[4].

ويبدو أنه كان لهم نفوذ كبير على اليهود، فيُروى أن الرسول (ص) قال: «لو آمن بي عشرة من أحبار اليهود لآمن بي كل يهودي على وجه الأرض»[5].

وكان بعض الأحبار أغنياء، ومنهم مُخَيرِيق الذي «كان حبراً عالماً، وكان رجلاً غنياً كثير الأموال»[6].

وذكر القرآن الكريم الأحبار فقال تعالى: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ [التوبة/ ٣٤] و﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة/ ٦٣]، وقال أن أهل الكتاب ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة/ ٣١] ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة/ ٤٤].

(١) تفسير الطبري ٨/٤٦٦؛ ١٩٦ ويقول الطبري إنه هوالجبت والطاغوت الذي ذكره القرآن الكريم (٨/ ٤٦٤).

(٢) تفسير الطبري ٤/ ٤٦٤.

(٣) ابن هشام ٢/ ١٣٥ _ ١٣٨؛ وانظر ٢/ ١٩١، ١٩٦؛ ابن حنبل ٢/ ٣٤٦، ٣٦٢، ٤١٦.

(٤) ابن هشام ١٩٧ _ ٩٨؛ وانظر أنساب الأشراف ١/ ٢٨٣.

(٥) ابن حنبل ٢/ ٣٤٦، ٤٦٣، ٤١٦.

(٦) ابن هشام ٢/ ١٣٦، ١٤٠.

أوضاعهم السياسية

كانت لليهود في القديم سيطرة على مقاليد الحكم في المدينة، واتخذوا لهم ملكاً يحكمها، واشتهر من ملوكها الفطيون، وكان مقامه بزهرة ومعتمداً على أهلها، ثم ثار عليه العرب وقتلوه وألغوا الملكية، واستقلت كل عشيرة بنفسها لتدير أمرها. فلما هاجر الرسول (ص) إلى المدينة كان اليهود مفككين سياسياً، تقوم كل عشيرة بنفسها، ولكل من هذه العشائر أُطُمٌ واحداً وأكثر تلجأ إليه العشيرة عند الحروب، وذكر لبعض هذه العشائر رئيس أو أكثر، ولم تؤد معتقداتهم الدينية إلى روابط سياسية أو تعاون شامل بينهم، بالرغم من أنهم كانوا يحنّون إلى استعادة مكانتهم السياسية، ويرون أن ذلك سيتم بنبي يظهر فيعيد لهم مكانتهم[1]، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة]. وأشار القرآن إلى الخصومات التي تبلغ حدّ المقاتلة بينهم ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ﴾ [البقرة/ ٨٥] ويقول ابن إسحاق: إن اليهود «كانوا فريقين: فريق منهم بنو قينقاع ولفهم حلفاء الخزرج، والنضير وقريظة ولفهم مع الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس، يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه مع إخوانه»[2]. ويلاحظ أن هذا التحالف له صلة بمواطن منازلهم، فخُطط بني قينقاع كانت قرب منازل الخزرج، وخطط النضير وقريظة كانت قرب منازل الأوس.

لم تذكر المصادر إلاّ رئيساً لبني قريظة هو «كعب بن أسعد القرظي صاحب

---

(١) ابن هشام ٢/ ١٦٦، ١٧٣.

(٢) ابن هشام ٢/ ١٦٤، وأشار ابن حنبل إلى الطائفتين من اليهود دون أن يذكر اسم أيٍّ منهما ١/ ٢٤٦؛ تفسير الطبري ١/ ٣١٤.

عقد بني قريظة»[1]، ولعل بقية العشائر كان لكل منها رئيس أو أكثر ولكن المصادر لم تذكرها.

والواقع أن الرسول عندما غزا قبائلهم الثلاث الكبرى: قينقاع والنضير وقريظة بالتتابع، لم يقم اليهود بأي عمل جدي ظاهري لإنقاذ أيٍّ من العشائر التي غزاها الرسول ثم أقصاها.

وقد دفعهم تفككهم إلى أن تَعْقِد عشائرهم محالفات منفردة مع رجال بارزين من العشائر أو مع العشائر العربية في المدينة. ولم يُذكر لهم قبل مجيء الرسول اتصال سياسي مع القوى في الحجاز، فكان بنو قينقاع حلفاء عبد الله بن أُبَيّ، ويروى أنه لمّا أراد الرسول (ص) طردهم من المدينة، قال له عبد الله بن أُبيّ «يا محمد أحسن في موالي قد منعوني من الأحمر والأسود في غداة واحدة»[2]، وكان بنو قريظة موالي سعد بن عبادة وحلفاءه في الجاهلية[3].

وهذه المحالفات مع الأشخاص تجرُّ إلى تحالف مع عشيرة ذلك الشخص، فكان بنو قريظة «حلفاء الأوس»[4]، أو حلفاء بني عمرو بن عوف من الأوس[5].

وكانت للعرب اليد العليا في هذه المحالفات، فهم الذين يقررون المواقف السياسية تبعاً لأحوالهم ومصالحهم، فكان اليهود «بطانة» للعرب[6]. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ [آل عمران/١١٨]. ولم يرد ذكرٌ لتدخُّل العشائر العربية أو رؤسائها لإسناد العشائر اليهودية علماً بأنه لم ترد أخبار لخصومات بين اليهود، ولذلك يصعب

(١) ابن إسحاق على هامش الروض الأنف ٢/١٨٩، تفسير الطبري ٢١/٨١.

(٢) وفاء الوفا ١/١٩٨.

(٣) ابن سعد ٣ ـ ٢/٣، ويقول الواحدي إن سعد بن عبادة «كان له موالٍ من اليهود كثير عددهم حاضر نصرهم» أسباب النزول ١٤٧.

(٤) ابن هشام ٣/٢٥٥، ٢٥٧؛ تفسير الطبري ١/٣١٤، ٣١٥؛ ٥/٩٧.

(٥) وفاء الوفا ١/٣١٨.

(٦) ابن هشام ٢/١٨٦، ٣/٣١.

أن نقرر مدى التعاون الخفي بين اليهود الذين كانت تجمعهم العقيدة التي يقويها رجال دينهم. ويروي الواحدي أن عبادة بن الصامت: جاء الرسول (ص) فقال له يا رسول الله إن لي موالي من اليهود كثير عددهم[1].

فالمحالفات ناجمة عن انقسام العرب، وقد زادت في هذا الانقسام وكان لها أثر في إخلال التوازن السياسي وتوسيع القلق وعدم الاستقرار. ولا ريب أن اليهود أفادوا من هذه المحالفات وحمتهم، غير أنها لم تُنْج قريظة مما حلّ بها. واليد العليا التي للعرب في المحالفات لم تمنع من أنها زادت في تفكك العرب وتفرقهم، ولم تؤدِّ إلى سياسة موحدة، فلما جاء الرسول وأيدته العرب ودانت بالإسلام، رفض اليهود متابعتهم، وأخذوا في معاداة الرسول، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة/ ١٠٩].

ما جاء في القرآن الكريم عن اليهود

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة عن اليهود وأهل الكتاب، فيها ذكر كثير من تاريخهم وأنبيائهم وعقائدهم ومواقفهم من الرسول (ص). ومعظمها يعكس عقائد ومواقف يهود المدينة الذين كان عددهم كبيراً واحتك بهم الرسول (ص). ولا ريب في أنه تشملهم الآيات التي ورد فيها ذكر «بني إسرائيل» و«يهود» و«الذين هادوا» و«هود».

فأما بنو إسرائيل، فقد ذُكروا في إحدى وأربعين آية يتصل أكثرها بموسى وتبين أنهم قومه[2]، وأنهم لم يتحمسوا في تأييده[3]، ثم أرسل إليهم المسيح[4]، وأن المسيح وداوود لعناهم بما عَصَوْا[5] وأن الله تعالى جعل لهم

(١) أسباب النزول ١٤٧.
(٢) البقرة ٧، الأعراف ١٠٥، ١٣٤ ـ ١٣٨، يونس ٩٠، طه ٨٠، ٩٤، الجاثية ١٠٦.
(٣) البقرة ٢٤٦.
(٤) آل عمران ٤٩، المائدة ١١٠.
(٥) المائدة ٧٨.

مكانة خاصة[١]، ولكنهم ضلوا. ومن مظاهر ضلالهم الخصومات الدموية التي استعرت بينهم[٢]، وإسرافُهم في القتل[٣]، وتحريفُ الكَلِم عن مواضعه، وتناسيهم بعض أحكام كتبهم[٤]، ومعارضتُهم للرسول ومقاتلته[٥] وولاء كثير منهم للكفار مع أن الأجدر أن يوالوا المسلمين[٦]. فتعبير «بني إسرائيل» تعبير عرقي يقصد به قوم موسى، والآيات التي ذكرتهم أشارت إلى موقفهم المفكك من موسى. وذكر «هود» في أربع آيات، و«الذين هادوا» في عشر آيات تُظْهر أن موقف القرآن منهم واحد، مما يدل على أنها تعابير لجماعة واحدة.

أما تعبير اليهود فقد ورد في ثماني آيات تذكر أنهم يدّعون أن يد الله مغلولة وأن عُزَيْر ابنُ اللّه. ويذكر أيضاً أن النصارى لا يَسْتَكبرون وهم أقرب مودةً للمسلمين، أما اليهود فهم أشد عداوة للإسلام[٧]، وأنهم متفرقون، يوقدون الفتنة وينشرون الفساد، ويحاولون من غير نجاح إيقاد الحرب[٨].

ويتفق اليهود والنصارى باعتقادهم الخاطىء أنهم أبناء اللّه وأحباؤه[٩] وأنهم لن يرضوا عن الإسلام حتى يتبع ملتهم[١٠]. وقد حذّر القرآن الرسول (ص) والمسلمين من أتباعهم وطلب عدم موالاتهم، ومقاطعتهم[١١]. ويلاحظ أن كافة هذه الآيات تتعلق بالعقائد والتصرف الديني والسياسي ولا تشير إلى البشر.

ومما له صلة باليهود، وكَثُر ذكره في القرآن الكريم، هو موسى: فقد ورد

---

(١) البقرة ٤٧، ١٢٢، الجاثة ١٦، يونس ٩٣.
(٢) البقرة ٨٥، يونس ٩٣، الجاثية ١٧.
(٣) المائدة ٣٢.
(٤) المائدة ١٣.
(٥) المائدة ٧١.
(٦) المائدة ٨١.
(٧) المائدة ٨٢.
(٨) المائدة ٦٤.
(٩) المائدة ١٨.
(١٠) البقرة ١٢٠.
(١١) المائدة ٥١.

ذكره في مائة وخمس وعشرين آية وخاصة في سورة الأعراف (إحدى وعشرين آية)، والقصص (ثماني عشرة آية)، وطه (سبع عشرة آية)، والبقرة (ثلاث عشرة آية)، وفي كلٍّ من الشعراء ويونس (ثماني آيات) وغافر (خمس آيات) والباقية متفرقة. وفي هذه الآيات تفاصيل عن حياة موسى وما لَقِيه من اليهود، وعصيانهم له وتزويرهم الكتاب الذي جاء به.

ذكر القرآن الكريم في عدة مواضع عدداً من الأنبياء الآخرين الذين نزلوا في بني إسرائيل.

وذُكر الزبور الذي نَزَل على داود في ثلاثة مواضع، كما وردت كلمة الزبر في سبعة مواضع[1]. وفي ما يتصل باليهود، استعمل القرآن كلمة «أهل الكتاب». فأما الكتاب، فقد ورد ذكره في مائتين وأربع وأربعين آية، بمعانٍ متعددة، منها ما قُصد به الرسالة أو الشيء المكتوب (أربعين موضعاً)، وبمعنى الكتاب الذي أُنزل على موسى (خمسة عشر موضعاً)، وأشار فيها إلى أن اليهود اختلفوا فيه وهم في شكّ منه. وورد في القرآن الكريم أيضاً ذكر التوراة في ثمانية عشر موضعاً منهم تسعة منفردة، وتسعة مع الإنجيل، وورد الإنجيل منفرداً في أربعة مواضع. غير أن عدداً كبيراً من الآيات خصّت «الكتاب» بما أنزل على الرسول (اثنان وسبعون موضعاً)، ولكن أكثر ما وُصف به الكتاب الذي نزل على الرسول هو (القرآن)، فقد ذُكر في ثمانين موضعاً كما استُعملت له تعبيرات أخرى مثل الذكر.

وذكر القرآن الكريم أن القرآن مصدق لِزُبُر الأوَّلين ولِصُحُف إبراهيم وموسى[2] وهو مُصَدِّق للكتب المقدسة السابقة[3].

وَذَكر القرآن أن الذين أُوتوا الكتاب ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة/ ١٢١] ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة، الأنعام/ ٢٠] ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد/ ٣٦].

---

(١) انظر مواضع ورودها في الآيات في الفهرس المفصل لآيات الذكر الحكيم لمحمد فؤاد عبدالباقي.

(٢) الشعراء ١٩٦.

(٣) الأعلى ١٨ ـ ١٩.

وذكر أن فريقاً من أهل الكتاب ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران/ ١٩٩]، وان من أهل الكتاب إلا ليؤمنوا به قبل موته، وأن منهم أمةً قائمة ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [آل عمران]، وأن منهم ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران/ ١١٠].

وذكر أن فريقاً من أهل الكتاب ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران]، «وكانوا يحاجون في إبراهيم[(١)] وقد نبذوا الكتاب وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً[(٢)] وهم يكفرون بآيات الله» [البقرة/ ١٠١].

وإنَّ كثيراً من أهل الكتاب يصدون عن سبيل الله من آمن يبغونها عوجاً[(٣)] وهم يودون ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران/ ١٠٩] وقد ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ [آل عمران/ ٦٩]، ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران].

وذكر القرآن في ثلاث آيات ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران/ ٢٣].

ويظهر من هذه الآيات اتصالهم بالمشركين، واشتراكهم ببعض العقائد الوثنية، وعنفهم في مخاصمة المسلمين. ويبدو من هذه الآيات أنهم كانوا فرقة دينية خاصة متفرعة من أهل الكتاب ولكن لها آراء خاصة، وتتخذ مواقف

(١) آل عمران ٨١، الأحقاف ١٢، الأنعام ٩٢.
(٢) آل عمران ٦٥.
(٣) آل عمران ٩٩.

مستقلة. فكانوا يدَّعون أن النار لا تمسُّهم إلاّ أياماً معدودات، و﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ [آل عمران/ ٢٣]. وهم ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ [النساء] ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء/ ٥١]. ومن أهل الكتاب من يكفرون بآيات الله(١).

ذكرت بعض الآيات صوراً من موقف أهل الكتاب المعادي للإسلام، فهم يَلْبِسون الحق بالباطل(٢) ويكتمون الحق ويحاجُّون في إبراهيم(٣)، ويتخذون الملائكة والنبيين أرباباً(٤)، ويطلبون من الرسول أن ينزل عليهم كتاباً من السماوات مقدساً(٥) ويحاولون صدّ من آمن عن سبيل الله(٦) ويسخرون من صلاة المؤمنين(٧) ويأكلون السُّحت والرِّبا(٨) ويحالفون الكفار ويتخذونهم أولياء(٩) وهم لا يَنْقَمون على المسلمين إلاّ أنهم موحدون.

يظهر من آيات القرآن الكريم أن موقف الإسلام من اليهود وأهل الكتاب قد تطور تبعاً لتطور مواقفهم: فقد اتُّخذت في المراحل الأولى مواقف معتدلة، وطُلب من المسلمين أن يظهروا عناصر الاتصال بينهم وبين الأديان الموحِّدة، وأن يكون الجدل بينهما هادئاً: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران] ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ

(١) آل عمران ٧٠، ٩٨، النساء ١٥٠ ـ ١٥٢؛ وانظر البقرة ١٠٥، الحشر ١/١١.
(٢) آل عمران ٧١.
(٣) آل عمران ٦٥.
(٤) آل عمران ٨٠.
(٥) النساء ١٥٣.
(٦) آل عمران ٩٩.
(٧) المائدة ٥٨.
(٨) المائدة ٦٢.
(٩) المائدة ٧٧ ـ ٨١.

ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت] ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران].

أَمَر الله تعالى الرسول (ص) أن يعفو عن كثير مما يعمل أهل الكتاب، وأمر المسلمين أن يَعْفوا ويصفحوا حتى يأتي أمر اللّه وأَمَرَهم أن يصبروا على أذى الذين أوتوا الكتاب ويتَّقوهم ثم ذكر القرآن الكريم ذلتهم وضعفهم: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ﴾ [آل عمران].

ثم طلب القرآن الكريم من المسلمين قطع الصلة بهم وعدم اتخاذهم أولياء وقال: ﴿إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران].

ثم أمر تعالى بقتالهم وإخضاعهم ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة].

الفصل التاسع

تطهير المدينة من اليهود

موقف اليهود من الهجرة والإسلام

لم يرد ذكرٌ لتدخل اليهود في اتصالات الرسول الأولى بأهل المدينة وفي بيعتي العقبة، وامتداد الإسلام إلى المدينة ثم هجرة الرسول إليها؛ ورُوي أن الرسول ومسلمي قريش جاؤوا مهاجرين إلى المدينة، محالفين للأنصار، مؤاخين إياهم؛ ولم تكن هيمنتهم على اليهود واضحة بعد.

عامل الرسول (ص) عند هجرته اليهود باللّين، محاولاً بذلك ضمهم إلى الإسلام أو كسب تأييدهم له؛ وكان يسنده في ذلك أن الدعوة الإسلامية في أساسها دعوة موحِّدة تدعو إلى عبادة اللَّه الواحد الأحد، وأن الرسول (ص) قضى السنوات الأولى من الدعوة يعمل على نشرها في مكة وبين العرب، ولم يعمل كثيراً على نشر دعوته بين أهل الكتاب. وقد نزلت منذ عهد الدعوة في مكة آيات كثيرة تؤكد أن الدعوة الإسلامية هي متابعة لدعوة الأنبياء الأولين في أهدافها ومُثُلها، فهي تكملها ولا تعارضها، وأن كثيراً مما تدعو إليه موجود في الصُحُف الأولى، صُحُف إبراهيم وموسى[1]، وأنها قائمة على كتاب اللَّه الذي

(١) الأعلى ١٩.

يكمل الكتب الأولى التي يقدسونها؛ وذكرت عدة آيات أن كتاب موسى إمام[1].

وكانت بعض الفرائض الإسلامية عند الهجرة تشبه، في مظاهرها الخارجية، الفرائض اليهودية، فكانت القبلة إلى بيت المقدس، وكان الصوم في العاشر من تشرين، يمتد من الفجر حتى ظهور النجم؛ وكان طعامهم حِلًّا للمسلمين.

غير أن هذا لم يَعْنِ تَطَابُق الدينين، إذ كان اليهود يدركون أن مبادىء الدعوة الإسلامية قديمة جدّدها الرسول، ووجّه تفاصيلها لمعالجة ما يعانيه المجتمع العربي من معتقدات متدنِّية ومراسم شرك وكفر ووثنية، وأن اعتماده الأكبر في الدعوة كان على العرب، أي أن توجُّهه مقصور على العرب وتَشُدُّه اللغة العربية.

وأشار القرآن الكريم إلى ممالأة بعض اليهود للإسلام، فقال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ اللَّهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى الْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران][2].

وقد أسلم عدد من اليهود في زمن مبكر، ومن هؤلاء أسيد بن سعية وثعلبة بن سعية، وأسد بن عبيد، وهم من بني هُدَل[3]. ويذكر ابن إسحاق ممَّن أسلم بالإضافة إلى هؤلاء أيضاً عبد الله بن سلام ومخيريق «وجماعة غيرهم»[4]. غير أن عدداً منهم لم يبق مخلصاً للإسلام ودولته. وفي هذا يقول الطبري: «كان ناس من اليهود قد أسلموا ونافق بعضهم»[5].

غير أن عامة اليهود وقفوا بمعزل عن الإسلام، ولم يتعاونوا مع الرسول،

---

(١) الأحقاف ١٢، هود ١٧.

(٢) ابن هشام ١/ ٢٢٢، ٢/ ١٨٥.

(٣) تفسير الطبري ٨/ ٤٤٥ (طبعة محمود محمد شاكر، التحفة اللطيفة ١/ ٢٨٩).

(٤) ابن هشام ٢/ ١٨٥.

(٥) تفسير الطبري ٨/ ٥١٠ طبعة محمود محمد شاكر.

ولم يشاركوا في أي عمل قام به، وإنما، بالعكس، أخذ عدد من رجالهم البارزين يناقشون الرسول ويجادلونه، ويحاولون إحراجه والدّس عليه، فكانوا مصدر خطر على تثبيت سلطة الإسلام، وعلى الاستقرار في المدينة، بما يثيرونه من الجدل، وما يزرعونه من الشكوك، فكان لا بد من اتخاذ إجراءات حاسمة للردّ عليهم.

اتّخذ الرسول (ص)، إزاء مواقف اليهود العدائية، عدة تدابير، فأمر الصحابة أن يُفرِّقوا شعورهم، وأن يصبغوا لحاهم وشعورهم ليخالفوا اليهود الذين كانوا لا يصبغون[1]، كما أمر الصحابة أن لا يبدأوا اليهود بالسلام، وأن يكون جوابهم إذا سلَّم عليهم اليهود هو: «عليكم». ثم تحولت القبلة إلى مكة فقطع تحويلها حجة كان اليهود يستغلونها، ثم فَرَض صوم رمضان وأبطل صوم عاشوراء، وأوعز بقتل العصماء بنت مروان وابن الأفكل، وكانا مغالبين في التأليب على الإسلام.

بدأت مظاهر الخلاف منذ أواخر السنة الأولى، فلما تحولت القبلة في الشهر الرابع عشر من الهجرة، كان الخلاف قد تعمَّقت أسسه واتسعت مظاهره. ويذكر ابن إسحق أنه، بعد تحويل القبلة، «نَصَبَتْ عند ذلك أحبار يهود لرسول اللّه (ص) العداوة بغياً وحسداً وضغناً لِما خصَّ اللّه تعالى به العرب من أخْذِه رسولَهُ منهم، وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ممن كان عسى على جاهليته، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيبَ بالبعث، إلاّ أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه واتخذوه جُنَّةً من القتل ونافقوا في السرِّ، وكان هواهم مع يهود لتكذيبهم النبي (ص). وكانت أحبار يهود هم الذين يسألون رسول اللّه (ص) ويتعنتونه ويأتونه باللبَّس ليلبسوا الحق بالباطل. فكان القرآن ينزل فيهم فيما يسألون عنه، إلاّ قليلاً من مسائل الحلال والحرام كان المسلمون يسألون عنها»[2].

---

(١) ابن سعد ١ ـ ٢/ ١٣٤، ابن حنبل ٢/ ٢٤٠.
(٢) ابن هشام ٢/ ١٣٥.

أورد كل من ابن إسحق والبلاذري قائمةً بأسماء اليهود الذين كانوا يناقشون الرسول (ص)، وكلهم تقريباً من العشائر اليهودية الثلاث الكبرى وهي قينقاع، والنضير، وقريظة، والقائمتان تتطابقان تقريباً، غير أن ابن إسحق نسب عدداً منهم إلى قينقاع، بينما نسبهم البلاذري إلى النضير.

ذكر ابن إسحق من بني قينقاع أسماء سبعة عشر يهودياً كما ذكر سبعة آخرين نَسَبَهُم البلاذري إلى بني النضير. وذكر أسماء سبعةٍ دخلوا الإسلام وهم منافقون. وهؤلاء اليهود مُنَوَّعون، ومنهم عدد كبير يحمل أسماء عربية.

أما بنو النضير، فذكر ابن إسحق أسماء تسعة منهم وأضاف إليهم البلاذري سبعة. وأبرز هؤلاء اليهود ثلاثة إخوة من أولاد أخطب، وأربعة من أولاد أبي الحقيق. ولم يذكر أحداً منهم أسلم ونافق[1].

أما بنو قريظة، فقد ذكر البلاذري منهم ثمانية[2]، وأضاف ابن إسحق إليهم ستة. وانفرد البلاذري بذكر خمسة آخرين، أي أن البلاذري ذكر ثلاثة عشر وذكر ابن إسحق أربعة عشر. ويُلاحظ أن ستة منهم كانوا إخوة من أولاد زيد.

وأكثر من ذُكروا من اليهود كانوا يناقشون الرسول، وقد نزلت فيهم آيات ذكرها ابن إسحق، كما ذكرها كثير من كتب التفسير.

كشف اليهود بهذه المواقف معارضتهم للإسلام، وعملهم على التربُّص به، والوقوف بوجه نشره، وعرقلة إقامة دولته وتثبيت أركانها، فكان لا بد من اتخاذ مواقف حازمة تجاههم.

طرْدُ بني قينقاع

كانت منازل بني قينقاع على مسافة غير بعيدة من مسجد الرسول (ص)، في جنوبه الشرقي عند جسر بطحان الذي يمر منه الطريق إلى قباء ومنازل الأوس، ويبلغ عدد رجالهم سبعمائة، أي أنهم كانوا حوالي ثلاثة آلاف وخمسمائة،

---

(١) ابن هشام ٢/ ١٣٧ ـ ٩؛ البلاذري: أنساب الأشراف ١/ ١٨٥.
(٢) أنساب الأشراف ١/ ٢٨٥.

وكانوا يمتهنون الصياغة ولعلهم كانوا يقومون أيضاً بـ «الصيرفة»، وإقراض الذهب. ولم يرد في الأخبار ذكر لمزارع امتلكوها، الأمر الذي يدل على عدم احترافهم الزراعة، وكان يقام في منطقتهم عند جسر بطحان سوق من أشهر أسواق المدينة[١].

وكان من بني قينقاع عدد كبير ممن أكثر من مناقشة الرسول (ص) ومجادلته، وقد عدّد ابن إسحق أسماء واحد وعشرين منهم[٢]، وهو أكبر عدد من أية عشيرة يهودية أخرى، وأسلم منهم أربعة ولكنهم ظلوا منافقين يجادلون الرسول. وقد نزلت عدة آيات يقول المفسرون إنها في رجالهم[٣]، ولعل إثراءهم من حرفتهم، وقُرب مساكنهم من مقام الرسول (ص) والمهاجرين أثّر في ازدياد احتكاكهم بالرسول.

كان بنو قينقاع، قبل الإسلام، حلفاء عبد الله بن أُبيّ وعبادة بن الصامت[٤] وهما رئيسا عشيرة بلحبلى التي كانت منازلها قريباً منهما، ولم تذكر المصادر محالفتهم لأية عشيرة يهودية، فلما قَدِم الرسول (ص) وأخرجهم من المدينة لم تقم باحتجاج، ولعل لموقع منازلهم، وكثرة المتعصبين المناهضين للإسلام منهم، وشدة تحرشهم بالرسول (ص)، أثراً في ابتداء الرسول بهم.

قام الرسول بمقاتلة بني قينقاع في شوّال من السنة الثانية للهجرة بعد شهر من انتصاره في موقعة بدر.

ويروي ابن إسحق أن الحادث الذي دفع الرسول لقتالهم هو أن «امرأة من العرب قَدِمت بجُلْبٍ لها فباعته بسوق قينقاع وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من

---

(١) وفاء الوفا ١/١٩٨، ٢/٤٤٦ ـ ٧؛ تاريخ المدينة لابن شبة ٢٠٥، ٣٠٦.

(٢) ابن هشام ٢/٢٤ فما بعد.

(٣) تفسير الطبري ٨/٨٢٦، ويروي ابن سعد أن من أبرز من أسلم مخيريق الذي وهب الرسول أمواله.

(٤) ابن هشام ٢/٤٢٧، تفسير الطبري ٦/١٧٨، ١٨٦.

المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهودياً، فَشَدَّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع[1]. ولا ريب في أن هذه الحادثة كانت المبرر لإنهاء أوضاع ترجع إلى أزمة أقدم وأمور أوسع.

وعندما تقدم الرسول (ص) والمسلمون للقتال انكفأ بنو قينقاع إلى حصونهم لتحميهم، فحاصرهم الرسول (ص) خمسة عشر يوماً لم يتقدم أحد لإنجادهم، فاضطروا إلى النزول على حكمه، وتدخل عبد الله بن أُبَيّ لتخفيف الحكم عليهم، فقرّر الرسول أن يخرجوا من المدينة بعد ترك أملاكهم فغادروها إلى أذرعات ولم يسمع لهم بعد ذلك خبر[2].

كشف تدخل عبد الله بن أُبيّ في أمر بني قينقاع خطر وجود المحالفات بين العرب واليهود، فأمر القرآن الكريم بإلغاء مثل هذه المحالفات، ونزلت الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [المائدة] ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة].

النضير

كانت منازل بني النضير على مذينيب[3] وهو وادٍ صغير يصب في بطحان جنوب شرقي المدينة، وأراضيهم متصلة بقباء ومنازل الأوس، ولهم عدة آبار،

(١) ابن هشام ٢/٤٢٧، تفسير الطبري ٦/١٧٨، ١٨٦.
(٢) ابن هشام ٢/٤٢٧، وفاء الوفا ١/١٩٨.
(٣) وفاء الوفا ١/١١٣، ٢/٣٢، ٢١٦.

وقد شيّدوا في أراضيهم عدة آطام منها: فاضجة، ومنوز، وبرج، والبوير[1] ومن رجالهم حييّ بن أخطب، وسلام وحيي ابنا أبي الحقيق، وكلاهما من أعيان يهود المدينة، وقد عُرفا بمقاومتهما للرسول (ص) ومعارضته، ولعل كلاً منهما جمع ثروته من التجارة والإقراض، وكانا حلفاء لغطفان[2].

يذكر ابن إسحق أن سبب غزو الرسول (ص) لبني النضير هو أنه جاءهم مع بعض الصحابة يستعينهم على دفع دِيَة اثنين من بني عامر قتلهما أحد المسلمين خطأً، فأمهلوه للتشاور فيما بينهم، وشعر الرسول بأنهم ينوون قتله، فترك منازلهم وأمر بتجهُز المسلمين لقتالهم، وحاصرهم ستة أيام، ثم أمر بقطع نخلهم وتحريقه، ولم يتقدم أحد لنجدتهم ومساعدتهم، فاضطروا إلى قبول التسليم، ووافق الرسول (ص) على أن يَجْلُوا عن المدينة، ويأخذوا كافة أموالهم المنقولة دون السلاح، فخرجوا باحتفال معهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن خلفهم[3]، وذهبوا إلى خيبر وبعضهم إلى الشام. وقد لقوا من أهل خيبر الترحيب، وقام بعض رؤسائهم وخاصة حُييّ بن أخطب وسلام بنشاط «دبلوماسي» في التحريض على الرسول (ص) والإعداد لحرب الخندق، وظلوا في خيبر إلى زمن خلافة عمر (رض) حين أجلاهم إلى تيماء وأريحا.

وقد حاول بنو النضير، عندما غزاهم الرسول (ص)، الاستعانة بحلفائهم. ويروي ابن إسحق قائلاً: «قد كان رهطٌ من بني عوف بن الخزرج، منهم عدو اللّه عبد الله بن أُبيّ بن سلول، ووديعة، ومالك بن أبي قوتل، وسويد وداعس، قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنَّعوا فإنَّا لن نسلِّمكم: إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخْرِجتم خرجنا معكم»[4].

---

(١) وفاء الوفا ١/١١٤، ٢/٣٥٤، ٣٧٩.
(٢) ابن سعد ٢ ـ ١/٤١، ١٢.
(٣) ابن هشام ٣/١٩٣ ـ ٤؛ ابن سعد ٢ ـ ١/٤٧؛ تفسير الطبري ٨/٤٤٩؛ وانظر ابن حنبل ٢/ ١٤٩.
(٤) ابن هشام ٣/١٩٢، وانظر ابن سعد ٢ ـ ١/٤١.

ويذكر ابن سعد أن عبد الله بن أُبيّ وَعَدَهم إذا قاوموا الرسول (ص)، أن يمدَّهم، وأن قريظة وغطفان ستمدّانهم[١]، غير أنهم لم يتلقوا معونة من أيٍّ من هذه العشائر، ولا بد أن عزلهم كان بفضل مبادرات قام بها الرسول (ص) ولم تذكرها المصادر. وعلى أي حال، فإن استسلامهم لم يتمَّ إلا بعد أن قطعوا الأمل من أية مساعدة ولحقوا بخيبر[٢]؛ وأسلم منهم رجلان هما يامين بن كعب، وأبو سعد بن وهب[٣].

لا ريب في أن قطع نخيلهم وحَرْقها كان من أهم أسباب استسلامهم، وهو عمل لم يكن من سنن العرب قبل الإسلام، وقد أشار القرآن إليه بقوله ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الحشر].

تم استسلام بني النضير بعد حصار قصير لم يجرِ خلاله قتال، ولذلك لم تعتبر أراضيهم غنيمة توزع على المقاتلين، وإنما اعتُبرت فيئاً يوزعها الرسول كما يرتأي، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر/٦].

اعتُبرت أراضي بني النضير خالصةً للرسول فجعلها حِصصاً لنوائبه ولم يخمِّسها ولم يُسهم منها لأحد، وكان ينفق منها على أهله، وما بقي جعله في الكراع والسلاح في سبيل اللّه، وسنفصل تقسيم أراضيهم في الفصل الذي سنكتبه عن الموارد.

---

(١) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٤١.
(٢) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٤١.
(٣) ابن هشام.

قريظة

كانت منازل قريظة في الأطراف الجنوبية الشرقية من المدينة، بالقرب من منازل بني حارثة، ويبلغ عدد رجالهم ستمائة أو سبعمائة، والمُكْثر لهم يقول: بين الثمانمائة والتسعمائة. وقد وُجِد في حصونهم ألفٌ وخمسمائة سيف، وثلاثمائة درع، وألْفَا رمح، وألف وخمسمائة ترس وجحفة[١].

كانت خطط قريظة على وادي مهزور، وعندها يخرج وادي مذينيب فيسقي أراضي بني أمية بن زيد[٢]؛ وتقع ديارهم جنوب حرة واقم التي تُسمى حَرَّة بني قريظة. واشتهرت بالموقعة التي حدثت فيها زمن خلافة يزيد[٣].

وكانت لهم عدة آطام منها: أُطم الشجرة الذي بُني في موضعه مسجد، وأُطم المعرص الذي كانوا يلجأون إليه إذا فزعوا[٤].

وكانت لهم عدة آبار ومزارع منها بئر أنا الذي أقام فيه الرسول (ص) عندما حاصر بني قُريظة؛ وكذلك شطحان والدومة والقصر وبعاث، وكانت لهم مقبرة دُفن فيها بعد الإسلام أبو محصن[٥].

كانت قريظة أقل مرتبة من بني النضير في الشرف[٦]. وهي مكونة من عشيرتين رئيسيَّتين هما كعب وعمرو[٧]، غير أن لهم رئيساً واحداً هو كعب بن

---

(١) ابن سعد ٢ ـ ١/٥٤؛ ابن هشام ٣/٢٣٦.
(٢) ابن سعد ٤ ـ ١/٥٤. وفاء الوفا ١/١١٢، ٢١٦؛ معجم البلدان ١/٦٦٢، ٢/٢١٦، ٤/٧٠١؛
(٣) ابن هشام ٣/٢٣٦؛ نسب قريش لمصعب الزبير ١٢٧؛ تفسير الطبري، وفاء الوفا ٢/٨٩.
(٤) وفاء الوفا ١١١، ٨، ٣، ٣٤٢.
(٥) وفاء الوفا ١/١١٥، ١٢٢، ١٢٥، ٢٥٦؛ معجم البلدان ١/٧٠، ٢/١٢٣.
(٦) تفسير الطبري ١٠/٥١٠.
(٧) ابن هشام ٣/٢٦٢، ٤٦٤.

أسد «صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان قد وادَعَ رسول الله على قومه وعاقده على ذلك[١]. وهم إخوة بني هُدل يقيمون معهم[٢]. وكانوا في الجاهلية حلفاء موالي سعد بن معاذ الأشهلي[٣]. أما عند الهجرة فقد صاروا حلفاء بني عمرو بن عوف[٤].

ذكر ابن إسحق عدداً من رجال بني قريظة الذين كانوا يقاومون الرسول (ص) ويدسّون على الإسلام. وممن ذكرهم: الزبير بن باطا، وعزال بن سموأل، وكعب بن أسد، وشمويل، والنحام، ووهب وعدي وكردم أولاد زيد، وجمل بن عمرو، وقردم بن كعب، وأبو نافع وابنه نافع، والحرث بن عوف، وأسامة بن حبيب، ورافع بن زميلة، وجمل بن أبي قشير، ووهب بن يهوذا[٥].

ويروي موسى بن عقبة عن ابن عمر أن قريظة ساعدت بني النضير عندما حاربها الرسول، فلما انتصر على بني النضير أجلاهم، ومنّ على بني قريظة فأبقاهم[٦]. ويذكر ابن سعد أنه كان بينهم وبين الرسول (ص) عهد[٧]، والراجح أن هذا العهد تم بعد انتصار الرسول على بني النضير.

ولما حاصر المشركون من قريش وحلفائهم المدينة في غزوة الخندق، ولم يُفلحوا في التغلب على المسلمين، وحاول أبو سفيان القيام بعمل دبلوماسي لإضعاف المسلمين، وسأل بني قريظة أن ينقضوا عهدهم للرسول (ص) ويكونوا مع المشركين، فوافقت بنو قريظة بعد تردد.

---

(١) ابن هشام ٣/٢٣٦.
(٢) ابن هشام ١/٢٣٢.
(٣) ابن هشام ٣/٥٥٥، ٥٧.
(٤) ابن سعد ٤/٥٤٨.
(٥) ابن هشام.
(٦) البخاري ٦٤ ـ ١٥؛ وفاء الوفا ١/٢٢١.
(٧) ابن سعد ٢ ـ ١، ٤٨، ٥١، ٥٥؛ ابن هشام ٣/٢٣٦.

وكان لعملهم هذا وقع نفسي خطير على المسلمين فقد «نجم النفاق، وفشل الناس، وعظم البلاء، واشتد الخوف، وخيف على الذراري»[1]. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب/ ١٠] وكان وقع هذا على بني حارثة أشد، حيث كانت منازلهم قريبة من بني قريظة فهي أكثر المناطق تعرضاً للخطر.

ولم تقم قريظة بعمل مؤثِّر في سير الحرب، كما أن المشركين لم يستغلوا انضمام بني قريظة إليهم لتحويل منطقة القتال إلى جنوبي المدينة، فظل الميدان الرئيس للقتال في منطقة الخندق شمالي المدينة، وزاد الخطر الجديد في حماسة المسلمين للقتال، وأفلحوا في إرغام المشركين على قطع الأمل بالانتصار وإلى إنهاء ذلك الحصار على المدينة والانسحاب منها.

وحالما تخلص الرسول (ص) من خطر المشركين، تقدَّم إلى بني قريظة. ويروي ابن إسحاق أن الرسول (ص) خرج إليهم وحاصرهم أربعة عشر يوماً أدركوا خلالها عدم جدوى المقاومة، ورضُوا بتحكيم سعد بن معاذ في مصائرهم، بالرغم من أن أبا لبابة ألمح لهم بأن سعداً سيحكم بقتلهم؛ وأيّد الرسول (ص) حُكمَ سعدٍ بقتل مُقاتِلَتِهم وسَبْي ذراريهم؛ ثم أمر بنقلهم إلى أحجار الزيت في شمال مسجد الرسول (ص)، فَقَتَل مُقاتِلَتَهم، وعددهم ما بين ستمائة وثمانمائة، وسبَى نساءهم، وباع ذراريهم ممن لم تَجْرِ عليه الموسى في نجد[2].

وقد علق على ذلك ابن هشام: «وحدثني أبو عبيدة عن أبي عمر والمدني قال: لما ظفر رسول اللّه (ص) ببني قريظة، أخذ منهم نحواً من أربعمائة رجل

---

(١) ابن سعد ٢ ـ ٤٨/١.

(٢) ابن هشام ٣/ ٤٥٢ ـ ٤.

من اليهود، وكانوا حلفاء الأوس على الخزرج، فأمر رسول اللّه (ص) بأن تُضْرب أعناقهم، فجعلت الخزرج تضرب أعناقهم ويسرهم ذلك؛ فنظر رسول اللّه (ص) إلى الخزرج ووجوههم مستبشرة، ونظر إلى الأوس فلم ير ذلك فيهم، فظن أن ذلك للحلف الذي بين الأوس وبين بني قريظة، ولم يكن بقي من بني قريظة إلا اثنا عشر رجلاً فدفعهم إلى الأوس، فدفع إلى كل رجلين من الأوس رجلاً من قريظة»[١].

ذكرت كتب الحديث تلميح أبي لبابة لهم بمصيرهم، وحُكم سعد بن عبادة عليهم[٢]. غير أن ابن إسحاق انفرد بالقول بقتل كافة مقاتلتهم. وقد أشار عروة بن الزبير إلى خبر قتلهم وقال فيه: «زعم بعض الناس»[٣].

ونقل موسى بن عقبة عن ابن عمر أن الرسول (ص) «قتل رجالهم وقسم نساءهم[٤] وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا برسول اللّه (ص)، فأمَّنهم وأسلموا».

أما أبو عبيد فقال: «قتل منهم كذا وكذا، دون أن يحدد عدد من قتل، إلا أن ناشر كتاب الأموال أشار في الهامش إلى أن النسخة الشامية من كتاب الأموال تذكر أن عدد من أمر الرسول (ص) بقتلهم من بني قريظة كانوا ثلاثة وأربعين[٥].

وذكر الواقدي أنهم أرادوا أن يستسلموا على شرط بني النضير، وهو الخروج من المدينة بعد تسليم أسلحتهم وأملاكهم[٦]، وأن الأوس أرادت أن

---

(١) ابن هشام ٣/ ٢٥٤ ـ ٢٥٦؛ وانظر ابن سعد ٢ ـ ١/ ٥٤ (ولم يذكر مسنده في خبر القتل).

(٢) انظر البخاري: جهاد ١٠٨٦، ٢٦، مغازي ٢٠، مناقب الأنصار ٢؛ مسلم: جهاد ٦؛ ابن حنبل ٣/ ٣٢، ٧٦؛ ٦/ ٣١٢.

(٣) المغازي ٨١٨.

(٤) ابن حنبل ٢/ ١٤٩.

(٥) الأموال ١١٠.

(٦) المغازي ٥٠١.

يعاملوا كذلك[١] وأن أبا لبابة حذَّرهم من المصير المنوي لهم وهو القتل[٢]، وحكم سعد بن معاذ بقتل مُقاتِلَتِهم. ويذكر أيضاً أن السبي سيقوا إلى دار أسامة بن زيد والنساء والذرية إلى دار ابنة الحرث. ويذكر عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم أنهم كانوا ستمائة[٣]. غير أن في كلامه عن قتلهم اضطراباً، فهو يذكر أنهم سيقوا إلى «السوق ما بين موضع دار أبي الجهم العدوي إلى أحجار الزيت بالسوق فكانوا يخرجون رَسَلاً رَسَلاً تُضرب أعناقهم[٤]. غير أنه يذكر أيضاً قائلاً: «قال النبي أحسنوا إسارهم وقيِّلوهم وسيقوهم حتى يبردوا فقيلوا من بقي لا تجمعوا عليهم حر الشمس وحر السلاح». ويذكر أنه قتل الرؤساء «ثم قال لسعد بن معاذ عليك بمن بقي فكان سعد يخرجهم رَسَلاً رَسَلاً يقتلهم[٥].

ولكنه يقول أيضاً إن الرسول وزَّع اثنين على كل من عبد الأشهل، وظفر، وعمرو بن عوف، وأمية بن زيد[٦]. وعددهم ثمانية فقط ويقول إن السَّبيَ من النساء والصبيان كانوا ألفاً، وأن الرسول (ص) وزع عدداً من نسائهم على المسلمين، واصطفى ريحانة[٧].

ناقش بركات أحمد في الفصل الرابع من كتابه «محمد واليهود» موضوع مصائر بني قريظة وقدَّم أدلة مقنعة في التشكيك بقبولهم تحكيم سعد بن معاذ، وقتل كافة مقاتلتهم، وهو يرى أن عملهم الخياني لم يكن بالحجم الذي يقضي بإفرادهم في حكم قتل كافة مقاتلتهم، وأن الرسول (ص) لم يقم بمثل هذا

---

(١) المغازي ٥١٠.
(٢) المغازي ٥٠٦.
(٣) المغازي ٥١٢ ـ ١٣.
(٤) المغازي ٥١٣.
(٥) المغازي ٥١٦.
(٦) المغازي ٥١٥.
(٧) المغازي ٥٢٣.

العمل تجاه غيرهم ممن كانوا أشد عناداً في مقاومة الإسلام، علماً بأن الرسول (ص) كان معروفاً بالتسامح واللين تجاه خصومه إذا استسلموا، وهو يرى أن عدد من تم قتلهم لا يتجاوز بضعة عشر. والواقع أن مجرى الأحوال لا يؤيد ادعاء ابن إسحاق بأن الرسول أقرّ قتل كافة مُقاتِلَتِهم، علماً بأن اثنتين من زوجات الرسول التسع كانت لهما صلة ببني قريظة، وهما ريحانة بنت زيد وقد تزوجها بعد اسلامها(١)؛ وصفية بنت حُييّ بن أخطب زعيمهم، وقد تزوجها بعد إخضاعه خيبر(٢).

أنكر وليد عرفات خبر قتل الرسول (ص) بني قريظة بعد استسلامهم في مقال بعنوان: «ضوء جديد على قصة بني قريظة واليهود من المدينة»، نشره في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية (م ٢، ١٩٧٦)، وأورد في ذلك أدلة منها: أن أول من دوَّن الخبر هو ابن إسحاق (ت ١٥٠) الذي اعتمد فيه على رواة من رجال أصلهم من بني قريظة، أو من أحفاد سعد بن عبادة. وأن القرآن الكريم أشار إلى قتل وأسر رجال منهم في القتال. ولم يشر إلى قتل أسراهم؛ وأن الإسلام يعاقب الأفراد الذين قاموا بأعمال ضده، ولا يعمم العقاب على من لم يُسهم بالعداء، وذلك وفقاً للآية الكريمة ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام/ ١٦٤]، كما أن الأسرى يُفدون أو يطلق سراحهم، وأنه لا يوجد في خطط المدينة إشارة إلى الخندق الذي يزعم ابن إسحاق أن المسلمين حفروه لبني قريظة من المدينة وقتلوهم فيه، وأن الفقهاء المسلمين لم يشيروا إلى الحادث أو يتخذوه سابقة، وإنما يشير ابو عبيد في كتاب «الأموال» إلى أن الأوزاعي اعترض على محاولة عبد الله بن علي والي العباسيين في الشام على محاولته تهجير أهل قبرس. وقال: لا يحل عقاب الكثير بجريمة القليل؛ ولم تذكر الأخبار من أسماء من قتل غير من قاموا بنشاط عنيف ضد الإسلام، وكيف يمكن وضع العدد الكبير من رجالهم من بيت امرأة من بني النجار وهو لا يتسع

(١) ابن هشام ٣/ ٣٨١، ٢٦٣؛ ابن سعد ٨/ ٩٢ ـ ٩٣.
(٢) ابن هشام ٣/ ٣٨١، ٣٨٨؛ ابن سعد ٨/ ٨٥ ـ ٩٢.

لمثل هذا العدد الكبير. وقد أشار إلى بقائهم في المدينة كل من ابن حزم[١]، والواقدي[٢].

ويرجّح عرفات أن القصة تعكس خبر قتل الرهبان اليهود من المسدة. ذكرت المصادر بعد إقصائهم «مقبرة بني قريظة»[٣] وبرز منهم بعد الإسلام رجال اشتهر منهم محمد بن كعب القرظي، وعلي بن عبد الله بن رفاعة وعبد الرحمن بن الزبير[٤]. وروى ابن إسحاق عن بعض بني قريظة[٥].

مصير بقية اليهود

يقول ابن هشام: ان ثعلبة بن سعيد وأسعد بن سعيد وأسد بن عبيد، وهم من بني هدل ليسوا من قريظة ولا النضير، وهم بنو عم القوم أسلموا تلك السنة التي نزل فيها الرسول (ص)[٦]. ولعل كافة بني هدل أسلمت بعد ذلك.

وأشارت المصادر إلى عدد من اليهود بقوا في المدينة، فذكر ابن سعد أن الرسول (ص) عندما خرج إلى الحديبية، شَقَّ ذلك على من بقي من يهود»[٧]. ويروي ابن حنبل بسند عن أبي إمامة أن الرسول (ص) قال يوم فتح مكة: «من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين، وله ما لنا، وعليه ما علينا»[٨].

ويذكر ابن هشام أن ناساً من المنافقين كانوا يجتمعون في بيت سويلم قبيل حملة تبوك[٩]. ويروي موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر أنه قال: «أجلى رسول اللّه (ص) يهود المدينة كلهم: بنو قينقاع وهم قوم عبد الله بن سلام،

---

(١) الأنساب ١٤٠.
(٢) المغازي ٦٣٤، ٦٨٤.
(٣) تاريخ المدينة لابن شبة ٧٠، وفاء الوفا ٢/ ٢٧٩.
(٤) التحفة اللطيفة ١٢٧.
(٥) ابن هشام ٢/ ١٩٤.
(٦) ابن هشام ٣/ ٢٢٦.
(٧) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٧٧.
(٨) ابن حنبل ٥/ ٢٥٩.
(٩) ابن هشام ٤/ ١٧١.

ويهود بني حارثة وكل يهودي كان بالمدينة[1]. ولم يحدد زمن إجلائهم الذي قد تؤيده رواية ابن حنبل أن «عمر بن الخطاب أصاب أرضاً من يهود بني حارثة يقال لها ثمغ»[2].

أما أهل الشوط فلا نعلم متى أُجْلوا. غير أن أُطُم الشوط، وهو من آطامهم، صار فيما بعد لبني جُشَم من الأوس[3].

يقول ابن سعد أن بني الفطيون من حلفاء الأوس من الأنصار دعوتهم من الديوان من بني أسلم بن زيد أو بني أمية بن زيد آخر دعوى الأنصار[4]. ويذكر ابن حبيب أن الرسول (ص) أجلى بني الفطيون من غير قتال فلحقوا بالشام[5]. ويذكر ابن سعد أن عمرو بن الحكم من ولد الفطيون حلفاء الأوس[6]. وقد شهد بعض ولد الفطيون بدراً ومنهم أبو المقشعر[7]، واستشهد بعضهم يوم اليمامة[8].

---

(١) ابن حنبل ٢/١٤٩.
(٢) ابن سعد ٥/٢٠٧.
(٣) وفاء الوفا ٢/٣٢٨.
(٤) ابن سعد ٥/٥٠٧.
(٥) المحبر ١١٤.
(٦) ابن سعد ٥/٢٠٧.
(٧) الاشتقاق ٤٣٦.
(٨) مسلم ٣٢ ـ ٦١؛ ابن حنبل ١/١٤٩.

القسم الثالث

الجهاد واستخدام السلاح

- الجهاد واستخدام السلاح
- المعارك الكبرى
- حصار المدينة: معركة الخندق
- صلح الحُدَيْبِيَة
- إخضاع المستعمرات اليهودية في الشمال
- الأحوال السكانية في أواسط الحجاز
- امتداد الاسلام في أواسط الحجاز
- اسلام عشائر أواسط الحجاز



الفصل العاشر

الجهاد واستخدام السلاح

تدرّب العرب على القتال

لم تكن في شبه جزيرة العرب، عند ظهور الإسلام، سلطة مركزية عليا تُثبّت الأمن والاستقرار، وتهيمن على القبائل، وتفرض عليها الخضوع للنظام، وتحلّ الخلافات التي قد تنشب بينها، لذلك كان القتال أمراً محتوماً في تلك البيئة المعرَّضة لأخطار القحط والمَحْل والمجاعات التي تهدد حياتهم. وكانت الغارات والغزوات تنشب بين القبائل للحصول على الغنائم، أو الاستيلاء على المراعي والآبار والأراضي الخصبة أو للدفاع عن النفس. كما أن بعض الغزوات تُشنّ لإخضاع القبائل الأخرى، أو لإعلاء اسم الرئيس أو الفارس الذي يقوم بها.

أدّت هذه المقاتلات الكثيرة إلى أن يكون البدوي، هو وكافة أفراد قبيلته، مستعدين للقتال، لأن حالة الحرب كانت سائدة في الجزيرة، وكان كل فرد يُعتبر عدواً لكافة الأفراد والقبائل الأخرى، التي لا ترتبط مع قبيلته بحلف. لذلك كانت حياته مهددة بالأخطار، وأملاكه معرضة للنهب، وكان عُرضة للهجوم والاعتداء إلاّ في الأشهر الحُرُم حيث تقوم هدنة لا يحل فيها القتال. ولم يكن يحمي الفرد في ذلك المحيط غير قبيلته. والواقع أن مصلحة أفراد القبيلة كانت متبادلة، فالفرد جزء من القبيلة، وقوته هي قوة للقبيلة، ودفاعه عن

قبيلته هو بالتالي دفاع عن نفسه. فكان لا بد له من أن يتمسك بقبيلته، وكان لا بد أن يكون كافة الأفراد مستعدين للقتال وأن تكون القبيلة كلها في حالة حرب دائمة، واستعداد مستمر للقتال.

غير أن الحروب البدوية كانت تهدف إلى الغزو أو الدفاع أو الثأر، فهدفها دنيوي محدود، والحماسة فيها غير قوية، وكانت تعتمد على سرعة الحركة أي على الكرّ والفرّ، وقلّما يجري فيها قتال طويل ثابت.

الجهاد الإسلامي

حاول الإسلام الإفادة من حب القتال عند العرب وتدريبهم العسكري، وعَمِل على تنظيمها واستخدامها لإعلاء كلمة اللّه، وتعزيز الدولة، وحماية المجتمع، أي أنه جعل غرضه جمع العرب وتكتيلهم وتوجيههم نحو هدف سام واسع، فَمنَعَ القتال بين المسلمين ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات].

وجعل الإسلام القتال في سبيل اللّه، أي لغرض ديني، جهاداً مقدّساً وواجباً دينيًّا لخدمة مثل أعلى، وفي سبيل اللّه ربّ العالمين، واللّه الأحد الذي دينه دين الحق، فالجهاد في الإسلام من أجل الحق والعدل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء]، ولما كان القتال في سبيل اللّه، فإنّ اللّه العلي القدير ينصر الذين يقاتلون في سبيله مما يضفي على المقاتِلَة مصدراً لتقوية معنوياتهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد]؛ ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ

وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال] ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنفال].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال]، ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران]، ثم أن الذي يقتل في سبيل الله يكون شهيداً يرضى الله عنه ويرزقه رزقاً حسناً ويدخله جنات النعيم.

﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ [النساء] ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة] ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران].

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [محمد].

تأثرت أساليب القتال في الإسلام بالغايات والأغراض الجديدة، فلم تعد

قائمة على مجرد الكرّ والفرّ، وإنما أصبحت تجري بنظام يتطلب ثباتاً واستقراراً وتعاوناً؛ وفي القرآن آيات تبين الأساليب المطلوبة ويتبين منها بعض التعديلات التي أُدخلت عليه فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال]. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف]؛ وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال].

ثم إن الحروب الإسلامية أصبحت جزءاً من السياسة العامة للدولة، وتتأثر بطابعها حيث السيادة للّه، والسلطة للرسول الذي تَجب طاعته وتنفيذ أوامره، ومع أن الرسول (ص) كان يستشير الصحابة، إلاّ أنه المسؤول الأول الذي يُصدر الأوامر الواجب طاعتها. وبهذا كان الرسول (ص) القائد الأعلى الذي تجب طاعته، وكان المنظم لشؤون الحرب. وباعتباره الرئيس السياسي، فإنه أوجد تنسيقاً بين الشؤون الحربية والإدارية، فساعده ذلك على إزالة عوامل الاصطدام أو الانشقاق أو التباين الخطر بينهما.

وقد تولّى الرسول (ص) بنفسه قيادة الحملات في حوالي ثلاثين حملة، ولكنه كان أحياناً يَنْدُب من يتولى قيادة الحملات. وقد بلغ عددها حَوَالَى خمس وثلاثين، وتسمى المعارك التي قادها الرسول بنفسه الغزوات، والمعارك التي نَدَبَ لها قواداً تُسمَّى السرايا.

اقتضت الظروف ألاّ تُراعى بعض التقاليد التي كانت تراعيها العرب في القتال. من ذلك أنه أباح حرمة الأشهر الحُرُم: فقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ

يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة]. يتبين من هذه الآية أن سبب خرق حرمة الشهر الحرام هو العوامل القوية التي كانت تلزم المسلمين بالقتال، فهو الوسيلة الرئيسة لتثبيت الإسلام والدفاع عن كيانه، وليس مجرد الغنائم. وهذا الدافع هو أكبر من احترام الشهر الحرام، والواقع أن حرمة الشهر الحرام خُرقت في مناسبات أخرى أضعف من هذه المناسبة الخطيرة. ثم إن حرمة الشهر الحرام هو عمل مقابل لعمل قريش في الصد عن سبيل اللّه والكفر به، فهم لم يراعوا للإسلام أن يدعو إلى عبادة اللّه وهو إلٰههم الذي يعبدونه، يضاف إلى ذلك أنهم أخرجوا المسلمين من المسجد الحرام، وسلبوهم حرية اللجوء إليه، فهم البادئون بالخرق، وأن قتال المسلمين في الشهر الحرام هو عمل مقابل أملته عليه الظروف، ولم يكن الرسول (ص) هو البادىء فيه، وهذا لا يعني أن الإسلام لم يحترم الأشهر الحُرُم، فهناك آيات أخرى تدل على حرمتها في الإسلام. وإذا علمنا أن هذه الآية نزلت في زمن مبكر، أمكننا أن نقول إن الآيات الأخرى التي يظهر فيها احترام الأشهر الحرم دليل على بقائها محترمة في الإسلام.

أباح الإسلام قطع الأشجار، وهو ما لم يكن مألوفاً عند العرب. وقد جرى هذا في غزوة بني النضير، وكان تدبيراً اضطرارياً إزاء مقاومتهم العنيدة ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الحشر]. والواقع أن هذا العمل لم يتكرر حدوثه، فمع أن اللّه تعالى أباحه، إلا أنه لم يطبق كثيراً مما يدل على أن تطبيقه في بني النضير لم يَحْدث إلاّ بناء على الضرورة القصوى.

لم يكن فرض القتال عبئاً خفيفاً على الناس، بل كان ثقيلاً عند بعض الناس: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

[البقرة]، ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النساء] ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ [الأحزاب].

الجهاد والإسلام

إن الإسلام دين يعتبر السلام من أهم أُسسه، وقد تردّد ذكر السلام ومشتقاته وأن الله هو السلام(١) والجنة دار السلام(٢)، والدين اسمُه الإسلام(٣). فالقاعدة الأساسية في الإسلام هي السلام، والدعوة الدينية دعوة سلمية: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى

(١) الحشر ٢٣.
(٢) الأنعام ١٢٧.
(٣) انظر الآيات المتعلقة بها في الفهرس المفصل مادة مسلم.

ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة/ ٢٥٦] ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل/ ١٢٥].

أما الحرب، فهي حالة شاذة تُحتِّمها بعض الظروف والأحوال، وكانت هذه الظروف عنيفة قوية في الأدوار الأولى حيث كان أعداء المسلمين أقوياء متربِّصين لهم يريدون فتنتهم واجتثاث الإسلام: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣٩ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾ [الأنفال]، ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾ [البقرة]، ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢١٧﴾ [البقرة]، ﴿۞فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ٨٨ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ٨٩﴾ [النساء].

الإعداد لقتال قريش

ولمشركي قريش وضع خاص في أمر الجهاد، فهم الخصم الألدّ للدعوة الإسلامية، إذ قاوموها وسببوا هجرة المسلمين إلى المدينة، وظلوا العدو الأكبر للإسلام: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم

بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج]، ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء]، ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة]، ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ [البقرة]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة][1].

إن الركائز الرئيسة لقوة قريش هي مركزها الديني، ومكانتها السياسية في القبائل، وتجارتها التي تجلب لها موارد مالية غير قليلة. فأما مركزها الديني، فمنبعث من وجود بيت الله الذي بناه إبراهيم الخليل أبو العرب، ومن كونها مركزاً للحج، وقد ضعّف أثر هذا العامل في مكانتها عندما توَجّهت القِبلة نحو المسجد الحرام. وأما مكانتها السياسية، فقد عمل الرسول على إضعافها بعقده اتفاقات مع القبائل المحالفة لها، فجعل هذه القبائل إما أن تنضم إلى الرسول (ص)، وإمّا أن تقف على الحياد في مخاصمته مشركي قريش. ومن الطبيعي أن يبدأ بالقبائل القريبة من المدينة التي تمر بديارها قوافل قريش، فاتفق مع

(١) انظر أيضاً الآية ١٩٤ من سورة البقرة؛ وعن حرمته انظر: المائدة ٢.

مجدى بن عمرو الجهني الذي صار حليف الفريقين، في زمن مبكر[١]، وفي الشهر الثاني عشر وادع مخشى بن عمرو الضمري سيد ضمرة التي تقيم في الأبواء، على أن لا يغزو بني ضمرة، ولا يغزونه ولا يُكَثِّروا عليه جمعاً ولا يُعينوا عدواً. وكتب بينه وبينهم كتاباً[٢]. وفي الشهر السادس عشر وادَعَ بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة[٣].

أما التجارة، فمن المعلوم أن قريشاً كانت تعتمد عليها اعتماداً كبيراً، ولتجارتها مع بلاد الشام أهمية خاصة بالنظر لضخامتها. وكانت قوافل قريش، في سيرها نحو بلاد الشام، تسلك طريقاً يسير في الوديان التي تخترق جبال رضوى بين المدينة والبحر، وهما لا يمرّان بالمدينة، وإنما يمرّان بالقرب منها بحيث يستطيع الرسول الإغارة على القوافل القُرشية وتهديد قريش بالمصدر المادي الرئيس الذي تعتمد عليه؛ لذلك كان من المنطقي أن يوجِّه الرسول حركاته ضد هذا الطريق. وبالفعل بدأ بهذه الحركات منذ الشهر السابع مع الهجرة، فأرسل ثلاث سرايا إحداها إلى العيص عند ساحل البحر، ثم إلى رابغ، والثالثة إلى الخرار، كما قام بنفسه بقيادة حملتين إحداهما إلى بواط والأخرى إلى ذي العشيرة، وكانت كافة هذه الحملات الأولى قائمة على المهاجرين، ليس فيها من الأنصار أحد، كما أنها لم تثمر أية غنائم.

لم تكن مقاتلة قريش أمراً هيّناً في أوائل عهد الهجرة، وذلك لأن المهاجرين كانوا يواجهون المشاكل الناجمة في المحيط الجديد، ومع أن الرسول (ص) اتخذ التدابير التي تخفف هذه المشاكل، إلاّ أن نجاح هذه التدابير كان يتطلب وقتاً لإظهار مفعوله في نفس المهاجرين.

ثم إن أهل المدينة بقي عددٌ منهم مشركاً وبقي فريق قلقاً لا يخضع لكل

---

(١) ابن هشام ٢/ ٢٣٠؛ ابن سعد ٢ ـ ١/ ٢.

(٢) ابن هشام ٢/ ٢٢٤؛ ابن سعد ٢ ـ ١/ ٣.

(٣) ابن هشام ٢/ ٢٣٦؛ ابن سعد ٢ ـ ١/ ٤.

أوامر الرسول أو يلبي ما يريده. وفضلاً عن أن المسلمين من الأنصار مع ترحيبهم بالرسول لم يألفوا التنظيم الجديد الذي يدعو إليه الإسلام، فلا بد من حدوث مشاكل قبل أن يستقر هذا النظام في نفوسهم، كما أن العلاقة باليهود أخذت تزداد توتراً.

ولا يَخْفى أن اكتفاء الرسول (ص) بالبقاء في المدينة دون القيام بتعرض إيجابي لا يؤدي إلى الانتصار على قريش التي لم تكن لها سيطرة على المدينة. فسيطرة الرسول (ص) على المدينة لم تمس مصالح قريش أو تَضْرِبْها؛ لذلك كان لا بد له من القيام بعمل خارجها، ولم يكن ذلك سهلاً، فإن قريشاً مرتبطة، مع عدد كبير من القبائل في الحجاز وخارجه، باتفاقات ومعاهدات وإيلافٍ يؤمّن لها علاقة طيبة بها، كما أن سيطرة مكة على مركز الحج يزيد من مكانتها بين القبائل.

ولا يخفى أن عماد حياة أهل مكة إنما كان على التجارة. فالقضاء على تجارتها سيؤدي إلى القضاء عليها، غير أن هذا لم يكن أمراً سهلاً، لأن تجارة مكة لم تكن مقصورة على جهة واحدة، أو في فصل واحد، فقد كانت مع بلاد الشام والعراق والحبشة واليمن، وربما كانت مع نجد واليمامة والبحرين، كما أنها كانت تجري في الصيف والشتاء، فالقضاء عليها جملةً أمرٌ صعب، والقضاء على بعضها لن يُصيب منها مقتلاً.

التعرّض الأول

لذلك قام الرسول (ص) بسلسلة من الحركات أكثرها موجَّه ضد قوافل قريش، وقاد سبعاً وعشرين غزوة، كما أنفذ حوالي خمساً وثلاثين من السرايا كان يقود كلاً منها أحد الصحابة. ومع أن كلا التعبيرين (الغزوات والسرايا) يوحي بأنها حملات حربية جرى فيها قتال، لكنَّ الواقع أنه لم يَجْرِ قتال فِعليّ إلاّ في تسعة منها، وكان عدد المشاركين في بعضها قليلاً، وتمخّضت عن عقد معاهدات. وكل هذا يدل على أن كثيراً منها كان في الحقيقة بعثات دبلوماسية تهدف إلى عقد اتفاقيات وليس إلى القتال. ولهذه الاتفاقيات أهمية كبرى في الصراع مع مشركي مكة، إذ أن قريشاً كانت قد بسطت نفوذها، وعزّزت مكانتها

بالإيلاف، أي باتفاقيات مع القبائل التي تمرّ بها قوافلها التجارية، كما كان لمركزها الديني أثر في زيادة هذا النفوذ، فكان ذلك مما يساعد على تسهيل مرور تجارتها، كما أنه كان يقيد نشاط الرسول (ص) ويزيد من صعوبة تغلّبه على قريش وبسْط سلطة الإسلام على الحجاز والجزيرة.

ومن الطبيعي أن يبدأ الرسول بتنظيم علاقاته مع القبائل القاطنة في الأطراف الغربية القريبة من المدينة، والتي تمرّ من ديارها قوافل قريش. والواقع أنه بدأ ذلك في وقت مبكر، ففي الشهر السابع من الهجرة كان له حلف قائم مع مجدى بن عمرو الجهني الذي كان حليفاً لقريش أيضاً. وفي الشهر الثاني عشر تقدم إلى الأبواء ووادَعَ محشى بن عمرو الضمري سيد بني ضمرة (على أن لا يغزو بني ضمرة ولا يغزوه ولا يُكَثِّروا عليه جمعاً ولا يعينوا عليه). وفي الشهر السادس عشر، خرج بنفسه إلى ذي العشيرة ووادع بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة.

ومنذ الشهر السابع من الهجرة بدأ بإرسال الحملات على القوافل القُرَشية فأرسل بالتتابع ثلاث سرايا إحداها إلى العيص عند ساحل البحر، كما ذكرنا، والثانية إلى رابغ والثالثة إلى الخرار، وقاد بنفسه حملتين إحداهما الى بواط، والأخرى إلى ذي العشيرة، وكل هذه الأماكن تقع في الجهات الغربية من المدينة بينها وبين البحر وتمر بها قوافل قريش، وكانت كافة هذه الحملات الأولى قائمة على المهاجرين ولم يشترك فيها أحد من الأنصار، كما أنها لم تظفر بغنائم، وكانت تجري في الصيف والشتاء.

الغزوات والسرايا[1]

تاريخ الغزوة (بالشهر)	الوجهة	الأمير
٨	بطن رابغ	عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب
٩	الخرار	سعد بن أبي وقاص

(١) اعتمدنا في تحديد الحملات وتواريخها وأمرائها على ما جاء في الجزء الثاني من طبقات ابن سعد. وقائمته تختلف قليلاً عما ذكره الواقدي في كتاب المغازي، وما ذكره ابن إسحاق حدد التاريخ بالأشهر. علامة (+) تشير إلى الحملة التي قادها الرسول (ص).

١٢	الأبواء	+
١٣	بواط	+
١٣	طلب كرز	+
١٦	ذي العشيرة	+
١٧	بطل نخلة	عبد الله بن جحش
١٩	بدر	+
١٩	(العصماء)	عمير بن عدي
١٩	(أبي عفك)	سالم بن عمير
٢٠	قينقاع	+
٢٢	السويق	+
٢٣	قرقرة الكدر	+
٢٥	(كعب بن الأشرف)	
٢٥	غطفان	+
٢٧	سليم	
٢٧	القردة	زيد بن حارثة
٢٨	الربذة	
٣٢	أُحُد	+
٣٢	حمراء الأسد	+
٣٥	قطن	أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي
٣٥	عرنة	عبد الرحمن بن أنيس الهذلي
٣٦	بئر معونة	المنذر بن عمرو الساعدي
٣٦	القارة	مرثد بن أبي مرثد الغنوي
٣٧	النضير	+
٤٥	بدر الموعد	+
٤٧	ذات الرقاع	+
٤٩	دومة الجندل	
٥٨	الخندق	+

٥٨	قريظة	+
٥٩	القرطاء	محمد بن مسلمة
٦٣	لحيان	+
٦٣	الغابة	+
٦٣	الغمر	عكاشة بن محصن الأسدي
٦٤	ذي القصة	محمد بن مسلمة
٦٤	سليم	زيد بن حارثة
٦٥	العيص	زيد بن حارثة
٦٦	الطرف	زيد بن حارثة
٦٦	حسمي	زيد بن حارثة
٦٦	وادي القرى	زيد بن حارثة
٦٧	دومة الجندل	عبد الرحمن بن عوف
٦٧	فَدَك	علي بن أبي طالب
٦٨	أم قرفة	زيد بن حارثة
٦٨	ابن أبي رافع	عبد الله بن عتيك
٦٩	أسير بن زارم	عبد الله بن رواحة
٦٩	العُرنيين	كرز بن جابر الفهري
؟	أبو سفيان	عمرو بن أمية الضمري
٦٨	الحديبية	+
٨٠	خيبر	+
٨٠	تُربة	عمر بن الخطاب
٨٠	ضرية بني كلاب	أبو بكر
٨٠	فَدَك	بشير بن سعد الأنصاري
٨١	الميفعة	غالب بن عبد الله الليثي
٨٢	يمن وجبار	بشير بن سعد الأنصاري
٨٤	عمرة القضية	+

٨٤	سليم	ابن أبي العوجاء السلمي
٨٤	القديد (بنو الملوح)	غالب بن عبد الله الليثي
٨٤	فدك	غالب بن عبد الله الليثي
٨٥	السّي (بنو عامر)	شجاع بن وهب الأسدي
٨٥	ذات أطلاح	كعب بن عمر الغفاري
٨٧	مؤتة	زيد بن حارثة
٨٨	ذات السلاسل ـ	عمرو بن العاص
٨٦	الخبط (جهينة)	أبو عبيدة بن الجراح
٨٧	خضرة (محارب)	أبو قتادة بن ربعي الأنصاري
٨٨	بطن أضم	أبو قتادة بن ربعي الأنصاري
٨٨	فتح مكة	+
٨٩	حنين (هوازن)	+
٨٩	(ذي الكفين)	الطفيل بن عمرو الدوسي
٨٩	الطائف	+
٩٧	السقيا (تميم)	عيينة بن حصن
٩٨	خثعم	قطبة بن عامر
٩٩	كلاب	الضحاك بن قيس الكلابي
١٠٠	(الحبشة)	علقمة بن مجزز المدلجي
١٠٠	(الفلس: طي)	علي بن أبي طالب
١٠٠	الجناب (عذرة وبلّي)	عكاشة بن محصن الأسدي
١٠١	تَبُوك	+
١١١	نجران (عبد المدان)	خالد بن الوليد
١١٧	اليمن	علي بن أبي طالب
١١٨	العمرة	+
١١٩	حجة الوداع	+
١٢١	البلقاء	أسامة بن زيد

سرية نخلة

في أواخر الشهر السابع من الهجرة، وهو شهر رجب، بعث رسول اللّه (ص) عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي، وكتب له كتاباً أمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه فيمضي لِمَا أمره به ولا يستكره من أصحابه أحداً. فسار عبد الله بن جحش يومين ثم فتح الكتاب وكان فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا فامضِ حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فَتَرصُد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم». وقد نفَّذ عبد الله بن جحش أمر الرسول، ومضى معه أصحابه لم يتخلف منهم إلاّ اثنان. فلما وصلوا نخلة، مرت عِيرٌ لقريش تحمل زبيباً وأدَماً وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمي. فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه أمِنُوا لأنهم اعتقدوهم ممن يقيم العمرة، وكان ذلك آخر يوم من رجب. ثم تشاور المسلمون فيما يصنعون، فإذا تركوا القافلة فستنجو وتصل مكة بسلام، وإذا قاتلوهم يكونون قد خرقوا حرمة الشهر الحرام، وقد تهيبوا الإقدام على ذلك، ثم شجعوا أنفسهم عليهم وهاجموا القافلة، وقتلوا من كان فيها وأخذوا أحمالها وأسيرين من رجالها ثم عادوا إلى المدينة.

فلما قدِموا على رسول اللّه (ص) المدينة قال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، فَوَقَفَ العِيْرَ والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً. فلما قال ذلك رسول اللّه (ص) سُقِطَ في يد القوم وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنّفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال.

إن إرسال الحملة إلى نخلة هي مباغتة كبيرة بالنظر لبعدها عن المدينة ووقوعها في منطقة يسكنها مشركون مرتبطون بأهل مكة، كما أن توقيته لها في آخر الشهر الحرام أمر دقيق، غير أن احتجاج الناس على عمل السرية يدل على

مدى تغلغل التقاليد القديمة في نفوس المسلمين، ولم ينقذهم إلاّ نزول القرآن بإقرار ما فعلوا فقال تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ﴾ [البقرة/ ٢١٧]. وقد فرّجت هذه الآية الكرب عنهم وشجعت الغنائم التي ظفر بها المسلمون على الاشتراك في الجهاد الذي قدّمت هذه الآية مبرراته القوية.

الفصل الحادي عشر

المعارك الكبرى

معركة بدر

في رمضان من السنة الثانية، علم الرسول (ص) بمسير قافلةٍ لقريش يقودها أبو سفيان، وهي قادمة من الشام تحمل متاعاً وتجارات كثيرة، فقرّر الخروج إليها بنفسه، فخرج ومعه ستة وسبعون من المهاجرين، أي كافة المهاجرين ما عدا ثمانية، ومائتان وسبعون من الأنصار، وكان معهم فَرَسان وسبعون من الإبل[1]. وكانت هذه أول غزوة يشارك فيها الأنصار ويقاتلون مع الرسول (ص) خارج المدينة[2]، وكان يترصد للقافلة في طريق عودتها من الشام، وعلم أهل مكة بخروج المسلمين، وشاع بينهم أن المسلمين استولوا على القافلة، فقرروا الخروج لمقاتلة المسلمين واسترداد القافلة ومَنْعهم من القيام بمثل هذه الأعمال في المستقبل. غير أن أبا سفيان أحسَّ بخروج المسلمين لأخذ القافلة فأسرع بالسير من طريق مخالف للطريق العام، ونجا بالقافلة، فلما علم أهل مكة بنجاة القافلة ثار بينهم الجدل، فرأى بعضهم أنه لا مبرر لإنفاذ حملتهم لأن نجاة القافلة قضى على الغرض منها، وكان بعضهم يرى أن المسلمين قد نالهم من قريش ظلم وتعسف، وأن إنقاذ الحملة سيزيد من هذا الظلم وسيؤدي إلى سفك

(١) ابن سعد ٢ ـ ١/٧، ١٤، ١٥؛ أنساب الأشراف ٢٨٩.

(٢) ابن هشام ٢/٢٥٣.

دماء تزيد من كره المسلمين وعزمهم على القيام بحركات أخرى ضد قريش. وقد خطرت هذه الأفكار لعدد من عقلاء أهل مكة، وكانت أقوى عند المشركين من أقارب المهاجرين، عبر عن ذلك عتبة بن ربيعة إذْ قال لأهل مكة: «لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجلٍ يكره النظر إليه قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلُّوا بين محمد وسائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا له ما تريدون»[1].

غير أن فريقاً آخر رأى وجوب إنقاذ الحملة والقيام بعمل عسكري حازم للحفاظ على مكانة قريش وهيبتها بين القبائل، ولمنع المسلمين من تكرار ترصُّدهم وتهديدهم للقوافل المكية. وقد تغلب رأي هذا الفريق وتقدمت قوات المشركين بعد أن انفصل عنهم بنو زهرة وبنو عدي، فعادوا إلى مكة ولم يشاركوا في القتال[2]. وكانت قوة قريش تسعمائة وخمسين رجلاً ومعهم سبعمائة بعير ومائة فرس[3]. وقد ذكر ابن إسحاق أسماء عدد ممن أُكره على المشاركة في الحملة، ومنهم من ساعد المسلمين أيام محنتهم في مكة[4] كما ذكر أسماء عدد ممن كان قد أسلم، ولكن أهل مكة منعوهم من الهجرة وفتنوهم عن دينهم[5]، ولا يخفى أن أمثال هؤلاء لم يقاتلوا الإسلام بحماس.

أما الرسول (ص)، فلما علم بنجاة القافلة وبتقدم قريش أراد التقدم لمواجهة المشركين، ولكنه لم يكن واثقاً من موقف الأنصار الذين كوَّنوا أكثرية الجيش الذي خرج معهم. ويروي ابن إسحاق أن الرسول قال: «أشيروا عليّ أيها الناس»، وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم عدد الناس، وأنهم حين بايعوا بالعقبة قالوا يا رسول اللّه، إنّا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا فإذا

(١) ابن هشام ٢/٢٦٣، ٣٦٩.
(٢) ابن هشام ٢/٢٥٨؛ أنساب الأشراف ٢٩١.
(٣) ابن سعد ٢ ـ ١/٩؛ أنساب الأشراف ٢٨٩.
(٤) ابن هشام ٢/٢٦٥.
(٥) ابن هشام ٢/٢٨٢.

وصلت إلينا فأنت في ذمتنا، نمنعك كما نمنع أبناءنا ونساءنا، فكان رسول اللَّه (ص) يتخوف ألاّ تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممَّن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوه من بلادهم فقال له سعد بن معاذ: «واللَّه لكأنك تريدنا يا رسول اللَّه، قال أجل! قال: قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول اللَّه لِما أردت فنحن معك»[1]. والحق أنه لم يكن من المعقول أن يتخلى الأنصار عن الرسول ويرفضوا الاشتراك في المعركة لأن ذلك معناه خسارتهم لكل ما ظفروا به من مجيء الرسول.

ولما أن شهد الرسول (ص) هذا الموقف المشجع من الأنصار تقدم لمواجهة جيش المشركين، فسار حتى وصل إلى بدر وهو بقعة من واد يليل الذي ينبع من البحر الأحمر عند الصفراء وفيها عدد من الينابيع وبعض التلول الرملية. وأقام في بدر ليستعد للمعركة. وكانت بدر مجتمعاً يجتمع فيه العرب، وسوقاً تقوم لهلال ذي القعدة إلى ثمان تخلو منه ثم ينصرف الناس إلى بلادهم[2].

اختار المسلمون موضعهم عند القليب[3]، وهو أقرب الآبار إلى المكان الذي تجمع فيه المشركون[4]، وبذلك أصبحوا مسيطرين على منابع المياه العذبة، وحرموا المشركين منها، وشيد الرسول (ص) عريشاً عند القليب اتخذه مقراً له[5] يشرف منه على المعركة وينظم إدارتها.

ثم بدأ القتال وكان فردياً، ولكنه سرعان ما انقلب إلى التحام عام بين الجيشين أبدى فيه المسلمون حماسةً وكفاءة وظفروا بالنصر فانهزم المشركون بعد أن فقدوا أكثر من سبعين قتيلاً، وحوالى سبعين أسيراً. أما المسلمون

(١) ابن هشام ٢/ ٢٥٣ ـ ٤.
(٢) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٤٢.
(٣) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٩؛ أنساب الأشراف ١/ ٢٩٣.
(٤) ابن هشام ٢/ ٢٥٨.
(٥) ابن هشام ٢/ ٢٦٠، ٢٦٧، ٢٦٩.

فخسروا أربعة عشر قتيلاً وبقي الرسول في ميدان المعركة ولم يطارد المشركين المنهزمين، وأمر بدفن القتلى وجمع الغنائم، وبقي ثلاثة أيام يحتفل بالانتصار، ثم عاد إلى المدينة. وعامل أسرى المشركين معاملة طيبة فلم يقتل منهم سوى اثنين سبق أن أوغلا في إيذاء الرسول[١] ومنَّ على عدد منهم فأطلق سراحهم، وطلب من الباقين أن يفدوا أنفسهم بأن يدفع كل أسير أربعمائة درهم إلى ألف، ومن لا يستطيع يُعلّم غلمان الأنصار الكتابة[٢].

أهمية معركة بدر

كانت معركة بدر أول اصطدام مسلح مع قوة قُرَشية عسكرية كبيرة نسبياً جاءت وهي عازمة على قتال المسلمين، فهي قتال أعدّ مسبقاً، وهي بالنسبة للمسلمين دقيقة جداً، لأن المهاجرين عرَّضوا لأول مرة كل قوتهم لخطر القتال مع قريش، وهم الأساس الذي يعتمد عليه الرسول حتى آنذاك. وهم جوهر الإسلام، وأكثر الناس فهماً له، وأشدهم تمسكاً به، وأعنفهم حقداً على قريش التي أخرجتهم من ديارهم، فتدمير المهاجرين يعرِّض سلطة الرسول للخطر الجسيم. وقد يؤدي إلى إزالة الإسلام، فلا عجب أن يقول الرسول: «اللهم إن تَهْلِك هذه العصابة اليوم لا تُعبد أبداً»[٣]. ثم إن معركة بدر هي أول قتال لا يستهدف الغنائم، وهو يقوم خارج المدينة، فلا يدخل ضمن اتفاقية العقبة، ولا يُلزم الأنصار قانونياً بالقتال، كما أنه لا يوجد دافع قوي إليه، خاصة وأن قريشاً جاءت في الأصل لإنقاذ قافلتها لا لقتال الإسلام، وهي بالتالي ليس بينها وبين أهل المدينة كبير عداء، فالأنصار الذين خرجوا مع الرسول كانوا منظمين مع قبائلهم وهي مِحَك لمدى تمسكهم بالإسلام واستعدادهم للقتال من أجل توسيعه. فمعركة بدر حَرِيَّةٌ بأن تعتبر المعركة الحاسمة التي يتوقف عليها مستقبل

---

(١) أنساب الأشراف ١/١٩٨.

(٢) ابن سعد ٢ ـ ١/١٤؛ البخاري: جهاد، ٢٦٦.

(٣) ابن هشام ٢؛ ابن حنبل ١/٣٠، ٣٢، ١١٧، ١٢٩.

الإسلام كله، فلا عجب أن يفرح بها المسلمون ويحتفلوا بها سنوياً، وأن تكون المعركة الوحيدة التي تذكر بالتقدير في القرآن بصراحة[1].

كان تأثير معركة بدر كبيراً في حينه: فقد قوّت معنويات المسلمين، وشجعتهم كثيراً، وعزّزت الثقة بالرسول وقدرته، وزادت من صهر المسلمين، وأجَّجت روح التفاؤل، وشجّعت على القتال، وقوّت مكانة الرسول في المدينة، فمكّنته من الوقوف في وجه اليهود واتِّباع سياسة جديدة تجاههم، وجعلته يُصدر الوثيقة التي وضَّحت سلطاته في إدارة المدينة.

أظهرت معركة بدر قدرة الرسول الحربية كقائد، فإذا كان هو القائد الأعلى، فإن أعماله السابقة كانت إدارية وسياسية؛ وإذا كان قد قاد قبل هذا حملتين، فإنه لم يصطدم فعلياً فيهما. وحتى لو اصطدم، فإنه لم يكن ليظهر قابليته في الإدارة العسكرية مثلما ظهرت هنا حيث الاصطدام على نطاق واسع.

كان أثر بدر على قريش يتجلى، لا في ظهور قوة الرسول العسكرية وفي كشف مواقفه ضدهم، فتلك قد ظهرت من الحملات السابقة، كما أنها ليست في القافلة التي نجت، ولا في القضاء على تجارة قريش التي استمرت، ولا في الخسائر بالأرواح التي لم تكن كبيرة نسبياً، وإن كان فيها بعض الكبار أمثال أبي جهل، ولا في الدم الذي سُفك فأجج العداء والقتال والثأر، ولكنه أثّر في الناحية المعنوية التي أضعفت من هيبتهم أمام العشائر الأخرى. فحملت كثيراً منهم على التقرُّب من الرسول.

وفقدت قريش عدداً من أبرز قادتها المقاومين للدعوة الإسلامية، فضعفت مقاومتهم، وتخلص المستضعفون ممَّن كان يقيدهم.

ولما عاد الرسول إلى المدينة عمل على تطهير الجبهة الداخلية في المدينة من بعض ما كان يؤثِّر في استقرار الأمن فيها، وخاصة ألْسِنة السوء التي كانت تنشر الإشاعات وتخلق البلبلة، فأرسل من قَتَل عصماء بنت مروان وكانت تَعيب

(1) ابن هشام ٢/ ٢٦٧.

الإسلام وتؤذي النبي وتحرض عليه، ثم أعقبها بقتل أبي عفك وهو يهودي كان يقول الشعر ويؤلب على الرسول (ص). وأرسل من قتل كعب بن الأشرف وكان شاعراً يهجو النبي وأصحابه ويؤذيهم[1]. وكان لهذه التدابير أثرها في إخافة اليهود وفي ضرورة تنظيم علاقاتهم بالرسول على أُسس واضحة، ويقول ابن سعد: إن الرسول، بعد قتل كعب بن الأشرف، دعا اليهود أن يكتبوا بينه وبينهم صلحاً، وأن ذلك الكتاب احتفظ به مع علي بن أبي طالب[2].

وجرد الرسول حملات على بعض القبائل المقيمة شرقيَّ المدينة وجَنوبيَّها، ومنها حملة على محارب وثعلبة في ذي أمر، وأخرى على بني سليم في بحران، وثالثة على هلال التي كانت تقيم عند ذات عمق[3]. وكانت معظم هذه القبائل محالفة لمشركي قريش، وكانت بعض القوافل تسير في ديارها.

معركة أُحُد

كان لمعركة بدر وقع كبير على قريش وأثر عظيم فيهم، وقد حاول أبو سفيان أن يخفف من أثر هذه الهزيمة ويعيد لهم الثقة بأنفسهم، فأمر بمنع البكاء على قتلاهم، وحرَّم استعمال الزينة حتى يثأر منهم[4]، ثم جهَّز، في أواخر السنة الثانية، حملة تقدم بها إلى المدينة وهاجم أطرافها الجنوبية الشرقية، وبات ليلة في بني النضير ثم عاد مسرعاً، مما يدل على أن الغرض منها هو إشعار الرسول (ص) أن غزوة بدر لم تقض على قريش، وأن الصراع بينها وبين الرسول (ص) لم ينتهِ، غير أن أبا سفيان، بالرغم من وصوله المدينة، لم يَلْقَ أي تأييد من منافقي المدينة أو يهودها.

---

(١) ابن سعد ٢ ـ ١/١٨ ـ ١٩، ٢٢.

(٢) ابن سعد ٢ ـ ١/٢٣.

(٣) ابن هشام ٢/٤٢١، ٤٢٥؛ ابن سعد ٢ ـ ١/٢٣ ـ ٢٤؛ ابن هشام ٢/٢٩٤؛ أنساب الأشراف ١/٣١١.

(٤) ابن سعد ٢ ـ ١/٢٠.

وفي شوال من السنة الثالثة، أي بعد مرور ستة عشر شهراً على معركة بدر، تقدم أبو سفيان بحملة على المدينة قوامها ثلاثة آلاف رجل ومعهم ثلاثة آلاف بعير ومائتا فرس وفيهم عدد من النساء جئن لتشجيع المُقاتلة، وكان عماد هذه الحملة مشركي قريش، غير أن فيها عدداً من حلفائهم من كنانة وثَقيف[1]، كما جاء معهم أبو عامر الراهب مع خمسين من أتباعه[2]، وكان الرسول قد طرده من المدينة. ومن الواضح أن الغرض من هذه الحملة هو الثأر لهزيمة قريش في غزوة بدر.

ووصلت هذه الحملة إلى ذي الحليفة في جنوب غربي المدينة، وهي المحطة الأولى في الطريق إلى مكة، مما يظهر أنها سلكت الطريق المألوف، ثم استدارت بعد ذلك حول المدينة حتى وصلت إلى أُحُد، وهو جبل يقع على بعد ثلاثة أميال شماليَّ المدينة، وأخذت أنعامهم ترعى في الحقول المزروعة في تلك المنطقة.

كان موقف المسلمين موحَّداً في وجوب عدم السماح للمشركين بدخول المدينة أو القضاء على المسلمين، وكانت المناقشة حول الخطة الواجب اتباعها حرة مفتوحة، وكان البعض يرى وجوب الصمود داخل المدينة والدفاع عنها، ولعلهم قدروا بذلك حصانة المدينة بما فيها من مزارع وبساتين تعيق المهاجمين، فضلاً عن أن ذلك يزيد من حماسة الأنصار في الدفاع عن بيوتهم وأهليهم ومزارعهم وتماسك أهلها في صد خطر قريش وخُلُوِّها من طابور خامس يهدد الدفاع الداخلي عن المدينة. وكان هذا رأي ذوي الأسنان من الأنصار ومن رأي عدد من المهاجرين، وأن يجعلوا النساء والذراري في الآطام، ويمكث المُقاتِلة في المدينة، وقالوا نقاتلهم في الأزقة فنحن أعلم بها.

غير أن فريقاً ممن لم تكن لهم هذه النظرة العامة في تقدير الموقف العسكري كان متحمساً لقتال قريش، وهم يرون أن هذا القتال سيأتي للمسلمين

---

(١) ابن هشام ٣/٤ _ ٥؛ ابن سعد ٢ _ ١/٢٦.

(٢) ابن هشام ٣/١٢؛ ابن سعد ٢ _ ١/٢٥؛ أنساب الأشراف ١/٣١٣.

عند نصرهم بكسب معنوي كبير، وكان تأثير هذا الفريق أقوى، فأخذ به الرسول وقرّر الخروج للاشتباك بمعركة مع المشركين[١].

وعند تجمُّع القوات الإسلامية وتقدُّمها، انسحب عبد الله بن أُبَيّ ومعه ثلث الناس، أي حوالي ثلاثمائة[٢]. ولا ريب في أن هذا الانسحاب أضعف القوة القتالية لجيش المسلمين، ولكنه لم يصل إلى الحد الذي يؤمِّن انتصار قريش، كما أنه لم يُضعف حماسة المشاركين في القتال أو قوة تعلُّقهم بالرسول (ص)؛ وكان مبعث انسحابهم ناجماً عن رأيهم في عدم صواب القوة، فلم يقوموا بعد انسحابهم بعمل يهدد مؤخرة المسلمين، أو يُحدث أي خطر داخل المدينة؛ ويروي ابن إسحاق أن عبد الله بن أُبيّ قام في الجمعة التالية يعلن تأكيده على مساندة الرسول (ص) والإسلام.

يقول ابن إسحق: إن عبد الله بن أُبيّ انسحب معه من اتبعه من قومه من أهل النفاق[٣]. وهذا تعبير عام لم تفصّله المصادر. غير أنه يمكن الاستدلال على بعضه من دراسة التوزيع العشائري لشهداء أحد، وعددهم سبعون، ذكرهم ابن إسحاق مصنَّفين تبعاً لعشائرهم، فذكر من عشائر الأوس اثني عشر شهيداً من عبد الأشهل، وثلاثة من أهل راتج (بنو زعورا)، واثنين من كلٍّ من ظفر وعبيد، وواحداً من كلٍّ من السلم ومعاوية بن مالك[٤].

وذَكَر من الخزرج خمسة من بني عوف، وأربعة من كلٍّ من بني النجار وسلمة، وثلاثة من كل من بني سواد، والحرث، والأبجر، واثنين من كل من بني دينار، وزريق، ومبذول، وساعدة، وطريق، وسواد، وواحداً من كل من عمرو بن مالك، وعديّ، ومازن، والحبلى.

ويتبين من ذلك أن عدد عشائر الخزرج وشهدائها كبير (ثمان وثلاثون) مما

(١) ابن هشام ٣/٧؛ ابن سعد ٢ ـ ١/٢٦.
(٢) ابن هشام ٣/٨؛ ابن سعد ٢ ـ ١/٢٧، ٣٤؛ أنساب الأشراف ١/٣١٥.
(٣) ابن هشام ٣/٧.
(٤) ابن هشام ٣/٧٧ فما بعد.

يدل على كثرة عدد من شارك منهم في المعركة؛ كما تدل قلة عدد شهداء الأوس على أن عدد المشاركين منهم في المعركة كان أقل من الخزرج. ويلاحظ أنه لم يذكر قتلى من بني حارثة أو بني عمرو بن عوف الأوسيين، كما أنه ذكر شهيداً من بني الحبلى (رهط عبد الله بن أُبي)؛ وكل هذا يُظهر أن المنسحبين عند التقدم إلى أُحد لم يقتصروا على قوم عبد الله بن أُبي، وربما كان أكثرهم من الأوس؛ وعلى أي حال فإن انسحابهم مقتصر على تقرير موقفهم من القتال، وليس مظهراً لمعارضة الإسلام.

ولما بلغ الرسول جبل أُحد جعله وراء ظهره، ووضع فيه عدداً من الرُّماة لحماية الموخِّرة، وأمرهم بالصمود والثبات مهما كان تطور المعركة، واتخذ مقره عند واد يخترقه. أما المشركون، فجعلوا على مَيْمَنتهم خالد بن الوليد، وعلى مَيْسرتهم عِكْرِمَةَ بن أبي جهل، وعزّزوا جناحيهم بمائتين من الخيل.

وبدأ القتال بهجوم قام به أبو عامر الراهب وجماعته، ثم تلاه بقية المشركين في القلب، فصمد المسلمون، واندحر المشركون، وتضعضعت صفوفهم. فلما أبصر ذلك رماة المسلمين، المسؤولون عن مسك الجبل، تصوروه خاتمة النصر، فتقدّموا للمشاركة في القتال وتركوا مواضعهم. وبذلك انكشفت مؤخرة المسلمين، ولاحظ ذلك خالد بن الوليد، فقام بمن معه من فرسان المشركين بالالتفاف على المسلمين وأخذ مواقع الرماة، فاضطربت صفوف المسلمين، وعمَّ فيها الاضطراب، وتخلى كثير منهم عن مواقعه، وصمد الرسول مع جماعة من الصحابة، ووصل بعض المشركين إلى مكانه فنالوه بجراح في وجهه. وشاع بين المسلمين أن الرسول (ص) قد قُتل، فزاد الاضطراب والرُّعب في صفوفهم وانكسروا في المعركة بعد أن خسروا سبعين شهيداً. ولَفَّ ظلام الليل الفريقين، فوقف القتال.

اعتبر المشركون هذا الانتصار كافياً للثأر من بدر، وأعلن أبو سفيان قائد المشركين: (يوم بيوم بدر، والحرب سجال)[1]، وتركوا ميدان المعركة عائدين

(١) ابن هشام ٣/ ٤٥؛ أنساب الأشراف ١/ ٣٢٧؛ ابن حنبل ١/ ٤٦٣.

إلى مكة دون أن يحاولوا استغلال نصرهم بمتابعة الهجوم على المدينة، ولعلهم خَشُوا أن يؤدي استمرار ملاحقة المسلمين إلى داخل المدينة إلى إثارة أهلها، فيشتركوا جميعاً في قتالهم، ويقلبوا النصر إلى هزيمة، خاصة وأنهم خسروا عدداً من القتلى وكثيراً من الخيول.

وفي اليوم التالي، تقدم الرسول لمطاردة جيش المشركين، فوصل إلى حمرا الأسد، وهو مكان يبعد عشرة أميال عن المدينة على يسار الطريق العام الذي سلكه المشركون[1]، وكان يريد من خروجه إرهاب العدو، وإبلاغه أنه خرج ليعتقد أن الذي أصاب المسلمين لم يوهنهم، ولم يصرفهم عن عدوهم. ولم يحاول أبو سفيان تجديد الاصطدام مع المسلمين خشية أن يخسر النصر الذي أحرزه.

لقد فصَّل القرآن الكريم خبر معركة أُحد حيث قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران].

(١) ابن هشام ٣/٥٢، ٥٦؛ ابن سعد ٢ ـ ١/٣٥.

أثر معركة أُحد: نشاط المعارضة

كان انتصار مشركي قريش في معركة أُحد انتصاراً غير حاسم، محدود الأثر. إنهم لم يَلْقَوا تأييداً من المعارضين والمنافقين، ولم يُفلحوا في تحريكهم ضد الإسلام، وقد انسحبوا بسرعة دون أن يتابعوا ملاحقتهم للجيش الإسلامي، ولم يصمدوا للرسول عندما قام بمطاردتهم في اليوم التالي: وبذلك يمكن اعتبار معركة أُحد غارةً انتقامية للثأر من بدر، وليست محاولة جدية للقضاء على الإسلام.

غير أن ما أصاب المسلمين في معركة أُحد شجّع المعارضة ممن في قلوبهم مرض أو نفاق، فنَشِطوا في زيادة البلبلة في صفوف الرأي العام، فاستلزم ذلك أن يقوم الرسول بأعمال لتثبيت الوحدة والتماسك، وترسيخ القاعدة التي عُنِيَ الرسول بإرسائها منذ وصوله إلى المدينة.

إن معركة أُحد وما رافقها من تطورات حملت الرسول على زيادة الاهتمام بالمناطق الواقعة خارج المدينة، والعمل على تثبيت مكانة الدولة في تلك المناطق، إذ أن السكوت عن ذلك قد يؤدي إلى تقييد دولة الإسلام، وإضعاف مكانة المسلمين في المدينة.

استغلت بعض القبائل انكسار المسلمين في أُحُد، وحاولت القيام بأعمال عدائية مما حمل الرسول (ص) على أن يرسل، في أول المحرم من الشهر الخامس والثلاثين للهجرة، أي بعد حوالي شهرين من معركة أُحد، حملةً إلى قطن لتأديب طلحة وسلمة ابنَيْ خُويْلد الأسَدِيَّين كما أعدَّ حملة أخرى لتوجيهها إلى سفيان بن خالد الهُذَلي، ثم استعاض عنها بإرسال من اغتاله، وكان كل من طلحة وسفيان يجمع قواتٍ لمهاجمة المسلمين. ويلاحظ أنه، في تلك السنة، حصل جَدْبٌ في الجزيرة.

وفي الشهر التالي وقعت حادثتا غَدْر بالمسلمين أوقعت فيهم كثيراً من الضحايا، في الحادثة الأولى جاء عامر بن مالك الكلابي إلى الرسول (ص)

يطلب منه إرسال سبعين من المسلمين إلى أهل نجد لِيَهدوهم ويُفَقّهوهم في الدين، فلما وصل هؤلاء إلى بئر معونة قرب معدن سليم، طلع عليهم بنو سليم وقتلوهم[١].

أما الثانية فهي عندما أتى الرسولَ وفدٌ من بني الهون بن خزيمة يطلبون فيه من يعلِّمهم الإسلام، فأرسل معهم عشرة مسلمين ليُقْرئوهم القرآن ويعلِّموهم شرائع الإسلام. فلما كانوا بالرجيع، وهو ماء لهذيل عند وادي الهدة الذي ينصب في عسفان، خرج عليهم بنو لحيان وأخذوهم أسرى فباعوهم إلى أهل مكة الذين قتلوا معظمهم[٢]. ولا ريب في أن هذين العملين يظهران استخفافاً بالقوة الإسلامية، وحقداً عليها، وأن القيام بهما مما يُرضي قريشاً، ولعلهما كانا بتحريض من قريش، أو لجلب رضاها، ولم يقم الرسول (ص) بعمل ثأري لأنه كان منشغلاً بالمشاكل الداخلية ومنها مشكلة بني النضير الذين حوصروا أو أُقصوا من المدينة في الشهر التالي.

وفي الشهر السابع والأربعين، قاد الرسول (ص) جيشاً من أربعمائة مقاتل وتوجه بهم إلى عشيرتي مُرَّة وثعلبة، وهما من محارب، وكانتا قد جَمَعتا قوة للتعرّض للمسلمين، ولم يَجرِ في هذه الحملة قتال، غير أنه جرت خلالها محاولة فاشلة لاغتيال الرسول (ص)[٣].

وجمع الحارث بن أبي ضرار «من قومه ومَن قَدر عليه من العرب لقتال الرسول، فخرج الرسول بقوة كبيرة». وخرج مع الحارث بَشَرٌ كثير من المنافقين لم يخرجوا في غزوات قطُّ مثلها، ووصلوا إلى المريسيع بالقرب من المشلل فقاتل الرسول هذه القوات، وقَتَل منهم عدداً من الرجال والنساء والأطفال، كما غنم منهم ألفي بعير وخمسة آلاف شاة، وافتُديَ الأسرى. لقد ظفر المسلمون من هذه الحملة أكبر مقدار من الغنائم[٤].

---

(١) ابن هشام ٣/١٨٤؛ ابن سعد ٢ ـ ١/٣٦.
(٢) ابن هشام ٣/١٦٠ ـ ١٦٦؛ ابن سعد ٢ ـ ٢/٣٩.
(٣) ابن هشام ٣/٢١٤ ـ ٢١٦؛ ابن سعد ٢ ـ ١/٤٣.
(٤) ابن سعد ٢ ـ ١/٤٥.

وفي طريق العودة إلى المدينة، ثار، بين رجل من المهاجرين وآخر من الأنصار، شجارٌ سرعان ما تطور إلى خلاف بين المهاجرين والأنصار، فاستغل بعض المنافقين ذلك، وتطاولوا على المهاجرين، ولكن الرسول (ص) عالج ذلك بحكمة إذْ أمرَ المقاتلين المسلمين أن يُغذُّوا السير، وانشغلوا بذلك، ونَسُوا ما ثار بينهم من خلاف. وقبيل الوصول إلى المدينة، تأخرت عائشة عن الركب لقضاء حاجة لها، وصادفها صفوان بن المعطل فأعادها على بعيره، وقد أثار هذا تقوُّلات كثيرة، حتى نزلت الآية الكريمة التي تصرح ببراءة عائشة (رض) ووصفت التقولات بأنها إفك[(١)].

غير أن الرسول (ص)، حتى في الأحوال الدقيقة المؤاتية التي قادت إلى الحوادث التي ذكرناها، لم يغفل عن العمل لإظهار قوته وتأمين مصالح الدولة ومكانتها. ففي أواخر الشهر الخامس والأربعين، أي بعد سبعة أشهر من طرد بني النضير، قاد الرسول بنفسه جيشاً قوامه ألف وخمسمائة رجل، ووصل إلى بدر يترصد قافلة لقريش سمع بأنها ستمر في طريقها إلى الشام، ولكن القافلة لم تخرج من مكة.

وفي الشهر التاسع والأربعين أنفذ سرِيَّة قوامها ألف رجل إلى دَوْمة الجَنْدل لتأديب أعراب المنطقة الذين كانوا يَعْسِفون من يمرّ بهم ممَّن ينقل البضائع[(٢)]، ولا بد أن تدخل الرسول (ص) في تأمين الطريق التجاري الشمالي يُظهر أن مسلمي المدينة، وخاصة تجارهم، كانوا قد بدأوا يُنمُّون التجارة بين المدينة والشام. ومع أن هذه التجارة لم تكن تنافس تجارة أهل مكة التي لا علاقة لها بالمدينة، إلا أن توفير الأمن يخدم السلم عامة، ويزيد من إدراك قريش بأن تنامي سلطة الرسول لن تُضرَّهم إذا تعاونوا معه. وتظهر هذه الحملة أيضاً أن الرسول كان يدرك، منذ هذا الوقت المبكر، أن المجال الحيوي لتوسُّع الإسلام كان سيتجه نحو الشمال.

---

(١) ابن هشام ٣/٣٤١ فما بعد؛ وانظر عن أمر الإفك: البخاري: الشهادات ٢، ١٥، المغازي ٣٤؛ ابن حنبل ٦/٥٩ ـ ٦١، ١٩٤، ٣٦٧.

(٢) ابن سعد ٢ ـ ١/٤٤؛ ابن هشام ٣/٢٢٨.

في هذا الوقت بالذات، وادع الرسول (ص) عُيَينة بن حصن، وأباح له أن يرعى بتغلمين وما والاها إلى المراض، وهي منطقة كانت تقع على بعد حوالي أربعين ميلاً من شمال المدينة. ولا ريب في أن هذه الموادعة غرضها تأمين السلم شماليَّ المدينة.

الفصل الثاني عشر

حصار المدينة: معركة الخندق

التمهيدات الأولى والقوى المشاركة

تقدم مشركو قريش في ذي القِعدة من السنة الخامسة، مع عدد من حلفائهم إلى المدينة لقتال المسلمين. وينسب ابن إسحاق والواقدي هذه الحملة إلى تحريض يهود بني النضير الذين طردهم الرسول من المدينة فلجأوا إلى خيبر، وذهب عدد من رجالهم إلى قريش وعددٍ من القبائل الأخرى يحرضونهم على قتال الرسول. يقول ابن إسحق: «إن نفراً من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق النضري، وحُيَيّ بن أخطب النضري، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النضري، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل، وهم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول اللّه (ص)، خرجوا حتى قدموا على قريش مكة فدعوهم إلى حرب رسول اللّه (ص) وقالوا: إنّا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.. ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاؤوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول اللّه (ص)، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك، فاجتمعوا معهم فيه»[1]. وذكر الواقدي هذا الكلام بالنصّ؛ غير أنه ذكر أبا عامر الراهب بدل أبي عمار

(١) ابن هشام ٣/١٩٠، ٢٢٩ ـ ٢٣٠؛ وانظر: تفسير الطبري ٢١/٨١.

الوائلي[١]. ويذكر كِلَا المصدرين أن المحرضين هم رجال من بني النضير ومن بني وائل. ومن الواضح أن قيام بني النضير بالتأليب على الرسول كان دافعه الثأر لعشيرتهم التي طردها الرسول من المدينة، أي أنه دافع سياسي ديني محدّد بعشيرة معينة، فهو لا يمكن أن يكون محركاً لرجال بني وائل الذين يذكر كل من ابن إسحق والواقدي اشتراكهم في التأليب على الرسول (ص)، حيث أن بني وائل كانوا قد أسلموا منذ أن قُتلت العصماء، ولم يكن الرسول (ص) قد اتخذ موقفاً شديداً منهم قبل إسلامهم، أو ألقى عليهم أعباءً ثقيلة بعد إسلامهم. وقد يكون الذي دفعهم إلى التأليب هو أبو عامر الراهب الذي حقد على الرسول (ص) جَمْعَهُ أَهْلَ المدينة على الإسلام فحَرَمه زعامةً كان يطمح إليها. ولم تُشر المصادر إلى أن المؤلبين من بني النضير، أو بني وائل، حاولوا تأليب اليهود أو المعارضين والمنافقين في المدينة، ولا ريب في أن محاولاتهم، إذا كانوا قد قاموا بها، كانت فاشلة: لأن أهل المدينة ظلوا متماسكين، ولم يقوموا خلال الحصار بعمل يُخل بالتماسك، إلاّ ما كان من يهود قريظة في أواخر أيام الحصار.

ومن الصعب قبول قول ابن إسحاق والواقدي: إن قيام مشركي مكة بمعركة الخندق كان استجابة لتحريض بني النضير، وذلك لأن رجال قريش كانوا متمرسين بالسياسة، ويدركون مصالحهم الخاصة، فيهتمون بها دون غيرها، ولم يسبق لهم أن شاركوا في حرب تخدم مصلحة غيرهم، كما أنه لم ترد إشارة إلى وجود علاقة وثيقة سابقة بين قريش واليهود. والواقع أن قريشاً كانت لها مبرراتها الخاصة لقتال الرسول (ص)، إذ أن معركة أُحد لم توقف تهديده لقوافلها بل بالعكس كثّف نشاطه في تأمين نفوذه على القبائل المقيمة في طريق القوافل في شمال الحجاز. وكان أبو سفيان يدرك أن معركة أُحد لم تكن حاسمة، وأن الوضع يتطلب القيام بحملة جديدة، ولكن الجَدْب الذي أصاب الحجاز في السنة التالية من معركة أحد حَمَلَه على تأجيل إنفاذها: فالأرجح إذن

(١) مغازي الواقدي ٤٤١.

أن قيام قريش بإعداد الحملة كان لتأمين مصالحها الخاصة المهدَّدة، وليس لمجرد استجابة عاطفية لتحريض نفر من اليهود الدخلاء الأغراب عليهم، وأنه، إذا صحّ اتصال اليهود بهم، فإن الغرض من هذا الاتصال إنما كان التشجيع والتنسيق، وليس لإعداد قريش لعمل كبير يخدم مصالح غيرها.

كانت غطفان القوة العسكرية الكبرى الثانية التي شاركت في غزوة الخندق، ويذكر الواقدي أن المحرِّضين اليهود الذين أشرنا إليهم من قبل، بعد أن اتصلوا بقريش وبني سليم، «ساروا في غطفان فجلعوا لهم تَمْرَ خيبر سنة، وينصرونهم ويسيرون مع قريش إلى محمد إذا ساروا، فانضمَّت بذلك غطفان، ولم يكن أحد أسرع إلى ذلك من عيينة بن حصن»[(١)]. إن هذا النص يُظهر أن اشتراك غطفان قد تمّ بفعل مساعي المحرضين اليهود، وأن أهل مكة لم يتصلوا بهذه القبيلة أو برئيسها. والواقع أنه لم يعرف، في السابق، وجود علاقة وثيقة بين قريش وغطفان التي كانت ديارها في الأطراف الشمالية الشرقية من الحجاز، وهي تقيم في منطقة فقيرة بعيدة عن طريق تجارة مكة أو القبائل المحالِفة لأهلها، ولا ريب في أن العنصر المؤثر في غطفان هو رئيسهم عُيينة بن حصن الذي كان ذا نفوذ كبير فيهم وله أطماع شخصية واسعة وغير ثابتة، ولم تكن له علاقة ودية بالرسول (ص).

يقول الواقدي في النص الذي ذكرناه أعلاه، إن المحرِّضين أَغْروا غطفان بأن يجعلوا لهم تَمْر خيبر سنة، أي أن اشتراكهم تمَّ لتحقيق أغراض مادية لا علاقة لقريش بها. وإذا صحّ هذا فإن عُيينة يكون قد فاته أنه وُعِدَ بما لا يمتلكه هؤلاء المحرضون، وهو تمر خيبر، علماً بأن أهل خيبر لم يشاركوا في المعركة، ولم تُشِر الأخبار إلى قيامهم بعمل لمساعدة قريش وحلفائها، كما أن الحصول على منتوج خيبر لم يكن ليتحقَّق بدون معارك جديدة يخوضها عيينة ضد خيبر. والأرجح أن غطفان شاركت في الحرب بتحريض من قريش، وَوَعْدٍ

(١) الواقدي ٤٤٣.

بالحصول على غنائم من منتوج خيبر. ويذكر الواقدي أن عُيينة بن حصن قال: «إنا واللّه ما جئنا ننصرُ قريشاً، ولو استنصرنا قريشاً ما نَصَرتنا ولا خرجت معنا من حرمها، ولكني كنت أطمع أن نأخذ تمر المدينة فيكون لنا به ذكرٌ مع ما لنا فيه من منفعة»[1]. وهذا يظهر أن الدوافع لمشاركتهم مادية خالصة، قائمة على محالفة وقتية ليست لها أسس مكينة.

القوى المشاركة مع قريش

يقول ابن إسحق عن القوات التي شاركت في الخندق: فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عُيينة بن حصن في بني فزاره ومسعود بن رُخيلة فيمن تابعه من قومه من أشجع[2].

ويقول الواقدي: وخرجت قريش ومن تَبِعها من أحباشهم أربعة آلاف.. وقادوا معهم ثلاثمائة فرس. وكان معهم من الظهير ألف وخمسمائة بعير، وخرجوا يقودهم أبو سفيان بن حرب بن أمية.

وأقبلت بنو سليم فلاقَوْهم بمرّ الظهران. وخرجت بنو أسد وقائدها طلحة بن خويلد الأسدي، وخرجت فزارة فأوعبت وهم ألف يقودهم عيينة بن حصن، وخرجت أشجع وهم أربعمائة يقودهم مسعود بن رخلية، ولم توعب أشجع، وخرج الحارث بن عوف يقود قومه بني مرة وهم أربعمائة، كما جمعت غطفان للسير أبا الحارث بن عوف المرِّي، وقال لقومه: تفرقوا في بلادكم ولا تسيروا إلى محمد، فإني أرى أن محمداً أمره ظاهر، لو ناوَأهُ مَنْ بَيْنَ المشرق والمغرب لكانت له العاقبة، فتفرقوا في بلادهم ولم يحضر واحد منهم. هكذا روى الزهري، وروت بنو مرة. غير أنه يروى عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، وعن عاصم بن عمر أن بني مرة شهدت الخندق وهم أربعمائة

(١) الواقدي ٤٧٩.
(٢) ابن هشام ٣/ ٢٣٠؛ تفسير الطبري ٢١/ ٨١.

وقائدهم الحارث بن عوف المري، وهجاه حسان (ابن ثابت). فكان هذا أثبت عندنا أنه شهد الخندق من قومه[1].

لم تذكر المصادر الجهود التي بُذلت لحمل كل من بني سليم، وبني أسد، وأشجع، ومرة في المشاركة في القتال إذ أن هذه القبائل الثلاث كانت ديارها في مناطق شمال المدينة، ولم تكن لها علاقة وثيقة بأهل مكة، ولا كانت معروفة بتمسكها بأديان عبادات تدفعها لمناهضة الإسلام. فالأرجح أن اشتراكها كان بتحريض غطفان لغرض الحصول على الغنائم، ولذلك لم تقم بدور فعال في هذه الحرب، حتى إن بعض المصادر أغفلت ذكر مشاركتها.

يتبين مما تقدم أن معظم القبائل التي شاركت في قتال المسلمين في معركة الخندق لم تكن لها مبررات مقنعة أو دوافع عميقة في المشاركة، ولذلك لم تتحمَّس للقتال.

ذكر الواقدي عدد القوات التي تقدمت لقتال المسلمين وهي:

	الرجال	الخيل	الإبل
قريش والأحابيش	٤٠٠٠	٣٠٠	١٥٠٠
سليم	٧٠٠	؟	؟
أسد	؟		
فزارة	١٠٠٠	٣٠٠	
أشجع	٤٠٠		
مرة	٤٠٠		

استعداد الرسول (ص)

لا بد أن يكون الرسول علم بما كان يُدبَّر ضد الإسلام من استعدادات واسعة تطلبت وقتاً غير قصير ولم يكن من السهل إخفاؤها. ولعله قابَلَ ذلك

(١) الواقدي ٤٧٧.

بالعمل على تحصين الجبهة الداخلية وإعدادها لمواجهة الخطر بطريقة يتحاشى بها حدوث اضطراب أو بلبلة في المدينة، أو يتيح للمعارضين فرصة العمل على خلخلة وضع المسلمين في المدينة. وكانت قوات المسلمين، عند توافر التماسك الداخلي، كافية للصمود بوجه القوات الغازية. ولذلك لم يحاول الاستعانة بالعشائر المقيمة خارج المدينة لعدم وجود الحاجة إليها، فضلاً عن أن العمل على الاستعانة بها قد يكشف استعدادته داخل المدينة ويُلقي عليه عبء تموينها وإعاشتها.

يقول الواقدي: «فلما فَصَلت قريش من مكة إلى المدينة، خرج ركب من خُزاعة إلى النبي (ص) فأخبروه بفُصول قريش، فساروا من مكة إلى المدينة أربعاً، فذلك حين ندب رسول اللّه (ص) الناس وأخبرهم خبر عدوِّهم»[1]. أي أن الرسول (ص) أعلن عن الخطر بعد أربعة أيام من تحرك أهل مكة، وأن الوقت الذي توافر له للقيام بالاستعدادات العلنية لم يكن طويلاً.

قرَّر الرسول (ص) الدفاع عن المدينة بالبقاء داخلها ودون الخروج منها، وعُني بتنظيم الدفاع داخل المدينة، فوزَّع النساء والأطفال على الآطام للتحصُّن فيها، فكانت زوجته عائشة في حصن بني حارثة مع أم سعد بن معاذ، وكانت عمته صفية بنت عبد المطلب في حصن فارع[2]. «كان رسول اللّه (ص) يبعث سلمة بن أسلم في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة ويُظْهرون التكبير، وذلك أنه كان يخاف على الذراري من بني قريظة، وكان عباد بن بشر على حرس قبة رسول اللّه (ص) مع غيره من الأنصار يحرسونه كل ليلة»[3] «ووضع بنو عمرو بن عوف النساء والذرية في الآطام، وخندق بعضهم حول الآطام بقباء، وحصَّن بنو عمرو بن عوف، وخطمة وبنو أمية ووائل وواقف ذراريهم في آطامهم. وكانوا يتعاهدون أهليهم بأنصاف النهار

(١) الواقدي ٤٤٤.
(٢) ابن هشام ٣/٢٤٣، ٢٤٦؛ ابن سعد ٢ ـ ١/٤٨.
(٣) الواقدي ٤٥١.

بإذن النبي»[١]. ولما وصلت قوات المشركين سيطر المسلمون على الجبهة الداخلية في المدينة، فلم يقم المعارضون والمنافقون بعمل جدّي يهدد موقف المسلمين أو يضرُّهم. وحشد الرسول (ص) ثلاثة آلاف من المقاتلة، أي حوالي تسعة أضعاف القوة الإسلامية التي قاتلت في بدر، وثلاثة أضعاف قوتهم عندما خرجوا إلى أُحد. وكانت المناطق الجنوبية والغربية من المدينة تكثر فيها الوديان والمزارع والبيوت المتقاربة، ويجري من ورائها وادي العقيق فيكون خطّاً دفاعياً يكفي لعرقلة حركات المهاجمين، أما الجهات الشمالية الشرقية فكانت وعرة وفيها جبل أُحد، وكانت المنطقة الشمالية الغربية من المدينة ذات طبيعة أرضية تجعلها ثغرة يمكن تهديد المدينة منها. والواقع أن الجيوش الثلاثة التي تقدمت في العهود الإسلامية لمقاتلة أهل المدينة: قريش في معركة الخندق زمن الرسول، ووقعة الحرة زمن يزيد، وجيش العباسيين الذي تقدم للقضاء على ثورة محمد النفس الزكية، اختارت كلها هذه المنطقة للهجوم على المدينة.

ويرجع إلى الرسول (ص) فضل إدراك أهمية هذه المنطقة في الدفاع عن المدينة، إذ أن الحروب السابقة التي حدثت في المدينة كانت إما مقاتَلات محلية تجري داخل المدينة، أو في مناطق بعيدة عن المدينة. أما في معركة الخندق، فإن المدينة أصبحت، لأول مرة في تاريخها، مهدَّدة بحصار عام. والواقع أن المدينة تهدّدت في السنة الثالثة للهجرة عندما جاءت جيوش المشركين واختارت منطقة أُحد ميداناً للمعركة، فلم تظفر بانتصار حاسم رغم ما أصاب جيش المسلمين.

الخندق وحصار المدينة

ولتحصين المنطقة المذكورة، قرّر الرسول حفر خندق يُعيق تقدم الجيوش الغازية، ويمكّن المسلمين من الدفاع عن المدينة، وبذلك اختار بنفسه مسبقاً ميدان المعركة، وجرَّ المشركين إليه.

---

(١) ابن سعد ٢ ـ ١/٤٨.

حُفر الخندق في أرض صلبة، كثيرة الصخور، وبُدىء بحفره بعد تحرك جيوش المشركين من مكة، «وجعل المسلمون يعملون مستعجلين يبادرون قدوم عدوهم عليهم». وعمل الرسول (ص) معهم بيده لينشط المسلمون. ووكّل قوماً بعمل جانب منه: «فكان المهاجرون يحفرون من راتج إلى ذباب، وكان الأنصار يحفرون من ذباب إلى جبل بني عبيد، وكان سائر المدينة مشبكاً بالبنيان، فهي كالحصن. وخندقت بنو عبد الأشهل عليها مما يلي خططها حتى جاء الخندق من وراء المسجد. وخندقت بنو دينار من عند جربا إلى موضع دار ابن أبي الجنود اليوم، وفرغوا من حفره في ستة أيام»[1]، والأيام الستة التي استغرقها حفر الخندق مدة قصيرة، غير أن كثرة عدد مَنْ شارك في الحفر وحماستهم في العمل كان كافياً لجعل الخندق مانعاً عسكرياً بوجه القوة الغازية. كما أنه يسَّر حماية الفريقين من أخطار التراشق بالنبال.

يتبين من وصف امتداد الخندق أنه حُفر في منطقة محدودة، ولم يكن حول كل المدينة، ولا ريب في أن قول الواقدي إنه «كان سائر المدينة مشبكاً بالبنيان فهي كالحصن» فيه مبالغة، لأنه كان بالإمكان اختراق عدد غير قليل من الأماكن، وأن الاعتماد الأكبر في الدفاع عن المدينة كان قائماً على تماسك أهلها، وليس على تماسك بنيانها، وقد أشار القرآن الكريم إلى قبيلة ذكرت أن «بيوتها عورة»[2] أي أنها غير محصَّنة ويمكن أن ينفذ منها الغزاة.

يقول الواقدي إن جيوش الغزاة «الذين وافَوا الخندق من قريش، وسليم، وغطفان، وأسد، عشرة آلاف، فهي عساكر ثلاثة، وعِنَاجُ الأمر إلى أبي سفيان» غير أن ما ورد عن نزول هذه الجيوش يُظهر أنهم كانوا عسكرَين، وليس ثلاثة، فإن ابن إسحق يقول: «ولما فرغ رسول اللّه (ص) من الخندق، أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف والزّغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا جانب أُحد». ويقول الواقدي: «ونزلت قريش في رومة ووادي

---

(١) الواقدي ٤٤٦؛ ابن سعد ٢ ـ ١/ ٤٧ ـ ٤٨؛ ابن هشام ٣/ ٢٣٢؛ ابن حنبل ٣/ ٣٠٠، ٤/ ٨٢، ٣٠٣.

(٢) تفسير الطبري ٢١/ ٨١.

العقيق في أحابيشها ومَنْ ضَوَى إليها من العرب، وأقبلت غطفان في قادتها حتى نزلوا بالزغابة إلى جانب أُحد، وجعلت قريش تسرح ركابها في وادي العقيق في عضاهة. .»[1] وسرَّحت غطفان إبلها إلى الغابة في أَثْلِها وطَرْفائها في عضاه الجرف»، ويتبيّن من هذا أن قوات المشركين كانت عسكرَين رئيسَين، أحدهما عسكر قريش ومن تبعها من القبائل في أطراف مكة، وكانت ساحة هذا العسكر الجوانب الغربية من المدينة، وأنها شغلت رقعة واسعة ولم تتكدس كلها عند الخندق الذي كان محور المعركة.

مشاكل الحصار

دام الحصار قرابة شهر[2] لم يكن بينها حرب إلاّ الرمي بالنبل والحصار، ولم يكن بينهم قتال. إلاّ أن فوارس من قريش «تيمَّموا مكاناً ضيقاً من الخندق، فضربوا خيولهم، فاقتحمت منه، فجالت بهم في السَّبْخة بين الخندق وسلع، وكان عددهم قليلاً فاستطاع المسلمون حصرهم ورَدَّهم»[3]، ثم حشدوا في أحد الأيام كافة قواهم وقاموا بهجوم عام على الخندق، ولكنهم فشلوا. وكانت حصيلة كل هذا الحصار الطويل ثلاثة قتلى من المشركين وستة قتلى من المسلمين[4]، وهو عدد ضئيل جداً إذا قورن بحجم القوات المشاركة في القتال وطول مدة الحصار.

وصلت قوات المشركين المدينة بعد أن أتمّ أهلها جني ثمارهم وحصاد مزروعاتهم. وكان الفصل بارداً والأرض جرداء فواجهوا مشكلة تموين رجالهم ومواشيهم «وجعلت قريش تُسرِّح ركابها في وادي العقيق في عضاهة، وليس هناك شيء للخيل إلا ما حملوه من علف، وكان علفهم الذرة، وسرَّحت غطفان إبلها إلى الغابة في أَثْلِها وطَرْفائِها في عضاه الجرف، وقدموا في زمان ليس في

---

(١) الواقدي ٤٤٤.

(٢) يذكر الواقدي اختلاف الروايات في مدة الحصار بين أسبوعين وبضعة وعشرين يوماً (٤٩١).

(٣) ابن هشام ٣/٢٣٨، ٢٤١؛ الواقدي ٤٧٠.

(٤) ابن هشام ٣/٢٧٣؛ الواقدي؛ ابن سعد ٢ ـ ١/٤٩.

العِرض زرع، فقد حصد الناس قبل ذلك بشهر، فأدخلوا حصادهم وأتبانهم، وكانت غطفان ترسل خيلها في أثر الحصار، وكان خيل غطفان ثلاثمائة بالعرض فيمسك ذلك من خيلهم، وكادت إبلهم تهلك من الهزال وكانت المدينة ليالي قدموا جديبة»[1]. «وكان حصار الخندق في قَرٍّ شديد وجوع»[2].

والواقع أن مشكلة تموين الجيش وما معه من الكُراع كانت تزداد خطورتها بتقدم الأيام، وكانت من أهم أسباب انسحابهم قبل أن يحصلوا على نتيجة حاسمة. ويلاحظ أنه، رغم طول مدة الحصار، لم تصل المحاصرين إمدادات بالرجال أو المؤونة من أية منطقة زراعية، بما في ذلك خيبر واليمامة. ولا بد أن هذا الحرمان أظهر زيف ما قد يكون اليهود بذلوه من وعود للمشركين. وقد عبَّر أبو سفيان عن أزمة التموين وأثرها في انسحاب قريش بقوله «يا معشر قريش إنكم لستم بدار مقام، لقد هلك الخف والحافر وأجدب الجناب فارتحلوا فإني مرتحل»[3].

أما المسلمون فمن الطبيعي أن تكون مشكلة التموين أضعف وقعاً عليهم، لأن في داخل المدينة كثيراً من المياه والمزارع، وأن يكونوا استفادوا منها في تقوية مراكزهم وصمودهم، علماً بأن المزارع خارج المنطقة المحصورة كانت قليلة.

أدركت قريش أثر تماسك أهل المدينة في صمود المسلمين، وحاولت ضعضعة هذا التماسك باتّباع أساليب دبلوماسية، فاتصلت ببني قريظة، اليهود، وكانوا يرتبطون بعقد مع الرسول (ص)، واستطاعت إقناعهم بنقض العقد والانضمام إلى المشركين، وأحدث انضمامهم اضطراباً في صفوف المسلمين «ونجم النفاق، وخشي الناس، وعمّ البلاء، واشتد الخوف، وخيف على الذراري والنساء»[4]. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن

---

(١) الواقدي ٤٤٤.

(٢) الواقدي ٤٨٠.

(٣) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٥٠.

(٤) ابن هشام ٣/ ٢٤٧؛ ابن سعد ٢ ـ ١/ ٤٨.

فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب]. ولم يكن خطر تبدُّل موقف بني قريظة من قوتهم العسكرية التي لم تكن كبيرة، ولم ينضم إليها أحد من أهل المدينة. وإنما كان الخطر من فتحها ثغرة في خط دفاع المسلمين. ويذكر ابن هشام أن أوس بن قيضي طلب من الرسول (ص) أن يأذن لقومه من بني حارثة أن يخرجوا للدفاع عن بيوتهم لأنها أصبحت مهددة[1]. غير أن قريشاً لم تستغل ذلك واقتصرت على الطلب من قريظة أن تقوم بحركات عسكرية ضد المسلمين. وامتنعت قريظة من القيام بذلك بحجة حرمة يوم السبت عندهم، ولعل هذه حجة لتغطية شعورهم بالضعف وبأن قريشاً لن تعاونهم في القتال.

قام الرسول أيضاً بنشاط دبلوماسي لتفكيك خصومه فاتصل بعيُيْنة بن حصن رئيس غطفان، ووعده بثلث حاصل المدينة إن هو انسحب، فطلب عيينة بن حصن نصف الحاصل، ولكن الأنصار أقنعوا الرسول بمواصلة المقاومة وعدم إعطاء عيينة أي نصف[2].

أثر معركة الخندق

كان لطول مدة الحصار أثر في إحداث بعض الخلخلة في المدينة. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور]. ويذكر ابن هشام أن هذه الآية نزلت في رجال من المنافقين جعلوا يورُّون بالضعيف من العمل، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله (ص) ولا إذن.

---

(١) ابن هشام ٣ ـ ٢٣/١؛ تفسير الطبري ٢١/٨١، ٨٦، ٨٧.

(٢) ابن هشام ٣/٢٣٩؛ الواقدي ٤١٧ ـ ٨، ٤٨٣؛ أنساب الأشراف ١/٢٤٦.

وادعى أوس بن قيظي من بني حارثة أن بيوتهم مكشوفة لا يحميها الخندق «عورة خارج المدينة»[1]، ونجم النفاق من بعض المنافقين.

انسحاب قريش

أدى طول مدة الحصار، وتفاقم مشاكل التموين، وعدم الوصول إلى نتيجة حاسمة، إلى ملل القوات الغازية، ثم هبت عاصفة برد عاتية قرّر على أثرها أبو سفيان إيقاف الحصار والانسحاب[2]. وقد أشار القرآن الكريم إلى العاصفة وأثرها في تخاذل قريش حيث قال ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب/ ٩].

تمّ الانسحاب في يوم واحد، وقام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص مع مائتي فارس بحماية الانسحاب، وعادت قريش سالكة الطريق المألوف إلى ملل فالسيالة. أما غطفان فقد حمى انسحابها مسعود بن رحيلة والحارث بن عوف وفرسان من سليم، وسارت قواتها مع أشجع ومرة وسليم جميعاً إلى المراض ثم تفرقوا. ولم يقم الرسول (ص) بمطاردة القوات المنسحبة.

أهمية معركة الخندق

إن عدم نشوب قتال جدّي خلال الحصار الطويل لا يرجع إلى ضعف القدرة القتالية عند أي من المشركين والمسلمين، فإن كلاً منهما قد خاض معارك متعددة أظهر فيها دراية في القتال وكفاءة فيه. كما أنه لا يرجع إلى الخندق الذي لم يمتد إلاّ إلى مسافة قصيرة في منطقة محدودة، وكان يمكن عبوره لو قامت محاولة جدية لهذا الغرض، فضلاً عن أن وجود مناطق أخرى يمكن أن تنفذ منها قوات المشركين فتهدد القوات الإسلامية وتلزمها بدخول

(١) الأحزاب ١٣؛ تفسير الطبري ٢١/ ٨٦ ـ ٨٧.
(٢) ابن هشام ٣/ ٢٥٠، الواقدي ٤٩٠.

معركة ونشوب قتال. والواقع أن التدابير الدفاعية التي اتخذها الرسول تظهر أنه أدرك احتمال حدوث ذلك داخل المدينة.

لم يقم سكان المدينة بعمل بارز يهدد أمن المدينة وتماسكها في الصمود، وأن الآيات القرآنية تظهر أن نشاط المنافقين المعادي اقتصر على عدم المساهمة الجدِّية في حفر الخندق، وعلى كثرة تردّدهم على بيوتهم، دون القيام بعمل مخرب يفكك تماسك المدينة. ويمتد هذا الموقف إلى اليهود الذين لم يتعاونوا مع القوات الغازية، بمن في ذلك قريظة التي نقضت عهدها مع الرسول، وقررت الانضمام إلى الغزاة في آخر يوم، ولكنها لم تقم بعمل جدّي في القتال.

إن عدم نشوب قتال جدّي واسع خلال هذه الغزوة يرجع إلى ضعف الدافع إلى القتال عند القوات الغازية وإلى ضعف اعتقادهم بمبرراته.

أما قريش، فإن الرسول، حتى ذلك الوقت، لم يقم بعمل حاسم يهدد كيانها ووجودها، فهو لم يقم بحركة للهجوم على مكة، أو لتكوين حلف يهددها أو يعزلها، واقتصرت فعالياته ضدها حتى ذلك الوقت على ثلاث محاولات للهجوم على قوافلها عند مرورها قرب المدينة. وإذا كانت معركة بدر قد أثّرت في مكانتها، فإن انتصارها في معركة أُحد أزال ذلك الأثر ومكّنها من استعادة مكانتها، فلم تتألَّب عليها القبائل الحجازية. بل العكس هو الذي حصل: لقد عملت بعض هذه القبائل على تأليب الناس على المسلمين.

لا ريب في أن تأكيد الإسلام على أنه استمرار لدين إبراهيم الذي بنى بيت اللّه في مكة وجعلها مركزاً لعبادة اللّه، وتحويل القبلة إلى مكة، قد أثار في قريش الشكوك في المبررات الدينية لمخاصمة المسلمين، ويذكر ابن إسحق أن مشركي مكة سألوا اليهود الذين جاؤوا يحرضونهم على قتال الرسول (ص): «يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفَدِينُنا خير أم دينه»[1].

(١) ابن هشام ٣/ ٢٢٩ _ ٢٣٠.

ثم إن قريشاً لم يكن من سياستها تكوينُ دولة واسعة قد تجدها دولة الإسلام. وكل ما كانت تريده هو مكانة محترمة عند القبائل، وعلاقة جديدة تيسّر لهم مصالحهم، وقد كشفت الأحداث التالية مدى أثر الشكوك في نفوس قريش حين أقبل عدد من سادتهم يعلنون إسلامهم.

أما القبائل الأخرى، التي تعاونت مع قريش في معركة الخندق، وهي أسد وغطفان وسليم، فلم يكن الرسول (ص) قد بادأها بالهجوم، أو كان قد هددها، ولم تكن لها مصلحة في مقاتلة المسلمين إلا الغنائم التي لا تكفي لسفك الدماء، والتي قد تخلق عداوة مع أهل المدينة لا مبرر لها، علماً بأن ارتباطاتها بقريش لم تكن مكينة؛ وقد عبَّر سعد بن معاذ عن العلاقة السليمة المتأصلة بين أهل المدينة والقبائل المجاورة لهم بقوله: «إن كانوا ليأكلون العِلهز في الجاهلية من الجَهد، ما طمعوا بهذا منا قط، أن يأخذوا ثمرة إلا بِشِرىً أو قِرىً»[1].

يرجع الإنسحاب من المعركة إلى عدم تمكن قريش من الحصول على غنائم مُجْزِية، وإلى المشاكل التموينية التي واجهتها، حيث العدد الكبير من الخيول والإبل التي كانت مع الغزاة، وكثرة عددهم وتَعَسْكُرَهم خارج المدينة حيث لا توجد مزارع، والفصل البارد الذي أعقب السنة المجدبة، كل ذلك كان من شأنه أن يزيد مشكلة التموين كلما طال أمد الحرب، وقد أدرك ذلك أبو سفيان فاستغل عاصفة ترابية هبّت، واتخذها مبرراً للانسحاب الأخير، وبذلك تخلصت المدينة من أكبر خطر هدّدها، واقتنعت قريش بعدم جدوى محاولة اجتثاث الإسلام، كما أدركت القبائل الأخرى ذلك، فأقلعوا نهائياً عن محاولة الهجوم.

أظهر صمود المسلمين ثمار سياسة الرسول (ص) في إيجاد قاعدة مكينة للإسلام، وأنه، رغم وجود من لم ينصهر في الإسلام، فإنهم لا يكوّنون خطراً

(١) الواقدي ٤٧٨.

داخلياً، فازدادت قوة معنوياتهم، وقوة إدراكهم لأهمية الوحدة والتماسك، وأدرك الرسول (ص) إمكانية القيام بحركات على نطاق واسع فقال: «لن تغزوكم قريش بعد عامهم هذا ولكنكم تغزونهم»[1].

كانت غزوة الخندق آخر محاولة تقوم بها قريش للانتصار على الرسول والقضاء على الإسلام. وكانت قريش قد وضعت في هذه الحملة كل قُدراتها، وحشدت حلفاءها، وبقيت في الميدان مدة طويلة نسبياً، وقامت بنشاط دبلوماسي لتفكيك الجبهة الداخلية. فلما فشلت كل هذه الجهود، أدركت قريش عبث تجديد محاولاتها لإزالة الإسلام ودولته، كما ازداد تساؤلها عن مدى الصحة في أسس موقفها المعادي للرسول (ص). أليس الرسول والمهاجرون الأولون، الذين هم جوهر المسلمين، هم من قريش، ويؤمنون باللّه، ويقدسون البيت الحرام في مكة، ولهم فيها أقارب وأهل، وهم لم يقوموا بعمل كبير يبرر خرق الحرية التي يوفِّرها الحرم في مكة، أو يبرر المعاملة الفظة التي عوملوا بها، ثم يتعرضون باستمرار إلى هذا التهديد المتواصل. ثم إنه، إذا كان أهل مكة تجاراً، فهل الإسلام ودولته المتنامية يعارضان مصالحهم التجارية؟

إن انسحاب قريش وإيقافها لفعالياتها العسكرية ضد الإسلام، قد وفّرا للرسول فرصة زيادة الاهتمام بتوطيد الدولة وبسط هيبته على القبائل، التي كانت مصدر خطر على أمن الدولة وهيبتها، لذلك وجّه حملات متتابعة إلى تلك القبائل.

حملات الرسول (ص) في الحجاز

كشفت حوادث غزوة الأحزاب، والحوادث القريبة منها، أن المدينة أصبحت معرَّضة لخطر القبائل المقيمة في المناطق الشرقية والشمالية من المدينة. وأبرز هذه القبائل: غطفان، وأسد، وبنو كلاب، وبنو سليم. وكل هذه القبائل تقيم في مناطق شحيحة المياه، قليلة المراعي، كثيرة التموجات والمرتفعات.

---

(١) ابن هشام ٣/ ٢٧٤؛ أنساب الأشراف ١/ ٢٧٤.

وفي السنة السادسة من الهجرة، أنفذ الرسول قرابة عشرين حملة[1]، قاد بنفسه اثنتين منها، إحداهما ضد بني لحيان الذين كانت ديارهم بالقرب من عسفان القريبة من مكة. وكان الهدف من هذه الحملة الثأر لقتلى بئر معونة. ولما علموا بتقدم الرسول، هربوا إلى الجبال المجاورة وتمنّعوا فيها، فلم يحدث قتال، وقد استغل الرسول الفرصة فأرسل جماعة من جيشه وصلت إلى كُراع الغميم قرب مكة، لإظهار قوته.

وقاد الرسول (ص) أيضاً قوة طاردت عُيَينة بن حصن الذي أغار على سَرْحٍ للمسلمين كان يرعى في الغابة، بالقرب من المدينة، وقد أنفذ من هذه القوة محرز بن نضلة تابعت مطاردة عيينة بن حصن إلى ذي قرد بالقرب من خيبر واشتبكت معه في قتال.

وأرسل حملة بقيادة زيد بن حارثة إلى العيص استطاعت أن تظفر بقافلة قرشية، وتأسر رجالها.

غير أن معظم الحملات التي أنفذها الرسول (ص) في هذه السنة كانت موجهة إلى القبائل القاطنة في المناطق الواقعة شرقي المدينة، وكانت سرايا يقودها رجال من الصحابة. وقاد زيد بن حارثة ثماني حملات منها. وظفرت بعض هذه الحملات بغنائم من الشياه والإبل. وكان يرسل في كل شهر من هذه السنة حملة أو أكثر.

ومن هذه الحملات سَرِيَّة توجهت إلى بني أسد وصلت قرب فيد، فهرب بنو أسد وغنم المسلمون مائتي بعير، وأرسل سرية أخرى إلى ذي القصة لمقاتلة بني ثعلبة وعوال من غطفان. وقد انكسر المسلمون في الهجوم، فأنجدهم الرسول (ص) بقوة أخرى استطاعت أن تهزم الأعداء.

ووجّه حملة ثالثة إلى الطرف، وهي تبعد ستة وثلاثين ميلاً شرقي المدينة على طريق النقرة، وغنمت نَعَماً وشِياهاً.

---

(١) ابن سعد ٢ ـ ١/٥٦ ـ ٦٨.

كما أرسل حملة على بني سليم وصلت الجموم في بطن نخل، وظفرت بعدد من الأسرى والنَّعَم والشاة.

وأرسل في تلك السنة ست حملات إلى عدد من الأماكن الواقعة في حسمي ووادي القرى، ودومة الجندل، وفدك وكان الغرض من إرسالها معاقبة المعتدين على تجارات المسلمين المارة فيه، أو تأمين الطريق لتجارة المسلمين، وهي تُظهر أن المسلمين في المدينة أنْمَوْا، منذ قدومهم إلى المدينة، تجارة مع بلاد الشام نشطة ودائمة، فتطلّب ذلك اتخاذ الإجراءات اللازمة لحمايتها وتأمينها.

ووجَّه الرسول (ص) حملة على بني سعد بن بكر، وكانوا يريدون أن يمدوا يهود خيبر لمقاومة المسلمين. كما أرسل من اغتال أبا رافع بن أبي الحقيق، وأسير بن رزام، اللذين كانا يقومان بنشاط لتكوين جبهة من غطفان وبعض القبائل العربية لمقاومة الرسول وتهديد الإسلام.



الفصل الثالث عشر

صلح الحُدَيْبِيَة

قرر الرسول، في ذي القِعدة من السنة السادسة للهجرة، القيام بالعُمرة إلى مكة، واستنفر القبائل العربية القاطنة بين مكة للسير معه، فتثاقلوا، وكان أكثر من انضم إليه مِن أسلم. واجتمع معه حوالي ألف وأربعمائة رجل يلبسون لباس الإحرام. وساق معهم سبعين بُدْنة بعد أن جلّلها وأشعرها وقلّدها في ذي الحليفة[1]، على مسافة قصيرة من المدينة، وسار بها مظهراً بذلك غرضه من سفره وهو أداء فريضة دينية في شهرٍ حرام إلى مكة.

ولما سمع مشركو قريش في مكة بسير الرسول (ص)، هاجوا وأرادوا منعه، وأرسلوا قوة أقامت ببلد خارج حَرَم مكة لمنعه. أما الرسول، فسلك طريقاً غير طريق المحجة حتى بلغ الحديبية[2]، وهي على طرف حدود حرم مكة. وعلى بعد تسعة أميال منها، ثم أرسل أهل مكة إلى الرسول (ص) رجالاً يحذرونه من هياج قريش ويطلبون إليه الرجوع، وكان أبرز هؤلاء الحليس بن علقمة سيد بني كنانة حليفة قريش القوية في الحروب.

إن ما حقّقه الرسول، بإظهار عزمه على القيام بالعمرة إلى مكة، وحرصه

(١) الواقدي ٥٧٢ _ ٣؛ ابن سعد ٦٩/٢، وعن عددهم انظر ابن حنبل ٤٢٠/٣، ٩٨، ٣٩٠، ٣٥٥، ٤٨/٤.

(٢) الواقدي ٥٧٤.

على تطبيق متطلباتها في المسيرة السلمية وإشعار الهدى، أنه أوقع قريشاً في حرج كبير: فإذا أباحت له العمرة تكون قد رضيت بتحديه وزعزعت ثقة الناس بادعائها خروجَه عن كل مقدساتها، وعَزْمَها على محاربته بسبب ذلك وقالوا: «تسمع به العرب وقد دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا. واللّه لا كان هذا أبداً ومنا عينٌ تَطْرِف»[1].

غير أن عدم السماح للرسول بزيارة مكة معناه أنها تناقض إدعاءها بحماية بيت اللّه الحرام، وتوفيرها التسهيلات لزوّاره وحُجَّاجه. وقد عبّر عن ذلك الحليس بن علقمة، وهو سيد كنانة حليفة قريش، وقد أرسلته قريش لإعلام النبي بعزمها على صده. فلما عرف رأي الرسول اقتنع وعاد إلى قريش يعلن عدم تأييد كنانة لقريش إذا أرادت مقاتلة الرسول وقال لهم: «يا معشر قريش: واللّه ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيُصَدُّ عن بيت اللّه من جاء معظِّماً له، والذي نفسي بيده لتُخْلُنَّ بين محمد وبين ما جاء له، أو لأَنْفُرَنَّ بالأحابيش نفرة رجل واحد»[2].

والواقع أن قريشاً، بالرغم من مظاهر الهياج الذي أظهرته لمنع الرسول (ص) من زيارة البيت الحرام، فإن إيمانها بوجوب مقاتلته قد بدأ يضعف، لأنها لم تفلح في الجهود الكبيرة التي بذلتها في السنوات السابقة لتحقيق هذا الغرض، كما أن مبرر قتاله ضعيف: فهو معظِّم للبيت، والمسلمون يتوجهون يومياً في صلواتهم الخمس إلى الكعبة، وقد جاؤوا الآن ليظهروا للعالم أنهم يحجُّون هذا البيت، فأين المبرر العقائدي لمحاربته.

ولا يخفى أن المهاجرين من المسلمين لاقوا معاملة قاسية، وكان لهم أقرباء وأصدقاء لا بد أنهم أخذوا يعطفون عليهم، ويَأْلَمون لما أصابهم، ولا يَرْون مبرراً لقتالهم. هذا فضلاً عن عدد من المسلمين الذين كانوا يقيمون في مكة ويتمنَّون انتصار الرسول[3].

---

(١) الواقدي ٥٧٩.

(٢) ابن هشام ٣/ ٣٦٠.

(٣) انظر الواقدي ٦٠١.

ثم إن التوسع الإسلامي في الدين والسياسة كان، حتى ذلك الوقت، في المدينة وأطرافها والمناطق الشمالية من الحجاز، وهي المناطق التي لم يكن لقريش نفوذ كبير فيها أو صلة وثيقة بها، أي أن التوسع الإسلامي لم يُصب مَقْتلاً من قريش، وإنما كان أمامها الاتصال باليمن والحبشة وبلاد نجد وسواحل الخليج العربي والعراق. حتى التجارة مع بلاد الشام لم يقض هذا التوسّع عليها، والنشاط الاقتصادي الذي مارسه المهاجرون في المدينة لم يكن مهدداً لقريش التي لم تكن لها مصالح اقتصادية في المناطق التي توطّد فيها الإسلام.

وروى ابن إسحاق أن بديل بن ورقاء الخُزاعي جاء إلى الرسول يخبره «أن قريشاً قد استَنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم، ومعهم العُوَّذ المطافيل، النساء والصبيان، يقسمون باللّه لا يخلُّون بينك وبين البيت حتى تبيد خضراؤهم، فقال رسول اللّه (ص): إنَّا لم نأت لقتال أحد، إننا جئنا لنطوف بهذا البيت، فمن صدّنا عنه قاتلناه، وقريش قوم قد أضرت بهم الحرب وأنهكتهم، فإن شاؤوا مادَدْتُهم مدَّة يأمنون فيها. ويخلون فيما بيننا وبين الناس، والناس أكثر منهم، فإن ظهر أمري على الناس كانوا بين أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس، أو يقاتلوا وقد جمعوا، واللّه لأجهدن على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو ينفذ اللّه أمره»[1].

يتبين من هذا النص أن الرسول (ص) ذكر استعداده لقتال من يريد صده عن الطواف بالبيت، وأنه عرض هدنة يسود خلالها السلم، وكان الغرض الديني من مجيئه، واستعداده لقبول الهدنة كافياً لإقناع حلفاء قريش من ثقيف وكنانة أن يعلنوا عدم تأييدهم قريشاً إذا أرادت مقاتلة الرسول.

ثم بعث الرسول (ص) عثمان بن عفان إلى مكة ليفاوض قريشاً على السماح للمسلمين بزيارة البيت وعَقْد هدنة. كما ذهب إليها أيضاً عشرة من

---

(١) الواقدي ٥٩٣؛ ابن هشام ٣/٣٥٦ ـ ٧؛ تفسير الطبري ٢٦/٦١ (عن عروة) الذي يقول إن كعب بن لؤي وعامر بن لؤي كانا أكثر قريش حماساً للقتال.

المهاجرين فزاروا أهلهم وبقي عثمان في مكة ثلاثة أيام انقطعت أخباره عن المسلمين، فظنوا أن المشركين قد قتلوه مع من دخل إلى مكة من المسلمين، وأنهم عازمون على القتال[1]، فتوتر المسلمون.

قرّر الرسول أن يجدد المسلمون البيعة، فجلس تحت شجرة سِدْر فتقدموا يبايعونه على أن لا يفرّوا إذا نشب قتال مع قريش[2]، ولم يمتنع عن البيعة إلا نفر قليل من المنافقين، ولما علمت قريش ببيعة المسلمين واستعدادهم للقتال، لانت وقررت الموافقة على عدم القتال، وعلى عقد صلح وموادعة مع الرسول، وأرسلوا ثلاثة من رجالهم للاتفاق على ذلك، وجرت المفاوضة وكتب كتاب الصلح: «باسمك اللهم»؛ وأشار القرآن الكريم إلى ذلك ﴿۞ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح/١٨].

«هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه لا إسلال ولا إغلال، وإن بيننا عيبة مكفوفة.

«وإنه من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل، وإنه من أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها فعل.

«وإنه من أتى محمداً منهم بغير إذن وليّه رَدَّه إليه، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم تَردَّه.

«وإن محمداً يرجع عنا عامه هذا بأصحابه، ويدخل علينا قابلَ في أصحابه، فيقيم ثلاثاً لا يدخل علينا بسلاح إلاّ بسلاح الراكب: السيوف في القُرُب»[3].

ولما تمت كتابة الكتاب أعلن من حضر من الخزاعيين أن خزاعة تدخل في عهد الرسول، وأعلن الكنانيون أن كنانة تدخل في عهد قريش.

---

(١) الواقدي ٦٠٢، ٦٠٣؛ وانظر: تفسير الطبري ٥٤/٢٣.
(٢) الواقدي ٦٠٣، ٦٠٥؛ ابن حنبل ٢٥/٤، ٥١.
(٣) ابن هشام ٣٦٦/٣؛ الواقدي ٦١٢.

أحدث كتابُ صلح الحديبية اضطراباً في صفوف المسلمين، ويقول الواقدي في ذلك: «وقد كان أصحاب رسول اللّه (ص) يكرهون الصلح لأنهم خرجوا لا يشْكُون، حتى كادوا يهلكون»[1]. ويُروى أن عمر بن الخطاب قال للرسول (ص): يا رسول اللّه ألست برسول اللّه، ألسنا على الحق؟ أليس عدونا على الباطل، فلِمَ نعْطِ الدنيّة في ديننا»[2].

ويروي الواقدي أنه، بعد إتمام الكتاب، «قال رسول اللّه (ص) لأصحابه قوموا فانحروا واحلقوا، فلم يُجِبْه منهم رجل إلى ذلك، فقال الرسول (ص) ثلاث مرات، كل ذلك يأمرهم، فلم يفعل واحد منهم ذلك، فانصرف رسول اللّه (ص) حتى دخل على أم سلمة زوجته مُغْضباً شديد الغضب، وكانت معه في سفره، فاضطجع فقالت: ما لك يا رسول اللّه، مراراً لا يجيبها ثم قال: عجباً يا أم سلمة إني قلت للناس انحروا واحلقوا وحلوا مراراً، فلم يجبني أحد من الناس إلى ذلك، وهم يسمعون كلامي وينظرون في وجهي، قالت فقلت يا رسول اللّه: انطلق إلى هَدْيِك فانحره، فإنهم سيقتدون بك»[3]. ثم قام الرسول فنحر هديه فتتابع المسلمون ينحرون هديهم، وكان ذلك خاتمة التشويش الذي حدث.

رأى المستاؤون أن في بنود الصلح تنازلاً مهيناً، لأن الرسول في رأيهم رضي بها أن يؤجل تنفيذ ما خرج من أجله، وهو زيارة البيت الحرام، وأنه أقرّ شروطاً غير متكافئة في ردّ من يلجأ إليه والسماح لقريش ألا تردّ من يلجأ إليها، فضلاً عن أنه هادن قريشاً بعد كل ما قامت به ضد الإسلام والمسلمين.

إن الحجج التي استند إليها المستاؤون من عقد صلح الحديبية قد اعتمدت على فهم سطحي يناقض جوهر الاتفاق وحقيقته.

١ ـ فقد ادّعوا بأن موافقة الرسول (ص) على عدم زيارة البيت مناقضة

(١) الواقدي ٦٠٧.

(٢) الواقدي ٦٠٨؛ البخاري: الشروط، الجزية ١٨؛ تفسير الطبري ٢٧/٥٩.

(٣) الواقدي ٦١٣.

لغرض سيره إلى الحديبية. ولكن الحقيقة هي أن الرسول لم يتنازل عن زيارة البيت، وإنما أجّل تنفيذه إلى السنة التالية، بعد أن حصل على إقرار من قريش بحقه في زيارته. وبالفعل قام في السنة التالية بالعُمرة، وطاف بالكعبة وصلّى في فنائها، وأمضى في مكة ثلاثة أيام. فالرسول (ص) لم يتنازل، وإنما قريش هي التي تنازلت فأقرت للرسول (ص) بالزيارة بعد أن كانت تمتنع عن ذلك وتسيء الظن بالإسلام.

٢ ـ ارتأى المعترضون أن الرسول، بموافقته على ردّ من يلجأ إليه من أهل قريش، وعدم ردها من يلجأ إليها من أصحاب الرسول، قد أقرّ بعدم التكافؤ وبإعطاء قريش شروطاً مفضّلة. غير أن هذا الاعتراض سطحي أيضاً. إذ لا مبرر لاحتفاظ الرسول بمن لا يريد الإسلام، بينما المسلم الذي يريد اللجوء إليه يكون قد جاء بإيمان قلبي مخلص للإسلام، فردُّه إلى قريش لا يزيل عقيدته، وإنما بالعكس يجعله يُكْثر من مؤيدي الإسلام في صفوف قريش، فيضَعْضِعون صفوفها، ويخلقون لها المشاكل.

والواقع أنه، بعد أن تم الاتفاق في الحديبية، لجأ إلى الرسول رجل اسمه أبو بصير، وهو من حلفاء زهرة في مكة، فأرسلت قريش رجلاً إلى الرسول تطلب إليه رد أبي بصير. فأمر الرسول برده، ولكن أبا بصير قتل الرسول الذي أرسلته قريش لردّه، وجمع عدداً من الرجال وأخذ يغير على قوافل قريش في الحجاز، وسبب لها ذلك قلقاً كبيراً وأضراراً، فأرسلت تطلب إلى الرسول أن يقبل لجوء أبي بصير إليه[1].

٣ ـ إن البند الخاص بِردّ الرسول (ص) المسلمين إلى قريش الذين يقدَمون عليه دون إذن مَوَاليهم نصّ على ردّ الرجال ولم يشر إلى النساء، وبذلك اعتبر الرسول (ص) أن هذا البند لا يشمل النساء «فكان يردّ الرجال، فلما هاجر النساء أبى أن يردهن إذا امتُحِنّ بمحنة الإسلام»، وقد قبل المشركون بقرار

(١) الواقدي ٦٢٤؛ ابن هشام.

الرسول (ص) على أن يردّ صَداق المنضمّات إلى الإسلام إلى أزواجهن[1]، وقد هاجرت بعض النساء، وأول من هاجر أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط[2].

٤ ـ إن إقرار قريش بصلح الحديبية معناه اعترافهم بالرسول ندّاً لقريش وطرفاً مقابلاً لها، فضلاً عن أنه يظهر تقديرها لقوة الرسول (ص)، وإدراكها لصعوبة القضاء عليه، ولذلك أقرّت بالهدنة ليحل السلم محل حربٍ لا طاقة لها بها.

٥ ـ إن الاتفاقية محددة بعشر سنوات، وبنودها عامة لا تغطي كافة الاحتمالات التي قد تظهر على مرّ الأيام. وبالفعل لم يمضِ عليها سنتان حتى حدثت مشاكل بين القبائل أعطت مبرراً للرسول بإنهائها لمصلحته.

٦ ـ إن العشرين يوماً التي قضاها الرسول في الحديبية كانت مفعمة بالحوادث المتتابعة التي أبرزها بيعة الرضوان، أو بيعة الشجرة حيث جدد المسلمون البيعة للرسول على الصمود، وبذلك ثُبِّتت سلطة الرسول ومكانته العليا في أحوال أثارت البلبلة والقلق بين المسلمين، وبذلك اعتبر كثير من المسلمين أنها هي الفتح. يروي البخاري عن البراء قوله: «تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعدّ الفتح ببيعة الرضوان يوم الحديبية»[3]. ويروي الواقدي أن كلاً من أبي بكر وعمر كانا يقولان فيما بعد «ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية»[4]. ومن المتفق عليه أن الآية الكريمة ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح] تشير إلى الحديبية[5]. والواقع أن كافة آيات سورة «الفتح» تصف الأحوال التي كانت في الحديبية. لقد ذكرت أن هذا الفتح إتمام لنعمة اللّه، وأنه ظهر فيه هدوء المسلمين وثقتهم بدينهم، رغم شكوك المنافقين وتخلُّف الأعراب وظهر للبعض أن الإسلام سيقضي عليه،

---

(١) ابن سعد ٨/ ٦.

(٢) ابن سعد ٨/ ١٢٧.

(٣) البخاري: الحديبية، وهذا رأي الشعبي ومجاهد وابن مسعود وقتادة وجابر بن عبد الله وأَنَس بن مالك: تفسير الطبري ٢٦/ ٤٣ ـ ٤٤؛ وانظر ابن حنبل ٣/ ٤٢٠.

(٤) الواقدي ٦٠٩ ـ ١٠.

(٥) البخاري: تفسير سورة الفتح.

ولكن القتال لم ينشُب. وقال تعالى في هذه السورة: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح/١٨]، وقال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح].

٧ ـ أحلت الهدنة السلم محل حالة الحرب التي ظلت قائمة ست سنوات، وبذلك وفَّرت الطمأنينة والحرية للناس، ويسَّرت لعدد ممَّن كان يؤمن بالإسلام أن يعلنوا إسلامهم، كما هيأت للرسول فرصاً أوسع للعمل على نشر الدين الإسلامي، بعد أن كانت قريش قد بذلت مساعيها لصد الناس عن الإسلام، فزال الخوف منها، ولم تعد بحاجة لمجاملتها، وقد عبّر عن ذلك الواقدي بقوله: «كانت الحرب قد حجزت بين الناس وانقطع الكلام، وإنما كان القتال حيث التقوا، فلما كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها وأمَّن الناس بعضهم بعضاً، فلم يكن أحد تكلّم بالإسلام لم يفعل شيئاً إلاّ دخل في الإسلام، حتى دخل في تلك الهدنة صناديد المشركين الذين يقومون بالشرك وبالحرب: عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وأشباه لهما، وإنما كانت الهدنة حتى نقضوا العهد اثنين وعشرين شهراً، دخل فيها مثل ما دخل في الإسلام قبل ذلك وأكثر، وفشا الإسلام في كل ناحية من نواحي العرب»[١]. ويقول أيضاً: «فلما وقعت القضية أسلم في الهدنة أكثر من كان أسلم من يومَ دعا الرسول إلى يوم الحديبية»[٢].

والواقع أن الحرية العامة التي وفّرها صلح الحديبية أفادت المسلمين دون قريش، لأن المسلمين هم الذين كانوا يقومون بنشاط إيجابي لنشر الدعوة، ولأن المؤمنين بالإسلام هم الذين كانوا يخافون من قبل إعلان إسلامهم، فأتاحت لهم الهدنة مجال الإفصاح عن عقائدهم. ثم إن الهدنة توّجت جهود النبي بإظهار مبادىء الإسلام وقدرتها على إيجاد مجتمع متماسك نشط.

(١) الواقدي ٦٤٢.
(٢) الواقدي ٦٠٧.

لقد هيَّأ صلح الحديبية، لعدد من المسلمين الذين كانت قريش قد منعتهم من الهجرة، فرصة الانضمام إلى الرسول (ص) في المدينة. يروي ابن سعد أن نعيم النحام، وهو من السابقين في الإسلام في مكة، لم يهاجر «حتى كانت سنة ست فقدِم مهاجراً إلى المدينة ومعه أربعون من أهله. قال محمد بن عمرو كان نعيم هاجر أيام الحديبية»[1].

وأخذ كثير من القبائل تعلن إسلامها. يقول الواقدي «لما انصرف رسول اللّه (ص) من الحديبية لم يبق من خزاعة أحد إلاّ مسلم مُصدِّق بمحمد»[2].

وفي السنة التالية، قام الرسول (ص) بالعُمرة وزيارة الكعبة وصحِبه ألف وسبعمائة من المسلمين طافوا بالكعبة وهم يرْمُلون، أي يهرولون، فكانت مظاهرة أثّرت في نفوس أهل مكة لما بدا في المسلمين من نظام وتماسك وحماس منبعث من إيمان قلبي، ثم أذّن بلال عند الكعبة، وأقام المسلمون ثلاثة أيام في مكة، ونحروا هَدْيهم، ثم عادوا إلى المدينة[3].

كان لهذه العمرة أثر بالغ في نفوس أهل مكة، فأدركوا أثر الدين الإسلامي في نفوس معتنقيه، وزاد عطفهم على المسلمين، واستعدادهم للانضمام إلى الإسلام بعد أن أدركوا انعدام المبرر لمحاربته، أو القدرة على القضاء عليه.

وأقبل عدد من سَرَاتهم وكبار رجالهم إلى المدينة يعلنون إسلامهم. ومن أبرز هؤلاء خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة، الذين جاؤوا في صَفَر من السنة الثامنة يعلنون إسلامهم، فرحَّب الرسول بهم، واستخدمهم في مهمات حربية غير قليلة أظهروا فيها كفاءة وإخلاصاً.

---

(١) ابن هشام ٣/ ٢٧٣.

(٢) الواقدي ٧٤٩.

(٣) الواقدي ٧٤٥.



الفصل الرابع عشر

إخضاع المستعمرات اليهودية في الشمال

خيبر وفدك ووادي القرى

خيبر ـ موقعها وأهميتها

خيبر منطقة تقع على بعد مائتين وخمسين ميلاً شمالي المدينة، وفيها عدد من الوديان أكبرها وادي السرر، وهو الوادي الأدنى وفيه الشّق والنطاة، ووادي خاص اللذان يجريان إلى الجنوب ويصبّان في البحر الأحمر شمالي الفرع؛ ومن وديانها الصغرى وادي بعث ووادي الرجيع الذي اتخذ الرسول (ص) فيه مقره أثناء غزوته.[1].

وتتوافر في خيبر وأطرافها المياه والينابيع التي تقوم عليها المزروعات وخاصة النخيل والشعير. وكانت خيبر ريف الحجاز طعاماً ووَدَكاً وأموالاً. وقد اشتهر صيحاني خيبر بأنه أجود تمور الحجاز[2]. غير أن توافر المياه في خيبر

---

(١) مغازي الواقدي ٦٤٤.

(٢) مغازي الواقدي ٦٣٤، ٤٠٧؛ ياقوت ٣/ ٦٨٢. وانظر تفاصيل أوفى في بحثنا «أراضي المغانم وأحكام الرسول (ص) فيها»، المنشور في مجلة «المنارة» ١٩٩٦، وكذلك ما كتبه لامنس في كتابه «مهد الإسلام» (بالفرنسية). وانظر مقال سعد الراشد المنشور في مجلة العصور ٣ ـ ٢ ص٢١١ ـ ٢١٢.

جعلها موبوءة بالملاريا[١] وكانت تغل أربعين ألف وسق[٢].

تذكر أخبار غزوة خيبر أنه كان في وديانها سبعة حصون رئيسة هي الكتيبة، والوطيح، وسلالم، وشق، والغموص، وناعم، والنطاة. والكتيبة وادٍ ممتد بين الوطيح وخاص، وهو يبعد عن مركز خيبر بريداً أي قرابة أربعة أميال، وكانت عنده الصهباء، وهي أهم المناطق الزراعية في خيبر[٣] وفي وادي خاص الذي فتحه المسلمون بعد تغلبهم على مقاومة شديدة. وهذه الحصون الثلاثة متقاربة حتى إن بعض المصادر اعتبرت الوطيح وسلالم حصنين فرعيين من الكتيبة[٤].

أما الشق والنطاة فقد سُمِّيا بواديين بينهما أرض تُسمّى بالمخاطة[٥]. وكانت النطاة في أطرافها الجنوبية، وفيها عين وافرة المياه وموبوءة بالملاريا، وهي أول حصن هاجمه المسلمون وكان فيه خمسمائة مقاتل أبدوا مقاومة؛ وفيه عدة حصون منها حصن الصعب بن معاذ، وحصن مرحب وقصره ومنزل أخيه ياسر[٦]، وحصن ناعم وحصن قلعة الزبير[٧]، وحصن النزار الذي بنى فيه عيسى بن موسى مسجداً لصلاة العيد[٨].

أما الشق ففيه حصون ابن أبي الحقيق وعينٌ لشمس الحمة، يجري ماؤها في فلج من الأرض [٩]، وبالقرب من الشق كان حصنا ناعم والغموص[١٠]، ويبدو أن هذه الحصون الثلاثة كانت في الجهات الجنوبية من

---

(١) مغازي الواقدي ٦٤٦، ٦٦٠؛ الحيوان للجاحظ ٤/ ١٣٥.

(٢) الأموال لأبي عبيد ٧٦. وانظر كتاب جلال سعد الراشد: الآثار الإسلامية في الجزيرة العربية، مجلة العصور، م ٣، ج ٢، ص ٢١١ ـ ٢١٢.

(٣) البكري ٥٢٣، ١١١٥؛ ياقوت ٤/ ٢٣٧؛ وفاء الوفا ٢/ ٣٦٤.

(٤) مغازي الواقدي ٦٤٥ ـ ٧؛ ابن سعد ٢ ـ ١/ ٧٧؛ وفاء الوفا ٢/ ٣٦٤، ٢٣٧.

(٥) وفاء الوفا ٢/ ٢٧٠.

(٦) ابن البكري ٥٢٢، ٥٢٤.

(٧) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٧٧.

(٨) وفاء الوفا ٢/ ٣٣٠.

(٩) البكري ٥٢٢؛ وفاء ٢/ ٢٨٣.

(١٠) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٧٧؛ وانظر البكري ٢٣٣، ٥٢٢، ١٥٠٥؛ ياقوت ٢/ ٥٠٣، ٣/ ٨٨٨، ٤/ ١٣٧، ٧٣٢، وفاء الوفا ٢/ ٣٦٣.

خيبر لأنها كانت أول ما هاجمه الرسول (ص) منها. وقد أبدت مقاومة شديدة استسلمت بعدها.

استوطن اليهود خيبر في أزمة لم تحدِّدها المصادر التاريخية، ولعلهم جاؤوها بعد أن طردهم الرومان من فلسطين في القرن الأول قبل الميلاد. وقد اشتغل أهلها بالزراعة، وكانوا يُموِّنون كثيراً من القبائل المقيمة في الأطراف الشمالية من الحجاز، كما أنها صارت ملجأ لبعض اليهود الذين أقصاهم الرسول (ص) من المدينة، ولا سيما بني النضير الذين لجأوا إليها وأخذوا يقومون بنشاط «دبلوماسي» للتأليب على الرسول وتكتيل خصومه.

وعندما عاد الرسول (ص) من الحُديبية بعد عقده الصلح فيها، أمر أصحابه الذين كانوا معه في الحديبية أن يسيروا إلى خيبر لفتحها، وكان عددهم ألفاً وثمانمائة[1]. ولا ريب في أنه استهدف من هذه الحملة أن يزيل مصدر خطر كان يهدد الدولة الإسلامية في المدينة، لأن خيبر كانت ملجأ بني النضير، ومعتمد فزارة، فالاستيلاء عليها يؤدي إلى القضاء على حركات بني النضير، وتفكيك الحلف الذي يقف سداً أمام توسع الإسلام نحو الشمال، ويلزم القبائل بالخضوع للرسول إذا أرادوا الامتيار من منتوجات خيبر.

وكان صلح الحديبية قد أمَّن دولة الإسلام من أخطار تهديدات مشركي مكة، ولكنه كان يستلزم الحد من نشاط الرسول (ص) من الجنوب، وهذا بدوره ييسر للرسول استخدام طاقات المسلمين لتوسيع الدولة شرقيَّ الحجاز وشماليَّه، ولا ريب في أن التوسُّع نحو الشمال يؤمِّن دولة الإسلام من تهديدات غطفان ورئيسها القلق عُيَينة بن حصن، ويوفِّر مصدراً من الموارد الكبيرة من منتوجات خيبر، ويرغم العشائر التي كانت تعتمد عليها في الحصول على ميرتها، أن تنصاع للرسول (ص)، كما أنه يؤمِّن له السيطرة على طرق التجارة إلى بلاد الشام، وهي التي كان لأجداد الرسول (ص) إسهام فيها، فضلاً عن ازدياد أهميتها للمهاجرين الذين استقروا في المدينة.

---

(١) البكري ٥٢٢؛ وفاء الوفا ٢/ ٢٨٢.

ومن المعلوم أن صلح الحديبية لم يُثمر عن زيارة مكة التي كان الرسول (ص) يؤمِّل كسباً معنوياً كبيراً منها، كما أنه لم يجلب غنائم مادية قد توفِّر كسباً معنوياً يُرضي بعض من هم بحاجة إليه، فكان فتح خيبر مصدر كسب مادي أغنى الموارد الإسلامية. ويروي البخاري أن عائشة قالت: «لما فُتحت خيبر قلنا الآن نشبع من التمر»، وعن ابن عمر أنه قال: «ما شبعنا حتى فتحنا خيبر»[1].

فتح حصونها

يذكر ابن إسحق أن الرسول (ص) أمر بالتحرُّك إلى خيبر حالما وصل المدينة عائداً من الحديبية، وأن غطفان أرادت إنجاد أهل خيبر ولكن إشاعة بلغتهم بأن الرسول (ص) وجَّه حملة ضدّهم، فانكفأوا إلى أماكنهم. فإن صحّ هذا، فإنه يدلّ على خطة تعاون قديمة بين غطفان وأهل خيبر. غير أن هذه العلاقة لم تكن وثيقة، لأن غطفان لم تحاول التقدم لإنجاد أهل خيبر طيلة الأسابيع التي ظل الرسول (ص) يقاتلهم فيها.

حاول أهل فَدَك إمداد أهل خيبر، ولكن محمّداً (ص) أرسل سرية بقيادة علي بن أبي طالب أغارت على فدك وغنمت منهم عدداً من الإبل والماشية.

باغت الرسول (ص) أهل خيبر بالوصول إليهم، فلجأوا إلى حصونهم يدافعون عن منها أنفسهم متفرقين. ويظهر من أخبار فتحها أن أهلها لم يجتمعوا معاً في قتال المسلمين، فكان الرسول (ص) إذا حاصر حصناً لم يقاتله غير أهل ذلك الحصن دون أن يلْقَوا عوناً أو نجدة من أهل الحصون الأخرى. وهذا يُظهر تفكّكهم وانقسامهم على أنفسهم وفقدانهم قادة ذوي سلطة واسعة ونظرة ستراتيجية شاملة.

بدأ الرسول (ص) بالهجوم على ناعم والنطاة، وكان اليهود قد وضعوا

(١) البكري ٥٢٣؛ ياقوت ٤/ ٧٣٢؛ وفاء الوفا ٢/ ٣٦٣، ٣٨١.

النساء والذرية في ناعم فاستسلم له بسهولة، أما النطاة فكان فيه خمسمائة مقاتل وكثير من الطعام والمتاع والماشية[1]، فأبدى ممن فيه مقاومة دامت عشرة أيام انتهت باستسلام الحصن بعد قتال شديد[2]، ثم استولى على حصن الزبير بعد مقاومة دامت ثلاثة أيام[3]، وقضى الرسول (ص) الأيام الثلاثة التالية في حصار الشق الذي استسلم بعد قتال شديد.

ثم تقدم المسلمون إلى الكتيبة والغموص والوطيح وكانت حولها أخصب أراضي خيبر، وقد تجمع فيه أكثر من ألفي يهودي اضطرّوا إلى الاستسلام بعد مقاومة دامت أربعة أيام، وتلا ذلك استسلام حصن السلالم، وبذلك أصبحت خيبر في هيمنة المسلمين[4].

ولما أتمّ الرسول (ص) إخضاع أهل خيبر أبقاهم في أرضهم يعملون، وفرض عليهم أن يُعطوه نصف منتوج مزارعهم السنوي[5]. وهذه النسبة تشبه ما كانت تأخذه الدول الأخرى من فلاحيها آنذاك، والراجح أن الرسول (ص) لم يبحث أمر ملكية الأرض أو تنظيم العمل الزراعي وجباية المنتوج.

ظل أهل خيبر يعملون في أراضيها ويدفعون نصف المنتوج للمسلمين، وكان الرسول (ص)، ثم أبو بكر من بعده، يرسلون رجلاً يَخْرِصُ المنتوج ويحدد مقدار حصة المسلمين، وظل هذا الوضع حتى وُلِّي عمر بن الخطاب، وكثرت أيدي المسلمين العاملة، وقويت على عمل الأرض، فأجلى عمر اليهود إلى الشام، وقسم الأموال بين المسلمين[6]. ويروي بعض كتب الحديث أن إجلاء عمر ليهود خيبر كان بسبب إصابة بعض الصحابة الذين زاروا المنطقة. وعَزَوا ذلك إلى سحر اليهود؛ ولا ريب في أن هذه الروايات الأخيرة، إن صحت،

(١) مغازي الواقدي ٦٤٥ ـ ٧.
(٢) كذلك ٦٥٨.
(٣) كذلك ٦٦٩.
(٤) كذلك ٦٦٧ ـ ٦٧٠.
(٥) انظر الخراج لأبي يوسف.
(٦) الأموال لأبي عبيد ٩٧.

فإنها تمثل مبرِّراً للقيام بعمل يقتضيه التطور العام، وهو توافر الأيدي العاملة في المدينة وإمكان استخدامهم للعمل بخيبر لإعمارها، وتخفيف الضغط السكاني على المدينة، وإمكان استخدامهم.

جرت خلال غزوة خيبر عدة أمور ردّدت ذكرَها كتب الحديث لعلاقتها ببعض التشريعات الإسلامية. ومن هذه الأمور تحريم أكل الحُمُر الأنسية[1] وزواج الرسول صفية من غير مهر[2].

فَدَك

فدك واحة خصبة تقع شماليَّ شرقيِّ خيبر، على مسيرة يومين منها، وعلى مسيرة ليلة من جبل طَيّ[3]. وفيها حصن يدعى الشمروخ[4] وبعض القرى والمزارع، وكان أهلها من اليهود، ولهم رئيس اسمه يوشع بن نون، ويبدو أن علاقتهم بأهل خيبر كانت حسنة. ولمّا قام الرسول بحصار خيبر، حاول أهل فدك إنجادهم، فوجّه الرسول (ص) إليهم سرِيَّة عليها علي بن أبي طالب فمنعهم من إنجاد خيبر.

فلما أتمّ الرسول إخضاع خيبر، خاف أهل فدك، وبعثوا إلى الرسول (ص) يصالحونه على النصف من فدك، فقبل ذلك منهم وكانت لرسول الله خالصة لأنه لم يُوجِف عليها بخيل ولا ركاب[5].

ولمّا وُلّي الخلافةَ عمرُ بن الخطاب أجلى اليهود من أهل فدك، بعد أن عوَّضهم تعويضاً عادلاً من النصف الذي لهم، فساروا إلى الشام واستقروا فيها[6].

---

(١) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٨٢.
(٢) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٨٤، ٨٥؛ مغازي موسى بن عقبة ١٩٩.
(٣) البكري ١٠١٥.
(٤) البكري ١٠١٥، ٨٠٨.
(٥) ابن هشام ٣/ ٤٠٨؛ فتوح البلدان ٢٨.
(٦) فتوح البلدان ٢٨.

وادي القرى

وادي القرى منطقة خصبة تتوافر فيها المياه والمزارع، وهي من أكبر الوديان الخصبة في الجزيرة وأكبر قراه هي قرح[1]. وكان سكانه من اليهود.

وقد تقدّم الرسول بعد انتهائه من خيبر إلى وادي القرى، ودعا أهله إلى الإسلام فامتنعوا عن ذلك وقاتلوا، ولكن الرسول تغلب عليهم وأخضعهم وعامل أهلها على نحو ما عامل به أهل خيبر على النصف من الحاصل.

يذكر ابن إسحق أن عمر بن الخطاب أقطع بعض أصحابه أراضي من وادي القرى[2]، غير أنه لا يوجد دليل قاطع على أنه أجلى اليهود منه ويذكر المقدسي أن مدينة قرح هي أكبر «مستوطنات» وادي القرى «الغالب على أهلها اليهود»[3].

(١) أحسن التقاسيم للمقدس ٨٣؛ ياقوت ٤/ ٥٣.
(٢) فتوح البلدان ٣٤.
(٣) أحسن التقاسيم ٨٤؛ ياقوت ٤/٨٧٨ ويذكر «ويقال إنه لم يجلهم».

الفصل الخامس عشر

الأحوال السكانية في أواسط الحجاز

كان النظام القبلي، عند ظهور الإسلام، سائداً في شبه جزيرة العرب. وكان عميق الجذور في حياتهم، قوي الأثر في تماسكهم الاجتماعي والسياسي. وقد راعى القرآن الكريم تأصُّل النظام القبلي عند العرب، فأمر الرسول (ص)، منذ أوائل الدعوة الإسلامية، أن ينذر عشيرته الأقربين، وأن ينذر أم القرى وما حولها.

غير أن الدعوة الإسلامية تُولي عنايتها الكبرى بالعقيدة والفكر والروح. ولذلك فإن عمادها إصلاح الفرد وتوجيهه. ومن هنا كانت البيعة فردية، والمسؤولية الدينية والأخلاقية فردية، فكل نفس بما كسبت رهينة، وكل امرىء مسؤول عما جنت يداه، ويحاسب عن أعماله يوم القيامة حين ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان/ ٣٣]. ويتبين من دراسة الانتماءات القبلية للمهاجرين أنهم كانوا من عشائر متعددة، وأنهم اعتنقوا الإسلام أفراداً، إذ لم تهاجر عشيرة قرشية بكاملها، ولم يهاجر أهل بيت بكامله سوى آل أبي جحش فإنهم «أوعبوا في الهجرة».

عمل الرسول (ص)، عند هجرته إلى المدينة، إلى إقامة نظام خاص فيها وراعى التنظيم القبلي. غير أنه عمل على تثبيت المُثُل الإسلامية التي تُولي الفرد وعقائده، وعلاقته بالأمة، أهميةً خاصة.

اشترط الرسول (ص)، في أوائل سني الهجرة، على من يُسلِم المهاجرة إلى المدينة والإقامة فيها. وبذلك صارت المدينة تضم، إلى مهاجري قريش من المسلمين الذين جاؤوا مع الرسول (ص)، مهاجرين من القبائل الأخرى. أشارت صحيفة الرسول، في مقدمتها، إلى «المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تَبِعهم فلحق بهم وجاهد معهم». ولا ريب في أن هذا الصنف الثالث، «من تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم»، هم أفراد من قبائل متعددة، أسلم كلٌّ منهم بدافع شخصي، وهاجر إلى المدينة ليقيم مع المسلمين ويشارك في توجّهاتهم ويُسهم بما عليهم من واجبات. ومن الصعب حصر عدد هؤلاء المهاجرين، إذ إن المصادر اقتصرت على ضبط أسماء من شارك في معركة بدر، وقتلى معركة أُحد وبعض المعارك الأخرى، كما ذكرت أسماء أمراء السرايا التي أرسلها الرسول وعدد المشاركين فيها. والمعلومات المقدَّمة في ذلك دقيقة ولكنها غير شاملة، لأنها، على الأغلب، تذكر الأفراد دون الإشارة إلى العشائر، فقد يكون المشارك فرداً بنفسه، أو قد يكون مع عشيرته كلها.

ومن الطبيعي أن تكون غزوات الرسول وسراياه قد وُجهت إلى القبائل التي لم تُسلم. غير أن بعض الحملات قد وُجِّهت إلى بعض عشائر القبيلة وليس إليها كلها، فقد تكون القبيلة مرتبطة بالإسلام، ولكن بعض عشائرها كانت مقيمة على الكفر.

أمّا المشاركون في معركة بدر، فكان أكثرهم حلفاء لقبائل الأنصار ولم تذكر المصادر تاريخ استيطانهم المدينة، وعدد من ذكر منهم اثنان وثلاثون، أي: حوالى خُمس المشاركين من الأنصار منهم أربعة من قبائل المدينة. أما الأربعة والعشرون الباقون، فمنهم اثنا عشر من بليّ، وستة من جهينة، وأربعة من أشجع، واثنان من كل من غطفان، وسليم، ومزينة، وغسان، وواحد من كل من أسد، أو اليمن.

وفي معركة أُحد قُتل عبدٌ ومولى، وواحد من كل من مزينة، وجهينة وبليّ. ويلاحظ أن أهل الصفة كانوا أناساً من عشائر متعددة، ارتبطوا بالرسول (ص)

وأقاموا في طرف مسجده، ولم تتفق المصادر على عددهم أو زمن هجرتهم، وقد ذُكر منهم واحد من البكاء، واثنان من غفار، وعشرة من أسلم.

بدأ الرسول يمدُّ نشاطه إلى خارج المدينة منذ نهاية السنة الأولى للهجرة، فتابع إنفاذ الغزوات والسرايا للقتال، أو لعقد موادعات ومعاهدات غرضها سياسي، ولم يُشترط في معظمها الإسلام أو الهجرة. وكان، فضلاً عن ذلك، يُرسل الأفراد والجماعات للدعوة إلى الإسلام ونشره بين القبائل. وذكرت كتب السيرة نكبات أصيب فيها بعض من أرسلهم الرسول لهذا الغرض. والراجح أن بعثات أخرى قامت بعمل موفَّق هادىء فلم تذكرها كتب السيرة. وذكرت كتب السيرة أيضاً عدداً ممّن قَدِم على الرسول فأسلم ووعد الرسول بنشر الإسلام في أهله وعشيرته. وبصورة عامة نقول: إن انتشار الإسلام، في الحجاز وشبه جزيرة العرب، قد تحقق بهذه الأساليب، وبالاتصال بالرسول الذي استقرّ بعد الهجرة في المدينة، فلم يخرج منها إلا فترات محدودة، عندما كان يقود الحملات العسكرية المحددة الغرض، المحدودة المدة.

لا ريب في أن إسلام عشيرة من العشائر معناه امتداد سلطة الرسول إلى تلك العشيرة. ولأن هذا الإسلام لم يكن منتظماً في مواقعه الجغرافية، فإنه لا يعني امتداد دولة الإسلام إليها، مع الإشارة إلى أن الرسول (ص) اهتمّ بهداية البشر والمجتمع وتوجيههما أكثر من اهتمامه بالتوسُّع في الأراضي وبسط السلطان عليها.

ومن حصيلة المعلومات المستمدة من مختلف الجهات، يمكن القول بأن انتشار الإسلام في الحجاز، ثم في شبه جزيرة العرب، اعتمد على الأفراد ثم على الجماعات، وإنه يصعُب حصر الأفراد. أما إسلام الجماعات، أي العشائر والقبائل، فهو أوسع وأظهر، ولكنه لم يرتبط بالأراضي، وكان أقرب أثراً في العشائر والقبائل المقيمة في الأطراف الغربية والجنوبية من المدينة، ثم امتدّ إلى قبائل المناطق الأخرى، وقد تم انتشار الإسلام بالأساليب السلمية الهادئة الذاتية، وليس بالفرض القسري، ولا علاقة له بالغزوات والسرايا الحربية التي حدثت لأسباب أخرى، ولتحقيق أغراض غير نشر العقيدة.

ومن الصعب رسم خط دقيق لمسار انتشار الإسلام، ولكن يمكن القول بأن حدثين رئيسين أثّرا فيه، وهما صلح الحديبية ثم فتح مكة. وبما أن النظام القَبَلي كان سائداً عند ظهور الإسلام، وكان له تأثير في انتشار الدين بين الناس، فإننا نقدّم عرضاً عاماً لمواقع وأحوال عشائر الحجاز التي احتك بها الرسول، ثم تتابعت في اعتناق الإسلام قبل فتح مكة.

ذكرنا أن دولة الإسلام كانت في أول الهجرة مقتصرة على المدينة، وقد اشترط الرسول (ص)، على من يُسلم، أن يقيم فيها. غير أن تطور مجرى الحوادث التي واجهتها دولة الإسلام في المدينة، جرَّ إلى الاحتكاك بالعشائر والمناطق الخارجة عنها، وكانت عالمية الدعوة الإسلامية تتطلب مدّ هذا النشاط إلى ميادين واسعة. ومن الطبيعي أن يكون مجال نشاطه الأول في المناطق المجاورة للمدينة، وفي إقليم الحجاز بالذات.

الحجاز وعشائره

الحجاز إقليم واسع، يقع بين هضبة نجد وسواحل البحر الأحمر، ويشغل أكثر النصف الغربي من الأراضي في غرْب شبه جزيرة العرب، وهو وثيق الصلة بأقاليم الجزيرة الأخرى، وليست له حدود جغرافية فاصلة[١]. كما أن أراضيه منوَّعة: فيه جبال تتباين ارتفاعاتها واتجاهاتها، وفيه عدد غير قليل من الوديان التي تختلف في سعتها وطولها، وفيه سهول ساحلية طويلة تُسمَّى تهامة، وفيه كثير من المناطق الجرداء، وعدد من المناطق المعشبة والمراعي، ومناطق تتوافر فيها المياه الباطنية التي تكفي لبعض الزراعة.

ولم تكن في الحجاز، عند ظهور الإسلام، دولة تهيمن عليه وتشرف على توجيهه وتنظِّم إدارته. كما أنه، فيما عدا مكة والمدينة والطائف، لم يرد فيه ذكر مدينة منوعة السكان، أو أن لها تنظيماً إدارياً خاصاً.

وكانت لكل قبيلة منطقة تقيم فيها، وتهيمن عليها، وتعتبرها بلادها وديارها.

---

(١) انظر مقالنا «تحديد الحجاز عند الأقدمين»، المنشور في مجلة «العرب».

ويتوقف عدد أفراد القبائل، ومساحة «دار» كل منها، على مدى تماسُكها وقدرتها على الدفاع عن ديارها من الغزوات والتعديات الخارجية. وكثيراً ما تحدُث، في القبيلة الواحدة انقسامات داخلية، تؤدي إلى نزاعات دموية وانفصال بينها، وخروج القسم الأضعف للسُّكْنى في مناطق أخرى، مع احتفاظهم بشجرة نسبهم.

وتتوقف حِرَف أبناء القبيلة على الأوضاع الجغرافية للمنطقة التي تعيش فيها: فإذا توافرت فيها مياه كافية للزراعة، فإنهم يستقرون للعمل في الزراعة، ولا سيما زراعة النخيل والشعير وبعض الخضراوات. وقد تكون المياه، من الوفْرة، بحيث تكفي لإقامة عدد من الأفراد كبير نسبياً، وبحيث يتخذ السكان الذين يقيمون في المنطقة اسماً خاصاً يميّزها. ومع أن كلاً من هذه المناطق تسكنه عشيرة واحدة يجمع أفرادها نسب واحد. إلا أنه قلما تُسمّى المناطق باسم العشيرة التي تسكنها، وإنما تطلق عليها أسماء خاصة في أصولها، ولكن ليست لها دلالة على طبيعتها أو سكانها، وامتدادها: لأن ذلك لا يعرف إلا بتقديم معلومات إضافية عن المنطقة، كأن يقال: إنها جبل، أو واد، أو ماء. وقلما يشار إلى الأحوال الإدارية للمنطقة، كأن توصف انقسامات داخلية بأنها قرية أو مدينة.

أهل المدر وأهل الوبر

غير أن المصادر تُشير إلى الوضع الحضاري لسكان بعض المناطق من حيث إنهم يوصفون بأنهم «أهل مدر» و«أهل وبر». ويُقصد بالتعبير الأول السكان الذين يقيمون دائماً في مساكن مبنية ثابتة، وتكون لهم، بصورة عامة، مِهَنٌ معروفة، كالزراعة، أو تربية المواشي والحيوانات كالغنم والماعز والإبل والحمير والخيل، أو ممارسة بعض الحِرَف والصناعات البيتية والمحلية لسد حاجاتهم المحدودة. أما أهل الوبر، فإنهم رعاة يعتمدون في حياتهم على تربية الماشية، ولا سيما الأغنام والإبل، ويقيمون عادة حول الآبار، ويتنقلون موسمياً إلى حيث يتوافر الكلأ، وخاصة في فصل الربيع، ويكون محور إقامتهم منطقة الآبار التي يستقرون فيها في الصيف والشتاء. والغالب أنهم يقيمون في بيوت من الشَّعر، ومن هنا جاءت تسميتهم أهل الوبر، وقد يُسمَّون أهل البادية.

وكثيراً ما يكون أهل البادية جماعةً متميزة من أهل المدَر. نقرأ في المصادر أن المكان الفلاني أهله من العشيرة الفلانية، وأن باديتهم من عشيرة أخرى قد تكون بعيدة النسب عن عشيرة أهل المدر. والغالب أن العلاقة تكون وثيقة بين أهل المدر ومن يحيط بهم من أهل الوبر، لاشتراكهم في المصالح. وأغلب المنازعات تحدث بين سكان المناطق الواسعة والقبائل الكبيرة.

والعلاقات الثقافية وثيقة بين أهل المدر وأهل الوبر من سكان المنطقة الواحدة، لأنهم مرتبطون بالنَّسب وبالاتصالات المستمرة، فضلاً عن اللغة والمُثُل الاجتماعية والأخلاقية المتشابهة. غير أن سُكنَى أهل الوبر في البادية، وتنقُّلهم فيها، يجعلهم أكثر عزلة، وأوغل في البداوة وما تُفضي إليه من عدم الثبات وعدم الاستقرار اللذين لهما تأثير كبير في المواقف والأحوال السياسية. ولذلك فإن أهل الوبر يُسمَّون أيضاً «الأعراب»، وهم مرتبطون بالبادية. وقد نشأ عن وضعهم هذا موقف غير حسن من الإسلام ودولته. ونزلت عدة آيات تَعيب مواقفهم ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة/ ٩٧] ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات/ ١٤].

والعربي يعتز بذاته، ويعتدّ بفرديته. ولكن المجتمع الذي يعيش فيه، سواء أكان من أهل المدر أم من أهل الوبر، فإنه يقتضي أن يتميز بعض ذوي المواهب والخصائص في مجتمعهم مهما كان محدوداً، فتكون لهم مكانة خاصة تقررها تصرفاتهم ويُقرّ بها أقرانهم، ثم يصبحون بالتدريج رؤساء يوجِّهون جماعتهم، وقد يتكلمون عنهم، وتستقر مكانتهم بالاعتراف الضمني وليس بالانتخاب الشكلي. ويختلف مدى امتداد سلطان هؤلاء الرؤساء: فقد يكون مقصوراً على جماعة محدودة تقيم معه، أو يمتدّ إلى كل المدَرَة، أو القبيلة الواسعة كلها. غير أن ذوي السلطان الواسع على القبيلة كلها عددهم محدد، وهم أشبه برؤساء الجمهوريات. والغالب أنهم لا يسودون إلا بعد تقدُّم العمر، وتوقُّف أعمالهم، من حيث طبيعتها ومداها، على تصرفاتهم الشخصية.

عشائر الحجاز الأوسط

ينقل البكري عن محمد بن عبد الملك الأسدي أن الحجاز اثنتا عشرة داراً هي: المدينة، وخيبر، وفدك، وذو المروة، ودار بلي، ودار أشجع، ودار مزينة، ودار جهينة، ودار بعض بني بكر بن معاوية، ودار بعض هوازن، وجل سليم، وجل هلال[1]. ويلاحظ أن المقصود بالحجاز هنا مرتفعات السَّراة العريضة التي تفصل بين تهامة، وهي المنخفضات الساحلية، وبين الهضبة الكبرى في شبه جزيرة العرب، وهي نجد. وهي لا تصل في حدها الجنوبي إلى مكة. إن هذه تقسيمات جغرافية عامة واسعة، ويمكن اتخاذها دليلاً، ولكن لا يمكن الاقتصار عليها عند دراسة التطورات السكانية وتاريخها، لأن بعض قبائل الحجاز امتدت مساكنها إلى تهامة ونجد، والعكس صحيح أيضاً، ودراسة التاريخ تقوم على دراسة أحوال السكان وحركاتهم بالدرجة الأولى.

ويلاحَظ أن نص الأسدي الذي أوردناه أعلاه ذَكَر صنفين من الديار: أحدها أماكن جغرافية هي المدينة وخيبر وفدك وذو المروة، ولم يشر إلى سكانها، كما أنه لم يُسمِّها دُوراً، والأخرى هي ديار قبائل. ولا ريب في أنه عدَّد فيها القبائل الرئيسة، وأغفل ذكر قبائل يتردد ذكرها في أخبار سيرة الرسول (ص).

وينقل البكري عن عمر بن شبه، بعد كلام طويل عن تاريخ حركات العشائر في المناطق الغربية من الجزيرة، فيقول: «وجاء اللّه عز وجل بالإسلام وقد نزل الحجازَ، من العرب، أسدٌ، وعبس، وغطفان، وفزارة، ومزينة، وفهم، وعدوان، وهذيل، وخثعم، وسلول، وهلال، وكلاب بن ربيعة، وطي، وأسد وطي حليفان، وجهينة»[2]. ويلاحظ أنه اقتصر على ذكر قبيلتين مما ذكره الأسدي، وهما مزينة وأشجع، وأضاف إليهما قبائل أخرى تقيم جنوبيّ مكة، وفي شمال شرقي الحجاز.

---

(١) معجم ما استعجم ١٠.
(٢) معجم ما استعجم ٩٠.

وذكر البكري، في أماكن أخرى من مقدمة كتابه، بعض القبائل التي تسكن السَّراة في جنوب مكة[1]. ومن مجمل المعلومات المفصلة المتفرقة التي أوردها البكري، والتي أوردتها كتب السيرة والجغرافيا، يمكن استخلاص الصورة التالية عن القبائل التي كانت تسكُن الحجاز والمناطق الغربية من شبه جزيرة العرب.

كانت المناطق التي في الأطراف الغربية والجنوبية من المدينة تشغلها منذ القديم قبيلة جهينة. ويقول البكري: «تفرقت قبائل جهينة في تلك الجبال، وهي الأشعر، والأجرد، وقدس، وآرة، ورضوى، وخدد؛ وانتشروا في أوديتها وشعابها وعِرَاضِها. وأسْهلوا إلى بطن أضم وأعراضه، وهو واد عظيم تدفع فيه أودية ويفرغ في البحر، ونزلوا ذا خشب ... والحاضرة ولقفا والعيص وبواط وبدرا وجفاف وودان وينبع والحوراء، ونزلوا ما أقبل من العرج والجنبتين والرويثة والروحاء، ثم استطالوا على الساحل وامتدوا في التهائم وغيرها حتى لقوا بليا وجذام بناحية حقل من ساحل تيماء، وجاورهم في منازلهم على الساحل قبائل من كنانة، ونزلت طوائف من جهينة بذي المروة وما يليها إلى فيد»[2]. ويذكر في مكان آخر أن جهينة «نزلوا جبال الحجاز الأشعر والأجرد وقدساً وآرة ورضوى وأسهلوا إلى بطن أضم»[3]. ويقول إن أشجع ومزينة وسعد هذيم اقتطعت منها بعض الأراضي، ولكن «لم تزل جهينة في تلك البلاد وجبالها والمواضع التي حصلت لها بعد الذي صار لأشجع ومزينة من المنازل والمحالِّ التي هُم بها إلى أن قام الإسلام وهاجر النبي (ص)»[4].

ذكر كل من البكري وياقوت كثيراً من الأماكن التي وردت في نص البكري، ونسباها إلى جهينة، ومن هذه الأماكن الأشعر، ورضوى، وأضم،

(١) معجم ما استعجم ٥٣، ٥٨ ـ ٦٦، ٩٠.
(٢) معجم ما استعجم ٣٧.
(٣) كذلك ٨ ـ ٩.
(٤) كذلك ٣٨: ويروي الطبري فيقول: «أعراب المدينة جهينة ومزينة»(تفسير: ٢٦/ ٢٤).

وبواط وبدر، وينبع، والصفراء، والأبواء، وذو المروة، والعرج، وورقان، ومشجر، ومشعر، والقبلية. غير أن كثيراً من هذه الأماكن كانت منسوبة أيضاً إلى عشائر بارزة أكثرها من فروع جهينة.

أما ضمرة فكانت ديارها في الأطراف الجنوبية الغربية من المدينة، وأبرز أماكنهم ودّان التي كانت على ممر قوافل قريش. وقد وجه إليها الرسول أول غزواته ووادع في هذه الغزوة رئيسهم محشى بن عمرو[١]. ومن أماكنهم قرب ودان المرود، ورابغ[٢]، والبزواء وهي «بلدة بيضاء مرتفعة من الساحل بين الجار وودان وغيقة من أشد بلاد اللّه حراً»[٣]. وتمتد منازلهم إلى الجحفة حيث أن من مياههم كلية وهي بين الجحفة ومشلل[٤] والمرود، ولهم أيضاً جبلي ثافل الأكبر وثافل الأصغر[٥]، ووادي الأثير بين بدر والصفراء، كما أن لهم شراج ريحة، والحشا، وأرثد، ووادي الدوم، والبغيبغة، وركية، والخرار ولهم أيضاً بواط من بطن ينبع[٦].

وفي الجنوب من ديار ضمرة، كانت ديار غفار وتشمل الصفراء وبدر وتمتد إلى بعال قرب جبل عسفان وكانت لهم أيضاً غيقة وهي بالقرب من الجار، ووادي العبابيد عند السقيا.

وكانت أسلم تسكن جبل المرج على بريد من المدينة قرب السيالة، وجمدان بين قديد وعسفان، وشبكة شدخ، ومر الظهران.

أما ليث، فكان من ديارها جبل شراء، وهو قرب جبل عسفان، ولهم بعض جبل نهبان، وتعهن، وذو الريان، وأمج، وكلها مياه قرب السقيا. وفي الكديد بنو الملوح، وهم إحدى عشائر ليث.

---

(١) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٣، الطبري ١/ ٢٦٦٨.

(٢) معجم البلدان لياقوت ٤/ ٥٠٥.

(٣) معجم ما استعجم للبكري ٢٤٨؛ معجم البلدان ١/ ٦٠٦؛ وفاء الوفا ٢/ ٢٦٠.

(٤) معجم ما استعجم ٩٥٦.

(٥) عرام ٣٩٩، معجم ما استعجم ١٣٢.

(٦) معجم ما استعجم ١٢٢٢، ٤٤٩، ٤٦٢، ٥٦٣، ٦٥٩، ٦٦٩، ٤٩٢، ٥١١؛ ياقوت ١/ ١٢١.

وكانت مزينة في المرتفعات الوسطى جنوبي المدينة، وتختلط ديارها بجهينة، فكانت تسكن جبل رضوى، وقدس، وآرة وما والاها[١]، وكذلك جبال نهبان الأسفل والأعلى[٢]، وثافل، وورقان[٣]. ويقع في ديارهم النقيع وبعض أودية الفرع، بالإضافة إلى الوديان الممتدة بين الجبال في بلادهم. وذكر صاحب الكمائم أن منازل مزينة كانت في الجاهلية بوادي سالم من ضواحي المدينة، ووادي الصفراء والضيم[٤].

وفي الجنوب من ديار مزينة كانت خزاعة تقيم في المرتفعات الواقعة في ثلث الطريق بين المدينة ومكة، وأبرز منازلهم عسفان[٥]، وخيف سلام، وخيف[٦]، ورابغ، وقديد[٧]، وأمج، وغزال وذو دوران، وكلية وهي أودية تأتي من جبل شمنصير وتجري بين هرشي والجحفة[٨].

أما كنانة فكانت ديارها في المنخفضات الساحلية القريبة من مكة، وهي تمتد إلى السواحل الواقعة في الجنوب الغربي من مكة، فهي تخالط ضمرة وغفار وخزاعة في الشمال، وهذيل في الجنوب.

ويقول البيهقي، ومن منازل كنانة من طريق مكة شامل وطفيل، ومجنة آبار لكنانة. ومن منازل كنانة على طريق الطائف معد والبرم التي تحمل إلى الآفاق. وفي طريق العراق وادي نخلة، وفيها قرى ومزارع بينه وبين عرفات مرحلة. ولهم في ما بين الحرمين الأبواء، وهي جبل وودان وكان يختصم فيها معهم بنو ضمرة، والفرع وواديه يصب في ودان.. وقد وثرت كنانة من تلك الجهات»[٩].

---

(١) البكري ٨٨.
(٢) معجم ما استعجم ٨٨؛ ياقوت ٣/ ٦٦، ٤/ ٣٩.
(٣) معجم ما استعجم ١٠٥٢؛ ياقوت ٤/ ٣٥١.
(٤) نشوة الطرب لابن سعيد ٤٧١.
(٥) معجم ما استعجم ٩٤٣؛ ياقوت ٣/ ٦٧٢.
(٦) البكري ٧٨٧؛ ياقوت ٢/ ٢٠٨، ٥٠٩.
(٧) البكري ٦٢٩، ١٠٥٥.
(٨) معجم ما استعجم ١٣٥٢.
(٩) ابن سعيد: نشوة الطرب ٣٧٢ عن البيهقي.

الفصل السادس عشر

امتداد الإسلام في أواسط الحجاز

جعل الرسول (ص) المدينة عندما هاجر إليها «دار هجرة»، فكان يشترط على من يُسلم أن يهاجر إلى المدينة ويستقر فيها، وروت كتب الحديث أحاديث عن الرسول (ص) يشترط فيها الهجرة على من يسلم، ويطلب منه البيعة على الهجرة. ويُروى أنه قال: «هلك من لم يهاجر»[١]، وأنه قال: «فإن أنتم أسلمتم وهاجرتم إلينا..»[٢]. وطلب من إحدى العشائر «أن تهاجر إلى الله ورسوله»[٣].

والغرض من اشتراط هجرة المسلمين إلى المدينة أن يكونوا مجتمعين معاً، قريبين من الرسول (ص)، فيكثُر الاتصال بهم، ويتيسَّر له توجيههم وفق مبادىء الإسلام وعقائده، ويجعلهم بمنأى من تأثير المشركين وأعداء قريش، فضلاً عن أن إقامتهم مجتمعين بالقرب منه تُيسِّر إشراكهم في القتال للدفاع عن دولة الإسلام، والعمل على توسيعها.

أدّى اشتراط الهجرة، والاستقرار في المدينة، إلى تزايد سكانها من المهاجرين، وتطلُّب وضع تنظيمات لاستقرارهم. وفي ذلك يروي ابن شبة فيقول: «كان من قَدِم المدينة فكان له عريف نزل على عريفه ومن لم يكن له

(١) الموطأ: حدود ٢٨، ابن حنبل ١/ ١٩٠.
(٢) ابن حنبل ٥/ ١٨١.
(٣) ابن حنبل ١/ ١٩٠.

عريف نزل الصُفّة»[1]؛ «وكان إذا هاجر أحدٌ من العرب، أوكل به رجلاً من الأنصار ففقّهه في الدين، وأقرأه القرآن»[2].

غير أن عدداً ممن لا عشيرة لهم نزلوا في الطرف الشمالي من المسجد الذي كانت فيه صُفّة فكان يطلق عليهم «أهل الصفّة». وكانوا مرتبطين مباشرة بالرسول (ص)، فكان يُجري عليهم كل يوم مُدّاً من التمر، وكانوا أحياناً يُطعَمون البرير، وهو أول ما يظهر من ثمر الأراك، ولم يُزوَّدوا بالخبز واللحم لقلة توافره[3]، والراجح أن تموينهم كان من منتوج صدقات النبي (ص) وما غنمه المسلمون من أموال بني النضير.

ويبدو أن هجرة أهل الحجاز كانت في أوائل العهود فردية، وقليل منها شمَل عشائر أو مجموعات كثيرة العدد، ثم تزايد عددها وخاصة بعد معركة الخندق. غير أنه يصعب تتبُّع خطوات نموِّها نظراً لقلة المعلومات عنها، واقتصار الرواة على أخبار عدد محدود من الأفراد. ولا بد أن بعض الهجرات كانت تتصل بسوء الأحوال المعاشية في البادية التي تعتمد الحياة فيها على عدد من الآبار التي أقيمت عليها زراعات قليلة لا تكاد تسدّ حاجات من يعمل فيها، إضافة إلى أن الرعاة كانوا يتعرضون للقحط والمجاعات بسبب الجفاف. ويروي ابن سعد أن بني ثعلبة، وكانت ديارهم في شمالي المدينة، أجدبت أرضهم في السنة السادسة[4]. وقد لجأ بعض البدو للحصول على ما يعتاشون به، إلى الاعتداء على السابلة والقوافل[5].

ولما كانت الموارد من الغنائم القليلة من الغزوات لا تكفي لإعانة المهاجرين، فقد اعتمد المهاجرون على ما كان يقدِّمه الأنصار لأهل المدينة من معونات.

---

(١) تاريخ المدينة ٢٨٦.
(٢) تاريخ المدينة ٤٨٧.
(٣) تاريخ المدينة ٤٨٦ ـ ٧.
(٤) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٢٣.
(٥) تاريخ المدينة ٢٦٢، ٢٦٣، ٣٥٢.

ويُروى أن عبد الله بن أُبَيّ استاء في غزوة بني المصطلق من المهاجرين، فقال للأنصار: «والله لولا نفقتكم على هؤلاء السفهاء الذين ليس لهم شيء، ما ركبوا رقابكم، وما خرج منهم رجل واحد، ولَلَحِقوا بعشائرهم فالتمسوا العيش»[1]. وهذا القول هو الذي أشار إليه القرآن الكريم في الآية ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ [المنافقون/ ٧].

لم يرد في أخبار غزوات الرسول وسراياه، قبل الخندق، ذكرٌ للمشاركين فيها من العشائر غير الأنصار، ومهاجري قريش، وأفراداً من عشائر متفرقة، وهذا يدل على أن دولة الإسلام كانت، حتى السنة الرابعة، محددة بالمدينة بما في ذلك الأنصار وحلفاؤهم ومهاجرو قريش.

وعندما سار الرسول في آخر السنة السادسة إلى مكة للعمرة التي انتهت بصلح الحديبية، استَنْفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه، فأبطأ عليه كثير من الأعراب، وخرج رسول الله بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من الأعراب[2]. ومن المعلوم أنه عندما سار لم يكن ينوي القتال وإنما أراد «العمرة» سلماً، وكان غرضه من العمرة زيارة مكة والكعبة لأداء الفريضة الدينية، ومع هذا فقد تباطأ هؤلاء الأعراب، ويذكر ابن إسحاق أنه بهذه المناسبة نزلت الآيات التي فيها تأنيب للأعراب، ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ [الفتح/ ١١]، و﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾ [الفتح/ ١٥].

ويَروي ابن إسحاق أن من ساروا مع الرسول (ص) في عمرة الحديبية كان عددهم سبعمائة[3]، غير أنه يروي عن الزهري أن عددهم كان ألفاً وأربعمائة[4]. وهذا هو عدد جيش الرسول في غزوة خيبر التي اقتصرت على

(١) أخبار المدينة ٢٥١؛ انظر تفسير الطبري ١٧/ ٩٣.
(٢) السيرة لابن هشام ٣/ ٣٥٥.
(٣) ابن هشام ٣/ ٣٥٦.
(٤) ابن هشام ٣/ ٣٦٦، ابن سعد ٢ ـ ١/ ٦٩.

من شارك في الحديبية[1]. ولعل الاختلاف في الرقمين راجع إلى أن المصادر اقتصرت على الرقم الأول سبعمائة، وهو عدد من خرج معه من المستوطنين في المدينة. أما الرقم الثاني ألف وأربع مائة، فهو العدد الكلي لمن خرج معه بمن فيهم أهل الأعراب والبوادي ممن كانوا مسلمين ومؤيدين للإسلام ولكنهم ظلوا يقيمون في البوادي.

لم يَرِد ذكرُ من شارك من عشائر الحجاز في الحديبية، أما في غزوة خيبر فقد ذُكرت أسلم وغفار، اللتان أسهم لهما الرسول (ص) لمشاركتهما في الحديبية[2]. وذكر ابن هشام أنه قُتل في معارك خيبر واحد من غفار واثنان من أسلم[3]. وذكر ابن سعد في رواية عن أبي أوفى أن جيش المسلمين في خيبر كان ألفاً وأربعمائة، وأن أسلم كانت يومئذ ثُمن المهاجرين[4]. وإذا كان المقصود بـ «المهاجرين» كل الجيش، فيكون عدد أسلم حوالي مائتين.

يدل اقتصار توزيع غنائم خيبر على أسلم وغفار أنهما كانتا العشيرتين اللتين أسلمتا بمجموعهما ولعلهما استوطنتا المدينة في هذا الزمن. والواقع أن المعلومات التي وردت عن خطط المدينة في زمن الرسول تبين العشائر التي هاجرت إلى المدينة. ويتبين من هذه المعلومات أن مهاجري قريش سكنوا حول المسجد في جهاته الغربية والشمالية والجنوبية. غير أن عدداً منهم تفرّقت مساكنهم بين عشائر الأنصار بعيداً عن المسجد، فكان أبو بكر يقيم مع زوجته الأنصارية في السنح حيث كانت تقيم عشيرتها من بني عبد الأشهل.

أما عشائر مهاجري الحجاز، فكانت خططهم في الأطراف الغربية من المسجد ممتدة من جبل الفتح إلى بني قينقاع. وقد ذكر ابن شبّة، وهو أوسع مصدر قديم وصلتنا معلوماته عن خطط المهاجرين في المدينة، ذكر العشائر الحجازية وخططها ومساجدها التي صلى فيها الرسول، وهي أسلم وغفار،

(١) ابن هشام.
(٢) ابن هشام ٣/ ٤٠٥.
(٣) ابن هشام ٣/ ٣٩٧.
(٤) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٧٠.

وجهينة، وأشجع، وبنو يعمر، وعتوارة، وكعب بن عمرو من ليث، وبنو المصطلق، وبنو سكن من فزارة، وهوازن، ومزينة، الذين نزل معهم بنو شيطان من نصر بن معاوية، وعدوان بن عمرو بن قيس، وبنو ذكوان من سليم وسعد بن بكر. «فهؤلاء الذين نزلوا مع مزينة ودخل بعضهم في بعض، وإنما نزلوا جميعاً لأن دارهم في البادية واحدة»(١).

إن الهجرة إلى المدينة تتطلب من المهاجر أن يترك دياره وما يملكه فيها(٢). ويُروى، في هذا السياق، أن الرسول (ص) قال لأحد المهاجرين: «تهاجر وتدع أرضك وسماءك» جواباً عن قوله: «تركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله»(٣)، وكانت الهجرة تقطع صلة المهاجر بأهله الباقين على الشرك «فلا يرث من أهله ولا يرثون منه»(٤).

ولا ريب في أن شروط الهجرة ومتطلباتها يتيسر تطبيقها على أفراد محدودين ممن ليست لهم في ديارهم الأولى ثروة كبيرة، ولكن يصعب تطبيقها على الجماعات الكثيرة العدد، وخاصة أنه كانت لهم في ديارهم أموال كثيرة يصعب نقلها إلى المدينة. والواقع أن الهجرة تُلقي على المهاجر أعباءً نفسية بالإضافة إلى مشكلة إعالتهم. ولعل هذا بعض ما كان وراء قول الرسول (ص): «إن أمر الهجرة لشديد»(٥).

لذلك أخذ الرسول (ص) يتساهل في شرط الهجرة فيما بعد، فكان من يُسلم يُخيَّر بين البقاء في دياره، أو أن ينتقل إلى المدينة. وأول تسامح ذكرته المصادر كان في السنة الخامسة عندما «وفد على رسول اللّه (ص) من مضر أربعمائة من مزينة، وذلك في رجب من السنة الخامسة، فجعل لهم رسول اللّه (ص) الهجرة في دارهم، وقال أنتم مهاجرون حيث كنتم، فارجعوا إلى

---

(١) انظر تاريخ المدينة ٢٦٠ ـ ٢٦٨، وانظر بحثنا: خطط المدينة في زمن الرسول (ص).

(٢) النسائي: جهاد ٩، ابن حنبل ٣/٤٨٣.

(٣) ابن حنبل ٤/٤٩.

(٤) أبو داوود: فرائض ١٦.

(٥) البخاري: أدب ٩٥، أمارة ٨٧، مناقب الأنصار ١٥؛ ابن حنبل ٣/٦٤.

أموالكم، فرجعوا إلى بلادهم»[١]. وكانت جماعة من مزينة قد بقيت في ديارها، ولم تستجب لدعوة خزاعى بن عبد وهو أحد رجالهم، فتأخر إسلامهم إلى زمن فتح مكة، فانضموا قبيل الفتح إلى الإسلام، وكان عددهم حوالى ألف، ولواؤهم مع خزاعى[٢].

ولا بد أن التساهل في شرط الإقامة في المدينة ازداد بعد صلح الحديبية، الذي كان له أثر كبير في توسُّع انتشار الإسلام وازدياد عدد من أسلم. وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم والرواة، ومنهم ابن إسحق الذي يَروي أنه في صلح الحديبية نزلت الآية الكريمة ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح]. ويقول ابن إسحق إنه بين الحديبية وفتح مكة «دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر»[٣].

وتجلت حصيلة ازدياد الإسلام بالعدد الكبير من الجيش الذي توجه به الرسول (ص) لفتح مكة، إذ بلغ عدد هذا الجيش عشرة آلاف فيما يقال[٤].

ويذكر ابن سعد أن الرسول، عندما قرر السير لفتح مكة، بعث «إلى من حوله من العرب، فَجُلُّهم مِنْ أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم. فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لحقه بالطريق، فكان المسلمون في غزوة الفتح عشرة آلاف»[٥]. إن اشتراك هذه العشائر في فتح مكة يؤيده أن الرسول (ص) عندما نظم الجيش الإسلامي لدخول مكة، جعل المجنبة اليمنى فيها أسلم، وسليم، وغفار، ومزينة، وجهينة، وقبائل من العرب[٦] ويذكر الفاسي أن المجنبة اليمنى، كان يقودها خالد بن الوليد» فيمن كان أسلم من قضاعة،

---

(١) ابن سعد ١ ـ ٢/٣٨.
(٢) ابن سعد ١ ـ ٢/٣٨؛ تهذيب الكمال ٤/٢٨٤ عن البرقي.
(٣) ابن هشام ٣/٣٦٦.
(٤) ابن هشام؛ ابن سعد ٢ ـ ١/٩٧، ١٠٠؛ شفاء الغرام ٢/١٣٢ ـ ١٦٠ عن موسى بن عقبة، إتحاف الورى ١/٤٩٢، ٤٩٢، ٤٩٤.
(٥) ابن سعد ٢ ـ ١/٩٧.
(٦) ابن هشام ٤/٢٦١.

وسليم، وأناس أسلموا قبل ذلك[1]. ويتضح من هذا النص أن عدداً من هذه العشائر انضمت إلى الإسلام عندما أعلن الرسول تقدُّمه لفتح مكة وقد يدل على أنه قصد بـ (قضاعة) أسلم وغفار ومزينة وجهينة.

ذكرت المصادر معلومات عن زمن هجرة بعض القبائل، وخاصة أشجع التي يظهر أنها كانت مع مشركي قريش حتى غزوة الخندق. يذكر ابن سعد أنها شاركت قريشاً في تلك المعركة بسبعمائة مقاتل[2]، ويذكر أن «أشجع قدمت بعد غزوة قريظة، وكان عددهم سبعمائة، يسألون النبي موادعتهم. فوادعهم، ثم أسلموا بعد ذلك»[3]. ويذكر ابن شبة أن أشجع قَدِمت في سبعمائة يقودهم مسعود بن رخيلة، فنزلوا شعبهم، فخرج إليهم رسول اللّه (ص) بأحمال التمر فقال: يا معشر أشجع ما جاء بكم؟ قالوا: يا رسول اللّه جئنا لقرب ديارنا منك، وكرهنا حربك، وكرهنا حرب قومنا لقلتنا فيهم، فأنزل اللّه ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾ [النساء/ ٩٠][4]. ولم تحدد المصادر بدقة زمن قدومهم الذي لا ينبغي أن يكون بعد غزو قريظة وقبل غزو خيبر.

أما جهينة، فلم تكن، حتى أواسط السنة الثامنة، قد أسلمت بعد، فبعث الرسول إليهم، في رجب من السنة الثامنة، سَرِيّة الخبط التي سميت بذلك لاضطرار المسلمين فيها إلى أكل «الخبط»، وهو ثمر نبات صحراوي مُجٌّ، بسبب القحط آنذاك[5].

ويذكر ابن شبة، نقلاً عن كثير بن عبد الله، أن مُزَينة وبني كعب أتوا رسول اللّه (ص) فسألوه أن يبنوا مسجداً كما بنت القبائل، فقال رسول اللّه: «مسجدكم مسجدي، وأنتم باديتي وأنا حاضرتكم، وعليكم أن تجيبوني إذا

---

(١) إتحاف الورى ٢/ ٤٩٦.
(٢) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٤٧.
(٣) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٤٩.
(٤) انظر أخبار المدينة ٢٦٧.
(٥) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٩٥.

دعوتكم»[١]. ولا تذكر المصادر، عن قدومهم، ولكنه حدث بعد غزوة خيبر، لأنهم لم يُذكروا فيمن قُسمت عليهم أسهم خيبر من العشائر، وإن كان ممن شارك فيها عبد الله بن مغفل المزني[٢].

إن هذا الجيش هو بعض المسلمين وليس كلهم: إذ لا يدخل فيه النساء والأطفال والشيوخ، ومن لم يرغب في المشاركة بما يُحتمل أن يخوضه الجيش من المعارك.

تكونت القوات الإسلامية التي شاركت في فتح مكة من الأنصار، ومهاجري قريش، والقبائل التي ديارها بين المدينة ومكة وتمر بها قوافل مكة إلى بلاد الشام. والراجح أن هذه القبائل كانت مرتبطة بمكة في الاتفاقيات التجارية (الإيلاف). غير أن تهديد المسلمين لتلك القوافل أظهر ضعف قريش، وحرَمَ هذه القبائل ما كانت تجنيه من المنافع المادية، فمالت إلى الإسلام، وارتبطت بدولته.

وكانت الروابط القَبَلية، عند فتح مكة، لا تزال قوية، وقد رعاها الرسول فنظَّم الجيش الإسلامي على أساسها. ويذكر ابن سعد أن الرسول، «لما كان بقديد، عقد الألوية والرايات، ودفعها إلى القبائل ثم نزل مرّ الظهران»[٣].

وفي معركة حنين، كان الجيش الإسلامي منظماً أيضاً على الرايات والألوية، ووضع الرسول (ص) للمهاجرين ثلاث رايات، وللخزرج والأوس راية. وكذلك قبائل العرب: فيها الألوية والرايات يحملها قوم مسنّون منهم»[٤].

وقد أوقف شرط الهجرة بعد الفتح وقال الرسول (ص) «لا هجرة بعد الفتح»[٥].

---

(١) تاريخ المدينة ٧٨.

(٢) ابن هشام ٢/٣٩١.

(٣) ابن سعد ٢ ـ ١/٩٧؛ إتحاف الورى ١/٤٩٣.

(٤) إتحاف الورى ٢/٥٣٠.

(٥) انظر عن الأحاديث الكثيرة ومواطنها في كتب الصحاح: مفتاح كنوز السنة. مادة «هجرة».

الفصل السابع عشر

إسلام عشائر أواسط الحجاز

ضمرة

كانت ضمرة أول عشيرة اتصل بها الرسول بعد الهجرة. ففي غزوته الأولى إلى ودان، حالفه رئيسهم مخشي بن عمرو، ووجَّه لهم كتاباً مضمونُه: «أنهم آمِنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصر على من دَهَمهم بظلم، وعليهم نصر النبي (ص) . . . إلا أن يحاربوا في دين اللّه، وأن النبي إذا دعاهم أجابوه عليهم بذلك ذمة اللّه ورسوله ولهم النصر على من برّ منهم واتقى»[1].

شارك أفرادٌ منهم في غزوات الرسول (ص) فشهد جعال بن سراقة الضمري مع الرسول أُحد والخندق والمريسيع وذات الرقاع[2]. وأسلم عمرو بن أمية الضمري حين انصرف المشركون من أُحد وشهد بئر معونة ونجا من القتل، وكان الرسول يرسله إلى الحبشة[3]، كما بعثه رسولاً إلى مسيلمة[4]، ولعل بني ضمرة أسلمت معه آنذاك.

---

(١) مغازي الواقدي ٣٨٨، ابن سعد ١ ـ ٢/٢.

(٢) ابن سعد ٤ ـ ١/١٨١.

(٣) أنظر ابن سعد ٤ ـ ١/٨١، ٣ ـ ٢/٣٥، ١ ـ ٢/١٣٩، ٢٥ الواقدي ٧٤٢.

(٤) ابن سعد ١ ـ ٢/٢٥.

وشاركت بنو ضمرة في فتح مكة، وكانوا مع ليث وسعد بن ليث مجموع عددهم مائتان ولهم راية يحملها أبو واقي[(١)].

غِفار

إن العشيرتين الحجازيتين الرئيستين، اللتين اشتركتا في الحديبية وفي إخضاع خيبر، هما غفار وأسلم. ويروى أن الرسول (ص) خصَّهما بالمدح فقال «غفار غفر اللَّه لها، وأسلم سلمها اللَّه»[(٢)].

أما غفار، فإن ابن سعد يزعم أن أبا ذر الغفاري أسلم قبل الهجرة وجاء قومه فأسلم نصفهم «وكان يَؤُمُّهم إيماء بن رحضة، وكان سيدهم وقال بقيتهم: إذا قَدِم رسول اللَّه المدينة أسلمنا، فقَدِمَ رسول اللَّه فأسلم بقيتهم. وجاءت أسلم فقالوا يا رسول اللَّه: نُسلم على الذي أسلم إخوتنا، فأسلموا، فقال رسول اللَّه غفار غفر اللَّه لها وأسلم سالمها اللَّه»[(٣)]. غير أنه يُذكر في رواية أخرى أن أبا ذر «حين أسلم رجع إلى بلاد قومه فأقام بها حتى مضت بدر وأُحد والخندق، ثم قدِم على رسول اللَّه المدينة بعد ذلك، وفي رواية أنه قدم بعد أُحد[(٤)]. وممن شارك من رجالهم بعد أحد مع المسلمين أبارهم[(٥)].

وكان الرسول (ص) قد كتب لهم كتاباً أنهم من المسلمين، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وأن النبي عقد لهم ذمة اللَّه وذمة رسوله على أموالهم وأنفسهم، ولهم النصر على من بدأهم بالظلم، وأن النبي إذا دعاهم لينصروه، أجابوه، وعليهم نصره إلا من حارب في الدين، وأن هذا الكتاب لا يحول دون إثم[(٦)]، ولهم في المدينة خطط.

---

(١) الواقدي ٨٢٠، ٨٩٦.
(٢) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٨٢.
(٣) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٨٢.
(٤) ابن سعد ٤ ـ ١/ ١٣.
(٥) ابن سعد ٤ ـ ١/ ١٧٦.
(٦) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٢٦.

وشارك في الحديبية ثلاثة عشر رجلاً من غفار، واستُشهد في خيبر ثلاثة منهم وكان مع المشاركين عدد من نساء غفار، وأُعطوا سهماً من غنائم خيبر[١]، وكان ثمانون منهم من المعذرين في تبوك[٢].

أسلم

يذكر ابن سعد أن الرسول مر، في طريق هجرته، بديار أسلم، فلقيه بريدة بن الحصيب، فأسلم هو ومن معه، وكانوا زهاء ثمانين بيتاً، فصلى رسول اللّه (ص) العشاء وصلّوا خلفه[٣]. وهذا النص يشير إلى قِدَم إسلام أسلم، علما بأن بريدة لم يهاجر إلا بعد معركة أُحد.

ويذكر ابن سعد أيضاً أن مالكاً ونعمان ابنَيْ خلف، وهما مِنْ أسلم، كانا طليعتين للرسول يوم أُحد فقُتلا يومئذٍ[٤]. وممن شهد معركة أُحد من بني أسلم عبد الله وعبد الرحمن ابنا الهبيب، وقد قُتلا في المعركة[٥]، كما شهدها منهم أبو رهم الغفاري. ويتبين من هذا كثرة وجود رجال مسلمين من بني أسلم منذ أوائل الهجرة.

ويلاحظ أن عدداً من رجال أسلم كانوا من أهل الصفة كما ذكر ابن سعد، ومنهم ربيعة بن كعب وجرهد بن رزاح. وذكر أبو نعيم الأصفهاني تسعةً من أسلم من مجموع ثمانين من أهل الصُّفّة[٦].

يذكر ابن سعد أن الرسول (ص) كتب لأسلم من خزاعة: «من آمن منهم وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وناصح في دين اللّه، أن لهم النصر على من دهمهم بظلم، وعليهم نصر النبي (ص) إذا دعاهم، ولأهل باديتهم ما لأهل

(١) الواقدي ٦٩١، ٦٨٥.
(٢) الواقدي ١٠٧.
(٣) ابن سعد ٤ ـ ١/١٧٨، ٢٤٢، أنساب الأشراف ١/ ٢٦٢.
(٤) ابن سعد ٤ ـ ١/١٧٩.
(٥) ابن سعد ٢ ـ ١/ ١٨٠.
(٦) حلية الأولياء ١/٣٤٧ ـ ٣٧٤، وانظر ابن سعد ٤ ـ ٢/٤٤، أنساب الأشراف ١/ ٢٧٢.

حاضرتهم، وأنهم مهاجرون حيث كانوا»[١]. ويذكر أيضاً أن عميرة بن أفضى «قَدِم في عصابة مِنْ أسلم، فقالوا قد آمنا باللّه ورسوله واتبعنا منهاجك، فاجعل لنا عندك منزلة تعرف العرب فضلتها، وكتب رسول اللّه (ص) لأسلم ومَنْ أَسْلَمَ من قبائل العرب، ممن يسكن السيف والسهل، كتاباً فيه ذكر الصدقة والفرائض في المواشي»[٢] غير أنه لم يرد في المصادر ذكر لتاريخ كتابة هذين الكتابين، وكان عددهم سبعمائة[٣].

وكانت أسلم ممن سار مع الرسول (ص) إلى الحديبية، وكانوا ثُمن المهاجرين أي حوالي مائتين[٤]، وشاركوا في فتح خيبر، فحاصروا النطاة وحصن الصعب وحصن الزبير[٥].

وممَّن ذُكر شُهودُه الحديبية وخيبر مِنْ أسلم عبد اللّه بن أبي أوفى، وعامر وسلمة ابنا الأكوع، وعبد الله بن أبي الحدرد، وناجية بن الأعجم وبشير، والحارث بن جمال ومالك بن جدير بن جمال[٦]. ويقول الواقدي أنه كان في خيبر مِنْ أسلم «بضع وسبعون، ويقال مائة وسبعون، وكان لهم مع غفار سهم[٧]، وقد قتل منهم اثنان[٨]، وهم الذين فتحوا حصن الصعب»[٩].

وشارك من أسلم، في فتح مكة، أربعمائة، وكان معهم ثلاثون فرساً ولهم لواءان يحملهما بريدة بن الحصيب وناجية بن الأعجم.

---

(١) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٢٤.
(٢) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٨٢، ٤١.
(٣) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٤٩.
(٤) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٧١، ويقول الواقدي أنهم كانوا مائة (٥٧٤).
(٥) الواقدي ٦٨٨، ٦٤٧، ٦٦٦، ابن سعد ٢ ـ ١/ ٧١.
(٦) ابن سعد ٤ ـ ٢/ ٣٦ ـ ٥١.
(٧) الواقدي ٦٥٨، ٧٠٠، ابن هشام ٣/ ٤٠٤.
(٨) الواقدي ٧١٠.
(٩) الواقدي ٦٦١، ٦٦٤.

مزينة

اتصل أفراد من مزينة بالإسلام منذ أوائل الهجرة، إذ كان ممن قاتل في معركة بدر مالك بن نميلة، ثم قُتل في معركة أُحد التي قتل فيها أيضاً وهب بن قابوس المُزَني وابن أخيه الحارث بن عقبة[١].

يذكر الواقدي أن «أول وفد وَفَد على رسول اللّٰه (ص) من مُضَر أربعمائة من مزينة، وذلك في رجب من السنة الخامسة، فجعل لهم رسول اللّٰه (ص) الهجرة في دارهم، وقال أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم فرجعوا إلى بلادهم[٢].

ويذكر ابن الكلبي أن نفراً من مزينة منهم خزاعي بن عبد نهم أتوا رسول اللّٰه (ص)، فبايعوه على قومهم مزينة، وقدم معهم عشرة فيهم بلال بن الحارث والنعمان بن مقرن، وأبو أسماء، وأسماء، وعبيد الله بن بردة، وعبد الله بن درة، وبِشر بن المحتفز[٣]. ولعل رواية ابن الكلبي تكملة لرواية الواقدي.

وشارك اثنان منهم في السرِيَّة التي قادها محمد بن سلمة إلى ذي القصة في ربيع سنة ستة، وكان عدد السرية عشرة، فقتلوا جميعاً إلا قائدهم[٤].

وأقطع النبي بلالاً المزني إقطاعاً في قدس واره[٥].

وقد استنفروا مع جهينة وبني بكر، إلى الحديبية ولكنهم تشاغلوا فلم يُشاركوا فيها[٦].

ثم شاركوا في فتح مكة بألف مقاتل ومائة فرس. وكانت لهم ثلاثة ألوية

(١) الواقدي ٣٠١، ابن سعد ٤ ـ ٨١/١، ابن سعد ٤٥/١٠٤، ١٨٧، الواقدي ٧٨٠، ٨١٩، ٨٠٠.
(٢) ابن سعد ١ ـ ٣٨/٢.
(٣) ابن سعد ١ ـ ٣٨/٢.
(٤) الواقدي ٥٥١.
(٥) ابن سعد ١ ـ ٢٥/٢.
(٦) الواقدي ٥٧٥.

يحملها النعمان بن المقرن، وبلال بن الحارث وعبد الله بن عمر[1] وشاركوا في حصار الطائف[2]، كما شارك أربعون رجلاً منهم في غزوة خالد بن الوليد دومةَ الجندل سنة تسع[3].

كان لبني ليث اتصال مُبكِّر بالرسول، فقد قاتل مع المسلمين ببدر عامر بن البكير وإخوته الثلاثة، وقُتل منهم في أُحد رجلان هما: عبد الله وعبد الرحمن ابنا النبيت، وكان من أوائل المسلمين بعد الهجرة من رجالهم شداد بن الهاد، وأبو واقد، وعبيد بن عمير، وقتادة، وعطاء بن يزيد، وجعونة بن شعوب، والسائب بن مالك، وكان من أهل الصُّفّة طلحة بن عمر الليثي[4] ووائل بن الأسقع[5].

ومن أبرز رجالهم غالب بن عبد الله الذي أرسله الرسول في سرية إلى بني مرة سنة ثمانٍ، وإلى بني عوال عند النقرة سنة سبع، وإلى الكديد سنة ثمان، كما أرسله ليمهد له الطريق في فتح مكة[6].

وفي السنة الثامنة وجّه الرسول (ص) سرية بطن إضن جَعَل عليها أبا قتادة ومعه محلم ابن جثامة الليثي[7].

وفي فتح مكة كان يحمل لواء بني ليث وضمرة أبو واقد الليثي الذي شارك مع قومه في حملة تبوك[8].

---

(1) ابن سعد ١ ـ ٢/١٠٩، ١٠١، ١٢٨، الطبري ١/١٦٢٨.
(2) الواقدي ٩٣١، ٨٠٠، ٨٢٠، ٨٤٦.
(3) الواقدي ١٠٢٨.
(4) أنساب الأشراف ١/٢٧٢.
(5) الإصابة ٣/١٨٩.
(6) ابن سعد ٢ ـ ١/٨٦، ٩١.
(7) ابن سعد ٢١ ـ ١/٩٦.
(8) الواقدي ٨٩٦، ٩٦٠.

جهينة

كانت جهينة «أول حي ألفوا مع رسول اللَّه»[1]. وذكر ابن سعد أن الرسول (ص) «كتب لبني زرعة وبني ربعة من جهينة أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم، وأن لهم النصر على من ظَلَمهم أو حاربهم في الدين، ولأهل باديتهم، من برَّ منهم واتَّقى، ما لأهل حاضرتهم واللَّه المستعان».

وكتب لبني الجرموز بن ربيعة، وهم من جهينة، «أنهم آمنون ببلادهم، ولهم ما أسلموا عليه».

وكتب «لعمرو بن معبد الجهني، وبني الحرقة من جهينة، وبني الجرموز: مَنْ أسلم منهم، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وأطاع اللَّه ورسوله، وأعطى من الغنائم الخمس، وسهم النبي الصفي، ومن أشهد على إسلامه وفارق المشركين، فإنه آمنٌ بأمان اللَّه وأمان محمد، وما كان من الدين مدونة لأحد من المسلمين قضى عليه برأس المال وبطل الربا في الرهن، وأن الصدقة في الثمار العُشر، ومن لحق بهم فإن له مثل ما لهم.

كما أن الرسول كتب لبني شمخ من جهينة كتاباً أعطاهم فيه ما خَطُّوا من صفينة، وكتب لعوسجة بن حرملة الجهني يعطيه إقطاعاً في ذي المروة[2].

ومن الواضح أن الكتاب الأول مضمونه سياسي، أما الثاني والثالث فإنهما يظهران إسلام بعضهم، إن لم يكن كلهم. غير أن المصادر لم تحدد تاريخ هذين الكتابين.

شارك في معركة بدر مع المسلمين ثلاثة من جهينة هم: كعب بن صحار، وعدي بن أبي الزغباء، ووديعة بن عمرو، وكلهم حلفاء للخزرج، وقتل منهم في أُحد ضمرة الجهني حليف بني ساعدة.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ١٧١، مقدمة ابن الصلاح ٦٦٢.
(٢) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٢٤.

يذكر الواقدي أن أبا سفيان توعَّد الرسول بعد معركة أُحد بغزوة أخرى، وأن نعيم بن مسعود الأشجعي أخبر أبا سفيان باستعداد الرسول لمواجهة الغزو، وأنه قد يجلب إليه حلفاء الأوس من بلي وجهينة وغيرهم، وكان ذلك في ذي القعدة، الشهر الخامس والأربعين من الهجرة[١]. وبالفعل خرج الرسول (ص) في ألف وخمسمائة من أصحابه، ووصل إلى بدر فأقام فيها ثمانية أيام. ويتبين من هذا أنهم كانوا مع الرسول (ص) في ذلك الوقت.

يقول ابن سعد أن الرسول خط لجهينة «مسجدهم، وهو أول مسجد خُطَّ بالمدينة». والمقصود بذلك من مساجد مهاجرة العرب[٢]، وذكر أبو نعيم أسماء ثلاثة من رجالهم كانوا من أهل الصُّفّة.

وقد وجَّه الرسول إلى حي من أحيائهم سرية بقيادة أبي عبيدة بن الجراح قوامها ثلاثمائة رجل، ولكن لم يَجرِ فيها قتال[٣].

ومن المؤكد أنهم أسلموا قبل الحديبية، إذ أنهم كانوا من القبائل التي استنفرها الرسول للعُمرة إلى مكة[٤]. وشاركوا في إخضاع خيبر، وكان لهم سهم[٥]. ومن المشاركين في خيبر من رجالهم تميم بن ربيعة، ورافع بن مكيث، وجندب بن كليب، وأبو خيس، وسويد بن صخر[٦].

وشارك منهم في فتح مكة ألف وأربعمائة رجل[٧]، وكانت لهم أربعة ألوية، وكانوا على المجنبة مع خالد بن الوليد[٨].

(١) الواقدي ٣٨٥، ٣٨٧.
(٢) ابن سعد ١ ـ ٢/٦٨، حلية الأولياء ٢/٦٠، ٨/٢٣.
(٣) الواقدي ٧٧٤.
(٤) الواقدي ٦١٩، تفسير الطبري ٢٦/٤٩.
(٥) ابن سعد ٤/٣٥٨.
(٦) ابن سعد ٢ ـ ٦٧٨، ٦٩.
(٧) ابن سعد ٤/٣٤٨.
(٨) الطبري ١/١٦٤٢.

سليم

أما سليم فهي من العشائر الكبيرة في الحجاز، وكانت ديارها في الأطراف الجنوبية الشرقية من المدينة، وقد اتخذت في السنوات الأولى موقف عداء من الإسلام، فوجّه إليها الرسول عدة حملات أولها في الشهر الأخير من السنة الثانية، حين أرسل سرية إلى قرقرة الكدر بناحيتهم، وأتْبَعها، بعد أربعة أشهر، بسرية أخرى إلى بحران بناحية الفرع. وفي الشهر السادس والثلاثين أظهروا إسلامهم، ثم غدروا بمن أرسلهم محمد (ص) لتعليمهم القرآن، فقتلوهم وكان عددهم سبعين، فوجَّه إليهم سرية بقيادة زيد بن حارثة هاجمتهم وأصابت منهم نَعَماً ومواشي. وفي غزوة الخندق، قاتل من مشركي قريش سبعمائة من سليم بقيادة سفيان بن عبد شمس ولكنهم لم يقوموا بدور فعال في القتال ثم انسحبوا. وفي ربيع من السنة السادسة، وجَّه إليهم الرسول سرية غزتهم في بطن نخل، ثم أتبعها بسرية أخرى في آخر السنة السابعة. ويتبين من هذا أن بني سليم ظلت حتى ذلك التاريخ معادية للإسلام ودولته.

ولما انعقد صلح الحديبية، تقدم الحجاج بن علاط السلمي وأعلن إسلامه للرسول (ص) عندما كان يقاتل أهل خيبر، وأسلم مع الحجاج[1] عدد من قومه، ثم تتابع إسلامهم فأسلم العباس بن مرداس مع جمع من قومه قبيل فتح مكة، غير أن فريقاً منهم ظل على الشرك، ووجَّه إليهم الرسول (ص) في آخر السنة السابعة سرية من خمسين رجلاً عليها ابن أبي العوجاء السلمي[2].

وفي فتح مكة كان كافة بني سليم قد اعتنقوا الإسلام، وشاركوا في فتحها بحوالي ألف فارس يقودهم ثلاثة قواد هم العباس بن مرداس، وخفاف بن ندبة، والحجاج بن علاط، وكانوا في مقدمة الجيش الإسلامي مع خالد بن الوليد[3].

---

(١) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٧٨.

(٢) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٨٩٨.

(٣) شفاء الغرام ٢/ ١٣٤.

ويذكر ابن سعد أن الرسول أَقْطَع كلاً من سلمة بن مالك والعباس بن مرداس، وهوذة بن نبيشة، والأجب وراشد بن عبد، وحرام بن عبد عوف، وسلمة بن مالك أعطوا إقطاعات كتب لهم فيهم كتباً، ولكنه لم يشر إلى تاريخها، ومن الطبيعي أن تكون قد أُقطِعت بعد إسلامهم.

هذيل ولحيان

كانت ديار هذيل في المرتفعات الجنوبية وكانت لهم «جبال من جبال السَّراة، ولهم صدور أوديتها وشعابها الغربية، ومسيل تلك الشعاب والأودية على قبائل خزيمة بن مدركة في منازلها، وجيران هذيل في جبالها فهم وعدوان»[١]، أما الأراضي المنخفضة الساحلية وأداني الوديان فكانت لكنانة.

ومن منازل هذيل العرج[٢]، وشمنصير[٣]، والجدف في ودان[٤]، وغران بعسفان[٥]، وكبكب[٦]، وذو المجاز وهو خلف كبكب[٧] ونخلة اليمانية، ونخلة الشامية[٨]، والمراخ وهي بين النخلتين[٩].

ومن أبرز عشائر هذيل بنو لحيان[١٠]، ومنهم سدنة سواع برهاط[١١] وكانت في منازلهم عسفان[١٢]، وغران وهو وادٍ بين أمح وعسفان ويمتد إلى ساية[١٣].

---

(١) البكري ٨٨؛ وانظر تفاصيل أوفى في «نشوة الطرب» ٤٠٨.
(٢) ياقوت ٣/ ٦٣٧،
(٣) ياقوت ٣/ ٣٢٢، ٤٦٤.
(٤) البكري ٣٧٣.
(٥) البكري ٩٩٢.
(٦) ياقوت ٣/ ٦٧٨، ٤/ ٢١٣.
(٧) ياقوت ٤/ ٣٠٨.
(٨) ياقوت ٣/ ٧٦٩.
(٩) ياقوت ٤/ ٤٧٣.
(١٠) البكري ٤٩٩.
(١١) ياقوت ٣/ ١٨١.
(١٢) ابن هشام ٣/ ١٦١، ابن سعد ٢ ـ ١/ ٣٩، ياقوت ٣/ ٦٧٣.
(١٣) البكري ٩٩٣، ياقوت ٣/ ٧٨٢، ١٠٤٦.

ومن منازلهم ذو ذمران، وهو وادٍ يأتي من شمنصير[١]، ورخمة والهزوم والبان[٢]، والهدة وهي بين عسفان وقلة، وفي صدرها الرجيع[٣].

والراجح أن معظم القبائل التي أسلمت قبيل الفتح أبيح لها البقاء في ديارها. وبذلك أصبحت الهجرة صنفين: هجرة إقامة، وهجرة رجعة وتسمى أيضاً هجرة التأله، وهجرة البادي، فكان «منهم من يُسلم ثم يرجع، ومنهم من يُسلم ويقيم»[٤]. وكانت «هجرة البادي أن يرجع إلى باديته، وعليه الطاعة في عُسره ويُسره، ومَنْشَطِه ومَكْرَهِه»[٥]، غير أنه لم يُستحب من المهاجر إلى المدينة واستقراره فيها أن يعود إلى البادية[٦]. وقد اعتبر هؤلاء «المهاجرون الأولون» من صلَّى القبلتين وحضر بيعة الرضوان وفتح مكة[٧].

وشاركوا بعد ذلك في مقاتلة هوازن، ولما وُلِّي أبو بكر الخلافة ارتدّ بعضهم فأرسل إليهم أبو بكر قوة أخضعتهم وأعادتهم إلى حظيرة الإسلام.

---

(١) ياقوت ٢/ ٦١٤، ٣/ ٦٧٣.
(٢) ياقوت ٢/ ٧٧١، ٤/ ١٩٧.
(٣) ابن هشام ٣/ ١٦١، ابن سعد ٢ ـ ١/ ٣٩، الطبري ١/ ١٤٣٤، البكري ٦٤١ ٩٩٣، ١٣٤٧.
(٤) تاريخ المدينة ٤٨٥.
(٥) تاريخ المدينة ٤٨٦، وانظر ابن حنبل ٢/ ١٠٩، ١٦٠، ١٦١، ١٩١.
(٦) ابن حنبل ٢/ ٥٢٢.
(٧) تاريخ المدينة.



العشائر والمواضع المهمة في الحجاز في زمن الرسول (ص)

القسم الرابع

امتداد الاسلام في شبه جزيرة العرب

ـ فتح مكة، معركة حنين وحصار الطائف

ـ كُتُب الرسول (ص) إلى حكام البلاد المجاورة

ـ امتداد الإسلام في شمالي الحجاز

ـ الوفود وامتداد الإسلام في الجزيرة

ـ تطور التنظيم الإداري في جزيرة العرب

ـ الموارد المالية

الفصل الثامن عشر

فتح مكة

ممهدات الفتح

كان صلح الحديبية، في واقعه، انتصاراً سياسياً للرسول (ص) ظَفِر منه، سلماً وبدون إراقة دماء، بمكاسب كبيرة، فقد تجلَّت فيه قوة الإسلام وحيوية دولته، وأظهر توجُّه الرسول (ص) إلى الشمال عزمُه على متابعة أداء رسالته في نشر الإسلام وتوسيع دولته.

أدركت العشائر القاطنة بين مكة والمدينة قوة الدولة الإسلامية، ومكانة عقيدتها، وسلامة أساليب معاملتها، فأقبلوا يعلنون إسلامهم وينضمون إلى الدولة الجديدة، وبذلك أضعفوا قوة الإيلاف وآثار المعاهدات التي كانت قد عقدتها قريش لتأمين سير قوافلها نحو بلاد الشام. وهذا من شأنه أن يُضْعف سلطان قريش وهيبتها، ويُمَهِّد لتعطيل تجارتها مع الأقاليم الشمالية خاصة.

حرصت قريش على تنفيذ بنود الحُدَيْبِية والحفاظ على سيادة السلم. غير أنها لم تقم بأي نشاط يؤمِّن قوتها في حالة الإخلال بالسلم وتجدُّد النزاع مع الدولة الإسلامية. وهذا الموقف السلبي يُظْهر تضعضع روح المقاومة في قريش التي كانت، حتى في أوْج قوتها، قد قَصَرَت اهتمامها على تأمين سير تجارتها، وإنماء العلاقات السلمية مع غيرها. ولم تدرك الصلات المتداخلة بين السياسة والاقتصاد، فلم تحاول توسيع سلطانها السياسي وتكوين دولة واسعة. أما

الرسول (ص)، فقد أظهر إدراكه، منذ الهجرة إلى المدينة، للأهمية الكبيرة للعامل السياسي وتكوين الدولة في تأمين جوانب الحياة العامة ومنها الأحوال الاقتصادية.

ثم إن جمود قريش على أوضاعها السابقة، التي تقتصر على تأمين السلم والحفاظ على التجارة، قد جعلها قاصرة عن التجدد في المجتمع والاهتمام بالتماسك الاجتماعي وإذكاء الحيوية عند الناس، في حين أظهر الإسلام انفتاحاً وحيوية واهتماماً بالإنسان وعلاقاته الاجتماعية، وكان من ثماره قدرته على صد الأخطار وجَلْب الأنصار والتوسُّع السِّلْمي.

لا ريب في أن عوامل أخرى كانت تؤثر في إضعاف معنويات مشركي أهل مكة، منها أن الإسلام أظهر اهتمامه بالسلم، وحُسْن نواياه بمن يرعاه، ووسَّع فرص التقدم أمام من ينضم إليه، كما أظهر الرسول (ص) سمو خلقه في الترحيب بمن ينضم إلى الإسلام، واستعداده لتناسي خصومات الماضي من أجل تأمين الحياة الجديدة. والواقع أنه كانت لمسلمي قريش من المهاجرين في الدولة الإسلامية الجديدة، مكانة تتناسب مع إخلاصهم لها وجهودهم في تثبيت المجتمع. ولا بد أنَّ إدراك مشركي مكة لهذا الجو الجديد قد قَوَّى ثقة كثيرٍ منهم بدولة الإسلام، خاصة وأن الرسول (ص) قد أظهر، إبّان السنوات السابقة، أنه يحارب الجمود والتفكُّك، ولا يحارب مكة أو أهْلها: فقد بقيت مكة قِبْلة المسلمين في الصلاة، ومتوجَّه الناس في الحج؛ وظلَّ من ينضم منها إلى الإسلام يلقى ترحيباً، فانتشار الإسلام وتوسُّع دولته يُؤمِّن تثبيت المثل الأخلاقية السامية، ويعمل على نشر السلم ويوسع نطاقه، ويتيح الفرص للأفراد في العمل. ومن الطبيعي أن تكون قوة العقيدة عند المسلمين قد أثارت تقدير القُرشيّين، فخف حقدهم الذي لا مبرر له.

كما أن المسلمين، الذين ظلوا في مكة ولم يهاجروا، قد أثَّروا على المتصلين بهم في تخفيف العداء للإسلام، وأثاروا التقدير لتمسكهم بعقيدتهم وإظهار مزاياها. وكذلك لم يفقد كثير من المهاجرين شعور العطف عليهم، خاصة بعد أن توضحت معالم الدين الجديد بما له من أفق واسع وحيوية

واندفاع، وما جعله لمكة من مكانة متميزة، وما يَسَّرَهُ السلم الذي يدعو إليه من تأمين التجارة والازدهار الاقتصادي.

هذا التحوُّل في موقف قريش كان واسعاً وعميقاً. ومن مظاهر سعته أن عدداً من أبرز رجالات أهل مكة، ومنهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، قَدِموا إلى المدينة من تلقاء أنفسهم، وأعلنوا إسلامهم واستعدادهم لخدمة دولته، فَلَقُوا الترحيب، وأسندت إليهم أعمالٌ كبيرة تتناسب مع مواهبهم. ومن المحتمل أن عدداً آخر لم تذكرهم المصادر انضمُّوا إلى دولة الإسلام بعد الحُدَيْبية، وشجَّعهم ما لقي هؤلاء المتنفذون من ترحيب.

أدرك أبو سفيان، الذي كان رئيس مكة ضعف معنويات أهل مكة تجاه الإسلام، فحرص على إبقاء حالة السلم، ولم يُبْدِ مقاومة للرسول (ص) عندما اعتمر وطاف بالكعبة في السنة الثانية من عقد الصلح. فلما وقع نزاع بين خزاعة، وكانت في صف الإسلام، وكنانة، التي كانت في صف مشركي مكة، خشي احتمال توسُّعه، فلم يستعدّ لمقاومة الدولة الإسلامية، وإنما ذهب بنفسه إلى المدينة ساعياً في تمديد مدة الصلح من أجل استمرار السلم. ولما فشل في مهمته، وعاد إلى مكة، لم يَلْقَ من أهلها حماسةً في مقاومة دولة الإسلام. ولا يَبْعُد أن يكون قد تأثر أيضاً بموقف العديد من الأمويين الذين انضموا إلى الإسلام في وقت مبكر بما فيهم ابنته أم حبيبة زوجة الرسول (ص).

نَفَّذ المسلمون وأهل مكة أحكام صلح الحُدَيبية، فقام الرسول (ص)، في السنة التالية، بالعمرة وطاف في مكة، ولم يبق فيها غير أيام ثلاثة، طبقاً للاتفاقية، ولم يقم بعمل استفزازي تجاه مكة، وإنما وجه نشاطه نحو الشمال.

غير أن ذلك الصلح كان هشاً: لأنه معقود بين طرفين متباينين في العقائد والتوجُّهات، ولم توجد قوة تؤمن دوامه، وكانت الأحوال في الحجاز مُعَّقدة، تتيح مجالاً لنقضه. والواقع أن نقضه كان بسبب حادثة عارضة لم يكن لأيٍّ من الطرفين يدٌ في حدوثها. لقد اعتدت خزاعة على تاجر كناني مر بديارها، فناصرته كنانة، فأدّى ذلك إلى تنازع بين الطرفين، وخَشِيَ أبو سفيان توسُّعه،

فذهب بنفسه إلى المدينة يطلب بقاء السلم وعدم استغلاله لنقض الصلح. غير أن الرسول (ص) رفض طلب أبي سفيان: لأنه أدرك أن غض النظر عن هذا الحادث لا يضمن تجدُّدَه بشكلٍ مَّا، وأنه لا بد من معالجة جذرية للأحوال. وقَدَّر الرسولُ تضعضع معنويات قريش وتزايُد قوته، فأعدّ العدة لحسم الأمر وحشد كل قوته في المدينة، وقوات العشائر التي انضمت إليه، وتقدم إلى مكة لضمها إلى حظيرة الإسلام.

تقدَّم الرسول (ص) لفتح مكة بجيش بلغ عند وصوله إليها عشرة آلاف رجل[1]، وهو أكبر عدد شارك في أي معركة في زمن الرسول (ص). ويبلغ ثلاثة أضعاف عدد ما جهزته قريش في معركة الخندق. وتكونت قوته من أهل المدينة ومن عشائر الحجاز. ومن الطبيعي أن إدراك العرب لضعف مقاومة مكة، وثقتهم بانتصار الإسلام، كان من العوامل التي حملت المقاتلين العرب على المشاركة في هذا الجيش الذي ضم الرجال دون النساء والأطفال.

أما أهل المدينة، فقد «أوعب مع رسول اللّه (ص) المهاجرون والأنصار فلم يتخلف عنه منهم أحد»[2]. ذكرت المصادر عدداً من حَمَلَة رايات عشائر الأنصار. ولا بد أن عشائر أخرى من الأنصار قد شاركت في الفتح، غير أن المصادر لم تذكرها، كما لم تَذْكُر عدد من شارك من الأنصار والمهاجرين في فتح مكة.

أما العشائر الحجازية، فشارك فيها، من كلٍّ من سليم ومُزَينة، ألف مقاتل. ومن كلٍّ مَنْ أسلم وغفار أربعمائة، وفيها عدد من أشجع وتميم، وقيس، وأسد[3].

وكان أهل مكة قد ضعُفت فيهم روح المقاومة لدولة الإسلام، إذ بقي فيها عدد من المسلمين لم يهاجروا، فأثّروا على المتصلين بهم في تخفيف العداء

(1) ابن هشام ١٨/٤، ابن سعد ٢ ـ ١.
(2) ابن هشام ١٨/٤، ٤٢.
(3) ابن سعد ٢ ـ ٩٧/١، ابن هشام ٤، وعن مزينة بن سعد ٢ ـ ١ / ١٠١.

للإسلام. ولعل تمسُّكهم بإيمانهم قد دفعهم إلى العمل على إظهار مزايا الإسلام. كما أن كثيراً من أقارب المهاجرين لم يفقدوا شعور العطف على من هاجر منهم. كذلك توضَّحت معالم الدين الجديد بما له من أُفُقٍ واسع وحيوية واندفاع، وما جعله لمكة من مكانة متميزة باعتبارها قِبْلة المسلمين ومَوْئِل الحج. واتّضح أيضاً أن الدولة الجديدة تؤمّن سير التجارات، وتَعْمل على إنماء الازدهار الاقتصادي الذي يحرص عليه المتنفذون من قريش.

ومن الطبيعي أن متنفذي قريش أدركوا عبَثَ محاولة اجتثاث الإسلام وإزالة دولته، خاصةً بعد فشل غزوة الخندق التي حشدوا لها طاقاتهم وحلفاءهم، كما أنهم بدأوا يُدْركون المنافع التي يمكن أن يَجْنوها من الانضمام إلى دولة الإسلام، فتتابع كبار المتنفذين منهم يتقاطرون إلى المدينة يُعْلنون إسلامهم، ويعرضون خدماتهم للدولة. وكان لموقف الرسول المرحِّب أثَرٌ في زيادة ربطهم بالإسلام، وأثر في تشجيع الآخرين إلى الإنضمام إليه. وتجدر الملاحظة أن أبا سفيان أظهر خوفه من القوات الإسلامية التي تقدمت لزيارة مكة، ولم يُذكر له دور في إثارة المقاومة ولا في عقد صلح الحديبية. ولم يذكر له موقف صلب في مقاومة توسُّع الرسول (ص) أو صَدِّه عندما تقدم لفتح مكة. كل هذا أدّى إلى انهيار روح المقاومة فيه. ولعله اتفق إبَّان ذلك مع الرسول (ص)، إذ أن الرسول أعلن عند دخوله مكة أن من دخل الكعبة فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

وتجمَّعت القوات الإسلامية، بمن فيها مَنْ خرج من المدينة، ومن قَدِم من أرجاء الحجاز، تجمعت في موضع يقال له قُدَيد. ونظَّم الرسول هذه القوات «ووزع الألوية والرايات ودفعها إلى القبائل». ولم تذكر المصادر عدد من كان تحت كل لواء أو راية غير أن هذا النص يدل على أن التنظيم كان على أُسُس قَبَلِيَّة.

والراجح أن الرسول (ص) نَظَّم في قُدَيْد القيادات التي ذكرت عندما دخل مكة، حيث كان خالد بن الوليد على المَجْنَبة اليُمنى وبإمرته رجال قبائل العرب، والزبير بن العوام على المَجْنَبة اليسرى وبإمرته المهاجرون، وسعد بن عبادة مع الرسول (ص) في القلب.

ذكرت المصادر أن حاطب بن أبي بلتعة أرسل سراً كتاباً إلى قريش يُعْلِمها باستعداد الرسول (ص) للزحف إلى مكة، وأن الكتاب كُشف في الطريق، ومن المحتمل أن قريشاً علمت من مصادر أخرى استعدادات الرسول الكبيرة وتقدُّمه لفتح مكة. غير أن المصادر لم تُشِر إلى اتخاذها أي استعداد، سوى أنه عندما وصل الجيش إلى مرّ الظهران، على بعد أميال من مكة، خرج أبو سفيان لمفاوضة الرسول (ص)، وقدَّر عدد الجيش بعشرة آلاف، وأعْلَم أهل مكة بذلك، ثم أعلن إسلامه فرحب الرسول بإسلامه.

تَقَدَّم الجيش إلى مكة، فوصل أطرافها الشمالية، وكان الزبير على المجنبة اليُسرى، والرسول (ص) ومعه الأنصار عند الثنية بأعلى مكة. وجعل خالد بن الوليد مع القوات التي بإمرته على المجنبة اليُمْنى، فطوقت مكة من جانبها الغربي حتى وصلت الحزورة في الأطراف الجنوبية من المسجد الحرام، وكان قد تجمع فيها عدد من أهل مكة وكنانة وعليهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو وحماس بن قيس، وحاولت صد المسلمين، ولكن خالد بن الوليد تغلَّب على مقاومتهم بعد أن قتل منهم قرابة خمسة عشر رجلاً وفرَّ قوادهم. وبذلك استسلمت مكة ووقف الرسول (ص) عند الثنية يُعلن الانتصار وقال: «الحمد للّه الذي صدَقَ وَعْدَه ونَصر عَبْدَه وهزَمَ الأعداءَ وحدَه»، وجاء أهلُ مكة يعلنون إسلامهم ويبايعون الرسول (ص)، وأعلن الرسول (ص) الأمان لأهلها وخصَّ أبا سفيان بمكانة متميزة فقال: «مَن دخل داره فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن». وأَعْلن انتهاء الشرك والوثنية، وأَرْسل من يُطهِّر المسجد الحرام والكعبة وما حول مكة مما فيها من آثار الشرك، واندفع أهل مكة يحطّمون الأصنام والأوثان التي في بيوتهم، ثم تقدَّم الرسول (ص) إلى المسجد الحرام

ودخل الكعبة، وأذّنَ بلالُ فيها، وصلّى في المسجد الحرام، وأعلن وقف الهجرة إلى المدينة، وحُرْمة مكة: «حرام جوفها لا يحل فيها القتل أو الصيد أو قطع الشجر الأذخر».

دخل الرسول (ص) مكة فاتحاً بالقوة، وبذلك كانت له سلطة تامة في فرض ما يشاء من عقوبات وأحكام على أهلها، ولكنه اعتبر دخوله خاتمة النزاع، وأعْلَن العفو العام، ولم يثأر مِمَّن آذاه وقاومَ الإسلام، فلم يقتل منهم غير أربعة، وعفا عمَّن هرب من زعماء قريش فعادوا إليها، ولم يسترجع ما صودر من أملاك المسلمين، ومنها داره[1]، وأبقى كثيراً من الوظائف المتصلة بالمسجد الحرام بيد أهلها. فظلت السقاية بيد العباس بن عبد المطلب، ومفاتيح الكعبة بيد عثمان بن طلحة(من بني عبد الدار)، وقضى في مكة قرابة أسُبوعين، ثم توجَّه لِقتال هَوَازن، وفَتَحَ الطائف، ثم عاد إلى المدينة.

أنهى فتحُ مكة الصراع الطويل الذي دام سنوات بين المسلمين ومشركي قريش، فعاد إلى أهلها التماسك. وإذا كان المهاجرون قد فَضَّلوا البقاء مع الرسول (ص) في المدينة، فإن صلتهم الاجتماعية والروحية عادت مع مكة التي أخذ كثير من زعمائها يهاجرون طوعاً إلى المدينة. واستفاد كثير مِمَّن ظل مقيماً[2] في مكة من المكانة المتميزة التي شغلها أقرباؤهم في دولة الإسلام. وامتد تسامح الرسول إلى أهل الطائف الذين أَقرَّ لهم الرسول بأن «وج» واديهم هو حرم، وأنهم لا يُحْشرون ولا يُعْشرون، وظلت الطائف تتابع هذا الموقف الذي يقفه أهل مكة من الأحداث.

وعمل الرسول على الإفادة من خبرات أهل مكة، واستخدم عدداً من رجال بني عبد شمس فجعل معاوية من كُتّابه، وأرسل أبا سفيان في عدد من المهمات

---

(١) أنظر ص ٧٨ ـ ٧٩.

(٢) فصل كل من ابن إسحاق وابن سعد أخبار دخول الرسول (ص) مكة، وانظر «اتحاف الورى» لابن فهد ٤٩٦/١ فما بعد، و«شفاء الغرام» للفاسي ٢٤١١٠/٢ وفيه مناقشة قيمة لما أورده ابن إسحاق عن فتح مكة.

والوفادات، وولّى عتاب بن أسيد على مكة، وولّى أبان بن سعيد بن العاص على البحرين، وأخاه خالداً على بعض نواحي اليمن[1].

ولم يُهمل بني مخزوم، فعفا عن عكرمة بن أبي جهل، وكان خالد بن الوليد قد أسلم بعد الحُدَيبية وقاد إحدى المَجْنَبات في فتح مكة، فأسند إليه قيادة حملات في الجنوب، فهدم ذا الخلصة، وشارك في سرايا أنفذها الرسول (ص) إلى الأطراف الشمالية من الحجاز، ثم أرسله إلى نجران.

تفهم أهل مكة الوضع الجديد فلم يبدوا مقاومة فعّالة، ولا أثاروا شغباً. وسرعان ما كيَّفوا أنفسهم مع الوضع الجديد، وأظهروا استعدادهم لخدمته، وأخلصوا العمل فيما أُسند إليهم. ويلاحظ أن أهل مكة لم يرتدُّوا بعد وفاة الرسول، ولم يُعاوِنوا المرتدِّين، بل كان رجالهم على رأس كافة القوات التي قضت على الرِّدَّة. ولم تذكر لأهل مكة، عند الفتح، قيادات تَضُمُّهم أو تُكَتِّلهم، وكان كثيرٌ من متنفذيهم ورؤسائهم القدماء قد أسلموا بعد صلح الحُدَيبية مِثْلَ خالد بن الوليد وعَمرو بن العاص والعباس بن عبد المطلب.

معركة حنين وحصار الطائف

بعد أن تم فتح مكة، وجرى ضَمُّها إلى حظيرة الإسلام، وتطهيرُها من الأصنام، وكلِّ ما يتصل بالشرك، أرسل النبي (ص) قوات هدمت العُزّى وسواع ومَنَاة وذا الكفين والخلصة[2] فزالت آثارها بعد أن زالت عبادتها.

أثار فتح مكة الخوف والفزع في بني هوزان، وهي قبيلة كانت ديارها جنوبِيَّ مكة[3]، وفي بني ثقيف، وهم أهل الطائف وما جاورها فعزموا على مقاومة الرسول بالقوة، وجَمَعوا عشرة آلاف مقاتل تساندهم أنعام وماشية كثيرة[4]. تقدموا إلى وادي حنين، وهو وادٍ كبير ذو شعاب ومضايق كثيرة،

(١) أنظر: الموفقيات للزبير بن بكار ٣٣٣؛ أنساب الأشراف ١/ ٥٢٩.
(٢) الواقدي ٨٧٣.
(٣) البكري ٨٧.
(٤) أنظر التفاصيل في الواقدي ٨٩٩.

فتقدّم إليهم الرسول (ص) بقوة كبيرة تشمل من كان قد تقدم معه لفتح مكة وألْفَيْنِ آخَرِين انضافوا إليه بعد فتح مكة. وبذلك بلغت قوة المسلمين حوالي اثني عشر ألفاً، وضع الرسول (ص) في مقدمته خالد بن الوليد وبني سليم، ثم أهل مكة، ثم قواته الرئيسة. ولما دخلت المقدمة وادى حنين اشتبكت مع قوات المشركين من هوازن، ولكنها لم تصمد بل تراجعت منهزمة، فأثَّرت، بذلك، في جيش المسلمين، الذي أصابه الاضطراب والتضعضع. ولكن الرسول ثَبَتَ في مقره، وثَبَتَ معه مَنْ حوله من الصحابة والأنصار، فعاد التماسك إلى جيش المسلمين، وأعادوا الكرَّة على هوازن وحلفائها فشتَّتوهم وطَهَّروا وادي حنين، وجمَعُوا غنائم كثيرة من الأسرى والذراري والإبل والماشية، فوضعوها في الجعرانة، وطاردوا فلول المنهزمين إلى أوطاس[١].

ويلاحظ أنه، بالرغم من كثرة المشاركين في معركة حنين، وما جرى فيها من أحداث، لم يخسر المسلمون فيها سوى أربعة قتلى[٢]، وذلك يَعْني أن المعركة قامت على الحركة، ولم يحدث فيها التحام عنيف واسع[٣].

لجأ المنهزمون من حنين إلى الطائف وتحصَّنوا فيها، وكانت مدينةً وافرة المياه والينابيع، كثيرة الأشجار والبساتين، وخاصة من الكروم[٤]، وكانت هذه البساتين تعرقل حركات الجيوش المهاجمة، فضلاً عن سور كان يحيط بها. وكان أهل الطائف من ثقيف، وفيهم عدد من الأغنياء والموسرين ذوي ثروات كبيرة، ومكانة اقتصادية بما كانوا يقومون به من إقراض بربا فاحش.

شدَّد الرسول الحصار على الطائف، واستخدم فيه «الدَّبَّابات» وهي آلات مغطاة بجلود البقر تحمي مَنْ فيها من المقاتلين[٥]، واستخدم الحسك، وهدد

---

(١) الواقدي ٩١٢، وانظر تفاصيل غنائم حنين في فصل التنظيمات المالية.
(٢) الواقدي ٩٢٢، ابن هشام ٤/ ٧١ فما بعد.
(٣) الواقدي ٩٢٢، ابن هشام ٤/ ٧١ فما بعد.
(٤) أنظر تفاصيل أحوالها في كتاب لامنس «الطائف» بالفرنسية.
(٥) الواقدي ٩٢٦. وانظر تفاصيل حصار الطائف في ابن هشام ٤/ ١٢٢ فما بعد.

بقطع أشجار البساتين وأعلن تحرير كل عبد يلجأ إليه من عبيدهم[١]. ولكن أهل الطائف صمدوا للحصار الذي دام قرابة ثلاثة أسابيع قرر الرسول (ص) في نهايتها تَرْكَ الحصار والعودة إلى المدينة بعد أن وقع من المسلمين اثنا عشر شهيداً أكثرهم من قريش[٢].

وفي طريق عودته وقف بالجعرانة، وقَسَّم غنائم حنين، وأَغدق العطاء على عدد من رجال مكة والمنضمِّين حديثاً إلى الإسلام ليؤلف بين قلوبهم، وجاءه في الجعرانة وفد من هوازن يعلن انضمام القبيلة إلى الإسلام، فقبل الرسول انضمامهم ورد إليهم سباياهم[٣].

أما أهل الطائف، فقد أدركوا عَبَثَ مقاومة الإسلام بعد توسُّع دولته وانضمام الناس إليه، فأرسلوا وفداً إلى الرسول بعد عودته إلى المدينة وأعلنوا إسلام أهل الطائف ودخولهم في دولة الإسلام[٤]. ووعدهم الرسول (ص) أنهم «لا يُحْشرون ولا يُعْشرون وثَبَتُوا على الإسلام»، فلم يرتدوا عند وفاة النبي. وبعث أبو بكر إلى ابان ابن سعيد، وكان الرسول (ص) قد ولاّه البحرين، وأمره لا أن يَضْرب على كل مخلاف بقدره»، فضرب على كل مخلاف عشرين رجلاً، ولم يخالفه أحد»[٥].

---

(١) الواقدي ٩٣٦.
(٢) الواقدي ٩٣٨.
(٣) الواقدي ٩٥٠، وانظر عن المؤلفة قلوبهم: ابن هشام ٣/٤، ٣١، ٦٨، ٧٢، المحبَّر ٤٧٣، المنمق ١٧٢، تفسير الطبري ١٠/١٢.
(٤) الواقدي ٩٦٧.
(٥) الوثائق السياسية، جمع محمد حميد الله ١٠ ب.

الفصل التاسع عشر

كُتُب الرسول (ص) إلى حكام البلاد المجاورة

يتفق رواة السيرة الأولون أن الرسول (ص) وجه، بعد فتح مكة، كتباً إلى حكام الدول المجاورة، وهم قيصر الروم، وكسرى ملك الفرس، والنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس حاكم مصر، والحارث بن أبي شمر الغساني، وهوذة ابن علي الحنفي. وذكر بعض هؤلاء الرواة الأسانيد التي استَقَوْا منها معلوماتهم، فذكر ابن إسحاق عن يزيد بن حبيب المصري «أنه وجد كتاباً فيه ذِكْرُ مَنْ بعث رسول اللّه (ص) إلى البلدان وملوك العرب والعجم، وما قاله لأصحابه حين بعثهم: قال فبعثت به إلى محمد بن شهاب الزهري فعرفه»[1]. واكتُشِفت، سنة ١٨٥٠م، وثيقة في أحد أديرة أخميم بمصر فيها نص لكتاب من الرسول (ص)، وآلت الوثيقة إلى خزائن القسطنطينية. كما اكتُشفت أيضاً في السنوات الحديثة وثيقة فيها نصٌّ لكتاب الرسول نشره دنلوب في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية سنة ١٩٤٠. ثم أُعلِن عن اكتشاف وثيقتين فيهما نص كتاب الرسول إلى المنذر بن ساوي وكانت كلتا الوثيقتين موضوع دراسة وفحص دقيق أظهر أنهما غير أصِيلتين.

---

(١) ابن هشام ٢/٦٠٧.

نقلت كتب السيرة، وبعض كتب الحديث، نصوصاً كثيرة من هذه الكتب. وجَمَع محمد حميد الله، في كتابه «مجموعة الوثائق السياسية»، ما وصل من هذه الكتب وفيها بعض اختلافات في الكلمات والمحتوى. غير أنها، جميعاً، تتميز بالتركيز، فالجُمل فيها قصيرة المبنى، دقيقة المعنى، وفيها بعض التعابير المألوفة في الوثائق، وفي كتب الرسول (ص) الأخرى، وكانت مادة للمؤلفات في «غريب الحديث»، وتنهض غرابتها دليلاً على أصالتها.

كانت هذه الكتب موضوع دراسة قام بها بعض القدماء، وخاصة مَنْ عُنِيَ بشرح كُتُب الحديث، ومن أبرزهم الزرقاني. كما قام، في الأزمنة الحديثة، عدد من المستشرقين والعلماء العرب بتمحيصها وتحليلها لبيان مدى أصالتها وتاريخ إرسالها وأهميتها. وقد استوعب العالِمُ السوداني عون قاسم الشريف دراستها في كتابه «دبلوماسية محمد»، الذي اعتمدنا عليه في كتابة هذا الفصل.

تتفق الروايات على أن هذه الكتب أرسلت بعد صلح الحديبية، غير أنها تختلف في تحديد تاريخ إرسالها، فيذكر الطبري أنها أرسلت في ذي الحجة سنة سبع[١]، ويقول ابن سعد أنها أُرسلت في المحرم من تلك السنة[٢]، غير أنه يذكر أن الرسول (ص) وجَّه إلى المقوقس كتاباً في سنة ست بعد الحديبية[٣]، ويذكر البخاري أن الكتب المذكورة أُرسلت مُنْصَرَفَهُ من تبوك[٤]، ويذكر أبو عبيد أن جواب قيصر وصل عندما كان الرسول (ص) في تبوك[٥].

وتجدر الإشارة إلى أن الرسول (ص) وجَّه في هذا الزمن رسائل إلى عدد من أذواء اليمن ورؤسائها في الجنوب، كما أرسل إلى المنذر بن ساوي في

---

(١) الطبري ١/١٥٥٩.
(٢) ابن سعد ١ ـ ٢/١٥، وانظر فتح الباري ٨/١٠٣.
(٣) ابن سعد ١ ـ ١/٨٦.
(٤) فتح الباري ٨/١٠٤.
(٥) الأموال لأبي عبيد ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

البحرين، وإلى آل الجلندي في عمان، وكل هذه المناطق جزء من جزيرة العرب، وحكامها من العرب، ونطاق سلطانهم محدود، وقد استجابوا لدعوة الإسلام.

أما النجاشي والمقوقس وملك غسان وقيصر وكسرى، فوضْعُهم مختلف إذ أنهم يحكمون بلاداً نائية عن المدينة، وبعضها كالحبشة ومصر غير متصلة بالجزيرة، كما أن بعض هؤلاء الحكام كانوا يحكمون بلاداً واسعة الأرجاء، قوية الكيان، ولغاتهم الرسمية ليست العربية، وهم فيما عدا كسرى، يدينون بالنصرانية، وهم الذين اعتبرهم القرآن الكريم من أهل الكتاب ولم يلزمهم باعتناق الإسلام.

إن هذه الأوضاع، بالإضافة إلى الاختلافات في نصوص روايات الكتب، حملت بعض المستشرقين على الشك في أصالتها، وكان مبعث شكوكهم أن الرسول (ص) تميَّز في أعماله بنظرة واقعية لا تنسجم مع دعوته الحكام، الواسعي السلطان، إلى اعتناق الإسلام، وهي دعوة قد تثير عَداءَهم وتحدِّيهم لدولة الإسلام، في الوقت الذي لم تتثبت فيه بعد هذه الدولة على كل جزيرة العرب.

ومن الحجج التي استند إليها المُشكِّكون في صحة هذه الكتب أن الدعوة الإسلامية كانت وثيقة الصلة بالعرب، فلغة القرآن الكريم عربية، والتوجه في الصلاة إلى الكعبة، والحَجُّ إلى بيت اللّه في مكة، واهتمام الرسول (ص) كان منصباً على هداية العرب وضمِّهم إلى الإسلام؛ والقرآن الكريم طلب من الرسول (ص) أن ينذر عشيرته الأقربين(١)، وينذر أم القرى وما حولها(٢)، وأنه مُرْسَل في الأميين(٣)، وأن القرآن الكريم ذِكْرٌ للرسول (ص) ولِقَوْمه(٤).

---

(١) الشعراء ٢١٤.
(٢) الأنعام ٩٢، الشورى ٧.
(٣) الجمعة ٢.
(٤) الزخرف ٤٤.

إن هذه الحجج قد تَصْدُق على التشكيك في بعض تفاصيل ما جاء في هذه الكتب، ولكنها لا تكفي لرفضها كليًا، ذلك أن صلة الإسلام بالعروبة، واهتمام الرسول (ص) بنشر الدين بين العرب، مَبْعثهما نظرة واقعية وخطوة مرحلية لنشره في العالم. فأساس الإسلام الإيمان بالوحدانية والدعوة لعبادة اللّه تعالى الواحد الأحد، رب السماوات والأرض، خالِق كل شيء، ومالك كل شيء. وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تذكر أن اللّه تعالى رب العالمين[1]، وفاتحة القرآن: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾[2]، وأن اللّه ذو فضل على العالمين[3]، وأنه ذِكْرٌ للعالمين[4]، و﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران]. وفي القرآن الكريم آيات صريحة بأن رسالة الرسول (ص) للعالمين[5] ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان] ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَـٰذِيرًا﴾ [سبأ/ ٢٨] ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس].

والواقع أن الرسول (ص) أراد من عقد صلح الحديبية أن لا يَحْصر جهوده في مقارعة قريش كما كان يفعل في السنوات الأولى من الهجرة، وإنما أراد أن يمتد نشر الدعوة الإسلامية إلى ميدان واسع من جزيرة العرب وما حولها. فالكتب التي وجَّهها بعد صلح الحديبية إلى مختلف الجهات تَتَّسق مع مبدأ نشر الدعوة بين الناس كافة، دون الاقتصار على فئة محددة أو جهة معينة، ولذلك عَمَّت عدة جهات، فقد أرسل عدداً من الرسائل إلى اليمن وحضرموت في

(١) الأنعام ٤٥، ٧١، ١٦٢، الأعراف ٥٤، ٦١، ٦٧، ١٠٤، يونس ٣٧.
(٢) الفاتحة.
(٣) البقرة ٢٥١
(٤) ص ٨٧.
(٥) الأنبياء ١٠٧.

جنوب الجزيرة، وإلى المنذر بن ساوي والجلندي في شرق الجزيرة، كما استقبل وفود القبائل التي ديارها في وسط الجزيرة وفي شرقها.

إن الدعوة الإسلامية تقوم على العقيدة والدين، فأساس تعاملها مع المجموعات الدينية، والمبدأ الأساس في الإسلام هو مناهضة الشرك والوثنية، والتسامح مع الديانات الأخرى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة/ ٢٥٦]. وحكم هذه الآية يبيح إبقاء أهل الكتاب من اليهود والنصارى خاصة دون إلزامهم باعتناق الإسلام.

غير أنه، منذ الهجرة، اقترن الدين بالدولة وتَلاحَما في الإسلام، فكان اعتناق الدين مرتبطاً بالإقرار بدولته، وهو اقتران لازم في تلك الأحوال التي لا بد فيها لكل جماعة من قوة تَحْميها ولا يوفرها إلاّ وجود دولة، فكان إسلام أية مجموعة معناه امتداد دولة الإسلام إليهم، وهذا يتطلب تحديد موقف الدولة من المجتمعات التي لا تعتنق الإسلام.

اتخذ الرسول (ص) مواقف حازمة تجاه ثلاث من القبائل اليهودية في المدينة، إبّان السنوات الأولى من الهجرة، فأقصى بني قينقاع في منتصف السنة الثانية، وبني النضير في أواسط السنة الثالثة، وقضى على قريظة في السنة الخامسة. غير أن هذه الإجراءات أَمْلَتْها أحوال خاصة، ولم يُطَبِّقها على بقية اليهود في المدينة، أو في مستعمراتهم المتفرقة في شمال الحجاز والجزيرة.

واهتم الرسول (ص)، بعد الحديبية، بالسيطرة على المناطق الشمالية من الحجاز، والواقعة في أطراف بلاد الشام، فأرسل حملات متتابعة لتحقيق هذه السيطرة التي تُؤَمِّن سَيْر تجارة المسلمين، وقد تُعَرْقِل سَيْرَ تجارة المشركين. وخلال هذه الحملات احتك بمجتمعات تعتنق اليهودية والمسيحية، ولكنه لم يحاول فرض الدين الإسلامي على أهل تلك المناطق. وقد أسلم عدد من القبائل ورؤسائها، ولكن كثيرين منهم ظلوا على دينهم ولم يعتنقوا الإسلام.

ذَكَرت المصادر التي عُنِيت بذكر كتب الرسول (ص) ثلاثة كتب أحدها إلى يوحنا بن رؤبة، والثاني إلى أهل أذرح، والثالث إلى أهل مقنا. أمّا كتابه إلى يوحنا بن رؤبة، فقد شَمِل سروات أهل أيلة، وطَلَب فيه أن يُسْلِم أو يُعْطِي

الجزية، كما طلب بعض المطالب الجزئية مقابل حماية الرسول لهم «من كل حق كان للعرب والعجم إلا حق اللّٰه ورسوله». وكتب كتاباً ثانياً يؤمِّنه شرط أن لا يمنعوا المسلمين من الماء وسلوك الطريق.

وفي كتابه لأهل أذرح أمنهم على أن يدفعوا مائة دينار في كل رجب، وأن يَحْموا من يلجأ إليهم من المسلمين.

وفي كتابه إلى بني جنبة، وإلى أهل مقنا، أمَّنهم وجعلهم ذِمَّة، وترك لهم الولاية لمن يختارونه عن أنفسهم على أن يدفعوا ربع منتوجهم من النخل ومما يَصِيدُون ومما تغزِلُه نساؤهم. وقد بقيت، من هذا الكتاب، نسخة مكتوبة باللغة العربية وبالخط العبرى وفيه تفاصيل أوفى مما ذكرته المصادر العربية.

ذَكَرت المصادر أن الرسول (ص) كَتَب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، وإلى جَبَلَة بنِ الأيْهَم ملِكِ غسان، وإلى كلٍّ من بني ثعلبة من غسان، وقبيلة حدس من لخم، وزياد بن جهور اللخمي، وبني جعيل من بلي[1]. وكل هؤلاء ديارهم في الأطراف الجنوبية من بلاد الشام، وهي تتاخِمُ الحجاز التي كانت سيطرة الرسول (ص) عليه مؤمنة في أواخر سني حياته.

إن هذه الكتب يقابلها مثيل لها أُرْسل إلى كل من المنذر بن ساوى[2]، وأهل هجر[3] وسيبخت عامل البحرين[4]، وعبد القيس[5]، والأسبذيين في عمان والبحرين[6]، وهوذة بن علي الحنفي[7] وثمامة بن أثال[8]، وآل الجلندى

(١) راجع نصوص هذه الكتب في كتاب محمد حميد الله «الوثائق السياسية»، وكُتُب الحارث وجبلة وثعلبة وبقية القبائل في هذه الفقرة وردت فيه برقم ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٨.

(٢) الكتب مذكورة في كتاب الوثائق السياسية برقم ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤.

(٣) رقم ٦٠.

(٤) رقم ٦٥.

(٥) رقم ٧٢، ٧٢أ.

(٦) رقم ٦٦.

(٧) رقم ٦٨.

(٨) رقم ٦٨ ب.

في عمان[١]، وأزد دبا[٢] والحدّان[٣]، وأهل دما[٤]، وكذلك إلى أذواء اليمن وعدد من رجالها.

أُجريت كافة هذه المكاتبات مع حكام أو مجتمعات في أطراف جزيرة العرب، متصلة بدولة الإسلام، وكان بعضهم تابعاً لدولتي الروم والفرس اللتين كان كل منهما يعاني اضطراباً وضعفاً بسبب حروب بينهما ومشاكلهما الداخلية، فكانت هيمنتها على الحكام والمجتمعات غير قوية، وقد أدرك الرسول (ص) ذلك فكاتبهم، واستجابوا لمطاليبه وإن لم يرد ذكر اعتناقهم الإسلام. ومن الطبيعيّ أن هذه المكاتبات تمَّت بعد صلح الحديبية، ولعلّ بعضها كان في السنة الأخيرة من حياته. ومثل هذه المكاتبات تنسجم مع قولٍ للرسول (ص) مضمونه: أنّ صلح الحُدَيبية يتيح نشر الدعوة وتوسيع الدولة، ويؤيِّد ما يراه ابن اسحق من أن من اعتنق الإسلام بعد هذا الصلح كان أضعاف من اعتنقه قبله.

انصبَّ اعتراض المشكّكين في كُتب الرسول (ص) على ما أرسل منها إلى ملوك الدول الكبيرة: كسرى وهرقل والنجاشي. وقد أقاموا اعتراضهم على أن أملاك هؤلاء الملوك نائية نسبياً عن دولة الإسلام في الجزيرة، وأنهم كانوا لا يزالون محتفظين بمكانة وقوة تجلّت في انتصار الروم في مؤتة، وفي تحاشي الرسول (ص) الاشتباك معهم في تبوك، ورأوا أن كتابة الرسول (ص) لهم بدعوتهم إلى الإسلام يعارِض نظرته الواقعية. على أن التشكيك في دعوتهم إلى الإسلام لا يمنع من كتابته إليهم يُعْلِمهم بقوته واتساع دولته وحيوتها وأهمِّيتها، كيما يحسبوا لها الحساب، فيتعاملوا مع الرسول (ص) بدل التعامل مع الرؤساء المتفرقين الذين انضوَوْا إلى هذه الدولة الحية الواسعة. فإذا أثير الشك في تفاصيل ما جاء في هذه الكتب، فإنه لا يصحّ القول: إنها كانت عديمة

---

(١) السيرة ٣/ ٣٥٦ ـ ٧.
(٢) السيرة ٣/ ٣٧٢.
(٣) ابن سعد ١ ـ ١/ ٩٢.
(٤) رقم ٧٨.

الأساس، مع الإشارة إلى أن مكاتبته للمقوقس أثمرت إهداءه مارية التي ولدت له ابنه إبراهيم الذي تُوُفي في السنة العاشرة وعمره سنتان تقريباً، أي أن المكاتبة تمت قبل سنة ثمان. أما مكاتبته للنجاشي، فكانت توصي بان يُحْسن معاملة من كان عنده من المسلمين. وهو ما حدث بالفعل.

الفصل العشرون

امتداد الإسلام في شمالي الحجاز

المنطقة وأهميتها

إن المنطقة الواقعة في شمال المدينة، والممتدة بينها وبين بلاد الشام، تتكون من أَراضٍ متموجة فيها عدد من المرتفعات، وهي صحراوية وَعِرة، قليلة المياه والمراعي والسكان، ما عدا بعض الواحات الخصبة في خيبر وفدك ووادي القرى. وتخترق هذه المنطقة طرقٌ التجارة بين الحجاز وبلاد الشام. وعشائر هذه المنطقة موغلة في البداوة، وأحوالها الاقتصادية متردِّية؛ ونظراً لِبُعد ديارها عن مكة، فإن علاقتها بقريش لم تكن وثيقة. وأبرز هذه العشائر بلي وعذرة وثعلبة ومرة وأشجع، وجهينة. وفي أطرافها الشرقية تقع ديار غطفان بفروعها فزارة وعبس وذبيان، وأسد.

وكانت أشجع أقرب القبائل إلى المدينة، فكانت ديارها تمتد من الأطراف الشمالية للمدينة حتى منتصف الطريق إلى تيماء، ومنها أكثر سكان فدك، ويجاورها في الغرب جهينة، وفي الشرق عبس وذبيان، وهي تتداخل معهم وتشترك في سُكْنى بعض المواضع.

وإلى الشمال من أشجع، كانت ديار عذرة، وهي من أكبر عشائر المنطقة، وكان فيهم العدد والشرف، ومنهم رزاح أخو قُصَيّ لأمه، وفيهم كان بيت عذرة. وتمتد منازلها إلى أطراف بلاد الشام ومنها حسمى وتبوك ووادي القرى؛

ويمر في ديارها الطريق بين المدينة وتيماء[١].

وشماليَّ عذرة كانت ديار سعد هذيم «بوادي القرى والحجر والجناب وما والاها من البلاد»[٢].

أما المناطق الشمالية الشرقية، فكانت فيها ديار بني مرّة ومنها حرة ليلى، وحرة النار[٣] والحجر[٤].

وفي الجنوب من بني مرّة كانت ديار غطفان وهي تمتد إلى خيبر غرباً وإلى جبلَيْ طي[٥]. ويَجْري في الأطراف الجنوبية من ديار غطفان وادي الرمة، وهو الوادي الطويل الذي يقطع جزيرة العرب من الشرق إلى الغرب، ويبتدىء من أطراف الحجاز، ويمر بديار بني سعد بن زيد مناة فيُسمَّى الدهناء، ثم يمر بديار بني أسد فيسمى منعج، ثم يجري في ديار غطفان فَيُسمَّى الرمة الذي تنزل في أعلاه بنو كلاب، وفي[٦] أواسطه عبس وغيرهم من غطفان، وفي أدناه بنو أسد[٧] ولهم الثلبوت، والسربة[٨].

تتكون غطفان من عدة عشائر كبيرة أبرزها فزارة وعبس. أما فزارة، فكانت أبرز ديارها الأبانَيْن الأبيض والأسود، وهما جبلان يمر بينهما وادي الرمة[٩]، وشرقِيَّهما الحاجز. وتمتد ديارهم إلى حمى ضربة الذي لهم فيه أحد عشر ميلاً، ولهم الجريب[١٠].

---

(١) البكري ٣٢٩.
(٢) البكري ٣٨، ٤٣.
(٣) ياقوت ٢/ ٢٥٠.
(٤) البكري ٣٦٧.
(٥) ياقوت ١/ ٤٠٧.
(٦) ياقوت ٢/ ٦٣٦، ٨٢٢.
(٧) البكري ٣٤٣.
(٨) البكري ٣٩١.
(٩) ياقوت ٢/ ٤٣٢، ٣/ ٧٧١، البكرى ٩٥، وانظر أماكن في ديارهم في وصف طريق المصدق البكري ٣٩٧.
(١٠) البكري ٣٧٩.

وفي الأطراف الجنوبية الشرقية من ديار فزارة كانت منازل عبس فيما بين أبانين والنقرة وماوان والربذة[١]. ومن منازلهم التي قرب الرمة قطن وهو جبل ململم يجري من ورائه عيون، كثير النخل والمياه، بين الرمة وأرض بنى أسد. وهذا الجبل يقع شماليّه تياسان وبالقرب منه وادي خو، وهو يصب في ذي العشيرة الذي يصب في الرمة. وتمتد ديار عبس إلى أطراف حمى الربذة[٢] ولهم ثادق أيضاً.

أما بنو أسد، فإنَّ ديارهم تقع شرقِيَّ ديار فزارة وعبس، ويمر بها وادي الرمة، فيسمى في ديارهم منعج[٣]، ويمر في ديارهم أيضاً ثادق، وهو وادٍ ضخم يفرغ في الرمة، وأعلاه لافناء بنى أسد وأسفله لعبس[٤] وتمتد ديار بنى أسد إلى سميراء[٥]، وهي إحدى محطات طريق الحاج، وتتصل ديارهم بديار طي[٦].

وفي الجنوب من بني أسد تقع ديار محارب عند الجريب، وهو وادٍ يصب في الرمة بينهما الشربة وفي نهايته الجنوبية الحزيز وهو ماء عن يسار سميراء[٧]. وتمتد ديارهم إلى معدن النقرة.

وفي الجنوب الغربي من ديار بني أسد تقع منازل بنى سليم ممتدة إلى أراضٍ واسعة، وفيها مناجم بني سليم، ومناجم فران.

ولم تعتنق هذه القبائل الإسلام، ولم تتَّصل بالرسول (ص)، وإنما قامت ببعض الغارات على أطراف المدينة.

وشارك بعضها في غزوة الخندق مع قريش. ومع أنها ثبتت في الحصار،

---

(١) البكري ١٠٨٣، ياقوت ٤/ ١٣٩ وهما يذكران أن الأبانين لأسد، ياقوت ٢/ ٥١١.
(٢) ياقوت ١/ ٩١٤.
(٣) ياقوت ٢/ ٦٣٦، ٨٢٢.
(٤) ياقوت ١/ ٩١٤.
(٥) ياقوت ١/ ٨٩٣.
(٦) البكري ١٠٨٣، ياقوت ٤/ ١٣٩.
(٧) البكري ٦٧٥.

وانسجمت مع قريش في حركاتها وخططها، إلا أنها لم تقم بعمل بارز في القتال، وانسحبت مع قريش وعادت إلى ديارها، غير أنها ظلت معادية للرسول.

دفعت هذه الحركات الرسول (ص) إلى تجريد الحملات لإيقاف تجاوزات هذه القبائل على المدينة؛ وقد بدأ ذلك منذ السنة الثالثة حيث أرسل خلالها ثلاث حملات متتابعة إلى ذي إمر لمقاتلة ثعلبة ومحارب اللذين أرادا غزو المسلمين، ثم إلى ذي قردة، ثم إلى قطن حيث كان طلحة وأخوه سلمة يجمعان قوات من بني أسد للإغارة على المسلمين.

وبعد انتهاء معركة الخندق، وتطهير المدينة من بني قريظة، أنْفَذ الرسول (ص) سَريةً إلى بني أسد وسريَّتين إلى بني ثعلبة، ثم أرسل بعد الحديبية سريَّة إلى غطفان في يمن وجبار.

أظهر الرسول (ص) اهتماماً بربط هذه المنطقة بالإسلام وضمِّها إلى دولة الإسلام، ويرجع هذا إلى عدة عوامل، منها ضعف نفوذ قريش في هذه المنطقة، مما يجعلها منعزلة عن قريش ويُضْعف مقاومتها، ومنها أن بلاد هذه العشائر تَمُرُّ بها القوافل التي تحمل التجارات إلى الشام، ولم يرد ذِكْرٌ لحملةٍ أنفذها الرسول (ص) على قوافل قريش في هذه المناطق، وهذا يدل على أن الغرض الرئيس من حملاته على هذه العشائر هو توسيع دولة الإسلام وتيسير مرور تجارة المسلمين التي أخذت تنمو في المدينة بعد الهجرة.

وقد وردت إشارات إلى ازدياد النشاط التجاري في المدينة بعد الهجرة. وأشار القرآن الكريم إلى ذلك في عدد من الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾، ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ

﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾[1] [النور].

لا ريب في أن المهاجرين كانت لهم خبرات واسعة في التجارة التي كانوا يعملون فيها. وبذلك تكاملوا مع الأنصار الذين كانوا يعملون في الزراعة. ويُرْوى أن الرسول (ص) قال: «إن أصحابي من المهاجرين كانت تشغلهم صفقاتهم بالسوق وإنَّ أصحابي من الأنصار كانت تَشْغَلُهم أرضوهم والقيام عليها»[2]، ولا يُستبعد أن يكون المسلمون استفادوا من تحريم الربا الذي كان ضربة موجَّهة إلى استغلال اليهود للعرب في معاملاتهم التجارية، وأخذوا يقومون بأنفسهم بالتجارة ومعاملات البيع التي أصبحت، بِمَنْع الربا، قائمة على أُسُسٍ إنسانية، وكان التماسك الإسلامي يُرَجِّح المعاملة بين المسلمين على المعاملة مع اليهود. ولا ريب في أن الحيوية التي أحلَّها الإسلام محل الركود الذي كان سائداً في المدينة قد ساعدت على نمو النشاط التجاري.

من الصعب رسم صورة كاملة لتنامي النموِّ الاقتصادي والتجاري في المدينة بعد الهجرة، إذْ لم تصلنا عنه إلاّ نُتَفٌ قليلة رغم أهميتها، فيذكر أن عبد الرحمن بن عوف لم يَقْبَل معونة الأنصاري الذي آخاه، وقام بنشاط تجاري جلب له ربحاً مكَّنه من الاعتماد عليه في معيشته[3].

ويقول الواحدي في تفسير الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة/٩]: «قال الحسين بن الفضل إن سبع قوافل وافت، من بُصْرَى وأذرِعات، يهود قريظة في يوم واحد، فيها أنواع من البز، وأوعية الطيب والجواهر، وأمتعة البحر، فقال المسلمون: «لو

(١) الصحابة ١٥٩، ابن حنبل ٢/٢٤٠، ٢٧٤؛ ابن سعد ٤ ـ ٢/٥٦.
(٢) البخاري: علم٤٢، اعتصام ٢٢، بيوع ١؛ حرث ١؛ مسلم؛ فضائل.
(٣) ابن سعد ١٠٣/٨٨، ٤ ـ ٢/٥٦.

كانت هذه الأموال لنا، لتقوَّينا بها وأنفقناها في سبيل اللَّه، فأنزل اللَّه هذه الآية»[1].

حملات الرسول (ص) إلى الشَّمال

وجَّه الرسول (ص) جهوده العسكرية، بعد تقليص دور مشركي قريش، نحو الشمال، وبدأ ذلك منذ أوائل السنة الخامسة عندما «بَلَغَ رسولَ اللَّه (ص) أن بدومةِ الجندل جمعاً كثيراً، وأنهم يظلمون من مرّ بهم من الضافطة، وأنهم يريدون أن يَدْنوا من المدينة، وهي طرف من أطراف الشام، فندب رسول الله (ص) الناس وخرج لخمس ليال من شهر ربيع الأول في ألفٍ من المسلمين. فلما دنا منهم إذا هم مُغْرِبون، وإذا آثار النَّعَم والشاة، فهجم على ماشيتهم ورعاتهم فأصاب من أصاب، وهربَ من هرب في كل وجه، وجاء الخبر أهل دومة الجندل فتفرقوا ونزل رسول اللَّه (ص) بساحتهم فلم يجد فيها أحداً، فأقام بها أياماً، وبث السرايا وفَرَّقها، فرجعت ولم تُصِب منهم أحداً»[2].

وفي جُمادَى الآخِرة سنة ست اعتدى بعض الجذاميين بحسمي على دحية بن خليفة الكلبي عندما كان في طريقه إلى الرسول (ص)[3]. فلما قَدِم على الرسول (ص) أخبره بذلك فبعث الرسول (ص) زيد بن حارثة في خمسمائة رجل ومعه دحية، فأغار على بني لخم، وأخذ مِن نَعَمِهم ألف بعير وخمسة آلاف شاة، ومائةً من النساء والصبيان، ثم أمر برد المغانم طبقاً لاتفاق كان قد سبق عقده مع زيد بن رفاعة الجذامي.

وفي ذلك الشهر أيضاً أَرْسل عليَّ بنَ أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفدك فأغار على نَعَمِهم. وفي رمضان، اعتدت فزارة على قافلةٍ للمسلمين يقودها زيد بن حارثة، فلمَّا عاد زيد إلى المدينة، وأخبر الرسول، ردَّه الرسول (ص) مع سرية أغارت على بني سعد وقتلت أم قرفة[4].

---

(١) أسباب النزول ٢٠٨. وانظر كتاب باتريشيا كرون «تجارة مكة» (بالانكليزية).
(٢) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٤٤؛ مغازي الواقدي ٤٠٣.
(٣) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٦٤؛ مغازي الواقدي ٥٦٤.
(٤) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٩٣ ـ ٩٤.

تُظهر هذه الحملات اهتمام الرسول (ص) بالسيطرة على الأطراف الشمالية من الحجاز، حيث كانت تمر قوافل تجارة المسلمين في المدينة.

وبعد أن عُقِد صلح الحديبية، وعاد الرسول (ص) إلى المدينة، لم يتأخر في إعداد حملةٍ إلى الشَّمال أخضعت اليهود في خيبر وفدك ووادي القرى، ووافق على إبقائهم يعملون في أراضيهم، على أن يدفعوا للرسول (ص) نصف المنتوج السنوي لمزارعهم.

وفي ربيع السنة الثامنة وَجَّه الرسول (ص) سرية إلى ذات أطلاح وراء وادي القرى، غير أن رجالها قتلوا ولم يُفْلت منهم غير واحد؛ ثم وجَّه رسالة إلى حاكم بُصرى، ولكن حاملها قُتِل، فَجَهَّز الرسول حملة قِوامها ثلاثة آلاف رجل وَلَّى قيادَتَها زيدَ بن حارثة، فوصل إلى مَعَان، ثم تقدم إلى مُؤْتَة وانكسر في معركة هناك قُتِل فيها ولم ينقذهم إلا مهارة خالد بن الوليد في الإنسحاب.

وفي جُمادى من تلك السنة وجَّه الرسول حملة بقيادة عمرو بن العاص مع ثلاثمائة رجل بالإضافة إلى من استعانَ بهم، فتقدَّم إلى أقصى بلاد عذره وبلقين[1].

وفي رجب من السنة التاسعة قام الرسول (ص) بغزوة تبوك، وأَنْفَذ خلال تقدمه حملةً بقيادة خالد بن الوليد توجهت إلى أكيدر دومة الجندل.

أشجع

كانت أشجع من المشركين في معركة الأحزاب، شارك منهم أربعمائة يقودهم مسعود بن رخيلة[2]. وقد أسلم منهم خلال حصار المدينة نعيم بن مسعود، وقام بدور في تفكيك حلف المشركين[3].

---

(١) ابن سعد ٢ ـ ١/٩٥.
(٢) ابن سعد ١ ـ ٢/٤٧، ٤ ـ ٢/٢١، مغازي الواقدي ٤٤٣.
(٣) ابن سعد ٤ ـ ٢/١٩.

وبعد انتهاء المعركة، «قَدِمت أشجع على رسول اللّه، وهم مائة يرأسهم مسعود بن رخيلة، فنزلوا شعب سلع، فخرج اليهم رسول اللّه (ص) وأمر لهم بأحمال التمر، فقالوا: يا محمد، لا نعلم أحداً من قومنا أقرب داراً منك منا، ولا أقل عدداً، وقد ضقنا بحربك وبحرب قومك فجئنا نوادعك، فوادعهم وهم سبعمائة، ثم أسلموا بعد ذلك[١].

يذكر ابن سعد أن الرسول (ص) كتب إلى نعيم بن مسعود بن رخيلة كتاباً حالفه فيه على النصر والنصيحة[٢]. ويقال إن فيهم نزلت الآية ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾ [النساء/ ٩٠]. ويقول السمهودي إنهم حين جاؤوا نزلوا في المدينة[٣].

وكان دليلُ المسلمين إلى خيبر رجلاً من أشجع[٤]، وشاركوا في مقاتلة خيبر وقُتل رجل منهم[٥]. وشاركوا في فتح مكة، وعدد من شارك ثلاثمائة وكانت لهم راية مع عوف بن مالك، وكان اللواء مع معقل بن سنان[٦].

بنو مرّة

أما بنو مرة، فكانت منازلهم في فدك وقد انضمُّوا إلى عيينة بن حصن عندما تقدَّم لإمداد أهل خيبر عندما حاصرهم الرسول، فَوَجَّه الرسول إليهم بعد انتصاره في خيبر سرية في ثلاثين رجلاً قُتِل قائدها، فوَجَّه حملة أخرى انتصرت عليهم وأخضعتهم فانضموا إلى الإسلام. ويقول ابن سعد إن وفد مرّة قَدِم إلى الرسول (ص) يُعْلِن إسلامه بعد عودة الرسول من تبوك في السنة التاسعة[٧].

(١) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٢٨، تاريخ المدينة لابن شبة ٢٦٧.
(٢) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٤٩.
(٣) ابن سعد: وفاء الوفا ١/ ٥٥١.
(٤) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٢١، مغازي الواقدي ٣٦٧، ٦١٧، ٧٢٧.
(٥) مغازي الواقدي ٧٠٠، ٦٤٩، ٦٨٣.
(٦) ابن سعد ٤ ـ ٢/ ٢٢، ٣/ ١٢٠.
(٧) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٤٨.

بنو عذره

وأما بنو عُذْرة، فبحكم موقع ديارهم البعيد عن المدينة، لم يكن لهم احتكاكٌ كبير بالإسلام، ولم يقوموا في السنين الأولى بعمل إيجابي تجاهه. غير أن تزايد النشاط التجاري للمسلمين، ومرور القوافل في ديارهم، قد سبَّب تزايد اتصالهم بالمسلمين[١]، ولم يقفوا موقف عداء منه. ويقول ابن سعد إن «ضمرة بن النعمان كان سيد عذرة، وهو أول أهل الحجاز قَدِم على النبي (ص) بصدقة عذرة فأقْطَعَه الرسول (ص) بوادي القرى»[٢]. ويذكر أيضاً أن وفد عذرة قدم إلى الرسول في السنة التاسعة[٣].

أسد

كانت أسد من القبائل الكبيرة، وكانت مرتبطة بحلف مع طي وغطفان، فلما نقض عيينة بن حصن ذلك الحلف ظلت أسد مرتبطة بعيينة، ووقفت موقفاً معادياً للإسلام، وشاركت في معركة الخندق بقيادة رئيسها طلحة مع المشركين[٤]. ولم تقم أسد بعمل حاسم ضد الإسلام بعد ذلك، ولم تذكر المصادر أسماء رجال منها أسلموا حتى أوائل السنة التاسعة حيث يذكر ابن سعد أنه «قَدِم عَشَرَةُ رهط من بني أسد بن خزيمة على الرسول»[٥]. ويذكر أيضاً أن الرسول أقطع حصين بن نضلة الأسدي إقطاعاً[٦]، ولكنه لم يذكر تاريخ ذلك. ويبدو أن أسد ظلت مقيمة على الشِرْك بتأثير رئيسها طلحة الذي ادّعى النبوة في حياة الرسول (ص)، وظل معادياً لدولة الإسلام حتى دحره خالد بن الوليد في معركة بزاخة.

---

(١) مغازي الواقدي ٧٧١.
(٢) ابن سعد ٤ ـ ٢/ ٧٤.
(٣) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٦٧.
(٤) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٣٩.
(٥) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٤٣.
(٦) مغازي الواقدي ٤٧٠.

محارب

أما محارب، فكان موقفها معادياً للمسلمين في سنواته الأولى. وقد حاولوا أن يغزو الرسول ويُغِيروا على نَعَم المسلمين في ذي القصة، التي تبعد حوالي ثلاثين ميلاً عن المدينة، فجهَّز الرسول عليهم حملة في أواسط السنة السادسة أغارت عليهم فهربوا. وأرسل حملة أخرى ضدهم في القرطاء وغَنِم منهم غنائم كبيرة ويقول ابن سعد إن وفد محارب قدم إلى الرسول (ص) في حجة الوداع[١].

غطفان وفزارة

كانت غطفان من أكبر القبائل في شمال الحجاز، ومن أكثرها احتكاكاً بدولة الإسلام في المدينة وكانت أبرز عشائرها فزارة التي كان الموجه الأكبر في تصرفاتها عُيَينة بن حصن وكان عسكره من عساكر الأحزاب في الخندق، وقد عسكر قرب أُحُد[٢]. وقد أغار على سَرْحِ المسلمين في الغابة. وفي الشهر الخامس والثلاثين وجَّه الرسول حملة إلى ذي امر لقتال غطفان[٣].

كان عيينه حليفاً ليهود خيبر[٤]. ولما شعر يهود خيبر أن الرسول (ص) سيغزوهم، ذَهَب كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس ليستنفرا فزارة وجعلوا لهم تمر خيبر سنة[٥]. وقد جاء عيينة ومعه أربعة آلاف، ودخلوا حِصْنَي النطاة وناعم، ثم انسحبوا من القتال[٦].

وعندما تقدم الرسول لفتح مكة، انضم عيينة[٧] إلى الإسلام، وقاتل مع

(١) ابن سعد ١ ـ ٢/٢٦.
(٢) مغازي الواقدي ٤٤٢.
(٣) مغازي الواقدي ٥٣٧.
(٤) كذلك ٦٣٧.
(٥) كذلك ٦٤٠، ٦٤٢، ٦٧٧، ٧٠٢.
(٦) كذلك ٤٥٠ ـ ٤٥٢.
(٧) البكري ١/١٨٩٣.

المسلمين في حنين [١] وكان من المؤلَّفة قلوبُهم[٢]، ثم أسلم قومه[٣]. ووجَّهه الرسول لقتال بني تميم، فانتصر عليهم[٤]، ويقول ابن سعد إن خارجة بن حصن وَفَد على النبي وأعلن إسلامه بعد غزوة تبوك في السنة التاسعة[٥].

ثم ارتدَّت فزارة وانضمت إلى طلحة الذي جدَّد العقد مع غطفان وارتد في حياة الرسول.

عبس

أما عبس، فلم يكن لها احتكاك بالإسلام في سنواته الأولى، ولعل ذلك راجع إلى بعد ديارهم عن المدينة.

ويَذكُر ابن سعد أن تسعة رهط وَفَدوا على رسول اللّه (ص) من بني عبس، فكانوا من المهاجرين الأولين، منهم ميسرة بن مسروق، والحارث ابن الربيع وهو الكامل، وقنان بن دارم، وبشر بن الحارث بن عبادة، وهدم بن مسعدة، وسباع بن زيد، وأبو الحصن بن لقمان، وعبد الله بن مالك وقردة بن الحصن بن فضالة، فأسلموا، فدعا لهم رسول اللّه بالخير.

ويَذْكر أيضاً عن الواقدي أنه «بلغ رسولَ اللّه (ص) أن عِيراً لقريش أقبلت من الشام، فبعث بني عبس في سرية وعقد لهم لواءً.

ويذكر أيضاً أن جماعة منهم أسلموا، فبعث الرسول إليهم من يُعلِّمهم الإسلام، وأخبروهم أنه لا إسلام لمن لا هجرة له، فأباح لهم الرسول البقاء في ديارهم على إسلامهم[٦]، ويدل هذا على أن الإسلام دخل فيهم قبل الحُديبية حيث كان شرط الهجرة قائماً وعلاقة الرسول بقريش كانت عدائية.

---

(١) الواقدي ٨١٢، ٨٣٤/ ٩٥٤.
(٢) كذلك ٩٤٦.
(٣) الطبري ١/ ١٦٨٧.
(٤) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٤٢، تاريخ المدينة لابن شبة ٥٢٦، ٥٢٨.
(٥) الطبري ١/ ١٨٩٠ ـ ١٨٩٢.
(٦) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٤١ ـ ٤٢.

الفصل الحادي والعشرون

الوفود وامتداد الإسلام في الجزيرة

ثَبَّت فتح مكة مكانة الرسول (ص) المتميزة بين العرب في الجزيرة، فازداد عدد الوفود التي قدِمت إليه بعد عودته إلى المدينة، حتى إن العام التاسع للهجرة سُمّيَ «عام الوفود». والواقع أنه، بالرغم من أن البيعة على الإسلام كانت في الأساس فردية، إلاّ أن الرسول، منذ بيعة العقبة، كان يقبل بيعة الوفود باعتبارهم ممثلين عن عشائرهم.

خَصَّص كل من ابن هشام وابن سعد والطبري وابن شبّة فصلاً خاصاً للوفود التي قدِمت إلى الرسول (ص) تعلن إسلامها أصالةً عن نفسها ونيابة عن عشائرها[1]، وحددت زمن قدوم معظمها. ويتبين مما ذكروه أن أشجع، ومزينة، وسعد بن بكر قَدِمت وفودها في السنة الخامسة بعد غزوة الخندق. أما سليم فإنَّ وفودها قَدِمت إلى الرسول (ص) عندما كان في طريقه لفتح مكة في السنة الثامنة.

وفي السنة التاسعة، أي بعد فتح مكة، قَدِمت وفود أسد وفزارة ومُرّة، وثعلبة، وتميم، وكلاب، وقشير، والبكاء، وكنانة، وثقيف، وبهراء.

وفي السنة العاشرة قَدِم وفد محارب وعقيل.

---

(١) ابن سعد ١ ـ ٢/٣٩ ـ ٤٩، ابن هشام ٤/٢٣٩، طبري ١/١٧١٧ ـ ١٧٤٧؛ تاريخ المدينة لابن شبّة ٤٩٩ ـ ٦٠١. وانظر «وفود القبائل على الرسول» للدكتور حسن جبر ١٩٨٧.

ومِمَّن ذُكر قدومه بعد فتح مكة، دون تحديد تاريخ وفادته، وفق محارب، وعبس، وهلال، وعامر بن صعصعة، وجعدة، وباهلة، وطيء وجذام، وحنيفة، وبكر بن وائل، وتغلب.

ذكرت المصادر أن بعض الوفود قدِمت مُرسَلةً من عشائرها، مُمثِّلة لها، فذكر ابن سعد أن بني سعد بن بكر أرسلوا، في رجب سنة خمس ضمام بن ثعلبة فرجع إلى قومه مسلماً، فما أمسى في ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلاّ مسلماً، وبنوا المساجد، وأذنوا بالصلوات[١].

وذكر أيضاً أن وفد ثعلبة قدموا على الرسول (ص) بعد رجوعه من الطائف، وكانوا أربعة، وقالوا: «نحن رُسُل مَنْ خلَّفنا من قومنا، ونحن وهم مُقِّرون بالإسلام»، وذكر أيضاً أن وفد محارب قَدِم سنة تسع وهم عشرة نفر، فأسلموا.

غير أن المصادر لم تذكر أن بعض الوفود كانت مخوّلة من عشائرها، ومن هؤلاء عمرو بن مالك الكلابي الذي قَدِمَ على الرسول (ص) فأسلم ثم أتى قومه فدعاهم إلى الإسلام، ولكنه لم يُفْلح في ضمهم إلى الإسلام[٢]. ومن هؤلاء وفد بني عقيل الذين «بايعوا وأسلموا، وبايعوه على من وراءهم من قومهم»، كما قَدِم الضحَّاك بن سفيان العقيلي فأسلم ثم أتى قومه فأجابوا ودخلوا الإسلام جميعاً[٣]. وبايع لقيط بن عامر عن نفسه وعن قومه[٤]، كما قدم مطرف بن الكاهن بعد الفتح وافداً لقومه فأسلم وأخذ لقومه أماناً[٥].

أما عشائر اليمن فقد قَدِمت وفودها منذ السنة الثامنة. ففي تلك السنة قدم وفد صداء، وخثعم، والنخع، وخشين، وهي قبائل ديارها في الأطراف الشمالية من اليمن.

---

(١) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٤٤.
(٢) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٤٤.
(٣) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٤٥.
(٤) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٤٦.
(٥) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٤٩.

وفي السنة العاشرة قَدِم وفد خولان، وزبيد، والرها، وحمير، وديار هذه العشائر في الهضبة الوسطى من اليمن. كما قَدِمت، في تاريخ لم تحدِّده المصادر بدقة، وفود جعفى، ومراد، وغافق، والحارث بن كعب، وهمدان وعنس، وكندة، والصدف.

قَدِمت هذه الوفود من ذاتها سلمياً من غير تهديد، إذ لم يُنْفِذ الرسول (ص) في العامين التاسع والعاشر أية حملة عسكرية إلى الجنوب. ولم يكن عدد أفراد الوفود واحداً، فبعض القبائل قَدِم منها شخص واحد أسْلَم ثم عاد يدعو عشيرته إلى الإسلام، كالذي فعله رفاعة بن زيد الجذامي الذي وَفَد إلى الرسول (ص) ثم عاد إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام فاستجابوا له[١]. إن أغلب العشائر كان عدد أفراد وفودها بين اثنين وخمسة أفراد، وكان الرسول (ص) يجيز الوفد بجوائز أكثر مقدارها اثنتا عشرة أوقية ونَشًّا من الفضة[٢]، وأقل ما كان يجيز خمس أواق [٣]، وهذا المقدار القليل من الهدايا يجعلها أقرب إلى أن تكون رمزيةً لا تكلف كثيراً.

وأجرت بعض الوفود مناظرات أدبية وشعرية، كالذي فعله وفد بني تميم[٤]. كما أجرى بعض الوفود مفاوضات أثمرت عن عقد معاهدات كالذي فعله وفد النجرانيين[٥]. وعرضت بعض الوفود مطالب بإشراكهم في السلطة. ومن هؤلاء بنو حنيفة الذين عرضوا على الرسول (ص) اقتسام مناطق السلطة، وعامر بن الطفيل الذي سأل الرسول قائلاً: أتجعل لي الأمر من بعدك؟ قال: ليس ذلك لك ولا لقومك. قال: أفتجعل لي الوبر ولك المدر؟ قال لا، ولكن أجعل لك أعنة الخيل[٦]. وهذا يُظْهِر أن الرسول (ص) تمسك بأن تكون السلطة العليا في

---

(١) ابن هشام ٣/ ٣٨٥.
(٢) ابن سعد ٥/٤٠٧، ٣٨٢، ٣٨٣، ١ ـ ٢/٧٢، ٦٤، ٦١، ٩٤.
(٣) ابن سعد ١ ـ ٢/٥٦.
(٤) ابن سعد ١ ـ ٢/٤٠، تاريخ المدينة لابن شبة ٥٢٤ فما بعد.
(٥) الخراج لأبي يوسف ٤٩، تاريخ المدينة لابن شبة ٥٨٥ فما بعد.
(٦) ابن سعد ١ ـ ٢/٥١؛ تاريخ المدينة لابن شبة ٥١٨، ٥٩٨.

الدولة واحدة غير مقيدة، والواقع أن إعلان الوفود لإسلامها كان اعترافاً ضمنياً منها بوحدة الدولة وسلطتها العليا ممثلةً بالرسول (ص)، من دون أي قيد.

يتبين من القائمة الطويلة للقبائل التي قدِمت وفودُها إلى الرسول (ص) بعد فتح مكة، أي في السنتين الأخيرتين من حياته، أنها شملت العشائر التي ديارها في أطراف الحجاز الشمالية والشرقية والجنوبية، كما شملت عشائر هضبة نجد، وعدداً من عشائر شرق الجزيرة ومن عشائر اليمن. وهذا يظهر التوسع الكبير الذي امتدت إليه دولة الإسلام بطريقة سلمية وبمبادرة من العشائر ذاتها.

كان إسلام الوفد يُعْتبر، من حيث العموم، معبِّراً عن إسلام عشيرته، ولم يرد ذكرٌ لاحتجاج أية قبيلة على إسلام وفدها أو مقاومتهم له. وكان الإسلام رمزاً لارتباط القبيلة بدولة الإسلام وتقديرها لمثل الدولة.

لم يفرض الرسول (ص) على القبائل التي أسلمت متطلبات ثقيلة أو قيوداً شديدة، فبقيت العشائر محتفظة بكيانها وديارها ورؤسائها ونُظُمِها، وكذلك المدن والقرى ما دامت لا تتعارض مع مبادىء الإسلام الأساسية. وبقيت التنظيمات القديمة وروابطها، سواءٌ أكانت بين العشائر والقبائل، أم بين أبناء القرى والمدن، أم بين الجماعات التي كانت في كل من هذه المجموعات. وأبْقَى الرسول للنسب مكانته كرابط بين الجماعات، وتابَعَ تقدير كثير من المُثُل الأخلاقية التي كانوا يقدرونها كالعناية بالأقربين وبتوثيق صلة الرَّحِم، ورعاية الجار، وإغاثة الملهوف، والوفاء بالعهد، وتقدير الكرم والشجاعة.

غير أن السِّمات القَبَلية بدأت تتحول بما فرض فوقها من روابط أوسع تقوم على العقيدة والفكرة، تُعَزِّزها مُثُلٌ جديدة، وأساليب جديدة لتحقيق مصالح الأمة وليس لمجرد مصالح العشيرة أو مصالح رئيسها. فالخدمة في الجيش لم تَعُدْ طوعية للقتال من أجل تحقيق الرغبات الشخصية للرؤساء، أو للحصول على الغنائم، وإنما أصبحت واجبة للمصالح العامة للأمة جمعاء، ولم يعد الإنفاق طَوْعيّاً وفق الرغبات الشخصية، وإنما أصبح واجباً يُؤَدَّى لتحقيق المصلحة العامة التي تربط الجميع في ظل دولة واحدة، وهذا لم يكن مألوفاً عند معظم

قبائل الحجاز ونجد خاصة، والتي انضوت تحت لواء الإسلام بعد أن كان كل منها يعتبر نفسه مستقلاً غير خاضع لسلطة أعلى.

أصبح العرب أمَّة واحدة، تنبعث وحدتها من إيمانها باللَّه الواحد الأحد، رب السموات والأرض له الملك لا شريك له، وله الحكم وإليه يلجأ الناس، وهو تعالى يأمر بالعدل والإحسان، ويَنْهَى عن الفحشاء والمنكر، وأوامِرُه مقدسة يخضع لها الجميع.

وللأمة روابط عامة تقوم على العقيدة والفكر والنظرة العامة، تُعَزِّزها لغة عامة واحدة، ومُثُلٌ مشتركة في التقاليد والأخلاق والمصالح العامة. وهذه الروابط العامة التي تربط الأمة تسمو على الروابط القَبَلية المحدودة، وتهيمن على الأفراد، وتَجْمَع كلا منهم مع من له نفس العقيدة.

وأبناء الأمة إخوة متساوون، لا فضل لفرد على آخر إلاّ بالتقوى، والجميع متكافئون، وقد عبَّر عن ذلك بقوله غداة فتح مكة: «أذْهَبَ عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بآبائها. الناس كلهم تبع آدم، وآدم من تراب»[1].

وبالأُخُوَّة بين المسلمين تُمْنع الخصومات: «لا إسلالٌ ولا إغلال»، ومنع الأخذ بالثأر: «ألاَ إن كلَّ دم تحت قدمي». وأصبح حفظ الأمن وملاحقة المعتدي وعقابه من واجب الدولة لا الأفراد. غير أن هذا لم يمنع حدوث تمايز بين الأفراد يقوم على أساس السابقة في الإسلام، ومدى الاتصال بالرسول (ص) والمواهب الفردية، وطبيعة الخدمات التي يؤديها الفرد للمجتمع وللأمة.

والرابطة الإسلامية الجديدة تَجْمع أبناء الأمة في عقيدتهم، وتفصلهم عن الوثنية والشرك ومن يدين بهما، وتُضْعف صلتهم بالفاسد من الماضي، «سُنَّةِ آبائهم الأولين»، وتحل محلها نظرة عالمية رحبة: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة/ ١١٥]. والفرد يُقَدِّر تبعاً لأعماله المنسجمة مع المثل العليا: ﴿إِنَّ

---

(١) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٣، ابن حنبل ٢/ ٢٢.

﴿أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات/١٣]. فأبناء الأمة تجمعهم العقيدة والمُثُل الأخلاقية والتصرف في العلاقات العامة.

وتَجْمع الأمةَ دولةٌ واحدة لها سلطة عليا مركزية عامة، وعلى الجميع طاعتها والسير بأوامرها، وقد مارس الرسول (ص) هذه السلطة التي عززتها الآيات القرآنية بوجوب طاعة الرسول، ووجوب طاعة أُولي الأمر: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء/ ٥٩].

تقوم التوجيهات الجديدة على إدراك الأفراد لها، وإيمانهم بها، وتكييف سلوكهم بموجبها. وكان الاهتمام الأكبر للرسول (ص) موجَّهاً إلى توضيح هذه المعالم وتثبيت مبادئها في النفوس، ونَشْر المثل الأخلاقية وأساليب السلوك والتصرُّف. وتحقيقاً لهذا الغرض، فإن الرسول أرسل معلمين إلى كثير من العشائر التي أظهرت، بإسلامها، استعدادها لقبول العقائد الإسلامية ومُثُلها الأخلاقية، وكان هؤلاء المعلمون يعلمون العشائر التي يُرسلون إليها قراءة القرآن الكريم ويوضحون لها مبادىء الإسلام وتعاليمه. ومن الطبيعي أن حماس هؤلاء المعلمين وبساطة المبادىء الإسلامية ووضوحها وواقعيتها وصلتها الوثيقة بأساليب تفكيرهم ومثلهم، كانت تيسِّر لهم نشر الأفكار الإسلامية. غير أن قلة عدد هؤلاء المعلمين، وقِصَر المدة التي قَضَوْها بين العشائر لا تكفي لتحقيق تَشَبُّع هذه العشائر بروح الإسلام ومبادئه. وقد أدرك عدد من المؤلفين المسلمين هذه الحقيقة فجعلوا الصحابة الذين عاصروا الرسول طبقات متفاوتة، تبدأ بمن اعتنق الإسلام مبكراً وظل ملازماً للرسول، وتنتهي بمن لقِيَ الرسول لقاءً قصيراً، أو كان حياً في حياة الرسول[1].

وَرَد عن المعلمين الذين أرسلهم محمد (ص) إلى القبائل التي أعلنت إسلامها نصّان، أولهما عندما أعلنت عصية ورعل وذكوان، وهي من عشائر سليم، إسلامها وطلبوا أن يُرسَل إليهم من يعلمهم الإسلام، فأرسل إليهم

(١) انظر مقدمة كتاب الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر.

سبعون من القراء «يخطبون بالنهار ويصلون بالليل»[1]. والنص الثاني عن بني عضل والقارة الذين جاؤوا الرسول يعلنون إسلامهم وقالوا له: «ابعث معنا نفراً من أصحابك يُفقِّهوننا ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام. فبعث إليهم عشرة» غير أن هاتين العشيرتين غَدَرَتا بالقراء وقتلتهم[2].

لا ريب في أن توسع الدولة السريع، وصعوبة اتصال الرسول (ص) شخصياً بكافة المسلمين الجدد، وقلة عدد المعلمين، كل ذلك يتطلب وقتاً بتعويد الناس على التشبع بعقائد الإسلام، خاصة وأن العرب كانوا يتميزون بروح المحافظة على سنن آبائهم.

---

(١) ابن سعد ٢ ـ ١/٣٨.
(٢) ابن سعد ٢ ـ ١/٣٩.

الفصل الثاني والعشرون

تطور التنظيم الإداري في جزيرة العرب

الشواهد القرآنية

كانت للعرب في جزيرتهم معرفة بأشكال مُنَوَّعة من النظم السياسية والإدارية. وفي القرآن الكريم تعابير عن أحوال حضارية ونظم متعددة. فقد ورد ذكر «البلد» و«البلاد» في حوالي عشرين آية. «والمدن» ذُكرت في خَمْسَ عشرة آية منها ثلاثُ خُصَّت بالمدينة المنَّورة. كما ذُكرت «القرى» بصيغة المفرد والجمع في ست وخمسين آية عامة، و«أم القرى» في آية واحدة (القصص ١٥). وقُصِد بها مكة في آية أخرى (الشورى ٧). وذكرت ﴿ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ [الأعراف/ ١٦٣]، و﴿حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة/ ١٩٦].

وذكر القرآن الكريم حكّام عدد من البلاد وممن ذَكَرهم «فرعون»، وهو لقب الحاكم في مصر، وقد ورد ذكره في خمس وسبعين آية. وذُكر «عزيز مصر» في أربع آيات من سورة يوسف. وذَكَرَ «ملكة سبأ»، وأشار إلى «الملك» في إحدى عشرة آية، وذكر «طالوت» الذي أرسله تعالى ملكاً على بني إسرائيل، واعتراضهم على إرساله لأنه لم يكن منهم، (سورة البقرة ٢٤٧ و٢٤٨). كما أشار إلى «ملك مصر» في زمن يوسف (يوسف ٥٠، ٥٤، ٧٢)، وإلى ملوك بني اسرائيل (المائدة ٢٠)، ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل/ ٣٤]،

وذكر ملكة أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم (البقرة/١٠٢)، وأن شعبها ﴿أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [النمل/٣٣]. كما وردت في القرآن الكريم عدة إشارات إلى المُلْك بمعنى الحكم الواسع، وخَصَّت معظم الآيات المُلك بالله تعالى.

وذَكَر القرآن الكريم المؤسسات السياسية ومنها «الملأ» الذي ذكر في ٢٢ آية أكثرها تتصل ببني إسرائيل، كما ذكر «النادي» لقوم هود الذي من سورة العنكبوت ٢٩، وفي سورة العلق ١٧.

وذكر القرآن الكريم «الولاية» في عدد كبير من الآيات، بعضها بمدلول عام، وبعضها بمدلول سياسي، إشارةً إلى السيطرة والحماية، ومنها آيات تذكر أن اللّه تعالى وَلِيُّ المؤمنين، وفيها آيات تذكر أن اللّه ورسوله والمؤمنين أولياءُ لِلْمسلمين.

وذكر القرآن الكريم التطورات العميقة التي تَحْدُث في المجتمعات بفضل الأنبياء، وأسماء خمسة وعشرين نبياً، وفصّل سيرة أعمال عدد قليل من الأنبياء وخاصة موسى، وعيسى، وإبراهيم، وهود، وسليمان.

وذكر سلطات سياسية مارسها بعض الأنبياء، وخاصة موسى. غير أن معظمهم كان مَعْنيّاً بالهداية من العقائد والتوجيه الاجتماعي، وأكثر تعاملهم مع الشعوب، واتصل بعضهم بالملوك، ولكن علاقتهم بالملوك لم تكن حسنة، ولم يذكر القرآن نبيّاً اعتمد على الملوك في نشر دعوته، أو في تنفيذ ما يدعو إليه من إصلاحات.

وذِكْرُ هذه التعابير في القرآن الكريم يُظْهِر أنها كانت معروفة عند العرب في زمن مجيء الإسلام. غير أنها وردت في القرآن متصلة بالأقوام القديمة، ولا نعلم، على وجه التحقيق، مدى ما كان مُطَبَّقاً منها في جزيرة العرب عند ظهور الإسلام.

البدو والحضر

ذَكَر القرآن الكريم الأعراب في سياق يُظهر أنهم متميزون من غيرهم وفي أكثر الآيات إشارات إلى ذمهم، وفي إحدى الآيات ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة/ ٩٧] وتردَّد في الأحاديث النبوية ذِكْرُ أهل البادية، وأشار بعضها إلى أن لأهل البادية سماتٍ يتميزون بها[١]، وأنهم كانوا جُفاةً[٢]، كما وردت أحاديث تذكر أنه لا تجوز شهادة بدوي على صاحب قرية[٣].

وأهل البادية، في كثير من الأحاديث، مذكورون مقابل أهل الحاضرة[٤]، ورُويت أحاديث في النهْي أن يبيع حاضرٌ لِبَادٍ[٥]، والمقصود من ذلك طبعاً البيع بأجل. وقد أُطْلق اسم «الحواضر» على المجتمعات المستقرة عند المياه الدائمة، وكانت الصلة قائمة بين أهل الحاضرة وأهل البادية، فكان كثير من أهل الحضر يخرجون إلى البادية[٦].

وتردد ذكر صنفين متقابلين هما: «أهل الوبر» و«أهل المدر»، ولم يرد لهذين الصنفين ذِكْرٌ في القرآن الكريم، ولكن وَرَدَ ذكرُهما في عدد من الأحاديث النبوية[٧]، كما ورد ذكر «أهل الحَجَر» و«أهل الوبر»[٨] وواضح،

---

(١) ابن حنبل ١/ ٢١٧.

(٢) البخاري: الأضاحي ٢٤، النسائي: صيد ٤، ابن حنبل ٣٥٧١.

(٣) ابن ماجة: أحكام ٣٠، أبو داوود: أقضية ١٧. وانظر تفاصيل أوفى في مقالنا «البداوة وموقف الإسلام منها» المنشور في مجلة كلية الآداب والتربية في الكويت سنة ١٩٧٥م، ص ٣٣ _ ٤٥.

(٤) ابن حنبل ٣/ ١٦١، ٦/ ١٢٢.

(٥) البخاري: بيوع ٥٨، ٦٤ _ ٧١، إجارة ١٤ شروط ٨؛ مسلم بيوع ١١، ١٢، ١٨ _ ٢١ نكاح ٥١، ٥٢.
ابن حنبل ١/ ١٦٤، ٢٦٨، ٢/ ١٥٣، ٣٨٢ فما بعد ٣/ ٣٠٧، ٣١٢، ٣٨٦، ٣٩٢؛ ٤/ ٣١٤.

(٦) ابن حنبل ٥/ ٢٢٧، ٦/ ١١٢.

(٧) ابن حنبل ٤/ ١٥٣، ٢١٦، ٤١٦.

(٨) ابن حنبل ٥/ ٦٠.

لغوياً، أن أهل الوبر هم الذين يعيشون في الخيام، أي البدو، وأهل الحجر والمدر هم الذين يسكنون في أبنية مشيدة، أي مستقرون.

إن تمييز البَدْو والأعراب وأهل الوَبَر من أهل الحاضرة وأهل المدر وأهل القرى، لا يَقْتصر على الاختلاف في السكن، وإنما يمتد إلى الاختلاف في نُظُم الحياة وأساليبها وما يتصل بذلك من الاختلاف بين الاستقرار والتنقل، وهو اختلاف واسع ولكنه غير تام، فإنَّ النظام القبلي كان سائداً عند البدو وكذلك بين المستقرين، كما أنهم يشتركون في كثير من المُثُل الأخلاقية والمصالح. والواقع أن الصِّلة بينهما وثيقة، ومجال استقرار البدو غير منعدم، كما أنَّ احتمال تَحَوُّل المستقرين إلى بدو، في حالات تدهور الزراعة والتجارة، غير مفقود. فالتقسيم اجتماعي وغير جامد، ولكنه كان بارزاً وواضحاً وقائماً في جزيرة العرب عند ظهور الإسلام، وكان له تأثير في النظم السياسية والإدارية. وهذا التصنيف العام لا يَعْني أن شبه جزيرة العرب كانت فيها كتلتان متماسكتان ومتعارضتان من البدو والحضر، وإنما كانت فيها مجموعات قَبَلِيَّة لكل منها ديار خاصة بها، وعلى كل منها رئيس أو سيد يتقرر اختياره وسلطاته وواجباته وفق النظم والتقاليد القَبَلِيَّة المتعارضة؛ كما كان فيها عدد من المستوطنات الحضرية والمدن التي لا بد أنها كانت فيها نظم خاصة، لا نعلم من تفاصيلها إلاّ ما يتعلق بمكة والمدينة والطائف، خاصة وأن المصادر تذكر السكان، وقلما تشير إلى نوع مساكنهم.

نظم الحكم في شبه جزيرة العرب

ذَكَرت المصادر سيطرة حُكَّام على بعض المناطق عند ظهور الإسلام، انضوى تحت لواء كل منهم عدد من العشائر والمدن، واتخذ كل منهم أنظمة سياسية وإدارية، وأُطلق عليهم اسماءٌ منها «المَلِك» و«الأمير» و«ذو التاج». فتعبير «الملك» كان في اليمن وعند الغساسنة والمناذرة، حيث استقر الحكم في أُسَر مُعَيَّنة وكان وراثياً، ولذلك كان يطلق عليها تعبير «دولة» أي انحصار الحكم في أُسْرة معينة.

أُطلق «ذو التاج» على حُكَّام يمارس كُلٌ منهم سلطة على منطقة واسعة فيها عدة مجموعات من العشائر والمدن، وحكمه عادةً غير وراثي. أما «التاج» فهو رمز الحكم. وأبرز مَنْ ذُكِر من «ذوي التاج» عند ظهور الإسلام هو هوذة بن علي الحنفي في اليمامة، وجيفر وعباد في عمان.

تنظيمات الرسول (ص) بعد فتح مكة

كانت دولة الإسلام، في السنوات الأربع الأولى من الهجرة، مقصورة على المدينة، وكانت الهجرة إليها والاستقرار فيها شرطاً على من يُسْلِم. ولمّا امتد الإسلام بعد السنة الرابعة إلى العشائر الحجازية القريبة من المدينة، أبيح لبعض مَنْ يُسْلم أن يبقى في دياره على أن يُلَبُّوا الدعوة عندما يطلب الرسول إليهم ذلك. وبعد أن تم فتح مكة، امتدَّت الدولة إلى معظم أرجاء جزيرة العرب، وتم ذلك التوسُّع بطريقة سلمية، وبمبادرة ممن انضم إليها، وتجلَّت في الوفود التي وَفَدت على الرسول (ص) طوعاً مُعْلِنةً إسلامها، وتَطَلَّب ذلك وضع تنظيمات للدولة الجديدة تُؤَمِّن تحقيق أهدافها ودوامها.

أما هضبة الحجاز، فلم تكن فيها دولة تبسط سلطانها عليها وتُوَحِّدها وتُنَظِّم شؤونها، وإنَّما كانت فيها عدة تجمُّعات من القرى والبلدان والعشائر، يسيطر على كثير منها رؤساء يختلف مدى امتداد سلطان كل منهم، ويتمتع كل منهم باستقلال في تصرفه، فيقوم بالغزوات وإشهار الحروب أو عقد المعاهدات، ووضع التشريعات وممارسة القضاء وفق أهوائه ورغباته وما يؤمن مصالحه من الضرائب على أهل منطقته أو مَنْ يَحْرُسها من غيرهم.

اقتضت هذه الأحوال وَضْعَ تنظيمات تتناسب مع الأوضاع المحلية المتعددة، التي كانت قائمة في جزيرة العرب آنذاك، وطريقة انضمام أهلها إلى الإسلام، والسبيل الأمثل في توثيق صلتهم بدولته، الأمرُ الذي يقتضي أن يراعى فيها الرِّضى دون الفَرْض التعسُّفي. لذلك كانت هذه التنظيمات متنوعة ولكنها جميعاً تَؤُول إلى تحقيق الهدف الأوسع في تثبيت دولة الإسلام، وتعزيز العقيدة ومتطلباتها. فالتنظيم الإداري تابع لهذا الهدف الأعلى، تالٍ له. وما دامت

المدن والقرى والمجموعات القبلية ورؤساؤها مُقِرّين بالإسلام وسيادة دولته، فإنه أبقاهم ولم يأمر بعزلهم أو التدخُّل في مكانهم. ويُرْوى أنه قال: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام»[1]. وقد يَدُلُّ كل هذا على أن الرسول (ص) أبقى المجموعات السُّكَّانية في الجزيرة برؤسائها، ولم يأمر بعزل الرؤساء أو التدخل في مراكزهم، ما داموا مُقِرين بالإسلام وسيادة دولته.

مصادر الدراسة ودلالاتها

المصدر الرئيس في دراسة ما أقرَّه الرسول (ص) من تنظيمات إدارية ومالية، في شبه جزيرة العرب، هي الرسائل والكتب التي أصدرها. وقد جمع محمد حميد الله ما وَصَلَنا منها في كتابه «الوثائق السياسية»، ووضع لتسلسلها أرقاماً سنَتَّبعها في بحثنا. وهذه الكتب، شأنَ معظم الكتب التي صدرت عن الخلفاء والولاة في صدر الإسلام، كتبٌ قصيرة ومقتضبة، وكثير منها تتكون من جملة واحدة، أو حكم واحد، وأُسلوب كتابتها أسلوب بسيط واضح، وفيها كثير من المفردات الغريبة التي لم يَشِع استعمالها فيما بعد. وهذه الغرابة هي من الأدلة على أصالتها، وهي منوعة، فبعضها موجه إلى أفراد، وبعضها إلى مجموعات (عشائر أو بلدان)، وبعضها نصوص طويلة (كمعاهدة نجران)، وكلها خِلْوٌ من التاريخ ولا تشير إلى حوادث معيَّنة قد ساعد ذكرها على تحديد دقيق لزمن صدورها، غير أنه يمكن القول بأنها من حيث العموم صدرت في السنوات الثلاث الأخيرة من حياة الرسول (ص) بعد فتح مكة، حين أقبلت الوفود تُعلن إسلامها وإسلام عشائرها.

كُتبت هذه الرسائل إلى أشخاص وجماعات متنوّعة تقيم في مختلف أرجاء الجزيرة: فمنهم رؤساء كبار، أو حكام أو أفراد لهم مكانة ونفوذ محدود. والجماعات التي وُجهت إليها الكتب مختلفة بتكوينها الاجتماعي: بعضها عشائر

---

(١) البخاري: أنبياء ٨، ١٤، ١٩، مسلم: فضائل ١٦٨. ابن حنبل: ٢/٢٥٧، ٢٦٠، ٣٩١، ٤٣٨، ٤/١٠١.

أو قبائل بدوية من الرعاة، وبعضها جماعات مستقرة في مناطق زراعية. وبعض هذه الرسائل موجه إلى جماعات تقيم في مراكز صناعية وتجارية، وبعضها موجه إلى مناطق فيها نظم سياسية مستقرة. ومن حيث العموم، فإن أسماء الأشخاص التي ترد فيها قليلة، والراجح أن أحكامها تسري على عشائر الأفراد الذين كُتبت لهم الرسائل، وهي: همذان، والأزد، وبنو الحارث، ومهد، وعقيل، وطيء، وأسلم. وكلها، ما عدا أسلم، أسْلَمت بعد فتح مكة وديارُها بعيدة عن المدينة.

وأبرز ما ذُكر في هذه الكتب هو الأمان الذي يقدمه الرسول(ص) إلى مَنْ تُوَجَّه إليهم هذه الكتب، وقد وردت في ذلك ثلاث تعابير هي «الجوار»، و«الأمان»، و«الذمة». فأمّا الجوار، فقد ذُكِر في كتابه إلى يوحنا بن رؤبة (من أيلة)، (٣٠)، وإلى ربيعة بن ذي وهب (١٣١) وفيهما نقرأ: «اللّٰه ومحمد ومن معه جارٌ».

أما الأمان، فذُكِر «أمان اللّٰه وأمان رسوله للأسبذيين» (٦٦)، وللأكبر من عبد القيس (١٧٢) وعمرو بن معبد الحرقي (١٥٢)، والنمر بن تَوْلَب العقيلي (٢٣٣)، وقنان الحارثي (٨٣) وزرعة الربعي (١٥١).

وأما الذمة فذُكِرت ليهود تيماء (١٩)، وطهفة وقومه من بني نهد (٩١)، وذُكرت ذمة اللّٰه لأحمر بن معاوية (١٤١)، وذُكِرت «ذمة اللّٰه وذمة محمد»، في كتبه ليوحنا بن رؤبة الأيلي (٣٠)، وحنا بن مقنا (٣١) وحدس بن لخم (٤٨) كما ذُكِرت في كتبه لغفار (١١٦) والحرقة (١٥٢) وجنادة العذري (١٥٥)، وجماع تهامة (١٧٣) وجنادة الأزدى (١٢١). والثلاثة الأولى تقيم في شمال المدينة، أما الثلاثة الثانية فتقيم في أواسط الحجاز، والاثنتان الأخيرتان تقيمان في الأطراف الجنوبية من الحجاز.

وقد وردت الذمة مقرونةً بالإلّ في القرآن الكريم (التوبة/٨، ١٠)، ومعناها معنًى واسع يُقْصد به الحماية وعدم الاعتداء، وفيها اعتراف ضمني بأنَّ لدولة الإسلام اليَدَ العليا في السيادة.

أما مطالب الرسول (ص)، فأكثر ما يتردَّد منها في الكتب هو طلَبه، ممن

وُجهت إليه هذه الكتب، الإسلام وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. فقد وردت هذه في كُتُبه إلى لخم، وطي، وعُكْل، وعبد القيس، وبني الحارث بن كعب، والأزد، وهمدان، وأسلم.

وطَلَبَ النُّصرة، أي إسناد المسلمين عندما يواجههم خطر، من ضمرة (١٥٩) وغفار (١٦١) وأسلم (١٦٥).

وَوَعَد أنهم «لا يُحْشرون ولا يُعْشرون» في كُتُبه إلى بني جعيل من بلى (٤٨)، ونهشل مالك من باهلة، ويزيد بن الجمل الأزدي (٨٦)، وغامد (١٢٢) وعبد يغوث بن وعلة الهمداني (٨٤)، وكلهم، ما عدا الأولى، مِمَّن ديارهم في الأطراف الشمالية من اليمن.

وَوَعَد، في كتابه إلى ثقيف، أنهم «لا يُسْتكرهون»، ولبني جعل من بلي «له ما لنا وعليه ما علينا» (٤٨)، ولبني نَهْشَل بن مالك أن «عاملهم من أنفسهم».

ومن الواضح أن المتطلبات التي تَذْكُرها كتب الرسول (ص) محددة بالإسلام، والإقرار بالانضمام إلى دولته، وقَبول رعايتها وحمايتها مع بقاء التجمُّعات القَبَلية وربما مع بقاء نُظُمها ورؤسائها، ما دامت لا تعارض الإسلام ودولته. ولم يرد ذكر إرسال الرسول (ص) ولاةً على القبائل، أو فَرْضُ تنظيمات خاصة، سوى أنه أرسل في السنة التاسعة مصدقين لجباية الصدقات من العشائر التي ديارها في الحجاز، وهو ما سنتحدث عنه في الفصل التالي.

ومن الواضح أن هذه التنظيمات، التي تَهْدِف إلى الاستقرار، كانت مرحلية، إذْ أنَّ اعتناق الإسلام والانضمام إلى دولته يَؤُول إلى قبول التوجيهات التي تُصْدرها السلطة المركزية في الدولة، لأن طاعة اللّه والرسول واجبٌ ديني ملازم للإسلام بحكم القرآن. وإذا كان التركيز في هذه المرحلة المُبكِّرة على إقرار سيادة الدولة وتأمين السلم، فإن هذه الأحكام تُيَسِّر المجال لإدخال تطويرات تالية تُحدِثها السلطة المركزية، وتراعي فيها مصلحة العموم ولا تحصرها في المصالح المحلية المتعددة، كما أنها تَسير على هَدْيٍ مِنْ مبادىء الإسلام، دون الاقتصار على المصالح الشخصية أو المحدودة التي قد تظهر فيها الأنانية المفرقة.

الفصل الثالث والعشرون

الموارد المالية

(١) أحكام الرسول (ص) في الأراضي المفتوحة

متطلبات المعيشة

يتطلب الكيان السياسي نفقات تصرف على أفراده وعلى المتطلّبات العامة، بما يكفل صيانته ونُمُوَّه وازدهاره. وقد بدأت الحاجة إلى المال للإنفاق منذ المراحل الأولى لظهور الإسلام، مع أن مجتمع المسلمين في تلك المراحل كان صغيراً وعدد أفراده محدود، وأغلبهم ممن لهم موارد خاصة تكفي لإعالتهم وسدّ حاجاتهم المادية، إضافةً إلى أن الغرض الأساسي من الدعوة الإسلامية غرض فكري وأخلاقي يهدف إلى نشر العقيدة وتثبيت المُثُل الأخلاقية التي تَكْفُل الحياة السليمة للفرد والجماعة. وقد اعتمد الرسول (ص) في نشرها على الشرح والإقناع دون الإغراء المادي. غير أن كل هذا لم يُلْغِ الحاجة إلى الإنفاق. ويتجلى هذا من الآيات الكثيرة التي نزلت في أوائل ظهور الإسلام، وهي تَحُثُّ على التزَكّي والتصدُّق والإنفاق وتعتبرها واجباً دينياً مفروضاً على المسلمين، لم تحدِّد مقداره، وإنما تركته للحاجة وتقديرات من يؤدّيه بنفسه، ودون أن يلتَزِمَ بدفعه للرسول (ص). فالإنفاق كان واجباً دينياً على الفرد، وليس ضريبة عامة تَجْبِيها رئاسة المجتمع.

وازدادت الحاجة إلى الإنفاق بعد الهجرة إلى المدينة لعوامل متعددة، منها أن أكثر المهاجرين قَدِموا المدينة من دون أن تكون لديهم أموال ينفقون منها، ومن دون أن يملكوا أراضي يعيشون على مواردها. كما أن مجتمع المسلمين أصبح مُطّرِدَ التوسُّع بمن انضمَّ إليه من أهل المدينة وغيرهم، ولا يخفى، كما ذكرنا في فصل سابق، أن مجتمع المدينة كان زراعياً، ومبدأ الملكية الفردية فيه كان مُثْبَتاً، ومستوى المعيشة منخفضاً، ومدخولات الأفراد غير كبيرة. ومن الطبيعي أنه كان فيه عَدَدٌ ممن يعاني الحاجةَ والعَوَز. ثم إن مجتمع المسلمين أصبح مُطّرِدَ التوسُّع بمن انضم إليه من خارج المدينة، وكان عليهم أن يُقيموا فيها ويتدبروا أسباب العيش، ولم يكن ما أظهره الأنصار، من كرم الضيافة والمؤاخاة، كافياً لتأمين كل حاجات المسلمين، كما أن أعمال السوق والتجارة التي مارسها بعض المهاجرين اقتصر مردودها على عدد محدود من الأفراد. وظلت الغالبية العظمى تعيش على الكفاف، وتعاني العَوَز والفقر. وقد أشارت كتب الحديث إلى ما كان عليه الصحابة من الفقر في هذه الأزمنة المبكرة من الهجرة. ولا ريب في أن إيمانهم وعقيدتهم كانا أقوى من أن يدَعَا العوز يُضعضع ثقتهم بالإسلام ودعوته.

ظل الشاغل الأكبر للرسول (ص)، في المدينة بعد الهجرة، توضيح معالم الدِّين وتثبيت عقائده ومبادئه في إعادة توجيه الفكر وإنمائه، وترسيخ العلاقات الاجتماعية بما يكفل نمو المجتمع وتماسكه. ومع أن الرسول (ص) كان يدرك أهمية تأمين العيش للمسلمين، إلا أن اهتمامه بالجوانب العقائدية والأخلاقية أدَّى به إلى قلة الاهتمام بجمع الثروات واكتناز الأموال. وكل الدلائل والإشارات تُظهر أن أحواله المعاشية والمالية لم تكن خيراً مما كان عليه الصحابة، فمسكنه ومأوى زوجاته كان بسيطاً، ومأكله كان في الغالب من «الأسودين»، التمر وخبز الشعير[1]؛ وملبسه كان بسيطاً رغم اهتمامه بمظهره

(١) ابن سعد ١ ـ ٢/١٤، ابن حنبل ٢/٢٩٨، ٣٥٥، ٤٠٥، ٤٧٣، ٤/١٩.

وعنايته بملبسه. ولم يعرف عنه أنه فَرَضَ ضريبة خاصة تَؤُول إليه جبايتها إلاّ مرة واحدة، ولمدة قصيرة، أُلغيت بعدها، كما تشير الآية الكريمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٢ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٣﴾ [المجادلة].

موقف الإسلام من المال

غير أن الفاقة والكفاف اللذين كانت تعانيهما غالبية المسلمين في المدينة، أوائلَ سنوات الهجرة، كان سببهما ضيق مجال العمل وقلة الموارد، وليس دعوة الإسلام على الزهد ومعارضة الكسب. فالإسلام يدعو إلى الاهتمام بالحياة المادية القائمة على الأسس الأخلاقية. إلا أن القرآن الكريم قدَّر المال، وحث على الكسب الحلال، فقال تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الكهف/٤٦]. وقال: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣٢﴾[1].

ولا ريب في أن تقدير المال والثروة كان يدفع إلى الحصول عليهما، والعمل على رفع مستوى المعيشة واقتناء المتاع ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ﴾ [القصص/٦٠]. ومن المتاع صيد البحر وطعامه[2] والفواكه[3]

---

(١) انظر عن المتاع: القصص ٦٠، المائدة ٩٦، النحل ٨٠ و١١٧، عبس ٣٢.
(٢) المائدة ٩٦.
(٣) عبس ٣٢.

وأصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها[١]. غير أن الإسلام يمقت الترف وقد وردت في ذلك آيات كثيرة[٢].

السوق والتجارة

أباح الإسلام التجارة وأرباحها، ونظَّمها القرآن الكريم بما وضعه لها من أحكام أخلاقية، ولم يفرض عليها قيوداً غير منع المعاملات المنافية للأخلاق من غش وخداع وسوء استغلال، كما شدد في منع الربا، وسخَّر عدد من المهاجرين خبراتهم واهتمامهم في معاملات الصَّفْق في التجارة وانغمر بعضهم فيها: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة/ ١١] ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ [النور/ ٣٧]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة/ ٩][٣]، وكل هذا يُظْهر موقف الإسلام المبيح للتجارة على ألاَّ تؤثر على المبادىء الأساسية الإسلامية التي دعا إلى التمسك بها، والواقع أن عدداً من كبار الصحابة مارسوا التجارة في زمن الرسول (ص) دون أن تؤثر هذه الممارسة في موقفهم المتفاني في تأييد الإسلام.

غير أن معاملات السوق والتجارة التي نشطت منذ الهجرة، وخاصة بعد منع الربا وإقصاء اليهود، لم تستوعب كل المسلمين وكانت تتطلب مادة أساسية من المال للتعامل بها، وهي، على أي حال، «قطاع خاص» وليست حَكْراً للدولة.

(١) النحل ٨٠.
(٢) أنظر مقالنا: «أهل مكة وتطور المجتمعات»، المنشور في مجلة مجمع اللغة العربية في الأردن، العدد ٥٤، السنة ٢٢، ١٩٩٨.
(٣) انظر الشيباني: الاكتساب في الرزق والمستطاب، ومادة «تجارة» في دائرة المعارف الإسلامية.

نفقات الحروب

كان الإعداد للقتال دفاعاً عن الإسلام، وحمايةُ دولته وتوسيعُها واجباً أساسياً على الدولة، وكان عماد الجيش المؤمنين الأحرار المدركين بأن القتال فَرْضٌ ديني وواجب تقتضيه المصلحة العامة. ومع أن الغزوات والسرايا لم تتطلب مشاركة أعداد كبيرة، إلاّ أن الأحوال كانت تتطلب إعداداً عاماً لعدد كبير، مع تجهيزهم بالأسلحة ووسائل النقل. ولا ريب في أن المتمكنين من المسلمين كانوا يُجَهِّزون أنفسهم بالأسلحة التي يحتاجون إليها. غير أن عدداً كبيراً منهم لم تتوافر لهم هذه الأسلحة، فأصبح «الإنفاق في سبيل اللّه» من أبرز ما يواجه المجتمع. وتتجلّى أهميته في كثرة الآيات التي تحث عليه والتذكير بالثواب الذي يناله من يقوم به. ومن الطبيعي أن التبرعات الفردية الطوعية سَدَّت كثيراً من حاجات القتال، غير أنها لم تكن وحدها كافية، فهي عَرَضية وغير منتظمة، فكان على الدولة أن تقوم بدور أساسيّ في توفير الأسلحة وتنظيم توزيعها.

الإنفاق الطوعي

وقد حثَّ القرآن الكريم على الإنفاق الذي ذُكِر في أكثر من سبعين آية يأمر فيها المسلمين بالإنفاق مما رَزَقهم اللّه، وأن اللّه يعلم ما ينفقون، وسيَجْزيهم على عَمَلهم، ويَذْكر أن للمنفقين أجراً كبيراً. وذَكَر في إحدى الآيات بعض من يجب الإنفاق عليهم: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة].

وحثَّ القرآن الكريم، في عدة آيات، على الإنفاق في سبيل اللّه[1]. ومن الواضح أن المقصود بها الإنفاق للإعداد للقتال الذي كانت له أهمية كبيرة في

(١) البقرة ١٩٥، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٧٣، النساء ٩٥، الأنفال ٧٢، التوبة ٣٠، ٣٤، ٤١، ٨١، ٩١، الحجرات ١٥، محمد ٣٨، الحديد ١٠.

حماية الأمة وصيانتها وتوسُّعها. وهذا الإنفاق إنفاق شخصي غير مُحَدَّد المقدار، فلم يكن يُدْفع للرسول (ص) لتوزيعه.

الغنائم من يهود المدينة

لا ريب في أن غنائم الغزوات والمعارك تكون مصدراً أساسياً في الحصول على الأسلحة، فبالإضافة إلى حق المقاتل أخْذُ سَلَبِ من يَقْتله، فإن المنتصرين في القتال أكثر غنائمهم من الأسلحة. وتتجلّى أهمية السلاح في الشروط التي فرضها على كل من بني قَيْنقاع والنضير عندما وافق على جلائهم حيث اشترط عليهم ألاّ يأخذوا السلاح معهم عند جلائهم. ويذكر ابن سعد أن في غزو بني قينقاع وَجَد المسلمون في حصنهم سلاحاً كثيراً وآلةً للصياغة، فأخذ رسول اللّه صِفِيَّه والخمس أصحابه، وأخذ أصحابه الأربعة أخماس الباقية، فكان أول خُمْس خمِّس في الإسلام بعد بدر، وكان الذي وُلِّي قَبْضَ أموالهم محمد بن مسلمة، وأَخَذ الرسول (ص) من سلاحهم ثلاث قِسِّي وثلاثة أسياف[١] وكانت هذه القسي والأسياف بالإضافة إلى ثلاثة أرماح ودرعين أبرز ما احتفظ به الرسول (ص) من الأسلحة[٢].

واشتَرَط الرسول (ص) على بني النَّضِير أن يأخذوا متاعهم إلاّ الحلقة[٣]. كان عندهم «من الحلقة خمسين درعاً، وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفاً. وكانت بنو النضير صَفِيّاً لرسول اللّه (ص) خالصة له حبساً لنوائبه ولم يُخَمِّسها ولم يسهم فيها لأحد ولا أعطى»[٤].

---

(١) ابن سعد ٢ ـ ١/٢٠.
(٢) ابن سعد ١٨ ـ ٢/١٧٢، ١٧٤.
(٣) ابن هشام ٢/١٩٢.
(٤) ابن سعد ٢ ـ ١/٦١.

الغنائم

لا تَقتصر غنائم الغزوات على الأسلحة، وإنما تشكِّل مصدراً لموارد أخرى. وهي تُقْسم بالتساوي على المشاركين في المعركة، ويصيب الفارس ثلاثة أضعاف مايصيب الراجل. ولكن يجب عدم المبالغة في أهمية الغنائم كمورد للدولة، لأن توزيعها يقتصر على المشاركين في المعركة، وعددهم محدود، وطبيعة الغنائم طبيعة خاصة، لأنها، في الغالب، تقتصر على ما يحصلون عليه في ميدان المعركة من الأسلحة والكُرَاع. ثم إن الغزوات التي حصل فيها المسلمون على غنائم غزوات قليلة، اقتصرت على سرِيَّة نخلة، وقرقرة الكدر، والقردة، وقطن، والمريسيع، والقرطاء، والغمر، وذي القصة، والجموم، وفدك.

فأما سرية نخلة، فقد غنموا فيها أحمالاًمن تجارة وأَدَمٍ وزبيب[1].

وفي غزوة قرقرة الكدر غنموا إبلاً وُزِّعت أربعةُ أخماسها على من شارك فيها وكانوا مائتين أصاب كلٌّ واحد منهم بعيران[2].

وفي سرية القردة أصابوا عيراً بلغ ماله مائة ألف درهم[3].

وفي سرية قطن في الشهر الخامس والثلاثين «أصابوا إبلاً وشاءً»[4].

وفي غزوة المريسيع في الشهر السادس والخمسين سُبِيَ الرجال والنساء والذرية والنعم والشاء[5].

وفي سرية القرطاء في الشهر التاسع والخمسين استاق محمد بن مسلمة نَعَماً

---

(١) ابن سعد ٢ ـ ١/٥، ابن هشام ٢/ ٢٤٠.

(٢) ابن سعد ٢ ـ ١/٢١، ويذكر ابن هشام أنهم أصابوا عيراً لقريش ولم يذكر ما كان فيها ٢/ ٤٧١.

(٣) ابن سعد ٢ ـ ١/٢٤.

(٤) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٣٥.

(٥) ابن سعد ٢ ـ ١/٣٦، ابن هشام ٣/ ٣٣٩.

وشياهاً وكانت مائة وخمسين بعيراً وألف شاة[١].

وفي سرية الغمر في الشهر الثالث والستين استاق عكاشة بن محصن مائتي بعير[٢].

وفي سرية ذي القصة في الشهر الرابع والستين استاق أبو عبيدة بن الجراح نعماً وشياهاً[٣].

وفي سرية بني سليم في الجموم في الشهر الخامس والستين استاق زيد بن حارثة «نعماً وشاءً وأسْرى»[٤].

وفي سرية فدك في الشهر الثمانين غنم علي بن أبي طالب خمسمائة بعير وألفَيْ شاة[٥].

وفي سرية يمن وجبار في الشهر الثالث والثمانين استاق بشير بن سعد الأنصاري «نعماً كثيرة»[٦].

ويتبين من هذا أن الغنائم كانت قليلة، وكانت تُوَزَّع على عدد محدود، ولا تكوِّن مورداً ثابتاً أو كبيراً. وكل هذا يدل على أن الحروب الأولى كان دافعها العقيدة لا المادة، إذْ أن الغنائم القليلة تأتي عرضاً.

كانت أكبر الغنائم من معركة حنين، فيروي ابن اسحاق أن الرسول (ص) كان معه بعد الإنتصار ستة آلاف من الذراري والنساء، ومن الإبل والشاء ما لا يدري عِدَّتَه[٧]. ويروي ابن اسحق أن المسلمين غنموا أربعة وعشرين ألف بعير، ومن الغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية، وأصاب كُلَّ رجل

(١) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٥٦.
(٢) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٦١.
(٣) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٦٥.
(٤) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٦٢.
(٥) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٦٥.
(٦) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٨٧.
(٧) ابن سعد ٤/ ١٣٤.

أربعةٌ من الإبل، وأربعون شاة وثلاثُ أُواق[١].

فأما السبْيُ، فيروي ابن اسحاق أن الرسول (ص) أمر المهاجرين والأنصار، بِردِّ الرهائن، غير أن بني تميم وفزارة وسليم امتنعوا من ردها، فأمر الرسول (ص) بفداء السَّبْي، ودُفِعَ عن كل نفس ست فرائض، فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم[٢].

وأعطى الرسول (ص) من غنائم حنين عدداً من المؤلَّفةِ قلوبهم. وأورد ابن إسحاق أسماء اثني عَشَرَ رجلاً أكثرُهُمْ من قريش أَعْطَى كلاً منهم مائة من الإبل، وستةً أعطى كلاً منهم خمسين من الإبل[٣]. ونقل ابن هشام عن الزهري أسماء تسعة عشر من أهل مكة، وتسعةً من العشائر الأخرى أعطاهم من غنائم حنين دون أن يحدد مقدار ما أعطى كلا منهم[٤].

وقد استاء الأنصار مِنْ إغداق الرسول (ص) على رجالٍ من أهل مكة ممَّن أسلم حديثاً، وعَدَمِ حصولهم على شيءٍ منها، وعالج الرسول موقف الأنصار بأن قال لهم: «أما ترضون أن يعود الناس بالشاة والبعير، وتعودوا برسول اللَّه»، فَرَضُوا بكلام الرسول (ص)[٥] الذي يلمح فيه أن بقاء الرسول فيهم وإبقاءه المدينة مركز دولة الإسلام سيجلب لأهلها كسباً معنوياً ومادياً ذا أثر دائم يفوق كثيراً كسبهم من غنائم هذه المعركة.

---

(١) ابن سعد ٢ ـ ١/ ١١٠.

(٢) ابن هشام ٤/ ١٣٤، وانظر ابن سعد ٢ ـ ١/ ١١١، البخاري: أحكام ٢٦، مسلم: زكاة ١٣٢، النسائي: قسم الفيء ٦، ٧.

(٣) ابن هشام ٤/ ١٤٠.

(٤) ابن هشام ٤/ ١٤٢، وانظر: الترمذي: الزكاة ٣٠.

(٥) ابن هشام ٤/ ١٤٣، وانظر: البخاري، فرض الخمس ١٧، مسلم: الزكاة ١٣٢، النسائي: قسم الفيء ٦، ٧، ابن حنبل ١/ ٤٥٦، ٢/ ٢١٩، ٣/ ٧٦، ١٥٧، ١٦٥، ١٦٩، ١٨٨، ٢٠١، ٢٤٦، ٢٤٧.

مغانم الأراضي

مغانم الأراضي في المدينة

كانت من أولى المشاكل الملحة التي واجهت المهاجرين عند قدومهم المدينة إيجاد منازل يقيمون فيها، إذ رغم جفاف مناخها وقلة أمطارها فإن المقيم فيها لا يستغني عن منزل يقيه الحر والبرد ويستقر فيه، ولم تكن السكنى في الخيام والأخصاص مألوفة في المدينة، فلم يتخذ أي من المهاجرين منها سكناً، وكانت الملكية الفردية مثبتة فيها، ولم تذكر المصادر أراضِيَ خالية ليس لها مُلّاك.

نزل أكثر المهاجرين عند وصولهم المدينة في بيوت الأنصار، وسكن خمسة عشر منهم في دار كلثوم بن الهدم وصار يسمى بيت العزاب، ولعله أسكنهم بجناح خاص مستقل عن مسكن أهل صاحبه، وتوزع آخرون في بيوت مفردة للأنصار.

وسكن الرسول (ص) أول هجرته في قبا، ثم انتقل منه واستضافه أبو أيوب الأنصاري، حتى أخذ أرضاً خالية كانت مِرْبداً ليتيمين أنصاريَّين فعوضهما بثمنها حتى أخذ فيها مسجده وبيتا ولم يكن له آنذاك غير زوجة.

وأقطع الرسول (ص) عدداً من المهاجرين ذكر ابن شبّة أسماء بعضهم في الفصل الذي كتبه عن منازل المهاجرين حول المسجد[1]، واحتفظوا بمنازلهم فلم يبيعوها في حياة الرسول (ص) ولم تشمل هذه المنازل كافة مهاجِرَة قريش الذين لا بد أن عدداً منهم سكن في مناطق أخرى مع الأنصار. وقد ذُكر من هؤلاء أبو بكر الذي كانت له دار قرب المسجد، وكان يقيم عندما ولي الخلافة في السنح مع زوجته. غير أن المصادر لم تقدم مادة مستوعبة عن أماكن سُكْنَى كافة مهاجرة قريش.

---

(١) تاريخ المدينة لابن شبه ١٨٦.

أراضي قينقاع

وبعد أن عاد الرسول (ص) منتصراً من بدر قام بحصار بني قينقاع، وأكثرهم حرفيون ومنازلهم عند جسر بطحان في الجنوب الشرقي من مسجد المدينة وقريبة منه، وأباح لهم الرسول (ص) عند إجلائهم أن يأخذوا معهم أموالهم المنقولة[1] ولم تذكر المصادر لمن آلت مساكنهم ودُورهم ولم يرد مهاجر قرشي أو غيره بعد نزوح قينقاع، ولعل بعض المهاجِرة سكنوها في هذه المرحلة المبكرة فخفَّف من مشكلة الاسكان.

أراضي بني النضير

وفي السنة الثالثة حاصر الرسول (ص) بني النضير، فاستسلموا بعد مقاومة ضعيفة، وسُمح لهم بأخذ ما قَدِروا عليه من أموالهم المنقولة، أما منازلهم ومزارعهم فاعتبرت فيئاً بحكم الآية الكريمة ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ [الحشر/٦]. فكانت أراضيهم لرسول الله يضعها حيث شاء[2] لرسول الله خالصة حبْساً لنوائبه[3] أي أن للرسول (ص) حق التصرف بها دون التقيد بقواعد الغنائم في توزيعها. ويقول الواقدي إن الرسول (ص) كان ينفق على أهله من محاصيل أراضي بني النضير، وكان يزرع تحت النخل زرعاً كثيراً، وكان رسول الله (ص) يدخل له منها قوت أهله سنة من الشعير والتمر وأزواجه وبني عبدالمطلب، فما فَضَلَ جعله في الكُراع والسلاح[4].

ذكرت المصادر أن الرسول (ص) أعطى من أراضي النضير رجلين من الأنصار كانا فقيرين هما سهل بن حنيف وأبو دجانة سماك بن خرشة، وأعطى

---

(١) وفاء الوفا ١/ ١١٢.
(٢) ابن هشام ٥/ ٩٣.
(٣) الواقدي ٣٧٨.
(٤) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٤٠، ٤٨، ٤٦، تاريخ المدينة لابن شبه ١٧٤.

من هذه الأراضي عدداً من المهاجرين ذكرت المصادر منهم أبا بكر، وقد أعطاه الرسول (ص) بئر حجر، وأعطى عمر بن الخطاب بئر جرم، وأعطى عبد الرحمن بن عوف سوالة وكيدمة التي باعها فيما بعد لعثمان بن عفان بأربعين ألف درهم، فدمجها عثمان مع بئر أريس فصارت سبع بساتين ثم تصدّق بها، وأعطى ابا سلمى بن عبد الأسد البويرة، كما أعطى الزبير أرضاً من أراضي بني النضير[1]. ولعل آخرين من المهاجرين أُعْطُوا من أراضي بني النضير أيضاً. ومن الواضح أن إعطاء الرسول (ص) هذه الأراضي معناه تمليكهم إياها وحقُّهم المطلق بالتصرف فيها، غير أن المصادر لم تذكر مساحة أرض ما أعطي كل منهم أو نسبة ما وزع من هذه الاراضي على المهاجرين إلى المجموع الكلي من أراضي بني النضير. ولم تذكر المصادر سكنى أيٍّ ممن أعطاه الرسول (ص) في الأراضي التي أعطيت له. ولا بد أن كلا منهم تابع استثمارها في الزراعة. واستخدموا في ذلك عمالاً مأجورين من مهاجرة الحجاز من بعض أهل المدينة، وأن استثمارهم در لهم موارد تؤمن معيشتهم وربما ربحاً إضافياً لها. ولا بد أن الأراضي الموزعة كانت خارج الأراضي التي جعلت حبساً و«صافية» لنوائب المسلمين.

صدقات النبي (ص)

تقع عند النضير سبعة حيطان هي الدلال والأعواف والصافية وميثب وحسنى ومشربة أم ابراهيم وهي تسقى من مهزور وكلها متقاربات[2]. ويطلق عليها في المصادر «صدقات الرسول» إشارة إلى أنها كانت له، ووردت في المصادر روايات متباينة عن أصل مالكيها فذكر يحيى بن آدم والزهري أنها كانت من أموال بني النضير[3] وذكر الزهري وابن اسحاق أنها كانت لمُخَيْريق وهو يهودي

---

(١) انظر مقالنا: أحكام الرسول (ص) في الأراضي المفتوحة. المنشور في مجلة كلية الآداب ببغداد سنة ٩٥٦.

(٢) ابن سعد ١ ـ ٢/١٨٢، ابن شبه ١٧٣، وفاء الوفا ٢/١٥٢.

(٣) ابن سعد ١ ـ ٢/١٧٥، ١٨٣؛ ابن شبه ١٧٣، الخراج ليحيى بن آدم ٣٨.

قتل في أُحُد، ووهبها للرسول (ص)[١].

وفي رواية أنها برقة والميثب فكانت للزبير بن باطا، ويقال ان هذه الصدقات كانت لخناقة اليهودي من بني قريظة[٢].

أثارت هذه الصدقات نقاشاً بعد وفاة الرسول (ص) فيروي ابن شبه ان النبي أعطى فاطمة الأعواف[٣]، وأن فاطمة طلبت من أبي بكر صدقة النبي التي في المدينة وأراضي أخرى. ووردت روايات أن عمر دفعها إلى العباس وعلي، ثم ظلت بيد أولاد علي وأحفاده[٤]. ويذكر أبو غسان أنها من أهل الحاجة من أهل المدينة على قدر ما يرى من هما في يده من الوكلاء فيها[٥].

مغانم بني قريظة

لما انتصر الرسول (ص) على بني قريظة قسم أموالهم ونساءهم وابناءهم على المسلمين، واعلم في ذلك اليوم سهمان الخيل وسهمان الرجال، وأخرج فيها الخمس[٦]. ولم تذكر المصادر اسم مسلم امتلك من أراضي قريظة أو مقدار الخمس الذي أخرجه الرسول (ص) أو كيف توبع العمل في أراضيهم وإدارتها وتصرف الرسول (ص) بخمس اراضي قريظة. وذكر الواقدي عن ابراهيم بن جعفر عن أبيه قالوا: لما اجتمعت المغانم أمر رسول الله (ص) المتاع فبيع فيمن يزيد وقسمت النخل: فكان عبد الأشهل وظفر وحارثة وبنو معاوية وهؤلاء النبيت لهم سهم، وكان بنو عمرو بن عوف وبنو لقبي سهما، وكان بنو النجار ومازن ومالك وذبيان وعدي سهماً، وكانت سلمى وزريق

(١) ابن اسحاق ١٣٨/٢، ٢٠٢؛ ابن سعد ٢ ـ ٢٨١/١، ابن شبه ١٧٤/١٧٧، وفاء الوفا ٢/ ١٥٢.

(٢) ابن شبه ١٧٤.

(٣) ابن شبه ٢١.

(٤) ابن شبه ١٩٦، ٢١١.

(٥) ابن شبه ٢٠٤، ٢١٨.

(٦) ابن سعد ٣ ـ ٦٥/١؛ ابن هشام ٢٦٤/٣؛ الواقدي ٥٢٢؛ وفاء الوفا ١١٦/١.

وبلحارث بن الخزرج سهماً، وكانت الخيل ستة وثلاثين فرساً، أسهم للفرس سهمان ولصاحبه سهم وللراجل سهم، وأُسهم لأبي سنان بن محصن مائة. وكان المسلمون ثلاثة آلاف، والخيل ستة وثلاثين فكان السهمان على ثلاثة آلاف وسبعين سهماً، للفرس سهمان ولصاحبه سهم. وأُسهم يومئذ على الأموال فَجُزِّئت خمسة أجزاء وكتب في سهم منها لله، فكانت السهمان يومئذ تبواء (سواء) فخرجت السهمان وكذلك الابل والغنم والسبي ثم فض أربعة أسهم على الناس واحدى النساء يومئذ اللاتي حضرن القتال وضرب لرجلين واحد قتل وآخر مات.

وكان مع رسول الله (ص) نساء شهدن بني قريظة ولم يسهم لهن: صفية بنت عبد المطلب وأم عمارة وأم سليط وأم العلاء والسميراء وأم سعد بن معاذ. وكذلك النخل عزله خمسة وكل ذلك يسهم عليه (ص) خمسة أجزاء ويكتب في سهم منها لله، ثم يخرج السهم. وصار الخمس إلى ابن جَزْء الزبيدي وهو الذي قسم المغنم[1]. يتبين من هذا النص الفريد أن مغانم أراضي قريظة قسمت على ثلاث آلاف رجل وزعت أسهمها لكل مجموعة عشائر؛ ولا بد أنه روعي في ذلك ما يساوي عدد رجال كل سهم ان التوزيع كان للمنتوج، ولم ترد إشارة إلى من تملك رقبة هذه الأراضي.

غنائم خيبر

كانت خيبر أكبر منطقة غير عربية أخضعها الرسول (ص) بجيش كبير قوامه ألف واربعمائة مقاتل؛ وتم إخضاع بعضها بعد قتال حام، واستسلم بعضها بدون قتال، فكان ذلك من أسباب سعة المعلومات التي وصلتنا عن أحكام الرسول في قسمة غنائمها، وتباين أكثر هذه المعلومات وبخاصة ما خص به الرسول (ص) من الصفي، وسهمه كمشارك في القتال وأساليب توزيع ما يُجبى منها؛ ويرجع بعض هذا الاختلاف إلى أن القرآن الكريم نص على الجهات التي

(١) الواقدي ٥٢٢ ـ ٥٢٣.

توزع عليها الغنائم، في الآية ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [الأنفال/ ٤١] ومن الواضح ان الآية نصت على أن خمس الغنيمة يوزع على خمس جهات أولها وهو سهم الله غير واضح مكانه ولكن سياق الأمور يقضي أن يتصرف فيه الرسول (ص) نصيبين من الخمسة، ولكنه لم يحدد المقصود بـ «ذوي القربى»، ولا مقدار ما يوزع من الخمس على هذه الأبواب، وهل يكون بالتساوي. ومن الواضح أن الذي يقوم بالتوزيع هو الرسول (ص) ولا بد أنه كانت له الحرية في التوزيع على هذه الأبواب حصراً، علماً بأن «ذوي القربى» امتدادها غير محدود.

ويروي ابن عباس في إجاباته على ابن الأزرق الخارجي قال ان الخمس في عهد الرسول محمد (ص)، كان يقسم على هذه الأصناف بالتساوي وأن الخلفاء الاربعة الأولين قسموا على ثلاثة أسهم، أي سهم الله وسهم الرسول (ص) صار في يد الخليفة[1] وهذا غير الصفايا التي كانت للرسول (ص) يتصرف بها لنفقاته الخاصة.

صفايا الرسول

بحثت الكتب الأولى المعنية بأخبار الرسول (ص) أحكامه في أراضي خيبر وقدمت في ذلك معلومات كثيرة بعضها مقتضب أو عام، وبعضها مفصل، كما أن في عدد منها تناقضاً. فذكر مالك بن أوس بن الحدثان أن الرسول (ص) قسم خيبر ثلاثة أجزاء، جزءاً له وجزءاً لنفقة المسلمين وجزءاً لنفقة أهله فما فضل ردَّه على فقراء المسلمين[2].

وذكرت عدة مصادر «خمس خيبر» الذي روى ابن عمر أن الرسول (ص)

(١) الخراج لأبي يوسف ٢٢؛ وانظر ما كتبناه عن الخمس في كتابنا معالم بغداد العمرانية ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) ابن إسحاق ٣/ ٤١٤، ٤١٧، ابن سعد ١ ـ ٢/ ١٨٣.

أطعم منه زوجاته[١] وذكر ابن اسحاق والزهري في ما نقل عنه الواقدي، وابن شبه أن الكتيبة خمس رسول الله، والكتيبة من وادي خاص[٢] وقسمه بين قرابته ونسائه وبعض رجال ونساء من المسلمين وقام عمر بن عبد العزيز بقسمتها باعتبارها سهم الرسول (ص)، وسهم ذوي القربى، ولعلها من الصفايا. وتذكر عدة روايات أن الرسول (ص) لما أفاء الله خيبر عليه جعلها ستة وثلاثين سهماً، جمع كل سهم مائة وثمانية عشر سهماً جمعها للمسلمين اقتسموها بينهم منها سهم لرسول الله (ص) مثل سهم أحدهم، وكان الذي قسم بين المسلمين الشق والنطاة وما حيزا[٣].

وتذكر أكثر الروايات أن الرسول (ص) قسم خيبر ستاً وثلاثين سهماً جعل نصفها صافية، وقسم الثمانية عشر سهماً الباقية على المسلمين وأنه قرر الاسهم بعد فتح الشق والنطاة وقبل استسلام الوطيح وسلالم، وجعل الشق والنطاة للمسلمين[٤].

تتفق المصادر على أن الرسول (ص) اعتبر الكتيبة خالصة له وهي وادي خاص[٥]، وفيها الغموص والوطيح وسلالم[٦]، ولم يدخلها فيما قسمه على المسلمين وأضافت عدة مصادر وهماً بالقرب من الكتيبة، وكانت آخر ما استسلم إليها الوطيح، فجمعا إليها الوطيح وسلالم وذكر من قال أن الرسول (ص) جعل خيبر ستة وثلاثين سهماً، أنها كانت ثمانية عشر سهماً، أي نصف الأسهم.

---

(١) ابن هشام ٣/٤٠٤، يحيى بن آدم ٤٣، ابن سعد ٢ ـ ١/٧٨، ٨٣، ابن شبه ١٨٦، ١٩٠.

(٢) الخراج لابن آدم ٥٨، ابن حنبل ٣/٩٢، ابن هشام ٣/٤٠٦، ابن شبه ١٧٨، ١٨٦، ١٩، ٢٠٣، ٢١٦، وانظر مقالنا أراضي المغانم وأحكام الرسول (ص) فيها المنشور في مجلة المنارة.

(٣) ابن هشام ٣٣/٤٠٥.

(٤) ابن سعد ٢ ـ ١، ٧٨، يحيى بن آدم ٣٧، فتوح البلدان ٢٥.

(٥) ابن هشام ٣/٤٠٥ ـ ٦، الواقدي ٦٩٣ ـ ٤.

(٦) ابن سعد ٢ ـ ١/٧٧، ٨٣.

المطعمون

وذكر ابن اسحاق والواقدي قائمة مستوعبة بأسماء من أطعم منها ومقدار ما أطعمه[١]. وذكر ابن سعد أسماءهم متفرقة في تراجمهم من كتابه «الطبقات» وتشمل هذه القائمة زوجات الرسول (ص)، فأعطى كلّاً منهن ثمانين وسق تمر وعشرين وسْقَ شعير، وأطعم عدداً من رجال ونساء الصحابة وبخاصة أولاد المطلب، وبعض بني عبد المطلب وبني عبد يغوث ومن عاد مع جعفر بن ابي طالب من الحبشة وعددهم ستة عشر حيث وصلوا الرسول (ص) وهو محاصر خيبر، كما أطعم منها عدداً من وفود يمانيين من الرهاويين والداريين والسبابين والأشعريين.

كانت هذه الطعم من منتوج الأرض، فلما عزم عمر بن الخطاب على إخراج يهود خيبر خَيَّر زوجات النبي أن يتابع إعطاءهن من المنتوج أو يعطيهن الأرض وماءها، فاختار أكثرهن الأرض والماء، واختارت عائشة وحفصة الأرض، أما من اختار الطعم فقد تعرض نصيبهن للتبدل فكان مروان بن الحكم إبّان ولايته يعطيهم مرات، وينقصهن أو لا يعطيهن مرات أخرى[٢]. وذكر الواقدي أن طعم الرهاويين والأشعريين ظلت تجري حتى باعوها لمعاوية بخمسة آلاف دينار ولم تذكر المصادر مصائر طعم بقية من أطعموا[٣].

ويذكر الواقدي أن الطعمة كانت تؤخذ بصاع رسول الله (ص) والخلفاء من بعده إلى زمن معاوية حين زاد واليه يحيى بن الحكم ثم أبان بن عثمان في الصاع فأعطاهم بالمكيال الجديد.

وكان من مات من المطعمين أو قتل فإن ورثته ترث طعمته، فلما ولي عمر بن الخطاب قبض طعمة من مات ولم يورثه، وإنما أجاز لزوجات النبي أن يورثن أو يهبن طعمهن، ولم يجز بيعها وظل ذلك جارياً حتى زمن الملك أو بعده فقطع.

---

(١) ابن هشام ٣/ ٤٠٥ _ ٦، الواقدي ٦٩٣ _ ٩٦٤.
(٢) ابن شبه ١٨٥، ١٨٦، ابن حنبل ٦/ ٣٣٠.
(٣) ابن هشام ٣/٤٠٧، ٤٠٨.

ويذكر ابن سعد بن عمر عبد العزيز قسم الكتيبة (أو منتوجاتها) على بني هاشم، وأضاف الواقدي أنه أمر أن يسوي بينهم الذكر والأنثى، الصغير والكبير، وأصاب كل إنسان خمسين ديناراً بعد أن أضاف مبلغاً إلى ثمن منتوجاتها[1].

قسمة الأسهم

حصرت قسمة أسهم خيبر على من شارك من الحديبية وعددهم ألف وأربعمائة، وأضيف إليهم من عادوا من الحبشة مع جعفر بن أبي طالب وعددهم أربعون[2] اعتبرت ثلاثة أسهم للخيل وعددها بين المائة والمائتين؛ ولم تذكر المصادر الانتماءات العشائرية لمن شارك في الحديبية، غير ان قائمة أسهم خيبر تظهر أن كثيراً منهم كان من الأنصار، وان فيهم قليلاً من مهاجرة الحجاز (أسلم وغفار وجهينة)، ولم تذكر المصادر عشائر من كان رؤساء اسهمهم من مهاجرة قريش وعددهم سبعة.

وذكر ابن اسحاق والواقدي شهداء المسلمين في خيبر وهم ثلاثة من حلفاء بني أمية، وواحد حليفٌ لبني أسد بن عبد العزى وشهيدان من أسلم وشهيد من غفار، وخمسة من بني عمرو بن عوف وواحد من كل من زريق وسلمة وكان للنبي[3] من هذه الثمانية عشر سهم واحد كبقية المقاتلة، وكان هذا السهم في مجموعة عاصم بن عدي، وفي رواية غير مثبتة انه كان في مجموعة بني بياضة[4] وفي رواية أن سهمه مع سهم أوس[5] واشترى من رجل من غفار سهم بخيبر بنصير، كما اشترى عمر بن الخطاب سهماً من الرسول (ص)[6].

كان كل سهم يضم مائة؛ ويذكر الواقدي ويقال إنّ أسلم كانوا بضعة

(١) ابن سعد ٥/ ١٨٧.
(٢) ابن اسحاق ٣/ ٤٠٤، ٤٠٥، ابن آدم، ٤١؛ ابن شبه ٨٧.
(٣) الخوارج ٣٧.
(٤) ابن اسحاق ٣/ ٤٠٥.
(٥) الواقدي ٧١٨، ٧١٩؛ ابن شبه ١٩٢.
(٦) العامة ٦٨٩، ٧١٨.

وسبعين وغفار بضعة وعشرين، وفي رواية غير مثبتة أن أسلم كانت مائة وسبعين، وغفار بضعة وعشرين.

رؤوس الأسهم

ذكر ابن اسحاق ٣/ ٤٠٥، وابن شبه ١٩١ ـ ٢، والواقدي قائمة بأصحاب السهام الثمانية عشر، مسماة بأسماء أفراد وعشائر، ندرجها فيما يلي تبعاً لسمات زعمائها:

١ ـ الزبير بن العوام (الخوع وتابعه السرس).

٢ ـ أسيد بن الحضير (عبد الأشهل الأوس).

٣ ـ عاصم بن عدي بن العجلان (حليف الأوس الشق).

٤ ـ عبد الرحمن بن عوف (الشق).

٥ ـ علي بن أبي طالب (الشق).

٦ ـ طلحة بن عبد الله (الشق).

٧ ـ عمر بن الخطاب (الشق).

٨ ـ سلمة بن عبيد (الشق).

٩ ـ عبيد السهام (الشق).

العشائر

١٠ ـ بياضة الواقدي يضيف: رأسه فروة بن عمرو (ناعم).

١١ ـ الحارث بن الخزرج (الواقدي: رأسه عبد الله بن رواحة).

١٢ ـ عوف بن الخزرج ومزينة شركاؤهم (ناعم).

١٣ ـ ساعدة (الواقدي يضيف رأسهم سعد بن عبادة (الشق).

١٤ ـ النجار (الواقدي يضيف: ليس لهم رأس).

١٥ ـ غفار وأسلم (الواقدي يضيف رأسهم بريد بن الحصيب (الشق).

١٦ ـ حرام (الشق).

١٧ ـ حارثة (الشق).

١٨ ـ أوس واللفيف (ابن شبه يضيف جهينة (الشق).

يتبين من هذه القائمة أن بعض الأسهم سميت بعشائر رؤسائها وعددهم تسعة وكلهم من الخزرج. ولم يذكر من عشائر الأوس غير ما ورد اللفيف ولعل المقصود بهم أوس.

يتبين من هذه القائمة أن بعض الأسهم سميت بعشائر رؤسائها وهم فروة بن عمروة رئيس بياضة، ومعاذ بن جبل رأس بني سلمة، ومعد بن عبادة رأس بني ساعدة وعبد الله بن رواحة رأس ثابت الخزرجي. وذكر أسهماً لعشائر من الخزرج بياضة والحارث بن الخزرج، وعوف بن الخزرج، وسلمى بن حرام وحارثة. ولم يذكر من عشائر الأوس غير أوس اللفيف ولعل المقصود بهم الأوس.

وذكر من مجموعات مُهاجِرة الحجاز سهم لأسلم وغفار، وسهم لمزينة، ولم يسم لأي منهم رئيساً ولم يذكر سهم لعشائر مهاجرة قريش، وإنما ذُكرت لخمسة أفراد منهم وهم الزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة، وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب دون ذكر انتماناتهم العشائرية، ولم يذكر كذلك سهم لعدد آخر من بارزي الصحابة كأبي بكر وعثمان وغيرهم ممن شارك في الحديبية.

ذكر ابن شبه ان عبيد السهام كان أول من اشترى من الناس. ولم يذكر ممن الشراء ولعله تم بعد وفاة الرسول؛ وذكر الواقدي أن عمر بن الخطاب اشترى سهماً من اللفيف، وهذا يشير إلى حدوث تعديلات مالية لم تذكر عنها المصادر معلومات.

وقد اعتبر الرسول (ص) فدك صافية له لأنها لم تفتح بقتال، فكان يصرف مواردها ما تقتضي الضرورة بصرفه، فلما توفي الرسول (ص) طالبت فاطمة بفدك ولكن أبا بكر رد طلبها لأنه رأى أن ما كان للنبي (ص) هو من الأموال العامة التي يديرها الرسول (ص) وليست ملكاً شخصياً له فيورث؛ وتابع عمر وعثمان ذلك، فلما ولي معاوية الخلافة سنة أربعين طلبها والي المدينة فأعطاه إياها، فكانت بيد مروان يبيع ثمرها بعشرة آلاف دينار كل سنة، ثم نزع مروان عن المدينة وغضب عليه معاوية فقبضها منه، فكانت بيد وكيله بالمدينة واليها الوليد بن عتبة بن أبي سفيان فطلبها من معاوية، فأبى أن يعطيه، وطلبها سعيد بن العاص فأبى معاوية أن يعطيه، فلما ولّى معاوية مروان للمرة الأخيرة ردها عليه بغير طلب من مروان، ورد عليه غلتها فيما مضى، فكانت بيد مروان فأعطى عبد الملك نصفها وأعطى عبد العزيز بن مروان نصفها. فوهب عبد العزيز نصفها الذي كان بيده لعمر بن عبد العزيز، فلما توفي عبد الملك طلب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد حقه فوهبه له وطلب إلى سليمان حقه فوهبه له، فبقي في أعيان بني عبد الملك حتى خلصت لعمر بن عبد العزيز. فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة سأل عن فدك وفحص عن خبرها فأخبر بما كان من أمرها في عهد الرسول (ص) وأبي بكر وعمر وعثمان حتى معاوية، فكتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم كتاباً فيه «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي بكر محمد، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإني نظرت في أمر فدك وفحصت عنه فإذا هو لا يصلح لي ورأيت أن أردها على ما كانت عليه في عهد رسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان، وأترك ما حدث بعدهم فاذا جاءك كتابي هذا فاقبض وولها رجلاً يقيم بالحق والسلام عليك».

وادي القرى

تقدم الرسول (ص) بعد فتح خيبر إلى وادي القرى، فقاومه أهلها ولكن

الرسول (ص) قضى على مقاومتهم، فكان فتحها عنوة. وترك الرسول الأرض والنخيل في أيدي أهلها اليهود وعاملهم على نحو ما عامل أهل خيبر.. وقسمها بين من قاتل عليها.

ذكر ابن اسحاق قائمة بأسماء من قسمت عليهم وادي القرى، وكان لكل منهم خطر، عدا ثلاث اصاب كل منهم نصف خطر، وعرف الخطر بأنه (النصيب) وأورد الواقدي القائمة وأضاف أنهم خرجوا بالقسم الذين قسموا: جبار بن صخر، وأبو الهيثم بن التيهان، معزوة بن عمرو، وزيد بن ثابت فقسموها على أعداد السهام، وحدوا حدودها، وجعلوا السهام تجري. وذكر أن الخطر هو السهم، وان زيد بن ثابت تصدق بالذي صار له من وادي القرى من غيره.

عثمان بن عفان	ابي بن كعب
عبد الرحمن بن عوف	معاذ بن عفراء
عمر بن أبي سلمه	ابو طلحة وجبير
عامر بن أبي ربيعة	جبار بن صخر
عمرو بن سراقه	جابر بن عبد الله بن رئاب
اشيم	مالك بن صعصعه
بنو جعفر	جابر بن عبد الله بن عمر
معيقيب	ابن حضير
عبد الله بن الايهم	ابن سعد بن معاذ
عبد الله	سلمه بن سلامة
عبيد الله	عبد الرحمن بن ثابت
ابن عبد الله بن جحش	أبو شريك
ابن المكبر	ابن عيسى بن حبر
معتمر	محمد بن مسلمه
زيد بن ثابت	عبادة بن طارق

(٢) الزكاة والصدقات بعد التوسع

فرض الزكاة والصدقات

قام الإسلام، عند بدء الدعوة، على من استجاب للدعوة وآمن بها واتّبع الرسول (ص). وبذلك كوّنوا، منذ بدء الدعوة، مجتمعاً منظّماً متوسعاً يرأسه الرسول (ص) فهو منظّمهم وموجّههم. وتوفَّر في هذا المجتمع الإسلامي الأول نظام خاص. ومنذ هذا الزمن المُبكّر من الدعوة الإسلامية نزلت آيات تطلب من المسلمين أن يتصدَّقوا ويُزكّوا، وبذلك كانت فرضاً واجباً كان يؤديه المسلم. وقد ذُكرت الزكاة واجباً دينياً في إحدى وثلاثين آية، منها أربع آيات مفردة وتسع وعشرون آية مقرونة بالصلاة، وهي تُظهر مدى الأهمية التي جعلها القرآن الكريم للزكاة، ولكن القرآن الكريم لم يحدد مقدارها.

وأما الصدقة، فقد وردت في ثلاث عشرة آية، حدّد في إحداها أبواب صرفها للفقراء والمساكين والعاملين عليها وفي الرّقاب والمؤلفة قلوبهم (التوبة ٦٠)، وورود ذكر المؤلَّفة قلوبُهم يدل على أنها نزلت في أواخر حياة الرسول (ص) في المدينة.

وبعد أن هاجر الرسول (ص) تثبّتت معالم الدولة وأصبحت تضمّ أعداداً كبيرة ممّن تتباين مصادر ثرواتهم ومقدار وارداتهم وحاجاتهم، وازدادت متطلبات الدولة للإنفاق، فتتابعت الآيات تؤكد وجوب دفع الزكاة والصدقات.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [الحج] ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾ [التوبة].

يروي السمهودي فيقول: «سنة فُرضت زكاة الأموال أيضاً، قيل في الثامنة،

وقيل في الرابعة، وقيل قبل الهجرة[1] ويروي الطبري أنه في سنة ٧ فرض الرسول الصدقات، وفرق فيها رسول اللّٰه عمال الصدقات[2].

والآيات التي تذكر وجوب الزكاة والصدقة والإنفاق عامة لا تحدِّد مقدارها أو طريقة جبايتها أو أصناف الأموال التي تجبى منها. ويبدو أنها كانت في السنين الأولى غير محددة. ويختلف مقدارها تبعاً لمقتضيات الأحوال والظروف ومتطلبات سد حاجة المجتمع، وهي تُدْفع للفقراء والمحتاجين لإعالتهم أو تمكينهم من أداء واجباتهم في القتال.

الأحوال الاقتصادية في الجزيرة

لا ريب في أن المجتمع، في أول الهجرة، كان محدوداً، ولم يكن الأنصار من أهل المدينة بحاجة كبيرة إلى مال تدفعه الدولة. أما المهاجرون، فكانوا أشد حاجة. وقد سُدَّت حاجتهم من كرم الأنصار وما قدّموه من عون، فضلاً عن عمل بعضهم في التجارة والسوق. وسد بعضهم حاجته من العمل في الأراضي التي غنمها المسلمون من اليهود الذين أُقصوا عن المدينة وكذلك من غنائم الغزوات والسرايا، ومقدارها غير كبير، فيما عدا نصف حاصل خيبر وفدك ووادي القرى، التي جاءت في السنة السادسة للهجرة وأمَّنت موارد ثابتة للدولة.

ثم توسعت الدولة تدريجياً إلى المناطق التي حول المدينة، وخاصة التي بينها وبين مكة، ثم ازداد التوسّع بعد فتح مكة، وتمَّ ذلك سلمياً وبمبادرة من أهلها التي تمثلت في الوفود التي قدِمت طوعاً مُعلنة إسلامها فأصبحت تشمل معظم أرجاء جزيرة العرب، وتضم أراضي واسعة منوَّعة في أحوالها الجغرافية والاقتصادية، ففيها مناطق جرداء تغطيها كثبان الرمال، وفيها مساحات واسعة

---

(١) وفاء الوفا ١/١٩٧.

(٢) الطبري ١/١٧٢، وانظر: ابن سعد ٢ ـ ١/٥٥، سيرة ابن هشام ٤/٢٧١.

تكسو أرضها تربة تُنبت الأعشاب عند توافر المياه، فتكون مراعيَ للإبل والماشية، وتقطنها عشائر لكل منها ديار تَجُوب فيها وتنتقل في نطاقها تبعاً لوجود المراعي ومواسمها. وفيها أيضاً عدد غير قليل من الوديان والمناطق التي تتوافر فيها مياه باطنية غزيرة تكفي لإنبات النخيل والحبوب وبعض الخضر وتُمكِّن عدداً غير قليل من الناس من الاستقرار الدائم في القرى والمدن، وتنتج ما يزيد عن حاجة السكان.

وفي شبه جزيرة العرب أيضاً مناطق تكثُر فيها المعادن أهمها النحاس في عمان، والحديد في اليمن، والذهب والفضة في أطراف المدينة وفي جنوبي مكة من الحجاز، وفي ضرية وأطراف اليمامة من نجد وفي اليمن حيث يتوافر أيضاً الجَزْع والعقيق.

وكانت بعض المناطق مراكز لصناعة النسيج، وخاصة في اليمن وصحار وقطر، التي كان كل منها يُصَدِّر مقادير كبيرة من هذه المنسوجات إلى الأقاليم الأخرى من جزيرة العرب. ومن الطبيعي أن صناعات أخرى ازدهرت أيضاً، وخاصة ما يتصل منها بالأسلحة، كصنع السيوف والرماح والنبال ودباغة الجلود التي اشتهرت بها الطائف والمناطق الشمالية من اليمن.

وقامت على سواحل الجزيرة موانىء يعمل أهلها في صنع السفن وإصلاحها والملاحة فيها. ومن أشهرها، عند ظهور الإسلام، دارين في البحرين وصحار في عمان وعدن في جنوب اليمن والشعيبة في الحجاز.

وتخترق شبه جزيرة العرب مسالك متعددة تمر بها قوافل التجارة المحلية والعالمية. ومن أهمها الطريق الغربي الذي يمتد من عدن فيمر في الأطراف الشرقية من اليمن إلى نجران، ويخترق الحجاز مارّاً بمكة، صاعداً إلى الشمال، وينتهي ببُصرى وغزة؛ وكذلك الطريق الذي يمر من اليمن مخترقاً وادي الدواسر فاليمامة ومنها إلى العراق، والطريق التي تمر من اليمامة إلى مكة، ومن البحرين إلى أطراف بلاد الشام. وقد أُقيم، عند بعض محطات هذه الطرق،

عدد من الأسواق الموسمية الكبيرة وأشهرها المشقر في البحرين، ودبا في عمان وعكاظ في الحجاز[1].

لم تَجْرِ دراسة مستوعبة تتناول ما كان يفرضه الحكام المتعددون من الضرائب، في حين أن القرآن الكريم قد أشار إلى ما كانوا يدفعونه للآلهة، فقال جلّ من قائل: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ١٣٦﴾ [الأنعام].

تنظيمات الرسول للموارد المالية في الجزيرة العربية: الزكاة وخمس المغنم

عمل الرسول (ص) على تثبيت نظام يؤمّن ازدهار الحياة الاقتصادية بما فيها التجارة والصناعة والزراعة، فقد أحلَّ الإسلام حكومة مركزية واحدة تُعنى بالصالح العام وتعمل على تنسيقه وتنظيمه، وتنشر السلم والأمن؛ ومنع الغزو والقتال بين المسلمين، إذ ألّف بين قلوبهم وأصبحوا بنعمته إخواناً، كما حرَّم الربا، ومنع الممارسات اللاأخلاقية والاستغلال، وألغى ما كان يأخذه الحكام من عشور وضرائب.

وردت في كتب الرسول (ص)، عمَّا وضعه على من أسلم في شبه جزيرة العرب، عدة تعابير ذُكر بعضها مرة واحدة في كتاب واحد، وبعضها تكرَّر ذكره في كتب كثيرة منفرداً أو مع أحكام أخرى. وأغلب الكتب مقتضبة ليس فيها تفاصيل عن مقدار ما يُجبى، أو طريقة تنفيذه.

والزكاة هي المطلب الرئيس الذي طلبه الرسول (ص) في كتبه إلى عدد غير قليل من الجماعات والأفراد، وكان طلبه منهم «أن يؤتوا الزكاة» دون تحديد نصابها أو طريقة جبايتها، وممن طُلب منهم ذلك الأسبذيون[2] (٦٦)،

(١) انظر المحبر ٢٦٧، تاريخ اليعقوبي ١/٣١٧.

(٢) الترقيم الذي نذكره هو الذي وضعه حميد الله لكتب الرسول (ص) في كتابه «الوثائق السياسية» وعليه معتمدنا في هذا الفصل.

وعبد القيس (٧٢أ)، وبنو زياد من طي (٨٥)، وأسلم (١٦٥)، وعقيل (٢١٦)، والضباب (٨١)، وأهل دما (٧٧) وجماع في جبال تهامة (١٧٣).

ومن الأشخاص الذين طلب الرسول (ص) منهم أن يؤتوا الزكاة خالد بن ضماد الأزدي (١٢٠)، ويزيد بن الطفيل من بني الحارث (٨١، ٨٢) وقنان بن زيد (٨٧)، وقيس بن الحصين (٩٠) وطهقة وقومه (٩١) وهما من نهد، وعامر بن جوين (١٩٤)، وحبيب بن عمرو (١٩٧) وهما من طي، ومن عمير (١١١)، وقيس بن مالك وهما من همدان.

٢ ـ ذكرت بعض الكتب، إلى جانب الزكاة، مطالب أخرى للرسول (ص):

أ ـ فطلب ممن أسلم من جدس (من لخم) «حظ اللّه وحظ الرسول» (٩١) دون تحديد لماهية الحظ أو مقداره.

ب ـ وطلب، إلى جانب الزكاة، «الصدقة والخُمس» من جذام وقضاعة (١٧٧)، و«خمس اللّه» من بني البكاء (٢١٧)، و«خمس المغانم في الغزو» من بني عبد يغوث من بلحارث (٨٤)، وذكر ذلك في كتابه إلى عمرو بن حزم الذي أرسله إلى اليمن (١٠٥).

ج ـ بالإضافة إلى الزكاة، طَلب خمس اللّه وسهم النبي فقال: «وأعطوا من المغانم خمس اللّه وسهم النبي»، من جنادة الأزدي وقومه ومن تبعه (١٨٩) ومن بني جوين (١٩٥).

د ـ وطلب «خمس المغنم وسهم النبي الصفي» من صيفي بن عامر من بني ثعلبة بن عامر (٤٠)، ومن عمرو بن معبد الجهني وبني الحرقة من هينة، وبني الجرمز (١٥٢)، ومن بني زهير بن أقيش من عكل (٢٣٣)، وكذلك في كتابه إلى الحارث ونعيم والنعمان اليمانيين (١٠٩).

هـ ـ وطلب «الخمس من المغنم وسهم الغارمين وسهم كذا وكذا» من مالك بن أحمد الجذامي (١٧٤).

إن خُمس الغنائم والصفِيّ يؤخذان عادة من غنائم الحروب والغزوات التي منعها الإسلام بين المسلمين، ولذلك فإن حكمها يجري على الغنائم من مقاتَلة من لم يُسْلم. وكان الخمس والصفي، قبل الإسلام، من حق رؤساء القبائل، فمطالبة الرسول (ص) به يرمز إلى رئاسته العليا، وهو تعبير عن مبدأ، أكثر من كونه مصدراً للأموال، لأن القتال بين الجماعات توقّف بعد الإسلام.

الفرائض على الماشية

ذكرت كتب وُجّهت إلى عدد من القبائل مقدار ما على أهل الماشية.

فطلَب من جهينة بن زيد أن يؤدوا الخمس «وفي التِّيَعة والصريمة شاتان إذا اجتمعتا، فإن فرّقتا فشاة شاة، ليس على المُمِير صدقة، ولا على الواردة لبقة» (١٥٧).

وذَكر في كتابه لبني جناب (من كلب في شمالي الحجاز) وأحلافهم ومَن ظاهَرهم فقال: «وعليهم في الهاملة الراعية في كل خمس شاة غير ذوات عوار، والحمولة المائرة لهم لاغية» (١٩٢)، وفي رواية أخرى «عليهم في الهمولة الراعية البساط الضوار من كل خمسين ناقة غير ذات عوار، والحمولة المائرة لهم لاغية، وفي الشوى الورى مسنة حامل أو حافل» (١٩٢).

وفي كتابه لبني نهد: «لكم في الوظيفة الفريضة، ولكم الفارض، والفريض، وذو العناق الركوب، والفلو الضبيس (٩١).

وفي كتابه لوائل بن حجر (من حضرموت): «أن يؤخذ منك من كل عشرة واحدة ينظر في ذلك ذَوَا عدل» (١٣٤).

وفي كتابه إلى الأقيال العباهلة (من اليمن): «والصدقة على التِّيعَة السائمة لصاحبها التَّيْمة لا خِلَاط، ولا وِرَاط، ولا شِغار، ولا جلب، ولا جنب، ولا شِناق». وفي رواية أخرى في التِّيعة شاة لا مقورة الألياط ولا ضناك، وانطلوا البشجة، وفي السيوب الخمس، ولا غُمَّةَ في فرائض» (٣٣).

وفي كتابه إلى الحارث بن عبد كلال، وإلى نعيم بن عبد كلال، وإلى النعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمدان: «إن في الابل الأربعين ابنة لبون، وفي الثلاثين من الابل ابن لبون ذكر، وفي كل خمس من الإبل شاة، وفي كل عشر من الإبل شاتان، وفي كل أربعين من البقر بقرة، وفي كل ثلاثين من البقر تَبيعُ جَذَعٍ أو جَذَعة، وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها، وأنها فريضة اللّه التي فرض على المؤمنين في الصدقة، فمن زاد خيراً فهو خيرٌ له» (١٠٩).

وفي كتابه إلى عمرو بن حزم واليه على اليمن، كان ما طلبه على النحو التالي: «في كل عَشْر من الإبل شاتان، وفي كل عشرين أربع شِيَاه، وفي كل أربعين من البقر بقرة، وفي كل ثلاثين من البقر جذع أو جذعة، وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها سائمة، فإنها فريضة اللّه التي افترض على المؤمنين في الصدقة، فمن زاد خيراً فهو خير له» (١٠٥).

ومن الطبيعي أن التعابير التي تبدو غير مألوفة لنا هي تعابير سائدة عند الرعاة، وأن تنوُّع أحكامها راجع إلى أنها صدرت قبل تحديد نصاب الزكاة في السنة التاسعة.

وكأن أصحاب النخل في الطائف يؤدّون من كل عَشْرِ قُرَب قُرْبة[1].

المزروعات

ورد في كتب الرسول (ص) ما فرضه على المنتوج الزراعي لعدة مجموعات. ففي كتابه لعمرو بن معبد الجهني وبني الحرقة: «أن الصدقة في الثمار العشر» (١٥٢) ولوفد ثمالة والحدان (من عمان): «ليس عليهم في النخل خراص ولا مكيال مطبق حتى يوضع في العداء، وعليهم في كل عشرة أوساق وَسْق» (٧٨).

وفي كتابه لأهل عمان والبحرين: «إن أسلموا.. لهم ما أسلموا عليه، وأن

(١) الخراج لأبي يوسف ٥٥/ ٧٠.

عشور التمر صدقة، ونصف عشور الحب، . . . وأن لهم أرحاءهم يطحنون بها ما شاؤوا» (٦٦).

وفي كتابه لبني جناب (شمال الحجاز) وأحلافهم ومَن ظاهَرهم ذكر «السقي الرواء والعذى من الأرض يقيمه الأمين وظيفه لا يزاد عليهم» (١٩٢).

وفي كتاب آخر لعمائر كلب (أطراف بلاد الشام) «فيما سقى الجدول من العين المعين العُشر من ثمرها مما أخرجت أرضها، وفي العذى شطره يقيمه الأمين، فلا تزاد عليهم وظيفة ولا تفرق» (١٩٢).

وفي كتابه إلى أكيدر (أطراف بلاد الشام): «إن لنا الضاحية من الضحل والبور والمعامي وإغفال الأرض والحلقة والسلاح والحافر والحصن، ولكم الضامنة من النخل والمعين بحقها» (١٩٠). وفي كتاب آخر أو لعله رواية أخرى «لنا الضاحية من البعل ولكم الضامنة من النخل، على الجارية العشر، وعلى الفائرة نصف العشر، ولا تجمع سارحتكم، ولا تعد فاردتكم، وتؤتون الزكاة بحقها، لا يحضر عليكم النبات، ولا يؤخذ منكم عشر النبات» (١٩١).

وفي كتابه لِخَثْعم: «عليهم في كل سَيْح العُشر، وفي كل غرب نصف العشر» (١٨٦)، وفي كتابه إلى عمرو بن عزم، والي اليمن: «وما كتب على المؤمنين في الصدقة من العقار عُشر ما سقت العين وسقت السماء» (١٠٥).

وفي كتابه إلى الحارث ونعيم ابني عبد كلال، وإلى النعمان قَيْل ذي رعين ومعافر وهمدان: «الصدقة من العقار عُشر ما سقت العين وسقت السماء، وعلى ما سقت الغرب نصف العشر» (١٠٩) في رواية أخرى: «وما كتب على المؤمنين من العشر في العقار ما سقت السماء أو كان سَيْحاً أو كان بعلاً ففيه العشر إذا بلغت خمسة أَوْسُق، وما سقي بالرِّشاء والدالية ففيه نصف العشر إذا بلغ خمسة أوسق» (١١٠).

يتبين من هذه النصوص أن أكثر ما فرض الرسول (ص) كان على المزروعات، وأنه راعى في ما فرضه تنوُّع المحاصيل وطريقة الإرواء، ففي كتابه لأهل عُمان يذكر أن عشور التمر الصدقة، ونصف عشور الحب، أما

خَثْعم، فـ «عليهم في كل سيح العشر، وفي كل غرب نصف العشر»، وفي إحدى الروايات عما فرض على أهل دومة الجندل: «لنا الضاحية من البعل، ولكم الضامنة من النخل، على الجارية العشر، وعلى الفائرة نصف العشر، ولا يؤخذ منكم عشر النبات».

غير أن بعض الكتب أشارت إلى تنوع مقدار الضريبة ولم تحدد كل مقاديرها، ففي إحدى الروايات أنه كتب لبني جناب: «فيما سقي الجدول من العين المعين العشر من ثمرها مما أخرجت أرضها، وفي العذى شطره يقيمه الأمين، فلا تزداد عليهم وظيفة ولا تفرق». وفي رواية أنه كتب لهم «السقي الرواء والعِذْيُ من الأرض يقيمه الأمين وظيفة لا يزاد عليهم» ولم تذكر المصادر معلومات عن الأمين الذي يقوِّم، أو تعيينه أو صلاحياته على أهل المدن والصناعات.

الفرائض على أهل المدن والصناعات

أما المدن والمراكز الصناعية والتجارية الكثيرة في شبه جزيرة العرب، فقد ذُكر ما فَرَضه منها على ثلاثة من المراكز الواقعة في الأطراف الشمالية من الحجاز، وما فرضه على أهل نجران، وعلى أهل البحرين.

فأما المراكز التي في الأطراف الشمالية من الحجاز، فقد ذكرت المصادر كُتُبه إلى ثلاثة فيها ضرائب جماعية.

١ ـ كتب إلى أهل جربا وأذرح «أن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة» (٣٣)، وهي ضريبة جماعية مقدرة بالنقود، ومقدارها غير كبير، ولا بد أن جباياتها كانت تتم عن طريق رؤسائها تبعاً لاجتهاداتهم.

٢ ـ وكتب إلى يوحنه بن رؤبة وسروات أهل إيله: «فأسلم وأعط الجزية، وأطع الله ورسوله وَرُسُلَ رسوله، وأكرمهم واكسُهم كسوة حسنة غير كسوة الغزاء (؟) واكسُ زيداً كسوة حسنة، فمهما رضيت رسلي رضيت، وأعطِ حرملة ثلاثة أَوْسُق (٣٠)، وهذه ضريبة محدودة وغير كبيرة.

٣ ـ كتب إلى أهل مقنا: «فإن لرسول اللّه بَزَّكم وكل رقيق فيكم والكُراع والحلقة، إلا ما عفا عنه رسول اللّه أو رسول رسول اللّه، وأن عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخلكم، وربع ما اغتزل نساؤكم» (٣٢)، وفي رواية أخرى: «لكم.. وأموالكم ورقيقكم ما عفا عنه الرسول (ص)». وعلى أي حال، فإن مقدارها كبير نسبياً[١].

انفردت نجران برواية الفقهاء في كتاب طويل كتبه الرسول (ص) لأهلها فصَّل فيه الضرائب المطلوبة منهم، فقال: «إذا كان عليهم حكمه في كل ثمرة وفي كل صفراء أو بيضاء ورقيق، فأَفْضَل ذلك عليهم وتَرَك ذلك كله لهم على ألفي حلة من حلل الأواقي، في كل رجب ألف حلة، وفي كل صفر ألف حلة، مع كل حلة أوقية من الفضة، فما زادت على الخراج أو نقصت في الأواقي فبالحساب، وما قضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض أخذ منهم بالحساب. وعلى نجران مؤونة رسلي ومتعتهم ما بين عشرين يوماً فما دون ذلك، ولا تحبس رسلي فوق شهر». وعليهم عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً إذا كان كيد باليمن ومعرة، وما هلك مما أعاروا رسلي من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض فهو ضَمِين على رسلي حتى يُؤَدّوه إليهم»[٢].

يظهر من هذا النص أن الرسول (ص) فرض على أهل نجران ضريبة جماعية سنوية تدفع بقسطين في رجب وصفر، وكان رجب شهراً له مكانة في الجاهلية ففيه تقدم الهدايا إلى الآلهة وتجري بعض المراسم الدينية ولعله كان يقابل أواخر الربيع من أشهر السنة الشمسية.

فرضت الضريبة على الزرَّاع والصنَّاع والتجار وربما الملاكين، ولعله هذا

(١) ناقش محتوى هذه الكتب الثلاثة وإحالتها كل من الدكتور جاسر أبو صفية، والدكتور إبراهيم زيد الكيلاني في مقالين نشرا وقائع المؤتمر الثاني لبلاد الشام.

(٢) نص المعاهدة في مجموعة الوثائق السياسية رقم ١٤، وقد رواها أبو يوسف في كتابه الخراج ٤٩.

هو المقصود بكلمة «رقيق» الواردة في النص، وأبقى الرسول (ص) لهم كل أملاكهم ونظمهم الخاصة. وقُدِّرت الضريبة بالمنسوجات (الحلل) والمعادن الثمينة. ولم يقدّر سعر الحلل التي يبدو أنه كانت لها أسعار مقررة، كما أن ضريبة المعادن لم تقدر بالنقود وإنما بالوزن، وهو ما كان مألوفاً في الحجاز.

وردت الضريبة بالفضة، وهي فيما يظهر أكثر شيوعاً من الذهب في المعاملات بالحجاز، حيث كانت أساس تقدير الصَّدَاق وأسعار كثير من السّلَع. وتُقدَّر الضريبة بالوزن، والأوقية أربعون درهماً وزناً أي ١٢٥ غراماً[1] ولا ريب في أن دفع الضريبة بالفضة كان أكثر ملاءة لمصلحة الدولة الإسلامية لسهولة استعمالها في عدة أعراض، وقَصْرُ الرسول (ص) الضريبة عليها تيسير للعبء على أهل نجران. وقد أباح لهم دفعها بعينيات أخرى: «دروع أو خيل أو ركاب أو عروض» دون تحديد أسعارها، ولعله قرر ذلك تخفيفاً لعبء دفع الضريبة بالنقود.

أما عارية الدروع والخيل والإبل، فهي تدبير استثنائي.

كان المقدار الكلي للجباية بالنقود ثمانين ألف درهم، وهو يعادل ما جُبِيَ أول مرة من البحرين.

كانت نجران منطقة متميزة بخصوبة أرضها ووفرة زراعتها، وهي تقع في الأطراف الشمالية من اليمن وتمر بها قوافل التجارة بين اليمن وبلاد الشام، وقد انتشرت النصرانية بين أهلها منذ القرن الرابع الميلادي، وتمسك أهلها بالنصرانية، وقاوموا ذا نؤاس الذي اضطهدهم وأحرق كثيراً منهم في الأخدود، ولا بد أنهم لَقُوا رفاهاً إبان حكم الأحباش النصارى، فلما تفككت أحوال اليمن بعد طرد الأحباش، تمتع أهل نجران باستقلال ذاتي، وأقاموا لأنفسهم نظاماً خاصاً في الحكم، فكان فيهم الرئيس والعاقِب والأسقف، وهم الذين

(١) هينز: المكاييل والموازين الإسلامية ١٩.

قَدِموا إلى الرسول (ص) وبايعوه، ثم عقد معهم المعاهدة. وكان أغلب أهلها من بني الحارث بن كعب، وهي عشيرة مرموقة، أصبحت لرجالها مكانة متميزة في الدولة بعد الإسلام، وخاصة في أوائل الخلافة العباسية.

وتُظهر معاهدة الرسول (ص) مع أهل نجران أن السكان كانت حِرَفهم متعددة، ففيهم الزرّاع والصنّاع والتجار، وأنهم كانوا يستخدمون عدداً كبيراً من الرقيق للعمل في الأرض كما يبدو، ولهم نظام سياسي يختلف عن مشيخة البدو، ففيهم الرئيس الذي يبدو أنه كانت بيده السلطة السياسية، والعاقِب الذي ربما كان يشرف على الأمور الإدارية، والأسقف الذي كان ينظر في الشؤون الدينية. وكانت لهم قوة عسكرية تحمي بلادهم، وقد انضموا إلى الأسود العَنسي، مما حمل الرسول على إرسال قوة لمحاربتهم، ولكنها لم تقاتلهم[1].

خَصَّ الرواة النجرانيين بذكر معاهدتهم، ولعل من أسباب ذلك أنهم نُقلوا في زمن خلافة عمر بن الخطاب (رض) إلى العراق، واستوطنوا في جهات جنوب الكوفة، وكانوا قريبين من فقهاء الكوفة الذين دوَّنوا أخبار معاهدتهم وما حدث عليها من تعديلات، كما دوَّنوا أخبار بعض المعاهدات مع مدن أخرى في العراق.

وقد ذكر الرواة معاهدات عقدها الرسول (ص) مع أهل الطائف، ومع أهل أَيْلة، ولعل مدناً ومراكز متميزة أخرى عُقدت معها مثل هذه المعاهدات ولكن لم تصلنا أخبارها.

أما البحرين، فأكثر كتب الرسول عنها كانت موجهة إلى المنذر بن ساوي، وفيها أحكام عمّا يُجْبى من غير المسلمين. فذكر في أحد هذه الكتب: «اترك

(١) أنظر عن نجران بحث لامنس في كتابه عن خلافة يزيد (بالفرنسية) ودراسة بيجولفسكايا المنشورة في مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق سنة ١٩٦٠، م ٣، ص ١١٣ ـ ١٣٣، م ٤، ص ١ ـ ١٤ (بالفرنسية) وأعيد طبعها في كتابها الذي ترجمه عثمان خليل بعنوان «العرب على حدود بيزنطة وإيران».

للمسلمين ما أسلموا عليه. ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية» (٦١).

حُدِّد في بعض الكتب مقدار ما فُرض: ففي أحد هذه الكتب ذُكر أن «من لم يسلم، فعليه دينار من قيمة المعافري» (٥٩) وفي كتاب آخر: «افرض على كل رجل ليس له أرض أربعة دراهم وعباءة» (٦٢). ويُظهر النص الأول أن الدينار كان عملة عندهم، وقد يكون المقصود بالـ «دينار» من قيمة المعافري العملة اليمانية الرائجة عندهم. أما الدراهم، فساسانية. وقد يمكن التوفيق بين الكتابين بالقول: إن الدينار كان يساوي أربعة دراهم وعباءة.

إن الكتب التي أوردنا نصوصها أعلاه ذكرت الجزية التي ذُكرت في كتابين آخرين موجَّهين إلى المنذر بن ساوي، ذُكر في أحدهما: «بعثت إليك قدامة وأبا هريرة فادفع إليهما ما اجتمع عندك من جزية أرضك» (٦٣). وذُكر في الآخر: «بعثت إلى المنذر بن ساوي من يقبض منه ما اجتمع عنده من الجزية، فجئه بها وابعث معهما ما اجتمع عندك من الصدقة والعشور» (٦٤).

وذُكرت الجزية في كتابٍ من الرسول (ص) يذكر فيه ما فرضه على يهود تيماء (١٩) وعلى يوحنة بن رؤبة وأهل أيلة» (٣٠)، وفي كتب وَجَّهها الرسول (ص) إلى اليمن: ففي كتابه إلى عمرو بن حزم: «وأنه من أسلم من يهودي أو نصراني إسلاماً «خالصاً» من نفسه ودان بدين الإسلام، فإنه من المؤمنين، له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم. ومن كان على نصرانيته أو يهوديته، فإنه لا يُردّ عنها، وعلى كل حالم، ذكر أو أنثى، حرٌّ أو عبد، دينار وافٍ أو عرضه ثياباً» (١٠٥) وكذلك في كتابه إلى الحارث، ونعيم، والنعمان، أقيال همدان «ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يُردّ عنها، وعليه الجزية على كل حالم، ذكراً أو أنثى، حراً أو عبداً، دينار واف من قيمة المعافر أو عرضه ثياباً» (١٠٩).

إن ورود تعبير «جزية أرضك» لا يستلزم أن تكون ضريبة جماعية، والراجح أنها ضريبة فردية على الرؤوس تفرض على أهل المدن.

عمال الصدقات

يذكر الطبري أن الرسول (ص) فرَّق عماله على الصدقات في السنة التاسعة للهجرة، وأنه، في هذه السنة، «فُرضت الصدقات، وبها نزل قوله: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةً﴾ [التوبة/١٠٣][1]. ويلاحظ أن كلًّا من ثقيف، وجرش، وتميم، وطيّ أعلنت إسلامها هذه السنة. ويذكر ابن سعد أنه أرسل عدداً من المصدقين في أول المحرم من السنة التاسعة[2].

ويتبين من قائمة أسماء مصدقي الرسول (ص) أنها تشمل أهل الحجاز ابتداءً من أقصى شمالها إلى أطراف اليمن، كما تشمل أيضاً العشائر التي منازلها في الأطراف الشرقية من الحجاز، وهي طي وتميم، وكافة المصدقين رجال من العشيرة التي وُلُّوا عليها. وكثير منهم، إن لم نَقُل: كلهم، كانوا رؤساء لعشائرهم قبل إسلامهم، ولا يشذ عن ذلك إلا أربعة هم عبد الرحمن بن عوف الذي وُلِّي صدقات كلب، وأبو عبيدة بن الجراح الذي وُلِّي صدقات هذيل وكنانة ومزينة، وعباد بن بشر الأشهلي الذي ولي صدقات سليم ومزينة، والوليد بن عقبة على صدقات بني المصطلق؛ والثلاثة الأولون من المسلمين الأوائل كانوا وممن أسهموا في الغزوات والسرايا. لعل عباد بن بشر قد وُلِّي صدقات سليم مدة قصيرة ثم تلاه العباس بن مرداس، واختص بصدقات مزينة.

وأكثر العشائر، التي وُلِّيَ المصدقون عليها تقع منازلها في شمال الحجاز وشماله الشرقي. وقد جمع بعضهم صدقات أكثر من عشيرة تتقارب منازلها، وانفردت المناطق المستقرة في شمال الحجاز (قرى عربية) ومكة والطائف بولاة خاصين ثابتين على ما وُلُّوا عليه.

وإطلاق تعبير «المُصدِّقين» على هذه الأسماء تدل على أنهم أُرسلوا لغرض محدد، هو جمع الصدقات فحسب، وهو لا يستلزم إقامتهم الدائمة فيها، لأن الصدقات تُجمع عندما تتجمع العشائر على المياه في أوائل الربيع.

---

(١) الطبري ١/ ١٧٢٢.

(٢) ابن سعد ٢ ـ ١/ ١١٥.

إلا أن تعيين المصدقين، على كل عشيرة من رجالها، يستلزم إقامتهم الدائمة في العشيرة، ولعل تعزيز مكانتهم الإدارية وتوجهها نحو الإسلام، كان يرتبط بالتصديق ويجعل لهم، في ممارسة أعمالهم، استقلالاً شبه ذاتي يراعون فيه ما كان سائداً في النظم القبلية من مكانةٍ لرئيس القبيلة وشيخها.

أوردت المصادر قائمة بأسماء وُلاة انتدبهم الرسول (ص) إلى أقاليم أو مراكز حضرية، ومنها مكة والطائف، والبحرين وعُمان واليمامة، وسبعة ولاة إلى اليمن وُلِّي كل منهم قسماً منها، وسنفصل الأوضاع التي واجهها هؤلاء الولاة عند الكلام عن حركات الردة والانشقاق. ونكتفي بالقول هنا إن سلطاتهم تختلف عن سلطات المصدقين بسبب تكوين البلاد التي أرسلوا إليها مما يُظهر تسميتهم ولاة.

إن قائمة المصدقين والولاة التي ذكرتها المصادر تفصِّل ذكر كثير من العشائر التي أرسلت وفوداً معلِنةً إسلامها، وكذلك من خولهم الرسول (ص) رئاسة عشائرهم.

يعبر فرض الصدقات عن حق الدولة القانوني في جباية الأموال ممن يُسْلِم وفق أسس محددةٍ هي نصاب الصدقات، ولكنه لا يعني أنها كانت مصدراً ثابتاً لموارد بيت المال المركزي، ولا دليلَ على ازدياد الموارد بعد فرض الصدقات وإرسال المصدقين.

ولاة الصدقات

العشيرة	والي الصدقة	المصدر
كلب	عبد الرحمن بن عوف	خ، بلاذ (يقال)
طي (وأسد)	عدي بن حاتم	خ، بلاذ، المحبر، ط
أسد	الإباء بن قيس الأسدي	خ
فزارة	عيينة بن حصن	خ، بلاذ، ط (ابن سعد إلى تميم خطأ)
	عمرو بن العاص؟	سعد
مرّة	الحارث بن عوف المري	خ، بلاذ، شبه ٥٣٧
ذبيان	ابن اللبثية	سعد، مجمع الزوائد ٣/ ٨٧٥
أشجع وعبس وأنمار	مسعود بن رخيلة الأشجعي	خ، بلاذ (نعيم بن مسعود)
عذره (وسلامان وبلى)	الأعجم بن سفيان البلوي	خ، بلاذ
ثعلبة ونمير وعبد الله بن غطفان	عبد الله بن عمرو	شبة ٤٣٧
حنظلة (يربوع)	مالك بن نويرة	بلاذ، المحبر، ط، هشام ٤/ ٢٧١، الام للشافعي ٥/ ٤
عوف والأبناء	الزبرقان بن بدر	خ، بلاذ، المحبر، هشام ط/ ٢٧١

خ = تاريخ خليفة بن خياط. ط = الطبري ١/ ١٧٥٠ (عن ابن إسحاق).
ابن سعد = طبقات ابن سعد ٢ ـ ١/ ١١٥. البلاذري = أنساب الأشراف ١/ ٢٩.
ابن هشام = سيرة ابن هشام، شبة = تاريخ المدينة لابن شبة.

العشيرة	والي الصدقة	المصدر
		أم ٤/٥ شبة ٥٢٥
مقاعس والبطون	قيس بن عاصم	خ، المحبر (علي سعد)، أم ٤/٥
دارم	عطارد	خ، بلاذ (الأقرع بن حابس)
جهينة	رافع بن مكيث	بلاذ، سعد
أسلم وغفار	بريدة بن الحصيب الأسلمي	بلاذ، سعد
مزينة وهذيل وكنانة	أبو عبيدة بن الجراح	بلاذ
سليم ومزينة	عباد بن بشر الأشهلي	سعد ٣ ـ ١٧/٢
سليم	العباس بن مرداس	خ
المصطلق	الوليد بن عقبة	خ، المحبر، بلاذ (عباد بن بشر الأنصاري)
سعد هذيم	(رجل منهم)	سعد
عامر بن صعصعة	عامر بن جعفر	
عجز هوازن وثقيف وسعد بن بكر	مالك بن عوف النصري	بلاذ
كلاب	الضحاك بن سفيان الكلابي	خ، بلاذ، سعد، مجمع الزوائد ٣/ ٧٢
بجيلة وخولان	أبو سفيان	بلاذ
كعب	بشر بن سفيان	سعد
دوس	عبيد بن أبي عتبة	تفسير الطبري ٤/ ١٠٦

العشيرة	والي الصدقة	المصدر
	ولاة البلاد	
وادي القرى	عمرو بن العاص	المحبر
قرى عربية	الحكم بن سعيد	المحبر
قرى عربية: خيبر ووادي القرى وتيماء وتبوك	عمرو بن سعيد بن العاص	خ
مكة	عتاب بن أسيد	بلاذ، المحبر
الطائف	سالف بن عثمان الثقفي	بلاذ، ابن شبة ٥٠٧
	عثمان بن أبي العاص	المحبر، بلاذ
جرش	سعيد بن القشبة حليف بن أمية	خ
تبالة وهوازن	عكرمة بن أبي جهل	ابن سعد ٧ ـ ٢/
نجران	علي بن أبي طالب	خ، ط
	يزيد بن أبي سفيان	بلاذ، المحبر
	عمرو بن حزم الأنصاري	خ، بلاذ
	أبو سفيان	خ، بلاذ
صنعاء	خالد بن سعيد بن العاص	خ، بلاذ، المحبر
	المهاجر بن أبي أمية	بلاذ

العشيرة	والي الصدقة	المصدر
الجند	معاذ بن جبل الأنصاري	خ، بلاذ، المحبر
زبيد ورمع وعدن والساحل	أبو موسى الأشعري	خ، بلاذ، المحبر
كندة والصدف	المهاجر بن أبي أمية المخزومي	خ، بلاذ، ط
حضرموت	زياد بن لبيد البياضي	خ، بلاذ، المحبر
البحرين	العلاء بن الحضرمي	خ، ط
	أبان بن سعيد	خ، بلاذ، ط
عمان	عمرو بن العاص	
اليمامة	سليط بن سليط	خ

إن العشائر التي ذُكر إيفاد الرسول (ص) مصدقين لها، هي تميم التي ولاة الصدقات من رؤسائها، وطي وأسد، وفزارة، وعشائر الحجاز. وكل هذه المناطق كانت دولة الإسلام مثبتة فيها. أما المناطق الأخرى في اليمامة والبحرين وعمان واليمن وحضرموت، فكان لكل منها أوضاع خاصة سنتحدث عنها في المجلد الثاني، كما أنها لم تشمل العشائر التي وجه إليها الرسول (ص) كتباً.

روت الكتب أحاديث للرسول (ص) ذَكَر فيها أن الصدقات «تؤخذ من حواشي أموال الأغنياء لتُرَدّ على الفقراء[١]»، أي أن حصيلتها كانت تصرف محلياً، ولا يرسل إلى المدينة إلاّ ما يتبقى بعد ذلك ومقداره غير كبير، إذ لم تذكر المصادر ازدياد موارد الرسول في آخر سني حياته. وإنفاق موارد الصدقات على فقراء العشيرة أو المجتمع الذي تُجبى منه ينسجم مع المبادىء التي كان يسير عليها العرب من نصرة الضعفاء. غير أنها أصبحت في الإسلام إلزامية محدّدة، وهي مفروضة من سلطة عليا مركزية تربط كافة المجتمعات التي تنضوي تحتها بروابط عامة قائمة على العقائد الدينية ومتطلباتها، ومع أن جباية الصدقات كانت قائمة على تنفيذ ما اتفقت عليه العشائر مع الرسول (ص)، وكان المصدقون جباةً لا موظفين فقد روعيت في ذلك التقاليد القائمة، إلا أن هذه الجباية كانت تعبر عن السيطرة المركزية، وتقوم على مُثل ونُظم تؤدي إلى تقوية روابط الأمة وتثبيت السلطة المركزية العليا.

وكانت الصدقات تؤخذ من البدو والرعاة، ولذلك اقترنت بالماشية، كما اقترنت الزكاة بالمال الصامت، واقترن العُشر بالزراعة والتجارة، وتسمى عقال الصدقة[٢]. وهي تؤخذ قبل الصيف[٣] وعلى مياههم[٤].

وكان العشر على التجارة معروفاً قبل الإسلام، وقد رَفع الإسلام كثيراً منه، وجاء في كتب وجهت إلى عدة عشائر أنهم «لا يُحشرون ولا يُعشرون».

(١) ابن سعد ٣ ـ ١/ ٣٤، ٤٦؛ مسند الشافعي ١/ ٢١٩، الطبري ١/ ٢٧٣٥.
(٢) أنظر: الطبري ٦/ ٥٣، ٣٤٧٧.
(٣) ابن سعد ٥/ ٣٨٠.
(٤) أنساب الأشراف ٥/ ٢٩، الأم ٢/ ١٤.

القسم الخامس

رسالة الإسلام

ـ القرآن الكريم

ـ الدين والأمة

ـ الأخلاق والعادات الاجتماعية

ـ سجايا الرسول وخلقه

الفصل الرابع والعشرون

رسالة الإسلام
القرآن الكريم

مكانة القرآن الكريم

تتجلى رسالة الإسلام في القرآن الكريم، الذي أنزله اللّه بلفظه ومعناه وحياً على الرسول (ص)، فبلَّغه الصحابة والمسلمين ليقرؤوه ويحفظوه ويتَّبعوا ما جاء فيه. فالقرآن هو المَعِين الذي يستقي منه المسلمون مبادئ دينهم، وهو الذي يُحدِّد المجتمع الإسلامي ويقرِّر خصائصه وميزاته. ومن أراد أن يكون عضواً في المجتمع الإسلامي، فليس له أن يشذ عما جاء في القرآن، والمخالف له خارجٌ عن الإسلام.

إن القرآن هو المنبع الأساسي الأول للأفكار القانونية والتشريعية، فأحكامه واجبة على المسلمين وعليهم أن يتبعوها ويطبقوها حرفياً، وأن يستندوا إلى مبادئه في تقرير ما لم يرد فيه نص، فهو القانون الأساسي للسياسة الإسلامية.

والقرآن هو المرجع الذي استندت إليه الفرق والمذاهب الإسلامية للتدليل على صحة ما ذهبت إليه، وهو المصدر الذي رجع إليه الفلاسفة والمفكرون المسلمون في تعزيز أفكارهم وآرائهم. وإليه رجعت معظم العلوم العربية، وخاصة علوم اللسان العربي كاللغة وقواعدها ونحوها وصرفها، والبلاغة والبيان

والإعجاز والنقد الأدبي، وكان ما أورده، عن أخبار الماضين من الأمم والرسل والأنبياء والدول، أساساً لمعظم الكتابات التاريخية في هذا الميدان. حتى أهل العلوم الطبيعية رجعوا إليه للتدليل على صحة ما يقولون.

وليس في تاريخ الإنسانية كتاب كان له ما للقرآن من أثر: فإن مئات الملايين، منذ أُنزل القرآن إلى ما شاء اللّه، ما زالوا يقرأونه يومياً في مختلف أرجاء العالم، ويستمدون منه أسس أفكارهم وتنظيماتهم، ويتأثرون بلغته وأساليبه وأفكاره، ولم يؤلَّف عن كتاب بمقدار ما أُلِّف عن القرآن من دراسات وشروح وتعليقات وتحليلات واقتباسات[1].

أسماؤه ونزوله

ذكر القرآن الكريم كلمة «القرآن» بأل التعريف في خمسين آية، ومن دون أل التعريف في تسع عشرة آية، وذَكَره باسم «الفرقان» في سبع آيات، وذكره باسم «الكتاب» في حوالى ثمانين آية خص بها ما نزل على الرسول (ص)، علماً بأن «الكتاب» ذكر في عدد من الآيات الأخرى، وقُصِد بها الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى الذين سمَّاهم «أهل الكتاب».

وسُمِّي «الذكر» في أربع وأربعين آية كان القرآن الكريم هو المقصود في أكثرها. كما ذُكر القرآن باسم «الصحف»: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾ [البينة].

وأصل القرآن الكريم في اللوح المحفوظ (البروج ٢٢)، وهذا اللوح فيه أم الكتاب (آل عمران ٧، الرعد ٣٩، الزخرف ٤).

أنزل اللّه تعالى القرآن الكريم على الرسول بواسطة الروح الأمين (الشعراء ١٩٣) والروح القدس (النحل ١٠٢).

---

(١) أنظر: «معجم مصنفات القرآن الكريم» للدكتور علي شواح إسحاق؛ «معجم المعاجم» للدكتور أحمد الشرقاوي إقبال؛ وانظر أيضاً فهارس مخطوطات القرآن الكريم التي أصدرها المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية.

وقد نزل بلسان عربي مبين (النحل ١٠٣، الشعراء ١٩٥، يوسف ٢، الرعد ٣٧، طه ١١٣، الزمر ٢٨، فصلت ٣، الشورى، ٧، الزخرف ٣، الأحقاف ١٢)، وذلك ليتيسَّر للعرب فهمه وإدراكه.

الآيات والسور

تبلغ آياته القرآن ٦٢٣٦ آية. وقد ذكرت كلمة «آية» في ٣٨٠ موضعاً من القرآن، معظمها بمعنى أعمال اللّٰه تعالى المثيرة للدهشة والعجب والتقدير. وهي، في الغالب، مقرونة بفعل «أتى» أو «رأى» أو «جاء». وبعضها يصْعُب تحديد معناه من سياق كلام القرآن، غير أن معظمها يُقصد منه سورة آيات القرآن الكريم كقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة/١٠٦]، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل/١٠١]، ﴿هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران/٧]، ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب/٣٤]، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت/٤٤]، ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ وَالَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ [الرعد/١].

والآية الواحدة تكون عادة جملة مستقلة، ولكنها قد تتكون من أكثر من جملة تترابط بأحد حروف الربط. غير أن بعض الآيات يكوّن كُلٌّ منها جزءاً من جملة، أو يتكون كل منها من كلمة واحدة أو كلمتين، ولكن هذه قليلة جداً في القرآن.

والآيات منتظمة في سور. وتقسيم القرآن إلى سور يرجع إلى أوائل زمن نزوله: فقد ذكرت كلمة «السورة» في عشر آيات منها ست مقرونة بالنزول[1]. وتحدَّى القرآن المشركين أن يأتوا بسورة من مثله أو بعشر سور مثله[2].

---

(١) البقرة ٢٣؛ التوبة ٦٤؛ التوبة ٨٦، ١٢٤، ١٢٧؛ يونس ٣٨؛ النور ١؛ محمد ٢٠ (مرتين)، هود ١٣ (بصيغة الجمع/سور).

(٢) هود ١٣.

ولكل سورة اسم خاص مأخوذ من موضوعها أو أهم شيء فيها، وهذه الأسماء منوعة وأغلبها إنسانية. وفي أوائل بعض السور حروف غامضة اختلف الباحثون في تفسيرها. وتبدأ سور غير قليلة بالقَسَم، أو الاستفهام، أو بخطاب الرسول (ص) والدعاء والإنذار.

ويختلف عدد الآيات في السور، فأطولها سورة البقرة وفيها ٢٨٦ آية تبلغ كلماتها حوالي ٤٢٠٠. وفيه عدد من السور تبلغ آيات كل منها حوالى مائتين، وسور أخرى تبلغ آيات كل منها بين الثلاث والسبع، وأقصرها سورة الكوثر وهي ثلاث آيات فيها عشر كلمات. ومن حيث العموم فإن السور الطويلة موضوعة في أوائله، والقصيرة في أواخره.

وبعض السور يغلب عليها موضوع واحد مثل سورة طه، ويوسف، وأهل الكهف؛ وسورة الفاتحة دعاء. أما سورتا «الفلق» و«الناس» فهما معوَّذتان. وأغلب السور فيها آيات متعددة الموضوعات.

لغته وأسلوبه

نزل القرآن الكريم باللغة العربية، وأشار إلى ذلك في عدد من الآيات. كما أشار إلى سلامة هذه اللغة وبيانها فقال: لغته أصيلة سليمة واضحة ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزُّمر/٢٨]، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء/ ١٩٥]، ولغته السليمة المبينة هي من أدلة أصالته وعدم اقتباسه من الأعاجم ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل]، والغرض الرئيس من نزوله بالعربية هو قدرة العرب على فهمه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾[1]. وقد تكررت الإشارة في القرآن الكريم إلى أنه «كتاب مبين» في اثني عشر موضعاً، وإلى أنه «البلاغ المبين» في ست آيات.

إن مكانة القرآن البلاغية قائمة على وضوحه وعلى تعابيره البلاغية الجديدة

(١) وانظر يوسف، الزخرف ٣، فصلت ٣، الشورى ٧.

وأساليبه المؤثرة التي بهرت المشركين فاعتبروها سحراً مبيناً. وهذه البلاغة الجديدة اعتبرها المشركون من الشعر (الأنبياء ٥، الصافات ٣٦، الطور ٣٠) وقد ردَّ القرآن الكريم عليهم بقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة/ ٤١][1]، وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس].

كانت جدة أسلوب القرآن وروعته مما تحدى به المشركين ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور] ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء]. وهذه خصائص عامة تشمل جزئياته وكلياته ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ [هود/ ١٣] ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس/ ٣٨]، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة/ ٢٣]. إن الصور البلاغية الجديدة في القرآن الكريم هي من مظاهر تفرده وإعجازه التي أغنت الصور الأدبية والتعبير.

زمن النزول

لم ينزل القرآن على الرسول (ص) دفعة واحدة، وإنما نزل منجَّماً، أي متفرقاً خلال مدة ثلاثٍ وعشرين سنة. وتختلف المدة بين نزول سورة وآخرى. فقد تكون قصيرة، وقد تكون طويلة تزيد على السنة؛ ولم يرتبط زمن النزول بوقت معين، فقد ينزل في أي فصل أو شهر، أو في الليل أو النهار، كما أن مقدار ما كان ينزل كل مرة كان مختلفاً، فقد تنزل آية قصيرة، أو بضع آيات طويلة، كالآيات الأخيرة من سورة «براءة» والآيات العشر الأولى من سورة «المؤمنون»، والآيات التي عن حديث الإفك؛ وكان ترتيبها توقيفياً، أي أنه عندما تنزل آية أو آيات يأمر الرسول بوضعها في مكان يحدده بين ما نزل من آيات قبلها. ولذلك فإن آيات القرآن الكريم لم ترتب وفق زمن نزولها. وقد

---

(١) أنظر: الصافات ٣٦ ـ ٣٧.

اهتم الباحثون قديماً وحديثاً بدراسة زمن نزول الآيات، وميَّزوا عموماً بين ما نزل منها في العهد المكي للدعوة وما نزل في العهد المدني. وأُجريت محاولات لتحديد أدق لزمن نزول الآيات التي يمكن تحديد زمن نزول بعضها، وخاصة التي تشير إلى حوادث معروف تاريخ وقوعها مثل المعارك الكبرى، وبعض الحوادث كحديث الإفك، وزواج الرسول (ص) بزينب بنت جحش، ومسجد الضِّرار، وبيعة الرضوان، وفتح مكة، وخبر المخلفين.

كما أنه يمكن تحديد تعاقب نزول بعض الآيات المتعلقة بالناسخ والمنسوخ، إذ لا بد أن تكون الأولى متقدمة على الثانية، وإن كان من الصعب تحديد زمن أي منها بدقة.

اعتمد عدد من الباحثين على روايات تناقلوها عن زمن نزول كثير من الآيات، ولكنها لا تشمل كافة آيات القرآن. وحاول بعض الباحثين المُحْدَثين، ولا سيما المستشرقين، تحديد زمن نزول الآيات بالموضوعات التي تناولتها أو بأسلوب الخطاب فيها، واستخلص بعضهم قواعد عامة لأنفسهم، فاعتبروا مما نزل في العهد المكي ما كان فيه ذكر لقصة آدم، وأخبار الأنبياء، ومخاطبة أهل مكة والعرب؛ وما كانت فيه شدة في التحذير من يوم القيامة، وقوة في وصف الجنة وجهنم، وأعمال اللّه تعالى في الطبيعة، وما كان فيه كثير من القسم والتعجب وذكر الأصنام، وما يكثر في آياته السجع الموزون الذي تتشابه به أواخر كلمات الجمل فيه.

أما الآيات المدنية، فيكثر فيها ذكر الجهاد، والمنافقين ومجادلة أهل الكتاب، واليهود والنصارى، والأحكام والحدود والتشريعات، أو تشير، صراحة أو ضمناً، إلى الحوادث التي مرّ بها الإسلام، والحياة الزوجية للرسول (ص) ويتجلى في أسلوبها السرد والإنشاء، وكثير من آياتها طويلة يتكوّن كل منها من أكثر من جملة.

غير أن اعتماد تطور الأفكار والأساليب أساساً لتحديد زمن نزول الآيات لا يصح أن يكون قاعدة قاطعة: فإن كثيراً من الأفكار التي وردت في الآيات

المكية يتكرر ذكرها في الآيات المدنية، كما أن أسلوب الآيات ظل محتفظاً بسماته المميزة العامة، علماً بأن المبادىء الأساسية في الإسلام ظلت ثابتة.

نزلت في بعض الحوادث عدة آيات، فتعدد النازل والسبب واحد. كما أن عدداً كبيراً من الآيات القرآنية عامة في مضمونها ومحتواها، وخاصة ما يتصل بذات الله تعالى وقدرته وأعماله، وما يتصل بسلوك البشر وتصرفاتهم وأخبار الأمم الفائدة، والأنبياء السالفين، والأحكام العامة في الدين.

كل هذا يؤدي إلى صعوبة القيام، بصورة جازمة، بترتيب آيات القرآن الكريم تبعاً لتاريخ نزولها، بالرغم من أن معرفة زمن النزول مرتبطة بمعرفة أسبابه التي أشار عدد من الباحثين إلى أهميتها في الوصول إلى فهم أدق للقرآن الكريم ومعانيه[(١)].

وقد تلقاه الرسول سماعاً. فكان يسمع الوحي، عند نزوله بالقرآن الكريم، «مثل صلصلة الجرس»، وبعد استيعابه ينقله إلى المسلمين كلاماً وليس كتابة. والمتواتر أن الرسول (ص) لم يكن يعرف الكتابة. وفي القرآن الكريم ذكر إلى أنه كان «يتلو ويرتّل».

وأكثر ما ورد أنه كان يقرأ[(٢)]، وقد ذُكرت القراءة في الكتب في عدة آيات[(٣)]، وجاء فيه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ [الواقعة].

وفي الكتب إشارات إلى أن القرآن الكريم كان يدوّن، وذكرت المصادر أسماء عدد من «كتّاب الوحي» حتى بلغ عند البعض أربعين، ويبدو أنهم كانوا يكتبون الآيات متفرقات دون أن تجمع بين دفتي كتاب واحد، فلم يُذكر وجود مُصحف كامل قبل مصحف عثمان، وإنما كان مكتوباً على موادّ متفرقة، وقيل

---

(١) أنظر: الواحدي: الناسخ والمنسوخ ٣٢، السيوطي: الاتقان ١/٤٨.

(٢) النحل ٩٨؛ الإسراء ٤٥، ١٠١، الشعراء ١٩٩، القيامة ١٨، المزمل ٢٠، الأعراف ٢٠٤، الانشقاق ٢١.

(٣) الإسراء ١٤، ٧١؛ الحاقة ١٩.

إن ابن مسعود وابن عباس كانت لهما مصاحف كاملة. وجُمع القرآن الكريم بمصحف واحد في أيام أبي بكر.

كان السماع هو المعتَمَدَ الأكبر في نشر القرآن، وكان المسلمون يقرأون ما تيسَّر منه في الصلوات الخمس اليومية، ومنهم كثير ممَّن لم يعرف الكتابة، وكان هذا يتطلب حفظ آيات منه، وقد اشتهر بعضهم في حفظه. ويروى أنه قُتل سبعون من «الحُفَّاظ» في معركة اليمامة. وكان أبرز الحفاظ ثلاثة من الأنصار هم: أُبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت.

كان تداول القرآن بالحفظ والسماع يُعرِّضه لتنوُّع اللفظ، وخاصة في لفظ بعض حروف العلة ومدها أو تفخيمها، وأحياناً في إبدال غير مقصود لبعض الكلمات. وكان هذا قائماً منذ زمن الرسول (ص). ويروى أنه قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف كلها كافٍ شاف». واتسع هذا التنوع بعد الفتوح انتشار العرب وامتداد المسلمين، وقد ظل لِلَهجات القبائل تأثير سبَّب تشويشاً عالجه عثمان بن عفان (رض) باختيار أربعة ممن عُرفوا بالدقة والعناية بضبط القرآن، وهم: زيد بن ثابت، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث، وعبد الله بن الزبير. وكان زيد بن ثابت ممن جمع القرآن في زمن الرسول (ص)، وقبل بذل الأربعة جهوداً في جمع ما كان مكتوباً وتدقيقه مع ما هو محفوظ، وثبَّتوا له قراءة عامة واستنسخوا أربعة مصاحف أقرَّها عثمان ووزَّعها على البصرة والكوفة والشام ومصر: لتكون المرجع الأساسي الذي تنسخ منه المصاحف.

وكان عمل عثمان بن عفان في مصحفه موضع تقدير المسلمين عامة، بمن فيهم معارضوه الذين انتقدوا بعض تَصرُّفاته الأخرى. ولم يُدخلوا في نقدهم جَمْعَه القرآن. وظل مصحف عثمان، منذ إعداده إلى ما شاء اللّه، يأخذ به المسلمون في كافة أرجاء الأرض.

وقد كُتب مُصحف عثمان على الرّق بالخط الكوفي، وحروفه حادة الزوايا من غير تنقيط، وكانت نُسَخه المرجع الأم، ولكنها قليلة وظلت المعتمد الأكبر في تلاوة القرآن على الحفظ والسماع. وقد عرَّضها ذلك لاختلافات فرعية في

طريقة نُطْق بعض الحروف، سواء في مدها أو تفخيمها، أو ضبط حروفها ومواقع كلماتها، واستقرت هذه الأختلافات على قراءات شيوخ معتمدين. وأُلِّفت في القراءات كتب كثيرة، وهي اختلافات قليلة وبسيطة، وظل مصحف عثمان المعتمد الأول في ترتيب القرآن الكريم وقراءاته الأساسية[١].

أدرك المسلمون خطر الالتباس في قراءته مكتوباً بحروف غير منقوطة، فابتدعوا النقط لتمييز الحروف المتشابهة في الشكل، والحركات لضبط اللفظ[٢].

والقرآن الكريم، بوضعه الذي استقر على ما ثبته عثمان في مصحفه، مقسَّم إلى ثلاثين جزءاً ويبدو أن ترتيب مواقع السور وعناوينها اتخذ شكله النهائي في مصحف عثمان. وذكرت بعض المصادر أن عبد الله بن مسعود احتفظ بمصحفه الذي يختلف عن مصحف عثمان بترتيب السور إلا أنه لم يصلنا. ويذكر ابن النديم أنه رأى منه عدة نسخ عتيقة متباينة[٣].

في القرآن الكريم «آيات محكمات وأُخَرُ متشابهات»، وفيه مفردات بعضها واضحة المعنى، وبعضها تحتمل عدة معانٍ وتتطلب إطلاعاً واسعاً ومستوى فكرياً عالياً لفهمها وبعض آياته تحتمل عدة أقوال وتأويلات، وكل ذلك تطلّب شرح كلماته وأفكاره؛ فظهرت كتب كثيرة في توضيح معاني القرآن وشرح ما جاء فيه وتفسيره. واختلفت هذه الكتب في محتواها وسعتها، فاقتصر بعضها على جانب محدد: كشرح المفردات، أو ضبط القراءات، أو بيان قواعد اللغة فيه. وبحث بعضها ما ذكره القرآن من أخبار الأمم والأنبياء والحوادث. وعُني بعضها بشرح معاني الآيات ومراميها، وأدخل بعضهم في هذه الشروح أفكارهم وآراءهم العقائدية والسياسية. وجمع كثير منهم أكثر من جانب في توضيح القرآن وتفسيره[٤].

(١) أنظر تفاصيلها في كتاب «معجم القراءات القرآنية» لأحمد مختار عمر وعبد العال سالم.

(٢) أنظر تفاصيل ذلك في كتاب: المحكم في رسم مصحف الأمصار.

(٣) أنظر الفهرست لابن النديم ٢٨، ٢٩، الاتقان للسيوطي.

(٤) أنظر ذلك في كتاب الزركشي و«الاتقان في علوم القرآن» للسيوطي.

الفصل الخامس والعشرون

الدين والأمة

الدين

الدين هو المقوِّم الأساسي في الدعوة الإسلامية، فهو دين اللّه[1]، وهو الدين الحق[2] والدين القيم[3] ويوم القيامة هو يوم الدين[4]، وعلى الناس أن يؤمنوا باللّه «مخلصين له الدين»[5]، وأساسه التوحيد المطلق والإيمان بإلّه واحد، ويسري هذا الإيمان على التفكير الكوني العام، وعلى سلوك الناس وعاداتهم وأساليب حياتهم الدنيوية، فيجتمع في الفضيلة الكونية التي يقرها الإسلام كافة الناس بمختلف مشاربهم، لا فرق فيها بين غني وفقير، بين قويٍّ وضعيف.

والدين شريعة ينبغي اتباعها: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾

(1) البقرة ١٩٣، آل عمران ٨٣، النور ٢، النصر ٢.
(2) التوبة ٢٩، ٣٣؛ الفتح ٢٨؛ الصف ٩.
(3) يوسف ٤٠؛ الروم ٤٣؛ التوبة ٣٦.
(4) الفاتحة ٤؛ الشعراء ٨٢؛ الصافات ٢٠؛ ص ٧٨؛ الذاريات ١٢؛ الواقعة ٥٦؛ المعارج ٢٦؛ المدثر ٤٦؛ الانفطار ١٥، ١٧، ١٨؛ المطففين ١١.
(5) الأعراف ٢٩؛ يونس ٢٢؛ العنكبوت ٦٥؛ لقمان ٣٢؛ الزمر ٢، ١١.

[الجاثية/ ١٨] وقد شرعها الله للمسلمين وللأنبياء من قبل الرسول: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الشورى/ ١٣].

الإسلام والإيمان

والدين الذي بشر به الرسول (ص) ودعا إليه هو الإسلام[1]: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام/ ١٢٥]، ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزُّمر/ ٢٢]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء/ ١٢٥]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران/ ٦٥]، وفي أواخر حياة الرسول نزلت الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة/ ٣]. وقد وردت في القرآن الكريم كلمة «مسلم» في ٤٣ موضعاً، وكلمة «أسلم» في ٢٠ موضعاً، وكلمة «إسلام» في ٨ مواضع، ووردت كلمة «سلام» في ٤٢ موضعاً، «والسلم» في ٣ مواضع، والمعتنقون للدين الذي بشر به الرسول هم «المسلمون».

وأساس الإسلام هو الإيمان. والواقع أن كلمة «الإيمان» وما يتصل بها تكرر ذكرها في القرآن الكريم أكثر من كلمة «الإسلام» وما يتصل بها، فقد ذكر الفعل «آمن» بصيغة الجمع في ٢٥٨ موضعاً، وبصيغة المفرد في ٤١ موضعاً، وكلمة «مؤمن»، في ٢١٩ موضعاً. ويتميز الإيمان من الإسلام بارتكازه على العقيدة القلبية. أما الإسلام، فهو الانضمام إلى جماعة المسلمين وما يَتسمَّون به من تماسك سياسي واجتماعي معبر عن العقيدة والنظام: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات/ ١٤].

(١) آل عمران ١٩.

الإنسان الفرد

الإيمان هو جوهر الإسلام وعماده، وهو يقوم على الفرد المؤمن. فالفرد هو اللَّبِنَة الأساسية في العقيدة والأمة، وقد أولاه القرآن الكريم اهتماماً كبيراً، وذكره بعدة تعابير تؤول كلها إلى شيء واحد: فذكر «الإنسان» في ٧٢ موضعاً، و«الإنس والجن» في ثمانية عشر موضعاً، و«الرجل» في ٥٧ موضعاً، و«البشر» في سبعة وثلاثين موضعاً، و«المرء» في أحد عشر موضعاً.

ومعظم الآيات التي وردت فيها التعابير الدالّة على الفرد تؤكد على مسؤوليته الخاصة عن أعماله وتصرفاته الأخلاقية والقانونية والدينية، وعلى أساسها تكون محاسبته: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم/ ٣٩] وأنه ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة/ ١٤]، ويوم القيامة «لا يجزي والد عن ولده» [لقمان/ ٣٣]، و﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ [البقرة/ ٢٣٣]، ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران/ ١٠، ١١٦، المجادلة/ ١٧] ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الممتحنة/ ٣]، ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ/ ٣٧]، ويوم القيامة: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدّثر]، و﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة/ ٤٨].

ومرتكز الإنسان في أفكاره وعقائده هو النفس (٣١٦ موضعاً) والقلب (١١٨ موضعاً) والفؤاد (١٦ موضعاً) واللب (١٥ موضعاً)، واقترن الفؤاد في معظم الآيات بالسمع والبصر.

وتعاليم الإسلام ليست نظرية خيالية، وإنما هي واقعية ممكنة التطبيق «لا يكلف اللَّه نفساً إلاّ وسعها»[1].

---

(١) وردت عن مسؤولية النفس آيات كثيرة: البقرة ١٢٣، ٢٣٣، ٢٨١؛ آل عمران ٢٥، ٣٠، ٦١؛ الأنعام ١٦٤؛ يونس ٣٠؛ الرعد ٢٥، ٤٢؛ النحل ١١١؛ طه ١٥؛ يس ٥٤؛ الزمر ٥٦، ٧٠؛ غافر ١٧، ٢١؛ ق ٢١؛ المدثر ٣٨؛ الانفطار ١٩.

حرية الفرد

ومن المبادىء الأساسية التي أكد عليها الإسلام: مبدأ «الحرية» التي تتصل بالفرد وتصرفاته: فالمسؤولية الفردية تنبع من الحرية التي يتمتع بها الفرد في ممارسة أعماله. وانطلاقاً من مبدأ الحرية، تقوم الدعوة الإسلامية على الجدل والإقناع العقلي المستند إلى احترام الفرد وتمتعه بالحرية: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة/ ٢٥٦] ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل/ ١٢٥].

والحرية في الإسلام واسعة المدى، لا يَحدّها إلا الإضرار بمصلحة الآخرين، أو تهديد المجتمع وسلامته، أو المس بأسس العقيدة. وهي تمتد إلى ميادين واسعة كحرية التنقل والكسب بالطرق المشروعة، كما أنها تشمل دراسة الآراء والأفكار والمعتقدات وبحثها وتمحيصها للأخذ منها بما يراه المرء صحيحاً أو مُقْنِعاً بقناعة ذاتية، ودون فرض خارجي وإلزام قَسْري. فليس في الإسلام طبقة إكليروس أو كهنوت يحتكرون المعرفة ويفرضونها على الناس. ومن الطبيعي أن الرسول (ص) كانت له مكانة متميزة باعتباره النبي الذي ينزل عليه الوحي ويبلغه الناس، فهو أعرف بالإسلام ومتطلباته. أما الصحابة، فبالرغم من مكانتهم العظيمة وما يحظون به من الاحترام، فإنهم كانوا كالشراح والمُفْتين والمجتهدين وليست لآرائهم صفة الإلزام.

مكانة الفكر والإقناع

ولما كانت الدعوة الإسلامية تعتمد على قناعة الفرد وتصديقه، فقد حضَّ القرآن الكريم على استعمال العقل والتفكير وأثنى على ممارسته. وقد وردت في آيات كثيرة عدة تعابير لمختلف مظاهر المعرفة ومراحلها. وهذه بعض التعابير والمرات التي ورد فيها كل منها: الفقه (٢٠)، الفهم (١)، الدرس (٦)، المعرفة (٤٥)، النظر (٨٨)، البصر (١٤٩)، الشعور (٣٣)، الزعم (١٧)، الشك (١٥)، الظن (٦٧).

وترددت في القرآن الكريم كلمة «العقل» (٥٠)، و«الفكر» (٢٠)، و«اللب» التي وردت بمعنى العقل والتي لم ترد إلا مجموعة (١٦)، كما ذكر من أساليب الحوار «الجدل» (٢٩)، والحاج (١٣)، والبرهنة (٨)، والتيقن (٢٨) والتخرص (٥).

ووردت كلمة «علم» ومشتقاتها في ثمانمائة آية، منها ما يتصل بذات اللّه (٥٨٦)، ومنها ما يتصل بالبشر والناس (١٨٤) كما ذكر القرآن الكريم ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [الإسراء/١٠٧]، في سبع آيات، و﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [النساء/١٦٢] في آيتين، وأشاد بالعلماء فقال ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر/٢٨]، و﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة/١١].

وذكر القرآن الكريم الحكمة في عشرين آية، منها عشر قرنها بالكتاب، وواحدة قرنها بالملك، وذكر في آية أنه آتى لقمان الحكمة، وآتى داود الحكمة وفصل الخطاب، وقال تعالى ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة/٢٦٩]، وقد أوحى إلى الرسول (ص) من الحكمة (الإسراء/٣٩) وطلب إليه الدعوة إلى سبيل الله، فقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل/١٢٥].

ووصف تعالى ذاته بأنه «عزيز حكيم» (٤٨)، و«عليم حكيم» (٢٩)، و«حكيم عليم» (٦)، و«حكيم خبير» (٤) «وعليٌّ حكيم» (٢) كما وصف ذاته في آيات منفردة بأنه «تواب حكيم» و«واسع حكيم».

إن أثر القرآن الكريم لا ينحصر في آفاقه الواسعة، ونظرته الإصلاحية في المجتمع والأخلاق، وتأكيده على حرية الفرد واستعمال العقل، وإنما يمتد إلى الحركة القوية التي ولّدها عند المسلمين، بل ولّدها أيضاً عند المشركين الذين أخرجهم ظهور الإسلام من ركودهم وأثار فيهم الحركة والتفكير.

النظرة الكونية

أثار نزول القرآن ومجيء الإسلام الاهتمام بالأمور الدينية والتفكير فيها، بعد أن كانت راكدة، واقتصرت حجتهم في عدم اعتناق الإسلام على أنهم يسيرون على ما وجدوا عليه آباءهم، وأنهم على آثارهم مقتدون[1]. ويتجلى هذا الركود من الموقف السلبي للمشركين في مكة الذين اقتصروا على مواجهة الرسول (ص) والمسلمين بالسَّبِّ والشتم والأذى والأسئلة التشكيكية الهزيلة دون عرض حجج عميقة تعبر عن معتقدات حية.

عرض القرآن الكريم صوراً وأفكاراً جديدة عن ذات اللّه تعالى وأعماله وعلاقته بالبشر، ووضع للكون صورة شاملة، وأشار إلى القواعد التي تُنَظِّمه، والمبادئ التي تسيِّره. وقد شملت هذه الصور ما في الكون من أمور فلكية ومادية.

وأبدى القرآن الكريم اهتماماً خاصاً بالإنسانية في حاضرها وماضيها ومستقبلها، فذكر عدداً من الشعوب والأمم، والرسل والملوك، والحضارات والمجتمعات القديمة، وأشار إلى أحوالها وتطوراتها، وعوامل ازدهارها وأسباب انهيارها. وأبرز وجوب دراستها لاستخلاص القواعد العامة التي تُنْظِّم سير البشرية وتتحكم في تطورها.

ووضع القرآن الكريم مُثُلاً عُلْيا جديدة للحياة في مختلف الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وهي تشمل الأفكار والسلوك، فأبرز فكرة الأمة التي تعبر عن الجماعة المتماسكة، والمصلحة العامة التي هي مصدر القوة والسلامة، وبيَّن أحوالها وشروط نموها.

وعُني القرآن بعدد من جوانب الحياة اليومية فعالجها: فأمر بإلغاء بعضها وإبطاله، أو تعديله، أو إبقائه بما ينسجم مع الحياة الجديدة التي دعا إليها. وشملت هذه المعالجات جوانب مما ندعوه الأحوال الشخصية من رَضاعة

---

(١) أنظر الزخرف ٢٢ ـ ٢٤؛ البقرة ١٧٠؛ المائدة ١٠٤.

وميراث وزواج وطلاق، وكذلك المعاملات المتعلقة بالبيع والشراء والإجارة، وغيرها مما نجده بشكله النامي في الموضوعات التي عالجتها كتب الفقه.

الرابط الديني

وقوام العلاقة بين الإنسان وخالقه أن اللَّه تعالى له ما في السموات والأرض، وهو خالق كل شيء، ومالك كل شيء، وقادر على كل شيء، وعالم بكل شيء، وهو رب العالمين، والجميع عباده. وعلى المرء أن يخاف اللَّه (ذكرت في ١٥ آية)، ويخاف عذاب يوم القيامة (٤٠ موضعاً). والمؤمن يخشى اللَّه (٣٠ موضعاً)، ويكون خاشعاً للَّه (١٠ مواضع): ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. وأبرز سمات المؤمن أنه يتقي اللَّه (١٦٥ موضعاً) فالمؤمنون متقون (٤٨ موضعاً)، وعليهم بالتقوى (١٨ موضعاً)، والتقوى تتطلب الخوف والحذر وتَجَنُّب ما لا يُرضي، ومن التقوى العدل، والعفو، وتعظيم شعائر اللَّه، والتزكية بالمال. والمتقون هم أولياء اللَّه، وأكرم الناس عند اللَّه أتقاهم.

الأمة

ذكر القرآن الكريم للجماعة التي تتماسك بالرابطة الدينية تعبيرين هما «الملة» و«الأمة». وكل منهما يتعين بمن تُنسب له، وقد يكون فرداً أو جماعة. والكلمتان عربيتان ولكن معناهما لا يتصل بمعنى جذرهما فلا علاقة بين الملة وجذرها «ملّ»، أو بين الأمة وجذرها، أي «الأم».

أما الملة، فقد ذكر القرآن الكريم منها الكافرين[1]، واليهود والنصارى[2] وقوم شعيب[3]، غير أن أكثر ما ذُكرت الملة مقترنة بإبراهيم: لقد ذكر ملة

---

(١) يوسف ٣٧؛ إبراهيم ١٣.

(٢) البقرة ١٢٠؛ الكهف ٢٠.

(٣) الأعراف ٨٨.

إبراهيم[١]، وملة إبراهيم حنيفاً[٢]، وقد سبق أن ذكرنا إشارات القرآن الكريم إلى علاقة الدين الإسلامي الذي بشر به الرسول بدين إبراهيم الحنيف.

وأما الأمة، فكانت أكثر وروداً في القرآن الكريم، وهي كلمة عربية أصيلة، وردت في القرآن في ثلاث وستين آية، خمسون منها بصيغة المفرد، ومنها آية تَذْكر أن الطير أمة[٣]، وآية تذكر أن إبراهيم كان أمة[٤]. غير أن الآيات الأخرى كلها تشير إلى أن الأمة جماعة من الناس ترتبط بعقيدة واحدة.

ذكر القرآن الكريم أن الناس كانوا أمة واحدة، ثم اختلفوا[٥]، وأن اختلافهم بإرادة اللّه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[٦]، ولكل أمة رسول[٧]، وقد لَقِي الأنبياء من أممهم مقاومة: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ﴾ [غافر/ ٥]، ولكل أمة منسك[٨]، وأجل[٩]. ويُحشر الناس يوم القيامة تبعاً لانتماءاتهم إلى الأمم[١٠]، ويُبعث في كل أمة شهيد[١١]. وقد سبقت أمةَ الإسلام أمم[١٢]، لكل منها ما كسبت[١٣]، ومن الأمم من يهدون بالحق ويعدلون[١٤].

---

(١) البقرة ١٣٠؛ يوسف ٣٨؛ الحج ٧٨.
(٢) البقرة ١٣٥؛ آل عمران ٩٥، النحل ١٢٣.
(٣) الأنعام ٣٨.
(٤) النحل ١٢٠.
(٥) البقرة ٢١٣؛ يونس ١٩.
(٦) المائدة ٤٨؛ النحل ٩٣.
(٧) يونس ٤٧، النحل ٣٦؛ المؤمنون ٤٤؛ فاطر ٢٤؛ الرعد ٣٢.
(٨) الحج ٣٤، ٦٧.
(٩) الأعراف ٣٤؛ يونس ٤٩.
(١٠) النمل ٨٣؛ الجاثية ٢٨.
(١١) النحل ٨٩؛ القصص ٧٥؛ النساء ٤١.
(١٢) الرعد ٣٠. وانظر: العنكبوت ١٨؛ فاطر ٤٢؛ فصلت ٢٥؛ الأحقاف ١٨.
(١٣) البقرة ١٣٤، ١٤١؛ الأنعام ١٠٨.
(١٤) الأعراف ١٨١.

والمسلمون أمة لها مكانة متميزة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة/ ١٤٣]، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران/ ١١٠]، ومن الممكن أن تنبعث، من أمة الإسلام، ﴿أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران/ ١٠٤].

التجمعات البشرية ضمن الأمة

إن تكوّن «الأمة» لا يُلغي التجمعات البشرية الأخرى. وقد ذكر القرآن الكريم تقسيمات عامة للبشر تتكون من الشعوب والقبائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات/ ١٣]. أما «الشعوب»، فلم يرد ذكرها في القرآن في غير هذه الآية؛ وأما القبيلة، فقد وردت في آيتين لا صلة لهما بالناس، إحداهما عن الشيطان: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف/ ٢٧]، والأخرى عن اللّه تعالى: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء/ ٩٢].

وذكر القرآن الكريم عدة تعابير عن التجمعات البشرية، وأكثرها تردداً كلمة «قوم» التي ذُكرت مع مشتقاتها في ٣٨٥ موضعاً، منها حوالي مائة موضع خُصَّت بها أقوام الأنبياء، ولا سيما نوح وموسى. وأكثر ما ذكرت بمعنى المجموعة البشرية التي تتماسك سياسياً واجتماعياً، فذكر القرآن الكريم وجوب مقاتلة الكفار: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾ [النساء].

وأكثر الآيات التي ذكرت فيها «الأقوام» أشارت إلى مواقفهم الدينية فذكرت

الذين هم ظالمون، وكافرون، وفاسقون، ومجرمون، وضالون، أو أنهم يؤمنون، ويعلمون، ويعقلون، ويفقهون، ويذكرون، ويتفكرون، ويشكرون.

ويظهر مما تقدم أن كلمة «قوم» أطلقت على الجماعة التي يقيم أفرادها مجتمعين، وتربطهم روابط فكرية وعقائدية تَتَّسم بسِمةٍ خاصة: فهم غير القبيلة أو العشيرة التي يرتبط أفردها برابطة النسب والدم؛ غير أن هذا لا ينفي احتمال أن يكون «القوم» مكونين من قبيلة واحدة. ولا يَخْفى أن كثرة ورود كلمة «قوم»، وقلة ورود كلمة «قبيلة»، يدلّان على أن هذا التعبير كان أكثر شيوعاً في زمن الرسول (ص)، وأنه يشمل ذوي الأفكار المتشابهة، سواءاً كانوا من عشيرة واحدة، أم كانوا من عدة عشائر. ومما يختلف فيه مفهوم «القوم» عن مفهوم «القبيلة» أو «العشيرة»: أن القوم يقيمون معاً، وقد يكون بينهم اختلافات، أما القبيلة والعشيرة فقد يتوزع مقام أفرادها في عدة أماكن، فهي لا تُلزِم أفرادها بالإقامة معاً.

والمساواة بين أفراد القبيلة والعشيرة أظهر: لأنهم منحدرون عن جَدٍّ واحد. أما القوم، فإن تماسكهم ووحدتهم لا تنفي وجود اختلافات بينهم، في النسب أو في الأمور الأخرى. وقد أشار القرآن الكريم إلى عدم التساوي في المجتمع فقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام/ ١٦٥]، ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ [النحل/ ٧١]، ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة/ ١١]، ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء/ ٩٥]، ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء/ ٣٤]. ولعل هذه المفاضلة في الإسلام غير بعيدة عن المفاضلة في رجال قوم بعينهم.

وذكر القرآن الكريم «الأهل» في مواضع متعددة بمعنى سكان منطقة معينة، و«أهل القرى» (٥ مواضع)، و«أهل المدينة» (٣ مواضع)، «وأهل يثرب» (١) وأهل البيت (٢) وأهل مَدْيَن (٢).

كما ذكر «الأهل» للدلالة على جماعة لهم رابطة دينية: أهل الكتاب (٣٠)، أهل الإنجيل (١)، أهل الذكر (٢)، أهل التقوى (١)، أهل المغفرة (١)، أهل النار (١). وذكر «أهلك» في ٩ مواضع.

وكلمة «أهل» تشير إلى جماعة مرتبطين بأرض معينة أو بعقيدة معينة بصرف النظر عن نَسَبهم.

وذُكرت كلمة «ذو» عدة مرات صفةً لما للّه من صفات وقدرة، وذكرت أيضاً مقترنة بالقرابة، فأمر بأن يُحْسَن إلى ذي القربى[1] وأن يُؤتَى حقّهم[2]، على أن لا يتعارض ذلك مع مبدأ العدالة[3]. ومن الواضح أن القرابة تقوم على الدم، وتدعو إلى التماسك. ولكن حدودها غير دقيقة، وهي وحدة أصغر من القوم والقبيلة والعشيرة.

وذكر القرآن الكريم «البيت» في ٦٥ موضعاً بمعنى البناء الذي يأوي إليه الناس، وذكر بيت اللّه في مكة. وذكر أهل البيت في موضعين.

---

(١) البقرة ١٧٧؛ النساء ٣٦؛ الأنفال ٤١؛ البلد ١٥؛ الحشر.

(٢) الإسراء ٢٦؛ الروم ٣٨.

(٣) الأنعام ١٥٢؛ المائدة ١٠٦.

الفصل السادس والعشرون

الأخلاق والعلاقات الاجتماعية

الأخلاق الإسلامية

أبدى القرآن الكريم اهتماماً كبيراً بالأخلاق، أي سلوك الفرد المنبعث من إرادته، المُعَبِّر عما في نفسه وما في قلبه، ضمن نطاق الجماعة ومصلحتها. وكانت للسلوك الأخلاقي مكانة متميزة في الإسلام: فهو جزء من العقيدة الإسلامية التي أساسها الإيمان بإلّه واحد يملك الكون وينظمه، ويبعث الخلق بعد موتهم فيحاسبهم على أعمالهم في الدنيا ويَجزيهم عليها، فالسلوك الأخلاقي جزء من نظام كوني شامل موحَّد له قدسية مستمدة من خالقه ومسيِّره.

والسلوك الأخلاقي قائم على أسس عقلية تبرره، فهو ليس مجرد تقليد أعمى، أو سيراً على سنن موروثة دون إدراك لأهميتها وآثارها، وإنما يقوم على النظر والبصر والتفكير في مظاهر الكون الشاملة، والتأمل في مسيرة البشرية في الماضي، والإيمان بفكرة الخلود التي لا تقتصر على الحياة الدنيا، بل تمتد إلى الحياة الآخرة. فمبادىء السلوك الأخلاقي مبادئ عالمية في نظرتها، واسعة في أفقها، ممتدة في مداها، وهي بذلك تبعث الأمل، وتُشيع التفاؤل، وتعبر عن مصلحة الإنسانية جمعاء دون أن تحدَّد بنطاق الفرد أو القبيلة ومصالحها الدنيوية الضيقة.

العمل الصالح والبر

نَعت القرآن الكريم السلوك المَرْضِيَّ في الإسلام بكلمة «صالح»، وقد تكرر في القرآن ذكر العمل الصالح في ٣٦ آية و«وعملوا الصالحات» في ٥٩ آية «والصالحون» في ٢٦ آية. وقد اقترن العمل الصالح بالإيمان في ٦٩ آية. وذكر أن الذين يؤمنون ويعملون الصالحات لهم الجنة (٢٢ موضعاً)، ولهم أجرهم (١٩ موضعاً) وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف/ ١١٠]، ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فصلت/ ٤٦]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾ [البينة] و﴿لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥﴾ [طه]. وقد يتصل بهذا التوبة والإصلاح (١٢ موضعاً)، والإصلاح في الأرض (٦ مواضع).

وورد في القرآن الكريم تعبير «البرّ» للعمل المقدّر في الإسلام: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣﴾ [الانفطار]، وطلب التعاون على البر والتقوى[1]، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[2]، وأنه ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ [آل عمران/ ٩٢].

ومما يوضح الأخلاق الإسلامية ما ذُكِر عن نقيضها من أخلاق الكفار. فقد وُصف المشرك بأنه عاصٍ، وفاجر ومُسْرف، ومفسد، وخرّاص، ومتجبِّر، ومتكبر، وطاغٍ، وباغٍ، وظالم، ومُعْتَدٍ، ومستغن، وفي قلوبهم حمية الجاهلية.

التواضع

ويقوم سلوك المسلم على إدراك عظمة اللّه، والخوف منه ومن حساب يوم القيامة. وهذا الخوف يولّد إحساساً بجدّية الحياة وامتدادها، ويدفع إلى الاهتمام بالمسؤولية الأخلاقية التي لن تتحقق كاملة بدون الإيمان باليوم الآخر، فالخوف مبدأ ديني وأخلاقي قائم على أساس الوحدانية.

---

(١) المجادلة ٩.
(٢) البقرة ١٧٧.

والخوف يدفع المسلم إلى التواضع والترفع عن الصغائر، ويدفعه إلى صفاء القلب: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان]، ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان/ ٧٢]. وخاطب تعالى الرسول (ص)، وهو قدوة المسلمين فقال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان]، ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران/ ١٥٩]. ويلاحظ أن الإسلام هو التسليم لله، ويتطلب التقوى من الله والتضرع إليه والخوف منه، فالمسلمون يخشون الرحمن، وإذا ذُكر اسم الله وَجِلَت قلوبهم. ويتصل بالتواضع الحلم والتعاون والدماثة والجدِّية ونقاء القلب، ويحل ذلك محل النخوة الجاهلية. والسَّفه والعنف والتهور.

وقد ذم القرآن الكريم الجهل، ومعناه في الأصل انعدام العلم، وبهذا المعنى ورد في عدة آيات: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة/ ٢٧٣] ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء/ ١٧]، ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف]، ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يوسف]. غير أن أكثر ما ورد الجهل في القرآن بمعنى عدم معرفة الدين والخالق وما يدعو إليه.

ووردت في القرآن «الجاهلية» وحكمها المخالف لحكم الله والإسلام ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران/ ١٥٤]، ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة]، ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح/ ٢٦]. وهذه الحمية الجاهلية تقابل السكينة التي أنزلها الله على قلوبهم: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة/ ٢٦]. ومن الواضح أن السكينة تعني الهدوء وضبط النفس المنبعث من الاتزان الخلقي القائم على استخدام العقل، والسير بمقتضاه في مواجهة الأحداث.

وكان إنكاره المُثُل الجاهلية مقصوراً على ما فيها من عنف ومناقضة للحياة الحضرية السليمة التي دعا إليها، مما أمَّن استمرار الحياة بعد تنقيتها من شوائب العنف. يروي أبو هريرة أن الرسول (ص) قال: «الناس معادن، تجدون خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام ما فقهوا»[1]. ورَوَى ابن حنبل «يعمل في الإسلام بفضائل الجاهلية»[2]. وذكر البخاري مما أبقاه الإسلام مما كان قائماً في الجاهلية: «الفطرة خمسٌ أو خمسٌ من الفطرة: الختان والاستخذاء، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، وقص الشارب»[3].

الأسرة

يُكَوِّن الاستقرار علاقات شخصية من التقارب أو ويكون فأما التقارب بصورة صداقة، أو صحبة، أو أُخوَّة.

أما الصحبة، فقد وردت في آيات كثيرة بمعنى الملك والهيمنة، وذكر منها أصحاب الجنة، والنار، والأعراف، والصراط السوي، والميمنة، والمشأمة، وأصحاب بعض الأماكن ومنها: مَدْيَن، والأَيْكَة، والحِجْر، والكهف، والأُخدود، والقرية، كما ذكر أصحاب السبت، وأصحاب الفيل.

غير أن عدة آيات ذكرت الرسول (ص) بأنه صاحب الحق، وذلك في معرض رده على ادّعائهم بأنه ضل، أو غوى، وأنه مجنون، وذكر صاحب الرسول في الغار، ويقصد بذلك أبا بكر عندما صحبه في الهجرة إلى المدينة. وقد وضع الصاحب بعد الابن وقبل الأخ في قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾﴾ [المعارج].

أما كلمة «الأخ»، فقد استعملت للتعبير عن الرابطة بين الجماعة المتماسكة

---

(١) مسلم ٤٤ ـ ٤٩، ابن حنبل ٢/٢٥٧، ٣٩١، ٤٣١.
(٢) ابن حنبل ٣/ ٤٢٥.
(٣) البخاري: لباس.

فسمى بهذا الاسم أتباع عاد، وثمود، ومَدْيَن. وقد أصبح المسلمون إخواناً ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران/ ١٠٣] ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر]، ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة/ ١١].

الآباء

وذكرت كلمة «أبٌ» بصيغة المفرد والجمع في ١٢٣ منها ٢٨ عن يوسف. وهي تعني في بعض الآيات الفرد الذي تحدر منه الآخرون، أي ليست دائماً مرادفة للوالد. ولم تذكر كلمة جد.

وذُكر الوالد في ثلاث آيات، والوالدة في أربع آيات، والوالدان في عشرين آية، وذُكر الولد في ست وخمسين آية، والوِلْدان في ست آيات، والمولود في ثلاث آيات، وذكرت الذرية ومشتقاتها في ثلاث وثلاثين آية، وهو تعبير يتصل بوراثة الدم وتتابع الأجيال. والآيات التي تذكر الأولاد تُظهر مكانتهم الأساسية في المجتمع، فإنهم مع الأموال مصدر القوة للأفراد[1]. وأوصى القرآن بالوالدين إحساناً[2] و﴿مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة/ ٢١٥]. وعلى المرء طاعة الوالدين: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء/ ٢٣].

غير أن طاعة الولد للوالد لا تَطْغَى على العقيدة: ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان/ ١٥]. والواقع أن من أسباب دوام الشرك متابعة الأبناء عقائد وسنن آبائهم. والولاء للإسلام: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) التوبة ٦٩، ٥٥، ٨٥؛ المنافقون ٩؛ نوح ٢١؛ الإسراء ٦٤؛ الحديد ٢٠؛ آل عمران ١٠، ١١٦، المجادلة ١٧.

(٢) البقرة ٨٣؛ النساء ٣٦؛ الإسراء ٢٣؛ العنكبوت ٨؛ الأحقاف ١٥.

ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [التوبة/٢٣]، ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف/٢٤][١].

وقد ذكر القرآن خصومة الأزواج والأولاد بسبب العقيدة ﴿مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن/١٤]. ويوم القيامة يتحمل كل فرد مسؤولية عمله، ولا يجزي الوالد عن ولده ولا المولود عن والده.

المرأة والأسرة

أساس تكوُّن الأسرة هو الرجل والمرأة يتزوجان فيُكوِّنان بيتاً ينجب الأولاد. ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء/٣٤]. وعلى الزوج أن يحسن معاملة زوجته ولا يتسرَّع في الانفصال عنها: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء]. والزواج عَقد رِضائي مُلْزِم. وللمرأة أن تتزوج بموافقة وليِّها، وترث ربع مال الرجل إن لم يكن له ولد، وسدس ماله إن كان له ولد[٢] ولا يحق للرجل أخذ ما أعطاه لزوجته إذا طلقها[٣]، وليس للمتوفي عنها زوجها أن تتزوج إلاّ بعد أربعة أشهر وعشرة أيام من وفاته[٤]، وللمرأة حق التملك والإرث، وكن يبايعن على الإسلام بأنفسهن.

---

(١) عن متابعة الأولاد عقد آبائهم. أنظر: البقرة ١٧٠؛ المائدة ١٠٤؛ الأعراف ٢٨؛ يونس ٧٨؛ الأنبياء ٥٣؛ الشعراء ٧٤؛ الزخرف ٢٢، ٢٣؛ سبأ ٤٣.

(٢) النساء ١١.

(٣) النساء ٢٠.

(٤) البقرة ٢٣٤.

وعلى المرأة أن تكون مُحْصَنة غير مسافحة[(١)]، وليس لها أن تَقْرَب الزنى لأن الزنى ﴿كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء/ ٣٢]، ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور/ ٣]. وعقاب الزنا مائة جلدة[(٢)] ومن شروط بيعة النساء ألّا يَزْنين[(٣)].

أباح الإسلام تعدد الزوجات إلى أربعة، وشَرَطَ في ذلك العدالة بينهن[(٤)]، وحرَّم أن يَعْضُل الرجل المرأة التي يهجرها ويمتنع من طلاقها ليحرمها من الزواج بغيره[(٥)]، كما حرم الطلاق أكثر من مرتين[(٦)] ومنع الظِّهار، أي أن يقول لها: أنتِ عليَّ مثل ظَهْر أمي[(٧)]، كما منع التزوج بزوجة الأب[(٨)]. وأباح للمسلم الاتصال بمن ملكت يمينه من الجواري[(٩)]. ولم يبح للنساء التبرج. وحرَّم الزواج بالأم والأخت والعمَّات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت.

وثبَّت الرسول للأسرة والعلاقات بين أفرادها نظاماً موحداً ومفصلاً، يتجلّى في ما نسميه اليوم الأحوال الشخصية بما تشمله هذه الأحوال من الزواج والطلاق، والرضاعة، والميراث. وبذلك زالت الممارسات الشاذة المتعددة التي كانت قائمة من قبل في المجتمع الجاهلي، وكان هذا النظام ملائماً لمتطلبات التماسك الاجتماعي في زمانه وفي الأزمنة التالية، فتابع المسلمون السير عليه من غير تساهل، واعتُبر الخروج عليه شذوذاً ونفوراً. ومما زاد في قوته الآيات

---

(١) النساء ٢٤ ـ ٢٥.
(٢) النور ١.
(٣) الممتحنة ١٢.
(٤) النساء ٣.
(٥) البقرة ٢٣٢.
(٦) البقرة ٢٢٩.
(٧) المجادلة ٢ ـ ٣.
(٨) النساء ٢٢.
(٩) المؤمنون ٦؛ الأحزاب ٥٠.

المتعددة التي ثبّتت بوضوح تفاصيله، وساعد ذلك بالإضافة إلى آثاره المفيدة في تنظيم الأسرة والمجتمع، على ثبوته باعتباره أمراً إلّهياً ومُكوّناً أساسياً للمعايير الأخلاقية. والواقع أن التطورات الواسعة في عدد كبير من جوانب حياة المسلمين لم تمتد إلى هذا النظام الموحَّد الذي ظل صامداً بوجه كثير من الهزات والتحديات، فكان من أبرز سمات المجتمع الإسلامي. ودوامه عبر القرون الطويلة وما حدث فيها من تطورات يؤيد أنه واقعي من جهة، وعامل في تماسك المجتمع واستقراره من جهة أخرى.

وقد عزّز القرآن الكريم، بآيات كثيرة، تماسك الأسرة، فكان الحفاظ عليه واجباً دينياً، وتعبيراً على المثل الأخلاقية التي دعا إليها الإسلام، فأكدت عدة آيات وجوب طاعة الوالدين وحسن معاملتهم، ورعاية الأقربين وتفضيلهم في عمل الخير: «الأقربون أولى بالمعروف»، كما حث على وجوب رعاية اليتامى والحفاظ على أموالهم والعناية بهم، وكذلك العناية بالفقراء والضعفاء.

إن هذا التماسك في الأسرة وفي المجتمع يَجري ضمن النطاق العام للأمة، ووفق الأسس العقائدية والأخلاقية التي دعا إليها الإسلام، وهذه الأسس هي قاعدة الروابط الموجهة، فإذا عارضتها الممارسات والتطبيقات، فإن لها الأفضلية. فأما في العقائد، فإن طاعة الوالدين تقف عند حد العقيدة التي لا يجوز تجاوزها، فالولد يحتفظ باحترامه لوالديه ويطيعهما، إلا إذا أرادا منه أن يُشرِك بالله ويخرج عن الإسلام، ففي هذا الحد لا يصح طاعتهما: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان/ ١٥].

ووضع الإسلام حدًّا للعلاقة الزوجية، فليس للمسلمة أن تكون زوجة لغير المسلم، ولكن للمسلم أن يتزوج غير مسلمة ويكون الأولاد تبعاً للأب.

العلاقات الاجتماعية

والعلاقات الطيبة بين الناس تكون بمستويات متدرجة تبدأ بالتعارف فالألفة، فالحب. أما التعارف، فهو أول مراحل التفاهم، وقد ذُكر في آيتين. وتتلوه الألفة وقد ذكرت في آيتين أيضاً. وأما الحب، فقد ذكر في آيات كثيرة تصف موقفه تعالى من المحسنين، والتوابين، والمقسطين، والناصحين، والمُطهَّرين، والمقاتلين في سبيل اللّه. ويقابل ذلك أن اللّه تعالى لا يحب الكفار، والظالمين والمفسدين، والمترفين، والمستكبرين والمختالين. وقد حُبِّب للناس الحياة الدنيا، والعاجلة، والشهوات من النساء والبنين. وأعلى درجات المودة هي الحميم: «صديق حميم»، «ولي حميم». وأقصى درجات الخصومة هي العدو اللدود، والعدو المبين.

دعا الإسلام إلى التعاون والتناصر ومساعدة الضعيف، وأكد الرفق باليتامى والفقراء والمساكين واعتبره من خصائصه التي تميزه من الكفار قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ [الضحى]، ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ [الماعون] ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨﴾[1] [الفجر]. وحث على وجوب الإحسان إليهم وإعطائهم[2] من الخمس[3] وقال إن من يأكلون أموال اليتامى ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[4].

وأمر بالإحسان إلى الفقراء، وخصَّ الصدقات ﴿لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة/ ٦٠]. وخصَّ ذوي القربى بحسن المعاملة.

(١) أنظر عن إطعام اليتيم والمسكين: الإنسان ٨؛ البلد ١٥.
(٢) البقر ١٧٧، ٢١٥، ٢٢٠؛ النساء ٢، ٨.
(٣) الأنفال ٤١، الحشر ٧.
(٤) النساء ١٠.

ودعا إلى الصدق في المعاملة والوفاء بالعهد ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء] ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟﴾ [البقرة/ ١٧٧]. وقد ذكر العهد في ثماني آيات، والذين يعاهدون الله في إحدى وعشرين آية.

ودعا إلى التمتع بالحياة والزينة: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ﴾ [المائدة/ ٨٨][1]، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ﴾ [الأعراف/ ٣٢]، ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [الكهف/ ٤٦].

موقف الإسلام من النشاط الاقتصادي

وطالب القرآن الكريم الناس بالاعتدال في الصرف، وتجنب التطرف في الإسراف والتبذير أو الشح والتقتير، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ [الإسراء]. وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام]، ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر/ ٤٣] ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الذاريات] ووصف المسلمين الصالحين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ [الفرقان/ ٦٧]. ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ﴾ [الأعراف/ ٣١]، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء]، ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ﴾ [البقرة/ ١٩٥].

وذم القرآن الكريم البخل، ولم يعتبره من الخير: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ﴾ [آل عمران/ ١٨٠] ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر/ ٩، التغابن/ ١٦]، وذمّ كانزي الأموال:

(١) أنظر الأنفال ٦٩؛ النحل ١٤؛ البقرة ١٧٢، ٢٦٧؛ طه ٨١.

﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة/ ٣٤]، ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل] ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محمد/ ٣٨].

واعتبر الإنفاق المعتدل من الخير، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة].

وأحل الله البيع، وأباح التجارة بين الناس يديرونها بينهم[1]، وعن تراض منهم، وأخضع المعاملات التجارية للقواعد الأخلاقية القائمة على العدالة ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ [الإسراء/ ٣٥]، ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف/ ٨٥]، وذمّ الغش بالميزان وأنذر القائمين به بسوء العواقب: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين].

وحرّم القرآن الربا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عمران/ ١٣٠]، ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ﴾ [البقرة] ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ﴾ [الروم/ ٣٩].

---

(١) البقرة ٢٧٥.

الجهاد

وحثَّ القرآن على الجهاد والقتال في سبيل الله في آيات كثيرة، وأَمَرَهم بالثبات وإظهار الشجاعة وذم الهزيمة في القتال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال].

الفصل السابع والعشرون

سجايا الرسول (ص) وخلقه

صفات الرسول (ص) وخلقه

نُقل عن عدد من الصحابة قولهم: إن الرسول (ص) كان «أبيض اللون مُشْرباً بحمرة، أدعجَ العينين، سَبِطَ الشعر، كثُّ اللحية، سهل الخد، ذا وفرة، دقيق المسرُبة، كأن عنقه إبريق فضة، له شعر من لُبَّتهِ إلى سُرَّته تجري كالقضيب، ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره، شَثْنُ الكف والقدم، إذا مشى كأنما ينحدر من صَبَب، أو كأنما يتقلّع من صخر، إذا التفت التفت جميعاً، كأن عرقه في وجهه اللؤلؤ، لَريحُ عَرَقِهِ أطيب من المسك الأذفر، ليس بالقصير ولا بالطويل»[1].

كان مسلكه في الحياة مألوفاً، فلم يدَّعِ أعمالاً خارقة للسير المادي للكون، وأشار القرآن الكريم إلى ذلك: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٨﴾ [الفرقان]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ

---

(١) ابن سعد ١ ـ ٢/٢٠، أنساب الأشراف ١/٣٩١، ٣٩٤.

جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء]. ومما يتّبع ذلك أن حياته محدودة تنتهي بالموت ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر]، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران/ ١٤٤].

ولكنه تفرّد عن البشر من حيث أنَّ الله اختاره وأنزل عليه الوحي من دون الناس: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف/ ١١٠]، وعليه أن يبلغ رسالات ربه[1]، فهو بشير ونذير[2]. غير أن هداية الناس هي من الله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة/ ٢٧٢] ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص/ ٥٦].

كان صادقاً مخلصاً في تبليغ الرسالة ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة].

وكان يستغفر اللّه ويدعو أن يثبّت أقدامه: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون]، ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر/ ٥٥]، ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد/ ١٩]، ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [النصر]. والاستغفار ليس دليل الأخطاء، وإنما هو مظهر التواضع الذي تميز به الرسول: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ

(١) المائدة ٦٧؛ الأعراف ٦٢، ٦٨؛ الأحقاف ٢٣.

(٢) البقرة ١١٩؛ المائدة ١٩؛ الأعراف ١٨٨؛ الإسراء ١٠٥؛ الفرقان ٥٦؛ سبأ ٣٨؛ فاطر ٢٤؛ الأحزاب ٤٥؛ الفتح ٨؛ فُصّلت ٤.

ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران/ ١٥٩] ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل/ ١٢٥] ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت].

وذكر القرآن الكريم ما يتميز به من الخلق العظيم، والثبات على الإيمان، والانسجام بين العقيدة والفعل مما جعله مثالاً يحتذى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم]. ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب/ ٢١].

وكان لا يتساهل في أمر الرسالة، ولا يلين في المخاصمة لها. فإذا استسلم الخصم تسامح وعفا ونسي الأضغان، وظهرت صلابته عندما شدّد عليه المشركون في مكة، ثم جاؤوا يبذلون له الوعود إن ترك الدعوة أجاب: «والله لو وضعوا الشمس بيميني والقمر بشمالي ما تركت هذا الأمر». وتجلى عفوه وسماحته عندما فتح مكة واستسلمت قريش فعفا عنهم وصفح وقال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». ولم يسترجع داره التي صودرت، وكان يقبل أبسط الأعذار للصفح عن المسيء. وقد استخدم بعد فتح مكة كثيراً ممن ناصبه العداء من زعمائها، وأغدق عليهم الهبَات وأوكل لبعضهم أعمالاً في خدمة الأمة.

وكان في حياته المعاشية بسيطاً في مأكله وملبسه ومسكنه، حريصاً على النظافة محباً لها، ورويت عنه أحاديث كثيرة في مقت الشَّرَه في الطعام والبذخ في اللباس، كما رويت أخبار كثيرة عن أن أكثر طعامه الأسودان التمر وخبز الشعير، وكان يسهم في أعمال البيت فيرقع ثوبه ويخصف نعله.

إن ما ذكرناه أعلاه عن سجاياه إنما هو مجرد خطوط عامة تكون أساساً لدراسات واسعة أفاض عدد من الأقدمين في الكتابة عنها ولا يزال المجال مفتوحاً لمتابعتها وإكمالها.



القسم السادس

حركات التحدي والانشقاق والقضاء عليها

- مبايعة أبي بكر خليفة
- اليمن والإسلام
- حَضْرَموت ومهرة والإسلام
- حركة طليحة بن خويلد
- تميم وموقفها من الإسلام ودولته
- حركة سجاح
- اليمامة وحركة مسيلمة
- البحرين
- عُمان وحركات الانشقاق فيها
- السمات العامة لحركات الردة

الفصل الثامن والعشرون

مبايعة أبي بكر خليفة

الصحابة وأهل المدينة عند وفاة الرسول (ص)

توفي الرسول (ص) إِثْرَ مرض مفاجئ قصير بعد أن أكمل تبليغ رسالة الإسلام بحكم الآية الكريمة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾. وكان من أبرز ثمار جهوده في حياته، بعد تثبيت معالم الدين ونشره، إقامة الوحدة السياسية للأمة، وتثبيت السلطة السياسية العليا، وكانت هذه السلطة قد استقرت بيده يمارسها تَبَعاً للأحوال العامة، والحاجات الطارئة، وفْق أحكام القرآن، وما يُقرّه من حلول كثيراً ما يُثَبِّتها بعد مشاوراته للصحابة.

وكان الرسول قد جمع حوله الصحابة، وعزَّز تماسكهم ووثَّق ارتباطهم، فوحّدهم رغم تنوع خلفياتهم واختلاف تاريخ إسلامهم. وكان اتصاله بهم مباشراً ووثيقاً. وقد شملوا المهاجرين من أهل مكة والأنصار، والمهاجرين من عشائر الحجاز ممن اشترَط عليهم الرسول (ص)، في أوائل سني الهجرة، أن يهاجروا إلى المدينة ويقيموا فيها. فلما ازداد عددهم، وتوسع انتشار الإسلام، أباح إقامة المسلمين في ديارهم خارج المدينة، معتبراً هذه الإقامة بحكم الهجرة ما داموا يؤدون واجبات الإسلام، ويلبون دعوة الرسول متى طلب منهم ذلك. وقد ازداد عددهم بعد فتح مكة وانتشار الإسلام في معظم أرجاء الجزيرة.

وبتوسع دولة الإسلام امتد تعبير «الصحابة» ليشمل كلَّ من تحدث الى

الرسول (ص) أو رآه، ولو لمدة قصيرة[1]. وقد أباح الرسول لهذه الجموع الكبيرة، التي اعتنقت الإسلام وانضمت إلى دولته، أن يحتفظوا بتنظيماتهم ونُظُم حياتهم ورؤسائهم. وكانت صلتهم بدولة الإسلام تتجلى في قبولهم المصدقين والمعلمين؛ غير أن تفرُّق أماكن سكناهم، وبُعْد ديار كثير منهم عن المدينة، وصعوبة وسائل المواصلات والاتصال، كل ذلك جعل متابعة هذا الصنف من المهاجرين للحوادث التي تجري في المدينة متابعة قليلة، وأثرهم في تطور الأحداث فيها ضعيفاً، لذلك قضت الأحوال بأن تكون المدينة مركز اتخاذ القرارات الأساسية، ولا سيما ما اتصل منها باختيار من يمارس السلطة العليا.
وكان سكانها المسلمون، عند وفاة الرسول (ص)، مكوَّنين من الانصار، الاوس والخزرج، ومن المهاجرين القرشيين، ومن عشائر الحجاز التي هاجرت إليها واستقرت فيها.

أما الأنصار، فهم أهل المدينة الأوَّلون، وأكثر عملهم في الزراعة، وصِلاتهم الخارجية بالعشائر والأقاليم الأخرى غير واسعة، وإن لم تكن عدائية. ولم تكن لهم عند ظهور الإسلام علاقات قوية باليمن التي يدَّعي النسَّابون ان أصل الأنصار منها. وبعد أن هاجر الرسول (ص) إلى المدينة، واتخذها مركزاً لدولة الإسلام، ازداد احتكاك الأنصار بالعشائر الأخرى، وخفّت عزلتهم، وازدادت الروابط الاجتماعية والروحية توثُّقاً بينهم ضمن إطار الوحدة الإسلامية العامة. وقد بقيت آثار التجمعات القَبَلية الصغرى وما فيها من تدخلات ومنافسات أحياناً، ولكنها لم تعد حادّة أو عميقة. وكان تأثّر مواقفهم السياسية بالعوامل الداخلية أقوى من تأثرها بالعوامل الخارجية. وقد أشار القرآن الكريم إلى موقف معارض اتخذوه في غزوة المريسيع، وفي مسجد الضِّرار الذي اتخذه عدد محدود عندما كان الرسول (ص) غائباً عن المدينة في تبوك. وذكرت المصادر استياء بعضهم من إغداق الرسول (ص) على المؤلفة قلوبهم في توزيع غنائم حنين، كما وردت إشارات إلى مكانة عدد من رؤسائهم ولكنهم ظلوا

---

(١) انظر مقدمة كتاب الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر

متمسكين بالإسلام، متحمسين في الدفاع عنه، وقد أدركوا المكانة المتميزة التي يسَّرها لهم الإسلام بجعل المدينة مركز الدولة.

أما المهاجرون من عشائر الحجاز الذين استوطنوا المدينة، فيظهر من دراسة خُططهم آنذاك أنهم كانوا مِن أسلم، وغِفار، وأشجع، ومُزَيْنة، وليث وضُمْرة، والديل، وجُهَينة، وجُشَم بن معاوية (هوازن) والمصطلق، وغطفان، ومالك، وزنيم، وسُكَين[1]؛ ولا ريب في أن استيطان هذه العشائر للمدينة قد أتاح لها الإسهام في حوادثها؛ وقد أشار إليهم كثير من المصادر كمجموعة متميزة، غير أنهم لم يكونوا وحدة متماسكة في المدينة رغم تقارب خططهم فيها. وكانت مواقفهم من الأحداث تقررها الأوضاع في المدينة ولا تتأثر بمواقف من بقي منهم في ديارهم الحجازية خارج المدينة. ومن الطبيعي أن إيمانهم بالإسلام كان عميقاً، وارتباطهم بالرسول (ص) كان وثيقاً.

أما المهاجرون من قريش، فكانوا مجموعة متميزة، وهم جوهر المهاجرين ومحورهم. وقد ذكرهم القرآن الكريم كوحدة متميزة في عدة آيات (البقرة ٢١٨، آل عمران ١٩٥ النساء ٩٧ الانفال ٧٢، ٧٤، ٧٥، التوبة ٢٠، النحل ٤١، ١١٠، النور ٢٢، وكانوا أقرب إلى الرسول (ص) من غيرهم في سُكْناهم وعلاقاتهم؛ وقد زَوَّج الرسول ثلاثاً من بناته لاثنين منهم، إحداهنّ، وهي فاطمة، تزوجها عليّ، والثانية والثالثة، وهما رُقيّة وأم كلثوم، تزوّجهما عثمان، واحدةً بعد الأخرى بسبب الوفاة. أما الرابعة فكانت متزوجة أبا العاص بن الربيع الذي أسلم وهاجر متأخراً. وتزوج الرسول عدداً من نسائهم وهُنَّ: عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وأم سلمة المخزومية، وسودة بنت زمعة (من عامر بن لؤي)، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وزينب بنت جحش (حليف بني أمية). وكانت هذه الزيجات تزيد من قوة الصلة بين الرسول والمهاجرين من قريش.

(١) انظر عن خططهم تاريخ المدينة لعمر بن شبه ٢٦٠ ـ ٢٧٠ ووفاء الوفا ٥٤٧/١ ـ ٢٥٣ وبحثنا عن خطط المدينة المنشور في مجلة العرب.

ولا ريب أن منهم «أهل البيت» الذين ذكرهم القرآن الكريم، (هود ٧٣، الاحزاب ٣٣). ولعل منهم أيضاً «ذَوِي القربى» الذين ذكرهم القرآن ممن يُوَزَّع عليهم الفيء (الحشر ٧)، والغنائم (الانفال ٤١)، بالاضافة إلى ما ذكر: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾. (الاحزاب/٦). وبعد فتح مكة أسلم أهلها وأدركوا المنافع التي يمكن أن يَجْنوها في الدولة الإسلامية التي تؤمِّن مصالحهم وتُوَسِّعها. وازداد عدد من اعتمد عليهم الرسول (ص) من رجالها، وانتقل عدد غير قليل منهم إلى المدينة واتخذوا منها مقاماً إضافة إلى منازلهم في مكة؛ وبذلك أصبح ارتباطهم قائماً بالبلدتين، وأتاح ذلك للمهاجرين الأولين قوة إضافية وتأثّراً بمواقف أهل مكة. ومع أن المقررات الحاسمة كانت تُتَّخذ في المدينة، إلا أن أهل مكة كان لهم دور متميز في توجيه السياسة وصياغة المقررات في المدينة. وبذلك ظل أهل مكة مرتبطين بالرئاسة السياسية في المدينة، وثَبّت أهلها على الإسلام عندما اضطربت الأمور على أَثَر انتخاب أبي بكر خليفة؛ وكان منهم أبرز القادة الذين قَضَوْا على الرِّدَّة.

وكان لكثير من أهل مكة مكانة قديمة احتفظوا بها بعد الإسلام، غير أن قوتهم في الوضع الجديد كانت راجعة إلى خدماتهم للإسلام. وبرزت فيهم شخصيات بفضل الإسلام إذْ أصبح المعيار الجديد للمكانة قائماً على مدى الخدمة التي يقدمها للإسلام ودولته. ونستطيع أن نقول، بصورة عامه، إنَّ أهل مكة لم تكن لهم قيادة موحدة، أو تكتُّل متميز في الوضع الجديد الذي أوجده الإسلام.

ولا ريب في أن ضَمَّ مكة إلى دولة الإسلام قد يَسَّر ضم القبائل التي سبَق لِقريش أن أقامت معها الإيلاف المذكور في سورة «قريش»، وهو الاتفاقات التي عقدتها قريش مع رؤساء القبائل لتنظيم علاقات متكافئة معهم، فأصبح هؤلاء الرؤساء مع عشائرهم ضمن دولة الإسلام التي لها سلطة عليا مركزية، وتسندها قوة عسكرية. وتُحقِّق دولة الإسلام أهداف الإيلاف بتأمين السلم والاستقرار وتيسير سير القوافل والتجارات، وتثبيت التناسق بينها. وقد توسعت هذه الأغراض لتشمل كافة القبائل المنضوية في دولة الإسلام؛ كما أن التنسيق

والتعاون امتد إلى مختلف جوانب الحياة العامة، فأصبحت أغراضه سياسية عقائدية واسعة دون الاقتصار على الأغراض التجارية، وكانت تعزز الدولة قوة عسكرية مركزية ثابتة كان يفتقدها الايلاف القديم.

اجتماع السقيفة ومبايعة أبي بكر

وفاة الرسول (ص)

انتقل الرسول (ص) الى الملأ الاعلى ضحى يوم الاثنين الثاني من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عَشْرة، بعد مرض ألَمَّ به ودام قرابة أسبوعين، أنهكه حتى لم يستطع في آخرها أن يَؤُمَّ الناس في الصلاة، وفاضت روحه وهو في حجرة زوجته عائشة، وكانت وفاته مفاجَأة لم يصدق خبرها كثير من المسلمين الى أن وصل أبو بكر من داره في السنح وهي على بعد اكثر من ميلين من المسجد وبدَّد الشكوك عندما قرأ قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ (آل عمران/ ١٨٥) و ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الزمر) وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ (الانبياء/ ٣٤) ثم تلا ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ (آل عمران)[1].

اجتماع السقيفة

ولما تيقن المسلمون من وفاته، اجتمع حول رُفاته الطاهر أبرز المهاجرين من قريش، ولم يرد ذكر لتداولهم في أمر من يخلفه في الرئاسة الدنيوية، أما الأنصار فتجمع عدد منهم في سقيفة بني ساعدة، وهي ظِلَّة في ساحة غير بعيدة عن المسجد النبوي وبقربها منازل بني ساعدة من الأنصار ومنازل مهاجري قريش والحجاز. وكانوا يرومون من اجتماعهم اختيار من يخلف الرسول (ص)

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٣٣١.

في رئاسة الأمة وإدارتها. إذ أن القرآن الكريم لم يشر الى ذلك، كما أن الرسول (ص) لم يبحث هذا الموضوع، ولم يُسَمِّ شخصاً لخلافته.

لم يكن اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة على اتفاق وإعداد مسبق، وكان عامّاً مفتوحاً، وأكثر من حضره من الأنصار، ويقول الزهري ان الناس شُغِلوا من دفن الرسول (ص) بشبّان من الأنصار[1]، ولم تذكر المصادر اجتماعاً غيره عقد فيها. ولا بد أنه يشير بذلك إلى اجتماع السقيفة. ولا بد أن عدد المجتمعين لم يكن كبيراً وكان في بدايته خالياً من الصخب الذي كثيراً ما يصحب مثل هذه الاجتماعات بدليل أن المهاجرين لم يعلموا بانعقاده بادئ الأمر، إلى أن علم به أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح.

طبيعة الانتخاب

الانتخاب اختيار شخص متميز للقيام بعمل من أجل مصلحة الجماعة دون تقيُّد بالمدة التي يعمل فيها، أو فَرْض برنامج عمل يلزمه السير عليه، وهي تلزم الناخبين بتأييده وتنفيذ ما يطلب منهم ضمن نطاق المصلحة العامة، فهو عمل سياسي دنيوي وقوة ملزمة للناخبين نابعة من اختيارهم الارادي لمن انتخبوه دون ان يفرضوا عليه شروطاً مقيدة، فهو في العمل السياسي مطلق وغير محدد الزمن، والمنتخب يتقيد بما يضعه على نفسه من قيود او بمراعاة الأوضاع العامة المقبولة. وتقوم شرعيته على الاجماع الذي له قوة ملزمة لأخذ الناس به عن قناعة ناجمة عن تمحيص للسِّمة العامة لما ينعقد الاجماع عليه، وليس على أساس آخر، إذ أن القرآن الكريم ألزم الناس أن يطيعوا أولي الأمر منهم، ولم يحدد بالنص أسماء أُولي الأمر أو المواصفات التي تتوافر فيهم، كما أن الرسول (ص) لم يحدِّد اسم من يخلفه أو سماته، ولم يذكر أن أحداً احتج بالقرآن الكريم أو قول من الرسول (ص) على اسم شخص معين.

ورمز الانتخاب هو البيعة التي تكون بالمصافحة يقوم بها من يحضر البيعة

---

(١) ابن سعد ٢ ـ ٦٨/٢.

أو أكثرهم، ويعتبر عدم معارضتها دليلا على الرضا بها وقبولها والالتزام المطلق بأحكامها.

الحاضرون في اجتماع السقيفة

اقتصرت المصادر على ذكر اسماء قليلة ممن حضر الاجتماع وشارك في مناقشاته، فقد حضر من الأنصار من بني عبد الأشهل أسيد بن حضير الأوسي وعويم بن ساعدة، ومعن بن عديّ بن العجلان، وحباب بن المنذر، وبشير بن سعد أبو النعمان، وخزيمة بن ثابت، وثابت[١]. ولا بد أن آخرين من الأنصار حضروا الاجتماع ولم تذكرهم المصادر لأنه لم يكن لهم دور كبير فيه، وعلى أي حال فإن عددهم لم يكن كبيراً.

سعد بن عبادة

قدَّم الأنصار المجتمعون في السقيفة مرشحاً واحداً لم تذكر المصادر غيره هو سعد بن عبادة وهو رجل ذو سجايا، وكانت له مكانة في قومه وعند الرسول (ص) في المدينة، فكان من القلائل في المدينة الذين يعرفون الكتابة، ويحسنون العوم والرماية، مما أهله ان يوصف بالكامل[٢]، وكانت أحواله المالية جيدة، وله أرض بالعالية تدر له موارد[٣]، وكان يُهْدي الرسول (ص) وبعض أهل الصُفّة الطعام بجفنة مشهورة[٤]. ونزل عليه عند الهجرة المقداد بن الأسود وخباب بن الأرت. وظلا عنده حتى فتحت خيبر[٥].

وكانت صلته بالإسلام مبكرة، فقد شهد بيعة العقبة الثانية وكان من

---

(١) ابن سعد ٣ ـ ١٢٩/١.

(٢) ابن سعد ٣ ـ ١٤٢/٢.

(٣) ابن سعد ٣ ـ ١٤٢/٢.

(٤) سير أعلام النبلاء ٢٦٧/٢ (عن ابن سيرين).

(٥) ابن سعد ٣ ـ ١١٧/١.

النقباء[١]، وظلت صلته وثيقة بالرسول (ص) فقد استخلفه على المدينة عندما خرج في غزوة الأبواء[٢]، وخلفه عليها في ثلاثمائة عندما خرج في غزوة الغابة[٣].

وشارك في معركة بدر وكان ممن شجع الرسول (ص) على المضي في تحدي قريش بعد أن أفلتت القافلة[٤]. وكانت معه راية الخزرج في معركتي أحد والخندق[٥] وخيبر، وكانت معه في فتح مكة راية الرسول (ص) إذ أمره أن يدخل مكة من كداء[٦]، وفي حنين كان معه لواء الخزرج[٧].

واتخذ سعد بن عبادة موقفاً سلبياً إزاء البيعة لأبي بكر، وصرح أنه لن يبايع ويقاتل، ولكن أبا بكر لم يعرض له، ولم تذكر المصادر قيامه بنشاط ضد أبي بكر، ثم هاجر في أول خلافة عمر إلى بلاد الشام وتوفي بحوران سن ١٤هـ[٨].

حضور المهاجرين

فوجئ المهاجرون بخبر الاجتماع وترشيح سعد بن عبادة، رغم قرب مكانه من المسجد. ويروى أنه سارع من المهاجرين كل من أبي عبيدة بن الجراح وعمر بن الخطاب وأبو بكر لحضور الاجتماع، وتم اتفاقهم في الطريق على ترشيح أبي بكر[٩] ولقوا في طريقهم إلى الاجتماع كلاً من عويم بن ساعدة

(١) ابن هشام ٢/٧٤، ابن سعد ٣ ـ ٢/١٤٣، سير اعلام النبلاء ٤/٢٧١.
(٢) ابن سعد ٣ ـ ٢/١٤٣.
(٣) ابن سعد ٢ ـ ١/٢٨.
(٤) ابن هشام ٢/١٥٤، ابن سعد ٢ ـ ١/١٦.
(٥) ابن سعد ٢ ـ ١/٤٤
(٦) ابن سعد ٢ ـ ١/٩٨
(٧) ابن سعد ٢ ـ ١/١٠٨
(٨) ابن سعد ٣ ـ ٢/١٤٤، سير اعلام النبلاء ٢/٧٨.
(٩) ابن اسحق ٤/٣٢٥، الطبري ١/٢٣٤٠.

ومعن بن عدي بن العجلان اللذين أخبراهم بالاجتماع وباختيار الانصار سعد بن عبادة للخلافة[١].

ومما يلفت النظر ان المصادر لم تذكر ممن بادر بحضور الاجتماع من مهاجري قريش غير هؤلاء الثلاثة، علما بان موضوع البحث ذو أهمية بالغة.

وبحضور المهاجرين الثلاثة دار حوار مفتوح لم تكن تديره هيئة وبدأ الحوار بعرض سلمي هادئ للآراء ثم تطور الى شدة في الجدل دون ذكر اللجوء الى القوة او تهديد باستعمال السلاح. ويروي الطبري أنه في النقاش ارتفعت الاصوات وكثر الاختلاف»[٢] ويروى أبو مخنف أن الحباب بن المنذر بن الجموح حث الأنصار على الثبات على آرائهم وهدد قائلاً «انا جديلها المحنّك وعزيقها المرجّى. أما والله لئن شئتم لنعيدها جدعة»[٣] غير أن انضمام أسلم الى الاجتماع قطع على المهددين عزمهم، وفي هذا يروي ابو مخنف عن ابي بكر بن محمد الخزاعي «أن أسلم اقبلت بجماعتها حتى تضايق بهم السكك فبايعوا أبا بكر، فكان عمر يقول «ما هو الا أن رأيتُ أسلم فايقنتُ بالنصر»[٤]، أي أنها قدمت متأخرة وعدَّل عددها الكبير الميزان بتأييدهم ترشيح أبي بكر. ولم تذكر المصادر مشاركة غيرها من عشائر الحجاز.

وجهات النظر

ذكرت المصادر وجهتي المهاجرين والأنصار وأثرهما في التطور العام للنقاش، وهما يعبران عن مكانة كل منهما ودوره في الماضي، ولم يظهر في النقاش رأي ثالث. أما رأي الأنصار فهو كما قال أحدهم: «نحن الأنصار وكتيبة الإسلام وأنتم يا معشر قريش رهط نبينا، وقد دفت الينا من قرمكم

---

(١) ابن اسحق ٤/ ٣٤٠، ابن سعد ٣ ـ ١/ ١٢٩، الطبري ١/ ١٨٢٤.
(٢) الطبري ١/ ١٨٥٣.
(٣) الطبري ١/ ١٨٤١.
(٤) الطبري ١/ ١٨٤٣.

دافة»[1] فهم ـ أي الأنصار ـ أولى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين، وبأسيافهم «دان لهذا الدين من دان»[2]. وهم اهل العزة والثروة، واولو العدد والمنعة والتجربة، ذوو البأس والنجدة[3].

إن حجج الأنصار قائمة على مكانتهم الأصيلة وإنجازاتهم في الماضي فهم أساس المدينة، والآخرون دخلاء فيها. غير أنهم لم يأخذوا بالحسبان التطورات الجديدة المرتبطة بالدولة التي تتميز بتتابع توسعها وتزايد المنضمين إليها، كما أنهم لم يذكروا في هذا النقاش اسم مرشحهم.

أما وجهة المهاجرين، فإنهم ذكروا أنهم أول من عَبَدَ الله وآمن بالله وبالرسول (ص) وهم أولياؤه وعشيرته، وأن محمداً من قريش، وقومه أحق بها»[4]، وأن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، وهم أوسط داراً ونسباً»[5]، و«لا ترضى العرب أن يُؤَمِّروكم ونبيُّها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولي امرها من كانت النبوة فيهم وَوَلِيُّ أمورهم منهم، ولنا بذلك على مَنْ أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين، ومن ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه»[6]. ويروى أن العباس قال: «يا معشر المهاجرين إنكم أصبحتم تزيدون وأن الأنصار على هيئتها التي هي عليهم اليوم»[7]، وهو بهذا الكلام وَسَّع مفهوم المهاجرة لتشمل كل العرب ولا تقتصر على قريش.

ثم قُدِّم اقتراح توفيقي بأن يجري اختيار أميرين، واحدٍ من المهاجرين

---

(١) الطبري ١/ ١٨٢٢.
(٢) الطبري ١/ ١٨٤٢.
(٣) الطبري ١/ ١٨٤١.
(٤) الطبري ١/ ١٨٤٢.
(٥) الطبري ١/ ١٨٢٣.
(٦) الطبري ١/ ١٨٤١.
(٧) الطبري ١/ ١٨٠٧.

والثاني من الأنصار. ويروي الطبري أن الذي قدم الاقتراح رجل من قريش[1]. أما ابن سعد، فيذكر أن مقترحه حباب بن المنذر الأنصاري[2]، ولم يرد ذكر مناقشة على هذا الاقتراح التوفيقي، مما قد يدل على أنه أرضى الأنصار خاصة وأنه لم يسم مرشحاً بالاسم. غير أن الاخذ به يُنافي مبدأ الوحدة الشاملة العليا التي دعا اليها الإسلام الذي تقوم عقيدته الأساسية على الوحدانية والله الواحد والتي اكد عليها القرآن الكريم في عدد كبير من الآيات، وأشار إلى خطر التعددية في الإفساد ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الانبياء/ ٢٢) والأخذ بهذا الاقتراح يؤدي إلى إحداث تبديلات أساسية في التنظيم الذي وضعه الرسول (ص) وجعل فيه للسلطة العليا مرجعاً واحداً ثم ينظم تطبيقها مراعيا متطلبات الأحوال العامة وتطوراتها والإفادة من رجال مختلف الجماعات وفقاً لمؤهلاتهم والحاجة اليهم والواقع ان الباحثين المسلمين في نظم الدولة أجمعوا على أهمية وحدة الرئاسة وضرورتها، ولم يذكر من شذ عنها غير ضرار الذي رأى جواز وجود خليفتين في وقت واحد.

قطع عمر بن الخطاب النقاش بعمل حاسم بايع فيه أبا بكر للرئاسة، ثم تلاه أبو عبيدة الجراح، وكان ذِكْر اسمه للرئاسة مفاجأة مباغتة لأنه، وان كان قد شارك في النقاش، واقترح أن يكون الامراء من المهاجرين والوزراء من الأنصار، أي أنه أشار إلى الانصار باحتفاظهم بمكانة متميزة في التنظيم الذي يرأسه القرشيون، إلاّ أنه لم يحدد مكاناً لمهاجِري الحجاز وغيرهم من العرب، كما انه لم يسم للرئاسة أحداً.

أبو بكر

كان ابو بكر من اقرب الأصدقاء للرسول (ص) قبل الاسلام، ومن أوائل من أسلم وهو والد عائشة الزوجة الثالثة للرسول (ص). وقد عقد عليها في مكة

---

(١) الطبري ١/ ١٨٢٣.
(٢) ابن سعد ٣ ـ ١/ ١٢٩.

ودخل عليها في المدينة. وذكرت المصادر أن له عدداً من المزايا، ومما ذكرته انه «كان واسع العلم، ثاقب الرأي، كان يظن الأمر فيقع فيه [(١)]، وله علم بالناس، كان من كبراء اهل مكة يجدون عنده من طريف الحديث وغريب الشعر[(٢)]، وكانت له معرفة واسعة بالأنساب ووصفه الجاحظ بأنه «أنسب هذه الامة»[(٣)]. وكرر ابن اسحاق هذه الاشارة وأضاف ان جبير بن مطعم «كان من أنسب قريش لقريش وللعرب وكان يقول إنما اخذت النسب من أبي بكر الصديق[(٤)]، ولا بد أن معرفته بالأنساب أفادت في تنظيم علاقة الرسول (ص) بالقبائل العربية، وكان أحد اثنين من دهاة العرب[(٥)].

كان ابو بكر في مكة يعمل بالتجارة، ويروي ابن سعد أن ثروته قبل الإسلام بلغت أربعين ألف درهم بقي منها عندما هاجر الى المدينة خمسة آلاف، ثم كان يقل فيها ما كان يقل في مكة»[(٦)] وتابع عمله في التجارة ثم توقف عنها بعد ستة اشهر من خلافته، وقال: ما يصلح امر الناس التجارة، وما يصلح لها الا التفرغ[(٧)].

وكانت صلته بالأنصار وثيقة، فقد تزوج فيهم ابنة خارجة بن زيد واقام مع عشيرتها بني الحارث بن الخزرج في السنح، وظل مقيما فيه بعد انتخابه خليفة[(٨)] وجعل فيه بيت المال[(٩)].

واحتفظ بعلاقة وثيقة بقريش فوصفوه بانه «أوصل قريش لأرحامنا»[(١٠)] ومما يؤيد ذلك انه اختار من قريش معظم القواد والولاة.

---

(١) العثمانية للجاحظ ٢١٣.
(٢) العثمانية ٢٢.
(٣) البيان والتبيين ١/١٨، سير اعلام النبلاء ٣/١٩٧.
(٤) تهذيب الكمال ٤/٥٠٨.
(٥) تاريخ دمشق لابن عساكر ٨/٣٦٧.
(٦) ابن سعد ٣ ـ ١/١٢٢.
(٧) ابن سعد ٣ ـ ٢/١٣٦.
(٨) ابن سعد ٣ ـ ٢/١٢٣، ١٣٦، ١٥١.
(٩) الطبري ١/١٨١٣.
(١٠) العثمانية ٦٧.

لم يكن ترشيح أبي بكر للخلافة بطلب منه، وإنما بمبادرة من الأنصار المجتمعين مما يدل على أنهم كانوا محتفظين برابطة عامة تحكُم ما بينهم من مناقشات لم يقم الأنصار حال اجتماعهم ببيعة مرشحهم، وانما قضوا فترة لم تحدد المصادر طولها، ولم تذكر ما دار فيها.

الانتخاب حدث فريد

يروى أن عمر بن الخطاب قال «ما كانت بيعة أبي بكر الا فلتة وقانا الله شرها»[١] وذكر الطبري أنها كانت «فلتة من فلتات الجاهلية»[٢] والفلتة في اللغة «الامر الذي يقع على غير إحكام» أو «الامر الذي يُعْمل فجأةً من غير تردد ولا تذبذب»[٣]. فهي عمل مفاجئ تم دون سابق تخطيط، وقول الطبري إنها كانت «فلتة من فلتات الجاهلية» قد يدل على أنها كانت متفردة في النظم العربية القديمة «والواقع أنها لا تشبه أساليب اختيار رؤساء العشائر القديمة ولا الملوك في الجاهلية، ولكنها على أيّ حال لا تعني أن عمر رأى ان القيام بها كان خطأ.

وعندما بايع أبا بكر عمر وابو عبيدة تتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوه»[٤]، والمقصود بذلك من حضر اجتماع السقيفة.

ثم تتابع رجال من الأنصار يبايعونه، فبايعه بشير بن سعد، وهو خزرجي من بني مالك بن كعب[٥]، وبايع الأوس لانهم حذروا إذا بايعوا سعد بن عبادة

---

(١) الطبري ١/ ١٨٢٢، البخاري: حدود ٣١، ابن حنبل ١/ ٥٥، ٥٦، شرح نهج البلاغة ١/ ١٢٣.

(٢) الطبري ١/ ١٨٤٤، ١٨٨٥.

(٣) شرح نهج البلاغة ١/ ١٢٦ عن كتاب العين، الصحاح، فتح الباري ١٢/ ١٤٧ ولم ترد كلمة «انتخاب» في القرآن الكريم، واقرب ما يتصل بها مما ورد في القرآن الكريم هي تعبير «اختيار» و«اصطفاء».

(٤) الطبري ١/ ١٨٢٥، ابن سعد ٣ ـ ١/ ١٢٩، ابن هشام ٤/ ٣٣٥.

(٥) الطبري ١/ ٢٤٢١.

ان يتعصب للخزرج فيحرمهم مكانتهم، ويُروى أن أسيد بن خضير قال: لئن وليها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم الفضيلة ولا جعلوا لكم معها نصيب و«بايعه مع أسيد سلمة وسلامة ابنا وقش، وحثا الناس على مبايعته[1]، وكان النعمان بن العجلان وبنو عبد الأشهل من مبايعيه[2].

اما الخزرج فقد ترددوا في بيعة ابي بكر[3] الذي استطاع ان يزيل معارضتهم، فشاركوه في الدفاع عن المدينة، وفي حركات القضاء على حركات المرتدين[4].

موقف الانصار

يذكر اليعقوبي فيقول: «اعتزلت الأنصار عن أبي بكر»[5] ولا ريب أن في قوله مبالغة، وأنه يشير إلى أن تردد بعضهم لا يقضي على ثقتهم في بيعة أبي بكر وموقفهم منها، وهو موقف الحياد المشوب بروح عدم الرضا، ولعلهم كانوا مدفوعين بعصبية قبلية ضد المهاجرين: إلا أنه لم ترد إشارة إلى تعصبهم لانتخاب سعد بن عبادة أو ترشيح احد غيره.

غير أن موقفهم السلبي كان يؤثر في تماسك الدولة ووحدتها، وهو مظهر لتحدي قريش، ويذكر اليعقوبي أن عملهم أثار قريشاً فغضبت قريش وأحفظتها، وان عمرو بن العاص والفضل بن العباس ردوا عليهم، ولم يرض علي على موقفهم، فانتهى موقفهم وزال أثرهم.

وذكر خليفة بن خياط أسماء ثمانية وخمسين من قتلى المسلمين في اليمامة،

(١) شرح نهج البلاغة ١/ ١٣٢، ٢/ ١١٩.
(٢) شرح نهج البلاغة ٢/ ١٢.
(٣) الموفقيات ٢٨٥، شرح نهج البلاغة ٢/ ٩.
(٤) ابن هشام ٤/ ٣٠٩، ٣٣٥، ٣٣٨.
(٥) تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٠٧.

ولا بد انهم بعض وليس كل القتلى، الا أن ما ذكره عن توزيعهم يعبر عن بعض تكوين الجيش فيهم أربعة عشر من قريش ومن هؤلاء خمسة من حلفائهم، ومنهم تسعة من البدريين.

وعدَّد أسماء اربعة وثلاثين رجلا من الأنصار استُشهدوا في اليمامة فهم أحد عشر من الأنصار (ستة من عبد الاشهل، واثنان من كل من بني جحجبا وبني العجلان) ومن الخزرج ثلاثة وعشرون (أربعة من كل من بني ساعدة وبني مالك بن النجار، وثلاثة من بني الحارث بن النجار، واثنان من كل من بني الجبلى وسالم بن عوف، وسلمه، ومازن بن النجار، وواحد من كل من بني غنم، وزريق وسواه[1]. وهذه معظم عشائر الأنصار، غير أنه لم يذكر شهيداً من بني عمرو بن عوف الذين كان لهم سجل من النفاق في زمن الرسول (ص) وكذلك من بني وائل وواقف وخطن الذين تأخَّر إسلامهم.

ولا بد أن مشاركة الأنصار تمت بدافع من الحفاظ على وحدة الدولة وتثبيت الإسلام، وليس بدافع الغنائم والعصبية الثأرية، وكثرة القتلى تشير الى كثرة عدد الجيش والى أن تعدُّد التيارات في اجتماع السقيفة لم يترك أثراً عميقاً في توليد الانشقاق في الأنصار عن دولة الاسلام.

ظلَّ أبو بكر يُقَرِّب مهاجري قريش ويُوَلِّيهم قيادة الجيوش وأعمال الإدارة، مما أثار استياء الأنصار. وقد عبر عن ذلك ثابت بن قيس في كلام يُنسب اليه: «يا معشر قريش: أما كان فينا رجل يصْلُح لما تَصْلُحون له، أما والله ما نحنُ عُمْياً عما نرى، ولا صُمًّا عما نسمع، ولكن أمَرَنا رسول الله (ص) بالصَّبْر، فنحن نصبر. وقال حسَّان بن ثابت:

يـا لَـلـرِجـال لِـخـلـفـة الأطـوار ... وَلِـمَـا أراد الـقـومُ بـالأنـصـارِ

لـم يـدخـلـوا مـنـا رئـيـسـاً واحـداً ... يـا صـاحِ مـن نـقـضٍ ولا إمـرار

يقول اليعقوبي: «فعَظُم على أبي بكر هذا القول، فجعل على الأنصار

(١) تاريخ خليفة ٧٧ ـ ٨٣.

ثابت بن قيس، وأنفذ خالداً على المهاجرين فقصد طليحة ففرق جمعه[١].

يتبين من كلام اليعقوبي أن أبرز من أعلن استياءه من انحياز أبي بكر الى المهاجرين هو ثابت بن قيس بن شمَّاس، وهو من بني الحارث بن الخزرج شارك في يوم بُعاث فأسرَ: الزبير بن باطا القرظي ثم منّ عليه، فحفظ هذه المنة وشفع للزبير بن باطا بعد استسلام بني قريظة فقبل الرسول شفاعته، ولكن الزبير رفضها وآثر القتل، وكان من أوائل مسلمي المدينة[٢]. وقد آخى الرسول بينه وبين عمّار بن ياسر، وشارك في غزوة المريسيع[٣] وكانت من سباياهم له جويرية التي افتداها الرسول وتزوجها، وكانت علاقته طيبة مع حسّان بن ثابت، فلما اراد صفوان بن المعطل الاعتداء على حسان بسبب حديث الإفك انتصر له ثابت[٤].

كان ثابت بن قيس خطيباً، وصفه ابن اسحاق بأنه «خطيب رسول الله»[٥] ودعاه الرسول (ص) ليجيب خطباء وفد تميم عندما قدموا الى الرسول[٦]، كما أنه كتب الصحيفة لوفد ثمالة والحدان[٧]، ولوفد أسلم[٨] وسماه الواقدي خطيب الأنصار وشيخهم[٩].

ولمَّا أنفذ أبو بكر جيشاً لقتال طليحة بن خويلد الأسدي جعل ثابت بن قيس على الأنصار وأمَره الى خالد[١٠] وكان قوام الجيش بين ٢٧٠٠ وثلاثة آلاف[١١].

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢/١٨.
(٢) ابن اسحق ٣/٢٦١، الاموال لابي عبيد ١١١، الطبري ١/١٤٩٥.
(٣) ابن اسحاق ٣/١٢٥، ابن سعد ٣ ـ ١/٢٨٤.
(٤) ابن اسحاق ٣/١٢٠، ٣٣٩، ٤/٣٥٣، ابن سعد ٢ ـ ٢/٤٦، الطبري ١/١٥١٧.
(٥) ابن اسحاق ٢/١٢٥.
(٦) ابن اسحاق ٤/٢٢٤، ابن سعد ١ ـ ٢/٤٠، الطبري ١/١٧١٢.
(٧) ابن سعد ١ ـ ٢/٣٥.
(٨) ابن سعد ١ ـ ٢/٨٢.
(٩) الردة للواقدي ٧٣.
(١٠) تاريخ خليفه ٦٦، ٦٧.
(١١) تاريخ خليفه ٦٧.

وفي الحملة على اليمامة كان الجيش الاسلامي مكوناً من ثلاث كتل على كل منها رئيس «على الانصار ثابت بن قيس، والبراء بن غلال، وعلى المهاجرين ابو حذيفة، وعلى القبائل كل قبيلة رجل»[١]. وفي رواية أخرى: «راية المهاجرين مع سالم مولى حذيفه، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شماس، وكانت العرب على راياتها[٢]. وأبلى ثابت بلاءً حسناً في المعركة[٣]، ثم قتل فيها[٤].

والراجح أن ثابت بن قيس والأنصار شاركوا في القضاء على رِدَّة بني تميم، وإعادة هضبة نجد الى حظيرة الدولة الاسلامية، وقد تمَّت بعد القضاء على ردة طليحة وقبل التقدم الى اليمامة.

لم تذكر المصادر عدد جيش المسلمين الذي قضى على حركات الردة، وإنما ذكر المدائني أن عدد من قُتِل في معركة اليمامة خمسمائة، وفي رواية اربعمائة وخمسون ورُوِي عن أبي معشر أن مِنَ القتلى مائة وأربعين من المهاجرين والأنصار[٥].

موقف مهاجري قريش من بيعة أبي بكر

ذكر اليعقوبي فقال: «تَخَلَّف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والانصار ومالوا مع علي بن أبي طالب: منهم العباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس والزبير بن العوام وخالد بن سعيد والمقداد بن عمرو وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر والبراء بن عازب وأُبَيّ بن كعب[٦].

(١) الطبري ١/ ١٩٣٠.
(٢) الطبري ١/ ١٩٣٩، الردة للواقدي ٧٣.
(٣) الطبري ١/ ١٩٤٢، ١٩٤٥.
(٤) الطبري ١/ ١٩٥١.
(٥) تاريخ خليفه ٧٧.
(٦) تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٠٣.

وأشار الجاحظ الى تعليق سلمان الفارسي على بيعة ابي بكر غير القاطعة بعدم رضاه عن بيعة ابي بكر، ثم اورد ادلة عقلية على تفنيدها[١].

وذكر الجاحظ خمسة تخلّفوا عن بيعة أبي بكر[٢] كما ذكر في مكان آخر اسماء ستة تخلفوا وهم سلمان والمقداد وأبو ذر وبلال وحذيفه وعمار[٣] وفيهم ثلاثة معتقون (سلمان وبلال وعمار) واثنان من اهل اليمن من الاصل، على ان الطبري يذكر أن «علياً والزبير ومن معهما تخلَّفوا عنها في بيت فاطمة، وتخلَّفت عنها الأنصار، واجتمع المهاجرون إلى ابي بكر ثم امتنعوا عليه[٤].

ويذكر ابن اسحاق ان عليا والزبير وطلحة اعتزلوا في بيت عائشة[٥].

يَرْوي ابن ابي الحديد أن بعض المحدثين يقولون إن علياً امتنع من البيعة وأن الزبير بن العوام امتنع من البيعة وقال لا ابايع إلا عليا (ع) وكذلك أبو سفيان بن حرب، وخالد بن سعيد بن العاص والعباس بن عبد المطلب وبنوه وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب، وجميع بني هاشم[٦] وهذه القائمة فيها اثنان من بني أمية والباقون من بني عبد المطلب وهاشم.

فأما أبو سفيان فيُرْوى أنه أخذ على اختيار أبي بكر انه من عشيرة تيم وهي ليست أبرز عشائر قريش، ويروى انه قال «ارضيتم معشر عبد مناف أن يلي أموركم رجل من تيم». فان صَحَّت هذه الرواية فانه لم يعترض على مبدأ الانتخاب من قريش، وإنما أراد حصره ببني عبد مناف دون ان يُسمِّي مرشحاً،

---

(١) العثمانية ١٨٦.

(٢) العثمانية ٢٢٥.

(٣) العثمانية ١٨٠.

(٤) الطبري ١/ ٨٢٢.

(٥) ابن اسحاق ٤/ ٣٣٥.

(٦) شرح نهج البلاغة ١/ ١٢٢، وانظر تفاصيل اوفى عن احمد بن عبد العزيز الجوهري ٢ ١٣ ـ ١٨، وبعضها منقول من الموفقيات ٥٨٠، ٥٨١/ ٥٨٣.

فنظرته قبلية ضيقة لا تنسجم مع الاتجاهات العامة للدولة الجديدة؛ غير أن إسهامه مع ولديه يزيد ومعاوية في فتوح الشام في زمن أبي بكر شكّك في صحة هذه الرواية التي إن صحت فهي تعبر عن نزوة وقتية وليس عن موقف مبدئي عميق.

أما خالد بن سعيد بن العاص، فإن الجاحظ ينسب اليه قول أبي سفيان في تحريض بني عبد مناف، ويذكر أيضاً أن بيعته تأخرت ثلاثة أشهر[١].

غير أن خالداً كان عند وفاة الرسول (ص) والياً على اليمن، ولعلّ تأخر بيعته راجع الى غيابه عن حدوثها في اليمن، علماً بأن أبا بكر ولّاه قيادة الجيوش التي أنفذها لفتح اليمن، وكل هذا يشكك في صحة الرواية التي تقول إنه امتنع عن البيعة.

كان علي بن أبي طالب أبرز الممتنعين عن بيعة أبي بكر، ولم يحضر اجتماع السقيفة ثم ظل مقيما في بيت فاطمة وامتنع عن بيعة أبي بكر، ويروي ابن ابي الحديد أن عليا «حرَّك أهل بدر فلم يستجب له احد»[٢] ويذكر ايضا ان الزبير والمقداد كانا مجتمعين مع علي في جماعة من الناس في بيت فاطمة، وأن عمر جاءهم واجبر الزبير على بيعة ابي بكر[٣] وسياق النص يشير الى أن المجتمعين كانوا مترددين في بيعة أبي بكر غير أنه لم يذكر كافة اسمائهم.

لم تَرْوِ المصادر قولاً لعلي في تبرير موقفه، وفي هذا يقول الجاحظ «لم ينقل ناقل واحد أَن عليا احتج بذلك في موقف ولا ذكره في مجلس ولا قام به خطيبا ولا ادعى به واثقاً ولا همس به الى موافق ولا احتج به على مخالف»[٤]. وقد لزم علي بيته فلم يبايع أبا بكر الا بعد وفاة فاطمة، بعد ستة

---

(١) العثمانية ٩٠ وانظر ١٦٧، ٢٣٨، شرح نهج البلاغة ٢/١٣، ١٧.
(٢) شرح نهج البلاغة ١/١٣٠.
(٣) شرح نهج البلاغة ١/١٣٠، ١٢٢.
(٤) العثمانية ١٠.

اشهر من تولي ابي بكر الخلافة، وفي هذا يقول الطبري «كان لعلي وجوه من الناس في حياة فاطمة، فلما توفيت فاطمة انصرف وجوه الناس عن علي»، وأنه «لما رأى انصراف وجوه الناس عنه انصرف الى مصالحة أبي بكر[1].

للعباس وضع خاص في كتب التاريخ وفي مكة عند ظهور الإسلام، فهو جد الأسرة العباسية التي وُلِّيَ رجال منها الخلافة منذ اوائل القرن الثاني ولمدة خمسة قرون، وفي أوائل خلافتهم دُوِّنت المؤلفات المعتمدة التي وصلتنا عن العرب والإسلام. ومن المحتمل أن هذه الكتب تأثرت بهذه الاوضاع عند عرضها سيرة العباس، فهي قد تبرز دوره مع المشركين وتبرز دوراً حقيقياً له او مختلفاً في زمن الإسلام. ومن ثنايا هذه الأخبار يمكن تثبيت بعض الحقائق. فقد كان في مكة أبرز بني هاشم، وكان في الجاهلية الذي يلي أمر بني هاشم[2]، و«ما كان بمكة رجل من بني هاشم مطاع متبوع[3] غير العباس، وكانت إليه سقاية الحاج، وهي من الوظائف البارزة في مكة قبل الإسلام، وان كانت المصادر لا تحدّد المزايا والمنافع المادية والمعنوية لمن يشغلها. ولم تذكر المصادر له موقفاً شديداً من الدعوة الإسلامية، وانما ذكرت أنه حضر بيعة العقبة مع الرسول (ص).

بقي العباس في مكة، وشارك المشركين في معركة بدر وأُسِر فيها، وافتَدَى نفسه بعشرين أوقية، ثم عاد الى مكة، ولم تُذكر مشاركته في مقاومة دولة الإسلام والتأليب على الرسول (ص)، غير أنه لم يعلن إسلامه الا عندما اقترب الرسول من مكة لفتحها. ثم شارك في معركة حنين وكان من القلائل الذين ظلوا ثابتين مع الرسول (ص) عندما تضعضعت القوات الإسلامية موقّتاً فيها،

---

(١) الطبري ١/ ١٨٢٥، وانظر شرح نهج البلاغة ١/ ١٢٢، ٢/ ١٨.

(٢) ابن سعد ٤ ـ ١/ ٢٢١.

(٣) العثمانية ١٠٣.

وخصه الرسول (ص) من غنائمها بمائة من الإبل مع المؤلَّفةِ قلوبهم[١]. ولم يُذكر له دور في المدينة بعد الفتح، مما يدل على أنه احتفظ بإقامته الثابتة في مكة، وأنه كان لا يقطع زيارته للمدينة.

ولا بد أن إسلام أهل مكة بعد الفتح أثَّر في مكانة العباس فيها. ذلك أن بني هاشم الذين هم عماد العباس فيها هاجروا بعد إلى المدينة وقدموها باولادهم واهليهم[٢].

وكان من مصادر قوة العباس السقاية والتجارة. فأما السقاية فظل محتفظا بها ولم تلغ بعد الإسلام الذي أبقى شعائر الحج والسقاية. ولا بد أنها توسعت بتوسع انتشار الإسلام، واما التجارة فان نشاطه فيها وارباحه منها كانت كثيرة. ويُرْوَى أنه قال إن الله «عَوَّضه بالعشرين أوقية التي دفعها لفك اساره في بدر، عوضه الله عنها بعشرين عبداً كلهم يضرب بمال[٣]». وقد أعتَقَ عند موته سبعين مملوكا[٤]. ولا بد ان كثيرا من هؤلاء العبيد كانوا يقومون بأعمال مُرْبحة للعباس.

وحينما مرض الرسول (ص) مرض الوفاة أدرك العباس ما سيولده من أثر في غياب من يشغل السلطة العليا، ويروى أنه جاء يحرض علياً على الذهاب الى الرسول «يسأل إن كان هذا الأمر فينا، والا أوصى بنا الناس»[٥] غير ان الرسول (ص) لم يجب. وهذا يدل على ان العباس كان عند وفاة الرسول (ص) متواجداً في المدينة، غير انه لم يذكر اي مصدر انه صرح برغبته بخلافة الرسول (ص)، ولعله كان يدرك ان مثل هذه الرغبة لن تلقى تأييدا من اي من المهاجرين او الانصار.

---

(١) العثمانية ٦٦.
(٢) ابن سعد ٤ ـ ١/١٠.
(٣) ابن سعد ٤ ـ ١/٨.
(٤) ابن سعد ٤ ـ ١/٢٠.
(٥) ابن سعد ٤ ـ ١/١٨، الطبري ١/١٨٠٧، ٢٧٨٠، العثمانية ٩٣.

يظهر مجرى الحوادث التالية أن معارضة انتخاب أبي بكر كانت فورات عاطفية سطحية ومؤقتة سرعان ما زالت واندثرت، وطغى عليها الإيمان بوحدة الأمة وضرورة تماسكها دون ان تتأثر بهذه الفورات الآنية التي لا يبعد ان يكون قد ضخَّمها الرواة المتأخرون متأثرين بالأحداث التي واجهوها.

الوضع في المدينة عند بيعة أبي بكر

يقول الطبري إنه، على أثر انتخاب أبي بكر للخلافة، «ارتدت العرب إمّا عامة أو خاصة، ونَجَمَ النفاق، واشرأبت اليهود والنصارى»(١) ويذكر ابن أبي الحديد أن «جل المسلمين والعرب تفرقوا عن أبي بكر»(٢)؛ ولا ريب في أن في هذين القولين تعميماً غير صحيح ومبالغة لا تؤيدها دراسة تفاصيل التطورات.

ولا شك أن الطبري قصَدَ بالنفاق الذي نَجَم همسات النقد والتقوُّلات التي ترددت دون أن يكون لها زعماء موجِّهون، ولم ترد اشارة إلى مناقشة السلطة العليا المركزية التي عمل الرسول على تثبيتها، فهي لم تكن موجهة إلى الإسلام ومبادئه أو ضرورة استمرار السلطة المركزية العليا؛ ولا بد أن مما أثار ذلك الفراغ الكبير الذي ولَّدته وفاة الرسول بمكانته العظيمة وامتداد توجيهاته الى مختلف نواحي الحياة، واتصالاته المستمرة بأكبر عدد من الصحابة دون الاقتصار على أفراد محدودين. فلما وُلِّيَ أبو بكر فجأة، وبدون سابق تمهيد، كثرت التقوُّلات في ذلك المجتمع الذي لم تكن فيه تنظيمات تيسر لمن يمارس السلطة نشر آرائه وتوجيهاته.

غير أن هذه البلبلة لم تبلغ في المدينة حد التمرد والعصيان العلني، واقتصر

(١) الطبري ١/١٨٤٨.
(٢) شرح نهج البلاغة ٢/١٠٠٩.

العدد القليل، الذين ذَكَرت المصادر معارضتهم لِبيعة أبي بكر، على اتخاذ موقف سلبي محدود.

أظهر أبو بكر تماسكا وثباتاً، وعالج الأمور بالأعمال لا بالكلام والأقوال والخُطَب، فلم تُرْوَ عنه إلا خطبة واحدة ألقاها على أثَرِ بيعته؛ وأظهر بأعماله عزمه على متابعة سياسة الرسول (ص)، ومتابعة تنفيذ ما كان قد تم إقراره ولو كان ظاهر الأحوال يقضي بالمرونة في تطبيقها. ولم ينفعل مِن موقف مَن جادل في اختياره في السقيفة، فلم يُظهر حقداً على من اعترض على خلافته، وحرص على إبقاء الصلة الوثيقة النامية مع أهل المدينة بمن فيهم الأنصار. والواقع أن أهل المدينة ظلوا متمسكين بالإسلام، حريصين على الحفاظ على دولته، وأدركوا أهمية الخلافة في ثبات الدولة التي كانت المدينة مركزها؛ فلم يُذكر أي عمل معارض عنيف لابي بكر في المدينة التي أسهم أهلها في الجيوش التي قادها أو أنفذها للدفاع عن المدينة والدولة. كل هذا يُظهر عدم استياء الأنصار من سياسته العامة او تضعضع ثقتهم به. وبذلك استقر سلطانه في المدينة وتأمنت سيطرته عليها.

الوضع خارج المدينة

يذكر عروة أنه «لما مات رسول الله (ص)، وفصل أسامة، ارتدت العرب عوامها وخواصها». ويروي سيف عن مجالد قوله: «لما فصل اسامة كفرت الأرض وتصرمت وامتنعت كل قبيلة عامة أو خاصة الا قريشاً وثقيفاً»[1]. ويذكر أيضاً ممن لم يرتد «ثقيف ومن لفها، فانهم اقتدى بهم عوام جديلة وكنانة». أما مكة، فان عتاب بن أسيد ضرب على أهلها البعث فاخضعوا بني مدلج الذين كانت ديارهم في تهامة، واظهروا التمرد ولم يكن في عمل عتاب

(١) الطبري ١/ ١٨٧٠.

جمع غيره[١] والواقع أن مكة أسهمت في اخضاع من تمرد من العشائر حولها.

والواقع أن أهل مكة تَقَبَّلوا الإسلام بعد فتحها وكيَّفوا نشاطهم مع دولته. وكان الإسلام قد أمَّن السلم ووسعه، واستخدم الرسول (ص) عدداً من رجال أهل مكة في الوفادات والقيادات[٢]؛ وفي حنين أعطى اثني عشر من رجالهم مئةً من الإبل لكل رجل[٣]. وقد أعاد إسلام أهل مكة بعد الفتح الصِّلات بين مهاجري قريش وأهل مكة، بعد أن كانت قد تقطعت في الهجرة؛ وبعودة الصلات ازداد التعاون بين أهل مكة والمدينة، واتخذ كثير من أهل مكة منازل لهم في المدينة يقيمون فيها ويُوَثِّقون الصلة بالرسول وبأهلها، ويمارسون دوراً في توجيه سياسة الدولة. ولا شك أن أهل مكة أدركوا أهمية تثبيت السلطة المركزية، فلم يحاولوا زعزعتها، وثَبَتوا على الإسلام وحرصوا على الحفاظ على دولته.

أما الطائف، فإن أهلها تابعوا موقف أهل مكة في البقاء على الإسلام، ولم يُبْدوا أي اعتراض او انحراف.

وثبت أيضاً على الإسلام والتمسك بدولته، إثْرَ انتخاب أبي بكر، قبائل الحجاز التي كانت ديارها بين المدينة ومكة. يقول سيف: «ثم اجتمع مَن حول المدينة مِن القبائل التي غابت في عام الحديبية، وخرجوا وخرج أهل المدينة في جند أسامة، فحبس أبو بكر من بَقِيَ من تلك القبائل التي كانت لهم الهجرة في ديارهم، فصاروا مسالح حول قبائلهم وهم قليل»[٤]. ونص الطبري على «أن أشجع بايعوه»[٥]. ويلاحظ أن عدداً من هذه القبائل كان قد استوطن بعض رجالها في المدينة واتخذوا لهم خططاً فيها في زمن حياة الرسول (ص)، ومن

(١) الطبري ١/ ١٩٢٤.
(٢) الطبري ١/ ١٩٨٤.
(٣) المنمق ٥٧٢.
(٤) الطبري ١/ ١٨٤٨.
(٥) الطبري ١/ ١٨٧١.

الطبيعي أن يكون لهم دور في اجتماع السقيفة التي كانت قرب خططهم، ولم يرد ذكر لاعتراضهم او تلكؤهم في بيعة أبي بكر، مما يدل على أنهم كانوا مؤيدين لانتخابه.

أما خارج المدن والمناطق التي ذكرناها، فان عروة يذكر انه «لما مات رسول الله (ص) وفصل أسامة، ارتدت العرب عوامُّها وخواصُّها». وروى سيف بن عمر عن مجالد أن جيش أسامة بعد أن فصل من المدينة، كفرت الأرض وتصرَّمت، وارتدت من كل قبيلة عامة أو خاصة إلا قريشاً وثقيفاً[1] ويقول أيضاً «ارتدت العرب إما عامة أو خاصة في كل قبيلة ونجم النفاق، واشرأبت اليهود والنصارى» وان «جل المسلمين والعرب قد تفرقت عن أبي بكر»[2].

قال موسى بن عقبة في كتابه أخبار الردة: «لما توفي رسول الله (ص) رجع عامة العرب عن دينهم، أهلُ اليمن، وعامة أهل المشرق، وغطفان، وبنو أسد، وبنو عامر، وأشجع»[3]. وهذا النص يشير إلى المتنبّين وامتداد حركتهم، ويقتصر على عدد قليل من القبائل.

وذكر الواقدي في كتاب الردة نصاً موجزاً شاملاً لأسماء العشائر العربية فقال:

«لما توفي رسول الله (ص) ارتدت العرب:

فارتد من جماعة الناس أسد وغطفان الا بني عبس.

فأما بنو عامر، فتربصت مع قادتها.

وكانت فزارة قد ارتدت.

وبنو حنيفة باليمامة.

(١) الطبري ١/ ١٨٧٠.
(٢) الطبري ١/١٨٤٨.
(٣) نقلاً عن عمدة القارى ٨/ ٢٤٥.

وارتد أهل البحرين، وبكر بن وائل، وأهل دباء، وأزد عمان، والنمر بن قاسط، وكلب، ومن قاربهم من قضاعة.

وارتدت عامة بني تميم.

وارتد من بني سليم عصيّة، وعميرة، وخفاف، وبنو عوف بن امرئ القيس، وذكوان، وحارثة.

وثبت على الاسلام أسلم، وغفار، وجهينة، ومزينة، واشجع، وكعب بن عمرو بن خزاعة، وثقيف، وهذيل، والديل، وكنانة، وأهل السراة، وبجيلة، وخثعم، وطيء، ومن قارب تهامة من هوازن، وجشم، وسعد بن بكر وعبد القيس، وتجيب، وهمدان، والابناء لم ترتد»[1].

يتبين من هذه القائمة الشاملة أن أكثر القبائل ثباتاً على الإسلام هي التي كانت تسكن إقليم الحجاز وهي أسلم وغفار، وجهينة، ومزينة، وأشجع، وكعب بن عمرو بن خزاعة؛ وكلها ممن تسكن في الأطراف الغربية من الحجاز بين المدينة ومكة، وقد أسلمت قريباً من زمن الحديبية، وكانت لكل منها خطط في المدينة استوطنتها منذ زمن الرسول.

وممن ثبت على الإسلام ثقيف، وهذيل، والديل، وكنانة، واهل السراة، وبجيلة، وخثعم، وكلها أسلمت بعد فتح مكة، وكانت ديارها في أطراف الطائف وجنوبي الحجاز، وهي وثيقة الصلة بالطائف ومكة وعلى طريق التجارة بين اليمن ومكة.

أما عبد القيس، وهي تقيم في البحرين، وتجيب، ومذحج، وهمدان، وأهل صنعاء، فانهم من أهل اليمن، ولهم ظروف خاصة سنفصل فيها فيما بعد.

---

(١) نقلاً عن عمدة القارى للعينى ٨/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

مفهوم تعبير «الرِّدَّة»

إن الحركات التي أُطلق عليها اسمُ «الردة» قامت بها قبائل متعددة، ديارها متفرقة، ظهرت في أوقات مختلفة، وهي منوعة في أحوال قادتها والمشاركين فيها بدوافعهم وأفكارهم، فبعضها حركات قام بها مُتنبِّئون اعتمدوا على جهودهم الشخصية في جمع قوات حولهم، وحاولوا وسمها بسمة دينية، وكل حركاتهم قامت في حياة الرسول (ص)؛ وهم مُسَيْلِمة في اليمامة، والأسود في اليمن، وطُلَيْحة في شمال الحجاز؛ ثم سجاح في الأطراف الشمالية الشرقية من جزيرة العرب. وينفرد ابن شبة باضافة «عميرة» إلى المتنبئين[١].

وبعض هذه الحركات تتسم بالتمرد والانشقاق عن دولة الإسلام مُظهرةً أن اسلامها كان مجرد اتفاق شخصي مع الرسول انتهى بوفاته؛ ومن هذه قضاعة، وكلب، وسعد هذيم في شمال الحجاز، وقد قضى عليها اسامة عندما تقدم الى الشمال[٢]؛ فحركَتُهم سياسية وليست عقائدية، ولعل لعدم تشبُّعهم بروح الاسلام أثراً في تمرُّدهم.

وبعض هذه الحركات سياسية محلية كالذي حدث في حضْرَمَوْت، وبعضها محاولات للحد من العلاقة مع المدينة، كالذي فاوض عليه مانعو الزكاة من غطفان وأسد وتميم. وأكثرهم في المناطق البعيدة عن الحجاز. وقد دفع هذا التنوع إلى تعدد آراء الباحثين في تعريف حركة الرِّدَّة التي معناها الحرفي العودة إلى العقائد القديمة بعد اعتناق الاسلام.

وقد أجمل العينى أصناف المرتدِّين في تفسير قول البخاري «وكان أبو بكر (رض) وكفر من كفر من العرب، فقال عمر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله (ص) أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فقال والله لأُقاتِلَنَّ من فرق بين الصلاة والزكاة، فان الزكاة حق المال».

---

(١) تاريخ المدينة لابن شبة ٥٧٧.

(٢) الطبري ١٨٧٢.

قال العيني «وهؤلاء كانوا صنفين: صنفٌ ارتدُّوا عن الدين ونابَذُوا المِلّة وعادوا الى كفرهم، وهم الذين عناهم أبو هريرة بقوله وكفر من كفر من العرب». وهؤلاء الفرقة طائفتان: إحداهما أصحاب مسيلمة من بني حنيفة وغيرهم الذين صَدَّقوه على دعواه في النبوة، وأصحاب الأسود العنسي ومن كان من مستجيبيه من أهل اليمن وغيرها. وهذه الفِرقة باسرها مُنكِرة لنبوة سيدنا محمد، مدعية النبوة لغيره، فتصدَّى لهم وقاتلهم».

و«الطائفة الثانية ارتدوا عن الدين فأنكروا الشرائع، وتركوا الصلاة والزكاة وغيرهما من أمور الدين، وعادوا الى ما كانوا عليه في الجاهلية. وقد كان من ضمن هؤلاء المانعين للزكاة من كان يسمح بالزكاة ولا يمنعها: لأن رؤساءهم صدوهم عن ذلك وقبضوا على أيديهم كبني يربوع، فانهم قد جمعوا صدقاتهم وأرادوا أن يبعثوا بها الى أبي بكر فمنعهم مالك بن نويرة من ذلك وفرقها فيهم»[(١)].

قدَّم الرواة الذين بحثوا الردة تفاصيل تُظهِر تنوعها وتَفَكُّكها وضعف الروابط بينها، غير أنها تَتَّسم بِسِمةٍ تجمعها هي أنها كلَّها لم تعترف بالسلطة الواسعة العليا لأبي بكر الذي اعتبرها صنفاً واحداً واستطاع القضاء عليها بمدة قصيرة بالرغم من سَعَة الأراضي التي امتدت اليها، وكثرة العشائر التي قامت بها، وتبايُن مكانتهم.

ويرجع كثير من الإرباك في فهم طبيعة هذه الحركات الى قِصَر المدة بين ظهورها والقضاء عليها، وتأخُّر تدوين أخبارها، مما فَسَح المجال إلى تأثير الحوادث المتأخرة في صياغة أخبارها والتوسع في نقل أخبار بعض رجالها، وإبراز ادوارهم فيها.

كان موضوع إيتاء الزكاة من القضايا التي واجهها أبو بكر عند تسلُّمه الخلافة. يروي الطبري عن المدائني أن أبا بكر «أقام... بالمدينة بعد وفاة

(١) عمدة القارى ٨/ ٢٤٤.

رسول الله (ص) وتوجيهه أسامة في جيشه، وقد جاءته وفود العرب مرتين، يقرون بالصلاة ويمنعون الزكاة، فلم يقبل منهم ذلك وَرَدَّهم»[١]، وخصص الطبري في نصوص أخرى القبائل التي قَدِمت وفودها على أبي بكر: فذكر أن بني اسد وغطفان قَدِم وفدهم وفاوضوا أبا بكر على أن يقيموا الصلاة، وعلى أن لا يؤتوا الزكاة[٢]، غير أنه ذكر في مكان آخر أن الذي قَدِم عليه بهذه المطالب هو وفود بني أسد وغطفان وهوازن وطئ، وأن وصولهم المدينة كان بعد عشرة أيام من وفاة الرسول (ص)[٣]؛ أي أنهم كانوا يرون البقاء ضمن الدولة على أن يُعْفَوا من التزام دفع الصدقة رغم أن مقدارها كان قليلاً ويُجْبيها رؤساؤهم بما يشبه الالتزام الرمزي، وقد عبّر عن ذلك قُرَّة بن هبيرة القُشَيْري بقوله لعمرو بن العاص: «يا هذا إن العرب لن تطيب لكم نفساً بالاتاوة»[٤].

ولم يُبْدِ أبو بكر اهتماماً بالمقدار القليل الذي كان يجبى لقلة الثروة الحيوانية وكثرة المُعْدَمين، ولوجود موارد أوسع للدولة من المنتوجات الزراعية المستقرة والمتزايدة. غير أنه رفض طلب بني أسد وغَطَفان لسببين، أولهما: أن فيه خروجاً على مبدئه الأساسي في الإبقاء على كافة الالتزامات التي كانت قد قُدِّمت للرسول، والتي تكون بمجموعها كُلّاً يتوقف عليه كيان الدولة، وأنَّ التساهل فيه قد يَجُرّ إلى طلب التساهل في الأمور الأخرى، مما يؤدي إلى انفراط عِقْد الدولة التي قامت على مبادئ جديدة لم يألفها كثير من العرب، ولا يمكن بدونها تثبيت هذه الدولة وأداء رسالتها؛ وهذا مبعث قوله: «والله لو منعوني عقالاً (وفي رواية عناقاً) مما أعطوه للنبي (ص) لجاهدتهم»[٥] ويجدر أن نذكر أن القرآن الكريم أوجب دفع الصدقات فقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾ (التوبة/١٠٣)، وقال: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ١٩﴾

---

(١) الطبري ١/ ١٨٧٠.

(٢) الطبري ١/ ١٨٧٤.

(٣) الطبري ١/ ١٨٩٤.

(٤) الطبري ١/ ١٨٩٥.

(٥) البخاري: اعتصام ٢، ايمان ٣٢؛أبو داود زكاة١، الترمذي ايمان ١، النسائي زكاة٣٥.

(الذاريات/ ١٩؛ المعارج/ ٢٥) ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ (البقرة/ ١٧٧)[١]. ويروى أنه قال: «إن تميماً ان آذن لها من الاسلام في نقض عروة لم ترض بمثله بكر بن وائل، ولو أعطيت كنانة وألفافها وأحابيشها أمراً لم ترض قيس حتى تزداد»[٢].

وطُرح موضوع الممتنع عن دفع الزكاة وموضوع مكانته، وهل يعتبر مرتداً وخارجاً عن الإسلام. وأثارت المسألة جدلاً في حينه ثم تناولتها المصادر التالية[٣].

ومن الممتنعين عن إيتاء الزكاة، خصّتِ المصادر أسد وغطفان. وقد استطاع ابو بكر تشتيت من تقدم منهم لغزو المدينة[٤]. ولعلهم كانوا من المنشقين على طليحة، الذي لم تذكر المصادر مفاوضته أبا بكر. فأهمية موقفهم ترجع إلى أنهم كانوا أول حركة واجهت أبا بكر، وأول حركةٍ أمْلت قراراً باعتبارهم مرتدين، علماً بأنهم من عشائر شمال الحجاز ممن كانت أوضاعهم قلقة وانضمامهم الى الإسلام متأخراً.

موقف سليم وعامر بن صعصعة

وقعت حوادث تمرُّد وانشقاق متفرقة في بني سليم، وعامر بن صعصعة. فأما بنو سليم، التي كانت ديارها في الجهات الجنوبية الشرقية للمدينة، وكانت قد انضمت إلى الإسلام قبيل فتح مكة، فإنها لم تتخذ موقفاً موحداً. قال ابن اسحاق: «كانت سليم بن منصور قد انتفض بعضهم فرجعوا كفاراً وثَبَت بعضهم على الإسلام مع أمير كان عليهم يقال له معن بن حاجر»[٥]. ويَذْكُر في مكان آخر أن أبا بكر «عَقَد لطريفة بن حاجزة وأمّره على بني سليم ومَن معهم من

(١) انظر الأموال لأبي عبيد ٣٥٨، مجمع الزوائد ٢/ ٦٢.
(٢) العثمانية ٨٣.
(٣) انظر: النوبختي فرق الشيعة ٤؛ الفرق بين الفرق ١٢، ١٣ العثمانية ٨١.
(٤) الطبري ١/ ١٨٧٧.
(٥) الطبري ١/ ١٩٠٤.

هوازن»[١]. ويُروى عن مجالد قوله: «ارتدت خواص من بني سليم»[٢]. ويروي خليفة عن عروة فيقول: «كفرت العرب فجاءت بنو سليم إلى ابي بكر فقالوا إن العرب قد كفرت فأمدنا بالسلاح، فأمر لهم بسلاح فأقبلوا يقاتلون أبا بكر»[٣]. ويذكر البلاذري أن الذي جاء أبا بكر هو الفجاءة «وهو بجير بن إياس بن عبد الله السلمي»، «وأنه جمع جمعاً»[٤]. ويذكر الطبري أن طريفة بن حاجزة قضى على حركة الفجاءة[٥].

ومِن مُرْتدي بني سليم أبو شجرة عمرو بن عبد الله، وهو ابن الخنساء الشاعرة، فقد أعلن ردته، وجمع حوله عدداً قليلاً من الأتباع قضى على حركتهم خالد بن الوليد في قراقر بعد انتصاره في بزاخة[٦].

أما بنو عامر بن صعصعة، فان الطبري ذكر أنهم بعد وفاة الرسول تردّدوا وظهر فيهم اثنان أثارا تمرُّدهم، وهما قرة بن هبيرة، وعلقمة بن علافة الذي كان قد أسلم ثم ارتد ولجأ إلى بلاد الشام. فلما تُوُفي الرسول عاد وحاول إثارة بني كعب وجمع عدداً قليلاً من الأتباع الذين استسلموا لقوة أرسلها إليهم أبو بكر بقيادة القعقاع بن عمرو[٧].

ومن مرتدي بني عامر: ابنةُ مالك بن حذيفة، وكان الرسول قد أمر بقتل أمها لعنف عدائها للإسلام، واستطاعت أن تجمع حولها عدداً من بني عامر وشرداء من غطفان وهوازن وسليم وأسد وطي. فلما قضى خالد على حركة طليحة في بزاخة تقدم اليها وشتت حركتها[٨].

---

(١) الطبري ١/ ١٨٨١.

(٢) الطبري ١/ ١٨٧١.

(٣) تاريخ خليفة ٦٨.

(٤) فتوح البلدان ٩٧، وانظر الطبري ١/ ١٩٠٣.

(٥) الطبري ١/ ١٩١٤، وانظر فتوح البلدان ٩٦.

(٦) الطبري ١/ ١٩٠٥، فتوح البلدان ٩٦.

(٧) الطبري ١/ ١٨٩٩ ـ ١٩٠٠.

(٨) الطبري ١/ ١٩٠٢ ويروي هشام بن عروة عن أبيه «كان في بني سليم ردة فبعث أبو بكر اليهم خالد بن الوليد فجمع رجالاً منهم في الحظائر ثم أحرقهم فقال عمر لأبي بكر أتدع رجلاً يعذب بعذاب الله قال والله لا اشيم سيفا سله الله على عدوه ثم أمره فمضى إلى مسيلمة» (ابن سعد ١ ـ ٢/ ١٢٠؛ سير اعلام النبلاء ١/ ٣٧٢)، ولم يذكر عروة زعيم هؤلاء المرتدين.

تعدد مفاهيم تعبير «الرِّدَّة»

يتبين مما اوردناه أعلاه من روايات المعتمدين في أخبار صدر الاسلام أن الحركات التي يُطلق عليها اسم «الردة» هي حركات متفرقة في مواضعها الجغرافية، متباينة في زمن ظهورها وامتدادها وانتهائها، قام بكل منها جماعات من أهل الجزيرة يختلفون في ارتباطاتهم القبلية وأساليب حياتهم ودوافعهم ومواقفهم، فالقائمون بتلك الحركات لم تكن بينهم روابط تجمعهم وتدفعهم إلى التعاون، ولم يقوموا بعمل إيجابي شامل للتعاون، ولم يرد ذكر لاتصالهم بدول أجنبية أو تعاون معها.

وأدرك بعض المرتدين دور الدين فادَّعَوْه، ولكنهم لم تكن لهم أفكار دينية عميقة أو سليمة، ولم يتوافر لهم وقت كافٍ لتكتيل الناس حولهم؛ وفيما عدا مسيلمة، لم يُعرف أن أحداً منهم عالج المشاكل الاقتصادية والاجتماعية، وكانت غالبيتهم من البدو والاعراب. غير أن حركاتهم لم تكن ضد الاستقرار والتحضر وانما كانت آراء سياسية موجهة عموماً ضد السلطة المركزية العامة للدولة، وتحدِّياً لسيطرة دولة الاسلام التي مركزها المدينة على الجزيرة. والسمة العامة التي تجمع كافة هذه الحركات أنها واجهت أبا بكر عند توليه الخلافة، فلم يتساهل تجاهها، وكرس جهوده لاخضاعها بجيش من المسلمين يقاتلون عن عقيدة لتنفيذ خطة شاملة يشرف على تنفيذها قادة أكفياء يعملون لنشر سيادة السلطة المركزية في المدينة على الجزيرة، ويمهدون لتوسع الدولة الإسلامية التي لا تستطيع أداء رسالتها ما لم تكن كبيرة منظمة قائمة على المؤمنين بها.

ان هذه السمة العامة تبرر وضعها جميعاً في باب خاص جامع، غير أن تنوع أُسُسها ومظاهرِها يتطلب دراسة كل منها منفردة؛ وبالرغم من قِصر المدة التي مرت بين قيام كل منها والقضاء عليها، فانها لم تكن جميعاً وفي وقت واحد، ومن الممكن تصنيف هذه الحركات إلى ثلاثة أصناف أساسية: الأول يشمل المُتنبِّئين الذين بدأت حركاتهم في زمن الرسول (ص)، وهم الاسود العنسي، ومسيلمة وسجاح وطليحة بن خويلد. والصنف الثاني حركات تمرد

على السلطة المركزية، ودفع الزكاة. وهي تتجلى في حركات بني تميم وبعض قبائل الجزيرة. والصنف الثالث حركات معارضة للدخول في الإسلام ودولته، في البحرين وعُمان وحضرموت.



الفصل التاسع والعشرون

اليمن والإسلام

أحوال اليمن عند ظهور الإسلام

كانت اليمن عند ظهور الإسلام تعاني من التفكُّك السياسي والانقسامات التي ترجع جذورها إلى زمن الحميريين، وتُقَوِّيها الأحوال الجغرافية المعقدة، بما في ذلك الجبال الشاهقة، والوديان العميقة التي ساعدت على نمو الامراء المحليين مِن الأذواء الكثيرين الذين يُهيمن كل منهم على منطقة واسعة. ولم يفلح الأحباش الذين قَضَوا على الدولة الحميرية وحكموا البلاد بالقوة والقهر وساندوا المسيحية في اليمن في كسب رضى أهل اليمن، ولم يقْضُوا على سلطان الاذواء، كما أن انحيازهم إلى دولة الروم ضيَّق نشاط أهل اليمن، وأضعف علاقاتهم ببلاد المشرق التي كانت تهيمن عليها دولة معادية للروم. وقد واجهت حُكْمَهم ثوراتٌ في اليمن خُتمت عند قيام سيف بن ذي يزن وهو من أسرة كانت مؤيِّدة للحِمْيَريين ولها نفوذ في جنوب اليمن، فاستعان بالفرس الذين أنجدوه بقوة صغيرة أقامت في صنعاء وتزاوج رجالها مع أهل اليمن، ولكنهم لم يُفلحوا في السيطرة على اليمن التي كانت تعاني من انقسامات داخلية زادت في ضعفها. كما أن العدد الكبير من «الأذواء» والمتنفذين المحلِّيين كانوا يتقاسمون السلطان في معظم أرجاء اليمن، وكان كل منهم يُهيمن على منطقة تختلف سعة رقعتها، ويرتبط مع سكانها بروابط وثيقة، ويعتمد بالدرجة الأولى

على الزراعة التي يعمل فيها معظم السكان وعدد غير قليل من الأرقّاء. غير أن هؤلاء الأذواء والمتنفذين لم يكونوا متعاونين فيما بينهم، مما أدى إلى تفكك النظام السياسي والإداري في اليمن.

وتميَّزت اليمن، عند ظهور الإسلام بالحكمة[(١)]، غير أن المعتقدات الدينية التي تُؤلِّه بعض النجوم وتعبدها كانت في حالة من التدهور والانحطاط، فلم يرد لها ذكر في الأخبار ولا عُرف لرجال الدين المتصلين بها أيّ نفوذ. ولا ريب في أنه بقي عدد من معتنقي المسيحية واليهودية، ولكنهم كانوا متفرقين محدودي العدد والأثر. وتشير النقوش والأخبار إلى انتشار عبادة الرحمن، وان كانت صلتها بالأديان الأخرى والأفكار المتصلة بها غير واضحة[(٢)]. ويذكر الهمذاني أن اليمن ظهر فيها عدد من المتدينين منهم عمرو بن عمران بن مزيقا[(٣)].

غير أن التفكك السياسي والجمود الديني لم يعطل الازدهار الصناعي والتجاري في اليمن، فكان كثير من منتوجاتها تصدر إلى العراق وبلاد الشام، وإلى أقاليم جزيرة العرب[(٤)]، وربما إلى بلاد الشرق الاقصى، وظلت محتفظة بعلاقات سليمة طيبة مع أهل الجزيرة العربية عامة، وأهل مكة خاصة.

علاقة اليمن بالحجاز

احتفظ أهل اليمن بعلاقات وثيقة مع أهل مكة الذين أمّنوا بالإيلاف سَيْر القوافل من اليمن إلى بلاد الشام. وقد أسهم كثير من رجال مكة البارزين في

(١) انظر: البخاري: مغازى ٧٤؛ مسلم: ايمان ١٤، ٨٨؛ الترمذي: مناقب ٧١.
(٢) انظر ما كتبه جروهمان في كتابه عن حضارة العرب قبل الإسلام.
(٣) الاكليل ٢/٢٩١.
(٤) انظر عن التجارة مع الحجاز وبلاد الشام ما كتبناه عن تجارة مكة في كتابنا «محاضرات في تاريخ العرب» وعن انتشار المنسوجات اليمانية مقالنا «مراكز النسيج في جزيرة العرب» المنشور في مجلة الأبحاث ١٩٦٥؛ وانظر عن المنتوجات التي تميزت بها وعليها معتمدنا «صفة جزيرة العرب» للهمداني ٣١٤ ـ ٣٢٢ طبعة محمد الاكوع «جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك» للبكري ٢٥ ـ ٢٧ طبعة عبد الله الغنيم.

تنظيم التجارة وتنميتها مع اليمن، وكوّنوا علاقات طيبة مع أهل اليمن، فتزوج عدد من المكّيين بنساء من أهل اليمن، ولم تؤثر حملة أبْرَهة في عرقلة ما بين اليمن ومكة من علاقات طيبة استمرت بعد الحملة.

وعندما قامت الدعوة الإسلامية في مكة، اهتمّ الرسول (ص) بنشر الدعوة في «أم القرى» وما حولها. فلما هاجر إلى المدينة وجّه معظم جهده إلى توضيح معالم الدين وتثبيته في النفوس، وفي تعزيز الدولة وحمايتها وتوسيعها؛ واقتضت الأحوال أن ينحصر عمله في المدينة وما حولها، ولا ريب في أن توتُّر العلاقة بين الرسول (ص) وأهل مكة قد أثّر في سير القوافل إلى الشمال، وكان له تاثير غير مباشر على تجارة اليمن. غير أن جهود الرسول (ص) تركز أكثرها على معالجة أمر المشركين من أهل مكة ولم يَمْتدَّ إلى اليمن. ولم تشر المصادر إلى أي حادث يدلّ على احتكاك الرسول بأهل اليمن ومخاصمته لهم، كما أن صلة النسب التي يؤكدها النسَّابون بين العرب من أهل المدينة وبين أهل اليمن لم يكن لها تأثير فعَّال في إنماء العلاقات بينهما، خاصة وأن تجارة مكة واليمن مع بلاد الشام لم تكن تمُرُّ بالمدينة. ويلاحظ أنه لما اشتد الضيق على المسلمين في مكة قبل الهجرة، اختار لهم الرسول أن يهاجروا الى الحبشة، وليس إلى اليمن، كما أن عدد من انضمَّ إلى الإسلام في عهوده الاولى اقتصر على أفرادٍ قلائل من أهل اليمن ممن كان يقيم في مكة. ومن ابرزهم عمَّار بن ياسِر العنسي، والعلاء الحَضْرمي.

وبعد عقد صلح الحديبية، توقَّف القتال بين الرسول (ص) وأهل مكة، وحلّت علاقات سلمية أمَّنت سير القوافل التجارية في الطريق السالكة إلى الشمال والتي أصبح الرسول (ص) يهيمن عليها بعد أن أتم فتح خيبر ووسع الدولة الإسلامية في الشمال. وبعد أن أتم الرسول فتح مكة مدّ سلطان الدولة الإسلامية إلى الطائف ومخاليفها والقبائل التي تقيم فيها. وبذلك شملت البلاد التي تمر بها قوافل اليمن، وتابعت تحقيق ما استهدفه أهل مكة من الإيلاف. وبذلك صار لدولة الإسلام اتصالٌ مباشر باليمن ومصالحها التجارية.

وتجدر الإشارة إلى بعض التطورات التي حدثت ابان هذه الفترة في الأقطار

المجاورة. ففي السنة السابعة من الهجرة، توفي كسرى أبْرَوِيز ملك الساسانيين، وأعْقَبت وفاتَهُ خلافاتٌ منهكة على ولاية العرش في المدائن[١]. وبعد سنتين، توفي النجاشي ملك الحبشة[٢]، وكانت الدولة البيزنطية تعاني، بسبب المشاكل الدينية، من اضطرابات كان لها أثر على من له صلة بها.

اتصال أهل اليمن بالاسلام ووفودهم

وقد أدرك أهل اليمن سِماتِ الوضع الجديد، واعتمدوا على أنفسهم في معالجة أوضاعهم الداخلية وتأمين مصالحهم، وعَمِلوا على التنسيق معها بطرق من أبرزها توثيق صلتهم بالإسلام ودولته. وفي هذا يقول البلاذري: «لما بلغ أهْلَ اليمن ظهورُ الاسلام وعُلُوّ حقه، أتَتْه وفودهم فكتب لهم كتباً «بإقرارهم على ما أسلموا عليه»[٣].

وذكرت المصادر بعض الوفود اليمانية التي قَدِمت إلى الرسول (ص)، وأشارت إلى عدد أفراد بعض هذه الوفود وزمنِ قدومهم، كما ذكرت بعض من بَعَثهم الرسول (ص) إلى اليمن.

ولما انعقد صلح الحديبية، قَدِم إلى الرسول (ص) وفدٌ من غافق، وبارق، ودوس[٤]، ثم وفد خشين الذي قدم على الرسول عندما كان يتجهز لغزو خيبر[٥]، ووصل الأشاعرة، وهم خمسون رجلاً بعد أن أتم الرسول (ص) إخضاع خيبر[٦]. وكل هذه العشائر تقع ديارها في الأطراف الشمالية من اليمن، وهي متصلة بمخاليف الطائف. وتلا ذلك وفد من النخع قَدِم قبل الفتح[٧]. إن

---

(١) الطبري ١/١٥٧٢.
(٢) الطبري ١/١٧١٧.
(٣) فتوح البلدان ٦٧ ـ ٦٨.
(٤) ابن سعد ١ ـ ٢/٨٠.
(٥) كذلك ٦٥.
(٦) كذلك ٧٩.
(٧) كذلك ٧٧.

هذه الوفود قدِمت في فترة أقرَّت فيها قريش بمكانة الرسول، ولكنها لم تكن قد دخلت الإسلام بعد، أي أن ذلك قد كان قبل أن تتأمن سيطرة الرسول على المناطق التي حول مكة وجنوبها. ولكنها فترة ساد فيها السلم والاستقرار الذي يؤمن سير القوافل، وقدّم الصلح للقبائل الأخرى عملاً يحتذونه دون الخوف من قريش.

وبعد أن فُتحت مكة في رمضان من السنة الثامنة، وانضوى أهلها تحت راية الإسلام، ازداد عدد الوفود القادمة إلى الرسول (ص). ففي تلك السنة، قدِم وفد من ثمالة والحدّان[١]. وفي السنة التاسعة، قدِم وفد من خثعم[٢]، ومن تجيب[٣].

وفي رمضان من السنة التاسعة، قدِمت وفود من بعض الأذواء الحميريين، وتردد منهم ذكر الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، ومسروح او النعمان قَيْلِ ذي رعين، وأرسلت المعافر وهمدان مالك بن مرّة الرهاوى إلى الرسول (ص) تُعلن اسلامها[٤].

وفي السنة العاشرة، قدِم مالك بن مرّة الرهاوي، ونعيم بن عبد كلال[٥]، كما قدِم وفد نجران وبني الحارث بن كعب، وكتب الرسول (ص) لهم كتاباً أقرهم فيه على نُظُمهم شرط أن يُقدِّموا مبلغاً محدداً من المال[٦].

وفي شعبان من تلك السنة قدِمَ على الرسول (ص) وفد خولان[٧]، ثم تلاه وفد الرهاويين[٨]، وفي رمضان قدِم وفد غامد من الازد[٩]، ومن المحتمل أن

(١) كذلك ٨١.
(٢) كذلك ٧٨ وانظر الطبري ١/١٧٢٩.
(٣) ابن سعد ١ ـ ٢/٦١.
(٤) ابن سعد ١ ـ ٣٢٢، الطبري ١/١٧١٧، تاريخ اليعقوبي ٢/٦٣، ٨٤، طبقات فقهاء اليمن ٣٨٦ الوثائق السياسية ٩٠، ١٤٩.
(٥) الوثائق السياسية ١٥٤، طبقات فقهاء اليمن ٣٨٦.
(٦) الوثائق السياسية ١٠٨ تاريخ اليعقوبي ٢/٦٢، ١٠١.
(٧) ابن سعد ١ ـ ٢/٦١.
(٨) ابن سعد ١ ـ ٢/٧٦، الطبري ١/١٧٣٩.
(٩) ابن سعد ١ ـ ٢/٧٦.

عدداً آخر من الوفود لم تذكرهم المصادر قدموا على الرسول (ص) مما يجعل الصورة غير كاملة عن تطور وتوسع هذه العلاقات بين اليمن والرسول في السنوات الثلاث الأخيرة من حياته.

موقف الرسول (ص) وكتبه لأهل اليمن

لم يَرِد أن محمداً (ص) قد أرسل جيشاً إلى أي من عشائر هذه الوفود، ما عدا نجران التي يذكر الطبري أنه (ص) أرسل إليها خالد بن الوليد في سرِيَّةٍ من أربعمائة في ربيع أو جمادى من السنة العاشرة[1]. ولم يقم خالد بقتالهم. ولكنه لم يفلح بإخضاعهم[2]، فأرسل إليهم علي بن ابي طالب[3]. وكل هذا يدل على أن اتصال أهل اليمن بالإسلام قد جرى بطريقة سلمية وبمبادرة منهم، ولعلهم شعروا بأخطار تفكُّكهم، وبما يمكن أن يجلب لهم الانضمام إلى دولة الإسلام من منافع، فتقدموا متفرقين للانضمام إليه، مما سيضعهم ضمن الروابط الأوسع للدولة الإسلامية، ويجمعهم ضمن نطاقها ويوحدهم.

ووجَّه الرسول إلى أهل اليمن كتباً، جمع حميد الله ما ذكرته المصادر منها في كتابه «الوثائق السياسية»، ويبلغ عددها ثمانية وثلاثين كتاباً، وسنعتمد عليها ونذكر أرقامها من الكتاب.

من هذه الكتب ستة عشر كتاباً موجهة إلى أفراد هم: يزيد بن الطفيل من بلحارث (٨٢)، عاصم بن الحارث من بلحارث (٨٨)، جفينة من نهد (٩٢)، حارث ومسروح ونعيم الحميريون (١٠٧)، قيس بن نمط الهمداني (١١٥)، علّك ذو خيوان (١١٥)، مَعْدِ يكَرِب بنُ أبْرَهة الخولاني (١١٨)، ذو مكنف (١١٩)، خالد بن ضماد الازدي (١٢٠)، بارق الأزدي (١٢١)، عمرو بن عبد الله الأزدي (١٢٢)، ارطأة بن كعب النخعي (١٢٨)، قيس بن عمرو النخعي (١٣٠) الحارث بن عبد شمس الخثعمي (١٨٧). وبعض هذه الكتب اقتصر الرواة على

---

(١) الطبري ١/١٧٢٤، وانظر ابن سعد ١ ـ ٢/٧٢.

(٢) الطبري ١/١٧٣١/١٧٥٠، تاريخ اليعقوبي ٢/٦٢.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢/٦٠.

الاشارة إليها دون ذكر نصوصها. أما الكتب التي ذكرت المصادر نصوصها، فأغلبها اقطاعات.

ومن كتب الرسول (ص) إلى أهل اليمن أحد عشر كتاباً موجهاً إلى أفراد وجماعاتهم: وهي: الكتب التي وُجِّهت إلى كل من: عبد يَغُوث الحارثي ومَن تبعه من قومه (٨٣)، ويزيد بن المجمل الحارثي «على قومه من بني مالك وعقبة» (٨٦)، وقيس بن الحصين ذي الغصة «لبني أبيه الحارث ولبني نهد» (٩٠)، ولابي الحارث «واساقفة نجران» (٦٥) ولعمير ذي مران ومَنْ أسلم من همدان (١١١)، ولقيس بن مالك بن سعد «على همدان احمورها وعربها» (١١٢)، ومالك بن النمط «ولمن أسلم من قومه، وخارف، وجناب» (١١٣)، وجنادة الأزدي «وقومه ومن تبعه» (١٢١)، وأبي ظبيان الازدي «وقومه» (١٢١ب، ١٢٢)، ولمطرف بن الكاهن الباهلي «ولمن سكن بيشة من باهلة» (١٨٨).

وأكثر الأفراد الذين ذُكروا في هذه الوثائق، وُلُّوا على قومهم، أو على من أسلم من قومهم، وقد تكون هذه التولية تثبيتاً لمكانتهم القديمة، أو رفعاً لمكانتهم. ومن الواضح أن هذه التوليات مختلفة في مداها، فبعضها على جماعات محدودة وبعضها واسعة: كولاية قيس بن مالك بن سعد. وعلى أي حالٍ فإن الولاية كانت على الجماعات من السكان، وليست على أراضي وأقاليم، وهذا منسجم مع سياسة الرسول (ص) في الاهتمام بالتعامل مع البشر دون الأقاليم، علماً بأن معظم هذه الجماعات كانت لكل منها ديار محددة، وأن معظمهم كانوا مستقرين في المدن والأرياف، وقليل منهم كانوا رعاة متجولين.

ومن الكتب التي ذكرت المصادر أنها أُرسلت إلى اليمن ثلاثة عشر كتاباً وُجِّهت إلى جماعات دون ذكر رؤسائها أو أفراد منهم. وقد وجهت سبعة كتب لأربعة من جماعات مِنْ بِلْحارث، وهم بنو الضباب (٨١) وبنو قنان (٨٣، ٨٧)، وبنو زياد (٨٥) وللنجرانيين (٩٣، ٩٤، ١٠١)، وكتاب لبني نهد (٩١)، ولبني قرة من بني نهد (٨٩)، ولنهشل بن مالك من باهلة «وذكر فيها أن عاملهم

من انفسهم» (١٨٩)، ولأهل جرش (١٨٥)، وبارق (١٢٤)، وخَثْعَم «من حاضر بيشة وباديتها (١٨٦)، وعقيل «علي مَن وراءهم من قومهم» (٢١٦)، والرهاويون «حي من مذحج» (١١٧)، وبني عمرو من حمير (١١٨أ). وفيما عدا الاثنين الاخيرين، فان كل هذه الجماعات تقطن المناطق الشمالية من اليمن. ولم تصلنا معلومات تُعِين على معرفة ما إذا كان عدم ذكر رؤساء لهذه الجماعات راجعاً إلى أنها لم تكن لها رؤساء، أم ان رؤساءها لم يؤيدوا الإسلام. وبصرف النظر عن مدى أصالة هذه الكتب واحتمال الاختلاق في بعضها، فانها تمثل الاتجاه العام لسياسة الرسول (ص) في إدارة المناطق التي ضمتها دولة الإسلام. والراجح أنها طُبِّقت على ما لم تذكره المصادر من أحكام وضَعَها الرسول على مجموعات أخرى، وأن هذه التنظيمات كانت محلية، خاضعةً للسلطة العليا للعمال الذين أرسلهم الرسول.

قام الأستاذ عون الشريف قاسم، في كتابه «دبلوماسية محمد»، بتحليل محتوى هذه الرسائل، ولاحَظ أن الرواة لم يحرصوا على نشرها كاملة، وإنما أسقطوا عدداً غير قليل منها، فرَوَوْا بعض اجزائها، أو اعتبروا الرسالة الواحدة رسالتين. كما لاحظ الأستاذ الشريف أن معظم هذه الرسائل تذكر تفاصيل عن فرائض صدقات المواشي، وبعض فرائض الضرائب على الزراعات.

انضمام باذان إلى الإسلام

ذكرنا من قبل أن أهل اليمن أفلحوا في طرد الأحباش بعد أن تلقَّوْا معونة من الفرس، الذين أرسلوا قوة عسكرية صغيرة استقرت في صنعاء خاصة، وتزاوج بعضهم مع أهل اليمن، وتولد من هذا التزاوج جيل يُسَمّى «الأبناء». وظلت هذه القوة الفارسية الصغيرة في مركزها بصنعاء، بعد الاسلام، ورئيسها يدعى باذان[1].

(١) كان ابن باذان مرزبان طخارستان عندما فتحها العرب (فتوح البلدان ٤٠٢) ولعل أصل باذان من ذلك الاقليم.

وكانت صلته بالدولة الساسانية التي كانت تعاني من الاضطراب والتدهور صلة ضعيفة[1]. ويبدو أن سلطته لم تكن كبيرة، ولم تمتدّ إلى منطقة واسعة: لأن الاذواء والحكام المحليين كانوا يهيمنون على معظم أرجاء اليمن، وكانت لكل منهم سلطات واسعة في المنطقة التي يحكمها.

وقد أدرك باذان ضعف مركزه، فلما انتشر الإسلام وتوسعت دولته بعد فتح مكة، أدرك قوة الدين الجديد فأراد الارتباط به طلباً لدعمه، فأعلن إسلامه وانضمامه إلى دولة الإسلام في السنة العاشرة[2]. ويروي الواقدي أن «الأبناء» أسلموا بعد أن قَدِم عليهم وبر بن يحنّس «يدعوهم إلى الإسلام، فنزل على بنات النعمان بن بُزُرْج فأسلمن، وبعث إلى فيروز الديلمي فأسلم، وإلى مركبوذ، وعطاء ابنه، ووهب بن منبه[3]. ولعل وبراً اتصل بباذام أيضاً وكان الواسطة بينه وبين الرسول (ص).

وُلاة الرسول (ص)

يروي الطبري، بسند عن عبيد بن صخر الانصاري، أن باذان مات سنة ١٠هـ بعد حِجّة الوداع، ففرق عمله بين شهر بن باذان، وعامر بن شهر الهمداني، وعبد الله بن قيس أبي موسى الاشعري، وخالد بن سعيد بن العاص، والطاهر بن أبي هالة، ويعلى بن أمية، وعمرو بن حزم، وكان عَلَى بلاد حضرموت زياد بن لبيد البياضي، وعكاشة بن ثور بن أصغر الغوثي على السكاسك والسكون ومعاوية بن كندة، وبعث معاذ بن جبل معلماً لأهل البلدين: اليمن وحضرموت[4].

ويروي، بسند عن الليثي، أن الرسول (ص)، بعدما قضى حِجَّة الوداع، عاد إلى المدينة، ووجّه إمارة اليمن وفرَّقها بين رجال وأفراد، لكل رجل بحيزة،

(١) الطبري ١/ ١٥٧٤.

(٢) الطبري ١/ ١٧٦٣.

(٣) الطبري ١/ ١٧٦٣، ابن سعد ٥/ ٣٨٨.

(٤) الطبري ١/ ١٨٥٢، طبقات فقهاء اليمن ٢١.

ووجّه إمارة حضر موت ووزّعها بين ثلاثة، وخصَّ كل واحد منهم بحيزة، واستعمل عمرو بن حزم على نجران، وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نجران ورمع وزبيد.

وعامر بن شهر على همدان

وعلى صنعاء ابن باذام

وعلى عك والاشعريين الطاهر بن ابي هالة

وعلى مأرب أبا موسى الاشعري

وعلى الجند يعلى بن امية.

وكان معاذ معلماً يتنقل في عمالة كل عامل باليمن وحضرموت[(١)].

يُظهر هذا النص أن الرسول (ص) ولَّى سبعة عمال، كل عامل على منطقة، وأنه جعل معاذ بن جبل مُشرفاً عليهم دون أن تكون له منطقة يحكمها مباشرة. وولَّى اثنين من هؤلاء العمال على قبائل، وهما: عامر بن شهر الذي وُلِّيَ همدان، والطاهر بن أبي هالة، وقد وُلِّي عك والأشعريين. أما الخمسة الآخرون، فقد وَلِيَ كل منهم على منطقة جغرافية بصرف النظر عن القبائل التي تقيم فيها، وكل هذه المناطق تقع في الأقسام الشرقية من اليمن، وهي تشمل السَّرَاة ومنحدراتها الشرقية، ولم تذكر المصادر أساس هذه التقسيمات وحدودها، ولعلها ترجع إلى زمن هيمنة الدولة الحميرية.

وذَكرت بعض المصادر روايات أخرى عن عمال الرسول (ص) ومناطق عِمالاتهم، فذكر البلاذُري واليعقوبي أن خالد بن سعيد وَلِيَ صنعاء، وأن مَعاذاً أُرسل إلى الجند، وأن أبا موسى الأشعري وَلِيَ زبيد ورمع والسواحل[(٢)]. وذكر اليعقوبي ولاية خالد على صنعاء، ومعاذ على الجند[(٣)]. أما ابنُ سعد فذكر ان

---

(١) الطبري ١/١٨٥٣، ١٩٨٢، وانظر عن تولية الطاهر وأبي موسى، الطبري ١/ ١٨٥٤، وتولية يعلى فتوح البلدان ٦٨، تاريخ اليعقوبي ٢/ ١٠١.

(٢) فتوح البلدان ٦٨، انساب الاشراف ١/ ٥٢٩.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٦٠، ٦٢.

الرسول (ص) وَلَّى فروةَ بن مسيك المرادي على مراد وزبيد ومذحج كلها، وأنه بعث معه خالد بن سعيد بن العاص[١]، أي أن أكثر الولاة الفعليين كانوا من أهل اليمن، وأما خالد فلم تُحدَّد له ولاية.

ووردت في ولاية المهاجر عدة روايات، فذكر البلاذري أنه أعْقَبَ خالدَ بن سعيد بن العاص[٢]. وذكر الطبري أنه أُرسل في سنة تسع إلى صنعاء[٣]، وذكر اليعقوبي أن المهاجر كان على صنعاء. وذكر في رواية أخرى انه كان على حِمْير[٤]، وفي رواية ثالثة أنه كان على صنعاء والجند[٥]. ولعل بعض هذا الاختلاف في الروايات راجع إلى تبدلات حدثت في زمن الرسول (ص) أو في زمن خلافة ابي بكر.

كان هؤلاء العمال ممثِّلين للرسول (ص)، فكانت لهم مكانة مُميَّزة. غير أن سلطاتهم كانت محدودة أمام الأمراء ورؤساء القبائل المحليين الذين لم يعزلوا عن سلطانهم. وقد رُوِي أن الرسول (ص) كتب إلى معاذ بما يجبيه، غير أن عدم ذكر المصادر وصول الجبايات من اليمن إلى الرسول (ص)، يدل على أن الجباية كانت محدودة إن لم تكن معدومة، خاصة وأن حركة الأسود سرعان ما توسَّعت واضطُرَّ ولاة الرسول الى الانسحاب. ومما يلفت النظر أن هؤلاء الولاة كافة أُرسلوا من المدينة، وأن استخدام أهل اليمن كان محدوداً بواليين وأن معظم الولاة لم تكن لهم صلة سابقة باليمن.

(١) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٦٤، ٥/ ٣٨٣ وانظر طبقات فقهاء اليمن ٣٤.
(٢) فتوح البلدان ٦٨، انساب الاشراف ١/ ٥٢٩.
(٣) الطبري ١/ ١٧٥٠.
(٤) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٦٠.
(٥) كذلك ٢/ ١٠١.

التحدي والانشقاق

حركة الأسود العنسي

في هذه الأحوال ظهر في اليمن الأسود العنسي وادَّعى النبوة. وقد أجمل البلاذُري حركته فقال: «قالوا كان الأسود بن كعب بن عوف العنسي قد تكهَّن وادعى النبوة فاتَّبَعه عنس، واتَّبعه أيضاً قوم من غير عنس، وسمى نفسه رحمٰن اليمن، كما تَسَمَّى مسيلمة رحمٰن اليمامة. وكان له حمار مُعَلَّم يقول له: اسجد لربك فيسجد، ويقول له ابْرُك فيبرُك، فَسُمِّي ذا الحمار، وقال بعضهم هو ذو الخِمار لأنه كان متخمرا مُعْتَمّاً ابدا.. وأخبرني بعض أهل اليمن أنه كان أسود الوجه فسُمِّي الأسود للونه، وأن اسمه عبهلة»[1]. ويروي السمعاني قائلاً: «حُكي أن الأسود كان معه شيطانان يقال لأحدهما إسحق، وللآخر شقيق. وكانا يخبرانه بكل شيء يحدث من أمر الناس. فساد الأسود حتى أخذ ذمار، فلما مات باذان، أخبره شيطانه بموته فعجّل بالتقدم الى صنعاء ودخلها[2]

ويقول الطبري إنه «ذو الخمار عبهلة بن كعب وهو الأسود[3]، وانه كان كاهناً شعباذاً وكان يُريهم الأعاجيب ويَسْبي قلوبَ من سَمعه»[4].

ويذكر البلاذري في هذا النص أن تعبير «الأسود» هو لقب أُطلق عليه لسواد بَشَرته، ومن المعلوم أن في اليمن كثيراً ممن لَوْنُ بشرتهم داكنة، ولعل ذلك راجع إلى صلات التزاوُج بينهم وبين السود من الافارقة. أما اسمه الأصلي فهو «عبهلة» وهو اسم يماني أصيل، ويذكر أبو عبيدة ان العباهلة في اليمن «ملوكهم

---

(١) فتوح البلدان ١٠٤.
(٢) الانساب ٦/١٠ طبعة حيدر اباد.
(٣) الطبري ١/١٧٩٥.
(٤) الطبري ١/١٧٩٦.

الذين أُقرُّوا على ملكهم»[1] غير أن المصادر لم تذكر انه كان من الملوك أو الأذواء، أو أنه ادعى انتسابه إليهم.

أقام الأسود العَنْسي دعوته على التكهُّن وادِّعاء النبوة: فاتجاهاته الفكرية اتجاهات دينية في الدرجة الأولى وليست اجتماعية. ومن المعلوم أن الكِهانة كانت معروفة في شبه جزيرة العرب ومقدَّرة عند أهلها الذين كثيراً ما كانوا يلجأون إلى الكهّان[2]. ولعل مما يتصل بهذا لُبْسُه الخِمار وهو ما كان معروفا عند الكهان العرب[3].

ذكر الطبري «كان الأسود كاهنا معه شيطانٌ تابع له»، و«أنه يقول، يعني شيطانه الذي معه»[4] و«شيطانه قد أنذر مكانه»[5]، وذكر أنه «يَسْبِى قلوب من سمع منطقه»[6]، غير أن المصادر لم تذكر ادّعاءه بنزول أقوال عليه، كالذي ادَّعاه مُسَيْلِمة أو طُلَيْحة. ويذكر ابن سعيد أن الأسود كان يمارس السحر فَلحقه كثير من رعاع اليمن[7].

ذكر البلاذري أن الاسود «سمَّى نفسه رحمن اليمن كما تَسَمَّى مسيلمة رحمان اليمامة» وقد ذكرنا أن تأليه الرحمن كان معروفاً في جزيرة العرب قبل ظهور الاسلام، وتسمية الاسود نفسه، «رحمن اليمن» قد تعنى ادعاءه الالوهية، وهو ما لم يقل به أحد من الرواة. فالراجح أن تعبير البلاذري غير دقيق، وأن الاسود دعا إلى عبادة «رحمن اليمن»، أي أنه لم يَدْعُ إلى عبادة أحد آلهة النجوم التي كانت تُعْبد قديماً في اليمن، وإنما دعا إلى عبادة إله سماوي

---

(١) لسان العرب ١٣/٤٤٩.
(٢) مروج الذهب ٢/١٥١ ـ ١٧١.
(٣) يذكر ابن سعد ان طاووس الفقيه اليماني كان يتقنع: ابن سعد ٥/٣٩٢، وانظر شرح القصيدة الحميرية ٣٦٠ ويذكر ابن الحائك الهمداني ان السكاسك كانوا معروفين بالسحر والكهانة (صفة جزيرة العرب) ١٣٧، ١٩٥.
(٤) الطبري ١/١٨٦٤.
(٥) الطبري ١/١٨٦٧.
(٦) الطبري ١/١٧٩٦.
(٧) نشوة الطرب ٢٤٣.

سلطانه مقصور على اليمن، وليس بعالَمِيّ، ولكن المصادر لم تذكر تفاصيل عن الافكار الدينية التي دعا اليها، ولم تذكر أنه وضع لاتباعه طقوساً أو فرائض أو تنظيمات محددة.

ينتمي الأسود إلى بني مالك من عنس، وهي قبيلة يَعُدُّها النسابون من مَذْحِج التي تضمّ عشائر أخرى أبرزها مراد وسعد العشيرة[1]. وديار عنس في الأطراف الشرقية من اليمن، بين صنعاء ومَأْرِب، وهي من سرو مذحج، ويجري فيها ميزاب اليمن الشرقي، وهو أعظم وديان مشرق اليمن[2].

وتمتد منازل عنس إلى مأرِب ومعدن الرضراض «وهو معدن لا نظير له في الغزر، وكان حدّاً بين نهم ومرهبة ومراد وبلحارث وخولان العالية»[3]. ولِعَنَس ذِمارٌ وهو مخلاف كثير الخير، عتيق الخيل، كثير الاعناب والمزارع والمآثر، وبالقرب منه مناجم الجَزْع وبعض مناجم العقيق[4]، وأكثر أهله يتكلمون الحِمْيرية[5].

يقول الطبري: «كان أول خرجٍ حين خرج من كهف خبّان، وهي كانت داره وبها نشأ»[6]، وكهف خبّان الذي ظهر فيه من أودية مخلاف ذي رعين، وهو شرقي جبل يرط، وفيه اثار كثيرة[7].

ذكرنا قول البلاذري أن الاسود لقى في دعوته تأييداً من عنس، وأنه انضم اليه أيضاً عدد من غير عنس، وذكر الطبري أن رِدَّة الأسود كانت «في عامة

(١) جمهرة الأنساب لابن حزم ٤٠٦، (وسنسميه أيضاً الأنساب).
(٢) صفة جزيرة العرب ١٥١ ـ ٢.
(٣) صفة جزيرة العرب ١٥٤.
(٤) صفة جزيرة العرب ٢٠٦.
(٥) صفة جزيرة العرب ٢٤٨، وانظر ايضاً الجوهرتين العتيقتين ٣٥٨ ـ ٣٥٩ (تعليق حمد الجاسر).
(٦) الطبري ١/١٧٩٦، ١٨٦٨.
(٧) صفة جزيرة العرب ٢٠١، وانظر تعليق الاستاذ الاكوع ناشر الكتاب.

مَذْحِج»[١]، وانه «تَبِعه أعوام مذحج»[٢] وانه «كاتبته مذحج، وواعدته نجران واخرجوا عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بن العاص، وانزلوه منزلهما ووثب قيس بن عبد يَغُوث على فروة بن مسيك وهو على مراد فأجلاه»[٣].

ان استجابة عنس ومذحج لدعوة الأسود قد يرجع بعضها إلى ما كان يريهم من الأعاجيب، أو منطقِه الذي يَسْبي قلوب مَن سمعه، غير أن المصادر لم تذكر الأفكار التي دعا إليها ولا التنظيمات التي أراد تطبيقَها، كما أننا لا نعلم المدة التي قضاها في نشر دعوته قبل إعلان حركته، ولا بد أنه كان للروابط القبلية أثر في التأييد الذي لَقِيَه من عنس ومذحج.

واستجابت له كندة، وكان من أكبر أنصاره عمرو بن مَعْدِي كَرِب، وقد جعله الأسود إزاء فروة بن مسيك المؤيد للرسول (ص)[٤].

يروي الطبري بسند عن عبيد بن صخر الأنصاري فيقول: «وغلب الأسود على ما بين صيهد، مفازة حضرموت، إلى عمل الطائف إلى البحر حتى عدن، وطابقت عليه اليمن وعك تهامة معترضون عليه، وجعل يستطير استطارة الحريق، وكان معه سبعمائة فارس يوم لقى شهرا سوى الركبان، وكان قواده قيس بن عبد يغوث الازدي، ومعاوية بن قيس الجنبي، ويزيد بن محرم، ويزيد بن حصين الحارثي، ويزيد بن الأفكل الأزدي، وثَبَت ملكُه، واستغلظ أمرُه، ودانت له سواحل حاز عثر والشرجة والحرزة وغلافقة، وعدن، والجند، ثم صنعاء إلى عمل الطائف، إلى الأحشية وعليب»[٥]، ويلاحظ أن في هذه القائمة اثنين من الأزد، وواحداً من كلٍ من بني الحارث بن كعب، ومن جنب، مما قد يدل على امتداد سلطانه إلى مناطق ديار الأزد.

---

(١) الطبري ١/ ١٧٩٥.
(٢) الطبري ١/ ١٨٥٤.
(٣) الطبري ١/ ١٧٩٢.
(٤) الطبري ١/ ١٩٩٣، ١٩٩٥.
(٥) الطبري ١/ ١٨٥٤ ـ ٥.

اهتم الاسود بالتوجُّه نحو الشَّمال، وكان تقدمه اليها سريعاً. يذكر الطبري أنه دخل صنعاء بعد خمسةٍ وعشرين يوماً، وقد حقق هذا الانتصار بعد تغلُّبه على مقاومة الأبناء وفروة، ثم تابع تقدمه إلى الشمال نحو نجران فضمَّها إليه بمدة قصيرة، حيث أن مدة سيطرته منذ أن أعلن حركته لم تتجاوز الأربعة أشهر[١].

إن المناطق الشمالية الشرقية التي ركَّز الأسود عليها نشاطه كانت ديار مذحج وهم أكثر مناصريه، إضافةً إلى أنها تمر بها طرق القوافل الكبرى من البحر العربي إلى بلاد الشام وكانت أهم مراكزها صنعاء ونجران. أمَّا صنعاء فكان يسيطر فيها باذان و«الأبناء»، غير أن هذا لم يكن كافياً لتأمين سيطرة قوية على صنعاء، خاصة وأنهم «ناقلة» اغراب في أصولهم وثقافتهم، وأنهم كانوا يعتنقون الزرادشتية التي لم يَدِنْ بها أحد من العرب. أما نجران فان أهلها كانوا يَدِينون بالنصرانية ولهم تنظيمات إدارية مستقرة، وتمر في ديارهم قوافل التجارة، ونشطت فيهم الزراعة والصناعة، ومعظمهم من بني الحارث بن كعب المعروفين ببأسهم في الحرب. ولعل توجيه الأسود نشاطه إلى هذه المنطقة الشمالية الشرقية يرجع إلى أهميتها الاقتصادية والحضارية وإلى اتصالها بالبلاد الواسعة التي وراءها، ومن المعلوم أنها كانت قد ثبّتت علاقة طيبة مع الإسلام.

وقد وَسَم هذا التوجُّه حركة الأسود بالسِّمة الإقليمية المحلية، فلم تُعرف عنه محاولةٌ لتوسيع دعوته وسلطانه خارج اليمن، ولم يرد ذكرٌ لاظهاره طموحاً في مد سلطانه إلى الحجاز، أو ذكرٌ لاتصاله بالرسول (ص) عن طريق وفادات أو مفاوضات كالذي فعله مسيلمة، كما أنه لم يحاول تعطيل الصلات مع الحجاز أو إظهار منافسةٍ لأهله، فظلت حركته محلية لا تعرقل العلاقات السلمية المستقرة، ولم يقم بأي جهد لتوسيع سلطانه خارج اليمن، أو الحصول على سند خارجي لحركته.

---

(١) الطبري ١/ ١٨٥٤.

لم يحاول الأسود العنسي في حركته «المحلية» احياء العقائد اليمانية القديمة. فقد دعا إلى عبادة «رحمان اليمن»، ولم يَدْعُ إلى عبادة أيٍّ من الآلهة القديمة التي كان يعبدها أهل اليمن، ولم يرد ذكرٌ لتمجيده دولة الحِمْيَريّين أو دعوته لإعادة مكانتهم، حتى إنه لم يُعْنَ بِمَدِّ نشاطه إلى مناطق الحميريين الأصلية في جنوب اليمن، رغم ما كان لتلك المناطق من أهمية اقتصادية من حيث أنها مركز صناعات للنسيج والأسلحة. ومع أنه أقام مع أمراء كِنْدَة علاقة متينة، إلا أنه لم يَبْدُ منه ما يدلّ على أنه أراد إعادة سلطانهم، أو أنه حاول إعادة نُظُمهم، أو أنه أَوْلَاهم تقديراً خاصاً. والواقع أن حركته قامت على مرتكز ديني مخالِف للمرتكز الذي قامت عليه الدولة الحِمْيرية.

يتبين من رواية الطبري التي ذكرناها أن سلطان الأسود، بعد دخوله صنعاء، قد امتد إلى كافة أرجاء اليمن، ووصل إلى أطراف مخاليف الطائف، وقد تحقَّق هذا الامتداد في وقت قصير، إذ أن المدة بين إعلانه الدعوة ومقتله لم تتجاوز الأربعة أشهر، قضى معظمها في الإعداد لدخول صنعاء والسيطرة عليها، وقد يدلّ قِصَر مدة حكمه على أن في رواية الطبري مبالغة تُباعِدُها عن الواقع، ولكنها على أي حال تدل على توسُّع في سلطانه تم في مدة قصيرة وبطريقة سلمية، وهي راجعة إلى استجابة ذاتية أكثر مما هي ناجمة عن فرض خارجي مارسه. ومن الواضح أن هذه الاستجابة تُعبِّر عن التأييد أكثر مما تعبّر عن الاستجابة لعقائدَ وأفكارٍ دينية أو اجتماعية، إذ لم يُرْوَ عنه أنه دعا إلى اصلاحات جذرية عميقة، أو أنه وضع فرائض، أو طالب بتبديلات أساسية.

تنظيمات الأسود

إن سرعة امتداد حركة الأسود لم يرافقها تكتيلُ أنصاره وربْطُهم بآرائه وأفكاره، فسيطرته قائمة على مكانته الشخصية وطموحاته والآمال الغامضة التي أثارها نجاحه، وليست منبعثة عن عقائد واضحة عميقة في نفوس أتباعه.

فالتأييد الواسع الذي اكتسبه كان سطحياً وظاهرياً. ذلك أن صنعاء التي

اتخذها مركزاً لحركته، كانت فيها للأبناء قوة[١]، ومع أنه كان شديداً عليهم إذ استذلهم واستخدمهم فأضرَّ بهم[٢]، إلا أنه لم يقْضِ عليهم أو يفكِّكْ وحدتهم، فأسند أمرهم إلى رجلين منهم، هما فيروز وداذويه[٣]، وتزوج امرأة باذان، رئيسِهم السابق[٤].

ذكر الطبري بعض التنظيم الذي وضعه الأسْوَد فقال: «كان خليفته في مذحج عمرَو بنَ مَعْدِي كَرِب، وأسند أمره إلى نفر. أما أمر جنده فإلى قيس بن عبد يغوث (المرادي) وأسند أمر الابناء إلى فيروز وداذويه[٥]. ومن الطبيعي أن هذا التنظيم تم بعد دخوله صنعاء، وهو يُظهر اهتمامه الخاص بمذحج وبالجند، وبأمر الأبناء، واقتصر على القول بأنه «أسند أمره إلى نفر»، دون أن يوضح طبيعة هذا الأمر، وهل هو مقتصر على تنظيم الادارة المركزية، أم أنه يشمل التنظيمات التي وضعها لإدارة اليمن، علماً بأن الطبري لم يذكر اسم أي من هؤلاء النفر الذين أسند أمره اليهم. والراجح أنه أبقى الأوضاع السائدة مع تعديلات جزئية ضئيلة، وأن سلطانه كان أوضح في صنعاء التي كانت غير متماسكة، أما المناطق الأخرى فقد تركها بأوضاعها دون أن يفرض عليها ما يعبر عن طموحاته الشخصية المادية أو السياسية، وأبقى الزعماء القدماء ولم يعمل على الحد من سلطانهم، أو التدخل في ترجيح فئة على أخرى، ولا بد أن وعورة أراضي اليمن وتفكُّكَها السياسي أعاقه عن فرض نظام موحَّد لها، وبذلك بقي التفكك السياسي عميقاً وراء الوحدة الظاهرية، علما بأنه لم يضع نظاماً لوراثة الحكم. فلما قُتل انقطعت حركته إلا من بعض أتباعه الذين ظلوا متكتلين. ولكنهم لم يعملوا على الثأر له، أو الحفاظ على نظامه.

إن التوسُّع الكبير الذي حقّقه الأسود كان سطحياً وظاهرياً، لم يَنْفَذ إلى

(١) الطبري ١/١٨٥٨.
(٢) فتوح البلدان ٦٩.
(٣) الطبري ١/١٨٥٥.
(٤) فتوح البلدان ٦٩.
(٥) الطبري ١/١٨٥٧.

توحيد إداري أو توجُّه فكري عميق. وإن قَصْرَ نشاطه على اليمن عزله عن العالم الخارجي في جزيرة العرب وغيرها مما له تأثير كبير في توجيه أحداث اليمن. ثم إن ضعف السلطة المركزية في اليمن قاد إلى قوة نفوذ الامراء والحكام المحليين الذين كثيراً ما كانت مصالحهم الخاصة متضاربة، وكان قِصَر مدة حكمه مؤثراً في بقاء نفوذ هؤلاء الحكام الذين سبق أن اتصل كثير منهم بالإسلام وأعلن انضمامه إليه أو تاييده له. والواقع أن هذا الميل إلى الإسلام كان قائماً حتى عندما أعلن الأسود حركته. يذكر الواقدي أنه في السنة الحادية عشرة «قَدِم وفد النخع في النصف من المحرم على رسول الله، رَأَسَهُم زرارة بن عمرو، وهم آخر مَن قدم من الوفود»[1].

موقف الرسول (ص) من حركة الأسود

ولم تكن سيطرة الأسود قوية في صنعاء حيث كانت عدة كتل أبرزها الأبناء، وفروة بن مسيك المرادى ممن مالأ الإسلام وأيده. ولعلهم أدركوا أن الانضمام إلى الإسلام يؤمن لهم هداية فكرية وروحية ومصالح أوسع مما تؤمنه حركة الأسود الاقليمية غير الطموحة. وقد أدرك الرسول (ص) الضعف الذي تعانيه حركة الأسود، فتابع اهتمامه بالتوجُّه نحو الشمال، ولا ريب أن الرسول (ص) أدرك أهمية ما بين اليمن والحجاز من المصالح المشتركة التي تؤمنها العلاقات السلمية بعد أن فشلت حملة أبرهة، وأدرك اليمانيون عدم جدوى الاعتماد على التوسع بالقوة. وكانت الدولة الإسلامية عند قيام الأسود بحركته قد تثبتت فيها أركان الدعوة، واتضحت معالمها، وتبين شمولها وعالميتها بعد استجابة العرب لها. وأدرك الرسول (ص) أيضاً التفكك الداخلي في اليمن، ولذلك لم يُجَهِّز جيشاً للقضاء على حركة الأسود، وإنما اكتفى بالأساليب الدبلوماسية «فحاربه النبي بالرسل والكتب حتى قتله الله وعاد أمر النبي كما كان»[2].

---

(١) الطبري ١/١٨٦٨.

(٢) الطبري ١/١٩٨٢.

وكان الرسول قد اتصل بعدد من رجال اليمن، فأرسل وبر بن يحنس بكتاب إلى الابناء يدعوهم فيه إلى التمسُّك بالإسلام، والنهوض في الحرب «والعمل في الاسود، إما غيلة وإما مصادفة»[١]، كما أرسل إلى «عامر ابن شهر، وذي زود، وذي مران، وذي الكلاع، وذي ظليم». وكتب أيضاً «إلى أهل نجران، إلى عربهم وساكني الأرض من غير العرب، فثبتوا، فتنحوا وانضموا إلى مكان واحد»[٢]، واستجابت هذه القوى لما دعاهم الرسول اليه، غير أن الضربة الحاسمة جاءت في صنعاء حيث أفلح قيس بن مكشوح بالتعاون مع اثنين من زعماء الأبناء، وهما فيروز، وداذويه، في قتله[٣]، في آخر شهر ربيع الأول من سنة ١١[٤]، أي قبيل وفاة الرسول (ص).

«وأتى الخبرُ النبيّ الليلة التي قتل فيها العنسي ليبشرنا به»[٥]. غير أن خبر مقتله وصل المدينة بعد بيعة أبي بكر، وكان ذلك بعد ثلاثة أو أربعة أشهر من إعلان حركته[٦].

إن سرعة انهيار ما قام به الأسود حال مقتله يُظْهر مدى ضحالة هذه الحركة وضعف أثرها في تكتيل أهل اليمن. والواقع أن التوسع السريع الذي حققه الأسود كان مقصوراً على منطقة محدودة ولم يشمل كل اليمن، فقد ظلت المناطق الغربية والجنوبية من اليمن خارجة عن سيطرته، وكان عمّال الرسول (ص) يسيطرون عليها. وفي هذا يقول الطبري انه عندما دخل الأسود صنعاء «خرج معاذ هارباً، ومر بأبي موسى وهو بمأرب فاقتحما حضْرَمَوْت. أما معاذ، فانه نزل في السكون. وأما أبو موسى، فانه نزل في السكاسك، وانحاز

(١) الطبري ١/١٨٥٦.

(٢) الطبري ١٨٥٧.

(٣) الطبري ١/١٨٦١، ١٨٦٨، تاريخ اليعقوبي ١٠٨/٢، تاريخ خليفة ٨٤ وانظر عن مقتل فيروز ابن سعد ٣٨٩/٥، وعن مقتل داذويه ابن سعد ٣٩٠/٥.

(٤) تاريخ خليفة ٨٤.

(٥) الطبري ١/١٨٦٣، ١٨٦٨.

(٦) الطبري ١/١٨٦٨، فتوح البلدان ١٠٦، ويذكر البلاذري ان الاسودقتل بعد وفاة الرسول (ص): فتوح البلدان ١٠٦.

سائر اليمن إلى الطاهر بن عمرو (ابن حزم) وخالد (بن سعيد)، فإنهما رجعا إلى المدينة والطاهر يومئذ في وسط بلاد عك بحيال صنعاء»[١].

وقد ختم مقتل الأسود الأفكار التي دعا إليها. غير أن الذين قاموا باغتياله لم يكن لهم برنامج موحد، أو هدف واضح أو نظام مفصَّل يعتزمون تطبيقه. وكانت لبعضهم صلة بالرسول (ص) والاسلام، ولكن هذه الصلة لم تؤمن لهم السيطرة التامة خاصة وأن مقتل الأسود لم يقض كلياً على التكتل الذي أوجده. وظل عدد من أتباعه لا يدينون للوضع الجديد[٢]، وكانوا يسيطرون على ما بين صنعاء ونجران يقودهم معاوية بن أنس[٣]، كما أن عمرو بن معد يكرب تابع المقاومة ولم يستسلم[٤]. وقد أخافت قوة انصار الأسود قيس بن المكشوح، فادعى ان داذويه هو الذي قَتَل الأسود، «ثم وثَبَ على داذويه فقتله ليُرضي بذلك قوم العنسي، فكتب أبو بكر الصديق إلى المُهاجر بن أمية أن يبعث اليه قيس بن المكشوح في وثائق»[٥]. وقد دفعت هذه الخلافات القائمين بقتل الأسود أن يطلبوا من معاذ بن جبل تولي الحكم في صنعاء وإعادتها إلى حظيرة الإسلام[٦].

ردة قيس بن مكشوح المرادي

ان السيطرة الإسلامية على صنعاء لم تدم طويلا. يروي الطبري بسند عن فيروز أنه، بعد ثلاثة أيام من سيطرة المسلمين على صنعاء، «أتانا خبر وفاة رسول الله (ص) فانتقضت الأمور، وأنكرنا كثيراً مما كنا نعرف، واضطربت الأرض»[٧]. ويذكر البلاذري أنه بعد وفاة الرسول «ارتدت خولان باليمن فوجه

---

(١) الطبري ١/ ١٨٥٤، وانظر عن اقصاء خالد بن سعيد: شرح القصيدة الحميرية ٣٦٠.
(٢) الطبري ١٩٩٣.
(٣) الطبري ١/ ١٩٨٣.
(٤) الطبري ١/ ١٩٨٣، ١٩٩٣.
(٥) ابن سعد ٥/ ٣٩٠.
(٦) الطبري ١/ ١٨٦٣.
(٧) الطبري ١/ ١٩٦٣.

أبو بكر إليهم يعلى بن منيه، فظفر بهم وأصاب منهم غنيمة وسبايا، ويقال انه لم يَلْقَ حرباً، ورجع القوم إلى الإسلام[1] وواضح، من هذا النص، أن الحركة التي حدثت على أثر وفاة الرسول لم تكن استمراراً لحركة الأسود، وإنما كانت انشقاقاً على دولة الإسلام وارتداداً عنه. ويظهر، من نص البلاذري أيضاً، أن الحركة في اليمن كانت مقصورة على خولان، وأنها قامت على أسس قَبَلية محلية. غير أن البلاذري لم يذكر أسماء رؤساء المُرتدِّين، ودوافعهم ومدى عمق حركتهم وامتدادها، أو موقف باقي أهل اليمن من هذه الرِّدة.

أما الطبري، فيذكر أنه «لما بلغهم موت النبي (ص) انتفضت اليمن عرض ذلك البحر لا تأوي إلى أحد ولا يأوي إليها أحد»[2].

يسمي سيف بن عمر الردة التي حدثت في اليمن بعد وفاة الرسول «الرِّدة الثانية»، وتدور أخبار حول شخصين هما قيس بن مكشوح المرادي، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي[3].

فأما قيس، فإن أكثر المصادر سمَّته «قيس بن مكشوح المرادي»، غير أنه ذكر في بعضها «قيس بن عبد يغوث»[4] و«قيس بن هبيرة بن عبد يغوث المرادي»[5].

كان «هبيرة بن المكشوح» سيد مراد[6]، ومن الجرارين[7]، أي أنه كان يقود ألفاً. أما قيس فكان «فارس العرب»[8]. وعندما طار صيت النبي بعد فتح مكة،

---

(١) فتوح البلدان ٩٩.
(٢) الطبري ١/١٩٨٣.
(٣) الطبري ١/١٩٨٠.
(٤) الطبري ١/١٧٩٦، ١٨٥٥.
(٥) الطبري ١/٢٣٠٥، وانظر: البرصان والعميان للجاحظ ٥٥.
(٦) الاشتقاق لابن دريد ٤١٦.
(٧) المحبر ٢٥٢.
(٨) الطبري ١/١٨٦٦ ابن سعد ٥/٣٨٣.

كان قيس «سيد قومه» وحثه عمرو بن معد يكرب على أن يذهبا إلى الرسول (ص) «حتى نعلم علمه. فان كان نبياً اتَّبعْناه، وإن كان غير ذلك علمنا علمه، فأبى عليه قيس بن المكشوح وسفَّه رأيه». ولما مضى عمرو إلى الرسول (ص) وآمن به «اوعد عمراً وتحفظ عليه وقال خالفني أمري»[1]، وعندما أسلم فروة بن مسيك المرادي وثب عليه قيس فأجلاه ونزل منزله»[2]، وانضم إلى الأسود العنسي فكان من أبرز قواده، وكان على جند الأسود[3]. ولكنه ما لبث أن تآمر على الأسود وشارك في قتله[4] وانضم إلى الإسلام، ورضي بتولية معاذ بن جبل على صنعاء. وعندما بلغه خبر وفاة الرسول، ارتد وناصب الأبناء العَداء، وقتل منهم فيروز وداذويه وجشنس[5]. غير أن القوات الإسلامية أفلحت في القضاء على حركته وأسرته وأرسلته إلى المدينة في وثاق[6]، وأراد أبو بكر قتله، فقال له، أي لابي بكر: «يا خليفة رسول الله استبقني لحربك فان عندي بصراً بالحروب ومكيدة للعدو، فاستبقاه أبو بكر وبعثه إلى الشام (في النص إلى العراق)، وأمر أن لا يولَّى شيئاً، وان يستشار في الحروب»[7]. وشارك قيس بن المكشوح في معركة اليرموك، وفقئت عينه فيها[8]، ثم أرسل إلى العراق مع جيش بقيادة هاشم بن عتبة[9]، فشارك في القادسية، وكان فيها على أحد مجنبتي الجيش الإسلامي[10]، وشارك في المعارك التالية في فتوح العراق، وفي معركة نهاوند حيث أوصى النعمان بن مقرن قائد الجيش الإسلامي بأنه إذا أصيب فيتولى القيادة عمرو بن معد يكرب، فإذا أصيب تولاها قيس[11].

---

(١) الطبري ١/ ١٧٣٢.
(٢) الطبري ١/١٧٩٦.
(٣) الطبري ١/ ١٨٥٥.
(٤) الطبري ١/ ١٨٦٤، الاشتقاق ٨٠.
(٥) الطبري ١/ ١٩٨٩، ابن سعد ٥/ ٣٩٠.
(٦) ابن سعد ٥/ ٢٦٣، ٣٩٠.
(٧) ابن سعد ٥/ ٣٩٠.
(٨) المحبر ٢٦١، ٣٠٣.
(٩) الطبري ١/ ٢٣٠٥، ٢٣١٩، ٢٣٢١.
(١٠) الطبري ١/ ٢٣٠٥.
(١١) الطبري ١/ ٢٥٩٧.

والشخص البارز الثاني من مرتدي اليمن هو عمرو بن معد يكرب وهو من زبيد، وكان فارساً مغامراً شَنَّ على بعض قبائل اليمن عدة غارات ذكر ابن الحائك الهمداني منها غزوة خولان حيث «دخل الحقل وفض حصن غنم، وحمل الأموال، واجتاح الضنين، ثم قدم تلك الغنائم مع عميه سعد وشهاب»[١]. وغزا الحشاش من بني شاكر[٢] كما قاتل الاصيديين[٣] وتعرض في بعض غزواته للاسر[٤] في سعد العشيرة[٥]، ووفد على الرسول (ص)، وأعلن إسلامه وانضم إلى خالد بن سعيد الذي بعثه الرسول (ص) إلى اليمن. غير أنه عندما أعلن الأسود حركته انضم إليه، وحالفه واستجاب إليه[٦] وكان من أبرز فرسانه، فوضعه الأسود بازاء فروة[٧].

ولما ارتد قيس بن المكشوح بعد وفاة الرسول (ص)، انضم عمرو بن معد يكرب إليه. غير أن المسلمين تمكنوا من القضاء على ردة قيس، فاستسلم عمرو ابن معد يكرب، وعاد إلى حظيرة الإسلام. وفي أوائل خلافة عمر بن الخطاب قدِم إلى المدينة مع بني مذحج، وكان على بني منية[٨]. وكان من أبرز فرسان المسلمين في القادسية[٩] وشارك في المعارك التالية. وكان على الخيل في جلولاء[١٠] وشارك في نهاوند[١١]، كما شارك في غزو الري أول ما غُزِيت. فلما انصرف توفي، ودُفن في كرمانشاه[١٢].

(١) الاكليل ١٠/٧٣.
(٢) الاكليل ١/٢٣٨.
(٣) الاكليل ١٠/٢٢٦.
(٤) الاكليل ٢/٣١٠، ١٠/٢٣٨.
(٥) الطبري ١/١٩٩٦.
(٦) الطبري ١/١٩٩٧.
(٧) الطبري ١/١٩٩٣، ١٩٩٦، ١٩٨٣.
(٨) الطبري ١/٢١٦٥ وانظر ابن سعد ٥/٣٨٤.
(٩) الطبري ١/٢٣٠٥، ٢٣٢١ فما بعد
(١٠) فتوح البلدان ٣٢٤.
(١١) الطبري ١/٢٥٩٧، ٢٦١٧.
(١٢) فتوح البلدان ٣١٩.

يتبين مما تقدم أن حركة الرِّدة في اليمن، بعد وفاة الرسول (ص)، تركزت على قيس بن مكشوح، وأن مجرى الأحداث يُظهر أن حركته قائمة على طموح سياسي وليس على أفكار أو عقائد يدافع عنها، وأنه لم يَحْظَ بتأييد واسع وانما اقتصرت حركته على منطقة محدودة اعتمد فيها على عشيرته مراد التي كانت إحدى المجموعات الثلاث التي تتكون منها مذحج. والمجموعتان الأخريان هما عنس التي ساندت الأسود، والراجح أنها أيَّدت قيس بن المكشوح، وسعد العشيرة ومنها جعفي. ولكن لم تذكر الأخبار دوراً بارزاً لها في حركة الردة.

ويلاحظ أن ابن حزم يذكر من بني عنس عمّار بن ياسر الذي أسلم في مكة وتعرض بإسلامه لعذاب مشركيها، وقيس بن سلمة المرادي[(١)]، وأبو سبرة الذي وفد على النبي هو وابنته واقطعه النبي وادي جعفى باليمن[(٢)].

مؤيدو الإسلام

فروة بن مسيك المرادي

ذكرت الأخبار عدداً ممن أسلم من أهل اليمن في زمن الرسول (ص) وثَبَت عليه وقام بعضهم بدور فعال في إسناد دولة الإسلام. ومن أبرزهم فروة بن مسيك المرادي، وهو شخصية بارزة. لقد كان شاعراً[(٣)]، وكان من الجرارين[(٤)]، أي أنه كان قائداً مبرِّزاً، ولم تذكر المصادر مكانة بارزة لأسرته. ويروي ابن اسحاق أنه قَدِم على رسول الله «مفارقا لملوك كندة ومعاندا لهم»[(٥)]، مما يدل على امتداد نفوذ رؤساء كِنْدة إلى مراد آنذاك، ولكن المصادر لم تذكر تفاصيل عن علاقته بكندة.

---

(١) جمهرة الأنساب ٤٠٩.

(٢) جمهرة الأنساب ٤١٠.

(٣) الاشتقاق ٤٠٢؛ ابن سعد ٥/ ٣٨٣.

(٤) المحبر ٢٥٢.

(٥) الطبري ١/ ١٧٣٤.

وَفَدَ فروة بن مسيك على الرسول، فجعله الرسول على صدقات مراد ومن نازلهم ونزل دارهم[١]. وفي رواية ثالثة أن الرسول استعمله «على مراد وزبيد ومذحج كلها، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة»[٢]. وفروة هذا هو أحد اثنين من أهل اليمن استعملهم الرسول (ص) فيها، غير أن الروايات لم تتفق على حدود ولايته فذكرت بعض الروايات أنه كان على عشيرته مراد، وذكرت روايات أخرى أن ولايته امتدت على مذحج كلها.

ثَبَت فروة على الإسلام ولم ينضمَّ إلى الأسود العنسي[٣]. غير أن سلطته لم تستقر، فقد «وثب عليه قيس بن عبد يغوث وأجلاه ونزل منزله، ولحق فروة فيمن ثبت على الإسلام من مذحج فكانوا بالأحسية[٤] وَوَجَّه الأسود عمرَو بن معد يكرب إلى فروة[٥]، فجمَّد نشاطه ولكنه لم يَقْضِ عليه.

وبعد مقتل الأسود، وعودة أهل صنعاء إلى حظيرة الدولة الإسلامية، لم يعد فروة إلى صنعاء التي ظل يهيمن عليها قيس بن المكشوح، فلما ارتد هذا، ظل فروة متمسكا بالإسلام وكان «يغير على من خالفه بمن أطاعه ولم يرتد كما ارتد غيره»[٦]. وكان من أشد مناوئيه عمرو بن معد يكرب الذي ارتد وانتزع زبيد من فروة وهاجم ولايته. ولما استعاد المسلمون السيطرة على صنعاء، وَلِيَها فروة، وبَنَى مسجدها[٧]، وهدم قصر غمدان[٨].

ومِمن ثَبَت على الإسلام مَنْ كانت ديارهم في الأطراف الجنوبية الشرقية من

---

(١) الطبري ١/ ١٩٩٤.
(٢) الطبري ١/ ١٧٣٦، طبقات فقهاء اليمن ١٥؛ ابن سعد ٥/ ٣٨٣.
(٣) الطبري ١/ ١٩٩٦.
(٤) الطبري ١/ ١٩٩١.
(٥) الطبري ١/ ١٩٨٣، ١٩٩٥.
(٦) ابن سعد ٥/ ٣٨٥.
(٧) تاريخ صنعاء للرازي ٧٠، ٧٧، ٩٠، ١١٢، ٢١١، ٢٣٢.
(٨) تاريخ صنعاء ٢٦.

اليمن التي كانت فيها للحميريين سيطرة ونفوذ، فضلاً عن أن هذه المناطق كانت مراكز لصناعة معظم المنسوجات التي تصدرها اليمن. يذكر الطبري أن أبا بكر كتب «إلى عمير بن أفلح ذي مران، وإلى سعيد بن العاقب، وزود، وسميفع بن أناكور ذي الكلاع، وحوشب ذي ظليم، وشهريناف: أما بعد، فأعينوا الأبناء على من ناوأهم وحرِّضهم، واسمعوا من فيروز وجِدُّوا معه فإني وَلَّيتُه»[1]. ولا ريب أن الذين ذكروا في هذا النص هم من الاذواء المتنفذين وأبرزهم آل رعين وآل ذي مران.

آل ذي رعين

أمّا الرعينيون، فقد اتصلوا بالرسول (ص) بمبادرة منهم في زمن مُبَكِّر، فبعَثَ ثلاثةٌ من كبار متنفذيهم، وهم: النعمان قَيْل ذي رعين، والحارث ونعيم ابنا عبد كلال، رسولاً منهم إلى الرسول (ص) يعلنون إسلامهم ويقبلون الانضمام إلى دولته. وقد قبل الرسول هذه المبادرة[2]، ولم يُوَلِّ عليهم عاملاً أو يتدخل في تنظيماتهم، كما أنه لم يرد ذكر لتأييدهم الأسود العنسي أو قيامهم بحركات فعالة للقضاء عليه مما يدل على وقوفهم على الحياد.

لم تذكر المصادر المخاليف التي كان يسيطر عليها الحارثُ ونعيم ابنا عبد كلال. ويذكر الهمداني أن عبد كلال من ذي رعين وهو مخلاف «لا يسكنه إلا آل ذي رعين مثل يحبر ويمن والأملوك والأحروث وغيرهم. وأحياء آل ذي رعين، في هذا المخلاف، أوفر منهم في جنوب بلد رعين ومشرقها، الذين غلب على أكثرهم مذحج[3]. وكانت المنطقه الرئيسة لذي رعين في سر ومذحج، حيث كان سوقهم، وقبور ملوكهم وقصورها وآثارها. وأكثر مواضعه وبقاعه مسمى باسماء متوطنيه من آل ذي رعين، غير أن مذحج استوطنته فيما

---

(١) الطبري ١/١٩٨٩.
(٢) ابن سعد ١ ـ ٢/٨٤، ٥/٣٨٦.
(٣) صفة جزيرة العرب ٢٠٢.

بعد»[1]. وفي أطراف السرو الجنوبية تقع مصانعهم[2] وتمتد مساكن الرعينيين إلى جيشان التي كان «يسكنها خليط من حمير من رعيني ورداعى وصراري وغير ذلك»[3].

ولم يرد ذكر لامتداد سلطان الأسود إلى مناطق آل ذي رعين والحميريين. والراجح أنهم لم ينضموا إلى الأسود، وبذلك حدّوا من توسعه، وظلوا دعامة يعتمد عليها المسلمون في استعادة اليمن إلى حظيرة الدولة الإسلامية.

ذو مران

أما مران، فان الهمداني يذكر أنهم من همدان، وان عمير ذي مران كان قَيْل همدان ومِمَّن كتب إليه الرسول (ص)، وأنه أيد أبا بكر على المرتدين، وظل من أحفاده آل مغلس رؤساء لهم السلطان في المعافر[4] وكان في جبلهم معدن الصلوت[5].

يذكر ابن سعد أنه قَدِم على الرسول (ص) وفد جعفي «رجلان منهم قيس بن سلمة بن شراحيل من بني مراد بن جعفي، وأنه استعمله على مران ومواليها صريم ومواليها والكلاب ومواليها، والكلاب هم أوذ وزبيد وجزء بن سعد وزيد ابن سعد وعائذ الله بن سعد وبنو صلاءة من الحارث بن كعب[6]. وذكر الهمداني أن من اشراف مران وسادتهم بني قباث» وهم أشراف يوازون الحميريين في المكانة[7].

تقع بلاد مران في سراة خولان[8]، وهي بالقرب من بلد حاشد، وكانت

---

(1) صفة جزيرة العرب ١٧٥.
(2) صفة جزيرة العرب ١٠١.
(3) صفة جزيرة العرب ٢٠٣.
(4) انظر صفة جزيرة العرب ١٣٦، ٣٠٧.
(5) صفة جزيرة العرب ١٣٧، ١٤٢.
(6) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٦٢.
(7) الاكليل ١٠/ ٣٢، صفة جزيرة العرب ١٧٨.
(8) صفة جزيرة العرب ٢٢٧.

للمرانيين الفلابج، وهي من أسواق حاشد[١] ومن بيوتهم المشهورة رحابة وهي تقع على حدود بلد حاشد[٢].

أما زود، فان الهمداني يذكر ان زود بن سيف كان قَيْلاً[٣]، ويذكر انه من السبيع، ولم أجد ذكراً لسعيد بن العاقب.

الكلاع

أما الكلاع، فهم «بطون من حِمْير، منها السحول بن سوادة[٤] وسَرَاتهم متصلة بسراة المعافر، وفي شماليها قينان ومنوب وشيعان والصنع، وهما الواديان فيهما الورس الناهي»[٥]. وكانت السحول والمعافر مشهورة بالمنسوجات المسماة بهما، ويذكر الطبري أن قيس بن المكشوح عندما ارتد كتب إلى ذي الكلاع يُحرِّضه على الأبناء ويذكره بأنه اذا لم يَقْض عليهم، فسيستولون على الحكم. غير الكلاع «لم يحالفوه، ولم ينصروا الأبناء، واعتزلوا وقالوا لسنا مما هنا في شيء، أنت صاحبهم وهم أصحابك»[٦]. وهذا الموقف المحايد كان من مصلحة المسلمين، فقد ساعد على حصر ردة قيس وجعلها محلية ضعيفة، مما يسر القضاء عليها.

ان العدد الكبير من أهل اليمن، وخاصة من القاطنين في الأطراف الشرقية، لم يساندوا قيس بن المكشوح، ولم يُبدوا نشاطاً في مساندة سيادة الدولة الإسلامية على اليمن، وكان لا بد من إنقاذ حملة تؤمن هذه الاستعادة. وقد اعتمد أبو بكر في ذلك على قوات من مكة والطائف وما حولهما. يذكر الطبري أن أبا بكر كتب «إلى عثمان بن ابي العاص أن يضرب بعثا على أهل الطائف

(١) صفة جزيرة العرب ٢٢٣.
(٢) صفة جزيرة العرب ٢٢٧.
(٣) الاكليل ١٠/٥٢.
(٤) صفة جزيرة العرب ١٩٦.
(٥) صفة جزيرة العرب ١٢٠.
(٦) الطبري ١/١٩٨٩.

على كل مخالف بقدره، ويُوَلّي عليهم رجلاً يأمنه ويثق بناحيته، فضرب على كل مخلاف عشرين رجلا، وأمَّر عليهم أخاه، وكتب إلى عتاب بن أسيد أنِ اضْرِب على أهل مكة وعملها خمسمائة مُقْوٍ، وابعث عليهم رجلا»[1]، ولم تذكر المصادر عدد من جمعهم عثمان بن أبي العاص من مخاليف الطائف. ولعله قريب من عدد من جمعوا من عمل مكة، أي خمسمائة، وأن هذه القوات كانت من العشائر التي ديارها في تلك المناطق، وهي قريش الظواهر وثقيف وهذيل كنانة وهوازن وبنو عامر.

ثم عقد للطاهر بن أبي هالة لواءً ووجهه إلى اليمن، فتقدم الطاهر إلى مكة، وضم اليه القوات التي جمعها كل من عتاب بن أسيد، وعثمان بن أبي العاص من مكة والطائف، وضم في طريق تقدمه إلى اليمن جرير بن عبد الله البجلي وقومه، وعبد الله بن ثور الازدي، واستمر في تقدمه إلى نجران، فلم تقاومه، ثم انضمت اليه قوات فروة بن مسيك، وكانت عقيل وعك قد أمدَّت بالرجال فيروز الذي بقي على الإسلام. وبذلك اصبحت بإمرة الطاهر قوات ربما بلغ عددها ألفين من المقاتِلة[2]، وكلهم ممن لم يَرْتَدَّ، لأن أبا بكر لم يستعن بالمرتدين في أي قتال، أي أنهم كانوا مؤمنين بالإسلام وضرورة بقاء دولته، كما أنهم ممن ديارهم على طريق تجارة أهل اليمن، فلهم صلة بهم ويدركون أهمية انضمام أهل اليمن إلى الإسلام.

فلما اقترب من صنعاء، انهارت مقاومة المرتدين، فاستسلم قيس وعمرو بن معد يكرب، فارسلهما موثَّقَيْنِ إلى أبي بكر، ودخل صنعاء وثَبَّت حكم الاسلام فيها[3]، وبسيطرته على صنعاء عاد كافة أهل اليمن إلى حظيرة الإسلام، وتقبلوا احكامه، فلما عزم أبو بكر على إنفاذ الجيوش الإسلامية لفتح بلاد الشام، استجاب أهل اليمن من مختلف أرجائها، وقدِموا إلى المدينة للانضمام إلى الجيوش الإسلامية.

* * *

(١) الطبري ١/١٩٨٨.
(٢) الطبري ١/١٩٩٨.
(٣) الطبري ١/١٩٩٩.

الفصل الثلاثون

حضرموت ومهرة والإسلام

الأرض

حضْرَموت إقليم يقع في جنوب شبه جزيرة العرب، ويمتد على طول البحر العربي من أطراف باب المندب وعدن غرباً، إلى أن يتصل بالشحر وعمان شرقاً، وتتصل أراضيه من جهة الشمال بتيه حضرموت[1]. وتقع الأحقاف، وهي الربع الخالي، في أقصى شمال الشحر[2] وتسمى الأطراف الشمالية من حضرموت التيه[3]. وقد ورد ذكرها في سفر التكوين[4]، كما ذكرها سترابو باسم اترامتياني ووصفها بأنها أرض اللّبان[5].

وأرض حضرموت أرضٌ جبلية يخترقها واد طويل يسير موازيا للبحر من الغرب إلى الشرق، ثم ينعرج في نهايته ويتصل بالبحر، ويفصل هذا الواديَ عن البحر مرتفعاتٌ جبلية وهضاب غير شاهقة. أما في أطرافه الشمالية، فتمتد جبال شاهقة تتصل من ورائها بتيه أبين، وهو غائط بينها وبين أبين[6] وأحقاف

---

(١) معجم ما استعجم ٢٤٦.
(٢) كذلك ١١٩.
(٣) كذلك ٢٤٦.
(٤) الاصحاح العاشر ١٦.
(٥) دائرة المعارف الإسلامية مادة «حضرموت».
(٦) الاكليل ٨٩/ ٤٠.

الشحر، والمفازة الكبرى[1] التي نسميها اليوم الربع الخالي، وهي منطقة واسعة خالية من المياه والسكان، تغطيها الرمال السافية، وتمتد من اليمن إلى رمل يبرين في أطراف عمان.

والوادي الكبير في وسط حضرموت تتصل به وديان كثيرة تنزل عليه من الجبال الشمالية، وتربطه بالبحر وديان صغيرة متعددة. وتتوافر في هذا الوادي بعض المياه التي تقوم عليها الزراعة، وفيها عدد من المدن التي من أهمها مدينة شبوه في الأطراف الغربية على طريق بيحان، وبالقرب منها عدة أودية من أشهرها سور وعرفة وهبر ورخية[2]. وفي الوسط تقع مدينتا قعوتة وهينن، ثم مدينتا شبام وتريم وهما المدينتان الرئيستان، وكانت تريم أكبر المدن القديمة «وهي موضع الملوك من بني عمرو بن معاوية[3] وأهم مدن الساحل المكلاّ والشحر[4]»، أما الأطراف الشرقية فأهم مدنها ريسوت في منتصف المسافة بين عمان وعدن[5].

إسهامها في الملاحة والتجارة

نشأ في سواحل حضرموت عدد من الموانئ التي ترسو فيها السفن التي تمخر في المحيط الهندي بين شرقي أفريقية والهند وجزر الهند الشرقية والشرق الأقصى. ومن طريق هذه الموانئ كانت تُنقل معظم تجارة اليمن، وبسبب هذه الصلة الوثيقة، فان كثيراً مما ينسب إلى اليمن من نشاط تجاري واسهام في الملاحة هو، في الحقيقة، مما يقوم به أهل حضرموت. وتنتج حضرموت عدداً من المحاصيل التي كانت لها أهمية كبيرة في التاريخ القديم، وخاصة اللُّبان، والمُرّ، وبعض الأفاويه. كما أنه عن طريقها كانت تُصَدَّر منتوجات بلاد شرقي

(١) معجم ما استعجم ٢٤٦، وكانت تسمى الرس (الانساب: ابن حزم ٣٢٩).
(٢) الاكليل ٢/ ٢١٤.
(٣) الاكليل ٢/ ٣٧٥.
(٤) معجم ما استعجم ٣١١.
(٥) الاكليل ٢/ ١٩٥، ياقوت ٢/ ٢٨٥. واكثر سكانها الازد. صفة جزيرة العرب ٦٠، ٣٣٠

أفريقية إلى بلاد البحر المتوسط وما حوله، ولا ريب في أن كثيراً من السلع المنسوبة إلى اليمن كانت من منتوجات الأقاليم الاخرى، ولكنها تُصَدَّر إلى العالم المتحضر عن طريق موانئ حضرموت واليمن.

وكانت القوافل التي تسير بين موانئ حضرموت والبلاد الشمالية تسلك الأطراف الشرقية من اليمن، فتتجنب الجبال والوديان التي في أواسط اليمن والتي تعرقل سير القوافل[١]. وقد وَثَّقت هذه القوافل علاقة أهل حضرموت بأهل المناطق الشرقية من اليمن.

أسهم أهل حضرموت بأعمال التجارة والملاحة، وكانوا يحتكرون الملاحة في المحيط الهندي، وحملهم ذلك على توثيق علاقتهم بالبلاد التي كانوا يتاجرون معها، وإلى أن يكتسبوا ما تولده التجارة من توسيع الأفق وازدياد الخبرة في الأمور المالية، ونمو المظاهر الحضارية المتصلة بالتجارة. ورافق ذلك نمو بعض الصناعات التي تتصل بالسفن وصناعتها وإعدادها للملاحة، كما نَمَت فيها صناعات أخرى كانت تُصَدِّر منتوجاتها إلى عدة أرجاء من جزيرة العرب. ومن هذه الصناعات المنسوجات والجلود التي اشتهرت بهما عدن، وهي الميناء الرئيس في حضرموت. ولا ريب أن انصراف أهل السواحل من حضرموت إلى التجارة كان من أهم أسباب انصرافهم عن المشاحنات السياسية وقلة إسهامهم في حوادثها.

أما المناطق الداخلية البعيدة عن السواحل في حضرموت، فكان أهلها يشتغلون بالزراعة وتربية الحيوانات، ولا سيما الإبل التي اشتهرت منها في جزيرة العرب الإبل المهرية والمجيدية، والعيدية[٢] وكذلك الأغنام التي اشتهرت في حضرموت منها الغنم السيبانية[٣].

---

(١) انظر عن طريق هذه القوافل: ابن الحائك الهمداني: الجوهرتين ١٣٣ ـ ١٣٦ طبعة حمد الجاسر، وانظر: جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك ٣٢ وكتاب فريا ستارك «المدخل الجنوبية لجزيرة العرب» (بالانكليزية).

(٢) الاكليل ١/ ١٩٢.

(٣) الاكليل ٢/ ٢٥٠؛ ٣٨٠.

أهل حضرموت

كانت تسود في حضرموت وأطرافها عند ظهور الإسلام مجموعات قبلية اعتبرها النسَّابون من كِنْدة، وأبرزها: تجيب، والسكاسك، والسكون. غير أن نُظماً اقتصادية وسياسية متميزة من النظم البدوية استقرت في المناطق الداخلية من حضرموت، فكان فيها عدد من المتنفذين الذين هيمن كل منهم على منطقة وحجروها، وجعلوها حِمًى لهم.

يقسم النسابون أهل حضرموت العرب إلى ثلاث مجموعات كبرى متمايزة، ينقسم كل منها إلى فروع متعددة، ولكل منها ديار خاصة قد تقيم في المدن أو في الأرياف. ولا ريب في أن التماسك القبلي هو أقوى في الصحارى والأرياف منه في المدن التي تقتضي أوضاعها، كمراكز للحياة الاقتصادية، ومراكز للصناعة والملاحة أن يكون فيها عدد من الأغراب، وتقوم فيها مؤسسات تناسب الحياة المدنية وما فيها من نشاطات اقتصادية.

إن أوسع المصادر في تفصيل أهل حضرموت وأنسابهم: كتابا «الاكليل» و«صفة جزيرة العرب» لابن الحائك الهمداني. والمعلومات الواسعة التي فيهما تصف الأحوال أواخر القرن الرابع الهجري. غير أن انطباق كثير من أخبار ابن الحائك وإشاراته، على ما جاء عنها في أخبار القرن الأول، يدل على أن ما وصفه من أحوال لم يكن طارئا، بل كانت أسسه تمتد إلى أزمنة سابقة يرجع بعضها إلى ما قبل الإسلام. والواقع أنه حدثت في الأحوال السكانية لحضرموت تبدلات بعد الإسلام، حيث هاجر عدد من أهلها إلى أقاليم أخرى من دولة الإسلام، كما حدث تطور في مراكز التجارة، مما أدى إلى بعض التغيير. غير أنه لم يصل إلى حد قلب الأوضاع، خاصة وأن الدولة الإسلامية أمَّنت الاستقرار والسلم.

إن المجموعات الثلاث المتميزة في حضرموت هي قبائل «حضرموت» و«مهرة». فأما الاثنتان الأوليان فيعدها النَّسَّابون من قحطان، وأما «مهرة» فيعدونها من قضاعة التي تربط مرة «بعدنان» ومرة «بقطحان».

الحضارمة

فأما «حضرموت» التي سمي الأقليم بها، فإن النسابين يَعدُّونها من القحطانية. يذكر ابن حزم ان حضرموت هو ابن يقطين أخي قحطان[١]، ويقول الهمداني أنه من ولد قحطان[٢]، ولكنه يقول في مكان آخر انه ابن سبأ[٣].

والمعلومات المتفرقة في الكتب عن تفرعات حضرموت مضطربة في تفاصيلها. يذكر الهمداني أن اولاد حضرموت، وكل منهم بطن، هم مرة، وشبيب، وربيعة، وفهد، والحارث، وتريم[٤]، ويذكر أن مرة «فيه البيت»[٥] وأن من فروعها في حضرموت بني العريان وبني داعر، والأهمام وبني حنش[٦].

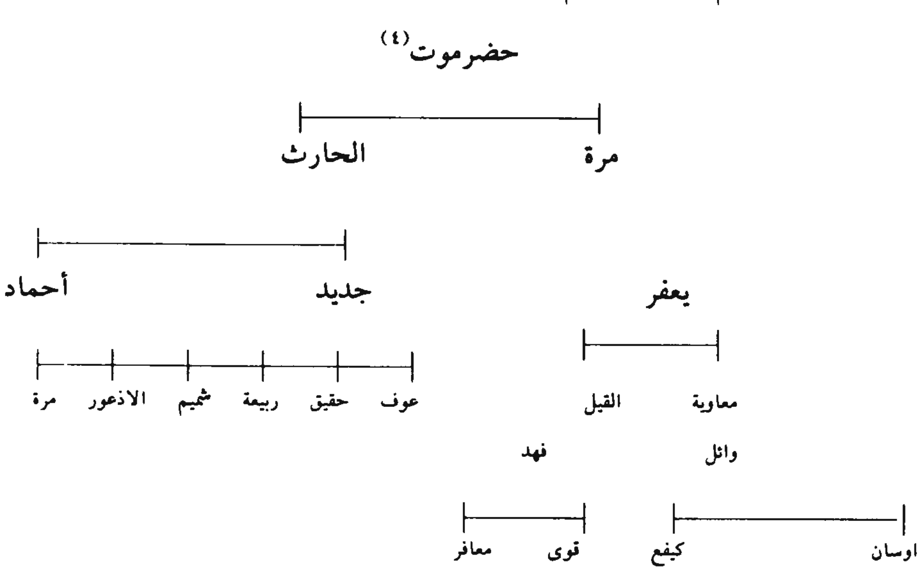
أما الحارث فيَذكر الهمداني أن جمهورهم فرعا ذي جدن وأجماد «وفيهما العدد»[٧]، ويَذكر أن من فروعهم أيضاً شبام، وأذينه، وشبا[٨]. أما ذو جدن فمن فروعه بنو عوف، وبنو حقيق، وبنو ربيعة وبنو شخيم، والادمور، وآل عمرو[٩]، ويقول في مكان آخر أن «الأشبا بطن بحضرموت منهم ذو جدن وأحماد وشبام وشبا وجدة[١٠]، وأن الأشبا ولد شبيب من حضرموت[١١]. ويذكر في مكان آخر أن العباهلة من بني شبيب[١٢].

---

(١) الانساب لابن حزم ٤٧٠.
(٢) الاكليل ١/ ١١٩.
(٣) الاكليل ٢/ ١٠٤، ١٠٥.
(٤) الاكليل ٢/ ٣٦٩، ٤٠٤.
(٥) الاكليل ٢/ ٣٦٩.
(٦) الاكليل ٢/ ٣٧٢، ٣٧٤.
(٧) الاكليل ٢/ ٣٧٧.
(٨) الاكليل ٢/ ٣٧٢.
(٩) الاكليل ٢/ ٣٧٧.
(١٠) الاكليل ٢/ ٣٧٤.
(١١) الاكليل ٢/ ٣٧٧.
(١٢) الاكليل ٢/ ٣٧٧.

أما أحماد، فمنهم آل حجور، وبنو القضيب، وذهل، والاقول، والعباهلة الذين عدهم قبلا من الأشبا[1].

وصف الهمداني أهل حضرموت في زمنه فقال: «الحضارم ثلاث فرق: آل الحارث وهم سادتهم، والأشبا فرسان القوم، وسيبان وهم بدو وأصحاب ماشية وأكثر القوم عدّاً»[2]. فأما الحارث والاشبا فقد ذكرناهما أعلاه، وأما سيبان فانه يذكر عنهم «سيبان بن أسلم بطن، ولهم بحضرموت عدد كبير، وهم ينتسبون في حضرموت، وإليهم تنسب الغنم السيبانية»[3].



ويذكر أيضاً أن «بحضرموت قبائل كثيرة دخلت فيها من غيرها من همدان، وأكثرهم من نشق، ومن سيبان بن أسلم بن الغوث بن زرعة، وهو حمير الأصغر، ومن الابزون وغيرهما. وسمى بتريم وشبام وطنيهما، وهما مدينتان

---

(١) الاكليل ٢/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨، ويذكر مؤلف السيرة الجامعة ان من حضرموت ذو جدن ومرى وشبيب/ والوشاجى. خلاصة السيرة الجامعة ١٨٦

(٢) الاكليل ٢/ ٣٨٠.

(٣) الاكليل ٢/ ٢٥٠.

(٤) الاكليل ٢/ ٣٦٩ فما بعد.

بحضرموت، وكذلك تنعم، وتريس[٥] ويقول أيضاً «الا يدوع ينزلون أرضاً يقال لهم بشيم[١] وان من في حضرموت بنو معشر»[٢].

كندة

كندة من القبائل الكبيرة التي كانت تقيم، عند ظهور الإسلام، بين حضرموت واليمن. وقد استقرت في تلك المناطق بعد سقوط دولتها التي كان مقرها غمر كندة في شرقي مكة وهيمنت مدة من الزمن على هضبة نجد من أطراف جبلَيْ طي إلى البحرين، وكان الذين نقلوا الى حضرموت بعد سقوط دولتهم نيفا وثلاثين ألفاً، ثم نقص عددهم فصار في أواخر القرن الرابع الهجري ألفاً وخمسمائة[٣].

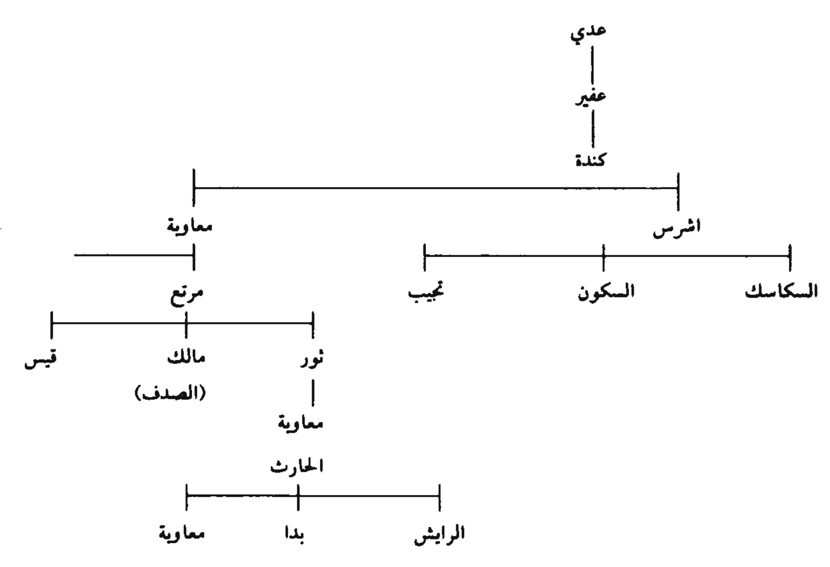
تقع ديار كندة عند ظهور الإسلام في الأطراف الشمالية الغربية من إقليم حضرموت وتمتد إلى الأطراف الجنوبية الشرقية من اليمن، ووصف ابن الفقيه ديارهم فقال «بلد مرتفع كأنه سَرَاة، وهو وادٍ فيه قرى كثيرة ونخل للعباد من كندة، ثم يهبط الهابط إلى سدية، قرية محمد بن يوسف التجيبي، ثم حورة وهي مدينة عظيمة لبني حارثة من كندة، ثم قارة الاشبا وهي لكندة. والعجلانية كبيرة مقابلة لهينن، إلا أن هينن في وادي العبر واسمه عين، والعجلانية في وادي دوعن، وبلد كندة هي هذان الواديان[٤].

شملت كندة عدة فروع ذكرتها المصادر المعنية بالأنساب، فَذَكَر ابنُ الحائك من فروع كندة بني الأشرس، وبني معاوية، وذَكَر في مكان آخر أن حضرموت فيها الصدف، وتجيب، والعباد من كندة، وبنو معاوية بن كندة، ويزيد بن معاوية، وبنو وهب، وبنو بدا بن الحارث، وبنو الرايش بن كندة، ويزيد بن

(١) الاكليل ٢/ ٣٧٥.
(٢) الاكليل ٢/ ٢٦٣.
(٣) الاكليل ٢/ ٣٧٧، ٤٣٧.
(٤) صفة جزيرة العرب ١٧١.
(٥) صفة جزيرة العرب ١٦٨.

معاوية، وبنو وهب، وبنو بدا بن الحارث، وبنو الرايش بن معاوية[١].

وذكر ابن حزم[٢] تفرعات كندة بما تجمله الشجرة التالية:



كان بنو معاوية أكبر فروع كندة، وهم يشملون بني يزيد، وبني وهب، وبني ذهل[٣] والحارث الذي من فروعه بنو بدا، والرايش، ومعاوية[٤] ومن منازل بني معاوية الكرشان في سفلى حضرموت[٥].

وكانت تريم موضع الملوك من بني عمرو بن معاوية، والنجير لبني عمرو بن مَعْدِ يكرب[٦].

ومن فروع كندة في القرن الرابع بنو عامر، وقد وصفهم الهمداني بأنهم «قبيلة عزيزة»[٧] وذكر أن «قرى أبين كثيرة بين بني عامر من كندة وبين الاصابح

(١) الاكليل ٢/٢٦٦.
(٢) الانساب لابن حزم.
(٣) صفة جزيرة العرب ١٧٢.
(٤) صفة جزيرة العرب ١٦٦.
(٥) الاكليل ١/١٩٤.
(٦) الاكليل ٢/١٨.
(٧) صفة جزيرة العرب ٩٥.

من حمير، وبني مجيد، ومن يخلط الجميع من مذحج[١] وذكر من قراهم الرواغ[٢]، والقويع، والمحدث، وعرفة»[٣].

السكاسك والسكون وتجيب

يذكر النسَّابون أن أشرس هو أحد فرعي كندة الرئيسين، وأنه يتكون من السكاسك والسكون[٤] فأما السكاسك فإن الهمداني يذكر أن من أرضهم الجند «وهي أول مدن اليمن على سمت نجد، وبها مسجد معاذ بن جبل». وجميع قرى تهامة اليمانية تنسب في دواوين الخلفاء إلى عمل الجند[٥] وتقع ديارهم في جنوب المعافر[٦]، وتمتد ديارهم إلى السَّراة الجنوبية[٧] وفي بلادهم مصادر الوديان التي تصب إلى الجنوب، وهي تشمل جميع ما بين عدن ووادي نخلة من أرض شرعب من الأودية الكبار التي تنتهي إلى البحر[٨] من تلقاء المغرب. وأبرز ما في بلادهم جبل صبر[٩].

وكان السكاسك في أواخر القرن الرابع الهجري يبلغون خمسة آلاف «وهم أهل جِدّ ونَجْدة.. وما زالوا مشاقين للملوك لقا لا يدينون»[١٠].

والسكاسك أهل غُتْمة في المنطق[١١]، وفي لغتهم عسرة من اللسان

---

(١) صفة جزيرة العرب ١٩١.
(٢) صفة جزيرة العرب ٩٥.
(٣) صفة جزيرة العرب ١٨٩.
(٤) الاكليل ١٠/٤.
(٥) صفة جزيرة العرب ٩٩.
(٦) صفة جزيرة العرب ١٩٤، ١٩٥.
(٧) صفة جزيرة العرب ١١٥.
(٨) صفة جزيرة العرب ١٣٧ ـ ٨، ١٤٤.
(٩) صفة جزيرة العرب ١٣٨، ١٤٧.
(١٠) صفة جزيرة العرب ١٩٦.
(١١) صفة جزيرة العرب ١٩٥.

الحميري، سَرَاتهم فيها تعضيد[١]، وفيهم سحرة وكهان[٢].

وفي بلادهم حيوانات متميزة، منها الإبل السكسكية والمجيدية، وكانت من أكرم الابل وأنجبها بعد المهرية، كما أن في بلادهم البقر الحديرية، لا يلحق بها في العظم بقر[٣].

وفي بلادهم مناجم حديد كانت تصنع منها الدروع السلوقية[٤]. ومراكز كثير من المنسوجات اليمانية التي تُصدَّر إلى أرجاء الجزيرة العربية، وربما إلى البلاد الأخرى، ومن هذه المنسوجات الصبرية، والجندية، والمعافرية[٥].

أما السكون، فمن أبرز فروعهم بنو عدي، وبنو سعد[٦].

أما تجيب فكانت ديارهم عند بيحان بأعلى حضرموت مجاورة للصدف «فإذا خرج الخارج من العبر لَقِيَ أول ذلك درب العجيز الكندي، ثم هينن، وهي قرى كبيرة في أسفلها سوق، وفي أعلاها حصن، وساكنها بنو بدا وبنو سهل من تجيب، ثم صوران قرية مقتصدة، ثم قشاقش قرية في رأس جبل، وكلها للصدف، وبعدها تأتي قرى الصدف»[٧].

والصدف من قبائل حضرموت، وقد اختلف النسابون في انتمائها، فيذكر ابن حزم نسبهم فيقول: «الصدف بن اسلم بن زيد بن مالك بن زيد بن حضرموت»[٨]، ويذكر الهمداني ان الصدف دخلوا في حمير[٩]، ويذكر البكري «أن الصدف بن مرتع بن معاوية بن كندة»[١٠]. ويقول الهمداني أيضاً ان

---

(١) صفة جزيرة العرب ٢٤٨، وانظر ١٩٥.

(٢) صفة جزيرة العرب ١٣٧، وانظر ١٩٥. نشوة الطرب ٢٨٨ (عن البيهقي)

(٣) صفة جزيرة العرب ١٩٦.

(٤) صفة جزيرة العرب ١٤٩.

(٥) انظر مقالنا «الانسجة العربية» المنشور في مجلة الأبحاث.

(٦) صفة جزيرة العرب ١٧٢، الانساب لابن حزم ٢٥٩، ٤٧٧.

(٧) صفة جزيرة العرب ١٦٦، وانظر أيضاً ١٧٢.

(٨) جمهرة الانساب ٤٦١، ٤٧٩.

(٩) صفة جزيرة العرب ١٧٢.

(١٠) معجم ما استعجم ٣١٠.

الصدف من كندة، وانهم دخلوا حضرموت في أزمنة قديمة، وصاروا أثرى مَنْ بحضرموت. «فلما نزلت كندة بحضرموت بعد مخرجها من الغمر تعرف بعضهم ببعض وتذكروا الأواصر والقرابات»[١].

كانت للصدف فروع متعددة ذَكَر الهمداني منها جذام، وحوار، وخريم، وشريح، وكفيل، وأبيود، وتقدير[٢]، وذكر معلومات عن مكونات كل من هذه الفروع وأماكن سكناها. ويتبين منها أن جذام وصهابة كانت ديارهما بالحبق وهي بأقصى حضرموت، وأن خريم وشريح كانتا تقيمان عند وادي السرير بالقرب من دمون، وأن أهم المدن التي يقيم فيها[٣] الصدف هي دوعن، وهدون، وجودون، ودمون[٤] وكل هذه تقع في الأطراف الغربية من حضرموت.

مهرة

مهرة من القبائل الكبرى التي تقطن في السواحل الجنوبية من جزيرة العرب، في الأطراف الشرقية من حضرموت، وبلادهم في ناحية الشحر من اليمن ببلاد العنبر على ساحل البحر[٥].

يذكر النسابون أن مهرة تنسب إلى الحاف بن قضاعة[٦]، ومن أبرز فروع مهرة: القمران الذين يتفرعون إلى عشائر، ومنهم «بنو ريام، وبلدهم قرية يقال لها رضاع على ساحل بحر عمان[٧]، لهم جبل حصين بناحية عمان، يمتنعون

(١) الاكليل ٢/ ١٥.
(٢) الاكليل ٢/ ١٦. فما بعد.
(٣) الاكليل ٢/ ٧ ـ ٣٩.
(٤) الاكليل ٢/ ٣٠، صفة جزيرة العرب ١٦٧، معجم ما استعجم ٥١٥.
(٥) الانساب لابن حزم ٤٤٠، معجم ما استعجم ٢٧.
(٦) الانساب لابن حزم ٢٨٠، ٣٩٨، الاكليل ١/ ١٩١، معجم ما استعجم ٢٧، ٦٥٥.
(٧) الاكليل ٢/ ٤٥٠.

فيه، يعرف بجبل بني ريام[١]. ويذكر الهمداني عددا من فروعهم[٢]. وامتدت مهرة إلى جزيرة سقطرى التي فيها من جميع عشائر مهرة[٣].

ولحقت بمهرة عدد من العشائر منهم بنو شقرون[٤]، وعدد من عشائر صيداء[٥].

أحوال حضرموت في أول الإسلام

يظهر من المعلومات المتوافرة عن إقليم حضرموت، عند اتصال أهله بالرسول (ص)، أنه لم تكن فيه سلطة عليا تهيمن عليه وتقوم بإدارته، ولم يكن خاضعاً لحكم أجنبي، وإنما كانت فيه مجموعات سكانية متمايزة لكل منها رؤساء من أهلها، وهذه المجموعات هي كِنْدة والسكاسك والسكون، وحضرموت، ويمكن أن يضاف إليها مهرة والشحر، وتتجلى هذه الأقسام الثلاثة في عدد ولاة الرسول (ص) على الإقليم بعد ان اتصل به أهله وأسلموا، فيذكر الطبري أن الرسول في السنة التاسعة «استعمل على أعمال حضرموت:

على السكاسك والسكون عكاشة بن ثور

وعلي بني معاوية بن كندة عبد الله، أو المهاجر، فاشتكى فلم يذهب حتى وجهه أبو بكر.

وعلى حضرموت زياد بن لبيد البياضي، وكان زياد يقوم على عمل المهاجر، فمات رسول الله (ص)، وهؤلاء عماله على اليمن وحضرموت[٦].

ان هذه التقسيمات قائمة على أساس السُّكان، ولكن استقرار ديار هذه

---

(١) معجم ما استعجم ٦٥٥.
(٢) الاكليل ١/ ٢٩٣.
(٣) الاكليل ١/ ١٩٥ ـ ١٩٦.
(٤) معجم ما استعجم ٥٥.
(٥) الاكليل ٢/ ٦.
(٦) الطبري ١/ ١٨٥٧، ١٩٨٢.

المجموعات تجعل الحدود الأرضية لهذه التقسيمات واضحة، ولا ريب في أن هذه التقسيمات متوازنة في عدد سكانها وفي مساحتها.

والمعلومات عن هذه المجموعات متباينة في مقدارها وتفاصيلها، وأكثر المعلومات عن كندة وحضرموت. أما المجموعات الأخرى، فالمعلومات عنها مقتضبة جداً، ويلاحظ أن المعلومات عن كندة فيها بعض الخلط.

ذكر ابن سعد أن مهرة أوفدوا إلى الرسول وفداً كان عليه مهرى بن أبيض[1] وكان في الوفد زهير بن قرطم، وأن الرسول (ص) كتب كتاباً إلى زهير وقومه[2]، ولم يُذكر والٍ استعمله الرسول عليهم.

أما كندة فقد جاء منهم الاشعث بن قيس إلى الرسول على رأس وفد من بضعة عشر[3]، ويروي ابن حجر أن الرسول كتب لبني معاوية من كندة كتاباً ولكن لم يذكر فيه نصه. ويروي الطبري أن كُلاً من الأشعث بن قيس والسمط بن الاسود، وهما من بني الحارث بن معاوية، نزل محجرا له، وأنهما كليهما ارتدا، إلا أن شرحبيل بن السمط ثَبَت على الإسلام[4].

ويذكر ابن سعد أن الصدف أرسلت وفداً من بضعة عشر رجلاً إلى الرسول (ص)، ولكن لم تذكر المصادر اسم أي رجل من ذلك الوفد أو نص الكتاب لهم[5].

أما حضرموت، فقد ورد ذكر اتصال بني مرحب وبني وليعة ووائل بن حجر بالرسول (ص)، فذكر ابن سعد أن الرسول (ص) كتب لربيعة بن ذي مرحب الحميري وإخوته وأعمامه يقر لهم بأموالهم ومزارعهم، وأن على المسلمين نصرهم[6]. ولعله هو نفس ربيعة بن لهيعة الذي يذكر ابن حجر أن الرسول كتب

(١) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٨٣.

(٢) الانساب لابن حزم، ٤٣٠، ويذكر ابن حجر اسمه «وهبن» الاصابة ٢٤٧٩.

(٣) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٦٤.

(٤) الطبري ١/ ١٧٣٩ ويذكر ان الوفد كان عدده ستين، وانظر الوثائق السياسية ١٣٨أ.

(٥) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٦٤.

(٦) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٣١، الوثائق السياسية ١٣١.

اليه[١]، ومرحب ينسبها ابن الحائك الى الحارث بن حضرموت[٢] وينسبها ابن حزم إلى عمير بن مرة[٣] ولعل لهم صلة بالاله مرحب الذي كان مركزه بحضرموت وسادته ذو أمر[٤].

أما بنو وليعة فيذكر ابن سعد أن وفدهم حمدة، ومخوس، ومشرح، وابضعة، وهم كانوا ملوك حضرموت، ويذكر أيضاً أن مخوس بن مَعْدِ يكَرِب ابن وليعة قدِم على النبي في نفر من قومه[٥] وهذا التفرد قد يرجع إلى شخصيته البارزة، ولكن لم يرد ما يدل على اختصاصه بامتيازات.

وقد اختلفت أوصاف المصادر لهؤلاء الأربعة، فذكر ابن سعد أنهم كانوا ملوك حضرموت[٦]. وذكر الطبري أنهم كانوا رؤساءها[٧] ووصفتهم المصادر بأنهم العباهلة، أي الذين أُقِروا على ملكهم لا يُزالون عنه[٨]، أي أن مُلْكهم ثابت وربما كان وراثياً، وذكر الهمداني أن العباهلة من احماد[٩]، غير أنه ذكر في مكان آخر أنهم من شبيب[١٠].

يروي الطبري أن هؤلاء الأربعة كانوا رؤساء بني عمرو بن معاوية، وأنه كان لكل منهم محجر يحمونه[١١]. والمحجر تعبير لأهل اليمن يقصد به حوزة القَيْل وناحيته التي لا يدخل عليه فيها غيره[١٢]، فهو كالملك الشخصي، وهو

---

(١) الاصابة لابن حجر ٢٦١٣، الوثائق السياسية ١٣٦.

(٢) الاكليل ٢/٣٧٨.

(٣) الانساب لابن حزم ٤٣٢.

(٤) الانساب لابن حزم ٤٩٣.

(٥) ابن سعد ١ ـ ٢/٧٩، وانظر البرصان والعميان للجاحظ ٢٧٤؛ وانظر: تاريخ المدينة لابن شبة ٥٤٣

(٦) ابن سعد ١ ـ ٢/٧٩/٥/٧؛ وانظر تاريخ خليفة ٨٠٤ (عن ابن اسحاق).

(٧) الطبري ١/٢٠١٤.

(٨) لسان العرب ١٣/٤٤٩.

(٩) الاكليل ٢/٣٧٧.

(١٠) الاكليل ٢/١٧٩.

(١١) الطبري ١/٢٠٠٤.

(١٢) لسان العرب ٥/٢٤٣.

مظهر لسلطته الواسعة، ولكن لا توجد إشارة إلى مساحة المحجر أو أهله أو حقوق صاحبه على من يقيم في المحجر.

إن الشخصية البارزة التي يتردد ذكرها في أخبار حضرموت أوائل اتصالها بالإسلام هو وائل بن حجر، وهو من بني شبيب[(١)]. وكان من العباهلة[(٢)]. وقد قدِم إلى الرسول وكتب إليه كتاباً جاء فيه «لك ما في يديك من الارضين والحصون، وأن يؤخذ منك في كل عَشَرة واحد»[(٣)].

وكتب الرسول (ص) لوائل بن حجر أنه «يترفل على الأقيال»[(٤)] أي أنه جعله رئيساً على الأقيال. غير أن المصادر لا تذكر الحقوق والامتيازات التي يضيفها عليه هذا الترفُّل، أو عدد الأقيال الذين تَرَفَّل عليهم.

انشقاق حضرموت وعودتها إلى حظيرة الإسلام

وَلَّى الرسول (ص) زياد بن لبيد البياضي على حضرموت، بعد أن اتصل به أهلها معلنين انضمامهم إلى الإسلام،[(٥)]. ويروي البلاذري أن الرسول (ص) وَلَّى المهاجر بن لبيد كندة والصدف. فلما تُوُفِّي ضم أبو بكر ولاية كندة والصدف إلى زياد فوحَّد إدارة حضرموت[(٦)].

ويَذْكر أيضاً أن الانشقاق الذي حدث في حضرموت يرجع إلى أن زياد بن لبيد أخذ في الصدقة قَلُوصاً من بعض كندة، ووَسَمه بميسم الصدقة، فسأله الكندي ردَّها فأبى ذلك، ورد وساطة الاشعث في ذلك، فاستاء الأشعث وثار على زياد وأيَّدته كِنْدة فانتفضت على زياد كلها إلا السكون فإنها كانت

(١) الاكليل ٢/٣٧٨.
(٢) ابن سعد ١ ـ ٢/٥١، الوثائق السياسية ١٣٣.
(٣) ابن سعد ١ـ ٢/٣٥، ٧٩، الوثائق السياسية ١٣٤.
(٤) ابن سعد ١ ـ ٢/٣٥، الوثائق السياسية ١٣٢، ١٣٣.
(٥) الطبري ١/١٠٠١، فتوح البلدان ١٠١، الانساب لابن حزم ٣٥٧.
(٦) فتوح البلدان ٦٨.

معه[1]. أما الطبري، فيذكر أن الرسول (ص) كان قد أمر بعدم حصر توزيع الصدقة في الجماعة التي تؤخذ منها، وإنما يتحول بعضها إلى الجماعات الاخرى تبعاً لما يراه الوالي، فإن بني لهيعة طالبوا ببعض الإبل التي كانت تُجبى من كندة، لأنهم «ليسوا أصحاب إبل»، ولكن زياداً لم يستجب لطلبهم فاستاؤوا وثاروا، إلا أن زياداً انتصر عليهم وقتل ملوكهم الأربعة فغضبت كندة وأعلنت بقيادة الأشعث انشقاقها[2]، أي أن الحركة كانت محلية، ولم تتوسع إلا بعد تشدد زياد في إخماد الثورة، كما أنها لم تقم على أفكار مناهضة لعقائد الإسلام الأساسية.

وبثورة كندة أصبح زياد مهدَّداً، ولم يبق معه إلا السكون وقليل من أفراد كندة، فاستنجد بالمُهاجر الذي تقدم بقوات لم تفلح في القضاء على حركتهم واستطاعوا حصر المسلمين في النجير، ثم طلب أبو بكر من عكرمة بن أبي جهل، وكان قد أرسله للسيطرة على عُمان، ان يتقدم منها إلى مهرة واليمن لينضم إلى القوات الإسلامية ويقضي على حركات المرتدين، فوصل عكرمة وتغلب على المرتدين وفك الحصار عن المسلمين وقتل كثيراً من المرتدين وأسر عدداً منهم، وأرسل بعض الاسرى ومنهم الأشعث إلى المدينة[3] وبذلك استعاد المسلمون السيطرة على حضرموت.

وبعد أن أخمدت حركة المرتدين في حضرموت، وأعيدت إلى حظيرة الإسلام، عمل أبو بكر على استرضائهم، فزوج أخته من الأشعث بن قيس، وأمر برد سبايا النجير بعد أن فداهم من بيت المال بأن دفع أربعمائة درهم لكل منهم[4].

(١) فتوح البلدان ١٠٠، تاريخ خليفة ٨٤ (عن ابن اسحاق).

(٢) الطبري ١/١٨٨١، ٢١٠٠، فتوح البلدان ١٠٠.

(٣) الطبري ١/٨٩٣، ١٩٧٦، ٢٠٠٦، ٢٠٠٨ ـ ١ ويذكر الواقدي إن عكرمة تقدم من الحجاز ومر بصنعاء ومأرب وذمار: الوثائق السياسية تاريخ خليفة ٨٤.

(٤) فتوح البلدان ١١٣.

الفصل الحادي والثلاثون

حركة طليحة بن خويلد

منطقة شمالي المدينة

إن المنطقة الواقعة في الجهات الشمالية الشرقية من المدينة تكوّن جزءاً من هضبة نجد، يجري في أطرافها الجنوبية وادي الرمة وفروعه، ويقع في أطرافها الشمالية الشرقية جبلا طي أجأ وسَلْمى، وهما جبلان مرتفعان فيهما عدد غير قليل من الوديان. وهذه المنطقة ارضها بركانية فيها كثير من الحرات، وهي عالية مستوية، عدا قليل من المرتفعات وبعض الوديان الصغيرة التي تخترقها، وهي منطقة جرداء مجدبة ليس بها إلا قليل من الآبار المتناثرة التي لا تكفي مياهها لزراعة دائمة واسعة، كما أنه لا توجد فيها معادن ولا تسلكها القوافل، ولذلك كان أهلها رعاة يعتمدون في ميرتهم على خيبر وربما اعتمدوا على المدينة أيضاً. ومن ديارهم سميرا وفيد.

وتقع في هذه المناطق ديار ثلاثٍ من القبائل الكبيرة هي: طئ، وغطفان، وأسد. وكانت هذه القبائل قد عقدت بينها حلفاً قبل الإسلام، غير أنه، قبيل مبعث الرسول، خرجت منه طئ وذلك عندما اجتمعت غطفان وأسد على طيء فأزاحاها عن دارها في الجاهلية[١]، وبذلك أصبح الحلف مقصوراً على غطفان

(١) الطبري ١/ ١٨٩٢.

وأسد، فكانا يسميان الحليفين[1]. ولا ريب في أن هذا الحلف الثنائي باعد طَيئاً عنهما، وجَعَلها تميل إلى الرسول (ص) ودولة الإسلام، ولم تذكر المصادر موقفاً عنيف العداء لطي تُجاه الإسلام. وتذكر المصادر أن محمداً (ص) وجّه رسائل لعدد من رؤسائهم يساندهم، وكتب إلى بني أسد يحذرهم من الاعتداء على مياه طئ «فانه لا تحل لكم مياههم، ولا يَلِجَنَّ أرضهم إلا مَنْ أولجوا»، وكانت أكثر كتبه إلى بني جوين وبني معن[2].

كانت ديار طئ في الأطراف الشمالية الشرقية من هذه المناطق، وهي قبيلة يروي النسابون أنها هاجرت من اليمن بعد خراب مأرب، وانتشرت في هذه البلاد، وتشير المصادر السريانية إلى أنها كانت منتشرة في القرنين الأول والثاني الميلاديّين في الجزيرة الفراتية وفي أطراف الرها وحرّان، حتى أن اسمها وحده كان يطلق على العرب البدو في تلك المناطق. غير أن ديارها عند ظهور الإسلام كانت مقصورة على جبلي أجأ وسلمى فحسب، ويبدو أن تغلب وإياد ازاحاها عن الجزيرة الفراتية إبّان القرن الرابع الميلادي وكانت عشائرها الرئيسة الغوث وجديلة، وكانت الغوث تقيم في الجبل، وجديلة في السهول[3]. ومن عشائرها نبهان وكانت ديارها في جبل سلمى «لن يدخله أحد عليها وليس به قرى وإنما به مياه»[4]، ومن عشائرهم سنبس[5].

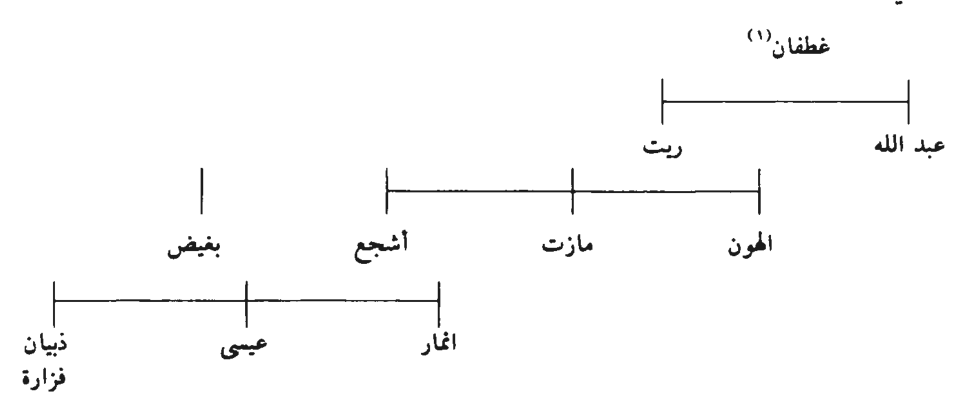
غطفان

أما غطفان فكانت ديارها في الأطراف الغربية من هذه المنطقة. وهي تمتد من أطراف خيبر شمالاً إلى وادي الرمة جنوباً، وتتصل ديارها ببني عامر بن صعصعة التي تقيم في المناطق الواقعة جنوب وادي الرمة.

---

(١) أنساب الأشراف ١/ ٤٣٤، الاشتقاق لابن دريد ٢٨٥.
(٢) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٢٣، وانظر: الوثائق السياسية ١٩٣ ـ ٢٠٠.
(٣) معجم البلدان لياقوت ١/ ١٢٩.
(٤) ياقوت ٣/ ١٢٠.
(٥) ياقوت ٢/ ٤٥٧.

وتضم غطفان عدداً من العشائر أجْمَلَها ابنُ حزم بما توضحه الشجرة التالية:



وكانت أخبار عبس وذبيان تتردد قبيل الإسلام إذْ نَشِبت بينهما حرب داحس والغبراء ودامت مدة طويلة فكانت من أشهر أيام العرب في الجاهلية، وأدت إلى إضعافهما. فقد تردد ذكر ذبيان عند ظهور الإسلام، أما عبس التي كانت ديارها قرب وادي الرمة فقد اضعفتها حروبها مع بني عامر بن صعصعة، وأكثر ما يتردد عند ظهور الإسلام ذكر غطفان، ويقصدون به بني عبد الله بن غطفان، وفزارة.

ونظراً لبعد ديار غطفان وفزارة عن مكة، ووقوعها بمنأى من طريق القوافل، لم ترد أخبار عن صِلاتٍ وثيقة بينها وبين مكة. وقد أشار ابن دريد إلى أن ظويلم، وهو أحد رجالهم حج إلى مكة وامتنع عن دفع ما كانت تأخذه قريش من الحاج[2]، وشاركت غطفان في حرب الفِجَار بجانب قريش. وكان عليهم فيها عوف بن حارثة المرّي[3].

لم تذكر المصادر ما يدل على اتصال غطفان وفزارة بالإسلام في زمن الدعوة الإسلامية في مكة. ولمّا هاجر الرسول (ص) إلى المدينة كانت علاقتهم بالرسول غير ودية، وقاموا بمحاولات للتحرش بالرسول (ص)، مما حمل على إنفاذ عدة حملات عليهم، ففي المحرم حتى السنة الثالثة جهّز الرسول حملة إلى

(١) جمهرة الأنساب لابن حزم ٢٤٨.
(٢) الاشتقاق ٢٨٢.
(٣) المنمق ٢٠٤.

قرقرة الكدر لأنه بلغه أن بها جمعاً من غطفان وسليم يريدون به كيداً[١]، ثم جَهَّز بعد ثلاثة أشهر حملة غزتهم في ذي أمر[٢].

عيينة بن حصن

وكانت غطفان إحدى القبائل الكبرى التي انضمت إلى قريش ضد المسلمين في غزوة الخندق، فقد جَهَّزت ألف بعير، وكان رئيسها عيينة بن حصن[٣]، وكان اسهامة منبعثاً عن طموحه وحبه للقتال أكثر من كونه عن حقد على الإسلام، وقد أدرك الرسول (ص) ذلك ففاوضه على أن ينسحب مقابل اعطائه ثلث ثمار المدينة، غير أنه طالب بنصف الثمار، ولم تنجح المفاوضة لمعارضة الأنصار لها[٤]، غير أنه كان لها أثر في تباطؤ عيينة في القتال.

وفي أوائل السنة الخامسة تقدم الرسول إلى دَوْمة الجَنْدل ووادع فيها عُيَيْنة وأباح له أن يرعى في تغلمين التي تبعد ستة وثلاثين ميلاً عن المدينة[٥]، غير أن عيينة لم يحافظ على الموادعة، ففي تلك السنة أغار على لقاح للرسول كانت ترعى في الغابة في الأطراف الشمالية الغربية من المدينة[٦].

وفي السنة السابعة من الهجرة جمع عيينة قوات في الجناب ليزحف بها على المدينة ولكن قواته تشتت بوجه سرية أرسلها عليهم الرسول (ص)[٧].

وفي شعبان من السنة التالية انفذ الرسول (ص) إلى غطفان سرية غنمت منهم عدداً من الابل والغنم[٨].

---

(١) انساب الاشراف ١/ ٣١٠.

(٢) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٢٣، ٣/ ٣٩٨، أنساب الأشراف ١/ ٣١١.

(٣) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٤٧، ٥١، ٥٨؛ ويذكر ابن شبه ان عيينة تفرد باخذه الرباع قبل الاسلام والخمس من الاسلام. تاريخ المدينة ٥٣٧، وانظر نشوة الطرب ٣٨٨

(٤) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٤٩، ٥٢، ٦١، أنساب الأشراف ١/ ٢٨١.

(٥) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٤٥.

(٦) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٥٨، ٢ ـ ٢/ ٨٤، أنساب الأشراف ١/ ٣٤٨، ٣٧٩.

(٧) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٨٧، ٣ ـ ٢/ ٨٩.

(٨) ابن سعد ٢ ـ ١/ ٩٦، ٣ ـ ٢/ ٨١.

ثم انضم عيينة إلى الإسلام، وشارك في فتح مكة وفي معركة حنين، وكان من المؤلَّفة قلوبُهم، فأعطاه الرسول (ص) من غنائمها مائة من الابل[١].

وفي السنة التاسعة وجَّهه الرسول (ص) ليصدق بني تميم[٢]، ثم انضم مع سبعمائة من فزارة إلى طليحة وقاتل المسلمين في بزاخة وأسر فمنّ عليه أبو بكر وأطلقه.

ويتبين مما تقدم أن عيينة كان يهتم بمصالحه الشخصية الخاصة، وأنه كان قلقاً غير مستقر المبدأ، وكان يقتصر على المشاركة في الغزوات ثم يعود إلى بلاده، فلم يحظ بمكانة بارزة في دولة الإسلام التي تحمس في تأييدها عدد من رجال فزارة، فكانت لهم مكانة طغت على مكانة عيينة فانقطع ذكره. ومن مظاهر قلقه ما ذكره الطبري في تفسير الآية ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ (الحج/ ١٥) مِن أنها «نزلت في بني أسد وغطفان [الذين] تباطأوا عن الإسلام وقالوا نخاف أن لا ينصر محمد فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهود فلا يميروننا ولا يرووننا»[٣].

بنو أسد

أما بنو أسد، فكانت تقيم في الأطراف الشمالية من وادي الرمة، على الطريق بين المدينة والعراق، أي أن ديارها في الأطراف الجنوبية الغربية من ديار طيئ وفزارة، وعشائرها الرئيسة دودان، وكاهلة، وصعب وعمرو، وكان بنو الهالك بن عمرو يُسَمَّون القُيون، أي صُنَّاع الحديد، ولعل اسمهم جاء لتجارتهم بالأسلحة وليس لصنعها، اذ لم تكن في ديارهم مناجم حديد[٤]. غير أن هذه العشائر لا يتردد ذكرها في أخبار الحوادث في زمن ظهور الإسلام، مما يدل على تماسك العشيرة وضعف سلطان فروعها.

(١) ابن سعد ٢ ـ ١/ ١١٠.
(٢) ابن سعد ٢ ـ ١/ ١١٥، أنساب الأشراف ١/ ٣٨٢.
(٣) سورة الحج الآية ١٥، تفسير الطبري.
(٤) الأنساب لابن حزم ١٩٠، الاشتقاق لابن دريد ١٧٩.

وكانت لبني أسد صلة بمكة، فكانت منهم والدةُ كلٍّ من زيد بن الخطاب[١]، وسمرة بن جندب[٢]، والأرقم المخزومي الذي كان المسلمون يجتمعون في داره أوائل الدعوة[٣]، وكانوا حلفاء بني عبد شمس[٤]، ومنهم عبيد الله بن جحش «من المهاجرين أسلم وهاجر ثم ارتد نصرانياً» ومات كذلك وكانت تحته أم حبيبة»[٥]. وبنو جحش «من مهاجرة الحبشة، كانوا كلهم أهل سلام وسابقة وهجرة رجالهم ونساؤهم»، ولما هاجر «لم يبق بمكة من بني أسد بن خزيمة أحد حتى أغلقوا أبوابهم»[٦].

أما في المدينة، فلم يذكر من بني أسد في أوائل الهجرة سوى عصيمة حليف بني مازن بن النجار، وهو ممن شهد بدراً[٧]، مما يدل على ضعف علاقتهم بالمدينة وعدم امتيارهم منها، اذ كانوا يمتارون من خيبر.

لم تكن لبني اسد علاقة ودية مع الرسول (ص) عند هجرته، وكانت لهم مواقف عدائية في السنوات الأولى من الهجرة، ففي المحرم من السنة الرابعة أنفذ الرسول سَرِيّة أبي سلمة إلى بني أسد وكانوا جمعوا جمعاً عظيماً وعليهم طليحة بن خويلد وأخوه سلمة بن خويلد يريدون غزو المدينة، فبلغ قطناً (وهو جبل في شرق المدينة قرب وادي الرمة، ولم يلق كيداً[٨]، وفي تلك السنة شاركت بنو أسد مع قريش وغطفان في غزوة الخندق، وكان يقودها طليحة بن خويلد[٩]، وفي ربيع سنة ستة أنفذ اليهم الرسول (ص) سرية بقيادة عكاشة بن

(١) ابن سعد ٣ ـ ١/٧٤.
(٢) أنساب الأشراف ١/٣١٦.
(٣) ابن سعد ٣ ـ ١/١٧٣.
(٤) الأنساب لابن حزم ١٩٢.
(٥) الأنساب لابنحزم ١٩١.
(٦) الانساب لابن حزم ١٩٢، انساب الأشراف ١/٢٥٩.
(٧) ابن سعد ٣ ـ ٢/٧٥.
(٨) ابن سعد ٢ ـ ١/٣٥، أنساب الأشراف ١/ ٣٧٤.
(٩) ابن سعد ٢ ـ ١/٤٧، ٥١.

محصن فوصلت السرية إلى غمر مرزوق، وهو أحد مياههم، ولكن لم يحدث قتال[1].

وقد تأخر إسلامهم إلى سنة تسع حين قَدِم في أولها «عشرة رهط من بني أسد بن خزيمة على رسول الله (ص) فيهم حضرمي بن عامر، وضرار بن الأزور ووابصة بن معبد، وقتادة بن القائف، وسلمة بن حبش، وطليحة بن خويلد ونقاوة بن عبد الله بن خلف» وقد أظهروا تكبّرًا «فنزلت فيهم الآية الكريمة ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ﴾»[2].

كانت بين بني أسد وطيّ علاقات متداخلة، عمل الرسول (ص) على تنظيمها، فكتب لهم كتاباً جاء فيه: «أما بعد، فلا تَقْرَبُنَّ مياه طيّ وأرضهم، فإنه لا تَحِلّ لكم مياههم، ولا يَلِجَنَّ أرضهم إلا من أُولِجوا، وذمة محمد بريئة ممن عصاه»، وجعل عليهم قضاعى بن عمرو يشرف على تنظيم هذه العلاقة[3]، وجعل الرسول (ص) على صدقاتهما عدي بن حاتم الطائي[4].

طليحة بن خويلد

تدور حركة الرِّدَّة والانشقاق في القبائل التي كانت في المنطقة الشمالية الشرقية حول طليحة بن خويلد الأسدي الذي لم تذكر المصادر معلومات عن مكانة أسرته، وإنما ذكر ابن سعد أخاه سلَمَة الذي شاركه في قيادة بني أسد في غزوة حنين[5]، وذكر الجاحظ طليحة خطيباً وشاعراً شجاعاً وكاهناً[6]، وكان في وفد بني أسد الذين وفدوا إلى النبي في سنة تسع[7].

(١) ابن سعد ٢ ـ ١/٦١.
(٢) ابن سعد ١ ـ ٢/٣٩.
(٣) ابن سعد ١ ـ ٢/٣٣.
(٤) أنساب الأشراف ١/٥٣٠ تاريخ خليفة ٦٣ ويضيف يقال على أسد الاباء بن قيس الأسدي.
(٥) ابن سعد ٢ ـ ١/٣٥، أنساب الأشراف ١/٣٧٤.
(٦) البيان والتبيين ١/٣٥٩.
(٧) ابن سعد ١ ـ ٢/٣٩.

ادَّعى طليحة النبوة بعدما ادَّعاها مُسَيْلمة والأسود، وكان ذلك عند رجوع الرسول (ص) من حِجَّة الوداع[1] وقد ادَّعى أن وحياً يأتيه به[2] ملك اسمه ذو النون[3]، وأوردت بعض المصادر فقرات مما ادعى نزولها عليه، وهي مسجوعة على غرار اقوال الكهان[4]، وروى له الجاحظ شعراً[5].

ذكر الطبري أن طليحة أعلن نبوته في بني أسد[6]، ولكنه لم يحدِد المكان الذي كان يقيم فيه عند إعلان ادعائه النبوة، أو مركزَ دعوته، وذكر الطبري أن أمره استغلظ، واجتمع عليه عوامُّ طيء واسد، وارتدَّت غطفان إلاّ ما كان من أمر اشجع وخَوَاصَّ من الأفناء لم يتابعوه[7]. ولا ريب في أن متابعة العَوَامّ له اكسبته قوة عددية. غير أن مما أضعفه أن الخواصَّ، اي الرؤساء لم يتابعوه. ولعل ذلك قد كان بدافع الحسد والمنافسة، أو لاعتقادهم بضعف أسس حركته وضحالة أفكاره.

علم الرسول (ص) بخبر تَنَبُّؤ طليحة من كتاب أرسله سنان بن أبي سفيان وكان عَلَى بَنِي مالك، ثم أرسل طليحةُ ابن أخيه حبال إلى النبي يخبره بادعائه ويدعوه إلى الموادعة[8]، أي أنه اظهر أن حركته محلية وليست توسُّعية أو هجومية، ولعله لم يَرِد في المراحل الأولى من حركته الاصطدام بدولة الإسلام التي ظهرت عظمتها.

اقتصر الرسول على محاربة طليحة بالرُّسل[9]، فلم يُنْفِذ إليه حملة عسكرية،

---

(١) الطبري ١/ ١٧٥٠، ١٧٥٩، ١٧٩٧.
(٢) الطبري ١/ ١٨٧١.
(٣) الطبري ١/ ١٧٩٧.
(٤) الطبري ١/ ١٨٩٧، فتوح البلدان ٩٥.
(٥) العثمانية ١٦٧.
(٦) الطبري ١/ ١٧٥٠.
(٧) الطبري ١/ ١٨٧١، ١٨٧٣. ويذكر وثيمة انه لم تؤيده ذبيان بني ربيعة، وخيش رواه غسان وعبد الرحمن وغالب بن بشر ويزيد بن حذيفة في اشراف من بني اسد ١٠٥.
(٨) الطبري ١/ ١٧٩٧.
(٩) الطبري ١/ ١٨٧١.

وانما عُنِيَ بإنفاذ حملة أسامة إلى اطراف بلاد الشام دون أن تمر بديار أسد وغطفان. ولا ريب في أن سيطرة الرسول على الأقاليم الغربية والشمالية من الحجاز تؤدي إلى الحد من توسُّعه ولكنها لا تطوقه، لأنها تُبْقي له مجال التوسع نحو الشرق.

ويقول الطبري إن الرسول (ص) وجَّه ضرار بن الأزور إلى عماله على بني أسد في ذلك، وأمرهم بالقيام في ذلك على كل من ارتد، ونزل المشركون بسميراء، فما زال المسلمون في نماء، والمشركون في نقصان[١]، وهذا يدل على أن حركته ظلت ضعيفة محدودة، ولم يُظهر ما يُهدّد الإسلام ودولته.

توسع سلطانه

ولما تُوفي الرسول، وتولى الخلافة أبو بكر، اضطربت الأحوال وانتفضت عدة قبائل على أبي بكر، وازداد الحرج عندما أصرّ أبو بكر على إنفاذ جيش أسامة إلى أطراف بلاد الشام، مما أضعف القوة التي يعتمد عليها في المدينة. واستغل طليحة هذه الأحوال، فوسع دعوته وضم اليه أسد وغطفان وطيء، «الا ما كان من خواصٍّ أقوامٍ في القبائل الثلاث»، وجدد الحلف القديم بين هذه القبائل الثلاث، وانضم إلَيه عدد من رجال ليث والديل ومدلج وكنانة[٢].

كوّن الجمع الكبير الذي ضمه طليحة خطراً كبيراً على المدينة نظراً لكثرة عدد رجالهم وقربهم من المدينة التي لم يكن فيها عدد كبير من المقاتلين بعد إنفاذ جيش اسامة، وقد حاول أبو بكر إبعاد خطرهم بالمفاوضات وبما أرسله من الرسل. ويروي الطبري أنهم بعثوا وفوداً فاوضوا أبا بكر على أن يقيموا الصلاة ولا يؤتوا الزكاة، غير أن أبا بكر رفض طلبهم[٣]. وهذه المفاوضات، إن صحّ وقوعها، تدل على ميل المرتدين إلى التفاهم مع ابي بكر، وأن هذا قد يدل على ادراك قيادتهم ما في جموع طليحة من ضعف وتخلخل، وليس من

(١) الطبري ١/ ١٨٩٢.
(٢) الطبري ١/ ١٨٧٣.
(٣) الطبري ١/ ١٨٧٠.

المستبعد أن الوفود جاءت المدينة لمعرفة الأوضاع الداخلية. والواقع أن القلق الذي كان سائداً في المدينة قد جرَّأ غطفان على التقدم إلى المدينة. يذكر الطبري أن أول حرب كانت في الردة بعد وفاة النبي حرب الأسود العنسي، ثم حرب خارجة بن حصن، ومنظور بن زبان بن سيار في غطفان، والمسلمون غارون. فانحاز أبو بكر إلى أجمة، استتر بها ثم هزم الله المشركين[١]. وعندما هاجمهم أبو بكر كان أول من صادم ذبيان وعبس، «فخرج اليهم أبو بكر مع قوة عليها ثلاثة من أبناء المقرن المزني»، مما يدل على أن مزينة كانت عماد هذه القوة. وأفلح أبو بكر في صدهم وطردهم[٢]، ثم عاد إلى المدينة. ولم يكن هذا الانتصار حاسماً، اذ لم يصطدم الا بطليعة صغيرة.

وكانت القوات المنضمّة إلى طليحة قد تنامت، فكان معه من فزارة سبعمائة مقاتل[٣]، ومن جديلة خمسمائة[٤]، بالإضافة إلى قوات لم يُذكر عددها من الغوث، وثعلبة، وبني سعد، ومرة، وكنانة، ولكنها كانت من الضخامة بحيث لم يتحمَّل تجمُّعها مكان واحد من هذه المناطق القليلة المياه.

ولذلك توزعت مناطق تجمُّعهم: «فاجتمعت أسد بسميراء، وفزارة ومن يليهم من غطفان بجنوب طيبة، وطيء على حدود بلادهم، واجتمعت ثعلبة وسعد ومن يليهم من مرة وعبس بالأبرق من الربذة، وتأَشَّبَ إليهم أناس من بني كنانة فلم تحملهم البلاد، فافترقوا فرقتين، فأقامت فرقة منهم بالأبرق، وسارت الأخرى إلى ذي القصة»[٥].

ويذكر الطبري أن القوة التي أقامت في الأبرق كانت من بني مرة وثعلبة وعبس. أما القوة المتقدمة إلى ذي القصة التي تبعُد عن المدينة حوالى ثلاثين

(١) الطبري ١/ ١٨٧١.
(٢) الطبري ١ ١٨٧٣، ١٨٧٤، تاريخ خليفة ٦٧.
(٣) الطبري ١/ ١٨٨٠، فتوح البلدان ١١٥، تاريخ خليفة ٦٨.
(٤) الطبري ١/ ١٨٩٢.
(٥) الطبري ١/ ١٨٧٣، وانظر تاريخ خليفة ٦٦.

ميلاً، فهي مُكوَّنة في قول الطبري من أسد وليث والدِّيل ومدلج. وفي رواية البلاذري مكونة من غطفان برئيسيها خارجة بن حصن ومنظور بن زبان[١].

دحر طليحة والقضاء على حركته

كان جيش أسامة قد عاد إلى المدينة، فقَوِيَ به أبو بكر وطلب من ذلك الجيش أن يقيم في المدينة: «أريحوا وأريحوا ظهوركم»[٢]. وتقدم بنفسه في أوائل جُمادى سنة ثلاث عشرة مع ما جمعه من قوات ممن كان مقيماً بالمدينة. ولم تذكر المصادر تكوينهم القبلي، سوى أن طلحة بن عبيدالله التيمي كان من أبرز قواده. واشتبك مع قوات المرتدِّين المتقدمة إلى ذي القصة ودحرها فانسحب طليحة إلى بزاخة، وهيمن أبو بكر على الأبيرق، كما هيمن على ما حوله من الربذة وجعلها كلها لصدقات المسلمين[٣].

إن انتصار أبي بكر في معركة ذي القصة له أهمية كبيرة في تاريخ الإسلام، فهو أول انتصار لجيش يقوده أبو بكر بنفسه. وبذلك كان له أثر في تثبيت مكانته ورفع سمعته وازدياد هيبته. كما أنه اقصى عن المدينة خطراً مباشراً يهدد قلب الدولة وقاعدتها المكينة. وبذلك أَمِنَ أهلُها وازداد اطمئنانهم. وكشف انتصار أبي بكر أيضاً تخلخل القوات الكبيرة المنضمّة إلى طليحة وضعفها وتماسكها. ذلك أن انكسارها السريع في أول معركة اصطدمت بها أدى إلى انسحاب كافة القوات. ولم تحاول الصمود والقيام بهجوم مقابل. وبذلك دلت على أن طليحة كان يدرك ضعف تماسك قواته وعجزها عن التغلب على جيش أبي بكر، فانسحب إلى بزاخة حيث جمع فيها قواته وجعل عيالات بني أسد مُحْرَزَة بين مثقب وفلج، وعيالات قيس بين مثقب وواسط[٤].

---

(١) فتوح البلدان ٩٤.

(٢) الطبري ١/ ١٨٧٨، تاريخ خليفة ٦٦.

(٣) الطبري ١/ ١٨٧٩.

(٤) الطبري ١/ ١٨٩٨.

قام أبو بكر بعد انتصاره في ذي القصة بتنظيم العمل للقضاء على حركات الردة، وعَقَد الألوية، وعيَّن القواد وحدد لكل قائد الجبهة التي يتوجّه اليها، وأمرهم باستنفار أهل القوة ممن يمرون به من المسلمين، وان يستعملوا الشدة مع من يقاوم الإسلام أو يمتنع عن الانضمام إلى دولته.

أسْند أبو بكر إلى خالد بن الوليد مهمة القضاء على قوات طليحة، وجعل معه ثابت بن قيس بن شمّاس على الأنصار، ومهَّد للمعركة بمحاولة فصل طيء عن طليحة، فارسل اليها عدي بن حاتم يَثْنيها عن الانضمام إلى طليحة[١] وكانت القوات التي معه حوالي ثلاثة الاف[٢].

ومما يَسَّر نجاح عدي في مهمته أن الحلف الثلاثي بين القبائل الرئيسة كان قد تفكك منذ بداية الإسلام، وأن خيبر التي كانت تميزهم وتعمل على تماسك الحلف أصبحت خاضعة للإسلام.

وعندما تقدم خالد لقتال طليحة، أظهر أنه يريد خيبر، فجعل طريقه إلى الغرب من بزاخة، ثم غيَّر مسيره فجأة نحو الشرق وتوجَّه نحو طيء، وكانت مترددة، وأفاد من جهود عدي فمالت إليه طيء وتركت نصرة طليحة[٣].

ثم تقدم خالد إلى بزاخة، وكان على طليعته عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم، فانتصرا على قوة أرسلها طليحة إلى جبل قطن لمواجهة المسلمين بقيادة ابن أخيه حبال[٤]. ثم اشتبك خالد مع طليحة في معركة حامية انتصر فيها فتشتت قوات طليحة واستسلم آخِرُها ووقع عيينة بن حصن أسيراً[٥]. أما طليحة فانه انهزم ولَحِق بأطراف الشام ولجأ إلى كلب[٦]، ثم اتصل بعد ذلك بأبي بكر

(١) الطبري ١/١٨٨٦.
(٢) تاريخ خليفة ٦٧.
(٣) الطبري ١/١٨٨٧، وانظر البحث القيم للعميد طه الهاشمي «خالد بن الوليد والقضاء على حركات الردة» الذي نشره في مجلة الرسالة المصرية ثم نشره في كتاب مستقل.
(٤) تاريخ خليفة ٦٧، فتوح البلدان ٩٥.
(٥) الطبري ١/١٨٩٦، تاريخ خليفة ٦٨.
(٦) فتوح البلدان ٣، تاريخ خليفة ٦٨.

وأعلن إسلامه، فعفى عنه أبو بكر. وفي زمن خلافة عمر بن الخطاب انضمَّ طليحة إلى الجيش الإسلامي بقيادة سعد بن أبي وقاص فشارك في القادسية، حيث كان من أبرز فرسان العرب، وأبلى بلاء حسناً فيها[(١)] وفي المعارك التالية، وخاصة نهاوند، حيث كان على الرجال في فتح قزوين، ثم أقام بعد ذلك على رأس الحامية الإسلامية فيها[(٢)].

ولا ريب في أن الفضل الأكبر في انتصار المسلمين في بزاخة هو عبقرية خالد في التقدم وإدارة المعركة، فقد باغت جيوش المرتدين بفصل طي وإخضاعها. وبذلك أضعف جناحهم الأيسر، اضافة إلى أن تجمع المرتدين كان قائماً على حلف ضعيف الأسس بين عشائر متشبعة بروح البداوة، لم تجمعها عقيدة عميقة ومُثُل عليا محركة، وانما ربطتها طموحات غامضة لزعمائها الذين عرفوا بعدم الاستقرار.

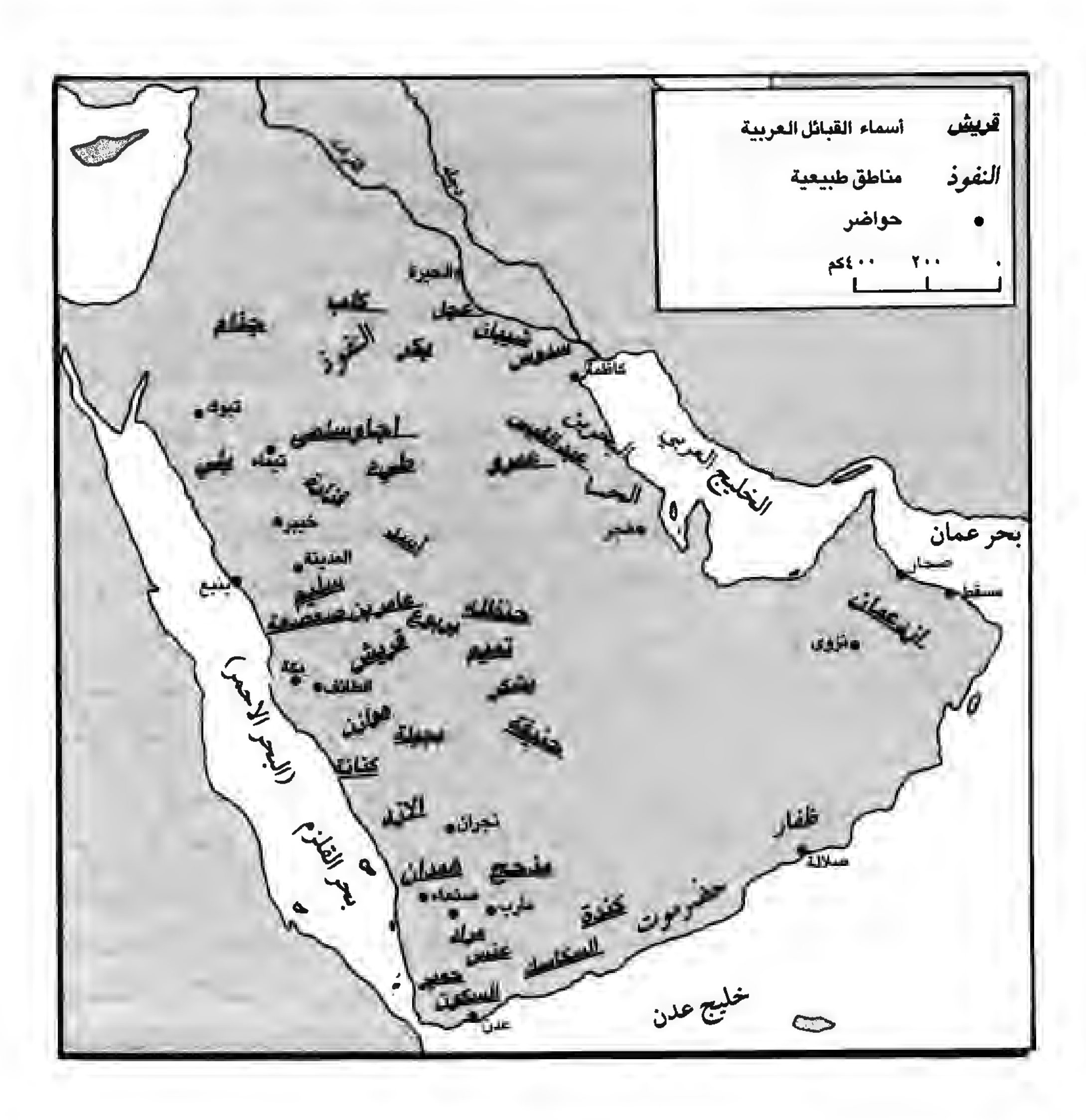
إن انتصار المسلمين في بزاخة قضى على الخطر الأكبر الذي كان يهدد المدينة، ونَشَر الأمن والاستقرار في هذه المناطق التي طالما كانت من قبل مسرحاً للقلق والغزوات التي تقوم بها العشائر القاطنة فيها. وبذلك زال الخطر الأقرب إلى المدينة، وهي مركز السلطة العليا وقاعدة الإسلام وقامت المواصلات مع المناطق الواقعة في شمال الحجاز وفي أطراف بلاد الشام، وتيسَّر سير التجارات والعمال والبعوث إلى العشائر المقيمة في تلك المناطق، ومُهِّد لتقدم الجيوش الإسلامية نحو بلاد الشام.

إن الانهيار السريع لهؤلاء المرتدين، وقلة من قتل منهم في معركة بزاخة، خفف الأحقاد والضغائن التي يولدها القتل وما يرافقه من طلب الثأر، ومهد السبيل لعودة اندماجهم بدولة الإسلام والعمل لتحقيق أهدافها. وعندما سمح عمر بن الخطاب بانضمام المرتدين إلى الجيوش الإسلامية سارعت أسد وغطفان بالانضمام إلى جيش سعد بن أبي وقاص، وقامت بدور فعال في معركة القادسية وبقية معارك فتوح العراق، واستقر كثير من رجالهم في الكوفة.

---

(١) فتوح البلدان ٢٥٨.

(٢) فتوح البلدان ٣٢٥.



الجزيرة العربية وعشائرها في عهد الرسول (ص)

الفصل الثاني والثلاثون

تميم
وموقفها من الإسلام ودولته

ديار تميم

كان تميم من أكبر القبائل العربية عند ظهور الإسلام، وكانت تشغل رقعة واسعة من هضبة نجد، وتمتد ديارها شرقاً إلى اليمامة والبحرين وتخالط بهما حنيفة وعبد القيس، وتصل إلى أطراف العراق الجنوبية فتخالط بكراً، وتصل ديارها شمالاً إلى أطراف جَبَلَيْ طي وتجاور عندهما طيء أسد وغطفان، وتقرب غربا من الحجاز، وتجاور فيه بني عامر بن صعصعة.

وكان لسعة ديارها وامتداد مساكنها أثر كبير في تكوينها لعلاقات متشابكة مع معظم القبائل المجاورة لديارها، فنشبت بينها وبينهم حروب ومعارك وصَفَها مؤلفو «أيامُ العرب»، كما عقدت احلافاً متعددة مع عدد من العشائر.

وظلت تميم بعيدة عن سيطرة أية دولة أجنبية من التي حكمت البلاد خارج الجزيرة، وأفلح أمراء كِنْدة بضمها إلى دولتهم، وهيمن عليها الحِمْيَريون مدة قصيرة من الزمن. غير أن هذه الهيمنة لم تدم طويلاً ولم يكن لها تأثير عميق على نُظُمهم وأحوالهم، فاحتفظوا باستقلالهم وكيانهم ونظمهم.

ونظراً لسعة رقعة منازلهم، وموقعهم المتوسط بين أقاليم الجزيرة، فقد

كانت تمر عبر ديارهم طرق التجارة من العراق وشرقي الجزيرة، إلى الحجاز وأطراف بلاد الشام، وكونوا علاقات واسعة مع القوى التي تهيمن على أطراف الجزيرة، فكانت علاقاتهم وثيقة مع المناذرة، وكان منهم أرداف ملوكها[١]، كما كان منهم المنذر بن ساوي[٢]، وهو أبرز زعيم في البحرين عند ظهور الإسلام، كما كانت لفروعهم في اليمامة علاقات متشابكة مع حكام ذلك الاقليم.

وكانت لتميم صلة وثيقة بمكة عند ظهور الإسلام، فكان منهم «أئمة الناس في مواسمهم والقضاء بعكاظ»[٣]، وكانت لهم الإجازة في الحج. وقد تزوج عدد من رجال قريش نساءً من بني تميم، وكان منهم النباش الزوج الاول لخديجة أم المؤمنين قبل أن يتزوجها الرسول (ص)[٤] وكان له أحد جبال مكة[٥] ولا بد أنه كان لهم دور في حماية قوافل قريش إلى العراق، وكان بنو يربوع من الحمس[٦].

والمناطق التي تقيم فيها تميم صحراوية جرداء، شحيحة الأمطار والمزروعات، وينبت فيها العشب في الربيع، وبعض النباتات الصحراوية، وفيها قليل من المزارع في بطون الأودية، والواحات الصغيرة حول بعض الآبار، ولكن ليست فيها أية تجمعات سكنية مستقرة من القرى والمدن، وأدت هذه الأحوال الجغرافية إلى ضعف أحوالهم الاقتصادية وقلة ثرواتهم، وكان عماد ثروتهم الماشية من الأغنام والابل والخيل، كما أدت إلى تحملهم شظف العيش ومشاق الحياة، وتدرُّبهم العسكري للدفاع عن كيانهم وعن الثروة القليلة التي يمتلكونها.

---

(١) انظر تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية، وانظر تفاصيل اوفى في كتاب «الحيرة ومكة» لكستر ترجمة يحيى الجبوري وانظر: نشوة الطرب ٤١٥.
(٢) المحبر ٢٦٥.
(٣) المحبر ١٨١ ـ ١٨٢، وانظر: نشوة الطرب ٤١٦ ـ ٨
(٤) انظر عن ذلك: كستر «الحيرة ومكة» ص٧٤ فما بعد.
(٥) أخبار مكة للأزرقي ٢٣٠.
(٦) المحبر ١٧٦.

عشائر تميم وأحوالها

وكانت هذه الأحوال الجغرافية من أسباب تفرُّقهم إلى مجموعات متعددة متمايزة، يتركز كل منها في منطقة محددة للعيش، كل منهم في منطقته شبه مستقل، وقد يتحالف أو يقاتل مجموعات أخرى من تميم ذاتها. وأبرز هذه المجموعات بنو زيد مناة، وعمرو بن تميم، وحنظلة.

فأما زيد مناة، فكانت متفرعة إلى عشائر يجمعها فرعان رئيسان هما سعد بن زيد مناة ومالك بن زيد مناة، وكانت ديارهم في الأطراف الشرقية وتمتد إلى البحرين شرقاً، وإلى رمل يبرين وأطراف اليمامة جنوباً، وإلى أطراف العراق شمالاً[1]، ولهم بعض المياه في الدهناء[2]، وقد خالطوا في ديارهم عبد القيس في البحرين وحنيفة في اليمامة.

وكان بنو سعد عند ظهور الإسلام مكوَّنين من شعبتين رئيستين هما عوف والأبناء، ورئيسها عند ظهور الإسلام الزبرقان بن بدر، ومقاعس والبطون ورئيسها قيس بن عاصم[3].

أما عمرو بن تميم فأشهر عشائرها العنبر، وديارها في أواسط نجد وتمتد إلى اليمامة شرقا[4] وإلى الصمان والبناج[5] ووادي الرمة غربا[6].

أما حنظلة، فكانت ديارها في الأطراف الغربية من نجد، وتتصل بديار بني أسد[7]، وكان «الصمان في قديم الدهر لبني حنظلة والحزن لبني يربوع،

---

(١) البكري ١٦٢، ٢٨٨، ياقوت ٢/١٨٨، ٢٦١، ٣٦٠.
(٢) انظر مادة «دهناء» والمواضع الأخرى التي ذكرها ياقوت في معجم البلدان.
(٣) الطبري ١/١٩٩، ١٩٣٦.
(٤) ياقوت /٨٥٠، ٣/٩٠.
(٥) ياقوت ٢/٦١٩، /١٥٣.
(٦) ياقوت ٢/٦٣، ٨٥٠.
(٧) ياقوت ٣/٤١٧.

والدهناء لجماعتهم[١]، وكان يقال «من تربع الحزن، وشتى الصمان، وتقيظ الشرف فقد أخصب»[٢].

وكان لها فرعان رئيسان هما بنو مالك، وبنو يربوع، ويربوع هي الأشهر، وكانت ديارها في الحزن قرب فيد. أما بنو مالك فكانت أقل شهرة.

ومن عشائرهم البارزة بنو دارم، وكانت ديارهم في الأطراف الجنوبية من العراق، ممتدة إلى كاظمة[٣] وسنام[٤] ومن بني دارم عبد الله، ومجاشع، ونهشل، وجرير، والفقيم[٥].

كانت تميم تحيا حياة البداوة بأجلى مظاهرها ونظمها، ومن أحوالها جاءت المعلومات عن البداوة ونُظُمها: وتميزت تميم أيضاً باحتفاظها باللغة العربية الأصيلة، وكان يؤمها في القرن الثاني الهجري علماء اللغة العربية ليأخذوا من رجالها معظم معلوماتهم عن اللغة العربية الفصحى وما يتصل بها. ومما عزز مكانتها في اللغة والأدب ظهور عدد قليل من الشعراء فيهم قبل الإسلام، ومن هؤلاء أوس بن حجر وسُلَيْك بن السُّلكة، وعَدِيّ بن زيد، كما كان منهم في الإسلام جرير والفرزدق، وهما أبرز الشعراء في زمن الأمويين. ومنهم أيضاً أكثم بن صيفي المشهور بحكمته وبلاغته عند العرب.

ولم يُعْرف عن تميم انتشار أي من الأديان السماوية كالمسيحية وغيرها فيها، وتدل تسميات بعض رجالها أنهم عبدوا عدداً من الآلهة التي انتشرت عبادتها بين العرب قبل الإسلام مثل مناة، والشمس[٦]. ولكن لم يذكر اختصاصهم بعبادة إله واحد منها، ولم يذكر وجود بيت عبادة مقدس أو مركز

---

(١) ياقوت ٣/ ٢٦٠، ٣٨٤.
(٢) البكري ١٣، ياقوت ١/ ٢٤٥، ٤١٤، ٢/ ٢١٦، ٢٦١، ٤٨، ٣/ ٤١٧.
(٣) ياقوت ٤/ ٦٥.
(٤) ياقوت ١/ ٧٨٩، ٣/ ١٥.
(٥) نقائض جرير والفرزدق ١٨٧، ٧٥٨.
(٦) المحبر ٣١٦.

إلٰه في بلادهم، كما أنه لم يرد ذكر لادراكهم الواعي عنها أو تعصبهم لها، فالراجح أن عقائدهم الدينية كانت أقرب إلى الوثنية السطحية وما يتصل بها من أساطير.

اتصالها بالإسلام

وعندما ما نزلت دعوة الإسلام، لم يرد ذكرٌ لاتصالهم بالرسول (ص) في مكة أو في السنوات الأولى من الهجرة، ولم يذكر احتكاكهم بالإسلام، أو توجيه الرسول (ص) أية حملة عليهم، ولعل بُعْد ديارهم عن المدينة، ووجود عشائر أخرى بينهما تفصلها عن المدينة ودولة الإسلام قد أثَّر في هذا الضعف في الاتصال فضلاً عن صلتهم بأهل مكة ومراسيم الحج فيها[1].

وقد اتصل بعض رجال تميم بالرسول (ص) وأعلنوا إسلامهم، وكان منهم حنظلة بن الربيع كاتب الرسول (ص)[2]. وشارك بعض رجالهم في فتح مكة، ومن أبرزهم الزبرقان، وهو من المؤلَّفَةِ قلوبهم[3].

ولما تم فتح مكة، وارتفع صيت الإسلام، واتسعت دولته، قَدِمت إلى الرسول (ص) وفود القبائل تعلن إسلامها وانضمامها إلى دولته، وكان منها وفدبني تميم الذي قدم إلى المدينة في السنة التاسعة للهجرة، وكانوا فيما يُروى ثمانين رجلاً ذُكرت منهم أسماء عدد من أبرز رجال عشائرهم، وكان معهم شعراء وخطباء، وكان من وفدهم عطارد بن حاجب بن زرارة، والأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر السعدي وقيس بن عاصم السعدي والحتات ونعيم، ويُرْوى أنهم أثاروا عند مجيئهم جلبة وضوضاء، ونادوا الرسول بصوت مرتفع وأسلوب فج، فنزلت فيهم الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ (الحجرات/ ٤). وعندما اجتمع الرسول بهم ألقى

(١) انظر ص٥١٦.
(٢) تاريخ البخاري ٢ ـ ١/ ٣٤ والطبري ١/ ٢٦١٩ و٣٠١٠ و٢/ ٣٢٦.
(٣) الطبري ١٦١٨، ١٦٨٣.

بعض شعرائهم قصائد، وبعض رجالِهم خطباً فيها اشادة بمكانتهم وتَبَاهٍ بمراكزهم، وأجابهم حسان بن ثابت وبعض شعراء المسلمين وخطبائهم على فخرهم، ثم أعلنوا إسلامهم ورضاهم بالانضمام إلى دولته. وقبِلَ الرسول (ص) منهم ذلك، واجاز رؤساءهم بجوائز[1]، وأبقاهم على رئاستهم، وخوَّل من اختارهم من رؤساء أن يجمعوا من العشائر التي يرأسونها الصدقات منهم، ومقدارها غير كبير، وهي تصرف في العشيرة، ولم يُرسل منها مقدار كبير إلى المدينة، ولكنها رمز لولائهم للدولة وإقرارهم بسيادتها؛ وظاهرٌ من هذا أن إسلامهم كان اسمياً وسطحياً، ومع أن الرسول (ص) بَعَثَ إليهم من يعلمهم الإسلام ويُقرِئهم القرآن، إلا أن كثرة عددهم وتفرق منازلهم لم يُيسِّرا تبديل أساليب البداوة التي تعودوها، وظلوا، حتى بعد استقرارهم في الكوفة والبصرة يتميزون بالروح البدوية، ويوصَفون بأنهم «أعراب». وبهذا احتفظوا بأوضاعهم ونُظُمهم، وقَصَروا ارتباطهم على صلتهم بالدولة وإعلانهم الإسلام، غير أنهم لم يستجيبوا لطليحة بن خويلد عندما ادّعى النبوة وطلب منهم انجاده[2].

موقف تميم بعد وفاة الرسول (ص)

لما توفي الرسول (ص) وانتخب بكر خليفة لرئاسة دولة الإسلام، حدثت بين رؤساء بني تميم بلبلة واختلاف في مواقفهم. وفي هذا يروي الطبري عن سيف أن عمال الرسول الذين عَيَّنهم من رؤسائهم هم الزبرقان بن بدر على عوف والأبناء، وقيس بن عاصم على مقاعس والبطون، وصفوان بن صفوان علي بهدي، وسبرة بن عمرو على خضم (وهما من بني عمرو)، ووكيع بن مالك على بني مالك، ومالك بن نويرة علي بني حنظلة (وهما من يربوع) وكانت بين هؤلاء الرؤساء حزازات، فارسل صفوان الصدقة إلى أبي بكر، وهو

(١) ابن هشام ٤/٢٢٢، ابن سعد ١ ـ ٢/٤٠، الطبري ١/١٧١٠ ـ ١٧ ١ وانظر مقال وليد عرفات عن وفادة التميميين المنشور في مجلة مدرسة اللغات الشرقية والافريقية ١٩٥٥.

(٢) الطبري ١/١٧٩٨.

رمز لاقرار بيعته، وتابعه الزبرقان، وتردد سبرة في ارسالها، وامتنع قيس عن ارسالها نكاية بالزبرقان[1] وأدى ذلك إلى انقسام عشائر تميم ودب الخلاف بينها، دون أن يرد ذكر لارتدادها عن الدين.

وفي خلال ذلك قدِمت سجاح مع جيش من بكر وتغلب فناصرها مالك بن نويرة وأعانها على ضم تميم إليها، ولكنها لم تفلح في جلب تميم إلى حركتها فتوجهت نحو اليمامة، وتركت مالك بن نويرة وحده في موقفه الذي ظهر بتأييده لِسجاح أنه يقف ضد دولة الإسلام.

يتبين مما تقدم ان لرؤساء تميم مكانة متميزة في عشائرهم، وأنه كانت بين هؤلاء الرؤساء مشاحنات ومنافسات سَرَت إلى عشائرهم، وأن خلافاتهم كانت مع السلطة المركزية لدولة الإسلام، أي حول أمور سياسية وليس حول العقائد والدين.

مالك بن نويرة

وأبرز من يتردد ذكره في أخبار موقف تميم، على أثر وفاة الرسول (ص)، هو مالك بن نويرة، وقد وصف بأنه شاعر شجاع مقاتل، وقيل فيه «لا فتى إلا مالك» وكان من يربوع، شارك في عدة حروب وكانت له صلات وثيقة بالمناذرة ملوك الحِيرة. ولما أسلمت بنو تميم ولاه الرسول (ص) جباية صدقات عشيرته ثعلبة بن يربوع. فلما تُوفِّي الرسول (ص) لم يرسل الجباية إلى المدينة. ويروي سيف بن عمر أنه تعاون مع سجاح لتأمين السيطرة على تميم، فلمَّا فشلِت في تحقيق ذلك، وذهبت إلى اليمامة بقي وحده مع عشيرته[2].

وعندما قضى خالد بن الوليد على حركة طليحة تقدم إلى مالك بن نويرة وقواته فَدَحرها وأسر مالكاً الذي قُتِل على اثرها، وقد ثار حول مقتله نقاش، خاصة وأن أخاه متمماً رثاه بقصائد متتابعة، وكان النقاش الذي ثار هو قولَ

(١) الطبري ١/١٩٠٨ ـ ١٩١١.
(٢) انظر الفصل.

بعضهم إن مالكاً وعشيرته لم ترتَدَّ وانما امتنعت عن دفع الصدقات. وفي رواية أخرى أنها أعلنت إسلامها، وأن خالداً تقدم من تلقاء نفسه لقتال مالك. غير أن رواية ثالثة تقول إن خالداً تقدم لقتال مالك بأمر من أبي بكر لأنه أغار على إبل للصدقة كانت في الرحرحان وأن مالكاً، عندما جيء به أسيراً إلى خالد ناقش خالداً وأشار إلى الرسول (ص) بقوله «صاحبكم» فاعتبره خالد غير مقر بالإسلام ودولته فأمر بقتله. وفي رواية أخرى أن القتل حدث لأن الحرس الموكل إليهم أمر الأسرى أساؤوا أمر خالد عندما قال: أدْفِئُوا اسراكم ففهمو أنه قصد قتلهم[1].

وعلى أي حال فإنه، بمقتله، انهارت آثار انشقاق تميم وعادوا إلى حظيرة الإسلام ودولته، ثم انضموا باعداد كبيرة إلى الجيوش الإسلامية المقاتلة في جبهة العراق، وأسهموا في الحروب فيها، وكونوا نسبة كبيرة من سكان البصرة والكوفة، وقاموا بدور واسع في الحركات السياسية والنشاط الفكري في العراق.

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في مقال «مالك بن نويرة» في دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الجديدة).

الفصل الثالث والثلاثون

حركة سجاح

ذكرت عدة مصادر سجاح وحركتها، وقدَّمت معلومات مقتضبة ومتباينة، ما عدا الطبري الذي أورد معلومات مفصلة عن نشاطها وتطور حركتها، علماً بأن سجاح أسلمت فيما بعد واستوطنت الكوفة وتوفيت في خلافة معاوية.

تتفق المصادر على أن سجاح تميمية من بني يربوع، غير أنهم يختلفون في كثير من التفاصيل الأخرى عن حياتها، فذكرت بعض الروايات في نسبها أنها «سجاح بنت الحارث بن عقفان بن سويد بن خالد بن أسامة». وذكرت روايات أُخَر أنها «أم صادر سجاح بنت أوس بن حق بن أسامة»[1]، ولم تذكر هذه الروايات سبب تسميتها «أم صادر»، فهل هو لقب لها، أم كان لها ولد اسمه صادر، علماً بأن المصادر لم تذكر لها زوجاً غير ما ذكر عن زواجها القصير بمسيلمة.

نشأتها ودعوتها

يذكر الطبري أنها نشأت، هي وبنو أبيها عقفان في بني تغلب[2]، وأنها «كانت راسخة في النصرانية، قد علمت من علم نصارى تغلب»[3]. ومن

(١) فتوح البلدان ٩٨، الطبري ١/٩١١، تاريخ اليعقوبي /١٠٦، ابن حزم ٢٢٦، المقتضب ٢٧.
(٢) الطبري ١/١٩١١. وانظر: الأوائل: لأبي هلال العسكري ١٧٣ ـ ٥
(٣) الطبري ١/١٩٦.

المعلومات أن في المنطقة التي نشأت فيها كثيراً من العشائر التي أيدتها كانت تعتنق النصرانية على المذهب اليعقوبي، فالراجح أنها درست النصرانية كما صورتها اليعقوبية. غير أن الدعوة التي قامت بها لم تكن للنصرانية، وإنما سلكت مسلكاً مستقلاً، ولم يرد ذكر لموقف النصارى من دعوتها.

ذكر البلاذري أن سجاح «تكهنت»، ونقل لها أقوالاً مسجوعة على غرار أقوال الكهان[١]. وذكرت عدة مصادر أنها «تنبأت» ووصفتها بأنها متنبية[٢]. غير أن المصادر لم تذكر ادعاءها بمجيء الوحي عليها أو أقوال وآيات تنزلت عليها، كما أنها لم تذكر الأفكار الدينية أو الاجتماعية التي اعتنقتها وحاولت نشرها واقناع القبائل والرؤساء بالانضمام إليها. وإنما ذكرت المصادر أنه كان لها مؤذن اختلفت المصادر باسمه، فروى البعض أنه الحنبة بن طارق بن عمرو بن حوط الرياحي[٣]، وذكر البعض أنه شبث بن ربعي الرياحي[٤].

إن قيام سجاح، وهي امرأة، بتزعم حركة في الردة، دون أن تثير أنوثتها أي اعتراض، يدل على مكانة المرأة في مجتمعها. والواقع أنه كان ظهر في المنطقة التي ظهرت فيها عدد من النساء ذوات مكانة في الحياة السياسية العامة، ومنهن الزَّبَّاء ملكة تدمر، وهند أم عمرو ملك الحيرة، وكلثوم أم الشاعر التغلبي المشهور، ويبدو أن هذه المكانة لم تقتصر على أهل وادي الفرات الذين ظهرت فيهم هذه النساء، وإنما شملت أيضاً تميم التي كانت ديارها تشغل أواسط هضبة نجد.

امتداد حركتها

يقول الطبري إن سجاح تنبأت بعد وفاة الرسول، أي في سنة إحدى عشرة. غير أن العشائر المتعددة التي انضمت إليها، والمفاوضات الكثيرة التي دخلت

---

(١) الطبري ١/ ١٩١١.

(٢) ابن حزم ٢٢٤، الاشتقاق ٢٢٣.

(٣) فتوح البلدان ٩٩.

(٤) ابن حزم.

فيها، والتقدم السريع الذي مرت به، كل ذلك يدل على أنها تنبُّوها ونشاطها بدأ قبل ذلك التاريخ.

يذكر الرواة أن دعوة سجاح لقيت استجابة من بني تغلب أخوالها، ولعل هذه الاستجابة المبكرة ترجع إلى أن أفكارها متناسقة مع ما ساد عندهم، وإلى صلتها النسبية مع أخوالها بني تغلب. ويقول البلاذري إن سجاح «اتبعها قوم من بني تميم، وقوم من أخوالها بني تغلب، ولا ريب في أن استجابة التميميين لدعوتها كانت متأخرة، إذ أنه، فيما عدا أسرتها من بني عقفان، لم يكن أحد من بني تميم يقيم في المنطقة التي ظهرت فيها، وما من إشارة إلى اجرائها اتصالات مبكرة مع بني تميم.

ذكر الطبري أن سجاح عندما تنبأت استجاب لها الهذيل (بن عمران) وترك التنصر[١] ولم تذكر المصادر معلومات عن مكانة الهذيل في عشيرته وفي المنطقة غير أن المعلومات التي أوردها الطبري عن هذيل تظهر أنه ظل معها[٢]، وأنه أسهم في مقاومة تقدم جيش خالد بن الوليد في عين التمر حيث أسره خالد[٣]، ثم أطلق سراحه فعاد إلى مقاومة خالد بالمضيخ[٤]، ولم تشر المصادر إلى حقيقة موقفه المتأخر في مقاومة الإسلام: هل كان باسم سجاح، أم كان موقفاً شخصياً.

ذكر الطبري أن سجاح بعد أن تثبتت حركتها في تغلب «أقبلت من الجزيرة، وكانت، مع رهطها في بني تغلب، تقود افناء بني ربيعة معها الهذيل بن عمران في بني تغلب» وعقه بن هلال في النمر، وفلان بن فلان في إياد، والسليل بن قيس في شبيب «وذكر أيضاً أن هؤلاء الرؤساء تقدموا معها لتغزو بهم أبا بكر»[٥].

(١) الطبري ١/ ١٩١١.
(٢) الطبري ١/ ١٩٣٠.
(٣) الطبري ١/ ٢٠٦٠.
(٤) الطبري ١/ ٢٠٦.
(٥) الطبري ١/ ١٩١١.

يتبين من هذا أن أتباعها الأولين كانوا من بني تغلب ومن النمر وإياد وبكر، وكلها عشائر كانت ديارها في أطراف الجزيرة حول الفرات الأعلى؛ ولم تذكر المصادر أن الرسول (ص) كاتبها أو أنها أرسلت إليه وفوداً.

إن العشائر التي أيَّدت سجاح في المراحل الأولى من دعوتها كانت واقعة تحت تأثير النصرانية التي يروى أنها انتشرت فيهم، غير أنها لم تكن متأصلة في نفوسهم، ولذلك انحازوا إلى سجاح التي لم تذكر المصادر أنها لقيت مقاومة من النصارى، وربما رُدَّ بعض هذا إلى أن نشاطها كان نشاطاً سياسياً أكثر مما كان نشاطاً عقائدياً، وانها لم تدع إلى ما يستفز النصارى الذين عرفوا في ذلك الوقت بتعصبهم للآراء المذهبية.

ان النمر واياد وبكر التي ينتمي إليها المنضمون الأولون لدعوتها يُعدُّون كلهم من «ربيعة»، ولكنهم لم يكونوا متماسكين، وإنما كانت بينهم، ولا سيما بين تغلب وبكر، حروب طويلة هي التي تسمى حرب البسوس وتعتبر من أطول أيام العرب في الجاهلية.

اتصالها بتميم

ذكرنا أن سجاح بدأت دعوتها في الجزيرة الفراتية التي كانت تقع في أطراف الدولتين الساسانية والبيزنطية، اللتين كانت سيطرتهما ضعيفة في تلك المناطق التي فيها ديار عدد من العشائر العربية التي ينتسب إليها كثير من اتباعها الأولين. ولم يعمل أي من الدولتين على التدخل في حركتها، ولكن سجاح، برغم ضعف هاتين الدولتين، والتأييد الذي حصلت عليه من عشائر تلك المنطقة، فإنها لم تتابع نشر دعوتها بينهم، وإنما اتجهت إلى ديار تميم في جزيرة العرب، وعملت على ضمهم إليها. وفي هذا يقول الطبري عن سجاح: «فلما انتهت إلى الحزن، راسلت مالك بن نويرة ودعته إلى الموادعة، فأجابها وفَثَأَها عن غزوها». ويقول: إنه، على أثر هذه الموادعة ،«صرفت سجاح والهذيل وعقة بني بكر للموادعة التي بينها وبين وكيع»[1].

---

(١) الطبري ١/١٩١٣.

إن توجُّه سجاح إلى بني تميم، وسَعْيها لضمّهم إليها، يرجعان إلى إدراكها لِعددهم الكبير وإمكانياتهم الواسعة التي تُيَسِّر لها تحقيق توسُّعها. ويبدو أن سجاح أدركت تأصل البداوة في بني تميم وقوة «العصبية» في التأثير عليهم، فعملت على استثارتها لِضَمِّهم إليها. يروي الطبري أنها خاطبتهم بقولها: «إنما أنا امرأة من يربوع، وإن كان مُلكٌ فالمُلكُ مُلككم»[1]، وواضح من هذا النص أنها لم تعتمد في ضم تميم إلى جانبها على الأفكار الدينية او العقائدية، وإنما لجأت إلى الطموحات السياسية لتحقيق هيمنتها وتوسيع سلطانها.

لم تفلح سجاح في جمع بني تميم تحت لوائها، وإنما لقيت صدوداً من بعض رؤسائها وعشائرهم، ويذكر الطبري أنها لمَّا تقدمت إلى النباج «أغار عليها أوس بن خزيمة الهجيمي بمن تَأَشَّب إليها من بني عمرو»[2]، كما أنها أغارت على الرباب «ولم يدخل في أمر سجاح عمرو، ولا سعدى، ولا ربي، ولم يطمعوا من جميع هؤلاء إلا في قيس، حتى بدا منه اسعاد ضبة وظهر منه الندم، ولم يمالئهم من حنظلة إلا وَكِيع ومالك، فكانت ممالأتهما موادعة على أن ينصر بعضهم بعضاً، ويجتاز بعضهم إلى بعض»[3]. غير أنه يقول في مكان آخر: «صالح مالك ووضع قومها فلا ينصروننا ولا يردوننا على أن نجوز ارضهم»[4]. غير أنها لم تلق مقاومة من رؤساء تميم الذين لم يُظْهر أي منهم طموحات واسعة أو محاولات لجمع بني تميم وتكتيل عشائرها من أجل تكوين دولة «تميمية».

لم تُفْلح سجاح في جمع كافة بني تميم تحت لوائها، ولم تعمل للقضاء على معارضيها من بني تميم أو إلزامهم بتأييدها، غير أن القوة التي جمعتها كانت كبيرة فسارعت في تحريكها لتوسيع سلطانها، ولم تتوجه بهذه القوة غرباً إلى الحجاز، ولا اتصلت بالمنشقين والمرتدين في أطرافه، وإنما توجهت نحو

(١) الطبري ١/ ١٩١٢.
(٢) الطبري ١/ ١٩١٢.
(٣) الطبري ١/ ١٩١٤.
(٤) الطبري ١/ ١٥ ١ .

اليمامة، رغم معارضة بعض انصارها في التوجُّه حيث «قالوا إن شوكة أهل اليمامة شديدة، وقد غلظ أمر مسيلمة»[١].

اتصالها بمسيلمة

ادركت سجاح المصاعب التي كان يواجهها مسيلمة، وقدرت أهمية اليمامة. يقول الطبري أن سجاح «تنهدت لبني حنيفة، وبلغ ذلك مسيلمة فهابها وخاف إن هو شُغِل بها أن يغلبه ثمامة على حجر او شرحبيل بن حَسَنَة أو القبائل التي حولهم»[٢]. ولعل مسيلمة خشي أيضاً أن تفلح سجاح في التعاون مع بني أسد ضده، مما يُشكِّل خطراً داخلياً على سيطرته، ولعل قوة الأسديين والتميميين هي التي حملته على الامتناع عن اتخاذ تدابير حازمة لوقفهم عن التجاوزات التي كانوا يقومون بها على غلات أهل اليمامة من أنصاره.

ويروي الطبري: فيقول «قال مسيلمة: لنا نصف الارض، وكان لقريش نصفها لو عدلت، وقد رد الله عليك النصف الذي ردت قريش فحباك به، وكان لها لو قبلت، فقال: لا يرد النصف إلا من حَنَفَ، فاحمل النصف إلى خيل تراها كالسهم، فقال مسيلمة: سمع الله لمن سمع أطْمَعه بالخير إذا طمع، ولا زال أمره في كل ما سَرَّ نفسه يجتمع، رآكم ربكم فحياكم، ومن وحشةٍ خلّاكم، ويومَ دِينه أنجاكم فاحياكم علينا من صلوات معشر ابراره، اشقياء ولا فجار، يقومون الليل ويصومون النهار، لربكم، رب الغيوم والأمطار»[٣]. يُظهر هذا النص أن مسيلمة كان يرى تقوى أتباعها وورعهم، وانهم كانوا يتعبدون في الليل ويصومون النهار، وإن لم يوضح شكلَ صلاتهم وصومهم كما أنه أشار إلى أن ربهم «رب الغيوم والأمطار». ولعله يقصد أن الاله الذي تدعو سجاح إلى عبادته يختلف عن الاله الذي يدعو مسيلمة إلى عبادته، وانه كان «رب

(١) الطبري ١/١٩١٥.
(٢) الطبري ١/١٩١٦.
(٣) الطبري ١/١٩١.

الغيوم والأمطار» ولعل هذا أرجح مما رواه البلاذري انها عندما اتفقت مع مسيلمة «جعلت دينها ودينه واحداً»[1].

إن النص الآنف الذكر يبين أن مسيلمة عرض على سجاح نصف الأرض، ولا بد أن المقصود بذلك انه قسم البلاد، وأقر لها بمُلكِ ما يعادل مُلْكَه، غير أنه لم يحدد نصف الأرض التي يعطيها سجاح، غير أن الطبري في روايته عن سيف يذكر أن مسيلمة «صالحها على أن يحمل إليها النصف من غلات اليمامة، وأبت إلا السنة المقبلة يسلطها فباح لها بذلك، وقال: خلفي على السلف من يجمعه لك وانصرفي أنت بنصف العام، فرجع فحمل عليها النصف، فاحتملته وانصرفت إلى الجزيرة، وخلفت الهذيل وعقة وزيادا لينجز النصف الباقي»[2]، وهذا النص يوضح أن سجاح طلبت محصول السنتين الحالية والقادمة، ولا بد أن المقصود بنصف الغلات هو نصف ما يجبيه مسيلمة، لأن أَخْذَها نصف الغلة يستنزف مقداراً كبيراً، وقد لا يُبقي للفلاح مقداراً معقولاً اذا جبا مسيلمة حصة له اضافة إلى حصة سجاح.

لم يذكر الطبري شروطاً او التزامات وضعها مسيلمة على سجاح مقابل ما قدمه إليها من تنازلات سخية، وبهذا تظهر المعاهدة استسلاماً لسجاح. ولما كانت الأحوال القائمة لا تبرر مثل هذا الاستسلام الى هذه الدرجة، فالراجح أن تفاصيل المعاهدة غير صحيحة، أو أنها لم تكن دائمة، وإنما كانت أحكام حصول سجاح على الغلات تَسْرِي لسنة واحدة.

ثَبَّتت الاتفاقية علاقة سلمية بين سجاح ومسيلمة، ويروي الطبري أن سجاح قالت لمسيلمة «هل لك أن أتزوجك فآكل بقومي وقومك العرب»[3]. والواقع أن هذه الاتفاقية إن تمت تكون سداً يفصل الأقاليم الشرقية الواقعة على الخليج العربي من وسط وغربي الجزيرة، ويعرقل توسع الإسلام في الشرق وييسر قوة كبيرة تكون أساساً لدولة قوية. غير أن هذه القوة لم تتم، فلم يسعف الطرفان بني تميم عندما تقدم جيش خالد للقضاء على ردتهم، كما أن سجاح لم تشارك

(١) فتوح البلدان ٩٨.

(٢) الطبري ١/ ١٩٢٠.

(٣) الطبري ١/ ١٩١٨.

مسيلمة في دفاعه عن اليمامة بوجه المسلمين، وإنما تركته يقاتل وحده حتى انهارت مقاومته مثلما انهارت مقاومة تميم، وفقدت سجاح كل أُسس للقوة، فانسحبت إلى الشمال وعادت إلى بني تغلب بعد ان انفض عنها انصارها. ولما استقرت دولة الإسلام دخلت فيه، ثم انتقلت في زمن خلافة معاوية إلى العراق حيث توفيت(١).

ويروي أبو هلال العسكري أن سجاح نزلت بمن معها من تميم الصمان، فخرج إليها مسيلمة وفاوضها وأقنعها بتوحيد دعوتيهما، وتزوجها وخفف الصلاة عن بني تميم. فلم تزل عند مسيلمة الى أن قتل فهربت ولم يظهر لها أثر. ثم أسلمت فتزوجها رجل من قومها، فولدت له ثلاثة وماتت في البصرة(٢).

---

(١) فتوح البلدان ٩٥.
(٢) الاوائل لابي هلال العسكري ٢٧٣.

الفصل الرابع والثلاثون

اليمامة وحركة مسيلمة

اليمامة واد واسع يقع في الأطراف الشرقية من هضبة نجد، رأسه عند الخرج بالقرب من مدينة الرياض، ويمتد قرابة المائتي كيلو متر إلى أن ينتهي عند الربع الخالي، ويتصل به في الجنوب وادي الدواسر الذي يجري من الشرق إلى الغرب حتى يتصل بأطراف هضبة اليمن عند نجران. وتمتد في الجهات الشرقية من وادي اليمامة رمال يبرين، وهي عروق صخرية تتخللها كثبان رملية جرداء خالية من المياه، يبلغ عرضها سبعين ميلا وتكون حاجزاً يفصلها عن مناطق السواحل الشرقية من شبه جزيرة العرب. أما في أطرافه الغربية، فتمتد مرتفعات جبال طويق التي فيها عدد من مناجم الذهب[(١)].

يبلغ معدل عرض وادي اليمامة ثلاثين كيلو متراً، تخترقه وديان كثيرة قصيرة تنساب من أطرافه الشرقية والغربية وتصب فيه، وتكثر في الوادي الرئيس والوديان الفرعية مياه العيون والآبار التي تيسر الزراعة، وخاصة النخيل والحنطة التي كان يُصَدَّر منها إلى مكة[(٢)]، وربما إلى مناطق أخرى من الجزيرة.

وفي اليمامة نمت أيضاً بعض الصناعات، ومنها صناعة السيوف، إذ تردد في المصادر ذكر السيوف الحنيفية. ولا بد أنها أفادت من مناجم جبل طويق الذي يطل على أطرافها الشرقية.

---

(١) صفة جزيرة العرب ٢٦٧.

(٢) سيرة ابن هشام ٤/٢٣٩، البخاري: مغازي ٧٠، ابن حنبل ٢/٤٥٢.

وكانت تمر بها لطائم التجارات بين اليمن والعراق، ولعلهم لم يقوموا بحراسة هذه القوافل فقط، وإنما كانوا يسهمون بتوفير ما تحتاجه القوافل، وربما أسهموا في التجارة أيضاً، ويروي ابن حبيب أن أحدى أسواق العرب الكبرى كانت تقام في الحجر باليمامة، وكان هوذة بن علي يعشرهم فيها.

عشائر اليمامة

حنيفة

وسكان اليمامة كلهم عرب، ولم يرد ذكرٌ لجاليات أعجمية استوطنت فيها، سوى بعض العبيد، وكان الانتماء القبلي هو السائد فيهم.

والقبيلة الرئيسة في اليمامة هي بنو حنيفة «هم أهل اليمامة اصحاب نخل وزروع». وهي تتكون من عدة عشائر ذكر منها ابن حزم بني عامر، وبني عدي، وبني الدول[١]. وكان بنو عامر يهيمنون على قرى في شمالي اليمامة أهمها الخضرمة، وهي أول اليمامة من قصد البحر وكانت دار هوذة بن علي[٢]، ومن قراهم المنصف وطرفة، والعقير[٣].

أما بنو عدي فكانت من قراهم جو الخضارم التي يشتركون فيها مع بني عدي وعجل[٤]، واثقب وعقربا، والكرش، والعوقة[٥]، وعرقة[٦] وقد دخلت كافة هذه القرى في صلح خالد بن الوليد ما عدا أثقب.

وذكر ابن حزم من فروعهم عبد الله، وعبد الحارث، وعبد مناة، ومرة،

---

(١) الانساب لابن حزم ٣٠٩، وانظر معجم ما استعجم للبكري ٢٥٢.
(٢) صفة جزيرة العرب ٢٥٢.
(٣) ذكرت هذه القرى عند ياقوت بالتتابع ٤/ ٦٦٢، ٣/ ٩٣٣، ٥٣١، ٦٩١.
(٤) صفة جزيرة العرب ٢٥٢.
(٥) ذكرت كل منها في صفة جزيرة العرب ٢٢٥، ٢٧٤، ٢٧٥ بالتعاقب.
(٦) ذكرت في معجم البلدان ٣/ ٧٤٧، ٧٨٧، ١/ ٩٣٠ بالتعاقب.

وسعد[١]، ومن أبرز رجال بني عدي مسيلمة[٢].

أما بنو الدول، فهم أقوى عشائر حنيفة «فيهم الثروة من بني حنيفة والسؤدد» ويتفرعون إلى فروع ذَكَر منها ابن حزم مرة، وذهل، وثعلبة، وعبد الله، والحارث[٣].

فأما بنو مرة فمنهم «بنو سحيم بن مرة بن الدول بن حنيفة[٤]، ومن قراهم قران وريمان قرب العارض وبئر بني سحيم» فيها النخل والحصون وأسفلها مدافع[٥]، «وجو وهي الخضرمة وتبعد عن حجر يوم وليلة» وفيها بنو سحيم وبنو ثمامة وبنو عامر بن حنيفة وبنو عجل[٦]، ومن قراهم قران هذه[٧] ومن أبرز رجال بني سحيم هوذة بن علي الحنفي[٨].

وأما ذهل فكانت لها الدار «حصون ونخيل وقصور عادية»[٩]. ومن أبرز رجال ذهل جبلة بن ثور زوج كيسة بنت الحارث بن كريز، وكان منهم بعد الإسلام نافع بن الازرق[١٠].

وأما ثعلبة فمن قراها «القرية عند العارض»[١١] قرية بني سدوس بن ذهل بن ثعلبة، وهي قرية جيدة[١٢] ومن قراهم هدار والعشير[١٣]، ومن أبرز رجال بني

---

(١) الانساب لابن حزم ٣٠٩.
(٢) الانساب لابن حزم ٣١٠.
(٣) الانساب لابن حزم ٣١٠ ـ ٣١٢.
(٤) الانساب لابن حزم ٤٧٠، الاشتقاق ٣٤٨.
(٥) صفة جزيرة العرب ٢٥٥.
(٦) كذلك ٢٧٤.
(٧) كذلك ٢٧٥.
(٨) كذلك ٢٥٢.
(٩) صفة جزيرة العرب ٢٥٤.
(١٠) الانساب لابن حزم ٣١١.
(١١) معجم البلدان ٤/ ٨٥.
(١٢) صفة جزيرة العرب ٢٥٥.
(١٣) صفة جزيرة العرب ٢٥٤، معجم البلدان ٤/ ٩٥٥، ٣/ ٦٩٩.

ثعلبة ثمامة بن أثال الذي كان من أبرز أنصار مسيلمة، وكان أقل من عمه مطرف بن النعمان، وابن عمه حريث بن جابر، ومنهم أيضاً المعترض بن عزال «كان أشرف في قومه من مسيلمة»، ومنهم أيضاً مجاعة بن مرار الذي تم على يده صلح اليمامة مع خالد بن الوليد[1].

أما بنو عبد الله فمن قراهم مهشمة والعمارية[2]، ومن أشهر رجالهم أبو مريم الذي قتل زيد بن الخطاب في معركة حديقة الموت، ثم أسلم وانتقل إلى البصرة وكان أول من قضى فيها[3].

بنو أسيد التميميون

وكان يسكن اليمامة عند ظهور الإسلام أيضاً أفخاذ من بني اسيد، وهم من تميم كانوا يُسَمَّون الأحاليف، ذكر الطبري من افخاذها «سيحان، ونمارة، ونمر، والحارث، وبنو جروة»[4] وأضاف ابن حزم اليهم عمرو وعقيل[5].

وكانت لبني جروة مكانة متميزة قبل الإسلام، فقد ظهر منهم قبل الإسلام عدد من الحكام منهم مخاشن بن معاوية، وابنه ربيعة، واكثم بن صيفي بن رياح ابن مخاشن[6]. وكانت لهم علاقة بمكة، فمن جروة زرارة بن النباش الزوج الأول لخديجة أم المؤمنين قبل أن يتزوجها الرسول (ص)، وابنه الحارث «قيل إنه أول من قتل في سبيل الله في الإسلام تحت الركن اليماني، وابن عمه صفوان بن صفوان بن النباش، وابن أخيه صفوان بن مالك بن صفوان من خيار المهاجرين.. وأوس بن حجر بن عتاب الشاعر، وحنظلة بن الربيع الكاتب

---

(١) الانساب لابن حزم ٣١٢.
(٢) صفة جزيرة العرب ٢٧٥.
(٣) الانساب لابن حزم ٣١١، أخبار القضاة لوكيع ٢/١٦٩.
(٤) الطبري ١/١٩٣٢.
(٥) الانساب لابن حزم ٢١٠.
(٦) المحبر ١٣٤.

صاحب الرسول (ص)، واكثم بن صيفي، وأخوه الربيع والد حنظلة بن صيفي، وأخوه روح»[1].

ومن بني أسيد صفوان بن أسد الذي تزوج درة بنت أبي لهب[2]، وذكر ابن دريد من رجالهم أكثم بن صيفي وأخاه حنظلة، وزرارة بن النباش، ورياح بن ربيعة، كما ذكر منهم الترجمان الذي كان من مترجمي كسرى وابنه نهيك الذي صار من عمّال عمر بن الخطاب على كور دجلة[3].

يروي الطبري أنه عندما أقام مسيلمة في اليمامة حرماً، صارت دار بني جروة في الحرم، وأنهم كانوا إن أخصبوا أغاروا على ثمار أهل اليمامة واتخذوا الحرم دغلا، فإن نذروا بهم فدخلوه أحجموا عنهم، وإن لم ينذروا بهم فذلك ما يريدون، فكثر ذلك منهم حتى استعدوا عليهم[4].

ويروي الطبري أن مسيلمة كان فيما يقرأ فيهم أن من بني تميم قوم طهر لقاح لا مكروه عليهم ولا إتاوة، نجاورهم ما حيينا باحسان، نمنعهم من كل إنسان، فاذا متنا فأَمْرُهم إلى الرحمن[5]. ولم يذكر الطبري الدافع لهذا القول الذي يتَجلَّى منه حرص مسيلمة على مهادنة بني تميم، وعزمه على عدم فرض الضرائب عليهم،وعلى حمايتهم ومناصرتهم ومسامحتهم، ولعل من هذا الدافع تغاضيه عن معاقبة بني أسيد على ما كانوا يقومون به من نهب. يقول الطبري إن غاراتهم كَثُرت، فاستعدى عليهم أهل اليمامة فردَّهم وقال: «والليل الاطحم، والذئب الأدلم، والجذع الأزلم، ما انتهكت أسيد بن محرم، فقالوا أما محرم استحلال الحرم وفساد الاموال. ثم عادوا للغارة وعادوا للعدوى، فقال أنتظر الذي يأتيني، فقال: والليل الدامس والذئب الهامس، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس، فقالوا: أما النخيل فرطبة فقد جذوها، واما الجدران يابسة فقد هدموها، فقال اذهبوا وارجعوا فلاحق لكم»[6].

---

(١) نسب قريش لمصعب الزبيري ٢٢، الانساب لابن حزم ٢١٠.
(٢) الانساب لابن حزم ٧٢، ٢١٠.
(٣) الاشتقاق ٢٠٩.
(٤) الطبري ١/ ١٩٣٢.
(٥) الطبري ١/ ١٩٣٣.
(٦) الطبري ١/ ١٩٣٣.

بكر

وممن سكن اليمامة عدد من عشائر بكر، ومنهم بنو عجيل، وقيس بن ثعلبة، وعنز، والهزان[1]، وسدوس، وذكر البكري منهم: بني سحيم، وبني ثمامة[2]، وذكر ابن حبيب من أهلها بني الحارث بن لؤي، وكانوا في بني هزان[3]، ولعل بعض هذه العشائر سكنتها بعد الإسلام.

القرى والمدن

أدى توافُر المياه وأزدهار الزراعة ونُمُوُّ الصناعة إلى استقرار السكان في الأرض، وكثرة القرى والمدن فيها. وقد وصف الهمداني اليمامة بأنها «حصون متفرقة، ونخل، ورياض وقف من عن يمينها»[4]، ومن أشهر مدنها عند ظهور الإسلام حجر، والخضرمة، والكرش، ومنفوحة، ووبرة، والعوقة والعمارية وفيشان، وأباض، والهدار[5]، وكان يقام في حجر سوق كبيرة في المحرم من كل سنة[6].

وكانت اليمامة مركزاً لحضارة متقدمة أشارت المصادر إلى بعض مظاهرها. وقد تردد ذكر طَسَم وجَدِيس ودولتهم التي ظلّت إلى أن قضى عليها حسان تبع الحميري، ويبدو أن دولتهم ظلت إلى أوائل القرن الثاني الميلادي، وذكر ابن الحائك الهمداني أن خضراء حجر في المدائن «هي حصون طسم وجديس، وفيها آثارهم وحصونهم وبُتُلُهم، الواحد بَتِيل، وهو هَنٌ مربع مثلَ الصومعة مستطيل في السماء من طين، قال أبو مالك لحقت منها بناءً طوله مائتا ذراع في السماء، قال وقيل كان منها ما طوله خمسمائة ذراع» ويذكر أيضاً أن «قرية بني

---

(١) صفة جزيرة العرب ٢٧٥.

(٢) معجم ما استعجم ٤٤.

(٣) الحبر ١٦٨، وانظر معجم البلدان ٤/٤١٧.

(٤) صفة جزيرة العرب ٢٥٣.

(٥) كذلك ٢٧٤.

(٦) المحبر ٢٦٨، مروج الذهب ٢/١١٨، معجم ما استعجم ٥٠.

سدوس فيها قصر سليمان بن داود، بُنِيَ بصخر منحوت عجيب خراب». وأشار إلى كثرة الحصون في اليمامة فقال: «وهذه اليمامة حصون متفرقة ونخل ورياض وقف». وذكر المنصف حصناً لبني عامر بن ضبيعة «والخرج قاع مثل يدك وحصون» و«الهدار حصون ونخيل وقصور عادية» «وتر لبني غبر، وهي نخيل وحصون عادية وغير عادية» و«بئر بني سحيم فيها النخل والحصون»[1].

الأحوال السياسية

كونت اليمامة وحدة سياسية، وقد وصف الجاحظ أهلها من بني حنيفة و«كثرة عددهم، وشدة بأسهم، وكثرة وقائعهم، وحسد العرب لهم على دارهم وتخومهم وسط اعدائهم»[2]، وأوردت بعض الكتب إشارات عن دورهم في الأحداث التي وقعت في شرق الجزيرة، فذكر ابن دريد ان شمر بن يزيد وهو من بني الدول، قتل المنذر الأكبر ملك الغساسنة في يوم عين أباغ[3]، وذكر ابن حزم ان عمرو بن مرة بن عبد الله، وهو من بني الدول ايضاً، كان قاتل المنذر بن ماء السماء[4]، وذكر ابن دريد أن بني حنيفة أرسلت في الجاهلية الفند المازني إلى بكر بن وائل يحثهم على قتال بني تغلب[5]، ولا ريب في أن هذه الأعمال التي تشير إليها المصادر تُظهر نشاطهم السياسي وامتداد علاقاتهم إلى بلاد المناذرة، غير أن هذه المعلومات المتفرقة لا تيسر عرض صورة شاملة متماسكة لنشاطهم.

هوذة بن علي

إن أول رئيس لليمامة ذكرته المصادر هو هوذة بن علي الحنفي، وهو من

---

(١) صفة جزيرة العرب ٢٥٣ _ ٢٥٥.
(٢) الحيوان ٤/ ٣٨٠.
(٣) الاشتقاق ٣٤٨.
(٤) الانساب لابن حزم ٣١٠، المناقب المزيدية ١٢٥.
(٥) الاشتقاق ٣٤٤.

بني سحيم بن مرة بن الدول[1]، وكان متزوجاً من ضباعة بنت عامر القشيرية التي تزوجت بعد وفاته عبد الله بن جدعان ثم هشام بن المغيرة، وهما مخزوميان من أشراف مكة[2]. وكانت كنيته «أبا علي»، وكنية أبيه «أبا قدامة»[3] ولم تذكر المصادر تفاصيل عن إخوته أو أولاده.

وكانت ديار هوذة بن علي في الخضارم، وهي الخضرمة، وتبعد عن حجر يوماً وليلة[4]، وبالقرب منها قران، بئر بني سحيم، عند العارض وذكر البكري أن هوذة بن علي من قران[5]. وأن صبهان بن شمر بن عمرو كان «سيد أهل قران وعين المسلمين على بني حنيفة حتى ارتد وتنبأ مسيلمة»[6]، ولعل في هذا إشارة إلى أن أهل قران لم يؤيدوا مسيلمة.

وصف ابن دريد هوذة بأنه كانت له «أحاديث وشرف ووفادة إلى الملوك الأعاجم[7]. وذكره المبرد فقال: إنه «قد لبس التاج»[8]. وذكره الهمداني فقال: «يقال لم يتوج من العرب غيره»[9]، ويروي الطبري أن وهرز وإلى اليمن كان قد بعث إلى العراق بأموال وطرف فيها جواهر وسبائك فضة، فاعتدت عليها بنو تميم ونهبتها «وصار اصحاب العير إلى هوذة بن علي الحنفي باليمامة، فكساهم وزودهم وحملهم، وصار معهم حتى دخل على كسرى، وكان لهوذة جمال وبيان، فاعجب به كسرى وحفظ له ما كان منه، ودعا بعقد من در فعقد على رأسه وكساه قَبَاءَ ديباج مع كسوة كثيرة، فمن ثم سمّى هوذة ذا التاج». ويروي

(١) الانساب لابن حزم ٣١٠؛ وانظر تفاصيل اوفى من كتاب «حركة مسيلمة الحنفي لإحسان صدقي العمد.

(٢) المحبر ٩٧، ٤٣٩، انساب الأشراف ١/ ٤٦٠، ابن سعد ٥٦/٤؛ ١٠٩/٨.

(٣) الاشتقاق ٥٢.

(٤) صفة جزيرة العرب ٢٥٢، ٢٧٤.

(٥) معجم ما استعجم ١٠٦٣.

(٦) كذلك ١٠٦٢.

(٧) الاشتقاق ٣٤٨.

(٨) الكامل ٢٣٨، ٤٤٠، وينقل عن أبي عبيدة أن هوذة كانت له خرزات، وان التيجان مما اختص به ملوك اليمن، والعقد الفريد ٢/ ٢٤٤.

(٩) الاكليل ٢/ ٣٣٦.

أبو البقاء أن كسرى وهب له قباءً منظوماً باللؤلؤ كان عليه وتوجّه.[1] ولعل تدوين هذه الحادثة راجع إلى اعتداء التميميين على إحدى القوافل الكثيرة التي كانت تسير بين اليمن والعراق سالكة وادي الدواسر ووادي حنيفة.

تظهر أخبار هذه القافلة أن هوذة كان يحكم اليمامة مستقلا، ويعمل على توطيد العلاقات السلمية مع من يجاوره لتأمين سير التجارة، ويذكر الطبري أن علاقته بالمكعبر والي البحرين كانت طيبة، وأنه عمل على توطيد علاقته بتميم[2]، وبجهوده فك المكعبر أسرى تميم الذين اعتدوا على القوافل المتوجهة إلى العراق[3]، مما يُظهر علاقته الطيبة بهم، ولعل بعضها لتأمين المصالح التجارية لليمامة، فإن بني تميم كانوا «أيام اللقط يصيرون إلى هجر للميرة واللقاط»[4].

لم تذكر المصادر تاريخ تولي هوذة للسلطة في اليمامة، وتشير حادثة انقاذه للقافلة التي أرسلها من اليمن إلى العراق، إلى أنه كان في السلطة قبل وفاة وهرز سنة ٦هـ. ولم تذكر المصادر أنه تولّى السلطة عن طريق الوراثة أو أن أحداً من اسرته وُلّي السلطة، كما أن ابنه لم يَعْقُبْه في السلطة. ولا شك أن توليه السلطة تم برضا كثير من أهل اليمامة وتأييدهم وبطريقة لا تختلف كثيراً عن اختيار رؤساء العشائر. ولا ريب في أن إشارة المصادر إلى أنه «لبس التاج»[5] تدل على ممارسته سلطات واسعة، وربما دَلَّت على وضعه نُظُماً تناسب المجتمع الريفي والحَضَري القائم في اليمامة، ويبدو أنه كان موفَّقاً في حكمه إذْ لم تذكر المصادر قيام ثورة عليه او حركة استياء منه. ولكنه لم يؤسس ملكاً وراثياً ولم يُسَمَّ «ملكاً».

حدث أول اتصال بين هوذة بن علي والإسلام بعد صلح الحديبية، حين

---

(١) الطبري ١/ ٩٨٤، وانظر الطبري ١٠٥٩، ٥٤أ المناقب المزيدية ٥٣.
(٢) الطبري ١/ ٩٨٥.
(٣) الطبري ١/ ٩٨٧.
(٤) الطبري ١/ ٩٨٥.
(٥) أنساب الأشراف ١/ ٥٣، المناقب المزيدية ٥٤.

وجّه إليه الرسول (ص) كتابا مع ستة من المسلمين عليهم سليط بن عمرو العامري يدعوه إلى الإسلام. وجاء في الكتاب: «واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأَسْلِم تسلم، وأجْعَلْ لك ما تحت يدك»، فاجاب هوذة بكتاب جاء فيه: «أنا شاعر قومي وخطيبُهم، والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر اتبعك»[1]. ولم تذكر المصادر أكثر من هذه المكاتبة التي وافق الرسول (ص) فيها على أن يبقيه في منصبه إذا دان بالإسلام. غير أن هوذة اراد أن يُشرَك في الحكم، ولم يكن عنيفاً في رده على الرسول (ص). ويروي ابن سعد أن هوذة أجاز رئيس وفد الرسول (ص) بجائزة. وتظهر المكاتبة أن هوذة لم يظهر طموحات توسعية، ولم يكن معنياً كثيراً في الأمور الدينية، وتوفي هوذة عام الفتح[2].

مسيلمة

بعد وفاة هوذة بن علي برز مُسَيْلِمة وتردد اسمه في المصادر كرئيس مهيمن على اليمامة، واسمه الأصلي «مَسْلَمَة»، ولكن المصادر الإسلامية ذَكَرَتْه بالتصغير لادعائه النبوة. وذكرت أغلب المصادر أنه «مسيلمة بن حبيب»[3] وأضاف ابن دريد أنه كان يُكْنَى أبا ثُمامة[4]، غير أن ابن حزم ذكر أنه «مسيلمة بن ثمامة بن كثير بن حبيب بن عبد الحارث بن عدي بن حنيفة، ويكنى أبا ثمامة». وعشيرة بني عدي التي ينتمي إليها مسيلمة هي ثانية عشائر بني حنيفة، ولها عدة فروع، ويذكر ابن حزم أن أمَّهم ضبيعة بنت عجل[5]، وهذا يشير إلى صلتهم ببني عجل البكريين، وربما كان له أثر في تقوية صلة مسيلمة بضبيعة. ولم تكن عشيرة بني عدي أبرز العشائر، ولم تذكر المصادر أن مُسيلمة

(١) ابن سعد ١ ـ ٢/ ١٨، أنساب الأشراف ١/ ٥٦٠، الطبري ١/ ١٥٦٠، فتوح البلدان ٨٥.
(٢) ابن سعد ١ ـ ٢/ ١٨.
(٣) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٥٠.
(٤) الاشتقاق ٣٤٧.
(٥) الانساب لابن حزم ٣٠٩ ـ ١٠؛ التنبيه والاشراف ٢٣٩.

كان أشرف قومه أو سيدهم، وإنما ذكر ابن حزم أن المعترض بن غزال بن سبيع بن سلمة «كان أشرف في قومه من مسيلمة»، كما ذكر أن كلا من مطرف بن النعمان بن مسلمة، وابن عمه حريث بن جابر بن مسلمة كان سيداً[1].

وذكرت عدة مصادر أن مسيلمة تزوج كبسة بنت الحارث بن كريز، وهي قرشية من بني عبد شمس[2]. ويذكر ابن حزم انها كانت قبله عند جَبْلة بن ثور، وهو من بني ذهل بن الدول، فلما مات جبلة خلف عليها مسيلمة[3]، ولما قُتل تزوجها عبد الله بن عامر[4]، ولعله أراد بهذه الزيجة زيادة تقوية مركزه وصلته بقريش عندما كانت مشركة.

يقول ياقوت إن مسيلمة ولد في الهدار، وينقل عن الحفصي أنها قرية لبني ذهل بن الدول ويضيف «قالوا أول ما تنبأ مسيلمة بالهدار وبها ولد، وبها نشأ وكان من أهلها، وكان له عليها طوى، فسمت بها بنو حنيفة فكاتبوه واستجابوه فانزلوه هجر»[5].

ذكر الجاحظ عن نشأته فقال: «إن مسيلمة طاف قبل التنبُّؤ في الأسواق التي كانت بين دور العجم والعرب، يلتقون للتسوق والبياعات كنحو سوق الابلة وسوق لقة (بقة ؟) وسوق الأنبار وسوق الحيرة. وكان يلتمس تعلم الحيل والنِيرَنْجَات واختيارات النجوم والمتنبئين، وقد كان أحكم حيل السدنة والحواء وأصحاب الزجر والحظ ومذهب الكاهن والعياف والساحر وصاحب الجن الذي يزعم ان معه تابعاً»[6]. وذكر أيضاً أنه كان يظهر العجائب. ويتبين من كلام الجاحظ أن مسيلمة أعد لإعلان تنبيه بجولة في الأسواق في العراق حيث تعلم

(١) الانساب لابن حزم ٣١٢.
(٢) البخاري: مناقب ٣٥ ولم يذكر اسمها.
(٣) ابن حزم ٣١؛ المحبر ٤٤
(٤) المحبر ٤٤، نسب قريش لمصعب الزبيري ٢٠؛ الاكمال لابن ماكولا ٦/١٥٧، ١٦٨
(٥) معجم البلدان ٤/٩٥٥.
(٦) الحيوان للجاحظ ٤/٣٦٩ ـ ٣٧٣، وانظر: المعارف لابن قتيبة ١٧٨.

أمور الغيبيات والكِهانة والنجوم. غير أن المصادر لم تذكر معلومات عن العجائب التي كان يُظهرها، وعن مسلكه مسلك الكهان[1]، وتابع أسلوبهم في الكلام، وهو مما كان مألوفاً عند العرب، ولعل مسلكه هذا زاد في قوة تأثيره، غير أنه لم يَدّع الكِهانة، وإنما ادعى النبوة، وزعم ان ما يقوله منزل عليه من السماء؛ فذكر له الجاحظ بعض الأعمال والتصرفات والأقوال التي هي ألصق بما يفعله أهل الحِيَل والنيرَنْجَات[2].

وقد روت المصادر أقوالاً له قصيرة، مسجوعة على غرار أقوال الكهان في الجزيرة[3]، ويبدو أنه اعتمد في التأثير على أتباعه على سجعها فحسب، لأن الأفكار التي عرضها عموميات ضَحْلة ليس فيها عمق أو شمول، وأشار الجاحظ إلى أن مسيلمة لم يكن خطيباً في حين ذَكَر أن طليحة بن خويلد الأسدي كان «خطيباً وشاعراً وشجاعاً وكاهناً»[4]، وأنه كان مؤثراً في أسلوبه على اتباعه، ويقول كذلك: «فقد رأيت اصحاب مسيلمة وأصحاب ابن النواحة انما تعلقوا بما ألف لهم مسيلمة من ذلك الكلام الذي يعلم كل من سمِعَه أنه إنما عَدَا على القرآن فسَلَبَه وأخذ بعضه وتعاطى ان يعارضه»[5]. ويذكر الطبري أن مسيلمة نزلت فيه الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ (الأنعام/ ٩٣)[6].

دعا مسيلمة إلى عبادة «الرحمن»، الذي تردد ذكره معبوداً في المصادر والنقوش العربية قبل الإسلام، ويختلف مفهومه عما عند المسلمين، اذ كان يَدَّعي أنه إله اليمامة، فحسب[7]. وقد أشار القرآن الكريم في عدة آيات الى

(١) مروج الذهب ٢/ ١٥٠.

(٢) الحيوان ٤/ ٣٧٠ ـ ٣٧٦.

(٣) الحيوان ٥/ ٥٣٠.

(٤) البيان والتبيين ١/ ٣٥٩.

(٥) الحيوان ٤/ ٨٩. وانظر: المصنف لابن أبي شيبة ١٢/ ٢٦٧ ـ ٢٧١، ٢٧٧؛ مصنف عبد الرزاق ١٠/ ٦٨، ١٦٩؛ سنن البيهقي ٨/ ٢٠١.

(٦) تفسير الطبري ٧/ ١٨١ تاريخ المدينة لابن شبه ٥٧٤

(٧) فتوح البلدان ١٠٣، ابن سعد ١ ـ ١/ ١٠٨، تفسير الطبري ١/ ٤٤ ٣/ ٢٤٥ ـ ٦، ١٠/ ٧٠ طبعة محمود محمد شاكر، وانظر كتابنا «تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية ٢٩٥».

استغراب مشركي مكة لما دعا الرسول (ص) الى عبادة الرحمن[١].

ووضع لهم صوماً وصلاة، فأما الصلاة، فقد قَصَرَها على الظُهر والعصر والعِشاء، وأبْطل عنهم صلاة العشاء والفجر[٢]. وجعل الصلاة قياماً وألغى الركوع والسجود.

أما الصوم الذي فرضه، فكان صيام يوم واحد، وقال لأتباعه: تصومون يوماً وتكلفون يوماً[٣] وحرَّم عليهم الزنا وشُرْب الخمور، وحدد النسل وقال: «لا النساء تأتون ولا الخمر تشربون». «وكان مما شرع لهم مسيلمة أنَّ مَن أصاب ولداً واحداً حُقْباً لا يأتي امرأة إلى أن يموت ذلك الابن، فيطلب الولد حتى يصيب ابنا ثم يمسك، فكان قد حَرَّم النساء على من له ولد ذكر»[٤]، ولا ريب في أن تحريم الزنا وشُرْبِ الخمر غرضه معالجة أحوال كانت تؤثر في المجتمع ولكن المصادر لم تذكر ما يوضحها.

إن تحديد النسل بولد ذكر يَحُدّ من زيادة السكان. ولم تذكر المصادر دوافع هذا القرار وما أُعِدَّ لتنفيذه من تدابير يتطلب نجاحها تنظيماً دقيقاً وقبولاً شعبياً، ولا شكَّ أن تطبيقه يثير كثيراً من التعقيدات الإدارية والاجتماعية. ولم تذكر المصادر أنه حدّد عدد الزوجات، أو شجَّع تحلُّل العلاقات الجنسية، غير أنه لا يصح اعتبار قراره في هذا الأمر مظهراً لميله إلى الزهد في آرائه الدينية، علماً أنّ لهذا القرار بعض الصلة بقتل الاولاد الذي ذكر القرآن الكريم وقوعه عند بعض الجاهليين وأشار إلى دوافعه الاقتصادية وحرّمه، وهو على كل حال يتعارض مع ما عرف عن العرب في الجزيرة من الميل إلى الإكثار من انجاب الأولاد، مما حرص الإسلام على انمائه، بما دعا إليه من تفاخر بالأموال والأولاد ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

---

(١) الفرقان ٦، الرعد ٣٠، الإسراء ١١٠.

(٢) الطبري ١٩١٩/١ تفسير الطبري ٤٤/١؛ الاوائل لابي هلال العسكري ٢٧٤ وانظر: ملوك حمير واقيال اليمن لنشوان بن سعيد الحميري ١٧٦.

(٣) الطبري ١٩١٧/١.

(٤) الطبري ١٩١٧/١.

حرم اليمامة

ذكر الطبري أن مسيلمة «ضرب حَرَماً باليمامة، وأخذ الناس به، فكان مُحَرَّماً»[١]، ولم تحدد المصادر مكان هذا الحَرَم أو مساحته، إلا أنه لا بد أن يكون حدَّده بعلامات مميزة واضحة، ولم يتخذ مسيلمة في هذا الحرم بيتاً مقدساً لآلهة،ولم يرد ذكرٌ لِتوجُّه اتباعه في صلاتهم اليه. غير ان اسمه يدل على انه كان منطقة سلمية يحرَّم فيها القتال والاعتداء، وهو يعين على استقرار الحياة المدنية. ويَظْهر مما ذكر الطبري انه كان يميز أهل المدن على البدو، فرَوَى أن مسيلمة ادعى أنه نزل عليه: «لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمُعْتَرَّ فآووه، والباغي فناوكوه»[٢]. ويَرْوي الطبري أن مياه آبارهم غارت، ونخلهم خوى بعد مهلك مسيلمة[٣].

اتصالاته بالرسول (ص)

لم تذكر المصادر تاريخ بدء قيام مسيلمة بدعوته الدينية، غير أن هناك إشارات إلى أن دعوته لعبادة الرحمن بدأت عندما كان هوذة يتولى السلطة، وأن ما ذكره المفسرون عن دعوة مسيلمة الى عبادة الرحمن، وزمن نزول الآيات القرآنية التي يذكر فيها «الرحمن»، وموقف قريش منها، كل هذه الإشارات تدل على أن دعوة مسيلمة قامت إبّان حياة هوذة، أي قبل فتح مكة الذي توفي هوذة على أثره.

ويذكر ابن سعد أن وفداً من بني حنيفة قَدِموا إلى المدينة لمفاوضة الرسول (ص) وكانوا بضعة عشر رجلاً وعلى الوفد سلمة بن حنظلة، وكان مسيلمة في الوفد ولكن لم يكن رئيسه، وأن الرسول (ص) أجازهم؛ وذكر ابن سعد أسماء بعض أعضاء الوفد، ولم يكن لهم دور بارز في الحوادث

(١) الطبري ١/ ١٩٣٢.

(٢) الطبري ١/ ١٩٣٤.

(٣) الطبري ١/ ١٩٣٥.

التالية[1]، ويدل سياق الحوادث أن هذه الوفادة جرت في زمن حياة هوذة، ولم تكن بها مفاوضات سياسية، وأن الرسول (ص) رضي عن الوفد.

ويروي ابن اسحاق عن ابن عباس أن مسيلمة قدِم إلى الرسول (ص) فجعل يقول: «إنْ جَعَلَ لي محمد الأمر من بعده تبعته، وقدمها في بشر كثير من قومه[2]». ومن الواضح أن هذه الوفادة قد جَرَت عندما أصبحت لمسيلمة سلطة سياسية، وأن الرسول لم يقبل طلبه.

وتروي عدة مصادر أن مسيلمة كتب يقول: «لنا نصف الأرض ولكم نصف الأرض، ولكنَّ قريشاً قوم لا ينصفون»[3]. وهذه الجملة الأخيرة تُظهر أن العرض المذكور هو خاتمة المفاوضات. وهذا الكتاب يُظهر أن مسيلمة قَصَرَ طلبه على أن يقتسم مع المسلمين المُلْك، وإن لم يكن حدَّد نصف الأرض الذي يريد أن يكون له، ولا شك أن هذه المفاوضات مع الرسول (ص) التي جرت باسم مسيلمة قد جَرَتْ على أثر تولِّيه السلطة السياسية في اليمامة. ويذكر الطبري أن اتصال مسيلمة بالرسول (ص) حدَثَ بعد حجَّة الوَداع[4].

بانقطاع المفاوضة بين الرسول (ص) ومسيلمة، أصبحت العَلاقة بينهما حالة عَدَاء. غير أن الرسول (ص) كان معنياً بتنظيم دولة الإسلام المتوسعة، ولاسيما في الأطراف الشمالية من الحجاز، فلم يُجَهِّز جيشاً لقتال مسيلمة الذي انصرف بدوره إلى تثبيت سلطانه في اليمامة، ولم يجهز جيشاً لتوسيع ملكه، وإنما اتَّبع سياسة سلمية، وكان «يصانع كل من يتابعه ولا يبالي أن يَطَّلع الناس منه على قبيح»[5]. وقد تغاضى عن تَعَدِّيات بني تميم على محاصيل اليمامة، واستغلال حرم مسيلمة في حماية أنفسهم، ولم يُنْجد مسيلمة القبائل المرتدة لمّا قاتلها خالد بن الوليد وأعادها إلى حظيرة الاسلام، رغم أنه كان يدرك أن خالداً

(١) ابن سعد ١ ـ ٢/٥٦، ابن هشام ٤/٣٤٤، الطبري ١/٣٧٣٧، التبعية والأشراف ٢٣٩.
(٢) الطبري ١/١٧٤٨، ابن هشام ٤/ ٢٧٠.
(٣) انظر المصادر التي روت هذا الكتاب في كتاب الوثائق السياسية ٢٠٥.
(٤) الطبري ١/١٨٤٩.
(٥) الطبري ١/١٩٣٢.

سيتقدم بعد ذلك لإخضاع اليمامة، وقد تساهل مع سجاح وأعطاها نصف الحاصل رغم أنها لم تقدِّم له ما يوازي ما أعطاها.

مُعارِضو مسيلمة

أشارت المصادر إلى معارضة واجهها مسيلمة قَيَّدت حركته وحدَّدت سيطرته، وتركّزت أخبار المعارضة على أشخاص معدودين، ولا بد أن كلاً منهم كان ذا مكانة في قومه، وأنه لم يقتصر في قوته على مكانته الشخصية فحسب، وإنما استفاد من تأييد انصار له. ومن أبرز من ذكرت المصادر معارضته لمسيلمة: ثمامة بن اثال، وهو من بني ثعلبة بن الدول، وكان معارضاً للإسلام، ثم انضم اليه بعد صلح الحديبية[1]، «وضيق على قريش فلم يَدَعْ حبَّةً تأتيهم من اليمامة، وكان في وفد بني حنيفة الذين وفدوا على الرسول (ص) فأسلموا، ومنع قومه من الانضمام إلى مسيلمة»[2]، وعمِل على الاستعانة ببني تميم، وظَفِر ببعض النجاح. غير أن تردد بني تميم وما حدث بينهم من انقسامات جعلهم يحجمون عن تأييده، ويُجمِّدون نشاطه دون أن يتدخل لمنع ذلك التمجيد، وفي ذلك يقول الطبري: «وقد كان ثمامة بن أثال تأتيه أمداد من بني تميم، فلما وقع ذلك الحدث (انقسام تميم)، تراجعوا إلى عشائرهم، فاضرّ ذلك بثمامة بن اثال حتى قَدِم عليه عِكْرِمة وأنهضه فلم يصنع شيئاً»[3]، ومع هذا فإن نشاط ثمامة أخاف مسيلمة، فلما تقدمت إليه سجاح خاف إن هو شُغِل بها أن يغلبه ثمامة على حجر، او شُرَحْبيل بن حسنة، أو القبائل التي حولهم، فاهوى لهم». يتبين من كل هذا المكانة الكبيرة لأثال والأثر الذي لا يعتمد على مجرد شخصيته وإنما على مكانته ونفوذه منذ زمن حكم هوذة، ولعل هذا مما دفع ابن اسحق ان يصف أثال وثمامة بأنهما ملكا اليمامة[4].

---

(١) الطبري ١/١٩١٩، ١٩٦٢، أنساب الأشراف ١/٣٧٦، أنساب ابن حزم ٣١٢.

(٢) ابن سعد ٥/٤٠١.

(٣) الطبري ١/١٩٧١.

(٤) الطبري ١/١٩١٦.

وكان من معارضيه أثال الحنفي، وهو من بني سحيم وناصره عدد من أهل القرى من سائر بني حنيفة ثم عاون العلاء بن الحضرمي في السيطرة على البحرين[١]، ونقل من غنائمها[٢]، وبنو سحيم بن مرة بن الدول بن حنيفة[٣].

ومن معارضي مسيلمة مَجَّاعة بن مرار، وهو من بني ثعلبة بن الدول[٤]، ومن رجال بني رجال[٥] وكان «سيد بني قومه» ومعه «جيل من قومه»[٦]. ويُروى أن مجَّاعة كان قد خرج مع ثلاثمائة وعشرين من قومه يطلب ثأراً له من بني عامر وبني تميم[٧]، فقبض عليهم خالد في طريق تقدمه إلى اليمامة وضرب أعناقهم[٨]. ولعلهم كانوا قوة أنفذها مسيلمة لِصدّ تقدم خالد.

يروي الطبري ان أصحاب مجَّاعة نصحوا خالداً «وقالوا: إن كُنْتَ تريد بأهل اليمامة غداً خيراً أو شراً فاستبق هذا ولا تقتله، فقتلهم خالد وحبس مجَّاعة عنده كالرهين[٩]، غير ان تعاون مجَّاعة مع خالد يرجح أن مجاعة عرض تعاونه مع المسلمين، لانه لم يكن وثيق التأييد بمسيلمة، وإن كان من معه عارض ذلك، فقتلهم خالد وأبقاه. ثم أصبح مجاعة مستشاراً لخالد بن الوليد[١٠]، وشارك في مقاتلة اصحاب مسيلمة، ولجأ إليه فلال مسيلمة، وأسهم

---

(١) الطبري ١/ ١٩٦١.
(٢) الطبري ١/ ١٩٧١.
(٣) الاشتقاق ولابن دريد ٣٤٨، الانساب لابن حزم ٤٧٠.
(٤) ابن حزم ٣١٢.
(٥) الاشتقاق ٣١٢.
(٦) الطبري ١/ ١٩٣٩.
(٧) ابن سعد ٥/ ٤٠٠.
(٨) الطبري ١/ ١٩٣٧.
(٩) الطبري ١/ ١٩٣٨، ١٩٤١.
(١٠) ابن سعد ٥/ ٤٠٠.

في فتح حصون اليمامة[1]، وهو الذي عقد صلح اليمامة مع خالد[2].

متابعو مسيلمة

ذكرت المصادر أسماء رجال ساعدوه، وأبرزهم الرَّجّال بن عُنْفُوَة، ومحكِّم بن الطفيل، فأما الرَّجَّال بن عنفوة فكان في وفد بني حنيفة إلى الرسول (ص)[3]، ويبدو أنه أقام في المدينة مدة تَعَلَّم فيها القرآن من أُبيّ بن كعب، ثم وجَّهَه الرسول (ص) معلماً لأهل اليمامة وليحرك على مسيلمة وليشد من أمر المسلمين[4]. ويبدو أنه كان عند وفاة الرسول مقيماً في اليمامة متمسّكاً بالإسلام، فقد استدعاه أبو بكر ثم أرسله إلى أهل اليمامة وهو يرى أنه على الصدق حين أجابه[5]. ثم انقلب على الإسلام وانضمّ إلى مسيلمة وشهد له بالنبوة، وأشركه الرسول (ص) في الأمر. وقد افتَتَنَ به الناس، «وكانت فتنة الرَّجَّال أعظم من فتنة مسيلمة»[6]، وكان يُعلِّم مسيلمة أساليب الرسول (ص) ويلقنه أعماله ليحاكيها[7].

وكان الرَّجَّال على إحدى مُجَنَّبَتَي مسيلمة في معركة حديقة الموت[8]، وكان أول من اشتبك مع الجيش الإسلامي[9]، ثم قُتل في المعركة[10].

ومن أشد مؤيدي مسيلمة محكِّم بن الطفيل[11]، ويُكْثر في المصادر تسميته

(1) الطبري ١/١٩٥٩.
(2) ابن سعد ٥/٤٠٠، تاريخ خليفة ٧٦، الانساب لابن حزم ٣١٢.
(3) ابن سعد ١ ـ ٢/٥٠.
(4) الطبري ١/١٩٣٢، ١٩٣٩، وانظر ابن سعد ١ ـ ٢/٥٦.
(5) الطبري ١/١٩٢٩.
(6) الطبري ١/١٩٣٢.
(7) الطبري ١/١٩٣٢.
(8) الطبري ١/١٩٣٧.
(9) الطبري ١/١٩٤١.
(10) الطبري ١/١٩٤٦.
(11) ابن سعد ٣ ـ ١/٢٧٤.

محكم اليمامة[١]، وكان رجلاً جسيماً وسيماً[٢]، وجعله مسيلمة على إحدى مجنبتيه[٣]. وعندما تضعضعت مقاومة جيش مسيلمة، طلب إليهم ان ينحازوا إلى الحديقة ليدافعوا فيها واستحثهم بقوله «الآن والله تُسْتحقب الكرائم غير رضيات، ويُنْكَحْن غير خطيبات، فما عندكم من حسب فأَخْرِجوه»[٤]، وقام بحماية مؤخرة أنصار مسيلمة[٥]، ثم قُتِل بسهم رماه به عبد الرحمن بن أبي بكر وهو يخطب في الجند[٦].

وممن ذكرت المصادر تأييدهم لمسيلمة طلق بن علي الذي كان في وفد بني حنيفة إلى الرسول (ص)[٧]، ثم صار مؤذناً[٨]، وذكر الطبري «مؤذنه عبد الملك بن النواحة، ويقيم له حجير بن عمير»[٩].

سياسة مسيلمة في اليمامة

في الكتب إشارات الى تفضيل مسيلمة لأهل المدر، أي الحضر المستقرين واعتماده عليهم، وارتيابه «بأهل الوبر»[١٠]، اي البدو. ولا ريب في أن الزراعة والصناعة والتجارة في اليمامة أدت إلى الاستقرار ونمو الحياة الحضرية مما كان له أثر في التطور الفكري والسياسي فيها. وقد أبرز عدد من الباحثين المُحْدَثين استقرار اليمامة ورأوا شيئاً من المبالغة لتقدير أثر هذا الاستقرار في قيام كيان متميز لأهل اليمامة يختلف عما هو سائد في غرب جزيرة العرب، حيث ظهر

---

(١) الطبري ١/١٩٤٣، تاريخ خليفة ٧٤، ٧٦.
(٢) الطبري ١/١٩٤٩.
(٣) الطبري ١٩٣٧.
(٤) الطبري ١/١٩٤٣.
(٥) الطبري ١/١٩٤٠.
(٦) الطبري ١/١٩٤٦.
(٧) ابن سعد ١ ـ ٢/٥٠، ٥/٤٠٢.
(٨) ابن سعد ١ ـ ٢/٥٦.
(٩) الطبري ١/١٩٣٢.
(١٠) الطبري ١/١٩٤٦.

الرسول ونشر دعوته وثبّت دولته في مراحلها الاولى[1].

غير أن هؤلاء الباحثين بالغوا في التباين بين اليمامة وغرب الجزيرة، فإن الصلة كانت وثيقة بين مكة واليمامة، واللغة العربية كانت رابطاً عاماً لكل أهل الجزيرة. وقد تجلى هذا الرابط بتقدير الناس لمن ظهر في اليمامة من الشعراء والحكماء والبلغاء. يضاف إلى ذلك أن التمييز لا يقتصر على اليمامة، وانما يظهر في مناطق أخرى من الجزيرة، مع الإشارة إلى أن أهل اليمامة قد تميزوا بقوتهم وشدة شوكتهم. وقد حاول مسيلمة الاحتفاظ باستقلال اليمامة عندما فاوض الرسول (ص) وقدّم له عرضه بقوله: «لنا نصف الأرض ولكم نصف الأرض». وكان مما أعانه على تقوية سلطانه التعصب القبلي والإقليمي لليمامة، والذي انعكس بما روي عن بعضهم في تشككهم بصحة دعوة مسيلمة ولكنهم أيدوه لأن «كذّاب ربيعة أحب إلينا من صادِق مضر»[2].

غير أنه لا تصح المبالغة في ضعف آثار البداوة أو في تماسك أهل اليمامة، فإن المصادر ذكرت، إلى جانب المدن والقرى والحصون التي في اليمامة، العشائر التي كانت تقيم فيها، وأظهرت أن التكتل القَبَلي كان أساس التنظيم المدني والسياسي، وأن أبناء كل من هذه العشائر لم يكونوا منصهرين، وإنما كانت بينهم انقسامات كثيراً ما تصل، في عمقها وتباينها، إلى حد التصادم؛ والواقع ان التفاصيل التي ذكرناها عن عشائر اليمامة تكشف كثيراً من الانقسامات فيها.

لقد قام في اليمامة كيان سياسي مستقل تجلى في رئاسة هوذة بن علي الحنفي، الذي حَرَصَ على تأمين السلم والأمن ولم يحاول التوسع. فلما وَلِيَ مسيلمة السلطة بعده، تابع تلك السياسة، وكان هو محور الحركة وموجه سياستها، ولم يحاول التوسع وبسط سلطان اليمامة على الجزيرة العربية كما فعل بعض الملوك المناذرة والحميريين. وتشير كتبه إلى الرسول (ص) أنه عرض

(١) انظر في ذلك مقال ايكرمان عن مسيلمة المنشور في مجلة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط م١٠ قسم ١.

(٢) الطبري ١/ ١٩٣٧.

عليه اقتسام السلطان والتعايش السلمي في الجزيرة، ووافق على اعطاء سجاح نصف غلات اليمامة ليؤمن معها علاقات سلمية دون أن يفرض عليها شروطاً أو مطالب مقابلة. ولم يُذكر عنه، أو عن هوذة مِنْ قَبْله، اتصال بأي من الدول الاجنبية الكبيرة التي كانت حول الجزيرة للاستعانة بها في تثبيت مركزه وسلطانه.

وعندما هددته الجيوش الإسلامية، لجأ إلى المشاعر القبلية يستثيرها فقال: «دافعوا عن أحسابكم»[1]. وقد أبدى مسيلمة أعنف مقاومة مسلحة لقيتها الجيوش الإسلامية في القضاء على حركات الردة، وقَتَل من المسلمين، في حديقة الموت، التي حدثت فيها المعركة الحاسمة، عدداً أكبر مما قُتِل في أي اشتباك آخر مع المرتدين. لقد كان عدد قتلى المسلمين فيها يزيد على مجموع ما قتل في كافة معارك الردة.

لا نعلم علاقة الأفكار والفرائض التي وضعها مسيلمة بما كان سائداً في اليمامة قبله. غير أن من الواضح أنه لم يُفلح في تثبيتها: فالحَرَم الذي وضعه في اليمامة صار ملجأ للمغيرين من بني تميمالذين نَجَوْا من العقاب. وليس ثَمَّة ما يشير إلى إعجاب الناس بما دعا إليه، رغم إشارة الطبري إلى انه كان يريهم الأعاجيب. وقد أظهر في تصرفه ضيق نظر، فلم يدرك أثر القوى التي ظهرت في الجزيرة، ولم يعمل بجد على توسيع سلطانه، وإنما قَصَرَ عمله على اليمامة وحدها، ولم يفلح في توحيدها أو القضاء على طموحات الشخصيات البارزة أو الانقسامات العميقة بين كتل أهلها. وكان انعزاله عن الخارج، ونظرته الإقليمية المحدودة، وعدم تقديم افكار سليمة تثيرهم، وضعفه في توحيد اليمامة، من أهم عوامل فشله وانهيار حركته.

القضاء على مسيلمة وحركته

بعد أن أمَّن خالد بن الوليد السيطرة على بني تميم، وأعادهم إلى طاعة

---

(١) الطبري ١/١٩٤٨، ١٩٥٤.

الخلافة، تقدم في أوائل سنة ١٢هـ للقضاء على مسيلمة. وقد حَشَد في تقدمه جيشاً كبيراً تدل أسماء من ذَكَرَت المصادر مَقْتلَهم أنه كان فيهم كثير من الأنصار والمهاجرين، وعدد من بني تميم. ويروي الديار بكري أنه كان في جيش خالد ايضاً رجال من أسد وغطفان[١].

وكان أبو بكر قد أرسل قبل ذلك إلى اليمامة عِكْرِمَةَ بنَ أبي جهل الذي كان يلي صدقات هوازن، فسار عكرمة بقوات حشدها من بني عامر بن صعصعة، وهاجم مسيلمة ولكنه لم يقض عليه[٢]، وإنما حَصَرَه في موضعه، وعَزَله عن بقية المرتدين. فلما تقدم خالد إلى اليمامة، انضم إليه عكرمة مع قواته، وشارك في قتال مسيلمة، وأمدَّ أبو بكر خالداً بسليط ليكون رَدْءاً له من أن يأتيه أحد من خلفه[٣].

تحركت قوات خالد إلى اليمامة في أوائل سنة ١٢هـ عند بدء الربيع، وكانت الأرض التي يتقدم عليها منحدرة نحو اليمامة، ولم تلق مقاومة في طريق تقدمها، لان مسيلمة لم يعمل على توسيع سلطانه وجَلْبِ الحلفاء إليه، وإنما اكتفى بما تحت سلطانه من قوات، واتخذ موقف الدفاع، واستغل قوة ارتباط أهل اليمامة به، وكثرة الوديان والمزارع التي تعرقل تقدم الجيوش وتُيَسِّر الدفاع. ونشبت في عقربا معركة بَلَغَت شدتها أنها سُمِّيت «حديقة الموت» لكثرة من قُتل فيها من المسلمين[٤]. ويُروى أنه قتل فيها خمسمائة، منهم خمسة وثلاثون من حَمَلَة القرآن، وبلغ عدد القتلى من قريش والأنصار مائة وأربعين[٥]، وهي أكبر معركة خاضها المسلمون في قتال المرتدين.

ولما قتل مسيلمة، استسلمت بنو حنيفة، وقام مجَّاعة بعقد الصلح مع

(١) تاريخ الخميس ٢/٢٠٩.

(٢) الطبري ١/١٩٢٩ الاستيعاب لابن عبد البر ٣/١٠٨٢، الاصابة لابن حجر ٢/٤٨٩.

(٣) الطبري ١/١٩٣١، وتذكر بعض المصادر أن عدد قتلى المسلمين كان أكثر من ألف.

(٤) الطبري١/١٩٥١، تاريخ اليعقوبي ٢/١٣٠.

(٥) تاريخ خليفة، وذكر أسماء عدد من قتل من كل عشيرة، وانظر فتوح البلدان ٩٠ ـ ٩١ ٧٧ ـ ٨٣.

خالد بن الوليد، فوافق خالد على الصلح، ولم تفلح معارضة سلمة بن عمير لهذا الصلح[١]. وشمل الصلح بني حنيفة، وكان من شروطه أن يكون لخالد «ما وجد من الصفراء والبيضاء وعلى ثلث الكراع وربع السبي»[٢]. وفي رواية أنه صالحهم على ربع السبي ونصف الصفراء والبيضاء والحلقة والكراع[٣]. ويروى الطبري أن الصلح أَقَرَّ لخالد أيضاً أن يختار حائطاً من كل قرية ومزرعة يختارها، ويذكر أيضاً أن الصلح لم يشمل قرى العرض والقرية، فإنهم سُبُوا عند انبثاث الغارة، فبعث خالد إلى أبي بكر من السبي خمسمائة وظلوا في السبي إلى زمن خلافة عمر بن الخطاب حين أمر باطلاق السبايا[٤].

وذكر ياقوت عدداً من القرى التي لم تدخل في صلح خالد، وهي أثقب لبني عدي، وفيشة لبني عامر، والضيق، والقرية، والعصبات، وعارة، واسحرمة، وهدر،[٥]. وذكر كذلك أحكام خالد في بعض القرى التي لم تدخل الصلح، فقال عن الهدار: «سَبَى خالد أهلها وأسكنها بني الأعرج وهم بنو الحارث بن كعب بن سعد بن زيد مناة من تميم منهم أهلها إلى الآن، وذكر أن المجازة واد وقرية من ساكنيه بنو هزان بن عنزة وبها أخلاط من الناس من موالي قريش[٦]. وقال إن الفقي لبني العنبر نزلوها بعد قتل مسيلمة لأنها خلت من أهلها وكانوا مع مسيلمة، وبها منبر، وقراها المحيطة تسمى الوشم والوشوم، ومنبرها أكبر منابر اليمامة[٧]، ثم وفَدَ مجَّاعة على أبي بكر فاقطعه إقطاعاً باليمامة[٨].

---

(١) الطبري ١/١٩٥٣.

(٢) تاريخ خليفة ٧٦، فتوح البلدان ٨٩ الاموال لابي عبيد ١٩٩، وانظر أيضاً الوثائق السياسية ٢٨٣.

(٣) الطبري ١/١٩٥٦.

(٤) الطبري ١/٢٠١٢.

(٥) مذكورة في معجم البلدان على التوالي ١/١٣٠؛ ٣/٩٣١؛ ٤٨٣؛ ٤/١٠٥؛ ٤١٧، ٥٤٤١، ٩٥٥.

(٦) معجم البلدان ٤/٤١٧.

(٧) معجم البلدان ٣/٩٠٦.

(٨) ابن سعد ٥/٤٠٠، فتوح البلدان ٩٢، البكري ١٠٦٣؛ ويروي أبو عبيد أن أبا بكر كان يريد=

غير أن اليمامة، بعد استقرار دولة الإسلام، تفردت بموقف خاص دون بقية أقاليم الجزيرة، فظل فيها عدد من المتعصبين لتراث مسيلمة[1] فقدمت عشائرها للجيوش الإسلامية عدداً من المقاتلين أقل مما قدمته الأقاليم الأخرى. وعندما تعرضت الدولة الأموية للتفكك بعد موت يزيد، كانت اليمامة مركز حركة الخوارج، ومنها معظم رؤسائهم، وظفِرت بنجاح وتوسع لم يُقْضَ عليه إلا بعد معارك عنيفة امتدت عدة سنوات، ثم أصبحت في القرن الثالث الهجري مركز القرامطة الذين توسعوا وهددوا جنوب العراق وأواسطه، كما هددوا أطراف بلاد الشام.

* * *

= التشدد في معاملة بني حنيفة (الأموال ١٩٩)، ويروي مصعب الزبيري أن عمر بن الخطاب لام خالداً على مصالحة أهل اليمامة (نسب قريش ٣٢١).

(١) انظر: مصنف ابن ابي شيبة ١٠/١٦٩؛ ١٢/١٦٨، ١٦٩، ٢٧٧ مصنف عبد الرزاق ١٠/٦٨، سنن البيهقي ٨/٢٠١.

الفصل الخامس والثلاثون

البحرين

وصف الإقليم

البحرين إقليم واسع يقع على الساحل الغربي من الخليج العربي، ويمتد شَمالاً من كاظمة في أطراف العراق إلى حدود عُمان جنوباً، ويمتد في أطرافه الغربية إلى رمال الدهناء التي تفصله عن اليمامة[1]. أرض البحرين سهلة مستوية منخفضة تكثر فيها الآبار والعيون والأحساء. وفيها أنهار صغيرة أشهرها نهر محلم بين الصفا والمشقر. وقد وُفِّرت المياه الزراعية في مناطق مختلفة. ومن مزروعاتها: الحناء والقطن على شطوط أنهارها، غير أن اشهر مزروعاتها: النخيل التي اشتهرت بوفرة إنتاجه، ورخص أسعاره، حتى ضرب المثل بمن يخسر في تصدير السلع إلى بلادٍ يتوفر فيها النخيل فقيل: «كناقل التمر الى هجر». وذكر البكري أن البحرين «كثيرة النخل والموز والجوز والاترنج والاشجار والزرع والانهار»[2].

---

(١) أفردت معجم كتب الأقاليم العربية فصولا خاصة عن أحوال البحرين الجغرافية أما الدراسات الحديثة فانظر كتاب «البحرين في صدر الإسلام» للدكتور عبد الرحمن عبد الكريم، وانظر مقال «البحرين» في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الجديدة، والمصادر التي ذكرتها وانظر أيضاً، معجم ما استعجم للبكري ٢٨.

(٢) معجم ما استعجم ٣٩.

الصناعة

كانت البحرين مركزاً لعدد من الصناعات التي تُصَدَّر إلى أرجاء شبه جزيرة العرب. وأبرز هذه الصناعات الرماح، والعطور والمنسوجات. فأما الرماح فقد اشتهرت البحرين بصنع الرماح «الخَطِّية» و«الرُدَيْنِيّة» و«السَمْهَرِية» التي تَرَدَّد ذكرها في أشعار العرب وأخبارهم بوصفها من أحسن أنواع الرماح. وكانت صناعتها تقوم على الخيزران الذي تستورده البحرين من الهند.

أما صناعة المنسوجات، فقد اشتهرت فيها الثياب القَطَرية، وهي ثياب مخطَّطة كانت تصنع في قطر. وعُرِفت هجر بما تنتجه من البَزّ الذي كانت مكة من مستورديه. وكان الرسول (ص) قبل الهجرة شريكاً لمخرمة العبدي في استيراد البزّ من هَجَر[1]، ويروي أنه، عندما امتد الإسلام إلى البحرين، فرض الرسول (ص) على من لم يسلم «اربعة دراهم وعباءة»[2] مما يدل على توافر المنسوجات هناك.

الملاحة والتجارة

نظراً لطول ساحل البحرين واستواء أرضها، فقد كانت لها أهمية في الملاحة تفوق أهمية أقاليم السواحل الشرقية من الخليج العربي، فكانت ترسو فيها السفن التي تمخر في الخليج العربي بين العراق وبلاد المحيط الهندي والشرق الاقصى. وقد عمل كثير من أهلها في الملاحة وفي صناعة السفن والتجارة البحرية. ومن مظاهر شهرتها في صناعة السُّفن أن الشاعر الجاهلي البحراني طرفة بن العبد قد وصف بعض هذه السفن في قصائده ومما قاله فيها:

عَدُولِيَّةٌ أو من سَفِينِ ابن يامِنٍ ... يَرُوح بها المَلَّاحُ طوراً ويَغْتَدِي

وفي هذا البيت إشارة إلى سفن عدولي، وهي ميناء في شرق افريقية،

(١) انظر فصول البيوع في كتب الحديث: أبو داوود ٧٤، النسائي ٥٤، الترمذي ٦٤، وفصل التجارات في ابن ماجه.

(٢) انظر: الوثائق السياسية ٨٧ وانظر أيضاً مقالنا عن مراكز الأنسجة العربية.

وإشارة إلى مالكٍ لعدد من السفن قد يدل اسمه على أنه كان يهودياً[1].

كان للبحرين، في مسيرة التجارات وتأثيراتها السياسية، أهمية كبيرة وخاصة للعراق. ذلك أن سواحلها الطويلة وموانئها العديدة على الخليج العربي تُسّهل لها تسيير السفن إلى العراق، أو تحويل حمولتها إلى بلاد أخرى. وقد حرصت الدول الكبيرة التي حكمت العراق على تأمين علاقات طيبة مع البحرين، وعَمِلَ بعضها للسيطرة عليها. وقد برزت هذه الأهمية بوضوح قديماً بعد وفاة الإسكندر المقدوني واقتسام أقاليم الشرق الأوسط بين قواده، خصوصاً سلوقس (الشام) وبطليموس (مصر)، فأرسل سلوقس الثاني حملة على البحرين وضمها إلى دولته، وبذلك منع توجه سفن المحيط الهندي إلى العراق، وألزمها بإفراغ حمولتها في البحرين وتوجهها إلى الأقاليم الغربية[2].

ولما أقام الساسانيون دولتهم، أرسل أردشير حملة ضمت البحرين إلى ملكه، ثم قام سابور الثاني بحملة على البحرين قَسَا فيها على أهلها من العرب ونقل كثيراً منهم من البحرين[3]. غير أن الحكم الساساني لم يكن قوياً، وتدنى في أواخر زمن حكمهم عندما اضطربت أحوال الدولة الساسانية وضعفت هيمنتها، ولم يعد لمرزبان البحرين، وهو الحاكم الذي يُعَيِّنه الساسانيون، إلا سلطان ضعيف في مقر إقامته في الزارة. أما بقية أرجاء البحرين فكان يسيطر على مقاليد الامور فيها الرؤساء العرب الذين يتمتع كل منهم بمكانة ونفوذ كبير على المنطقة التي يسيطر عليها.

ولما تم فتح مكة، وذاعت سمعة الرسول (ص) في الجزيرة، قدِمَت من البحرين وفودٌ من عشائر البحرين يعلنون ولاءهم للإسلام ودولته.

---

(١) انظر عن الملاحة في الخليج العربي. حوراني: الملاحة في المحيط الهندي.

(٢) انظر روستو فزيف: مدن القوافل، والفصل الذي كتبناه في «تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية».

(٣) الطبري ١/ ٨٢٥.

المراكز الحضرية

وكانت في البحرين عدة مراكز حضرية ومدن وقرى، ذكرت بعض المصادر الجغرافية عدداً منها، فقال ابن الحائك الهمداني: «البحرين وهي أرض المشقر فهي هجر مدينتها العظمى، والعقير، والقطيف، والأحساء والمحلم نهرهم»[1]. وذكر البكري أن البحرين «لها سبع مدن، فعلى ساحلها منها القطيف والزارة والعقير وأوال»[2]. وذكر ابن خرداذبه «قرى البحرين وهي الخط، والقطيف، وهجر، والفروق، وبينونة، والمشقر، والزارة، وجواثا وسابور، والدارين، والغابة، والشنون»[3]. وذكر ابن الفقيه في تعداده مدن البحرين ما ذكره ابن خرداذبه، وأضاف «هجر مدينة البحرين» و«المسجد الجامع في المشقر، وبين الصفا والمشقر نهر يجري يقال له العين، ومن قرى البحرين الحوس، الكثيب الأكبر، والكثيب الأصغر، وأرض نوح، وذو النار والمالحة، والرواتب، والبدى، والخرجان، والسهل، والموجر، والوجير، والطربال، والمسلح، والمرزي، واطلع، والشط، والقرحاء، والرميلة، والبحرية، والرجراجة، والوجه، فهذه قرى بني محارب بن عمرو، وقرى بني عامر اضعاف هذه»[4].

انفرد ابن الفقيه بذكر قرى البحرين. أما المدن فان عدداً منها يتردد ذكره في المصادر التي تحدثت عن أخبار البحرين وردتها، وأكثر ما يذكر هجر، والمشقر، والصفا، والخط، والقطيف، وجواثا، والزارة، وسابور، والغابة.

هجر

كانت هجر هي المدينة الرئيسة في البحرين. يقول الهمداني: إن «مدينة البحرين العظمى هي هجر، وهي سوق بني محارب من عبد القيس ومنازلها وما

(١) صفة جزيرة العرب ٢٨٢.
(٢) معجم ما استعجم ٣٩.
(٣) المسالك ١٥٢.
(٤) البلدان ٣٠.

دار بها من قرى البحرين»[1] وقال المقدسي إن هجر اسم للبحرين والاحساء قصبتها[2]. غير أنها في العهود الإسلامية قلَّ تردُّد اسمها، وحلَّت الأحساء مكانها، حتى إن ابن بطوطة أشار إلى أن «هجر تسمى بالأحساء»[3]. وأشار الطبري إلى أحوالها في الأزمنة القديمة حيث ذكر أنه، عندما غزا سابور الثاني البحرين، كان يقيم في هجر «ناس من أعراب تميم وبكر بن وائل، فقتلهم، وأسكن من كان من عبد القيس وطوائف من بني تميم هجر»[4].

وكان في هجر مجوس ويهود. «أما العرب، فأسلموا. وأما المجوس واليهود، فَرَضُوا بالجزية فأُخِذت منهم»[5]، وكان فيها أيضاً بعض النصارى[6].

ومن أهل هَجَر بنو دارِم ومنهم المنذر بن ساوى، ومنهم أيضاً «زهرةُ بن عبد الله، كان ملك هجر سوَّده في الجاهلية وَوَفَد على النبي»[7]، وزهرةُ هذا هو الذي قَتَل الجالنوس أحد قادة الفرس في معركة القادسية[8]. وقد وجَّه الرسول (ص) إلى أهل هجر كتاباً يعرض فيه عليهم الإسلام. فلما أسلم المنذر بن ساوى، أسلم أكثر أهلها بمن فيهم من غير العرب[9]، ثم شاركوا في فتح أراضي سواحل الخليج العربي الشرقية[10]. ولما أُنشئت الكوفة، هاجر عدد منهم إليها، وكوَّنوا وحدة قائمة بذاتها فكانت «إياد، وعَكّ، وعبد القيس، وأهل هجر، والحمراء سبعاً»[11] وجعلوا كالعباد من أهل الحيرة على مائتين من

(1) صفة جزيرة العرب ١٣٩.
(2) أحسن التقاسيم ٩٣، وانظر ياقوت ٤/ ١٥٣.
(3) رحلة ابن بطوطة ٢٨٠.
(4) الطبري ١/ ٨٣٩.
(5) فتوح البلدان ٨٠.
(6) الطبري ١/ ١٩٧٤.
(7) الطبري ١/ ٢٢٢٤.
(8) الاشتقاق لابن دريد ٢٥٤.
(9) فتوح البلدان ٧٨، الأموال لأبي عبيد ١٩٨.
(10) الطبري ١/ ٢٥٥١.
(11) الطبري ١/ ٢٤٩٥.

العطاء»[١]. وفي أواخر القرن الثالث الهجري فتحها القرامطة وقتلوا عددا من أهلها واتخذوها قاعدة لهم[٢].

المُشَقَّر

وبالقرب من هَجَر تقع المُشَقَّر[٣] وتأخذ ماءها من هَجَر[٤]. وكان قرب المشقَّر من هجر سببا في خلط بعض المصادر بينهما. يقول البكري: المشقر قصر بالبحرين وقيل هي مدينة هجر[٥]. ويذكر ان الذي بنى المشقر هو الملك الكندي معاوية بن الحارث بن معاوية[٦]، وأنه كان فيها موضع الملوك من بني عمرو بن معاوية[٧]. ويذكر الطبري انه كان في المُشَقَّر حصن بناه أحد الأساورة[٨]. وذكر ابن الاعرابي أن المشقَّر مدينة عظيمة قديمة في وسطها قلعة على قارة تسمى عطالة وفي أعلاها بئر الثقب حتى تنتهي إلى الأرض وتذهب في الأرض[٩].

وكان يقام في المُشقَّر طَوال جُمَادَى الآخرة من كل سنة سوق، يتوافى بها من فارس ينقلون من البحر إليها بياعاتهم، وكانت عبد القيس وتميم جيرانها وكان ملوكها بنو تميم رهط المنذر بن ساوى[١٠]. وحيال المُشَقَّر يقع حصن الصفا بينهما نهر محلم[١١]. ويبدو أن المشقر يقع في منطقة تكثر فيها المياه،

(١) الطبري ١/٢٤١٣.
(٢) الطبري ٣/١٧٤٣، ٢١٩١، البكري ٤٦.
(٣) المحبر ٢٦٥.
(٤) معجم ما استعجم ١٢٣٣.
(٥) كذلك ١٢٣٢.
(٦) كذلك ١٢٣٢.
(٧) كذلك ٣١١.
(٨) الطبري ١/ ٩٨٥.
(٩) معجم ما استعجم ١٢٣٣.
(١٠) المحبر ٢٦٥.
(١١) الطبري ١/ ٩٨٥، البلدان لابن الفقيه ٣٠.

إذ يقول البلاذري أنه عندما لجأ المنذر الغرور أرسل الماء حوله فلم يوصل اليه[١].

ومن المراكز الحضرية في البحرين جواثا والزارة، وقد تردد ذكرهما في أخبار الردة. أمّا جواثا، فكانت حصن البحرين، وقد حوصر فيه المسلمون إلى أن فَكَّ الحصار عنهم العلاء بن الحضرمي. وكان لذلك أثر حاسم سيطر بعده المسلمون على[٢] البحرين. وفي جواثا أقيمت أول جُمعة جُمِّعَت خارج المدينة[٣].

أما الزارة، فقد تحصن فيها المرزبان الفارسي، وكان مقتله وفتحها حاسماً في انهيار كل مقاومة في وجه الإسلام. وفي الزارة نشأ القرمطي في القرن الثالث. وبالقرب من الزارة تقع «السابور» و«الغابة».

وكانت دارين من أبرز المراكز الحضرية في البحرين، وهي تقع على جزيرة عند ساحل الخليج، وكانت مرفأ للسفن ومركزاً للملاحة والتجارة، واشتهر أهلها بتجارة العطور، حتى أصبح اسم «الداري» يطلق على تاجر العطور عموماً.

الخط والقطيف

الخط من أشهر أماكن البحرين، وكانت مرفأ السفن من البحرين. وقد اشتهرت بالرماح المسماة بها، لانها تباع فيها[٤]، وهذه الرماح تُحمل من بلاد الهند فتقوَّم بها[٥] وفي الخط سكن بعض بني تغلب قبل الإسلام بقرون[٦]. وفي الخط مدينة رئيسة بُنيت في القرن الثالث الميلادي[٧].

(١) فتوح البلدان ٨٣.
(٢) فتوح البلدان ٨٣.
(٣) معجم ما استعجم ٤٠٢، ١٢٨٢، صحيح البخاري، الجمعة، المغازي ٦٩، النسائي: الجمعة.
(٤) القاموس المحيط ٢/٣٥٨.
(٥) لسان العرب ٩/١٦٠، معجم ما استعجم ٥٠٣.
(٦) الطبري ٣/٩٣٩.
(٧) الطبري ١/٨٢٠.

وعند ظهور الإسلام، كان يقيم في الخط الزط والسيابجة[١]، ويذكر البلاذري أن السيابجة كانوا قبل الإسلام بالسواحل[٢]؛ ويذكر أيضاً أن السيابجة والزط والاندغار كانوا في الأصل من السند، ثم نقلوا إليها واستخدموا لحراسة السفن[٣]. وعند الخط كانت ديار عشيرة صعصعة بن صوحان، وقد ذمهم معاوية[٤].

وبالقرب من الخط أيضاً تقع القطيف، حتى انهما كثيراً ما يُذكران معاً. ويُرْوى أن الرسول (ص) أرسل إلى البحرين واليين: أحدهما على القطيف، والآخر على هجر، مما يدل على أنها كانت وحدة إدارية ومركزاً لوال، ولعل ذلك راجع إلى ما قبل الإسلام.

ويبدو أنه كان في القطيف بعض المجوس الذين تجمعوا فيها وامتنعوا عن دفع الجزية ثم انضموا إلى المكعبر[٥]. وعندما اندحر الحطم في جواثا انسحب إلى القطيف مع من تبعه من بكر بن وائل ومن تَأَشَّب إليه من المرتدين، ثم انضم إليه السيابجة[٦].

وكانت القطيف مركزاً للقرامطة في القرن الثالث[٧].

السكان العرب

عبد القيس

البحرين إقليم من جزيرة العرب: فسكانه من العرب. وذكر البلاذري أهم

(١) الطبري ١/ ١٩٦١.
(٢) فتوح البلدان ٣٧٢.
(٣) فتوح البلدان ٣٧٤.
(٤) الطبري ١/ ٢٩١٢.
(٥) فتوح البلدان ٨٤، وانظر الطبري ١٠٨٤.
(٦) الطبري ١/ ١٩٦١.
(٧) الطبري ٣/ ٢١٨٨، ٢٢٣٢.

القبائل العربية في البحرين فقال: «البحرين بها خلق كثير من العرب من عبد القيس وبكر بن وائل وتميم مقيمون في باديتها»[١].

وكانت عبد القيس أكبر قبائل البحرين، وفي ذلك يقول الشاعر:

لكيزٌ لها البَحْرانِ والسيفُ كلُّه وإن يَغْشَها بأس من الهند كارِبُ[٢]

وذكر البكري قِدَم عبد القيس وتوزُّعها في البحرين فقال «قَدِمت عبد القيس البحرين وهجر، فأجلت إياد عنها»، فغلبت عبد القيس على البحرين واقتسموها.

فنزلت جذيمة بن عوف الخط وأفناءها.

ونزلت شن بن افضى بن عبد القيس طرفها وادناها إلى العراق.

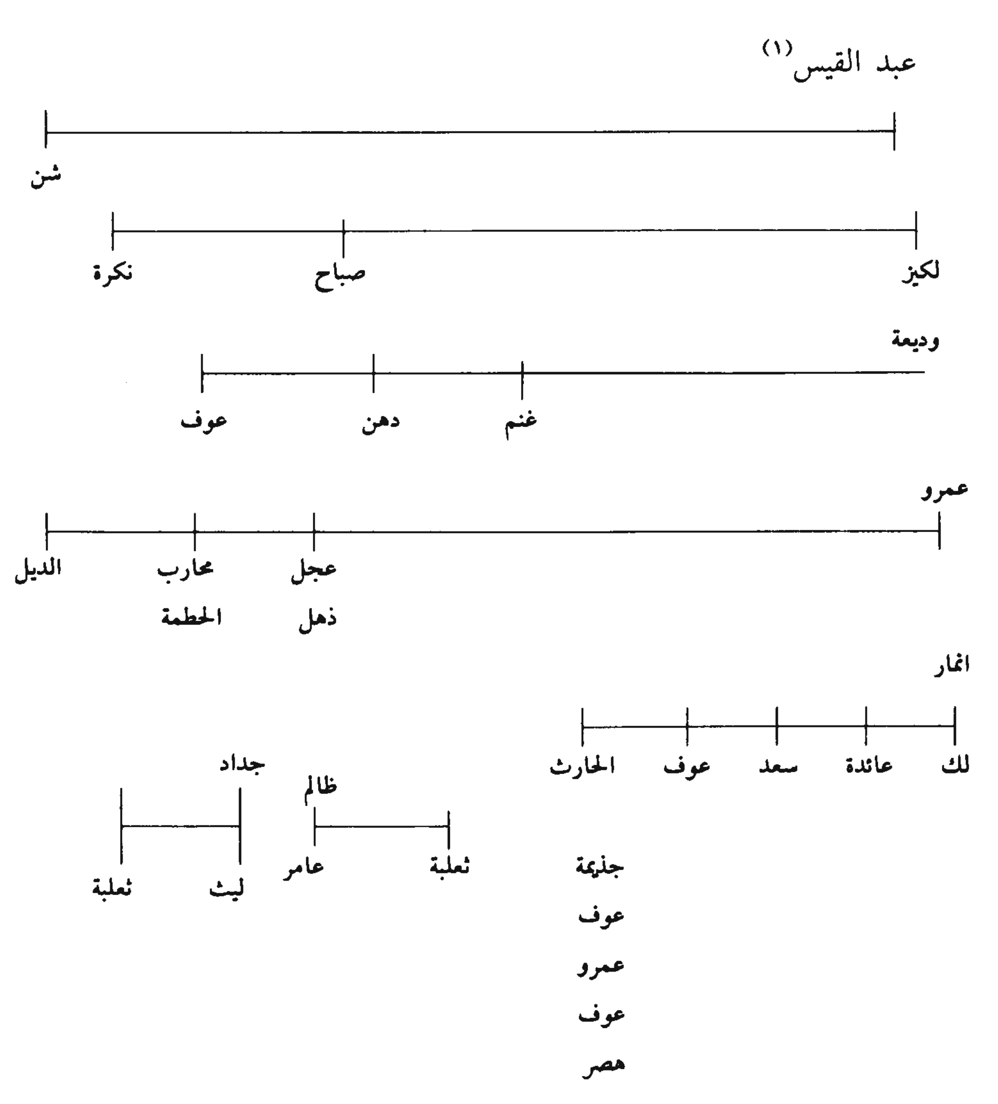
ونزلت نكرة بن لكيز بن أفضى بن عبد القيس وسط القطيف وما حولها، وقال ابن شبه نزلت نكرة الشفار والظهران إلى الرمل وما بين هجر إلى قطر وبينونة.

ونزلت عامر بن الحارث، والعمور وهم الديل بن عمرو، ومحارب بن عمرو وعجل بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن افضى ومعهم عمير بن أسد بن ربيعة حلفاء لهم الجوف والعيون والأحساء حذاء طرف الدهناء وخالطوا أهل هجر في دارهم[٣].

وذكر ابن الفقيه اسماء اثنتين وعشرين قرية بالبحرين لبني محارب وقال إن قرى بني عامر اضعاف هذا[٤].

(١) فتوح البلدان ٧٧.
(٢) معجم ما استعجم ٨٦.
(٣) معجم ما استعجم ٨٠ ـ ٨٢.
(٤) البلدان لابن الفقيه ٧٠.

عبد القيس[1]



وذكر ابن سعد أن الوفد الذي قَدِم على الرسول من البحرين كان عشرين رجلاً، وعدَّد أسماءهم وعشائرهم، ومنهم ثمانية من عصر، وثلاثة من ظفر وثلاثة من بني عبيد، وثلاثة من غنم، وواحد من كل من وديعة وعمرو بن عوف[2].

---

(١) الانساب لابن حزم ٢٩٥ ـ ٦، ٤٩٦.
(٢) ابن سعد ٥/٤٠٦.

بكر

ومن القبائل العربية في البحرين بكر بن وائل، ويذكر البلاذري أنها إحدى القبائل الثلاثة التي تقيم في باديتها[1]، ويذكر ابن الحائك الهمداني أن بكراً ديارها من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة إلى البر فأطراف السواد[2].

ومن عشائر بكر في البحرين بنو قيس بن ثعلبة. ومن رجالهم الحطم الذي قاد حركة الردة معتمداً بالدرجة الأولى على بني بكر. وأبرز عشائرهم قيس بن ثعلبة ومنهم ضبيعة، وربيعة (بني جحدر)، وسعد، وعباد. وقد ظهر في ضبيعة عدد من الشعراء البارزين قبل الإسلام منهم المرقَّش، وطرفة بن العبد وعمرو بن قَمِيئة[3]. ويدل ظهور هؤلاء الشعراء على مدى ازدهار الحركة الفكرية فيهم.

أما بنو جحدر، فلم يرد ذكر لدور بارز لهم عند ظهور الإسلام، ولكن أصبحت لهم مكانة بارزة في البصرة حيث وُلّيَ المسامعة وهم من جحدر رئاسة بكر فيها.

تميم

أما تميم، فكانت أبرزُ عشائرها في البحرين بني دارم، وهم من بني مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة، ولهم بطون كثيرة أبرزها: بنو عبد الله وبنو مجاشع، وبنو نهشل، وبنو الفقيم، وبنو ابان. وكان منهم عدد لهم علاقة بمكة وبالرسول (ص). ومنهم سويد بن ربيعة الذي لجأ إلى مكة وحالف بني نوفل، وعطارد بن حاجب الذي وَفَدَ على الرسول (ص)، والأقرع بن حابس وهو من المؤلَّفةِ قلوبُهم[4].

---

(١) فتوح البلدان ٧٧.
(٢) صفة جزيرة العرب ٢٨٤، الانساب لابن حزم ٣١٩.
(٣) الانساب لابن حزم ٣١٩.
(٤) الانساب لابن حزم ٢٣٠.

وأبرز رجال بني دارم في البحرين، عندما امتد الإسلام إليها، هو المنذر بن ساوى[١]، ويُذكر في المصادر باسم الاسبذي، وقد وردت عن هذا الاسم معلومات متباينة. ينقل ابن ماكولا عن هشام بن الكلبي قوله: «إنما قيل الاسبذيون لأنهم كانوا يعبدون فرساً، ويقال بل هي مدينة يقال لها «اسبذ» كان نزلها فنسبت له. وقال الهيثم بن عدي إنما قيل لهم اسبذيون أي الجماع، وهم من بني زيد بن عبد الله[٢]. ونقل ابن منظور عن ابن الأثير: قيل انهم كانوا مسلحة لحصن المشقر من أرض البحرين، الواحد اسبذي والجمع الأسابذة[٣]، ويذكر ابن حزم أنهم نسبوا إلى قرية في هجر[٤].

إن كلمة «اسبذ» غير عربية، وقد تكون مشتقة من «أسب» وهو الحصان بالفارسية، ولعل هذه حجة من ادَّعى أن الاسبذيين كانوا يعبدون الخيل، وهو ادعاء واهٍ لأنه لم يُعرف عن العرب أو غيرهم عبادة الخيل. وقد يكون اشتقاق الكلمة من «سبيذ» أي «الأبيض». غير أنه لا توجد إشارة إلى سبب تسميتهم بهذا الاسم.

وقد ورد في أحد كتب الرسول: «من محمد النبي رسول الله لعباد الله الاسبذيين ملوك عمان، واسبذ عمان من كان منهم بالبحرين»[٥]. ويظهر من هذا الكتاب أن الاسبذيين كانوا آنذاك ملوك عمان وأن منهم فرعاً يقيم في البحرين. غير أن المصادر لا تذكر صلة المنذر بن ساوى وعشيرته بني دارم بعمان.

وكان بنو دارم يسكنون هجر واختلطوا بأهلها ثم «قَدِموا البصرة مع عبد القيس فسُمُّوا الهجريين»[٦].

---

(١) فتوح البلدان ٧٧، ابن حزم ٢٣٣/٤٦٧ الاكمال لابن ماكولا ١/١٢٠.
(٢) الاكمال ١/١٢٠.
(٣) لسان العرب ٥/٢٦.
(٤) ابن حزم ٢٣٢.
(٥) الوثائق السياسية ٨٩، وانظر الطبري ١/١٩٥٩.
(٦) الاشتقاق لابن دريد ٢٣٤.

وكان الانتماء القبلي سائداً عند العرب في البحرين، غير أن الرابطة القبلية لم تكن قوية جامعة، فلم يُعرف عن قبائلهم رئيس واحد يجمعهم أو منظمة تَشُدُّهم، وإنما كانوا متفرقين في مساكنهم وحِرَفهم، ولهم رؤساء متعددون، ولا ريب أن كثرة المدن التي أنْمَت الحياة الحضرية أضعفت الروابط القبلية وكان لها أثر في حياتهم الاجتماعية والسياسية.

ولا يخفى أن عدداً من أبرز شعراء الجاهلية كان من أهل البحرين، ومنهم طرفة بن العبد والحارث بن حلزة.

الأعاجم

ذكرت المصادر أنه كان في البحرين عند ظهور الإسلام مجوس، أي معتنقون للزرادشتية. والراجح أنهم كانوا من الفرس، إذ لم يعرف عن العرب اعتناقهم للزرادشتية، وقد أشار الجاحظ إلى أن المجوسية دين جامد غير تبشيري، وأن الناس لا تُقبل على اعتناقه، وكان أكثر المجوس يقيمون في البحرين[١].

اليهود والنصارى

ورد ذكر لوجود اليهود في البحرين[٢] وهم يُذكرون مقرونين بالمجوس واقتصرت المصادر عند ذكرهم على القول بأنهم لم يعتنقوا الإسلام ولكن دفعوا الجزية. والراجح أنهم دخلاء وفَدُوا على البحرين وتفرقوا في مدنها وخاصة في هجر والمرافئ. وقد ذكر طرفة بن العبد في معلقته مالكَ سُفُنٍ اسمُه ابن يامن. ويدل هذا الاسم الشائع عند اليهود أن اليهود كانوا يعملون في التجارات البحرية، وبعضهم كان غنياً ومالكاً كبيراً، ولعلَّ إلى هذا الزمن المبكر يرجع اليهود الراذانية الذين ذكر ابن رستة أنهم كانوا يركبون من الفرات إلى بغداد،

---

(١) ابن سعد ١ ـ ٢٧/٢، فتوح البلدان ٧٧، ٧٩، ٨٠، ٨٤، ٩٦، الأموال لأبي عبيد ٣١ ـ ٣٢.

(٢) ابن سعد ١ ـ ٢٧/٢، فتوح البلدان ٧٧، ٧٩.

ثم يركبون في دجلة إلى الأبلّة، ومن الابلة إلى عمان والسند والهند والصين، كل ذلك متصل بعضه ببعض[1] ومن المعلوم أن السير من الابلة إلى عمان يقتضي المرور بالبحرين.

وانتشرت النصرانية في البحرين، فذكر البلاذري أن النصارى والمجوس واليهود دفعوا الجزية ولم يسلموا[2]. وكان الجارود ورئاب بن البراء، وهما من وفد عبد القيس إلى الرسول (ص)، كانا نصرانيين من قبل[3]. وذكر الطبري أن احد الرهبان من هجر انضم إلى المسلمين بعد فتحها واسلم[4].

ويلاحظ أنه، عندما انضمت الكنيسة النسطورية في المشرق، وُضعت في قطر احدى المطرانات الست للكنيسة النسطورية، مما يُظهر نشاط النساطرة في نشر المسيحية في البحرين. وجمع لويس شيخو، في كتابه النصرانية في بلاد العرب، كثيراً من المعلومات التي أراد الاستدلال بها على سعة انتشار النصرانية، ولا ريب في أنه بالغ في سعة هذا الانتشار. ولكن من الواضح أن أكثر معتنقيها كانوا من العرب من أهل البلاد، وأن ايمانهم بها لم يكن عميقاً، فلما جاء الإسلام، تركوا النصرانية واقبلوا على اعتناقه.

الحكام والولاة في البحرين

كان الساسانيون قد استولوا على البحرين وظل حكمهم فيها إلى أن أزاله الإسلام. وذكرت المصادر ثلاثة حكام منهم عند ظهور الإسلام وهم المكعبر وسيبخت ومرزبان الزارة.

أمّا المكعبر، فاسمه فيروز بن جشنس، وصفه الطبري بأنه عامل فارس على البحرين، وهو الذي قتل التميميين الذين اعتدوا على القوافل الفارسية بين اليمن

(١) الاعلاق النفيسة لابن رسته ١٥٤.
(٢) فتوح البلدان ٧٧، ٧٩.
(٣) الاشتقاق ٣٢٥.
(٤) الطبري ١/ ١٩٧٤.

والعراق[١]. وذكر أيضاً أنه تقرَّب من عبد القيس[٢]. ولعله فعل ذلك لتقوية مكانته عندما شعر بضعف الساسانيين.

يذكر البلاذري أن المُكَعْبر الفارسي، صاحب كسرى، تحَصَّن في الزارة وانضم إليه المجوس الذين كانوا قد تجمعوا بالقطيف وامتنعوا من دفع الجزية[٣] والراجح أن المكعبر هو مرزبان الزارة نفسه الذي لم تذكر المصادر اسمه، ولكنها ذكرت مقاومته للإسلام، وأن البراء بن مالك قتله وأخذ سَلَبَهُ الذي بلغت قيمته ثلاثين ألف درهم[٤]. وتَحَصُّن المرزبان في الزارة راجع إلى ضرورة عسكرية، ولا يستلزم بالضرورة أنها كانت مركزاً ادارياً.

أما سيبخت فإن البلاذري يذْكُر أنه كان مرزبان هَجَر، وأنه أحد اثنين وَجَّه إليهما الرسول (ص) كتاباً يدعوهما إلى الإسلام. والثاني هو المنذر بن ساوى[٥]. ويذكر ابن سعد سيبخت بن عبد الله صاحب هجر[٦]. ويظهر من هذين النصين أن سيبخت كان على هجر، وأنه دان للإسلام ودولته عندما أدرك قوتهما ولا بد أنه قد رأى ميل العرب إلى الإسلام ودولته، فخشِيَ على مكانه فسارع إلى إعلان طاعته للإسلام.

وأشارت بعض المصادر إلى أن الرسول (ص) وَلَّى أبان بن سعيد بن العاص على الخط والعلاء بن الحضرمي على هجر[٧]، وهذا يدل على أن البحرين كانت مكونة من قسمين إداريين هما هجر والخط التي عند القطيف[٨].

---

(١) الطبري ١/ ٩٨٥.
(٢) الطبري ٢/ ٨٢.
(٣) فتوح البلدان ٨٤.
(٤) الأموال لأبي عبيد ٣١، ٣١٣، وانظر تاريخ خليفة ٩٢.
(٥) فتوح البلدان ٧٧.
(٦) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٢٧.
(٧) المحبر ١٢٦.
(٨) معجم ما استعجم ١٢١١.

وقد أشار الرسول (ص) إلى أهل البحرين في كتبه[١]، مما يدل على ضعف الحكام فيها وقوة السكان وأثرهم في توجيه سياستها.

اتصال الرسول (ص) بالبحرين

كانت بين البحرين ومكة عندما ظهر الإسلام علاقات تجارية محدودة لأن أهل البحرين كانوا معنيين بتجارة الخليج العربي، وخاصة بين بلاد المحيط الهندي والعراق. أما أهل مكة، فكان اهتمامهم بالتجارة بين اليمن وبلاد الشام والبحر الأبيض المتوسط؛ ولم يرِدْ ذكرٌ لاتصال الرسول (ص) بأهل البحرين إِبَّان دعوته للإسلام في مكة أو في السنوات الأولى من الهجرة حين كان منشغلاً في تثبيت دولة الإسلام ومقارعة مشركي قريش. ولما عَقَدَ صلح الحديبية، ثم فَتَح مكة، وضمَّ أهلها إلى الإسلام، ازداد اهتمامه بتوسيع الدولة ونشر الإسلام في أقاليم الجزيرة وأطرافها، فأرسل الكتب إلى الحكام والملوك، واستقبل الوفود من مختلف أقاليم الجزيرة وعشائرها؛ وكانت البحرين من الأقاليم التي اتصل بها، ويذكر ابن سعد أن الرسول (ص)، عند منصرفه من حصار الطائف، بعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى بالبحرين يدعوه إلى الإسلام وذكر أيضاً أن الرسول (ص) كتب إلى الهلال صاحب البحرين يدعوه إلى الإيمان بالله والطاعة والدخول في الجماعة[٢]. ولم أجد في الكتب معلومات عن هلال هذا.

وكتب إلى سفيان بن همام بن علي بن ربيعة بن قحطان من بني زفر بن زفر وبني شجر[٣]، وإلى سيبخت صاحب هجر وقومه[٤]، وإلى أهل هجر يعلمهم بمجيء وفدهم[٥] كما كتب إلى «الأكبر بن عبد القيس» وإلى عبد القيس

---

(١) فتوح البلدان ٧٧ ـ ٧٨.

(٢) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٢٧.

(٣) تاريخ المدينة لابن شبه ٢/ ٥٩٠.

(٤) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٣٧.

(٥) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٧ فتوح البلدان ٧٩.

وحاشيتها من البحرين وما حولها[1]. وكل هذه الكتب أُنفذت بمبادأة من الرسول (ص) عدا كتابه إلى سيبخت الذي كان أجابة عن كتاب أرسله سيبخت إلى الرسول (ص). غير أن الكتب الثلاثة الأخيرة لم تُوَجَّه إلى أفراد أو رؤساء، وإنما وُجِّهت إلى جماعات هم أهل هجر، وبنو الأكبر بن عبد القيس، وإلى عبد القيس وحاشيتها، علماً بأن هجر كان لها حكام وجّه الرسول إليهم رسائل، كما أن عبد القيس كانت متفرقة في عشائرها ومساكنها، ولم يُذكر لها رئيس منفرد.

حدّد ابن سعد زمن توجيه الرسول (ص) الكتاب إلى المنذر بن ساوى بأنه حدث بعد انصراف الرسول من حصار الطائف[2]. ولا شك أن بقية الكتب أرسلت بعده، أي إبّان السنة التاسعة من الهجرة أو بعدها.

ذكرت هذه الكتب بعض ما طلب الرسول (ص) أداءه من البحرين، وهي تميز بين صنفين أساسيين: ما فُرِض على من أسلم، وما فُرِض على من لم يسلم.

فأما ما وضع على المسلمين، فإنّ الروايات غير متفقة عليها. فقد ذَكَر البلاذري كتاباً ذَكَر بأن المسلمين «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»[3]. وذَكَر كتاباً آخر قال فيه الرسول (ص): «على أن يكفونا العمل ويقاسمونا الثمر»[4]، دون أن يُحَدِّد نسبة المقاسمة. وذَكَر كتاباً ثالثاً قال فيه الرسول (ص): «وآتيتم عشر النخل ونصف عشر الحب». ويَذْكُر في رواية أخرى أن الرسول طلب أن يأخذ من المسلم العشر، ومن المشرك الخراج. ونَقَل عن قتادة أنه صالحهم على أنصاف الحب والثمر[5]. إن تباين المعلومات في هذه النصوص قد يكون مرجعها تنوع الضرائب، أو خطأ المعلومات المروية.

---

(١) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٣٢.

(٢) ابن سعد ١ ـ ٢/ ١٩.

(٣) فتوح البلدان ٨١.

(٤) كذلك ٧٧.

(٥) كذلك ٧٨.

وذكر ابنُ سعد أن الرسول (ص) وجَّه إلى العلاء كتاباً فيه فرائض الصدقة من الإبل والبقر والثمار والأموال يَصْدُقُهم على ذلك، وأمره أن يأخذ من أغنيائهم ما يردُّه على فقرائهم[1]. ولم يذكر ابن سعد هذه الفرائض التي يشير النص إلى أن حصيلتها تُصْرف داخلياً ولا ترسل إلى المدينة.

أما ما فرضه الرسول على غير المسلمين في البحرين فقد ذكر البلاذري أن الرسول (ص) كتب إلى المنذر بن ساوى يقول: «من أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية». وذكر أيضاً أنه «فرض الجزية على كل (فرد) دينار»[2]. وذكر كتاباً آخر فيه: «من لم يسلم فعليه دينار من المعافري»[3] وتقدير الجزية في هذين الكتابين بالدينار قد يدل على مجانبتها للصواب، إذْ أن العملة الأساسية في أقاليم المشرق ومنها البحرين، كانت الدرهم الفضي وليس الدينار الذهبي. أما الدينار المعافري، الذي ورد ذكره في أحد هذه الكتب، فقد يدل على ارتباطه باليمن. غير أنه لا توجد إشارة في أي مصدر إلى هذا الدينار.

وروي أن الرسول (ص) طلب من العلاء قائلاً: «افرض على كل رجل ليس له أرض أربعة دراهم وعباءة»[4]. ان تقدير الضريبة بالدراهم ينسجم مع الوضع الاقتصادي العام فيها، وتقديرها بالنقود والسلع قد يدل على ازدهار صناعة النسيج في البحرين، وعلى قلة النقود في البحرين.

وورد في أحد الكتب «أن مال بيت النار لله ورسوله، وان عشور الثمر صدقة ونصف عشر الحب، وأن لهم أرْحاءَهم يطحنون بها ما شاؤوا»[5] غير أن تنفيذ الشطر الأول من هذا الكتاب يتطلب سلطة واسعة لم تتوافر للمسلمين في البحرين زمن الرسول.

---

(١) ابن سعد ١ ـ ٢/٧٦.
(٢) فتوح البلدان ٧٧.
(٣) كذلك ٨١.
(٤) انظر الوثائق السياسية ٨٧.
(٥) كذلك ٩٠.

وذكر ابن سعد أن اول مال ورد المدينة كان خراج البحرين وهو سبعون ألفا، وروي أيضاً أن العلاء بن الحضرمي جاء النبي بثمانين ألفاً[1]، وهو مبلغ غير كبير عند مقارنته بكثرة المدن في البحرين وما فيها من نشاط اقتصادي.

تُظهر الكتب التي وجّهها الرسول (ص) إلى البحرين الأمور التالية:

١ ـ كانت في البحرين عدة مراكز قوى أبرزها «الكبير» و«أهل هجر» و«سيبخت»، أي أن السلطة كانت مُوَزَّعة في عبد القيس، وهجر اللذين لم يُذْكر رؤساؤهما، و«الأكبر بن عبد القيس» الذي لم تُذكر هويته، و«سيبخت عامل البحرين لكسرى» ولم يُذْكر نطاق سلطانه، وإن كان ما ذُكِر في نصوص أخرى يشير إلى أن سلطانه كان مقصوراً على الزارة وعلى القوات الساسانية الموجودة في البحرين. غير أن أبرز من كانت له السلطة هو «المنذر بن ساوى» وإن لم تحدد الكتب امتداد سلطانه.

٢ ـ كان عدد اليهود والمجوس قليلاً ودورهم ضئيلاً، ولم يُذكر لهم رؤساء، أما النصارى، فإن المصادر لا تَذْكر اتصال الرسول (ص) بهم.

٣ ـ إن المبادأة في الاتصال كانت من أهل البحرين فقبلها الرسول (ص).

٤ ـ أبقى الرسول الرؤساء السابقين ولم يستبدِلْ بهم، ولكن طلب إليهم تلبية دعوة الإسلام وتأمين سلامة من يرسلهم ونصرتهم، ووعدهم بتأمين سلامة طرق التجارة وإشراكهم في الفيء. ولعل المقصود به الفيء الذي تحصُلُ عليه فعاليات يشارك فيها أهل البحرين، وليس كل الفيء الذي تحصل عليه دولة الإسلام. ويطلب الرسول (ص) في أحد كتبه إلى المنذر أن يفرض على من ليس له أرض أربعة دراهم وعباءة.

٥ ـ طلب الرسول في بعض الكتب أن تجبى الجزية من اليهود والمجوس، وهي محددة في أحد الكتب بدينار أو قيمته من المعافري. ويذكر في أحد الكتب أن يُرْسل ما يجبى من الجزية إلى الرسول مع من يرسلهم لهذا الغرض،

(١) ابن سعد ٤ ـ ٩/٢، وعن ورود المال انظر الاموال لابي عبيد ٣٣.

واذا صح هذا الكتاب فان الجباية كانت قليلة بدليل أن الدولة في المدينة كانت بحاجة إلى المال.

طلب الرسول في الكتاب المذكور أعلاه من العلاء أن يبعث بالجباية، ولعل ذلك راجع إلى أن الأحوال تقضي ببقائه في البحرين وعدم مغادرتها، ولم يذكر الكتاب من تُبْعث معه الأموال، غير أن كتاباً آخر للرسول (ص) وجهه إلى العلاء وقال فيه إني قد بعثت اليك قدامة وأبا هزيمة فادفع لهما ما اجتمع من جزية أرضك[1]. ولعل هذا الكتاب مُوضِحٌ لِمَا سبقه، وان الرسول (ص) أوفد من يحمل ما اجتمع من المال إلى المدينة.

تتفق المصادر على أن الرسول (ص) وجّه إلى البحرين العلاء بن الحضرمي. وقد اكتفت معظم المصادر بذكر الجهة التي وُجّه إليها دون تحديد نطاق عمله، فذكرت بعض الكتب أنه وُجِّه إلى المنذر بن ساوى[2]، وذَكَر بعضها أنه وُجِّه إلى أهل البحرين[3]. غير أن أحد كتب الرسول (ص) حدّد عمل العلاء بأنه «أمين رسول الله على برها وبحرها، وحاضرها وسراياها وما خرج منها، وأهلُ البحرين خفراؤه من الضيم، وإخوانه في الحكم، والقصد في السيرة، حُكمٌ لا تبديل له في الفريقين»[4]. وأقرب ما تدل عليه كلمة «أمين رسول الله» أنه مندوب الرسول (ص) ومعتَمَدُه ومُمَثِّله، لا انه الحاكم الذي يمارس السلطة مباشرة.

ولاة الرسول (ص)

وردت في المصادر أخبار متباينة عن ولاة البحرين في آخر حياة الرسول. يروِي ابن سعد أنه عندما أسلم أهل عمان بعث الرسول إليهم العلاء بن

(١) ابن سعد ١ ـ ٢/٢٨، الوثائق السياسية ٨٧.
(٢) ابن سعد ١ ـ ٢/١٩.
(٣) فتوح البلدان ٧٧ ـ ٨، المحبر ٧٧.
(٤) ابن سعد ١ ـ ٢/٣٢ ـ ٣.

الحضرمي[1]، ولم يذكر: هل كان إرساله إلى عمان عملا إضافياً لعمله في البحرين، أم أنه كان يشغل العملين معاً، وقد ذكر ابن سعد أن الرسول عزل العلاء وَوَلّى أبان بن سعيد على البحرين[2]. ولم يذكر سبب عزل العلاء الذي تدل الأخبار على أنه كان موفَّقاً في عمله الواسع.

وتذكر بعض المصادر أن عمَّال الرسول عند وفاته كانوا: أبان بن سعيد على الخط، والعلاء بن الحضرمي على القطيف[3]. ولكننا نشك في هذه الرواية لأنه لا دليل على امتداد الإسلام إلى الخط، وتمكُّنه فيه مما يتطلب والياً خاصاً له. والأرجح أن العلاء بقي في البحرين إلى أن التاثت الأمور على أثر وفاة الرسول فعاد إلى المدينة، ثم أعاده أبو بكر إلى البحرين لتأمين سيطرة الإسلام ودولته عليها.

وفد على الرسول (ص) من البحرين عشرون رجلاً من عبد القيس ذكر ابن سعد أسماءهم وعشائرهم، ومنهم ثمانية من عصر، وثلاثة من كل من ظفر، وعبيد، وغنم، وواحد من كل من وديعة وعمرو بن عوف. وقد أعلن هؤلاء الرجال إسلامهم، وأكرمهم الرسول، ويبدو أنهم ظلوا متمسكين بالإسلام ولم يرتدوا، غير أن المصادر لم تذكر مَوَاطِن سكناهم في البحرين، وأثرهم في نشر الإسلام في مناطق سكناهم، إلا أن أخبار ردة البحرين تدل على ضعف دورهم.

انفرد المنذر بن ساوى بتعدُّد الكتب التي أرسلها إليه الرسول. فقد أرسل اليه كتاباً مع العلاء الحضرمي يدعوه إلى الإسلام، وكتاباً آخر دعاه فيه إلى طاعة من يبعثهم الرسول (ص)، وأن هؤلاء أثنَوْا على المنذر، ثم يقول له: «وإني قد شَفَّعْتُك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، ومن اقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية». ويبدو

(1) ابن سعد ١ ـ ٢/ ٨٢.
(2) ابن سعد ٤ ـ ٢/ ٧٢.
(3) المحبر ١٢٧، انساب الأشراف ١/ ٣٩.

أن هذا الكتاب جواب عن كتاب أرسله المنذر يقول فيه إني قرأت كتابك على أهل هَجَر، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضِيَ مجوسٌ ويهود فأَحْدِثْ إليَّ في ذلك أمرك»[١].

ان معظم الكتب موجهة إلى المنذر بن ساوى، وأكثرها يتعلق بهجر، مما يدل على أنها المركز الرئيس الذي دان بالإسلام.

روى ابن سعد أن الرسول (ص) قال في كتاب أرسله إلى العلاء بن الحضرمي «أما بعد، فإني قد بعثت إلى المنذر بن ساوى من يقبض منه ما اجتمع عنده من الجزية، فعجِّلْ بها وابعث معها ما اجتمع عندك من الصدقة والعشور»[٢]، ويتبين من هذا أن العلاء كان يقوم بجمع الصدقة والعشور، بجانب المنذر الذي يقوم بجمع الجزية، أي أن العلاء كان يَجْبي من المسلمين، والمنذر يَجْبي من غيرهم. ويلاحَظ ان المنذر انفرد عن حكام البحرين بدفع ما يجتمع عنده.

ان المنذر بن ساوى من بني عبد الله بن زيد بن عبد الله بن دارم[٣]، وكان يحكم هجر. ويذكر ابن حبيب ان «المشقر بهجر، ملوكها من بني تميم من بني عبد الله بن زيد رهط المنذر بن ساوى»[٤]. والراجح أن ولايته ترجع إلى مواهبه الشخصية وليس إلى أسس قبلية: لأن هجر، وإن كان أغلب سكانها من العرب، إلا أنه لا إشارةَ إلى أنهم كانوا مقصورين على بني تميم. ولما كانت مركزاً حضَريًا، فلا شك أن فيها عدداً من غير العرب، وأن تنظيماتها أقرب إلى التنظيمات الحَضَرية. ومن هذا أصبح اسمها علامة لأهلها، فكانوا يُسَمَّون «الهجريين» أو «أهل هجر»، ولا يُسَمَّون بعشائرهم. ولا شك أن عبد القيس، وهم أكبر العشائر المقيمة في البحرين، كانوا جزءاً كبيراً من سكان هجر. وأن المنذر بن ساوى كان يدرك تنوع سكان أهل هجر وتعدُّد عشائرهم،

---

(١) ابن سعد ١ ـ ١٩/٢، وانظر الوثائق السياسية ٨٢.
(٢) ابن سعد ١ ـ ٢٨/٢، وانظر الوثائق السياسية.
(٣) الانساب لابن حزم ٢٣٢، الاكمال لابن ماكولا ١٢٠/١.
(٤) المحبر ٢٦٠، فتوح البلدان ٧٧.

وتعدد التيارات الدينية والحضارية القائمة في هجر. وهو تنوع لم يفلح في اجتثاثه وكان مصدر قلق لسلطانه، فلما ذاع صيت الإسلام واستجابت له عبد القيس، وهي أكبر عشائر البحرين، أَدْرَكَ أهمية الإسلام وسلامة أفكاره، فَعَمِل على الارتباط به.

الانشقاق والردة

توفي المنذر بن ساوى في الشهر الذي توفي فيه الرسول (ص)، دون أن يُعَيِّن مَنْ يخلفه في مكانه، وكان أبو بكر منشغلاً في تثبيت سلطان الخلافة التي هددتها حركات الردة والانشقاق والتمرد، فلم تَتَسنَّ له معالجة السيطرة على البحرين التي كانت بعيدة عن المدينة، وتفصِلُها أراضٍ واسعة قد التاث أهلها. وعلى أثر وفاته تفجرت الخلافات، ويروي المدائني أن أهل البحرين ارتدُّوا إلا نفراً لبثوا مع الجارود[1]. ولا شك أن هذا النفر هو من عبد القيس. ويقول البلاذري: وقد ارتد سائر مَنْ في البحرين من ربيعة خلا الجارود ومن تابعه من قومه[2].

وكانت أبرز حركة انشقاقية في البحرين حركةً تزعَّمها الحُطَم بن ضبيعة من بني قيس بن ثعلبة، الذي ضم إليه كثيراً من بني بكر بن وائل وعدداً من غير المرتدين ممن لم يزالوا كفاراً[3]. وسار إلى القطيف وهجر فسيطر عليهما، وجلب اليه الزط والسَّيَابِجَة ممن كان يقيم في الخط، وضم إليه أيضاً أهل دارين وكانوا من قَبْلُ ممالئين للمسلمين. كما ضم إليه الغرور بن سويد، ووعد الغرور بتمليكه على البحرين إذا نجح في السيطرة عليها، فانضم إليه الغرور وقاد قوة ممن معه حَصَرت المسلمين في جواثا وضيَّقت عليهم حتى كاد يفنيهم[4]، ولا ريب في أن هذا النشاط الواسع تطلب زمناً لإعداده وتنفيذه،

---

(١) تاريخ خليفة ٨٣.

(٢) فتوح البلدان ٨٢.

(٣) الطبري ١/١٩٦١.

(٤) يقول البلاذري انه المنذر بن مالك الحيرة النعمان بن المنذر: فتوح البلدان ٨٢.

فالراجح أن هذه الحركات بدأت إبَّان حياة المنذر بن ساوى، ثم توسعت بعد وفاته.

أرسل أبو بكر العلاء بن الحضرمي إلى البحرين ليعيد سيطرة الإسلام عليها. ويذكر ابن سعد أن العلاء خرج من المدينة مع قوة قوامها ستة عشر رجلاً[1]، وهي قوة صغيرة لا تستطيع وحدها إنجاز الواجب المطلوب منها، ولا بد أن أبا بكر كان يدرك ذلك، وكان يعتمد على القوات الممكن حشدها في طريق تقدُّمها، خاصة بعد أن أخضع خالدُ المرتدين، واستعادت الدولة سيطرتها على قبائل بني تميم التي كانت منازلها وديارها على الطريق بين المدينة والبحرين. ويذكر الطبري، نقلاً عن سيف، أنه انضم إليه قيس بن عاصم وعدد من عمرو وسعد الرباب[2].

ولا بد أن إنفاذ العلاء بن الحضرمي إلى البحرين قد كان بعد القضاء على ردة بني تميم، وربما كان بعد قضاء خالد بن الوليد على مسيلمة، أي في أواخر سنة اثني عشرة وربما في أوائل سنة ثلاثة عشرة. وقد وصلت هذه القوة إلى البحرين وانضم إليها مَنْ ثَبَتَ على الإسلام من أهل البحرين، غير أن الحطم حاصرهم في جواثا وضيق عليهم الحصار.

ثم انضم إليه ثمامة بن أثال ومَنْ كان صَمَد على الإسلام من بني حنيفة، ويبدو، من مجرى الحوادث، أن ثمامة قدِمَ البحرين بعد أن حوصر العلاء، وأن المسلمين استطاعوا، خلال ذلك، أن يحملوا أهل دارين على التخلي عن مساندة الحطم. وأفلحوا في جلب اللهازم من بكر إلى جانبهم، فازدادت قوتهم واستطاعوا فك الحصار عن هجر وقاموا بهجوم قوي مباغت قُتِل فيه الحطم، وتشتت قواته، وعاد معظم العرب من أنصاره إلى عشائرهم. أما مَنْ كان في دارين، فركِبُوا السفن ونجَوْا. والراجح أنهم من السيابِجَة والزّط الذين كانوا قد انضموا إلى الحطم[3].

---

(1) ابن سعد ٤ ـ ٢/٧٧.

(2) الطبري ١/١٩٦٣.

(3) انظر تفاصيلها في الطبري ١/١٩٦٠ ـ ١٩٧٦، فتوح البلدان ٨٣ تاريخ خليفة ٨٣.

أمَّنَ فكُّ الحصار عن جواثا وتشتُّت قوات الحطم قاعدة صلدة للمسلمين، وأزال عنهم الأخطار المهدِّدة ورَفَعَ مكانتهم، وأعاد لهم هيبتهم، لكنه لم يكن كافياً لاستعادة السيطرة على البحرين، فقد ظلت عدة مدن ومراكز خارج سيطرة المسلمين، وظلت في البحرين قوات مناوئة لدولة الإسلام، فكان لا بد من القيام بحركات أخرى لتأمين هذه السيطرة. ولم تذكر المصادر إمدادَ أبي بكر العلاءَ بْنَ الحضرمي بقوات جديدة، الأمر الذي يرجِّح أن العلاء اعتمد على القوات المحلية من عبد القيس، ومَن مالَ إلى الإسلام لاكمال السيطرة على البحرين.

كان انتصار المسلمين في جواثا انتصاراً كبيراً، ولكنه لم يكن حاسماً، فقد بقي المنشقون محتفظين برأسين من روؤسهما هما: المنذر الغرور، والقائد الفارسي.

أما المنذر، فانه، بعد قتل الحطم، ظلَّ يتابع المقاومة ويقود العصاة فتابع العلاء ملاحقتهم والعمل للقضاء عليهم. واختلفت الروايات في مصير المنذر، فذكر بعضها أنه قتِل يوم جواثا، وذكرت رواية أنه استؤمن. وفي رواية ثالثة أنه، بعد اندحار المرتدين في جواثا، انسحب إلى الخط، فلحقه العلاء وفتح الخط وقتل المنذر. ويذكر البلاذري رواية أخرى مضمونها أن المنذر تحصن بالمشقر ثم صالحه العلاء على أن يخلي المدينة فاخلاها ولحق بمسيلمة وقتل معه. والشطر الأخير من هذه الرواية غير صحيح لأن مسيلمة قتل في زمن خلافة أبي بكر، بينما جرى فتح المشقر زمن خلافة عمر بن الخطاب[(١)].

وذكر ابن سعد أن العلاء، بعد أن قضى على مَن في حصن جواثا سار إلى القطيف وبها جَمْعٌ فقاتلهم فانهزموا فانضمت الأعاجم إلى الزارة، فأتاهم العلاء فنزل الخط على ساحل البحر فقاتلهم وحاصرهم إلى أن توفي أبو بكر[(٢)].

أما المُكَعْبِر الفارسي، فقد انسحب إلى الزارة، فتقدم العلاء إليه وفتح في

---

(١) فتوح البلدان ٨٣.

(٢) ابن سعد ٤ ـ ٢/٧٧ ـ ٧٩، سير اعلام النبلاء ٢/٢١٢.

طريق تقدمه قرىً من السابور والغابة، ثم حاصر الزارة وأجبره على الاستسلام وكان ذلك في أول خلافة عمر[١]. ويروي خليفة عن أبي عبيدة أن أهل الزارة صالحوا العلاء على أن لهم ثلث المدينة، وثُلُث ما فيها من الذهب والفضة[٢]. ويضيف البلاذري إلى هذا أن في الصلح أيضاً أن العلاء يأخذ ما كان لهم خارجها[٣].

ثم تقدم العلاء مع القوات الإسلامية إلى دارين، وكانت في جزيرة من البحر تبعد عن الساحل مسيرة يوم، يفصلها عن الساحل خليج ضحل المياه. فلما اقترب منها العلاء هرب المرتدون وأخلَوْها[٤]. ويروي ابن سعد أن العلاء قاتل أهل دارين، وقَتَلَ مقاتليهم، ثم بعث عرفجة إلى الساحل فاستولى على ما فيه من سفن، واتخذ في احدى الجزر مسجداً[٥].

وفي سنة ١٥هـ نقل الخليفة عمر بن الخطاب العلاء بن الحضرمي إلى البصرة ولكنه توفي قبل وصوله إليها، فعيّن عمرُ على البحرين عثمان بن أبي العاص الثقفي، وكان من أهل الطائف. وقد ولاه الرسول (ص) عليها وظل في عمله إلى أوائل خلافة عمر حين وُلِّيَ البحرين وعمان، فَجَعل عثمان أخاه الحكم بن أبي العاص على البحرين خليفةً له ثم غزا بأهل عمان والبحرين إقليم فارس، فنزل توّج من الساحل الشرقي من الخليج العربي، وظل عثمان في ولاية البحرين إلى زمن خلافة عثمان بن عفان حين ربطت ادارة البحرين بالبصرة.

* * *

(١) ابن سعد ٤ ـ ٧٨/٢، فتوح البلدان ٨٤، تاريخ خليفة ٩٢.
(٢) تاريخ خليفة ٩٢ ـ ٩٣.
(٣) فتوح البلدان ٨٤.
(٤) ياقوت ٤٣٢/٢.
(٥) ابن سعد ٤ ـ ٧٩/٢، سير اعلام النبلاء ٢١٢/٢.

الفصل السادس والثلاثون

عُمان
وحركات الانشقاق فيها

الأرض

يقع اقليم عُمان في الجنوب الشرقي من شبه جزيرة العرب، ويمتد على ساحل بحر عُمان من مضيق هرمز إلى البحر العربي، حيث يتصل بإقليم مهرة وتمتد في وسطه سلسلة الجبل الأخضر، فتحصر بينها وبين البحر سهلاً ساحلياً ضيقاً تخترقه عدة وديان تجري من سفوح الجبال إلى البحر، وتجري فيها مياه الأمطار القليلة التي تسقط على هذه السفوح، وتكون هذه الوديان منافذ للمواصلات بين البحر والجبال.

أما الجبال، فهي تمتد بشكل قوس مُوَازٍ للبحر، عريضٍ في الوسط، وتختلف ارتفاعات قممها، فتبلغ أعلاها ثلاثة آلاف متر، وسفوحها المواجهة للبحر سهولٌ رطبة تنبت فيها بعض الأشجار الصحراوية والأعشاب. أما السفوح الغربية المقابلة للصحراء، فهي جرداء تكاد تخلو من النبات. وتتوافر في هذه الجبال بعض المعادن، وخاصة النحاس الذي كان يُصدَّر في القديم إلى عدد من البلاد المجاورة ومنها العراق، وبلاد الهضبة الايرانية، والهند.

والمناطق الغربية من عمان أراضٍ صخرية تغطي بعض أجزائها الرمال،

وتمتد إلى الرُّبع الخالي. وهي مناطق جافة ليس فيها إلا قليل من الآبار المتفرقة.

المنتوجات والملاحة

تقع عُمان على مدار السرطان: فهي من المناطق الصحراوية الجافة، والأمطار فيها نادرة، والمياه شحيحة، فليس فيها أنهار، كما أن وديانها لا يجري فيها إلا قليل من المياه: فالنباتات فيها قليلة، وأكثر ما فيها الأعشاب التي تنبت في فصل الربيع عند سقوط الأمطار، وكذلك بعض النباتات الصحراوية. وفي الوديان الساحلية حيث تتوفر المياه والرطوبة، تُزْرع بعض الخضر والقطن وأشجار الحمضيات والرمان والنخيل والموز والنبق وبعض الأعشاب الطبية، كالمُقْل والثامول والزنجبيل والكاذي. وقد يَسَّرت بعض هذه المنتوجات قيام صناعات أبرزها النسيج، وأهم مراكزها عند ظهور الإسلام مدينة صَحَار. وكانت الثياب الصحارية، وهي بيضاء مصنوعة من القطن، تُصَدَّر إلى عدد من بلاد الجزيرة، وربما إلى الهند وأفريقية. ويُروى أن الرسول (ص) كُفِّن بأثواب صحارية، وأهدى فروة بن مسيك المرادى حلّة من نسيج عمان[1].

كانت لعمان أهمية في الملاحة بسبب موقعها على الخليج العربي وامتداد سواحلها في مدخل الخليج وعند مدخل البحر العربي والمحيط الهندي، ونظراً لهذا الموقع ولملاءمة سواحلها لرسو السفن، كانت معظم السفن المبحرة بين العراق وشواطئ الخليج العربي، بين البلاد الواقعة على المحيط الهندي والشرق الأقصى، كانت ترسو في موانئ عمان، ولذلك اشتغل كثير من أهل عمان بالملاحة، وَوُصفوا بأنهم «مزون يجرّون القلس»[2]، والراجح أنهم كانوا يقومون أيضاً بصناعة السفن والتجارة البحرية.

وبسبب الملاحة والتجارة البحرية، ظهرت في عُمان موانئ كبيرة اشتهرت

(١) ابن سعد ١ ـ ٢/٦٣، ٥/٣٨٢ وانظر مقالنا عن مراكز النسيج المنشور في مجلة الأبحاث.
(٢) الكامل للمبرد ٦٢٨، أنساب الأشراف ١٠١ (طبعة هلورت).

منذ القديم مثل صحار، ومسقِط، وصور، ودبا. وكانت تقام في دبا سوق من أكبر أسواق العرب[١]. أما صحار، فظلت طوال عهود الازدهار الإسلامي «بها متاجر البحر وقصد المراكب»[٢]، ولم يكن على بحر الصين بلد أكبر منه[٣] وهي «أقدم مدن عمان وأكثرها أموالاً، قديماً وحديثاً، ويقصدها في كل سنة من تجار البلاد من لا يُحْصى عددهم»[٤]. وفي الزمن القديم كانت مراكب الصين تسافر منها[٥]. أما عمان، فكانت «أول ما يستقبل المراكب اليمنية»[٦] وبها مجتمع المراكب التي تخرج إلى البحر[٧]. أما المناطق الداخلية، فأغلب سكانها من البدو والرعاة. غير أن عدة مدن قامت فيها، ذُكر منها، في الأزمنة الإسلامية، نزوة التي كانت أكبر المدن الداخلية، وكانت تتبعها في الإدارة عدة مدن منها سحد، وسلوت، والسر، بالاضافة إلى عدد من مدن أصغر[٨].

السكان العرب

وسكان عمان من العرب، ولم تذكر المصادر جاليات أعجمية فيها، مما يدل على عدم وجودهم أو قلتهم فيها. وتذكر كتب الأنساب أن أهل عمان من الأزد، ومنهم عدد من بني سامة بن لؤى. ويذكر النسَّابون أن أزد عمان من القبائل اليمانية، وأن بني سامة هاجروا إليها من الحجاز، وهذه الروايات تعكس صلة أهل عمان بالمين وبالحجاز. ولعل هذه الصلة قامت على التجارة في الدرجة الأولى. والواقع أن ازد عُمان كوَّنوا عدة عشائر أهمها الحدان، وبنو

(١) المحبر ٢٦٥، تاريخ اليعقوبي ١/٣٣؛ الامتاع والمؤانسة للتوحيدي ١/٨٤؛ أسواق العرب في الجاهلية لمحمد سعيد الأفغاني ٢٦٤.

(٢) المسالك للأصطخري ٢٥٠.

(٣) أحسن التقاسيم للمقدسي ٩٢ ـ ٩٣.

(٤) نزهة المشتاق للأدريسي ٤٠.

(٥) المستبصر لابن المجاور ٢/٢٨٧.

(٦) المسالك للأصطخري ٢١٥.

(٧) انظر «عمان في العهود الإسلامية الأولى».

(٨) عمان في صدر الإسلام للدكتور عبد الرحمن عبد الكريم ٦٤ ـ ٦٨.

مالك بن فهم، والاشاقر والعتيك واليحمد، ولم تُذْكر أية من هذه العشائر في اليمن، ولكن ذُكِر وجودهم بعد الإسلام في السواحل الشرقية من الخليج العربي. ولعل هذا الوجود يرجع إلى أزمنة سابقة للإسلام ويقترن بنشاطهم في الملاحة. وقد هاجر كثير منهم بعد الإسلام واستوطن البصرة والموصل وخراسان وانضموا إلى الجيش الإسلامي، وكان الأزد في عمان عدة عشائر أهمها اليحمد وحدان، ومالك، والحارث، والعتيك، وجديد(١).

أما بنو سامة بن لؤى فيظهر أن عددهم كان قليلاً، وكانوا يسكنون في المناطق الداخلية، وهاجر كثير منهم بعد الإسلام إلى البصرة واستوطنوها وسكن في عمان بعض بني عبد القيس وكانوا يُسَمَّون الاتلاد(٢).

نظام الحكم

يتبين مما ذكرنا أعلاه أن المناطق الساحلية كانت أكثر ازدحاماً بالسكان، وأكثر نشاطاً في الحياة الاقتصادية. وقد سبب التباين بين المناطق الساحلية والداخلية انقساماً في السكان، وخَلَق بعض العداء بينهم. غير أنه لم يرد ذكرٌ لسيطرة أعجمية على عمان، وكان يحكم عمان عند ظهور الإسلام الجلندي، وهو أزدي تروي المصادر أنه ممن «لبس التاج»، أي أنه كان له نظام سياسي متقدم على المشيخة السائدة في النظام البدوي، وكان يَجْبي العشور من الأسواق في عمان(٣). ولما توفي الجلندي في السنة السادسة أعقبه في الحكم ولداه جيفر وعباد وكان جيفر المقدم على عباد بالسن والملك(٤)، وسماه ابن سعد ملك عمان(٥)

---

(١) معجم ما استعجم للبكري ٧٨٩؛ أحسن التقاسيم للمقدسي ٩٣ صفة جزيرة العرب ٢١١ وانظر ياقوت ٤/ ٣٨٦.

(٢) المعارف لابن قتيبة؛ معجم ما استعجم للبكري ٨٢.

(٣) المحبر ٢٦٥؛ تاريخ اليعقوبي ١/ ٣١٣.

(٤) السيرة الحلبية ٢/ ١٨٤.

(٥) ابن سعد ١ ـ ٢/ ١٨.

الاتصال بالإسلام

وتروي المصادر أن أفراداً من أهل عمان اتصلوا بالرسول وأسلموا، غير أن الاتصال الكبير كان بعد فتح مكة حيث أرسل الرسول (ص) عمرو بن العاص إلى عمان، ولعل إرساله كان استجابة لطلب ابني الجلندى اللذين أرادا الافادة من المكانة الكبيرة التي أصبحت للرسول (ص) بعد فتح مكة، فَحَرَصَا على الارتباط بالإسلام لدعم مكانتهما التي كانت تهددها المعارضة، وقد استجاب جيفر وعباد لدعوة الرسول وأعلنا إسلامهما، فتعزز سلطانهما وغلبا على عمان[١].

غير ان انضمام جيفر وعباد لم يقض على المعارضين لحكمهما، ولم يوجّه الرسول (ص) قوة لاسناد ابني الجلندى في عمان التي كانت بعيدة عن المدينة، فقد كان منشغلاً بتنظيم الدولة التي ازداد توسعها بعد فتح مكة وتركزت معارضة جيفر وعباد حول لقيط بن مالك الذي اتخذ مركزه في دبا واعتمد على أهلها من العتيك، ويروى أنه «كان يسامى الجلندى» وأنه كان قد لبس التاج أيضاً، وانضم إليه بنو جديد[٢]، وأفلح في اقصاء ابني الجلندي من المناطق الساحلية الغنية، والجائهما إلى الجبال وصحار، فاستنجدا بأبي بكر الذي أرسل قوة بقيادة حذيفة بن محصن وعرفجة بن هرثمة، ثم اردفهما بِعِكْرِمة بن أبي جهل[٣]، بعد القضاء على مُسَيْلمة وضم اليمامة إلى حظيرة الإسلام. واستطاعت هذه القوات أن تجلب إليها بعض عشائر عمان من بني جديد وبني ناجية، وتعاونت مع قوات جيفر وعباد، واشتبكت مع لقيط في معركة ودحرته. وبقي حذيفة بعمان ينظم[٤] الأمور بعد أن تثبّت ارتباط عمان بالدولة الإسلامية التي تركت إدارة عمان لآل الجلندي، إلى أن نشطت بعد موت يزيد حركات

(١) ابن سعد ٢ ـ ١٨/١؛ فتوح البلدان ٧٦، المحبر ٧٧؛ الطبري ١/ ١٦٠٠.
(٢) الطبري ١/ ١٩٦٨؛ المعارف لابن قتيبة ٢٩٩.
(٣) الطبري ١/ ١٩٧٧ ـ ٨.
(٤) الطبري ١/ ١٩٧٨.

الخوارج الذين هاجموا حاكم عمان من آل الجلندي وقتلوه وسيطروا على عمان[1].

وعندما استعاد الأمويون السيطرة على الدولة الإسلامية أرسلوا حملة قضت على سيطرة الخوارج في عمان، وأخذوا يُعَيِّنون عليها وُلاةً من قِبَلهم[2].

* * *

(١) الطبري ٣/ ١٩٤٩.

(٢) انتقل كثير منهم إلى السواحل الشرقية من الخليج العربي: انظر الطبري ٣/ ٧٧ ـ ٧٨ معجم البلدان ٢/ ٧١١، وانظر ٤/ ٩٧٤.

الفصل السابع والثلاثون

السمات العامة لحركات الـرّدّة والانشقاق، وأهمية القضاء عليها

يتضح من التفاصيل التي أوردناها عن حركات الانشقاق والردة أن عدداً منها ظهر في حياة الرسول (ص) كحركات المتنبئين في اليمن، وبني أسد، واليمامة، غير أنها بلغت أوج توسُّعها على أثر تَوَلِّي أبي بكر الخلافة إذِ انضافت إليها حركات عديدة متفرقة محلية، تختلف في قوتها وسعتها، فكان بعضها محلياً ضعيفاً تم القضاء عليها وإعادة أصحابها إلى حظيرة الدولة الإسلامية، كالتي حدثت بين العشائر المقيمة في جنوب الحجاز والمناطق الساحلية من اليمن. غير أن بعضها الآخر كان حركات واسعة كالذي حدث في شمال الحجاز وأواسط الجزيرة وشرقِيِّها وجنوبِيِّها، وكانت مصدر خطر كبير لأنها لم تكن مجرد حركات احتجاج على انتخاب أهل المدينة الخليفةَ لرئاسة الدولة الإسلامية، أو مجردَ محاولات انفصالية عن دولة الإسلام وخلافتها في المدينة، وإنما كانت تهدد كيان الدولة الجديدة وتعمل على إزالتها بالقوة. ومع أن دحر أبي بكر لقوات المرتدين في «ذي القصة» قد أمَّن سلامة المدينة، فإن خطر المرتدين ظل قائماً ما دامت قواتهم الرئيسة سليمة، قد تستطيع توسيع قدراتها بمن قد تَضُمُّهم من المرتدين الآخرين لتهديد المدينة وهي مركز الدولة الإسلامية ومقام من عمل على تأسيسها وتثبيتها. ولا ريب في أن تهديدهم قد أيّد رأي أبي بكر في وجوب عدم ترك حرية العمل للمرتدين، وكَشَفَ خطل

رأي من كان يرى عدم استعمال القوة للقضاء على الردة، وكان القضاء عليها لا يعتمد على مجرد القوات المحلية، بل كان لا بد من عمل عسكري حازم تقوم به الخلافة والسلطة المركزية في المدينة للقضاء على تلك الحركات وضم أهل الجزيرة إلى حظيرة دولة الإسلام.

وبعودة جيش أسامة إلى المدينة، توافرت لأبي بكر قوات يمكن استخدامها للقضاء على المرتدين، ولم يتوان أبو بكر في توجيهها للقضاء على أقرب الأخطار تهديداً للمدينة، ثم متابعة القضاء على حركات الرِّدَّة والانشقاق الأخرى وتأمين سيادة الإسلام ودولته على الجزيرة. ويروي الطبري أنه، لما رجع جند أسامة، وثاب مَن حول المدينة، خرج إلى ذي القصة وقَطَع البعوث وعَقَد الألوية، فعقد أحد عشر لواءً.

١ ـ عَقَد لخالد بن الوليد (من مخزوم) وأَمَره بطليحة بن خويلد فاذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح.

٢ ـ ولعكرمة بن أبي جهل (من مخزوم) للتوجه إلى مسيلمة.

٣ ـ وللمهاجر بن أبي أمية (مخزوم) وأَمَره بجنود العنسى ومعونة الأبناء على قيس بن المكشوح ومن أعانه من أهل اليمن عليهم، ثم يمضي إلى كِنْدة وحضْرَموت.

٤ ـ ولخالد بن سعيد بن العاص (أمية) وبعثه إلى الحمقتين من مشارف الشام.

٥ ـ ولعمرو بن العاص (سهم) إلى جماع قضاعة ووديعة والحارث.

٦ ـ ولحذيفة بن محصن (غطفان) وأمره بأهل دبا.

٧ ـ ولعرفجة بن هرثمة (بارق) وأمره بمهرة.

٨ ـ وبعث شرحبيل بن حسنة (حليف بني أمية) في إِثْرِ عكرمة بن أبي جهل.

٩ ـ وعَقَد لطريفة بن حاجز وأمره ببني سليم ومن معهم من هوازن.

١٠ ـ ولسويد بن مقرن (مزينة) وأَمَرَه بتهامة اليمن.

١١ ـ وللعلاء بن الحضرمي (حليف بني أمية) وأمره بالبحرين[١].

ويتبين من هذه القائمة الصحيحة بجملتها، لا بتفاصيلها، أن معظم القادة من اهل مكة، وكثير منهم أسلم بعد الحديبية.

وبالنظر لسعة أرض الجزيرة، وتَبَاعُد أقاليمها، وما تطلبته الأحوال القائمة من الإسراع في إنجاز الواجب المطلوب منهم، فإنه جعل كلاً من هؤلاء القواد يعمل في جبهته بصورة مستقلة، ويعتمد في تحقيق ما أُوكِل إليه من أمر القوات التي وُضعت بتصرفه وما يمكن أن يضمه من المؤيدين والمناصرين في المنطقة التي أرسلوا للعمل فيها، دون أن يتوقع أيٌّ منهم نجدات من القواد الآخرين الذين يترتّب على كل منهم واجب مماثل.

ويتجلى من الأخبار التي وصلتنا أن تحديد جبهات القوات تحكَّمت فيه الأوضاع الجغرافية بالدرجة الأولى، وأن مهماتهم لم تكن متساوية في كبرها، فخالد بن سعيد بن العاص وعمرو بن العاص أوكل إليهما السيطرة على المناطق الواقعة في أطراف بلاد الشام، فنجحا في تحقيق الواجب الذي أوكل إلى كل منهما، اذ لم يرد خبر عن مواجهتهما مقاومة عنيفة أو اشتباكهما في قتال ضار. ومثل هذا الوضع واجهه طريفة بن حاجز وسويد بن مقرن اللذان أرسلا للسيطرة على بني سليم وهوازن، وعلى عشائر تهامة الجنوبية.

أما القواد الذين أُرْسلوا إلى اليمن وكندة وحضرموت، ومهرة، ودبا (عمان)، والبحرين، فكان على كل منهم أن يستعين بالقوات المحلية التي يستطيع حشدها من المسلمين مؤيديه للسيطرة على المنطقة التي توجه إليها، وتطلبت الأحوال أن يستغرق عملهم زمناً أطول.

وقد أدرك أبو بكر خطر مسيلمة في اليمامة، فوجَّه إليه عِكْرِمة بن أبي جهل بن شُرَحْبِيل بن حسنة، ولكن خطر مسيلمة لم يتحقق اجتثاثه إلا بعد أن قَدِم خالد بن الوليد في جيشه.

---

(١) الطبري ١/ ١٨٨١.

ولا ريب في أن الواجب الذي كُلِّفَه خالد بن الوليد كان أخطر الواجبات وأوسعها: فقد كان عليه إزالة الخطر القريب المهدِّد للمدينة مباشرة، ثم الهيمنة على بني تميم الذين، وإن كانوا منقسمين ولا تجمعهم أفكار موجهة، إلا أنهم يسيطرون على أوسع رقعة من أرض الجزيرة، فبقاؤهم خارج الدولة الإسلامية يعرقل هيمنتها على الأقاليم الشرقية، ويكون مصدر خطر عليها.

ويتَّضح من أخبار حوادث الرِّدَّة أن مسيلمة كان مصدر أعنف خطر يهدد وحدة الدولة، وأن خالد بن الوليد قام بأوسع واجب في القضاء على حركات طليحة وبني أسد، وبني تميم، ومسيلمة، وأظهر في إنجازاته كفاءة عسكرية فائقة، كما كشفت الحروب التالية التي خاضها لتوسع الدولة انه أكفأ قائد ميدان أنجبه الإسلام.

وبالرغم من سعة رقعة البلاد، وتباعُد ساحات القتال أو كثرة عدد من تطلبت الدولة معالجة أمرهم، فإن القواد المسلمين قد أفلحوا في القضاء على حركات الانشقاق والخروج والردة، وأعادوا أهل الجزيرة إلى حظيرة الإسلام ودولته بمدة قصيرة، وبقليل من الخسائر في الأرواح، ما عدا الذي حدث في اليمامة.

إن الفضل الأكبر في هذا النجاح العظيم، الذي تحقق في مدة قصيرة، وبخسائر قليلة من الأرواح، يرجع إلى إيمان الخليفة ومَنْ حوله من الصحابة، بمن فيهم القواد والمقاتلين، بسلامة عقائدهم وأهمية رسالتهم واستعدادهم للجهاد والبذل من أجل نشر الرسالة وتثبيت الدولة، فضلاً عن ادراكهم أهمية التماسك والتعاون في تحقيق هذه الأهداف.

ولا يخفى أن المنشقين والمرتدين كانوا مفكَّكين متشرذَمين، لا يجمعهم رابط يوحدهم أو سلطة عليا تنسق حركاتهم، فضلاً عن افتقارهم إلى أفكار صائبة وعقائد سليمة يؤمنون بها، أو مُثُل عليا توجههم. غير أنهم كانوا في حركاتهم وأعمالهم يعبرون عن تصرفاتهم الذاتية الخالية من أي تدخل أجنبي، فرغم أن أهل الجزيرة لم يكونوا معزولين عن العالم الخارجي، وانما كانت لهم بالأقطار الأخرى صلات تجارية وفكرية. إلا أنهم، ما عدا مناطق صغيرة محدودة، لم يكونوا خاضعين لحكم أية دولة أجنبية ولم يتأثروا بتحريضها، ولم يحاولوا الاستعانة بالقوى الأجنبية لدعم مواقفهم أو تَلَقِّي توجيهاتهم منها.

ثم إن هذه الحركات تُظهر أن أهل شبه الجزيرة العربية لم يكونوا، عند ظهور الإسلام، في حالة سبات وجمود، وإنما كانوا يَمُوجون في نشاط سياسي وفكري واسع يتجلى في كثرة ذوي الطموح السياسي فيها، وتعدد الكيانات ونظم الحكم، فضلاً عن اهتماماتهم الواسعة في اللغة والآداب وفنون القول. غير أن نشاطاتهم كانت متفرقة في مواضعها، مفكَّكة وفي حوادثها، خالية من مُثُل عليا سامية، أو طموحات إلى تقوية الروابط العامة التي تجمعهم سياسياً وتغذي طموحهم. فلما تقدمت القوات الإسلامية للقضاء على حركاتهم، كانت غير غريبة عنهم في اللغة والثقافة، ولكنها تميزت عليهم بما كان لها من مُثل عليا واضحة سامية، وبما توافر لها من وحدة سياسية جامعة، وسلطة مركزية عليا موحدة، فلم يكن من الصعب عليها اكتساح حركاتهم وإزالتُها وضمُّهم إلى الإسلام ودولته التي يرتبط أهلها بروابط وثيقة من اللغة والاجتماع، وتقدم لهم مُثُلاً فكرية وأخلاقية وسياسية سليمة موحدة.

أهمية القضاء على حركات الانشقاق والردة

كشفت معالجة أبي بكر لحوادث الردة صلابته وثباته في مواجهة الأخطار المهدِّدة، وفَهْمَه الواسع لأحوال الجزيرة وأهلها، ومواهبه وكفاءته في معالجة الأخطار والتغلب عليها، مما ثَبَّتَ مكانته الشخصية.

أثبت القضاء على حركات الردة والانشقاق المكانة المتميزة للمدينة في شبه جزيرة العرب، وطَمَس الخلافات الداخلية بين أهلها، وقَضَى على البلبلة التي استعرت فيها إِثْر وفاة الرسول، وزاد من ادراك أهلها أهمية السلطة المركزية والخلافة والإسلام، فقوت تكتلهم والتفافهم بهم، وبذلك تَخَلَّص الخليفة من المشاكل الداخلية فتيسرت له فرصة الانصراف إلى معالجة القضايا الواسعة للدولة في شبه جزيرة العرب وتوسيعها.

ويَسَّرت أعمال القضاء على حركات الردة توسيعَ خبرات القادة المسلمين وكشفت مواهبهم فمهدت لاختيارهم لاداء الرسالة الكبرى في توسيع الدولة ونشر راية الإسلام.

وثبّت القضاءُ على حركات الردة مكانة الخلافة، فأصبح الخليفة، عندما يقر انتخابه، هو الرئيس المقرَّر للدولة، وكل تمرد على سلطانه او انشقاق عليه يكون تمرداً على الدولة.

وثَبَّت القضاء على الردة دولة الإسلام في شبه جزيرة العرب التي أصبحت موحدة سياسياً ضمن دولة مركزية موحدة ومنظمة، عليها خليفة واحد، له سلطة عليا تعلو كافة المؤسسات والجماعات والأفراد المقيمين فيها، وله الحق التام في إصدار الأوامر والتوجيهات والتنظيمات الواجبة الطاعة، وهو يقيم في المدينة مع الصحابة الذين عايشوا الرسول (ص) وتشبَّعوا بروح الإسلام، أي أنهم تجمعهم مثل عليا واحدة، وقد تعودوا أساليب العمل مع سلطة عليا تعمل بالاتجاه نفسه، مما عزز رسوخ السلطة المركزية ودعائم الدولة الجديدة.

وبسيادة الإسلام ودولته، أزيلت الوثنية والشرك وما يلتصق بهما، وحَلَّت محلها مُثُلٌ عليا إسلامية في السلوك والاخلاق والتفكير، ورابطة تقوم على العقيدة والفكر والمبادئ الأخلاقية الملائمة للحياة السلمية فأضافت إلى التوحيد السياسي واللغوي عاملاً موحداً جديداً للحياة الاجتماعية والاخلاقية والعقائدية، ودافعا لتنشيط التفكير وتوسيع آفاقه وتنظيم مثله.

وأحلَّت الدولة الجديدة في أرجائها السلم والأمن والاستقرار، وفَتَحت آفاقاً جديدة للعمل المثمر وفرصا واسعة، وخلقت ظروفاً وأحوالاً يؤدي استمرارها إلى تبديل كثير من المؤسسات والنظم القديمة، ويزيد في العمل المنتج وازدهار الحياة الاقتصادية والتجارية القائمة على أسس أخلاقية جديدة تؤمن النمو والتكامل.

ويُسِّرت طاقات بشرية واسعة، ذاتُ كفاءة عسكرية وإدارية، كانت مُهدِّدة للدولة الجديدة فصارت تترابط فيما بينها، وتعمل في ظلها، وبالإمكان استخدامها لتوسيع دولة الإسلام خارج الجزيرة. ولم يتوان أبو بكر عن الإفادة من هذه الأحوال الجديدة، فقام بتوجيه الجيوش لتوسيع الدولة، واكتساح الدول التي كانت تهيمن على بلاد الشرق الأوسط. وسيكون هذا التحرك موضوع كتاب تالٍ.

المحتويات

القسم الثاني
تأمين السيادة في المدينة

القسم الثالث
الجهاد واستخدام السلاح

القسم الرابع
امتداد الاسلام في شبه جزيرة العرب

القسم الخامس
رسالة الإسلام

القسم السادس
حركات التحدي والانشقاق والقضاء عليها

سلسلة تاريخ العرب والإسلام

صدر من هذه السلسلة:

- **الفن العسكري الإسلامي** — تأليف الدكتور اللواء الركن ياسين سويد
- **في تاريخ إسبانيا الإسلامية** — تأليف مونتغمري وات
- **الخليج العربي، بحر الأساطير** — تأليف قدري قلعجي
- **صلاح الدين الأيوبي** — تأليف قدري قلعجي
- **هارون الرشيد** — تأليف د. عبد الجبار الجومرد
- **عمر بن عبد العزيز** — تأليف د. صالح أحمد العلي
- **المصباح المضيء في خلافة المستضيء** — تأليف ابن الجوزي — تحقيق د. ناجية عبد الله ابراهيم
- **نكت الوزراء** — تأليف المؤيد الجاجرمي — تحقيق د. نبيلة عبد المنعم داود
- **أهل الفسطاط** دراسة في تركيبهم القبلي ومراكز إدارتهم — تأليف د. صالح أحمد العلي
- **تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية** — تأليف د. صالح أحمد العلي
- **تاريخ المدن العربية الإسلامية** — تأليف د. عبد الجبار ناجي
- **عُمان في العصور الإسلامية الأولى** — تأليف د. عبد الرحمن عبد الكريم العاني
- **الإدارة في العهود الإسلامية الأولى** — تأليف د. صالح أحمد العلي
- **دولة الرسول (ص) في المدينة** دراسة في تكونها وتنظيمها — تأليف د. صالح أحمد العلي

سيصدر لاحقاً:

- **أدب الوزراء** — تأليف أحمد بن شاذان — تحقيق د. نبيلة عبد المنعم داود
- **الكوفة في صدر الإسلام** دراسة في معالمها العمرانية وتركيب سكانها وتنظيمهم — تأليف د. صالح أحمد العلي
- **الفتوح الإسلامية** — تأليف د. صالح أحمد العلي
- **دراسات في كتابة تاريخ العرب** — تأليف د. صالح أحمد العلي
- **سامراء وأهلها إبان إقامة الخلفاء فيها** — تأليف د. صالح أحمد العلي
- **آراء أبي يوسف الاقتصادية والمالية من خلال كتابه الخراج** — تأليف د. أحمد عبد الرزاق مصطفى
- **الخراج** (أحكامه ومقاديره) — تأليف د. حمدان عبد المجيد الكبيسي

سلسلة تاريخ العرب والإسلام

دولة الرسول ﷺ في المدينة

سيره نبوی ٦ ٣ ١٢

النشر

المؤلف

الأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي:

- ولد في الموصل سنة ١٩١٨.
- حاز شهادة الليسانس في التاريخ، كمتخرج أول، من جامعة القاهرة سنة ١٩٤٥.
- حاز شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة أكسفورد سنة ١٩٤٩.
- حصل على زمالة للبحث لمدة سنة في جامعة هارفرد الأميركية ١٩٥٦-١٩٥٧.
- رئيس مركز إحياء التراث العلمي العربي وكالة ١٩٨٠-١٩٨٢.
- رئيس المجمع العلمي العراقي ١٩٧٨-١٩٩٦.
- رئيس قسم التاريخ بجامعة بغداد وأستاذ مادة التاريخ الإسلامي فيها لحين تقاعده.

له إسهامات عديدة، فهو:

- عضو شرف هيئة كتابة تاريخ العالم في اليونسكو ١٩٨٩ فرنسا.
- عضو مؤازر - مجمع اللغة العربية في دمشق.
- عضو مؤازر - مجمع اللغة العربية في القاهرة.
- عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية - عمان.
- عضو هيئة إعادة كتابة تاريخ العالم الذي تعده اليونسكو ١٩٨٠-١٩٨٩.

تسلّم الجوائز والميداليات التالية:

- جائزة جلال صادق - القاهرة ١٩٤٥.
- جائزة الملك فيصل العالمية في الدراسات الإسلامية - الرياض ١٩٨٩.
- ميدالية أرسطو - منظمة اليونسكو.
- الوسام الذهبي للمؤرخ العربي - اتحاد المؤرخين العرب.
- جائزة سلطان العويس في الدراسات الإنسانية والمستقبلية ١٩٩٩.
- جائزة المجمع العلمي العراقي ١٩٩٩.

له مؤلفات عديدة في المجالات التالية: التأليف التاريخي، التحقيق، الترجمة، الدراسات والأبحاث.

الكتاب

دراسةٌ عن قيام دولة الإسلام في المدينة المنوّرة، وتنظيم هذه الدولة وتطوُّرها، وتوسُّعها، وتثبيتها في شبه الجزيرة العربية، في حياة الرسول ﷺ، وما هو وثيق الصلة بها ممَّا حدث في خلافة أبي بكر الصديق ﵁.

ولا يشمل هذا الكتاب حياة الرسول ﷺ بكل جانب من جوانبها الغَنيَّة، الحافلة بالمعاني والأبعاد، بل يقتصر، اختياراً، على جوانب معيَّنة ترتبط بإقامة الدولة وتنظيمها وما يتصل بها من شؤون العباد والبلاد.

لم تَقْتَصِر الدراسة على سَرْد الأحداث السياسيَّة والوقائع الحربية، كأحداث ووقائع معزولة، بل أدرجتها في الأوضاع العامة القائمة وربطتها بها، وأظهرت ما لَقِيَتْه المشكلات الاجتماعية والإدارية والأخلاقية المطروحة آنذاك من معالجة. مع إشارة مهمة مضمونها: أن المؤلف قد اجتنب المبالغات التي وقع فيها بعضُ المؤرخين المتأخِّرين، والتوجُّهات المُقَوْلَبة التي حاولوا إسقاطها على هذه الحِقْبة المجيدة من تاريخ الإسلام. وكان رائدُه: أن يعرض الحقيقة كما تُثبتُها الوثائق التي بها يُكتَب التاريخ. وإذا كانت الوقائع التي وصَفها المؤلِّف في كتابه وقائع معروفة، في كثيرٍ منها، فإنَّ ما يُضفي على عَرْضها من الأهمية إنما هو توثيقُها وتنزيلها في سياق عام شامل ترسُمُه حياةُ المسلمين في الحقْبة التي يتناولها الكتاب، وما تتكوَّن منه هذه الحياة من عواملَ دينية واجتماعية وسياسية...

هذا الكتاب يُشكِّل وثيقة للمؤرخين، ومرجعاً للباحثين وأساتذة الجامعة والطلاب.